الروض الفائق

في المواعظ والرقائق

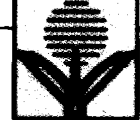


شعيب بن سعد الحريفيش

دار المعرفة
بيروت . لبنان

الطبعة الاولى : 1425 هـ 2004 مـ
ISBN 9953-429-77-4

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing



دار المعـــرفـــة
للطبـاعـــة والنشــر والتـوزيــع

جسر المطار- شارع البرجاوي - ص ب:٧٨٧٦ ،هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٢٠ ، فاكس ٨٣٥٦١٤، بيروت - لبنان
Airport Square, P.O.Box :7876,Tel : 834301 , 858820, Fax : 835614 , Beirut - Lebanon
http: // www.marefah.com/ E.mail: info@marefah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الوعظ فن شريف هدفه تطهير القلوب وتصفيتها من أدران الذنوب والمعاصي التي ما زالت تكتنف البشر من لدن آدم عليه السلام وحتى يومنا هذا ، وهذا الفن يستند إلى أسس دينية عظيمة : القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وكلام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وحكايات الصالحين والأولياء والعباد والزهاد ، ولو أردنا أن نفتش عن البدايات الأولى لنشأة هذا الفن لوجدناه عند سيد الوعاظ والزهاد الحسن البصري رضي الله عنه فقد وجد هذا التابعي الجليل أن الناس في زمانه قد انشغلوا عن آخرتهم بدنياهم ، وغرّتهم الحياة الدنيا واستطابوا العيش بها وانصرفوا عن العمل للآخرة فقام هذا التابعي الجليل بإسداء النصح والإرشاد لهم علّهم يتوبوا عن المعاصي ويرجعوا إلى دينهم وقد سار في هذا الركب ، ركب الوعظ علماء كثيرون ، كان هدفهم كما ذكرنا هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق القويم ، ومن هؤلاء شعيب الحريفيش مؤلف هذا الكتاب الذي لم يأل جهداً في جمع الكثير من حكايات الصالحين والأولياء والزهاد التي ـ وكما يقول ـ تروق للسامع وتلتذ بها المسامع وتنشىء الخشوع ، وترسل الدموع .

وإحساساً منا بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقنا ـ وهي نشر العلم النافع الذي يأخذ بيد صاحبه إلى الطريق الصحيح ـ فقد قمنا بإعادة طباعة هذا الكتاب وإخراجه بحلة قشيبة ، راجين من الله سبحانه وتعالى أن يتقبل عملنا هذا خالصاً لوجهه وأن ينفع به كل من قرأه ، إنه سميع مجيب .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ

(قرآن كريم)

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهذا كتاب [الروض الفائق ، في المواعظ والرقائق] يشتمل على خطب وتنزيهات وأحاديث مرويات ، وقصائد وحكايات ، ورقائق ووعظيات ، ومناقب الصالحين ، وذكر المشايخ العارفين ، وتذكير أهل الذنوب والآثام ، وإيقاظهم من الغفلة والمنام ، ووشيته بذكر سيد المرسلين ، ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ، ورصعته بقصائد من نظم الأولياء ، وإشارات من كلام الفضلاء ، تروق السامع ، وتلتذ بها المسامع ، وتنشىء الخشوع ، وترسل الدموع ، وقصدت بذلك رحمة أرحم الراحمين ، والنفع لكافة المسلمين : للعبد الظالم لنفسه المعترف بذنبه : الراجي رحمة ربه [شعيب الحريفيش] غفر الله له ولوالديه ، ولمن دعا لهم بالرحمة والمغفرة آمين .

المجلس الأول

في فضل الصلاة على النبي ﷺ ، وفضل بسم الله الرحمن الرحيم

اعلموا يا إخواني : أن هذه بضاعتي ، وها أنا أعرضها عليكم فمن رأى خيراً فليحمد الله تعالى وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ومن رأى غير ذلك فليقل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فإنها جبر لنقص المقصرين ، ولقلوب المنكسرين ، وقد ورد في صحيح السنة ، أنها كنز من كنوز الجنة .

واعلموا يا إخواني : أنه ما سلم من النقص والخلل ، والخطايا والزلل : إلا النبي ﷺ المفضل ، والرسول المبجل ، صاحب الوصف الأكمل ، والقدّ الأعدل ، وما صح الفضل والكمال ، إلا لمن جمعت فيه أشرف الخصال ، الذي أوتي جوامع الكلم وخص بالفضل والعلم والعقل والأنفال .

وهو الذي قد حاز كل الكمال وخص بالفضل وحسن المقال
وهو الذي قد جاءنا رحمة مفرقاً بين الهدى والضلال
محمد المبعوث من هاشم أفضل من حاز جميع الخصال
صلى عليه الله طول المدى ما عطر الكون نسيم الشمال

[عباد الله] : ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً » .

[إخواني] : أحضروا قلوبكم ، وتفكروا وميزوا بعقولكم وانظروا من هو الذي يصلي عليكم ويكافئكم ويجازيكم بالصلاة الواحدة عشرة ، فأي ربح أعظم من هذا الربح ، وأي تجارة أربح من هذه التجارة ؛ فيا معشر التجار والراغبين في كسب الدرهم والدينار ، لو قيل لأحدكم البلد الفلاني فيه بضاعة تكسب الدرهم درهمين ، والدينار دينارين لسارعتم إليها وتزاحمتم عليها ، وبذلتم فيها المجهود بالمزايدة لما فيها من الربح والفائدة ؛ فكيف لكم بهذه البضاعة الرابحة ، والتجارة الناجحة التي أخبركم بها الصادق الأمين عن رب العالمين أنكم كلما صليتم على نبيكم صلاة واحدة صلى الله عليكم بها عشرة ، فانظروا هذا الربح واجنوا هذه الثمرة ، وينشد في المعنى :

من عامل الله لم تخسر تجارته وكل قلب خراب بالتقى عمره
وما تصلي على المختار واحدة إلا عليك يصلي ربه عشره

فاغنم صلاتك يا هذا عليه تفز   بالربح عند إلّه فاز من شكره

فيا معشر الفقراء الصادقين الكبراء ، منكم استفدنا ، وعنكم روينا ، وبكم رحمنا ، والله ما عرّضت بذكركم لكوني آمركم وأنهاكم ، وإنما تمثلت بقول القائل : أحياء القلوب ارحموا أموات القلوب ، ويكفيكم شرفاً وفخراً أن الله تعالى قد مدحكم في كتابه وشرفكم بخطابه فقال تعالى :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾

[البقرة : ٢٧٣] ويهنيكم أن ذكركم رسول الله ﷺ فقال : « يا معشر الفقراء اصبروا حتى تلقوني على الحوض فإنكم أول زمرة ترد عليّ » فسبحان من أعطاكم وكمل لكم السرور وحباكم وبلغكم القصد والسول بقول هذا السيد الرسول ﷺ : « فقراء أمتي تدخل الجنة قبل أغنيائها بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام يأكلون ويشربون ويتنعمون والناس في كرب الحساب » فسبحان من رفع لهم قدراً ، ونشر لهم ذكراً ، وأعطاهم صبراً ، وضاعف لهم ثواباً وأجراً ، وما أحسن ما قال فيهم غلامهم الحريفيش :

هم الفقراء أهل الله حقا   وقد حازوا بضيق الفقر فخرا   هم الفقراء قد صبروا وأوذوا
فعوضهم بذاكَ الصبر أجرا   هم الفقراء والسادات حقاً   ومنهم تكتسى الأكوان عطرا
هم الفقراء عنهم فارو ذكرا   وحدث عنهمو سراً وجهرا   فكم صبروا على ضيم الليالى
فعوضهم بذاك الكسر جبرا   وقد زاروا الحبيب وشاهدوه   وقد سجدوا له حمداً وشكرا

فيا أيها الفقراء : بالذي أنعم عليكم وزاد في الإحسان إليكم إنا لنشتهي أن تجبرونا وتوافقونا وترفعوا أصواتكم معنا بالصلاة على النبي ﷺ فإن من صلى عليه صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً . فهذه تسعة زائدة فأيّ ربح أعظم من هذا ، وأيّ فائدة ؟ . قال ﷺ : « من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، ومن صلى عليّ عشراً صلى الله عليه مائة ، ومن صلى عليّ مائة صلى الله عليه ألفاً ، ومن صلى عليّ ألفاً زاحمت كتفه كتفي على باب الجنة » .

[**إخواني**] فماذا عسى أن يصف الواصف أو يقول ، وقد قال المصطفى الرسول الذي بين الكتاب والسنة : « من صلى عليّ ألفاً زاحمت كتفه كتفي على باب الجنة » :

صلوا على الهادي البشير محمد   تحظوا من الرحمن بالغفران
فالله قد أثنى عليه مصرحاً   في محكم الآيات والقرآن

وقيل : إنه من صلى عليه وهو قائم غفر له قبل أن يجلس ، ومن صلى عليه وهو قاعد غفر له قبل أن يقوم ، ومن صلى عليه وهو نائم غفر له قبل أن يستيقظ من منامه ، وذلك أن العبد إذا عاش ما شاء الله وكان على غير التوحيد ، فإذا أراد الله به خيراً ألهمه كلمة الشهادة فيأتي

بعض المسلمين إليه فيلقنه الشهادة ويكررها عليه ثم يقول بعد ذلك : صلّ على النبي ﷺ ، فإذا فعل ذلك وحسن إسلامه وصلى على النبي ﷺ فإن كان قائماً غفر له قبل أن يقعد ، وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم :

صلوا على خير الأنام محمد   إن الصلاة عليه نور يعقد   من كان صلى قاعداً يغفر له

قبل القيام وللمتاب يجدد   وكذاك إن صلى عليه قائما   يغفر له قبل القعود ويرشد

وقِيل : إنه من صلى على النبي ﷺ في نومه غفر له قبل أن يستيقظ كما جرى لأم أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . أتى النبي ﷺ ومعه أمه وكان في أول الليل فتحدث النبي ﷺ مع أبي بكر وطاب لهم الحديث فدخل الليل ونامت أم أبي بكر ، فلما أراد الانصراف قال النبي ﷺ لأبي بكر : كيف حالك ؟ فقال : بخير يا رسول الله غير أن هذه أمي وليس لي عنها غنى فادع الله لها يا سيد الأنام أن يلهمها الإسلام ، فبسط النبي ﷺ يديه وهمهم بشفتيه ودعا لها ، فقال بعض من كان حاضراً : والله لقد سمعناها تنطق بالشهادة وكلمة الإخلاص وهي نائمة ، فلما استيقظت رفعت صوتها وقالت : أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله . فهذه يعني أم أبي بكر غفر لها قبل أن تستيقظ تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ ، ومثل هذا جرى كثيراً لمن كان على غير الإسلام فيرى النبي ﷺ في المنام فيسلم على يديه ويصلي عليه فينتبه وقد غفر له :

هنيئاً لعين قد رأت نور أحمد   وفازت جهاراً منه بالحسن والرؤيا

وقد أسعد الرحمن عبداً دعا له   فأضحى سعيداً في الممات وفي المحيا

وبدل دين الشرك بالنور والهدى   وبلغ ما يهوى من الدين والدنيا

وفاز برؤيا المصطفى سيد الورى   نبي حباه الله بالرتبة العليا

عليه صلاة الله ما طاف طائف   بمكة بيت الله قصداً أتى سعيا

صلاة شذاها عطر الكون جهرة   فمن قاسها بالمسك يوماً فما استحيا

[وقال بعض الصوفية] : كان لي جار مسرف على نفسه لا يعرف من سكره يومه من أمسه ، وكنت أعظه فلا يقبل ، وآمره بالتوبة فلا يفعل ؛ فلما مات رأيته في المنام في أرفع مقام ، وعليه من حلل الجنّة لباس الإعزاز والإكرام فقلت له : بمَ نلت هذه المنزلة والمقام ؟ فقال : حضرت يوماً مجلس الذكر فسمعت المحدث يقول : « من صلى على النبي ﷺ ورفع صوته وجبت له الجنة » ثم رفع المحدث صوته بالصلاة على النبي ﷺ ورفعت أنا صوتي معه ورفع القوم

أصواتهم فغفر لنا جميعاً في ذلك اليوم فكان نصيبي من المغفرة أن جاد عليّ مولاي بهذه النعمة :

يا فوز من صلى عليه فإنه ... يحوي الأماني بالنعيم السرمدي
إن شئت من بعد الضلالة تهتدي ... صلي على الهادي النبيّ محمد
يا قومنا صلوا عليه لتظفروا ... بالبشر والعيش الهنيّ الأرغد
ويخصكم ربّ الأنام بفضله ... والفوز بالجنات يوم الموعد
صلى عليه الله جلَ جلاله ... ما لاح في الآفاق نجم الفرقد

ومن فضائل الصلاة على النبيّ ﷺ أن امرأة كان لها ولد مسرف على نفسه ، وكانت تأمره بالخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر والقضاء غالب عليه فمات وهو مصرّ على ما كان عليه فحزنت عليه أمه حزناً شديداً حيث مات على غير توبة فتمنت أن تراه في المنام فرأته وهو يعذب فازدادت عليه حزناً . فلما كان بعد مدة رأته وهو على هيئة حسنة في فرح وسرور فسألته عن حاله وقالت : يا ولدي إني رأيتك تعذب فبم نلت هذه المنزلة ؟ فقال : يا أماه اجتاز رجل مسرف على نفسه بالتربة التي أنا فيها فنظر إلى القبور وتفكر في البعث والنشور واعتبر بالموتى فبكى على زلته ، وندم على خطيئته ، وتاب إلى الله عزّ وجل ، وعقد التوبة معه أن لا يعود ففرحت بتوبته ملائكة السماء ، فيا لله ما أحسن الصلح مع الحبيب ثم إنه لما تاب وعلم الله صدق توبته وتاب عليه قرأ شيئاً من القرآن وصلى على النبي ﷺ عشرين مرة وأهدى ثوابها لأهل التربة التي أنا فيها فقسم ثوابه علينا فنالني من ذلك خير فغفر الله لي به وحصل لي من الخير ما ترين .

فاعلمي يا أماه أن الصلاة على النبي ﷺ نور في القلوب ، وتكفير الذنوب ، ورحمة للأحياء والأموات :

ولأحمد فضل لا يحدّ ولا يحصى ... ومن شأنه بين الورى أبداً يقصى
هو القرشيّ الهاشمي الذي سرى ... من المسجد الأسنى إلى المسجد الأقصى
نبيّ دنا من قاب قوسين مذ دنا ... فسبحان من وصى إليه بما وصى
عليه صلاة لا انتهاء لوصفها ... من الله رب لا تحدّ ولا تحصي

فسبحان من شرف سيد المرسلين على جميع المخلوقين ، وجعله بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، وآتاه فضلاً عظيماً وخلقاً كريماً ، وداوى به أمراض الجهالة والضلالة قلوباً وجسوماً ، وبلغه المراد ، وهدى به العباد صراطاً مستقيماً ، وقال في حقه تعظيماً لنا وتبجيلاً له وتعظيماً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾

[الأحزاب : ٥٦] .

الله زاد محمـــداً تكريمـــا وحباه فضلاًمن لدنه عظيما واختـاره في المرسـلين كريمـا
ذا رأفـــة بـــالمؤمنين رحيمـــاً صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

يا أمة الهادي خصصتم بالوفا بين الورى والصدق أيضاً والصفا صلوا على الهادي النبي المصطفى
فـــالله قـــد صـــلى عليـــه قـــديماً صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

فمتى أرى الحادي يبشر باللقا ويضمنا باب المحصب والنقا وأرى ضريح المصطفى قد أشرقا
مـــولى رحيمـــاً لا يـــزال حليمـــاً صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

ثم الرضا عـن آلـه الكرمـاء وكذاك عـن أصـحابه الخلفـاء فهمو همو ديني وعقد ولائي
قومـــاً تـــراهم في المعـــاد نجومـــاً صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

ثم إن أول ما فاه به اللسان ، واستفتح به الإنسان اسم الملك المنان الـذي أخبرنـا بـه سـيد الأكوان بقوله : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجـذم » أي مقطـوع البركة في كل آن ، إذ اسم الله تعالى يعبق به كل مكان ، وهو نور البهجة في السرور والعيان ، وحرز مانع وأمان . وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع ، وقيل أجذم » ومعناه ناقص قليـل البركـة . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير الناس وخير مـن يمشـي علـى وجـه الأرض المعلمـون ، فـإنهم كلمـا خلـق الـدين جـدّدوه أعطـوهم ولا تستأجروهم فإنه إذا قال المعلم للصبي قل : بسم الله الرحمن الـرحيم كتـب الله بـراءة للصـبي وبراءة لأبويه من النار وبراءة للمعلم » . وقال جابر بن عبد الله : « لما نزلت بسم الله الـرحمن الرحيم هرب الغيم من المشرق إلى المغرب ، ومـاج البحـر وأصـغت البـهائم بأذنيهـا ورجمـت الشياطين وحلف الله بعزته لا يسمى اسمه على شيء إلا بارك عليه ، ومن قرأ بسم الله الرحمن الرحيم دخل الجنة » :

اســم إذا قـــرع القلـــوب تمايلـــت طربـــاً وأنمـــت بـــالتقى أســـرارها
وإذا حـــدا الحـــادي بطيـــب حديثـــه طابـــت وفاحـــت بالرضـــا أزهارهـــا
ترتـــاح إن ذكـــر اسمـــه ويهزهـــا طربـــاً إذا حفـــت بـــه أوكارهـــا
وإذا ابتـــدأت بـــذكره في حضـــرة حضـــر الســـرور بهـــا وطـــاب مزارهـــا

وروى مسلم في صحيحه والنسائي والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر بسم الله عند دخوله ، قال الشـيطان لا مبيـت لكـم ولا عشـاء ،

وإذا دخل ولم يذكر بسم الله عند دخوله ، قال الشيطان أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال الشيطان : أدركتم المبيت والعشاء » فاسم الله تعالى يطرد الشيطان ، ويدّر البركة في المكان ، وبسم الله الرحمن الرحيم لها فضائل كثيرة وبركات غزيرة ؛ فلو أن أهل السموات والأرض يكتبون فضائل بسم الله الرحمن الرحيم لم يدركوا عشر عشر فضلها :

كرر عليّ الذكر من أسمائه   واجل القلوب بنوره وضيائه

اسم به الكون استفاد ضياءه   في أرضه وفضائه وسمائه   لا يحصر الوصاف بعض صفاته
كلا ولا يدرون كنه سنائه   حارت عقول القوم عند صفائه   ضاءت قلوب الخلق من لألائه
يارب بلسمك أرتجي منك الرضا   والعفو عن عبد رزي بخطائه   أعد اسمه للعارفين تلاوة
تلقى به المعروف من آلائه   يا رب أسألك الإعانة في غد   بعظيم اسمك فهو عين دوائه

يا رب عبدك قد براه سقامه   قد حارت الأفكار في أدوائه
يا رب باسمك أرتجي منك الشفا   أنت المرجى دائماً لشفائه
يا رب بالهادي البشير المصطفى   الصادق المصدوق في أنبائه
ارحم غريقاً في بحار ذنوبه   وأجره حقاً من قيود عنائه
يا رب صلّ على النبيّ محمد   ما لاح برق في دجى ظلمائه

المجلس الثاني

يشتمل على قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ﴾ [الرَّحْمن : ١ ـ ٢]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العطوف الرؤوف المنان . الكريم القديم الإحسان . العلي الغني القوي السلطان . الأول ولا أزمان . الآخر ولا أكوان . الباقي ولا إنس ولا جان . الذي كتب بأقلام الأحكام في ألواح أرواح الأنام . آيات التوحيد والإيمان . أوقد مصابيح التوفيق ، لقلوب أهل التصديق ، فرأوا جمالاً لا يمثل للعيان ، ولا يخيل للجنان ، أخرج ذرية آدم بأرض نعمان ، وقسمهم إلى ذي حظ وحرمان ، فكم حقير رفع ، وكم عزيز هان ؟ صفى أسرار قوم ،

وكدر أسرار آخرين وشان . فأهل الكدر يتعادون وأهل الصفاء يتهادون ، ويتداعون كالإخوان ، ويتلاقون بالقلوب وإن تباعدت الأوطان ، ويتعارفون بالغيوب فتحنّ إليهم القلوب ، وتتعاطف وإن لم ينطق اللسان ، ويتلاقون بالإخلاص للضمائر ، وإن نأى بهم المكان . ويحذر بعضهم بعضاً مواطن الإثم والخسران . ويتواسون بالبر والإيثار والفضل والإحسان . كما أمرهم بذلك خالق الخلق ومكون الأكوان . فقال تعالى في محكم القرآن : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ [المائدة : ٢] فسبحان من أظهر أسرار البيان . في تعليم تعظيم الرحمن علم القرآن . كتب مسطور الإلهام ، بقلم الإفهام ، في تعليم خلق الإنسان : علمه البيان . دبر الأدوار بمقدار الأقدار ، في تكوير النهار على الليل والليل على النهار ، والشمس والقمر بحسبان . يسبحه الحجر والمدر ، والشمس والقمر والنجم والشجر يسجدان ، أظهر آثار صنعه لأبصار أهل معرفته، فكبا جواد العقل في بيداء قدرته ، التي أبدعها لما علم أن السماء رفعها ووضع الميزان ، فالخائفون واقفون على أقدام الألطاف ، متصفون بأحسن الأوصاف ، يناديهم منادي العدل والإنصاف : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] والعارفون محافظون على ملازمة الخدمة تحقيق تصديق وعد ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] فهم في محاريب عبادتهم يتمايلون وقت السحر ميل الشجر بالأغصان ، هز الشوق أفنان قلوبهم فتناثرت الأفنان ، فاللسان يضرع والقلب يخشع ، والعين تدمع ، والوقت بستان . خلوتهم بالحبيب تشغلهم عن نعم ونعمان ، سرورهم أساورهم والخشوع تيجان ، خضوعهم حلاهم بدرّ ومرجان ، باعوا الحرص بالقناعة فما ملك أنوشروان ، طالت عليهم أيام الحياة ، والمحب إلى الحبيب ظمآن ، فإذا وردوا القيامة تلقاهم بشير لولاه ما طابت الجنان ﴿ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ ﴾ [التوبة : ٢١] فتلمح بعين البصيرة أيها الإنسان ، واجْلُ مرآة السريرة تر البرهان ، أين أنت منهم ما نائم كيقظان ، كم بينك وبينهم ، أين الشجاع من الجبان ، ما للمواعظ فيك موضع والقلب بالهوى ملآن ، قف على باب الحبيب وقوف ولهان ، ونكس رأس الحياة تنكيس ندمان ، واركب سفينة الصدق فهذا الموت طوفان ، أفق من خمار الهوى ، فإلى متى أنت بخمار الهوى سكران . أتبيع ما يبقى بما يفنى ! هذا والله عين الخسران ، تالله لو أشرفت على وادي الرجاء لرأيت الأبطال والفرسان ، ولو مررت على ركائب الأحباب لسمعت حداة الأظعان ، ولو وقفت على طريق الأحباب لشاهدت الركبان :

يا غافلاً يتمادى في اللهو كم هذا الزلل ... غدا عليك ينادي يا ناكثاً خوان
لا تغترر بالدنيا فليس هي دار البقا ... الدار دار الآخرة فجدّ في البنيان
أبناء عشر تواصوا بالخير فيما بينكم ... فالخير لا شك عادة من الصغر قد بان
أبناء عشرين جدوا واستغنموا شبابكم ... ما دام غصن الشبيبة لكم رطب ريان
يا بْنَ الثلاثين بادر إلى الممات فربما ... تأتي المنايا بغتة وتحرم الإمكان
وأنت ماذا عذرك ذا الوقت يابْنَ الأربعين ... وقد بلغت أشدك فاسبق إلى الإحسان
أبناء خمسين هذا وقت الرجوع عن الزلل ... فليس بعد الزيادة شيء سوى النقصان
أبناء ستين كونوا من المنون على حذر ... فما أحد قد يعطى من المنون أمان
أبناء سبعين وافى جيش المشيب وما بقي ... للزرع غير حصاده وينشر الديوان
يابْنَ الثمانين قل لي في الدهر ماذا تنتظر ... قد حان وقت رحيلك وشالت الركبان
أبناء تسعين فوزوا فقد كتب توقيعكم ... من ربكم بالإنابة والعفو والغفران
وأنت يا بْنَ المائة قد حان وقتك ما بقي ... غير التوجه إلى الله في السر والإعلان
قد حان وقت رحيلك فقم تجهز للسفر ... وحصل الزاد كي لا تجي غداً ندمان

قال أبو إسحق إبراهيم الخواص رحمة الله تعالى عليه : كنت في طريق مكة أسير على الوحدة فتهت عن الطريق فكنت أمشي يومين وليلتين حتى أدركني المساء فاغتممت بسبب الوضوء وفقد الماء وكانت ليلة مقمرة فسمعت صوتاً ضعيفاً يقول : إليّ يا أبا إسحق فدنوت منه ، فإذا هو شاب حسن الشباب نظيف الأثواب ، وعند رأسه ريحان مختلف الألوان ، فتعجبت من ذلك في تلك البرية كيف عنده الرياحين وهو مطروح على الرمل وليس له حركة ، فقال لي : يا أبا إسحق قد دنت وفاتي وإني سألت الله تعالى أن يحضر وفاتي وليّ من أوليائه فنوديت أن سيحضر وفاتك أبو إسحق الخواص وإني لأرجو أن تكون أنت وأنا منتظرك ، فقلت : يا أخي ما الذي حبسك ؟ فقال : كنت بين أهلي في عز ورقة عيش فخطر لي السفر واشتهيت الغربة فخرجت من مدينة شمشاط أريد الحج فوقعت في هذه البقعة منذ شهر ، وقد حضرت الوفاة ، فقلت له : ألك والدان ؟ قال : نعم وأخت صالحة ، فقلت : هل اشتقت إليهم قط أو خطروا ببالك ؟ قال : لا إلا اليوم فإني أحببت أن أشم منهم رائحة وأجدد بهم عهداً فاجتمعت عندي وحوش كثيرة وأتوني بهذه الرياحين وبكوا معي ، فبقيت متحيراً في أمره متفكراً في حاله ، ووقع الشاب في قلبي وانجذب إليه سري . فبينما أنا كذلك إذ أقبلت حية عظيمة ، ومعها باقة نرجس لم أر أحسن منها ولا أزكى رائحة فوضعتها عند رأسه ، وقالت بلسان فصيح : يا إبراهيم اعدل عن ولي الله ، فإن الحق سبحانه وتعالى غيور ، قال : فلحقني حال مما رأيت

وصحت صيحة وغشي عليّ فما أفقت إلا والشاب قد فارق الدنيا ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، هذه محنة عظيمة كيف أصنع في غسله وتجهيزه فأرسل الله عليّ النعاس حتى تملكني فنمت فما أفقت إلا طلوع الشمس ، وأنا على الحالة التي أعرفها ولم أجد للشاب أثراً فبقيت محزوناً عليه ، فلما قضيت الحج أتيت شمشاط فاستقبلني نساء عليهن مرقعات وفي أوائلهن امرأة عليها مرقعة وثوب شعر وبيدها ركوة ، وهي لا تفتر عن ذكر الله تعالى فتأملتها فما رأيت واحدة في النساء أشبه للشاب منها فنادتني : يا أبا إسحق أنا في انتظارك منذ أيام حدثني عن أخي قرة عيني وثمرة فؤادي ، ثم بكت وارتفع بكاؤها وبكيت لبكائها فوصفت لها الشاب وما شاهدت منه ومن الرياحين ، فلما بلغت إلى قوله : أحببت أن أشم منهم رائحة ، قالت : هاه هاه بلغ الشم بلغ الشم بلغ الشم ثم سقطت إلى الأرض ميتة فاحتوشها أترابها وأصحابها ، وقالوا : يا أبا إسحق جزاك الله خيراً ، فلما دفنت أقمت على قبرها إلى الليل فرأيتها في المنام وهي في روضة خضراء والشاب عندها وهما يقرآن : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١] .

قوم إذا عبث الزمان بأهله ... كان المفر من الزمان إليهم
وإذا أتيتهم لدفع ملمة ... جادوا عليك بما يكون لديهم

[**وحكى**] عن الشبلي رحمة الله تعالى عليه أنه رأى في بعض الأيام مجنوناً والصبيان يرمونه بالحجارة ، وقد أدموا وجهه وشجوا رأسه ، فجعل الشبلي يزجرهم عنه قالوا : دعنا نقتله فإنه كافر يزعم أنه يرى ربه ويخاطبه . فقال : كفوا عنه ، ثم تقدم إليه الشبلي فوجده يتحدث ووجهه يضحك ويقول : أجميل منك تسلط عليّ هؤلاء الصبيان ! ثم قال : ما الذي يقولون عني ؟ قلت : يقولون تزعم أنك ترى ربك ويخاطبك فصرخ صرخة عظيمة ، ثم قال : يا شبلي وحق من تيمني بحبه وهيمني بقربه لو احتجب عني طرفة عين لتقطعت من ألم البين ، قال الشبلي : فعلمت أنه من الخواص أرباب الإخلاص ، فقلت له : حبيبي ما حقيقة المحبة ؟ فقال : يا شبلي لو قطرت قطرة من المحبة في البحار أو وضعت ذرة منها على الجبال لصارت هباء منثوراً ، فكيف بقلب كساه الغرام قلقاً وزفيراً ، وزاده الهيام حرقاً وتحسيراً :

كشف الحبيب لمن دعاه ستورا ... وسقاه كأساً فاغتدا مخمورا
واعتاده حر اللهيب ولم يرد ... إلا الحبيب فنال منه حبورا
يا فوز من كان الحبيب نديمه ... وغدا إليه في الجميع مشيرا
وإذا رأيت محبه في سكره ... خلع العذار رأيته معذورا
من ذا يطيق الصبر عن محبوبه ... حاشى المحب يكون عنه صبورا

[إخواني] المحبة حبة بذرت في أرض القلوب ، وسقيت بماء التوبة من الذنوب ، فأنبتت سنابل المحبة في كل سنبلة مائة حبة ، فلو وضعت حبة منها لأطيار القلوب لهامت في هوى المحبوب فللّه درّ رجال ما تركوا في قلوبهم لغير محبوبهم مجال :

عج بالمعالم والربوع … واسأل بهن عن الرجوع
أين الذين عهدتهم … يا دار في العز المنيع
والنهي والأمر المطا … ع بذروة القصر الرفيع
إن لم تجبك ديارهم … يا صاح بالأمر الفظيع
فلسان حالهم يقول … ما تنظرن إلى الجموع
قد أصبحت مهجورة … من بعد منظرها البديع
هيهات أن ينجو غداً … يوم الحساب سوى المطيع

فللّه درّهم من أقوام مالوا إلى الله وتركوا المال وأعرضوا عن الدنيا شغلاً بالمآل ، واعتبروا بمن مضى وتغير الأحوال ، وساعدهم على اليقظة أكل الحلال .

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : مررت يوماً ببعض الأسواق فرأيت جنازة محمولة على أربعة أنفس ، وليس معها أحد ، فقلت : والله لأكونن خامسهم لأنال الأجر والثواب ، فلما أتوا الجبانة قلت : يا قوم أين وليّ هذا الميت فيصلي عليه ، فقالوا : يا شيخ كلنا في الأمر سواء ليس منا أحد يعرفه فتقدمت وصليت عليه وأنزلناه في لحده وحثونا عليه التراب ، فلما هموا بالانصراف قلت لهم : ما شأن هذا الميت ؟ فقالوا : لا نعرف خبره غير أن امرأة اكترتنا لنحمله إلى هذا المكان ، وهي لاحقة بنا الآن . فبينما نحن في الحديث إذ جاءت امرأة عليها سيما الخير والصلاح وهي باكية العين حزينة القلب ، فلما وقفت على القبر كشفت وجهها ، ونشرت شعرها ، ورفعت يدها إلى السماء وهي تتضرع وتقول كلاماً وتدعو ساعة ، ثم سقطت إلى الأرض مغشياً عليها ، ثم أفاقت بعد ذلك وهي تضحك ، فقلت لها : أخبريني عن خبرك وخبر هذا الميت وكيف الضحك بعد ذلك البكاء الشديد ؟ فقالت : من أنت ؟ فقلت : ذو النون ، فقالت : والله لولاك من أعيان الصالحين لما أخبرتك ! هذا ولدي وقرّة عيني كان تائهاً بشبابه ، لابساً ثياب إعجابه ، لم يدع سيئة إلا ارتكبها ، ولا معصية إلا سعى إليها وطلبها ، وقد بارز مولاه العلام بالمعاصي والآثام ، فحصل له يوماً من الأيام ألم من الآلام منذ ثلاثة أيام ، فلما عاين الموت قال : يا أماه : سألتك بالله إلا ما قبلت وصيتي : إذا أنا مت فلا تعلمي بموتي أحداً من أصحابي وإخواني ولا من أهلي وجيراني فإنهم لا يترحمون عليّ لسوء فعلي وكثرة ذنوبي وجهلي . ثم بكى وقال :

لي ذنوب شغلتني … عن صيامي وصلاتي
تركت جسمي عليلاً … مات من قبل وفاتي
ليتني تبت لربي … من جميع السيئات
أنا عبد يا إلهي … هائم في الفلوات
بحت جهراً بعيوبي … وذنوبي قاتلاتي
قد توالت سيئاتي … وتلاشت حسناتي

ثم بكى وقال : يا أماه آه على ما فرطت في جنب الله ، آه على قلبي ما أقساه ، بالله عليك يا أماه إذا أنا مت فضعي خدي على الأرض والتراب وضعي قدمك على الخد الآخر ، وقولي : هذا جزاء عبد عصى مولاه ، وخالفه وترك أمره واتبع هواه ، فإذا دفنتني فارفعي يدك إلى الله عز وجل وقولي : اللهم إني رضيت عنه فارض عنه ، فلما مات فعلت به جميع ما أوصاني به ، فلما رفعت رأسي إلى السماء ، سمعت صوتاً بلسان فصيح : انصرفي يا أماه فقد قدمت على رب كريم غير غضبان عليّ ، فلما سمعت ذلك ضحكت .

[**قال منصور بن عمار رحمة الله عليه**] : إذا دنا موت العبد قسم حاله على خمسة أقسام : المال للوارث ، والروح لملك الموت ، واللحم للدود ، والعظم للتراب ، والحسنات للخصوم . ثم قال : إن ذهب الوارث بالمال يجوز ، وإن ذهب ملك الموت بالروح يجوز ؛ فيا ليت الشيطان لا يذهب بالإيمان عند الموت ، فيكون فراقاً من الرب سبحانه وتعالى ، نعوذ بالله من ذلك فإن كل فراق إلى اجتماع ، وفراق الرب سبحانه وتعالى صعب لا يدركه أحد .

[**وعن محمد بن نعيم ﷺ قال**] : قال رسول الله ﷺ : « ما جاءني جبرائيل عليه الصلاة والسلام إلا وهو يرتعد خوفاً من الجبار ولما ظهر على إبليس ما ظهر من المخالفة والطرد بعد القرب والحظوة والعبادة طفق جبرائيل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام يبكيان ، فأوحى الله تعالى إليهما ما لكما تبكيان هذا البكاء ، وإني لا أظلم أحداً ؟ قالا : يا ربنا إنا لا نأمن مكرك : يعني قضاءك وحكمك بالبعد بعد القرب ، وبالشقاء بعد السعادة ، فقال الله تعالى لهما : هكذا كونا لا تأمنا مكري » .

[**وعن عمر ﷺ**] أنه خرج إلى صلاة الجمعة فلقيه إبليس في صورة شيخ عابد . فقال إلى أين يا عمر ؟ فقال : إلى الصلاة . فقال : فقد قضيت الصلاة وفاتتك الجمعة فعرفه فأمسك بتلابيبه وخنقه . وقال له : ويلك ! ألم تكن رأس العابدين ، وقدوة الزاهدين ، فأمرت بسجدة واحدة فأبيت واستكبرت وكنت من الكافرين وأبعدت إلى يوم الدين ؟ فقال : تأدب يا عمر ، هل كانت الطاعة بيدي أم الشقاوة بمشيئتي ؟ أنا كنت أبسط سجادتي تحت قوائم العرش ، ولم أترك من السماء بقعة إلا ولي فيها سجدة وركعة ، ومع هذا القرب قيل لي : ﴿ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر : ٣٤ ـ ٣٥] فإن كنت يا عمر قد أمنت مكر الله ﴿ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ : [الأعراف : ٩٩] فقال له عمر : اذهب فلا طاقة لي بكلامك .

[**إخواني**] أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون ، ويتجبرون على الخلق ويتكبرون ، ضربت

لهم كؤوس المنون فهم لها يتجرعون ، وتركوا الأموال التي كانوا لها يجمعون ، وفارقوا العيش الذي كانوا فيه يتمتعون ، فلو رأيتهم يا هذا في حلل الندامة يرفلون ، ويساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] .

إليك منَ مكرك يا سيدي كل البرايا دائماً يحذرون فكم ذنوب وعيوب مضت
ونحن عنها سيدي غافلون نضيع العمر بكسب الخطا فنحن في أوقاتها لاعبون
نشاهد الموت ولا نرعوي ولا تنبهنا لريب المنون بل غفلة تطمس أبصارنا
وشقوة خابت لديها الظنون فنحن يا رب الورى كلنا إليك من زلاتنا هاربون

لكننا نسأل رب الورى عفواً وصفحاً كي تقر العيون
بالمصطفى الهادي شفيع الورى هوّنه يا رب علينا يهون

[**وعن عبد الله بن أحمد المؤذن رحمه الله**] قال : كنت أطوف حول الكعبة وإذا برجل متعلق بأستارها وهو يقول : اللهم أخرجني من الدنيا مسلماً لا يزيد على ذلك شيئاً . فقلت له : ألا تزيد على هذا الدعاء شيئاً . فقال لو علمت قصتي ! . . فقلت له : وما قصتك ؟ قال : كان لي أخوان ، وكان الأكبر منهما مؤذناً أذن أربعين سنة احتساباً ، فلما حضره الموت دعا بالمصحف فظننا أنه يتبرك به ويقرأ منه شيئاً فأخذه بيده وأشهد على نفسه من حضر أنه بريء مما فيه ، ثم تحوّل إلى دين النصرانية فمات نصرانياً . فلما دفن أذن الآخر ثلاثين سنة فلما حضره الموت فعل كما فعل الأخ الأكبر فمات على دين النصرانية أيضاً ، نعوذ بالله من مكر الله ، وإني أخاف على نفسي أن أصير مثلهما . فأنا أدعو الله تعالى أن يحفظ عليّ ديني . قال : فقلت : ما كان ذنبهما ؟ قال : كانا يتبعان عورات النساء وينظران إلى الشباب . يا مطلقاً نظره في الشهوات ، يا مستبيحاً للمحرمات ، يا مغروراً باللذات الفانيات ، هلا اعتبرت بأقوام أخرجوا من ديارهم وقد تمسكوا بحبل اغترارهم ، ولم يقبل منهم قول في اعتذارهم عندما نادى منادي إنذارهم ، ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ : [النور : ٣٠] .

واخجلة العبد من إحسان سيده واحيرة القلب من ألطاف معناه
واحسرة الطرف كم يرنو لخائنة من المآثم لا يرضى بها الله
فكم أسأت فبالإحسان عاملني واخجلتي واحيائي حين ألقاه
وكم له من أياد غير واحدة وافت إليّ تريني أنه الله
بلطفه وبفضل منه عرّفني في حبه كيف أرجوه وأخشاه
يا نفس كم بخفيّ اللطف عاملني وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس توبي من العصيان وانزجري فقد كفى ما جرى لي حسبي الله

[وعن أبي يزيد البسطامي رحمة الله عليه] أنه كان إذا توضأ وقعت الزلزلة على أعضائه إلى أن يقوم إلى الصلاة يكبر فيسكت عنه ذلك ، فقيل له في ذلك . فقال : إني أخاف أن تدركني الشقاوة فأتخطى إلى كنائس اليهود والنصارى أو بيعهم ، فنعوذ بالله من مكر الله .

[وعن سفيان الثوري رضي الله عنه] أنه خرج إلى مكة حاجاً فكان يبكي من أول الليل إلى آخره في المحمل . فقال له شيبان الراعي : يا سفيان لم بكاؤك ؟ إن كان لأجل المعصية فلا تعصه . فقال سفيان : أما الذنوب فما خطرت ببالي قط صغيرها ولا كبيرها ، وليس بكائي يا شيبان من أجل المعصية ، ولكن من خوف الخاتمة ؛ لأني رأيت شيخاً كبيراً كتبنا عنه العلم وعلم الناس أربعين سنة ، وجاور بيت الله الحرام سنين ، وكان تلتمس بركته ويستسقى به الغيث . فلما مات تحول وجهه عن القبلة ومات إلى الشرق كافراً فما أخاف إلا من سوء الخاتمة . فقال له : إن ذلك من شؤم المعصية والإصرار على الذنوب ، فلا تعص ربك طرفة عين :

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا ... واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا
في كل يوم لنا ميْت نشيعه ... ننسى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس ما لي وللأموال أكنزها ... خلفي وأخرج من دنياي عريانا
ما بالنا نتعامى عن مصارعنا ... ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
كم قد رأينا أناساً صالحين قضوا ... موتاً وقد سلبوا ديناً وإيمانا
واستبدلوا الكفر بالإيمان وانفصلوا ... بسوء خاتمة للموت أعيانا
أبعد خمسين قد قضيتها لعباً ... قد آن تقصيرها قد آن قد آنا
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانت تخر له الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا ... مستبدلين من الأوطان أوطانا
أخلوا منازل كان العز مفرشها ... واستفرشوا حفراً غبراً وقيعانا
يا راكضاً في ميادين الهوى مرحاً ... ورافلاً في ثياب الغي نشوانا
مضى الزمان وولى العمر في لعب ... يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا

[وعن حمزة بن عبد الله] قال : شهدت أبا بكر الشاشي عند موته فقلت له : كيف حالك ؟ قال : كسفينة تدور عند الغرق فلا أدري أنجو بالسلامة وتأتي الملائكة بالبشارة ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ [فصلت : ٣٠] أم تغرق السفينة ، وتأتي الملائكة تقول : ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٢] أي : بعداً بعداً فلا تصلح لنا . يا خبيث يا عاصي ابك على ظلام قلبك فإنه يضيء إذا بكى السحاب على الربا تبسمت ،

ويحك تقول : أنا تائب وتتوفف ، انهض وبادر فتلاقي خيراً فات إذا صدق التائب في توبته أنسى الله كاتبيه ما كتبا ، وأوحى الله تعالى إلى الأرض أن اكتمي على عبدي :

يا رب قد تبت فاغفر زلتي كرماً وارحم بعفوك من أخطا ومن ندما
لا عدت أفعل ما قد كنت أفعله عمري فخذ بيدي يا خير من رحما
هذا مقام ظلوم خائف وجلٍ لم يظلم الناس لكن نفسه ظلما
فاصفح بعفوك عمن جاء معتذراً واغفر ذنوب مسيء طالما اجترما

[إخواني] الشيطان راصد يرصد في جميع المقاصد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ : [النساء : ٧١] لا تسمعوا قوله فإنه كذاب أشر ، ولا تقبلوا نصحه فإنه غشاش ﴿ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ : [فاطر : ٦] واعجباً لمن كان في ظهر أبيه آدم كيف يدخل ناراً وقودها الناس والحجارة يا ٱبن آدم : إنما طردنا إبليس لأنه لم يسجد لأبيك ، فالعجب منك كيف صالحته وهجرتنا :

لا عذر لي قد أتى المشيب فليت شعري متى أتوب

إبليس قد غرني ونفسي ومسني منهما اللغوب إذا انقضى للشقاء ذنب
تجددت بعده ذنوب ومن ورائي حلول قبر ساكنه مفرد غريب
ولست أدري إذا أتاني رسول ربي بما أجيب هل أنا عند الجواب مني
أخطىء في القول أم أصيب أم أنا يوم الحساب ناج أم لي في ناره نصيب

يا رب جد لي على رجائي بمنة منك لا أخيب

[وحكى] أن مؤذناً أذن في منارة أربعين سنة ، فصعد يوماً وأذن حتى بلغ قوله : حي على الفلاح ، فوقع بصره على امرأة نصرانية فذهب عقله وقلبه ، فترك الأذان وذهب إليها فخطبها . فقالت : مهري ثقيل عليك ؟ فقال : وما هو ؟ قالت : تدخل في ديني وتترك دين الإسلام فكفر بالله ودخل في دينها . فقالت له : إن أبي في أسفل الدار انزل إليه واخطبني منه فنزل فزلت رجله فسقط ومات كافراً ولم يقض شهوته منها نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

[وكذلك يروى] أن أخوين كان أحدهما عابداً والآخر مسرفاً على نفسه ، وكان العابد يتمنى أن يرى إبليس في محرابه فتمثل له يوماً . وقال : يا أسفاً عليك ضيعت من عمرك أربعين سنة في حصر نفسك وإتعاب بدنك . وقد بقي من عمرك مثل ما مضى فأطلق نفسك في شهواتها وتلذذ ثم تب بعد ذلك وعد إلى العبادة فإن الله غفور رحيم . فقال العابد : أنزل إلى أخي في أسفل الدار وأوافقه على الهوى واللذات عشرين سنة ، ثم أتوب وأعبد الله في

العشرين التي تبقى من عمري فنزل ، وقال أخوه المسرف على نفسه قد أفنيت عمري في المعصية وأخي العابد يدخل الجنة وأنا أدخل النار والله لأتوبن وأصعد إلى أخي وأوافقه في العبادة ما بقي من عمري فلعل الله يغفر لي فطلع على نية التوبة ، ونزل أخوه على نية المعصية ، فزلت رجله فوقع على أخيه فماتا جميعاً في السلم فحشر العابد على نية المعصية ، وحشر المسرف على نية التوبة .

[**إخواني**] فرغوا قلوبكم للاعتبار ، فيما يجري في الليل والنهار ، كم من بعيد قرب ، وكم من قريب أبعد وجفاه الأهل والجار ، وكان حظ الأول الجنة وحظ الثاني النار . فاعتبروا يا أولي الأبصار . ندم العابد على تغيير نيته بلا شك ولا خفا ، وبكى على تفريطه بعد عبادته إذ زل وهفا يودّ لو أن صافي ودّه يرد ويرجع إلى الوفا وسيعلم أنه بنى على شفا جرف هار فاعتبروا يا أولي الأبصار :

أناس أعرضوا عنا ... بلا جرم ولا معنى
أساؤوا ظنهم فينا ... فهلا أحسنوا الظنا
فإن عادوا لنا عدنا ... وإن خانوا فما خنا
وإن كانوا قد استغنوا ... فإنا عنهمو أغنى

[**وقال الإمام أبو محمد رحمة الله تعالى عليه**] : خرج ثلاثة من الزهاد يريدون الحج إلى بيت الله الحرام في وسط السنة متوكلين بغير زاد فنزلوا قرية فيها نصارى فوقع نظر رجل منهم على محاسن امرأة نصرانية فتعلق قلبه بها . فلما عزموا على السفر احتال منهم حيلة وقعد وسار صاحباه وتركاه في القرية فأفشى سره لأبي المرأة فقال له : مهرها ثقيل عليك لا تقدر عليه ، فقال : وما هو ؟ قال : تترك دين الإسلام وتدخل دين النصرانية فتنصر وتزوجها وولد له منها ولدان ومات على دين النصرانية فرجع صاحباه من سياحتهما وسألا عنه ، فقيل له : إنه توفي على دين النصرانية ودفنوه في مقابرهم فذهبا إلى المقبرة فوجدا امرأته وولديه يبكون على القبر فجعل صاحباه يبكيان من بعيد قالت لهما المرأة : ممَّ تبكيان ؟ فقصا عليها القصة وعبادته وزهده وصلاته . فلما سمعت ذلك رق قلبها إلى الإسلام فأسلمت هي وولداها ، فقال الشيخ أبو محمد : سبحان الله مات من كان مسلماً على الكفر وأسلم من كان كافراً فكذلك ينبغي أن يخاف المسلم عاقبة أمره ، ويسأل الله تعالى حسن الخاتمة :

سبحان من خلق الأشيا وقدرها ... ومن يجود على العاصي ويستره
يخفي القبيح ويبدي كل صالحة ... ويغمر العبد إحساناً ويشكره
ويغفر الذنب للعاصي ويقبله ... إذا أناب وبالغفران يجبره
ومن يلوذ به في دفع نائبة ... يعطيه من فضله عزاً وينصره

ولا يضيع مثقالاً لمجتهد بل في المآل يربيه ويدخره
ومن يكن قلبه من ذنبه دنساً فبالمدامع والتقوى يطهره
وليس للعبد تصريف وإن له مولاه إن شاء يغنيه ويفقره
فلا الحذار ينجي العبد من قدر يريده الله أو أمر يدبره
فنسأل الله حقاً حسن خاتمة عند الممات وصفواً لا يكدره

[**وقال منصور بن عمار رحمة الله تعالى عليه**] : كان لي أخ في الله يعتقدني ويزورني في شدة ورخاء وكنت أراه كثير العبادة والتهجد والبكاء ففقدته أياماً فقيل لي : هو ضعيف ، فسألت عن داره فأتيت الباب فطرقته فخرجت إليّ ابنته فقالت : من تريد ؟ فقلت : فلاناً ، فدخلت واستأذنت لي ثم عادت وقالت : ادخل فدخلت فوجدته في وسط الدار وهو مضطجع على فراش وقد اسود وجهه وازرقت عيناه وغلظت شفتاه فقلت له وأنا خائف منه : يا أخي أكثر من قول لا إلـه إلا الله ففتح عينيه ونظر إليّ شزراً وغشي عليه فقلت له ثانياً : يا أخي أكثر من قول لا إلـه إلا الله ففتح عينيه نظر إليّ شزراً وغشي عليه فقلت له ثالثاً : يا أخي أكثر من قول لا إلـه إلا الله ولئن لم تقلها لا غسلتك ولا كفنتك ولا صليت عليك ففتح عينيه وقال : يا أخي يا منصور هذه كلمة حيل بيني وبينها فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قلت له : يا أخي أين تلك الصلاة والصيام والتهجد والقيام ! فقال : يا أخي كل ذلك كان لغير وجه الله إنما كنت أفعل ذلك ليقال عني وأذكر به وكنت أفعل ذلك رياء الناس فإذا خلوت بنفسي أغلقت الباب وأرخيت الستور وشربت الخمور وبارزت ربي بالمعاصي ودمت على ذلك مدة فأصابني مرض أشرفت فيه على الهلاك ، فقلت لابنتي هذه ناوليني المصحف ففعلت فأخذته فجعلت أقرأ فيه حرفاً حرفاً حتى بلغت سورة يس فرفعت المصحف وقلت : اللهم بحق هذا القرآن العظيم إلا ما شفيتني وأنا لا أعود إلى ذنب أبداً ففرج الله عني ، فلما شفيت عدت إلى ما كنت عليه من اللهو واللذات والزهو ، وأنساني الشيطان العهد الذي كان بيني وبين ربي وبقيت على ذلك مدة من الزمان فمرضت مرضاً أشرفت فيه على الموت فأمرت أهلي أن يخرجوني إلى وسط الدار على عادتي ، ثم دعوت بالمصحف فقرأت فيه ثم رفعته وقلت : اللهم بحرمة ما في هذا المصحف الكريم ، من كلامك القديم ، إلا ما فرجت عني . فاستجاب الله مني وفرج عني . ثم عدت إلى ما كنت عليه من الهوى والغي فوقعت في هذا المرض فأمرت أهلي فأخرجوني إلى وسط الدار كما تراني ؛ ثم دعوت بالمصحف لأقرأ فيه فلم يتبين فيه لي حرف واحد فعلمت أن الله سبحانه وتعالى قد غضب عليّ فرفعت رأسي إلى السماء

وقلت : اللهم بحرمة هذا المصحف إلا ما فرجت عني يا جبار الأرض والسماء . فسمعت هاتفاً يقول ولم أر شخصه :

تتوب من الذنوب إذا مرضتا ... وترجع للذنوب إذا بريتا ... إذا ما الضرّ مسك أنت باك
وأخبث ما يكون إذا قويتا ... فكم من كربة نجاك منها ... وكم كشف البلاء إذا بليتا
وكم غطاك في ذنب وعنه ... مدى الأيام جهراً قد نهيتا ... أما تخشى بأن تأتي المنايا
وأنت على الخطايا قد دهيتا ... وتنسى فضل رب جاد فضلاً ... عليك ولا ارعويت ولا خشيتا

وكم عاهدت ثم نقضت عهداً ... وأنت لكل معروف نسيتا
فدارك قبل نقلك عن ديارك ... إلى قبر إليه قد نعيتا

[قال منصور بن عمار] : والله ما خرجت من عنده إلا وعيني تسكب العبرات فما وصلت إلى الباب إلا وقيل لي : قد مات فلان فنسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الخاتمة فكم من نفس مكر بها بعد أن كانت صائمة قائمة .

[وحكى عبد الله الموصلي] قال : كان عندنا رجل موله يدعى بقضيب البان وكان لا يقدر أحد أن يكلمه من عظم حرمته وهيبته وكان كثير البكاء ، فجمعتني به المقادير في خلوة له فقلت : يا سيدي بالذي شغلك به عمن سواه ما كان سبب توهلك وانفرادك عن الناس ؟ فنظر لي وبكى بكاءً شديداً ثم اصفر لونه واضطرب وغشي عليه فظننت أنه قد مات ، فلما أفاق وآنسته بالكلام ولاطفته بالخطاب ، وسألته عن حاله وأقسمت عليه حدثني وهو يبكي وقال : كنت أخدم شيخي وكان من الأبدال فخدمته أربعين سنة وهو مجتهد في العبادة ؛ فلما كان قبل موته بثلاثة أيام دعاني وقال : يا ولدي يا عبد الله لي عليك حق ولك عليّ حق ومن تمام حقي عليك أن تصغي لما أقول وتحفظ وصيتي ، فقلت له : حباً وكرامة ، فقال : بقي من عمري ثلاثة أيام وأموت على غير فطرة الإسلام ، فإذا أنا مت فضعني في تابوت بثيابي ، واحمل تابوتي في الليل إلى أرض كذا في ظاهر البلد وامكث حتى تطلع الشمس ، فإذا رأيت جماعة قد جاؤوا معهم تابوت فوضعوه إلى جانب تابوتي وأخذوا تابوتي ومضوا فخذ التابوت الذي جاؤوا به وعد إلى الزاوية فافتحه وأخرج الرجل الذي فيه وأفعل معه ما كان يجب عليك أن تفعله معي والسلام ، فبكيت وقلت : يا سيدي كيف يكون هذا الأمر ؟ فقال : يا ولدي هذا جرى في اللوح المحفوظ ولله الأمر من قبل ومن بعد ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ ﴾ : [الأنبياء : ٢٣] فلما كان بعد ثلاثة أيام اضطرب الشيخ وتغير لونه واسود وجهه ودار إلى ناحية الشرق وانكب على وجهه ومات فبكيت بكاءً شديداً ولحقني عليه من الحزن ما لم يعلمه إلا الله عزّ وجلّ ثم ذكرت وصيته

فوضعته في تابوت . فلما كان الليل خرجت به إلى الأرض التي سماها فوضعته ومكثت حتى طلعت الشمس ، فإذا بجماعة قد أقبلوا ولهم عويل ومعهم تابوت فوضعوه إلى الأرض جانب ذلك التابوت وتقدم رجل منهم فحمل التابوت الذي كان معي ومضى فتعلقت به ، وقلت : لا سبيل لك إلى أخذ هذا التابوت حتى تخبرني بخبرك ؟ فقال : أنا خادم هذا البطرق منذ أربعين سنة . فلما كان قبل موته بثلاثة أيام أحضرني وقال : يا ولدي لي عليك حق ولك عليّ حق ومن تمام حقي عليك إذا أنا مت بعد ثلاثة أيام فضعني في التابوت واحملني إلى المكان الفلاني وذكر هذا المكان فإذا وجدت تابوتاً موضوعاً فخذه وضع التابوت الذي أنا فيه مكانه واحمله إلى الكنيسة وما كان يجب عليك أن تفعله في حقي فافعله مع صاحب ذلك التابوت والسلام ! فلما كان بعد ثلاثة أيام تهلل وجهه بالفرح ونطق بالشهادة ومات مسلماً ففعلت ما أمرني به وقد جئت به . قال عبد الله : فحملت التابوت الذي جاء به ومضيت به إلى الزاوية ففتحته فإذا فيه شيخ وعلى وجهه أنوار وشيبة بيضاء عليها وقار فأخرجته من التابوت ونزعت ثيابه وغسلته أنا والفقراء وصلينا عليه ودفناه في الزاوية وكان يوماً مشهوداً فخرجت هائماً على وجهي من خوف الخاتمة وسوء المنقلب فهذا كان سبب توهي . فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة ونعوذ بالله من مكره تعالى فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون :

يا ويح من ضلّ سبيل الهدى ... وفاته منك بلوغ المرام ... ومن إلى حصنك آويته
فركنه في عزة لا يضام ... كم صالح قد صفّ أقدامه ... في الليل يبكي بالدموع السجام
وما له حظ سوى أنه ... أشقاه مولاه بطول القيام ... وكم قريب خاب سعياً وما
نال سوى التعذيب والانتقام ... وكم بعيد نال ما يرتجي ... ونال في عقباه أعلى المقام
يا أيها اللوّام كفوا فمن ... دليله من جبره لا يلام ... من لم يكن أهلاً لوصل فما
يفيده القرب ولا الاعتصام ... فسطوة الأقدار لا تعتدي ... فانتبهوا من نومكم يا نيام
يا أيها المذنب قم واعتذر ... وتب من الذنب وكسب الأثام ... إلى متى أنت ترى غادياً
ورائحاً في اللهو طوع الغرام ... أنب إلى الله وتب واستقم ... من قبل أن تشرب كأس الحمام
وإن تخف قبح ذنوب مضت ... فلذ بمولى الحق خير الأنام ... محمد المختار من هاشم
أفضل من حج وصلى وصام ... صلى عليه الله ما أشرقت ... طلائع الصبح وولى الظلام

اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد نبيك العظيم ورسولك الكريم . والداعي إلى الصراط المستقيم . اللهمّ إنا قد توسلنا بجاهه إليك ، واعتمدنا بشفاعته لديك ، أن تؤمن خوفنا ، وتستر عيوبنا ، وتغفر ذنوبنا . إلّهي إن كنت لا تقبل إلا المجتهدين ، فمن للمقصرين ؟ وإن كنت لا ترحم إلا الطائعين ، فمن للعاصين والمذنبين ؟ . إلّهي قد علمنا السوء من أنفسنا فتب علينا . إلّهي هب لنا من فضلك ما تغنينا به عمن سواك . ومن عفوك ما تؤوينا به إلى

ركنك وحماك . إلـهي ارزقنا توفيق الطاعة وبغض المعصية ،وإخلاص النية ، وحسن الطوية ، والرجوع إليك بالكلية ، وارحمنا رحمة تجبر بها كسرنا ، وتغني بها فقرنا ، وتكفر بها وزرنا ، وترفع بها قدرنا ، وانفعنا بما سمعناه من كلامك القديم ، وحديث رسولك الكريم ، وشفعه في تقصيرنا يوم لا ينفعنا مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

المجلس الثالث

في ذكر الموت وزيارة القبور والترحم على أهلها

الحمد لله المستحق لغاية التحميد ، المتوحد في كبريائه من غير تكييف ولا تحديد ، العليّ القويّ الوليّ الحميد ، الغنيّ المغني المبدىء المعيد ، المعطي الذي لا يفنى عطاؤه ولا يبيد ، المانع فلا معطي لما منع ولا رادّ لما يريد . خلق الخلائق وسلكهم أحسن الطريق إلى الأمر الرشيد ، وصورهم فأحسن صورهم وبشرهم في الجنة بالنعيم والتخليد ، وبصرهم بعين الاعتبار وحذرهم من عذاب النار والوعيد . وألزمهم شكره وضمن لهم كنز فضله المزيد ، وحكم عليهم بالموت فما لأحد عنه محيص ولا محيد ، فكم أبكى خليلاً بفراق خليله ، وكم أيتم وليداً وشغله ببكائه وعويله ، فهو لا يبدىء بفرط حزنه ولا يعيد . هدم بالموت مشيد الأعمار وحكم بالفناء على أهل هذه الدار الأحرار منهم والعبيد ، أوحش المنازل من أقمارها ، ونفر طيور الأرواح من أوكارها ، وعوضهم من لذة العيش بالتنغيص والنكيد . فالملك والمملوك والغني والصعلوك تساوت قبورهم في القفر والبيد . فسبحان من أذلّ بالموت من الجبابرة كل جبار عنيد ، وكسر به من الأكاسرة كل بطل صنديد ، أخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور وقطع حبل أمدهم المديد . أخذ به الآباء والجدود والأطفال من المهود ، فأسكنهم اللحود ، وعفر وجوههم في الصعيد وساوى في الموت بين الصغير والكبير والغنيّ والفقير والمأمور والأمير والوالد والوليد . أفنى به الذكور والإناث فهم في سجن الأحداث إلى يوم الوعيد . أفلا يعتبر الغافل بمصرعهم . وقد أفناهم الموت بأجمعهم وفرّق شملهم بالتبديد . فكيف يغتر الإنسان وهو عالم بأن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ولم يكن له عنه محيد . أما كانت نفوسهم بذلك عالمة ؟ وهي من الموت غير سالمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ : [هود : ١٠٢] أين أهل المدن

والحصون ؟ أين أرباب المعاني والفنون ؟ أين المحصنون بكل حصن منيع وقصر مشيد ؟ أين الأمم الماضية ؟ أين أرباب القصور العالية ؟ حق عليهم الوعيد ، فلو عاينتهم في قبورهم لعجبت من أمورهم ؛ قد غير البلى أحوالهم ومزق أوصالهم ، ولم يعرف منهم الأحرار من العبيد . أما أصبح منهم ذو الشدة والبأس بعد القرب والإيناس في ظلمة اللحود وحيد . أما وعظهم الموت بمن أخذ من شقي وسعيد وقريب وبعيد . أما أنذرهم قول الملك الحميد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ : [ق~ : ١٩] .

ويحك نبه نفسك   واعمل لما تلقي غداً الموت يأتي بغتةً   وليس منه محيد
إن كنت يا صاح نائم   لا بد في القبر تنبه وأنت فيه محير   عما تريد بعيد
من لك إذا مت ملك   من كان يهوي صحتك وحزت لحدك وحدك   مفلس غريب وحيد
أهل القبور يتمنوا   ما أنت فيه مجتهد وليس تدري من هو   منهم شقي وسعيد
فدع دموعك تجري   قبل أن يقال لمن عصى ألم تكن قبل تدري   إن الحساب شديد
كل القلوب قد لانت   لكن قلبك قد قسا كأن قلبك أضحى   بين القلوب حديد
ويحك فهيِّىء زادك   واحذر تفند يا فتى قبل أن تسافر بغتة   ما ينفع التفنيد

[**وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه**] قال : « أتيت رسول الله ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله من أكيس الناس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة » .

[**وعن عائشة رضي الله تعالى عنها**] قالت : « قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، فقلت : يا رسول الله أكراهية الموت فكلنا نكره الموت ، فقال : ليس ذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحبّ لقاء الله فأحب الله لقاءه ، والكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه » ذكره مسلم . وذكر مسلم بن الحجاج من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، قال : فإن كان لا بد متمنياً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي » فاجتهد أيها العبد في العمل الصالح اشفق من كأس لا بد أنك ذائقه وارحل عن عيش لا بد أنك مفارقه ، يا ناسياً للرحيل وقد حث نجيب الرحيل سائقه اعتبر بمن سبقك فإنما يعطي المنى سابقه :

ألا أيها القلب الكثير علائقه   ألم تر أن الدهر تجري بوائقه
رويدك لا تنس المقابر والبلى   وطعمة كأس الموت إنك ذائقه
ألا أيها الباكي على الميت بعده   رويدك لا تعجل فإنك لاحقه

إذا اعتصم المخلوق من فتن الهوى　　بخالقه أنجاه منهن خالقه
أرى صاحب الدنيا مقيماً بجهله　　على ثقة من صاحب لا يفارقه
ولا تتمن الموت يا صاح إنه　　سيأتيك منه عن قريب طوارقه

[ويروى] عن النبي ﷺ أنه قال : « ما الميت في قبره إلا كالغريق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كانت أحبّ إليه من الدنيا وما فيها » . وقال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا بْنَ آدم ما غرك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بي إذ كنت تمر بي فإن كان صالحاً أجاب عنه مجيب القبر ، فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إذاً تحوّل عليه روضة خضراء ويعود جسمه نوراً وتصعد روحه إلى الله عزّ وجلّ » :

ولو أنا إذا متنا تركنا　　لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بُعِثْنا　　ونسأل بعده عن كل شيّ

[وروى] إسماعيل بن محمد عن كعب الأحبار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يمرّ أحد في المقابر إلا وتناديه أهل القبور يا غافل لو علمت ما نحن نعلم لذاب لحمك وجسمك كما يذوب الثلج على النار » . وقال ﷺ : « من أراد أن يزور قبراً فليزره ، ولا يقول إلا خيراً فإن الميت يتأذى مما يتأذى منه الحي » .

[ويروى] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما من رجل يمرّ على قبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام .

تناجيك أموات وهن سكوت　　وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه　　لمن تجمع الدنيا وأنت تموت
وإنكمو إذ ما علينا تسلموا　　نرد عليكم واللسان صموت

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : يا أبا حازم ! ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فكالغائب يأتي أهله فرحاً ، وأما المسيء فكالعبد الآبق يأتي مولاه خائفاً محزوناً .

[وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه] : قلت لأم هارون العابدة : أتحبين أن تموتي ؟ قالت : لا ، قلت : ولِمَ ؟ قالت : والله لو عصيت مخلوقاً لكرهت لقاءه فكيف بالخالق جلّ جلاله ؟ :

وكيف يلذ العيش من هو عالم　　بأن إلَه الخلق لا بد سائله
فيأخذ منه ظلمه لعباده　　ويجزيه بالخير الذي هو فاعله
وكيف يلذ العيش من كان صائراً　　إلى لحد قبر فيه تبلى شمائله

ويذهب رسم الوجه من بعد ضوئه قريباً ويبلى جسمه ومفاصله

[وقال أبو بكر الكتاني رحمة الله عليه] : كان رجل يحاسب نفسه على سيئاته وخطاياه فحسب يوماً سنينه فوجدها ستين سنة فحسب أيامها فوجدها أحداً وعشرين ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ صرخة وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : يا ويلتاه وأنا آتي ربي بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب يقول هذا لو كان في كل يوم ذنب واحد ، فكيف بذنوب لا تحصى . ثم قال : آه عليّ عمرت دنياي وخربت آخرتي وعصيت مولاي الوهاب . ثم لا أشتهي النقلة من العمران إلى الخراب ، وكيف أقدم في يوم الحساب على الكتاب والعذاب بلا عمل ولا ثواب ؟ .

منازل دنياي عمرتها وخربت داري في الآخره
فأصبحت أنكر دارَ الخرا ب وأرغب في داري العامره

ثم شهق شهقة عظيمة وقع على الأرض فحركوه فإذا هو ميت ، رحمة الله عليه .

[وقال أبو عمر الضرير] : حدثني سهل أخو حازم ، قال : رأيت مالك بن دينار في المنام بعد موته فقلت له : يا أبا يحيى بماذا قدمت على الله عزّ وجلّ ؟ قال : قدمت عليه بذنوب كثيرة محاها حسن ظني بالله عز وجل .

يظن الناس بي خيراً وإني أشر الناس إن لم تعف عني
وما لي حيلة إلا رجائي وجودك إن عفوت وحسن ظني

[وسئل] بعض الزهاد : كيف حالك ؟ فقال : كيف حال من يريد سفراً بلا زاد ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس ، ويقدم على مالك قادر بغير حجة :

تعطف بفضل منك يا مالك الورى فأنت ملاذي سيدي ومعيني
لئن أبعدتني عن حماك خطيئتي فأنت رجائي شافعي ويقيني
ولست أرى لي حجة أبتغي بها رضاك وإن العفو منك يقيني

[ويروى] عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : أنه وقف على قبر فبكى ، فقيل له : إنك تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا . فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن ينج منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » ووجد على قبر مكتوباً :

سلام على أهل القبور الدوارس | كأنهمو لم يجلسوا في المجالس | ولم يشربوا من بارد الماء نهلة
ولم يطعموا من كل رطب ويابس | ولم يك منهم في الحياة منافس | طويل المنى فيها كثير الوساوس
ألا ليت شعري أين قبر دليلكم | وقبر العزيز الشامخ المتشاوس | لقد سكنوا في موحش الترب والثرى
فها هم بها ما بين راج وآيس | ولو عقل المرء المنافس في الذي | تركتم في الدنيا له لم ينافس

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه : ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يتوضأ عنك بعد الموت ؟ . ثم يقول : أيها الناس لم لا تبكون على نفوسكم باقي حياتكم ، فمن يكن الموت موعده والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع ذلك ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله وكيف يكون مآله . ثم يبكي حتى يسقط مغشياً عليه :

ماذا يكون مآل المرء بعد هنا | عيش وآخره موت سيعقبه
والدهر يفجعه فيمن يسرّ به | والموت عن كل ما يهواه يحجبه
وحادثات لياليه تروعه | جهراً فيمزج بالتنغيص مشربه
يلهو ويحسب أياماً يغرّ بها | وللمنية قرب ليس يحسبه

[ويروى] أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها فقالت لها : أكثري من ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت ذلك فرق قلبها فشكرت عائشة رضي الله عنها .

ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه ، فقالوا له : أي شيء تشتهيه ؟ قال : الجنة ، قالوا : أندعو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضني ، فقال له رجل من أصحابه : يا أبا الدرداء أتشتهي أن أساهرك الليلة ؟ فقال له أبو الدرداء : أنت معافى وأنا مبتلى والعافية لا تدعك أن تسهر ، والبلاء لا يدعني أن أنام . ثم قال : أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يهب لأهل العافية الشكر ولأهل البلاء الصبر :

وإذا ابتليت بشدة فاصبر لها | صبر الكرام فما يدوم مقامها | فالله يبلي كي يثيب فلا تضق
ذرعاً بنازلة جرت أحكامها | ولرب يوم نازلتك خطوبها | ثم انجلى قبل الظلام ظلامها

ولئن جزعت فليس ذاك بنافع | إن الأمور قضى بها علامها

[**وفي بعض الخطب المروية**] أيها الناس : إن الآمال تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان تحت التراب تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان كركض البريد ، يقربان كل بعيد ويبليان على جديد وفي كل ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ، وسلى عن اللذات ورغب في الأعمال الباقيات الصالحات :

خليلـــيّ إن العمـــر وافى بلجـــة   لـــه دائمـــاً نحـــو المنيـــة إعجـــال
وأرواحنـا الأرزاق والمـوت سـاحل   ومن دونه من عاصف الخطب أهوال
حقيقـة ذي الـدنيا محـال وباطـل   ويتبعنـا فيهـا حقـوق وآجـال
وفي الباقيـات الصـالحات كفايـة   لمن قصرت منه على الـدهر آمال

[وروى] في الخبر : « إن العبد الصالح ليعالج سكرات الموت وكرباته . وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك » . وقيل لحسان بن أبي سنان : كيف تجدك ؟ قال : بخير إن نجوت من النار . قيل له : ما تشتهي ؟ قال : ليلة طويلة أصليها كلها . وقال عبد الله بن عتبة : عدت رجلاً مريضاً فلما قعدت عنده قلت له : كيف تجدك ؟ فأنشدني :

خرجت مـن الـدنيا وقامـت قيـامتي   غـداة أقـلّ الحـاملون جنـازتي
وعجل أهلي حفـر قـبري وصـيروا   خروجـي وتعجيلـي إليـه كـرامتي
كـأنهمو لم يعرفـوا قـط صـحبتي   غـداة أتـى يـومي عليـه وسـاعتي

[وقيـل] : دخل المزني على الشافعي رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت عن الدنيا راحـلاً وللإخـوان مفارقـاً ولسـوء عملـي ملاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى ربي سبحانه وتعـالى وارداً ولا أدري روحـي صـائرة إلى الجنـة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها ثم أنشد :

ولما قسا قلبي وضاقت مـذاهبي   جعلت الرجا منك لعفوك سـلما   تعـاظمني ذنـبي فلمـا قرنتـه
بعفوك ربي كان عفـوك أعظمـا   فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تـزل   تجـود وتعفـو منـة وتكرّمـا

فلـولاك لم يغـوى بـإبليس عابـد   فكيـف وقـد أغـوى صـفيك آدما
فيا ليـت شـعري هـل أصـير لجنـة   فـأهنى وإمـا في السـعير فأنـدما

[ويروى] أن رجلاً جاء إلى مقبرة فصلى ركعتين ثم اضطجع فرأى في منامه صـاحب القـبر فقال له : يا هذا إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نعمـل والله لأن تكـون ركعتـان في صحيفتي أحب إليّ من الدنيا وما فيها .

[ويروى] أن بعض المتعبدين أتى قبر صاحب له كان يألفه فأنشد يقول :

ما لي مـررت على القبـور مسـلما   قـبر الحبيـب فلـم يـردّ جـوابي   أحبيـب مالـك لا تجيـب مناديـا
أمللت بعدي خلـة الأصـحاب   لو كان ينطق بالجواب لقـال لي :   أكـل الـتراب محاسـني وشـبابي

قال : فهتف بي هاتف من جانب القبر يقول :

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم وأنـا رهـين جنـادل وتـراب
أكل التراب محاسني فنسيتكم وحجبت عن أهلي وعن أصحابي
فعليكم مني السلام تقطعت عني وعنكم خلة الأصحاب
وتمزقت تلك الجلود صفائحاً يـا طالما لبست رفيع ثياب
وتفصلت تلك الأنامل من يدي مـا كـان أحسنها لخط كتابي
وتساقطت تلك الثنايا لؤلؤاً مـا كـان أحسنها لـردّ جـوابي
وتساقطت فـوق الخدود نـواظري يـا طالما نظـرت بهـا أحبـابي

[وقال ثابت البناني رضي الله عنه] : دخلت المقابر لأزور القبور وأعتبر بالموتى وأتفكر في البعث والنشور وأعظ نفسي لعلها ترجع عن الغيّ والفجور ، فوجدت أهل القبور صموتاً لا يتكلمون وفرادى لا يتزاورون فأيست من مقاهم واعتبرت بأحوالهم ، فلما أردت الخروج إذا بصوت يقول : يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس معذبة فيها .

[وقيل] : مرّ داود الطائي بامرأة تبكي على قبر وهي تنشد هذه الأبيات :

عـدمت الحيـاة فـلا نلتـها إذا أنـت في القـبر قـد أوسـدوكا
وكيـف ألـذّ بطعـم الكـرى وهـا أنـت في القـبر قـد أفردوكـا

ثم قالت : يا أبتاه بأيّ خديك بدأ الدود ؟ قال : فخر داود مغشياً عليه .

[وقيل] : لما حضرت حسن بن هانىء الوفاة وأيقن بالموت وتحقق لقاه أنشد :

دب فيّ السقام سفلاً وعلـوا وأراني أمـوت عضـواً فعضـوا
ليس مـن سـاعة مضت بي إلا نقصـتني بمرهـا بي حـزوا
لهف قلبي على ليال تقضت وسـنين مضـين لعبـاً ولهـوا
قـد أسـأنا كـل الإسـاءة جهـراً ومـن الله نطلـب الآن عفـوا

[إخواني] انتبهوا من رقدة الهجوع وافزعوا إلى الله تعالى بالتضرع والخشوع . فكأنكم بالموت وقد فرق الجموع ، وأخلى القصور والربوع ، وأمطر عليهم سحائب الدموع ، وناداهم المشوق بطرف باك وقلب موجوع :

معـارف في الثـرى هجـوع فالقلب مـن بعـدهم صـدوع
تكـدرت بعـدهم حيـاتي فأوحشـت منـهم الربـوع
كـانوا سـروري ونـور عـيني فمـا لهـا بعـدهم هجـوع
مـاتوا فـأودى لذيـذ عيشـي وبالأسـى ذابـت الضـلوع
يا نفس كـم مـن جمـوع وصـل فرقهـا البـين والولـوع
يـا نفس للمـوت فاسـتعدي فـالموت إتيانـه سـريع
فـلا مليـك ولا شـريف في الـدهر يبقـى ولا وضـيع
ولا سـعيد ولا شـقي ولا عصـي ولا مطيـع
يـا نفس إن الأصـول ماتـت فمـا عسـى تلبـث الفـروع

[**قال مالك بن دينار رحمة الله عليه**] : أتيت القبور على سبيل الزيارة والتذكار ، والتفكر في الموت والاعتبار ، فتمنيت من يخبرني عنهم بخبر ، أو يقص لي من آثارهم بعض أثر ، فقلت بلسان أحزاني ما قدحت زناد أشجاني من الفكر :

أتيت القبور فناديتها … فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه … وأين العزيز إذا ما افتخر

قال : فنوديت من بين القبور ، وأنا بالوجد مغمور :

تفانوا جميعاً فلا مخبر … وماتوا جميعاً وصاروا عبر … وعادوا إلى ملك عادل
عزيز مطاع إذا ما أمر … تروح وتغدو بنات الثرى … فتمحي محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا … أمالك فيمن مضى معتبر

قال مالك بن دينار : فرجعت أبكي بالدموع الغزار ، واعتبرت بذلك أي اعتبار .

[**وقال بعض الصالحين**] : زرت مرة القبور حين عج بقلبي لهيب النار : فأقمت عندها برهة من الزمان أنظر إليها بعين الاعتبار ، وأناجي صرعاها بالعشي والإبكار ، وأجلس إليها في الأصائل والأسحار ، فجال فكري في مجال التفكر والاعتبار بخطاب نظمته من محاسن الأشعار :

أأحبابنا فارقتمونا فأوحشت … قلوب لنا من بعدكم وديار
فكم قد تذاكرنا محاسن من مضى … فجاءت دموع للفراق غزار
قضوا وقضيتم ثم نقضي فلا بقا … لحي وكاسات المنون تدار
وكنا وإياكم نزور مقابراً … ومتم فزرناكم وسوف نزار
سقت ديمة الرضوان رياً ثراكمو … وسحت لها في ساحتيه بحار

فأجاب لسان الحال في الحال عما أبديت من المقال :

يقول لسان الحال إذ أخرس الردى … لساناً لهم منه الفصيح يغار
شربنا بكأس أسكرتنا مريرة … ألا رب سكر ما حواه عقار
فلا يغترر بالله من عاش بعدنا … بعيش فأيام الحياة قصار
وإنا وجدنا خير أزوادنا التقى … هو الربح حقاً ما عداه خسار
وما العيش إلا زورة الطيف في الكرى … وما هذه الدنيا الدنية دار

يا من ركن إلى الدنيا بإقامة وثبات احذر أسد الموت فإن له وثبات كيف تركن إلى اللذات

وقد جاء في طلبك الممات واعتَبر يا هذا بمصارع الهالكين ففيهم لذي التفكر عظات :

لقـد زرت أقوامـاً كرامـاً أحبـهم ... وهم تحت أطباق الثرى فيه أموات
وواصلتهم مـن بعـد بـين وفرقـة ... فكان لنـا فـيهم عظـات وإنصـات
وأعجب شيء في الوجود اجتماعنا ... ونحن على ذاك التواصـل أشتات

[وروى] أنه وجد على قبر مكتوب :

اصـــبر لـــدهر نـــال منـــ ... ـــك فهكـــذا مضـــت الـــدهور
فرحـــــاً وحزنـــــاً مـــــرة ... لا الحـــزن دام ولا الســـرور

[وقال الأصمعي رحمة الله عليه] : كنت كثير التفكر في عجائـب الأمـور . وأجيـل الفكـر في البعث والنشور . وأتسلى بقراءة الكتابة على القبور . فمن ذلك رأيت ثلاثة قبور على صـف وعليها لوح مكتوب عليه :

ألا قـــل لمـــاش علـــى قبرنـــا ... غفـــول لأشـــياء حلـــت بنـــا
ســـيندم يومـــاً لتفريطـــه ... كمـــا قـــد نـــدمنا لتفريطنـــا

وقال أيضاً : وجدت على حجر مكتوباً في المقبرة :

وقفت على الأحبـة حـين صفت ... قبورهـــو كـــأفراس الرهـــان
فلمـا أن بكيـت وفـاض دمعـي ... رأت عينـــاي بينـــهمو مكـــاني

قال : ومشيت قليلاً ودمعي مسكوب ، وقلبي من فراق الأحباب مسلوب ، فوجدت على قبر لوحاً وعليه مكتوب هذه الأبيات :

يـا أيهـا النـاس كـان لي أمـل ... قصـر بي عـن بلوغـه الأجـل
فليـــق الله ربـــه رجـــل ... أمكنـــه في حياتـــه العمـــل
ما أنا وحدي جعلت حيث ترى ... كـــل إلى مـــا نقلـــت ينتقـــل

وقال : وجدت على قبر مكتوباً :

قـف واعتـبر فقريبـا ... تحـلّ هـذا المحـلا
هـذا مكـان يسـاوي ... فيـه الأعـز الأذلا

وقال : وجدت امرأة تبكي على قبر ولدها وتنشد :

بـالله يـا قـبر هـل زالـت محاسـنه ... وهـل تغـير ذاك المنظـر النضـر
يا قبر ما أنـت لا روض ولا فلـك ... فكيف يجمع فيك الشمس والقمـر

وقال أيضاً : مررت يوماً بقبور كنت أعرف أهلها أهل سرور ولذات ورفاهية وشهوات . فرأيت في لوح منها مكتوباً هذه الأبيات :

أيها الماشي بين هذي القبور غافلاً عن معقبات الأمور
ادن مني أنبيك عني ولا ينـ ـبيك عني يا صاح مثل خبير
أنا ميت كما تراني طريح بين أطباق جندل وصخور

أنا في بيت غربة وانفراد مع قربي من جيرتي وعشيري ليس لي فيه مؤنس غير سعي
من صلاح سعيته أو فجور فكذا أنت فاعتبر بي وإلا صرت مثلي رهين يوم النشور

[**وروى عن الفضيل بن عياض ، وقيل ابن الموفق رحمة الله عليه**] قال : كنت آتي قبر أبي المرة والمرتين وأكثر زيارته فشيعت يوماً جنازة إلى المقبرة التي أبي فيها وكان ورائي شغل فتعجلت الرواح فلم أزره . فلما كان الليل رأيته في المنام . فقال : يا بني إنك أتيت بالأمس ولم تأتني . فقلت : يا أبت وإنك لتعلم بي إذا أتيتك . فقال : إي والله يا بني إنك لتأتيني فلا أزال أنظر إليك حين تجوز القنطرة إلى أن تصل إليّ وتقعد عندي ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

[**ويروى**] أن فارساً مرّ بغلام فسأله : يا غلام أين العمران ؟ فقال له : اصعد الشرف فصعد فأشرف على المقبرة فقال : إن هذا الغلام إما جاهل أو حكيم فرجع إليه فقال له : سألتك عن العمران فدللتني على المقابر ؟ فقال الغلام : إني رأيت أهل تلك ينقلبون إلى هذه ولم أر أحداً ينقلب من هذه إلى تلك وإنما ينقلب من الخراب إلى العمران ولو سألتني عما يواريك ودابتك لدللتك ثم أنشد :

نفس زوري القبور واعتبريها حيث فيها لمن يزور عظات
وانظري كيف حال من حلّ فيها بعد عز وهم بها أموات
حرصوا أملوا كحرصك يا نفس ووافاهم الحمام فماتوا
فالسراة العظام منهم عظام في بطون الثرى حطام رفات
فكأن قد حللت في مصرع القو م وحلت بجسمك المثلات

[**وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما**] عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من يوم إلا وملك الموت يهتف في المقابر فينادي يا أهل القبور من تحسدون اليوم ؟ فيجيبونه فيقولون : نحسد أهل المساجد في مساجدهم يصلون ولا نقدر أن نصلي ، ويصومون ولا نقدر أن نصوم ، ويتصدقون ولا نقدر أن نتصدق ، ويذكرون ولا نقدر أن نذكر فيندمون على ما مضى من زمانهم » :

رب يــا ربــاه هــذا جســدي تحــت أطبــاق الثــرى مرتهنــا
مــا أرى لي عمــلاً لكــن أرى يــا آلــهي فيــك ظنــي حســنا
وعلى عفوك يـا ذا الفضـل قـد كنـت في دنيـاي أحسـنت الثنـا
فأقــل عثــرة عبــد مــذنب وتجــاوز واعــف عنــه محســنا

[وعن الأوزاعي رحمة الله عليه] قال : مرّ ميسرة بن الحسين بالمقابر يوماً وكان يسكن المصيصة وقائده يقوده وكان مكفوف النظر حتى إذا صار إلى المقبرة قال له قائده : هذه المقبرة يا ميسرة ، فقال : السلام عليكم يا أهل القبور أنتم لنا سلف ونحن لكم خلف ، فرحمنا الله وإياكم وغفر لنا ولكم وبارك لنا ولكم في القدوم عليه إذا صرنا إلى مـا صـرتم إليـه ، قـال : فـرد الله تعـالى الروح إلى رجل منهم فأجابه بلسان فصيح ، فقال : طوبى لكم يا أهل الدنيا تحجون في الشـهر أربع مرات . قال ميسرة : وكيف نحج في الشهر أربـع مـرات يرحمـك الله ؟ قـال : المشـي إلى الجمعة ، أما تعلمون أنها حجة مبرورة متقبلة ؟ قال : فأخبرني بما قدمتم عليه ونفعكم يـرحمكم الله ؟ قال : الاستغفار لأهل الدنيا أنفع الأشياء في الآخرة ، قال : فما منعكم أن تردوا السلام علينا ؟ قال : السلام حسنة والحسنات قد رفعت عنا فلا حسنة تزيد ولا سيئة تـنقص ، وقـد رضينا منكم بقولكم رحم الله فلاناً المتوفى ، فاغتنموا رحمكـم الله الأعمـال الصـالحة واجتنبـوا الأعمال الخبيثة واصرفوا هممكم عن عمارة ما يفنى إلى عمارة الأجداث فكأنكم بساقي المنية ، وقد أدار كأسه على الذكور والإناث :

يـا آمـن الأقـدار بـادر صـرفها واعلـم بـأن الطـالبين حثـاث
خذ من تراثك ما استطعت فإنما شـــركاؤك الأيـــام والـــورّاث
المال مال المرء مـا بلغـت بـه الـــ ـشهوات واندفعت به الأحداث
مـا كـان منـه فاضـلاً عـن قوتـه فليــــوقنن بأنـــــه مــــيراث
مـا لي إلى الـدنيا الغـرورة حاجـة مـات الـذكور بهـا ومـات إنـاث

[وقالت عائشة الأندلسية رحمة الله عليها وكانت من الصالحات] : مات ولـد لي فكنـت أزوره في كل أسبوع مرة ، فكنت إذا قربت من قبره سمعت جيرانه من الموتى يقولون : يـا فـلان هـذه أمك قد جاءت إليك ، فكنت أنظر إلى قبره كأنه يضحك لي فأسرّ بذلك :

لــو كلــم الميــت مــن يشيعه لقـــال لا تغتـــر فأنـــت أنـــا
قـــد كنـــت ألهـــو وغـــرني أملـــي عـــاجلني المـــوت مـــا بلغـــت مـــني

[وقال الحارث بن نبهان رحمه الله] : كنت أخرج إلى الجبانات فأترحم على أهـل القبـور وأتفكـر فيهم وأعتبر بأحوالهم ، فأنظر إليهم سكوتاً لا يتكلمون وجيراناً لا يتزاورون قد صار لهـم مـن بطن الأرض وطاء ومن ظهرها غطاء وأنادي : يا أهل القبور محيت من الدنيا آثاركم وما محيت

عنكم أوزاركم وسكنتم في دار البلى فتورمت أقدامكم . قال : ثم أبكي بكاءً شديداً ثم أميل إلى قبة فيها قبر فأنام في ظلها . قال : فبينما أنا نائم إلى جانب القبر وإذا بصاحب القبر وفي عنقه سلسلة ، وقد ازرقت عيناه واسود وجهه وهو يقول : يا ويلتي ماذا حل بي لو رآني أهل الدنيا لما ركبوا معاصي الله عز وجل أبداً طولبت والله باللذات فأوثقتني ، وبالخطايا فأغرقتني ، فهل من سامع أو مخبر أهلي بأمري ؟ قال الحارث : فاستيقظت وأنا مرعوب وكاد أن يخرج قلبي من هول ما رأيت ، فمضيت إلى داري وبت ليلتي وأنا متفكر فيما رأيت ، فلما أصبحت قلت : دعوني أعود إلى الموضع الذي كنت فيه بالأمس لعلي أجد به أحداً من زوّار القبور فأعلمه بالذي رأيت . فلما مضيت إلى المكان الذي كنت فيه بالأمس لم أجد به أحداً فنمت وإذا بصاحب القبر يسحب على وجهه وهو يقول : يا ويلتاه ماذا حل بي ساء في الدنيا عملي وطال فيها أجلي ، قد غضب عليّ رب الأرباب ، فالويل لي إن لم يرحمني وينقذني من العذاب . قال الحارث : فاستيقظت وقد توله عقلي مما رأيت وسمعت فرجعت إلى داري وبت ليلتي . فلما أصبحت أتيت القبر لعلي أجد أحداً من زوار القبور فأعلمه الذي رأيت ، فلم أجد أحداً من زوار القبور ، فأخذني النوم فرأيت صاحب القبر ، وقد قرن بين قدميه وهو يقول : ما أغفل أهل الدنيا عني ضوعف عليّ العذاب وتقطعت عني الحيل والأسباب ، وغضب عليّ رب الأرباب ، وغلق في وجهي كل باب فالويل لي إن لم يرحمني العزيز الغفار الوهاب . قال الحارث : فاستيقظت من منامي مرعوباً وهممت بالانصراف وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار فتباعدت عنهن وتواريت عن التربة لكي أسمع كلامهن ، فتقدمت الصغرى حتى وقفت وقالت : السلام عليك يا أبتاه كيف أصبحت وكيف هدوءك في مضجعك وكيف قرارك في موضعك ؟ ذهبت عنا بودِّك وانقطع عنا خير سؤلك فما أشدّ حزننا عليك وشوقنا إليك ، ثم بكت بكاءً شديداً ، ثم تقدمت الاثنتان فسلمتا على القبر ، ثم قالتا : هذا قبر أبينا الذي كان شفيقاً علينا والرحيم بنا آنسك الله برحمته وصرف عنك شرّ عذابه ونقمته ، يا أبتاه جرت بعدك أمور وهموم لو عاينتها لأهمتك ولو اطلعت عليها لأحزنتك كشف الرجال وجوهنا ، وقد كنت أنت تسترها . قال الحارث : فبكيت لما سمعت كلامهن ، ثم قمت مسرعاً إليهن فسلمت عليهن وقلت لهن : أيتها الجواري إن الأعمال ربما قبلت وربما ردت على صاحبها فما كان عمل أبيكما المخلد في هذا القبر الذي عاينت من أمره ما أحزنني واطلعت من حاله على ما أبكاني وأهمني . قال الحارث : فلما سمعن كلامي كشفن عن وجوههن وقلن : يا أيها العبد الصالح وما الذي رأيت ؟ قلت : لي ثلاثة أيام أتردد إلى هذا القبر أسمع صوت المقمعة والسلسة فيه . قال : فلما سمعن ذلك قلن لي : هذه بشارة ما أضرها ومصيبة ما أحرّها نحن

نقضي الأوطار ونعمر الديار وأبونا يحرق بالنار ، فوالله لا قرّ لنا قرار ولا أخذنا نوم ولا اصطبار حتى نتضرع إلى الكريم الغفار فلعله يعتق أبانا من النار ثم مضين يعثرن في أذيالهن .
قال الحارث : فمضيت إلى داري وبت ليلتي . فلما أصبحت أتيت القبر فجلست عنده وأنا متفكر في حاله ، فغلبني النوم فنمت فإذا بصاحب القبر له حسن وجمال وفي رجليه نعل من ذهب ومعه خدم وغلمان . قال الحارث : فسلمت عليه وقلت له : يرحمك الله من أنت ؟ قال : أنا الرجل الذي عاينت من أمري ما أحزنك واطلعت من حالي على ما أرجفك فجزاك الله عني خيراً ، فما أبرك طلعتك عليّ فقلت له : وكيف كان حالك ؟ فقال : لما طلعت عليّ وأخبرت بناتي بالأمس بحالي ، ورجعن إلى منازلهن أهملن عيونهن وأرسلن شعورهن وتضرعن لمولاهن ومرغن خدودهن في التراب واستوهبنني من العزيز الوهاب فغفر لي الذنوب والأوزار وأنقذني من النار وأسكنني دار القرار بجوار النبي المختار فإذا رأيت بناتي فأعلمهن بأمري وما كان من قصتي ليزول عنهن روعهن ويفارقهن حزنهن ، أعلمهن أني صرت إلى جنان وقصور وولدان وحور ومسك وكافور وفرحة وسرور ، وقد عفا عني العزيز الغفور . قال الحارث : فاستيقظت فرحاً مسروراً لما رأيت وسمعت ، فمضيت إلى داري وبت ليلتي . فلما أصبحت أتيت القبور فوجدتهن حافيات الأقدام عليهن آثار الحزن والاغتمام ، فسلمت عليهن وقلت لهن : أبشرن ، فقد رأيت أباكن في خير عظيم وملك مقيم ، وقد أخبرني أن الله تعالى أجاب دعاءكن ولم يخيب مسعاكن ، وقد وهب لكن أباكن فاشكرنه على ما أولاكن . فقالت الصغرى : اللهم يا مؤنس القلوب ويا ساتر العيوب ويا كاشفاً عنا الكروب ويا غافر الذنوب ويا عالم الغيوب ، قد علمت ما كان من مسألتي ومسكنتي واعتذاري في خلوتي وإقالتي من زلتي وتنصلي من خطيئتي وأنت اللهم تعلم همتي والمطلع على نيتي والعالم بطويتي ومالك رقبتي والآخذ بناصيتي وغايتي في مطلبي ورجائي عند شدتي ومؤنسي في وحدتي وراحمي في غربتي ومقيل عثرتي ومجيب دعوتي ، فإن كنت قصرت في طاعتي وارتكبت ما عنه نهيتني فبجاهك حميتني وبسترك سترتني : فيا أكرم الأكرمين ، ويا منتهى غاية الطالبين ، ومالك يوم الدين ، أنت تعلم ما أخفي في الضمير وتدبر أمر الصغير والكبير ، فإن كنت قضيت حاجتي بفضلك وشفعتني في عبدك أبي الفقير الذليل الحقير ، فاقبض إليك روحي وأنت على كل شيء قدير ، ثم صرخت صرخة فارقت الدنيا رحمة الله عليها . ثم تقدمت الثانية فنادت بأعلى صوتها : اللهم يا رب الأرباب ويا معتق الرقاب من النار والعذاب فرج كربتي وخلص من الشك قلبي ، يا من أقامني من صرعتي وأقالني من عثرتي ودلني من حيرتي وأغاثني في شدتي إن كنت قبلت دعوتي وقضيت حاجتي وعمرت بذلك قلبي فألحقني بأختي ، ثم صرخت صرخة فارقت الدنيا

رحمة الله عليها . قال : ثم تقدمت الثالثة فنادت بأعلى صوتها : يا أيها الجبار الأعظم والملك الأكرم والعالم بمن سكت وتكلم ، لك الفضل العظيم والملك القديم والوجه الكريم ؛ العزيز من أعززته ، والذليل من أذللته ، والشريف من شرّفته ، والسعيد من أسعدته ، والشقي من أشقيته ، والقريب من أدنيته ، والبعيد من أبعدته ، والمحروم من حرمته ، والرابح من وهبته ، والخاسر من عذبته : أسألك باسمك العظيم ، ووجهك الكريم ، وعلمك المكنون ، الذي بعد عن إدراكه الأفهام ، وخفي عن مناولته الأوهام ، وأسألك باسمك الذي جعلته على الليل فدجا ، وعلى النهار فأضاء ، وعلى الجبال فتدكدكت ، وعلى الرياح فعصفت ، وعلى السماوات فارتفعت ، وعلى الأرض فسطحت ، وعلى الملائكة فسجدت ، اللهم إن كنت قضيت حاجتي وأنجحت طلبتي وأجبت دعوتي فألحقني بإخوتي ، ثم صرخت صرخة فارقت الدنيا رحمة الله عليهن . قال الحارث : فتعجبت من أحوالهن وتقارب آجالهن . فللّه درّ أقوام أمروا فامتثلوا وعملوا فقبلوا وعلى مرادهم حصلوا ، طلبوا وصاله فبحبل حبه وصلهم ، ودعوا مولاهم فاستجاب لهم ؛ أخلصوا في خدمته قولاً وفعلاً وقضوا في طاعته فرضاً ونفلاً ، وطلبوا لقاءه فأحب لقاءهم ومنحهم قرباً ووصلاً وماتوا على دين حبه لما كانوا لذلك أهلاً :

تجلى لهم سراً فأفنى وجودهم ... ولم يبق من أجسادهم مفصلاً أصلا
وأضحوا نشاوى من مدامة حبه ... وأرواحهم تسمو إلى الملأ الأعلى
تفانوا على دين الغرام فأصبحوا ... بسيف الهوى في حب محبوبهم قتلى
سقاهم كؤوس الحب صرفاً وحبذا ... كؤوس بصافي الود من حبه تملا
وناداهم الليل قد مدّ ستره ... وأوردهم من فضله المورد الأحلى
وأشهدهم أنوار حسن جماله ... وبوأهم من قربه الفضل والوصلا
فهاموا به لما رأوه صبابة ... وقد عدموا في حبه الذهن والعقلا
وقال أبشروا ثم انظروا وتمتعوا ... فهذا جمالي قد بدا لكم يجلى
فيا معشر الأحباب يهنيكم اللقا ... فسعدكمو وافى وحزنكمو ولى
فيا رب بالهادي البشير محمد ... نبي زكا فرعاً كما قد زكا أصلا
ومن قد رقى نحو السماء مشرّفاً ... وفضلته حقاً وألهمته عدلا
أجرنا من النيران واغفر ذنوبنا ... فنحن أتينا منك نستمطر الفضلا
عليه سلام الله ما سرت الصبا ... وما لاح نور من محاسنه يجلى

المجلس الرابع

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي اختار من عباده من صح للعبادة وانتقى ، وجعلهم خداماً وقسمهم أقساماً وفرقاً ، خصهم بعنايته ونظر إليهم ورعاهم برعايته ، وأخذ عليهم عهداً وموثقاً ، صافاهم فاصطفاهم وناداهم فأدناهم ؛ وحياهم بالوصل واللقا . رفعهم من حضيض نفوسهم إلى حضرة أنيسهم وسقاهم بكأس تسبيحهم وتقديسهم شراباً قديماً مروقاً ، فطاب كل منهم لنشوة شرابه وسكر عند سماع خطابه ، وسما إلى حضرة أحبابه وارتقى ، وتجلى لهم على طور السحر فتملى المحب وفاز بالنظر وخر كليم الوجد منهم صعقاً ، أفناهم عن الوجود فجادوا بالموجود ولم يتركوا رمقاً ؛ أودعهم سرائر محبته فخافوا من غيرته فجعلوا عليهم باباً مغلقاً ، ففاح أرجها إلى مشام القلوب ، فاستنشقت من جانب المحبوب نشراً عبقاً ، وسرى سرها الخفي وأرجها الزكي إلى سر سرّي السقطي ، فسار على الآثار مستبقاً ، وإلى الشبلي فبات لعرائس المحبة يستجلي ، وإلى أبي يزيد فطلب المزيد وازداد حرقاً ، وإلى الجنيد فأضحى في قيد المحبة موثقاً ، وإلى الفضيل فشمر في خدمته الذيل وسار مذ وافى الليل على خيل التوفيق بعد قطع الطريق مرفقاً ، وإلى الخواص فغاص في بحار الإخلاص وأضحى من جواهر الخواص منتقى ، وإلى سمنون فظهر عليه من المحبة والوجد فنون ، فهام في الجبل كالمجنون ونادى بلسان أشواقه ودموع آماقه تتدفق تدفقاً :

أطعمتموني في الوصال وفي اللقا ... وهجرتموني فالتهبت تحرّقا
يا مالكي رقي وغاية مطلبي ... رفقاً فقد ذاب الفؤاد تشوقا
حاشاكمو أن تطردوني سادتي ... وبحبكم قلبي غدا متعلقا
يا سادتي لم يهن لي من بعدكم ... عيش ولا عاينت شيئاً مونقا
إن مت من وجدي وفرط صبابتي ... شوقاً إلى رؤياكم لكم البقا
يا نفس قد زال العنا فتمتعي ... بوصال من تهوى فقد زال الشقا
وجلا الحبيب جماله فلأجل ذا ... أصبحت من وجدي به متمزقا
هاكم فؤادي فتشوه فإن تروا ... فيه لغيركمو هوى وتشوّقا
فتحكموا فيه بما يرضيكمو ... يا منيتي إن خان يوماً موثقا
وإذا فنيت بحبكم فيحق لي ... إن الفناء بحبكم عين البقا

[وقال عبد الرحمن بن المهذب رحمة الله عليه] : مررت يوماً بسوق الرقيق فوجدت دلالاً ينادي على عبد ويقول أبيعه على عيبه . فقلت للدلال : ما العيب الذي فيه ؟ فقال : سله يا مولاي فدنوت من الغلام وقلت له : ما العيب الذي فيك ؟ فقال : يا سيدي عيوبي كثيرة فلا أدري بأيها أشهروني ، فقلت للدلال : أخبرني ما العيب الذي في هذا الغلام ؟ فقال : به داء الجنون ، فقلت للغلام : كيف يأتيك هذا الصرع ، أفي كل سنة أم في كل جمعة أم في كل شهر ؟ فقال : يا مولاي إذا استولى داء المحبة على القلب سرى في الأعضاء كلها ، وإذا استولى على الجوارح انتشر خمار المحبة في سائر الجسد فطاش العقل بذكر الحبيب وأحدث على القلب استغراقاً وعلى البدن سكوناً فيعتقده الجاهل جنوناً . قال عبد الله : فعلمت أن الغلام من أولياء الملك العلام ، فقلت للدلال : كم ثمن هذا الغلام ؟ فقال : مائتا درهم . قلت : ولك عشرون ، فوزنت له الثمن وأخذت الغلام وأتيت به إلى الدار ، وأمرته بالدخول ، فأبى وقال : يا سيدي ألك أهل ؟ قلت : نعم ، قال : ومن يستطيع أن ينظر إلى غير محرمه ؟ فقلت له : قد أبحت لك ذلك ، فقال : معاذ الله ، لكن مهما كان لك من حاجة قضيتها وأنا دون الباب فسكتّ عنه وتركته ، ثم أخرجت له طعاماً فقال : إني صائم ، فلما كان الليل أخرجت له عشاء فقال : إني طاو ، وقام عندي في دهليز الدار ، فخرجت إليه نصف الليل فوجدته قائماً يصلي ولم يشعر بي ، فلما فرغ من صلاته سجد وبكى بكاءً شديداً ، فسمعت من مناجاته : إلٓهي أغلقت الملوك أبوابها وبابك مفتوح للسائلين . إلٓهي غارت النجوم ونامت العيون وأنت الحي القيوم ، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، إلٓهي فرشت الفرش وخلا كل حبيب بحبيبه وأنت حبيب المجتهدين يا أنيس المستوحشين . إلٓهي إن طردتني عن بابك فإلى باب من ألتجي ، وإن قطعتني عن خدمتك فخدمة من أرتجي. إلٓهي إن عذبتني فإني مستحق العذاب والنقم ، وإن عفوت عني فأنت أهل الجود والكرم ، ثم جلس ورفع يديه وبكى وقال : يا سيدي لك أخلص العارفون وبفضلك نجا الصالحون وبرحمتك أناب المقصرون ، يا جميل العفو أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك وإن لم أكن أهلاً لذلك فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ، فدخلت الدار ولم أشوّش عليه . فلما أصبح الصباح خرجت إليه فقلت له : كيف نمت البارحة ؟ فقال : يا سيدي أو ينام من يخاف النار والعرض على الملك الجبار والتوبيخ غداً على الذنوب والأوزار ؟ ثم بكى طويلاً فقلت : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى ، فبكى وقال : يا سيدي كان لي أجران أجر العبودية وأجر الخدمة ، وقد ذهب عني أحدهما أعتقكَ الله من نار جهنم ، قال : ثم دفعت إليه نفقة فأبى قبولها ، ثم قال : إن المتكفل بالأرزاق حي لا يموت ، ثم خرج هائماً على وجهه لا أدري أين ذهب ، فواشوقاه إلى أرباب القلوب وواحزناه على فوات المطلوب .

يا محبوساً في سجن الغفلة لو أشرفت على وادي الرجاء لرأيت خيم قوم مضروبة على شاطىء بحر ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] وسمعت أطيار أشجانهم على أغصان أحزانهم تترنم بأصوات : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] لذّ لهم السهر ، وصفا وقتهم من الكدر ، وراق لهم وقت السحر ، وخلوا بالمحبوب ، ففازوا بالمشاهدة والنظر :

هذا المحب مع المحبوب قد حضرا ... وسامح الكل عما قد مضى وجرى
وقد أدار على العشاق خمرته ... صرفاً يكاد سناها يخطف البصرا
يا سعد كرر لنا تذكاره فلقد ... بلبلت أسماعنا يا مطلب الفقرا
وما لركب الحي مالت معاطفه ... لا شك أن حبيب القوم قد حضرا
غداً غداً تنظر الأعلام قد رفعت ... أمامهم علم للوصل قد نشرا
ومجلس الأنس بالمحبوب يجمعهم ... والكأس دائرة ما بينهم سحرا
ومن سقاهم تجلى لا شبيه له ... حاشاه يشبه لا شمساً ولا قمرا
منزه عن شريك في جلالته ... موحد في علاه ليس فيه مرا
فمن أتاه فقيراً لا مراد له ... سواه يكتبه من جملة الأمرا
هذا السماع الذي تشفي الصدور به ... هذا الحبيب الذي قد هيم الفكرا
صوفية عندما ضاقت صدورهم ... أزال عنهم جميع الشك والكدرا

[وقال محمد بن الفضيل] : رأيت شاباً راقداً على الأرض ، وقد افترش التراب وهو يئنّ أنيناً شديداً ، فقلت لصاحبي : اعدل بنا إليه فإنه عليل ، فقال : ما هذا عليل ، هذا في الباطن من المحبين ، وفي الظاهر من المجانين فقلبه بحب مولاه مفتون وهو يدعى بعبيد المجنون ، فتقربت إليه فإذا هو شاب نحيف الجسم وعليه جبة صوف بالية وهو يقول : عجباً لمن ذاق حلاوة محبتك كيف ينقطع عن خدمتك ، ثم لم يزل يردد ذلك القول حتى غشي عليه ، فقلت لصاحبي : والله ما المجنون إلا الذي لم يصل إلى هذا المقام ، فلما أفاق من غشيته قال : ما بالكم تنظرون إليّ ؟ قلنا : لعل دواء يشفي من الداء الذي تجده ؟ قال : إن الذي ابتلى بالداء عنده الدواء ، ولكن الذي يريد أن يتداوى يحتمي . قلت : بماذا ؟ قال : بترك الحرام وتجنب الآثام ، ومراقبة الملك العلام ، والتهجد بالليل والناس نيام ، ثم بكى بكاءً شديداً طويلاً وبكينا معه وقلنا له : نحن أضيافك ، فادع لنا . فقال : ما أنا من خيل هذا الميدان فأقسمنا عليه . فقال : تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال ، وجعل قراكم المغفرة ، وجعل مثواكم الجنة ، وجعل ذكر الموت مني ومنكم على بال ، ثم انصرفنا عنه ، وقد عجبنا

من حسن لفظه وعاشت قلوبنا بكلامه ووعظه . يا هذا هذه حالة المجانين من حب الحبيب فكيف حالك أيها العاقل اللبيب ؟ يدعوك مولاك فلا تجيب ويأمرك بالإنابة فلا تنيب ويستحضرك إلى حضرات قربه وأنت في المغيب ، إلى متى تضيع عمرك وما نلت من نصيب ؟ إلى متى أنت بعلة زلتك ولا ترفع قصة غصتك إلى طبيب ؟ ويحك بادر بالتوبة إلى بابه ، وعفر الخد على أعتابه فهو منك قريب ، واسأله الهداية والتوفيق ، واقصده في تفريج الهم والضيق ، فقاصده لا يخيب ، وتقرب إليه بما يرضيه واحذر من معاصيه ، فإنه حاضر لا يغيب ، وادعه حين تناجيه ، فإنه لداعيه مجيب ، وتب في هذه الساعة إليه وتضرع بين يديه بالبكاء والنحيب ، فعسى أن يجتبيك لطاعته ويهديك بهدايته فإن ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ : [الشورى : ١٣] [كان وكان] :

تعصي وتغلق بابك ... كيلا يرونك تفضح ... نسيت أني حاضر ... ولي عليك رقيب
تزعم بأنك عاقل ... وأنت من أهل الذكا ... وبعت حضره بنظره ... ما ذلك فعل لبيب
عمرك مضى وتقضى ... بقي القليل وترتحل ... فجدّ إن كان رأيك ... في الحزم رأي مصيب
فانهض وهيىء زادك ... تنل مرادك والمنى ... وراع غصن شبابك ... ما دام غصن رطيب
وقف بباب المولى ... وادعوه في وقت السحر ... فالوقت رائق لائق ... والرب منك قريب
مولى تجافيه يحنو ... وإن نسيته يذكرك ... وإن دعاك تولى ... وإن دعوت يجيب
فاضرع إليه ونادي ... بذلة يا سيدي ... يا من عليه اتكالي ... ومن إليه أنيب
أنا المقر بذنبي ... وأنا المسيء لشقوتي ... حاشا رجائي وظني ... يا رب فيك يخيب
وليس لي من شفيع ... إلا النبي المصطفى ... ومن لدنك اصطفيته ... دون الأنام حبيب
صلى عليه وسلم ... رب السموات العلى ... ما سار سائر إليه ... بناقة ونجيب

[قال الجنيد رحمة الله عليه] : جلست يوماً بين أصحابي نتذاكر عباد الله الصالحين ، فقال السري : كنت يوماً جالساً في بيت المقدس عند الصخرة ، وكانت أيام العشر وأنا متحسر على التخلف عن الحج في تلك السنة . فقلت في نفسي : إن الناس قد توجهوا إلى مكة ولم يبق إلا أيام قلائل وأنا ههنا مقيم فبكيت على فوات نصيبي وتخلفي ، فسمعت هاتفاً يقول : يا سري لا تبك فإن الله تعالى يقيض لك من يوصلك إلى الحج . فقلت : وكيف يكون ذلك وقد بقي أيام يسيرة وأنا ببيت المقدس ؟ فقال : لا تحزن إن الملك القدير يهون عليك العسير ، فسجدت شكراً لله تعالى وجلست أنتظر صدق الهاتف ، وإذا بأربعة شباب قد دخلوا من باب المسجد كأن الشمس تطلع من وجوههم والنور يلمع من جباههم يقدمهم شاب عليه هيبة وجلالة وهم خلفه وعليهم لبس الشعر ، وفي أرجلهم نعال الخوص ، فدنوا من الصخرة ودعوا الله تعالى ،

فامتلأ المسجد من أنوارهم فقمت معهم وقلت : يا رب ! لعل هؤلاء الذين رحمتني بهم ورزقتني صحبتهم ، فدخلوا القبة والشاب أمامهم وهم خلفه ، فصلى كل واحد منهم ركعتين والشاب قائم يناجي ربه ، فدنوت منه لأسمع مناجاته فبكى ، ثم كبر وصلى صلاة سلبت فؤادي ولبي ، فلما فرغ جلس وجلس الثلاثة بين يديه فدنوت منهم . وقلت : السلام عليكم ، فقال الشاب : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، يا سري يا صاحب الهاتف الذي هتف بك اليوم وبشرك بأن لا يفوتك الحج في هذه السنة ، فكدت أن أصعق وامتلأ قلبي فرحاً وسروراً . فقلت : نعم يا سيدي هتف بي هاتف قبل ورودكم بساعة . فقال : نعم يا سري كنا قبل أن يهتف بك الهاتف بساعة في بلاد خراسان قاصدين بغداد ، فقضينا حوائجنا وعزمنا على القصد إلى بيت الله الحرام . فأحببنا زيارة قبور الأنبياء بالشام ثم نقصد مكة شرفها الله تعالى وقد قضينا حقوقهم وزرناهم وأتينا إلى ههنا نزور البيت المقدس ، فقلت له : يا سيدي وما كنتم تصنعون بخراسان ؟ فقال : لأجل الاجتماع بإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي إخواننا في الله عز وجل فجئنا إلى بغداد نقصد البيت الحرام ، فجئت أنا إلى بيت المقدس لأجل الزيارة وذهبا هما من طريق البادية . فقلت : يرحمك الله من خراسان إلى بيت المقدس مسيرة سنة ، فقال : ولو كانت الطريق ألف سنة ، العبيد عبيده ، والأرض أرضه ، والسماء سماؤه ، والزيارة لبيته والقصد إليه ، والإبلاغ عليه ، والقوة والقدرة له . أما ترى الشمس كيف تسير من المشرق إلى المغرب في يوم واحد ؟ أهي تسير بقوتها أم بقوة القادر وإرادته . فإذا كانت الشمس وهي جماد لا حساب عليها ولا عقاب تقطع من المشرق إلى المغرب في يوم واحد ، فليس بعجيب أن يبلغ عبد من عبيده من خراسان إلى بيت المقدس في ساعة واحدة ، فإن الله تعالى له القوة والقدرة وخرق العوائد لمن يحب ويختار . يا سريّ عليك بعز الدنيا والآخرة ، وإياك أن تصل إلى ذل الدنيا والآخرة ، فقلت : يرحمك الله أرشدني إلى عز الدنيا والآخرة ؟ فقال : من أراد غنى بلا مال ، وعلماً بلا تعلم ، وعزاً بلا عشيرة ، فليخرج حب الدنيا من قلبه ولا يركن إليها ولا يطمئن بها ، فإن صفوها ممزوج بكدرها ، وحلوها منغص بمرها . فقلت له : يا سيدي بالذي خصك بأنواره ، وأطلعك على أسراره أين تقصد ؟ قال : الحج إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر سيد الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فقلت : والله لا أفارقك فإن فراقك أشد من فراق الروح للجسد . فقال : بسم الله ، فخرجت معهم من البيت المقدس إلى البادية ولم نزل نسير حتى قال : يا سري هذا وقت الظهر أما نصلي ؟ فقلت : بلى ، فعزمت على التيمم بالتراب . فقال : إن ههنا عين ماء ، فعدل عن الطريق وإذا بعين ماء أحلى من الشهد فتوضأت وشربت فقلت : والله لقد سلكت هذا الطريق مراراً

ولم يكن ههنا عين ماء . فقال : الحمد لله على لطفه بعباده فصلينا الظهر ، ثم سرنا إلى وقت العصر فبانت أعلام الحجاز ولاحت لنا حيطانها . فقلت : هذه أرض الحجاز ، فقال لي : قد وصلت إلى مكة فأخذني البكاء والنحيب ، ثم قال : يا سري تدخل معنا ؟ قلت : نعم فدخلنا من باب الندوة فرأيت رجلين أحدهما كهل والآخر شاب . فلما نظراه تبسما وقاما فعانقاه وقالا : الحمد لله على السلامة . فقلت : يرحمك الله من هؤلاء ؟ قال : أما الكهل فإبراهيم بن أدهم ، وأما الشاب فمعروف الكرخي ، فصلينا صلاة المغرب والعشاء ثم قام كل منهم إلى الصلاة . فقمت أنا ووافقتهم بحسب طاقتي فغلبني النوم في السجود . فلما انتبهت لم أر أحداً منهم فبقيت كالمجنون الهائم ، وطفت عليهم في المسجد وفي مكة وفي منى فلم أجدهم ، فرجعت باكياً حزيناً لتخلفي عنهم ، وفوت نصيبي عنهم :

سريتم ولم لا تصحبوني في الركب … فيا جفن لا تبخل عن الصب بالصب
وأعلم حقاً أن بعدي عنكم … لذنب جرى لكنني تبت من ذنبي
وحرمة ركب أحرموا وتوجهوا … لمحبوبهم أكرم بذلك من ركب
يحنون نحو الشعب شوقاً وما لهم … مراد ولا قصد سوى ساكن الشعب
وما زال حادي الشوق يحدو قلوبهم … ويسري بهم إذ أوصلوا الحب بالحب
وقد ذللوا تلك الوجوه لعزه … وقد عفروا تلك الوجوه على الترب
ورب الصفا والطائفين ببيته … يلوذون بالأستار منه وبالحجب
لقد أوحشوا الصب المشوق ببعدهم … ولكنهم بالذكر قد آنسوا قلبي

[إخواني] اسمعوا صفات هؤلاء الأقوام كتموا الغرام ، ولزموا الهيام ، وأفشوا السلام ، وبذلوا الطعام ، وأداموا الصيام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، وجانبوا الآثام ، وانفردوا عن الأنام ، وخلوا لمناجاة الملك العلام أطاعوه في الخلوات ، فمحا عنهم السيئات ، ورفع لهم الدرجات . ركبوا بحر الندامة ، وأقلعوا بريح الملامة ، فوصلوا إلى بر السلامة . طهر قلوبهم وستر عيوبهم وغفر ذنوبهم ، وبلغهم مطلوبهم . عرفوه فألفوه ، ورأوه أهلاً للعبادة فعبدوه ، ووجدوا الربح في معاملته فعاملوه ، وعلى الصدق والوفاء بايعوه ، فهم في حكم قبضة التدبير حيارى ما بين قتيل وأسير ، قد أسبلوا العبرات على الوجنات وواصلوا الزفرات بالحسرات ونادوا : يا من لا تحيط به الجهات ولا تختلف عليه الأصوات أنقذنا من ظلم الآفات إلى نور إدراك الصفات . يا من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات :

قوم بمحبوبهم في دهرهم شغلوا … وفي محبته أرواحهم بذلوا

وخرّبوا كل ما يفنى وقد عمروا ما كان يبقى فيا حسن الذي عملوا
لا زينة الأرض تلهيهم وتعجبهم ولا جناها ولا حلى ولا حلل
تاهوا عن الكون من وجد ومن طرب وما استقل بهم ربع ولا طلل
داعي التشوق ناداهم فأقلقهم فكيف يهدوا ونار الشوق تشتعل
وشقة البيد تطوي في السرى لهمو وكل قاص دنا حتى به اتصلوا
وافت لهم خلع التشريف يحملها عرف النسيم الذي من نشره ثملوا
هم الأحبة أدناهم لأنهم عن خدمة الصمد القيوم ما غفلوا

[**جاء في الحديث عن النبي ﷺ**] أنه قال : « الشاب التائب حبيب الله » فهذه المحبة من الله تعالى للعبد إذا كان شاباً تائباً إن الشاب مثل الغصن الرطب ، فإذا تاب وقت شيبوبته وتنعمه بالشهوات واللذات والرغبة فيه من كل الجهات وهو وقت إقبال الدنيا عليه وترك جميع ذلك طلباً لرضا الله تعالى استحق المحبة ، وكان من الأولياء المقبولين عنده . وقيل : إن الشاب إذا تاب ورجع إلى الله تعالى أوقد له بين السماء والأرض سبعون قنديلاً ، واصطفت الملائكة يضجون بالتسبيح والتقديس فإذا سمع إبليس اللعين بذلك قال : ما الخبر ؟ فينادي مناد من السماء : إن العبد قد اصطلح مع مولاه فيذوب اللعين كما يذوب الملح في الماء :

هذا أوان الصلح ما أقعدك عن باب من بالخير قد عوّدك
فإن محوت اليوم ما سطرت أيدي خطاياك فما أسعدك

[وقيل] : إذا طلعت صحيفة العبد مملوءة بالسيئات يقول الله عز وجل للملائكة : ما في صحيفة عبدي وهو أعلم ، فيقولون : إلـهنا إنها لا تصلح للعرض عليك ، فيقول الله تبارك وتعالى : إذا كانت لا تصلح للعرض عليّ فرحمتي تصلح له ، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له وتبت عليه وأنا التواب الرحيم :

ما زلت أعرف بالإساءة دائماً ويكون منك العفو والغفران
لم تنتقصني إن أسأت وزدتني حتى كأنّ إساءتي إحسان
تولي الجميل على القبيح تكرماً أنت الإلـه المنعم المنان
ما لي إليك وسيلة يا سيدي إلا الذي شرفت به عدنان
المصطفى المختار أكرم شافع في الخلق حين تسعر النيران
لم لا وآدم عمه لما استجا ر بجاهه من ربه الإحسان

وكـذاك إدريـس الـنبي بجاهـه — هـيء لـه فـوق السماء مكـان — وكذاك نوح في السفين دعا بـه
فنجـا وعمـم قومـه الطوفـان — وغدت لإبراهيم روضاً مزهـرا — لمـا حللـت بصـلبه الـنيران
وإلى الذبيح نقلت يا خير الـورى — ففداه من كأس الردى الـرحمن — وأبـوك عبـد الله مـن ذبـح نجـا
وأزيـل عنـه بجاهـك الأحـزان — يا سيد الكونين يا علـم الهـدى — يـا مـن بـه تتشـرف الأكـوان

صـلى عليـك الله جـل جلالـه — ما اهتز في روض الحمى الأغصـان

المجلس الخامس

في فضل شهر رمضان وصيامه

الحمد لله المتوحد بجلال البهاء ، المنفرد بدوام القباء ، المتعالي عن الزوال والفناء ، المقـدس عن الآباء والأبناء المتردي برداء العظمة والكبرياء ، العليم بجميع الأشياء ، الـذي جـل عـن الابتداء والانتهاء ، السميع الذي لا تشتبه عليه الأصوات المختلفة في الدعاء ، البصير الـذي يبصر دبيب النمل على الرمل في الليلة الظلماء ، العليم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، الحليم الذي يسبل على من عصاه جميل الستر والغطاء ، المـنعم على من اتقاه بجزيل النعم والعطاء ، الحكيم الذي رفع السماء بغير عمـد في جـو الهـواء ، وبسـط بساط الأرض بحكمته على تيار الماء ، الذي تعالى عن الأضداد والأنداد والقرناء ، وجل عـن الصاحبة والأولاد والشـركاء ، المطلـع الـذي لا يسـتتر عنـه سـر الضـمير في جميـع الأوقـات والآناء ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء :

جـل ربّ أحـاط بالأشـياء — واجـد ماجـد بغـير خفـاء — جـل عـن مشـبه لـه ونظـير
وتعـالى حقـاً عـن القرنـاء — عالم السر كاشـف الضـر يعفـو — عن قبيح الأفعـال يـوم الجـزاء
مـا على بابـه حجـاب ولكـن — هـو مـن خلقـه سميـع الـدعاء — لـذ بـه أيهـا الغفـول وبـادر
تحـظ مـن فضلـه بنيـل العطـاء

فسبحان من قدّر الأزمان ، وفصل الفصول ، وأغرق في بحر معرفتـه الأفكـار والعقـول ، وحير في كنه ذاته والأفهام ، فما لها إلى معرفة صمديته وصول ، وخص شهر رمضـان بـالعفو والغفران والبشر والرضوان والسرور والقبول ، ووعد من صامه ببلـوغ المقصـود والمـأمول ، فطوبى لمن تلقاه بالعمل الصالح ، وطهر فيه الجوارح من الشك والغلول ، فانتبـه أيهـا الغافـل من سنة الغفلة ، وبادر وفي الوقت مهلة قبل مسير القفول :

قد مضى العمر فبادر يا غفول واذكر الرب الذي ليس يزول وضع الخد على باب الرجا
وابك في الليل بدمع كالسيول واجتهد في صوم ذا الشهر عسى تلتقي فيه من الله القبول

واتبع خير سبيل واقتدي بالنبي المصطفى الهادي الرسول
فعليه الله صلى كلما سارت النوق إليه بالحمول

فسبحان من اختصاص أقواماً بخدمته وشغلهم بمحبته ، فما لهم بغيره اشتغال ، صاموا على الشهوات فمحا عنهم السيئات ، وبلغهم المقاصد والآمال ، أعانهم على الصيام فصاموا وأقامهم في الظلام فقاموا إلى خدمته في الليال الطوال ، سمعوا في صحيح السنة أن الصوم جنة فحموا نفوسهم من قبيح الفعل والمقال فيا سعادة من قبلت منه في شهره الأعمال ، ويا شقاوة من فرّط في صيامه بالإهمال ، ولم يحظ في شهره بفطره على شيء من الحلال ، ولم يزل منكباً عن الطريق مكباً على الطريق ما لا يليق من قبيح الخلال ، اسمع يا من هذه صفاته وقد قربت وفاته وهو لاعب بطال [كان وكان] :

أيا من عمره طال إلى كم أنت بطال جميع الدهر نقال على ظهرك أثقال
تبارز بالمعاصي وعنا أنت قاصي وتدعو بالخلاص وما عندك إقبال
إلى الغيبة ترتاح وما عندك إصلاح وما يرضيك يا صاح سوى قيل وقال
تمد الطوف في الصوم ولا تخشى من اللوم ليكتب منك في اليوم وفي الليلة أفعال
فتب ذا الشهر كي تحظى وكمل صومه فرضا لعلّ الله أن يرضى ويصلح منك أحوال

فسبحان من افترض صوم شهر رمضان على أمة الإسلام وحباهم بالفضل والإحسان ، وخصهم فيه بالعتق من النيران قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ : [البقرة : ١٨٣] فجعله صحة للأبدان ، ومطهرة للقلب واللسان ، من الذنوب والعصيان ، وأنزل فيه على سيد البشر ترخيصاً في الصوم لمن أصابه مرض أو ضرر ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ ﴾ : [البقرة : ١٨٤] .

فسبحان اللطيف المنان ، الذي منّ على هذه الأمة بتمام إحسانه ، وجاد عليها بفضله الوافر وامتنانه ، وجعل شهرها مخصوصاً بعفوه وغفرانه ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾[البقرة : ١٨٥] .

قد جاء شهر الصوم فيه الأمان والعتق والفوز بسكنى الجنان شهر شريف فيه نيل المنى
وهو طراز فوق كم الزمان طوبى لمن صامه واتقى مولاه في الفعل ونطق اللسان

ويــا هنــا مــن قــام في ليلــه ودمعــه في الخــد يحكـي الجمــان
ذاك الــذي قــد خصــه ربــه بجنــة الخلــد وحــور الحســان

أحمده على صنوف الإنعام والإحسان ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد الأكوان صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته والتابعين لهم بإحسان . قال الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ : سمي الشهر شهراً لشهرته يقال : فلان سيفه : إذا أخرجه من غمده وأظهره ، وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب : أي يمحوها . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ يعني أنزل في فرض صومه القرآن ، وقيل : أنزل فيه القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى بيت العزة في ليلة القدر من شهر رمضان ، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ نجوماً بحسب الوقائع قاله ابن عباس وابن شهاب رضي الله عنهما . وقال رسول ﷺ : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين » رواه البخاري ومسلم . وروى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان فتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب وغلقت أبواب النار فلم بفتح منها باب ، ونادى مناد : يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ، والله تعالى عتقاء من النار في كل ليلة من رمضان » وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » ، وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم جل جلاله يقول حسنة يعملها ابن آدم تضاعف له من عشرة إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي ، والصوم جنة من النار ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل أنا صائم » رواه الترمذي ، وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » ، وقد جاء في الصحيحين : « إن الغيبة تفطر الصائم » ، وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » رواه البخاري ومسلم :

وقد صمت عن اللذات دهري كلها ويـوم لقـاكم ذاك فطـر صـيامي

[إخواني] هذا شهر رمضان شهر الصفاء والمعاملة والوفاء ؛ فطوبى لأقوام صاموا عن

الشهوات ، و قاموا في الخلوات يتلون من آيات ذكره صحفاً ، ضاعف لهم بصيامهم أجوراً ووعدهم في الجنة قصوراً وغرفاً ، وقبل اليسير من أعمالهم وتجاوز عن قبيح أفعالهم وعفا ، ويا خيبة الغافلين قد حرموا الوصل وخصوا بالقطيعة والجفا :

يا ناقضين العهد كم هذا الجفا ... تربوا فقد وافاكمو شهر الصفا ... شهر الرضا والعفو عن زلاتكم
والله فيه عن الجرائم قد عفا ... شهر على الأيام فضل قدره ... وعلا على كل الشهور مشرفا

أحيوا لياليه المنيرة كلها ... أجروا لفرقته الدموع تأسفا
فعسى الإله يجود فيه بفضله ... فهو الذي يهب الذنوب تلطفا

[**وعن ابن عباس رضي الله عنهما**] قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي ﷺ القرآن فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة » أخرجه البخاري ، وعن أبي هريرة قال : « كان النبي ﷺ يبشر الصحابة ويقول قد جاءكم شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه وسن لكم قيامه ، إذا جاء شهر رمضان تفتح فيه أبواب الجنان ، وتغلق فيه أبواب النيران ، وتغل فيه الشياطين ، وفيه ليلة خير من ألف شهر » .

[**إخواني**] هذه بشارة للمؤمنين في الجنات على الصبر عن الشهوات بالصيام والصبر على الطاعات ، فمن صبر نال أجراً ومن شكر وجد بعد العسر يسراً ، ومن تصدق نال فضلاً وبراً ومن أحسن إلى العباد أعد للمعاد ذخراً ، ومن أخلص لله في صيامه وقيامه كفّر عنه ذنباً ووزراً ، ومن ذكره في نفسه جدد له بين ملائكة قدسه ذكراً ؛ ومن لزم التقوى نال الفوز والبشرى ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ : [الطلاق : ٤] .

أيا معشر الصوّام وافتكم البشرى ... وقد نشر الباري بمدحكمو ذكرا
خصصتم بشهر فيه عتق ورحمة ... وقد أجزل الرحمن للصائم الأجرا

مساجده مأنوسة بتلاوة ... وذكر وكانت قبله تشتكي الهجرا ... ولله في العشر الأواخر ليلة
لقد عظمت قدراً كما ملئت خيرا ... فطوبى لقوم أدركوها وشاهدوا ... تنزل أملاك السما آية كبرى

وفازوا بغفران الإله فأصبحوا ... يشم عليه من شذا عرفها عطرا

يا هذا اغتنم زمان الأرباح فأيام المواسم معدودة ، استدرك ما بقي من ليالي الصوم فساعاته مشهودة ، جد في طلب الغنائم فأعمال الصائم منقودة ، وقد قيل : « إن الصائم نومه عبادة ونفسه تسبيح ودعاؤه مستجاب وعمله مضاعف » وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وقد منع نفسه الشهوات وترك اللذات ، فآثر نصيب مولاه على نصيبه من الملاذ والشبهات ، وأطاع

أمر معبوده وتلذذ بركوعه وسجوده كما قيل : « إن العبد إذا نام في سجوده يباهي الله عز وجل به الملائكة فيقول سبحانه : يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ورحه عندي وجسده بين يديّ أشهدكم أني قد غفرت له » . ما أحسن سجود الساجدين ، وما أعز أنفاس الصائمين ، وما أنفع مناجاة القائمين ، وما أربح بضائع العابدين ، وما أطيب منادمة المحبين ، وما أنفع جوع أكباد الصائمين ، كما قيل : « إن العبد إذا كان نائماً وهو جيعان هرب منه الشيطان » فكيف إذا كان مستيقظاً ؟ فإذا كان مستيقظاً وهو شبعان جرى منه الشيطان مجرى الدم ، فكيف إذا كان نائماً ، فانظر يا هذا بركة الجوع ونفعه على الإنسان كيف يفرّ منه الشيطان .

[حكى] أن بعض الصالحين كان يمشي إلى المسجد فرأى رجلاً يصلي في المسجد ورجلاً نائماً على باب المسجد والشيطان قائم يتحير ويلتهب ، فقال له الرجل الصالح : ما لي أراك حائراً ؟ فقال : في هذا المسجد رجل قائم يصلي كلما هممت أن أدخل إليه أغويه وأشغله عن صلاته تمنعني أنفاس هذا النائم الذي على باب المسجد . فللّه درّ أنفاس الصائمين كيف تحرس القلوب والأجساد من كيد الشيطان فلا يصل إليها ولا يقدم عليها ، فسبحان من وفق الأحباب للهداية والصواب :

أنت وفقت من إليك أنابا	أنت أصلحت من أصاب الصوابا	أنت حببت ما تحب إليهم
ثم أعطيتهم عليه ثوابا	أنت عرفتهم كنوز المعالي	فغدوا يبحثون عنها طلابا

[وقيل] : إن الله عز وجل خص شهر رمضان بخصائص كثيرة : منها أن جعله شهراً عظيماً مباركاً وفيه ليلة خير من ألف شهر . جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة . ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر المواساة وشهر يزاد فيه من رزق المؤمن . من فطر فيه صائماً كان كمن أعتق رقبة ، ومن أشبع فيه صائماً وسقاه شربة ماء سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم شربة لا يظمأ بعدها أبداً ويعطي الله عز وجل هذا الثواب لمن فطر صائماً على مذقة لبن أو شربة ماء أو تمرة ، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتان ترضون بهما ربكم ، وخصلتان لا غنى لكم عنهما . فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إلـه إلا الله وتستغفرونه في جميع الأحيان ، أما الخصلتان اللتان لا غنى لكم عنهما فتسألون الله الجنة وتتعوذون به من النار .

[إخواني] آه على من كانت النار مثواه . آه على من عصى مولاه . آه على من باع آخرته

بدنياه . آه على من كان التعذيب عقباه . آه على من استهواه غيه فاستعبده هواه . آه على المطرود في هذا الشهر ثم أوّاه :

آه على المذنبين أوّاه ... آه على من جفاه مولاه
آه على من عصا بغفلته ... جهراً وما تاب من خطاياه
آه على المذنب الحزين إذا ... لم يخف الله ثم يخشاه

آه على من يفوته أسفاً ... في مثل هذا الشهر عفو مولاه
آه على من يبيع مغتبناً ... بدار دنياه دار أخراه

[كان وكان] :

سبحان من تصدّق عليكمو بصيامكم ... وخصكم بالعطايا يا أمة المختار
تأتون يوم القيامة وصومكم من فوقكم ... حيث اتجهتم توجه وحيث سرتم سار
محمول فوق الغمائم على يد الملائكة ... شعاعه يتلألأ من كثرة الأنوار
وتقدمون الموقف تجلوا على كل الأمم ... مثل الشموس وفيكم من يشبه الأقمار
وقد صفا الوقت لما ناداكمو مولاكم ... قوموا تعالوا تملوا بالوصل يا زوار
هذا جمالي تبدى والحجب عنكم رفعت ... ونورنا قد تجلى وزالت الأكدار

[إخواني] أين من صام من الحرام وأفطر على الحلال ؟ أين من منع لسانه من الغيبة والنميمة وكفه عن القيل والقال ؟ أين من غض بصره عن الشهوات واتبع حسن الحلال ؟ أين من أخلص صيامه وقيامه لمولاه ذي الجلال ؟ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول : إذا دخل أول ليلة من شهر رمضان : مرحباً بشهر كله صيام نهاره وقيام ليله ، النفقة فيه كالنفقة في سبيل الله تعالى . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : يخرج الصائمون من قبورهم يوم القيامة يعرفون بريح صيامهم يخرج من أفواههم أطيب من ريح المسك تنقل إليهم الموائد والأباريق مختومة أفواهها بالمسك فيقال لهم : كلوا فقد جعتم حين شبع الناس ، واشربوا فقد عطشتم حين روى الناس ، واستريحوا فقد تعبتم حين استراح الناس . قال : فيأكلون ويشربون ويستريحون والناس مشغولون في الحساب في عناء وظمأ .

[إخواني] هذه بشارة للصوام في شهر رمضان ، إذا حموا نفوسهم من الزلل والعصيان ، وأخلصوا صيامهم للواحد المنان ، فكيف حال المفرّط الذي يصوم ويأكل لحوم الإخوان ، ويصلي وجسمه في مكان وقلبه في مكان ، ويذكر الله بلسانه وقلبه مشغول بذكر فلان وفلان ؟ فيا من أصبح إلى ما يضره متقدماً ، وأمسى بناء أمله بكف أجله متهدماً ، ستعلم من يأتي غداً

متندماً ، ويبكي على تفريطه في شهر بدل الدموع دماً . أتراك أيها الصائم أعددت عدة حازم لقبرك ؟ أم حصلت عملاً ينجيك في حشرك ؟ أم حفظْت حدود صومك في شهرك ؟ أم هتكت حرمة الحمى ؟ كم من صوم فسد فلم يسقط به الفرض ؟ وكم من صائم يفضحه الحساب يوم العرض ؟ وكم من عاص في هذا الشهر تستغيث منه الأرض ؟ وتشكو من أعماله السماء . فيا ليت شعري من المقبول ومن المطرود ؟ ومن المقرّب ومن المبعد المردود ؟ ومن الشقي ومن المسعود ، لقد عاد الأمر مبهماً ، تاللّه لقد سعد في هذا الشهر بحراسة أيامه ، من كف جوارحه عن كسب آثامه ، ولقد خاب من لم ينله من صيامه إلا الجوع والظمأ :

شهر الصيام لقد علوت مكرّماً ... وغدوت من بين الشهور معظما
يا صائمي رمضان هذا شهركم ... فيه أبا حكم المهيمن مغنما
يا فوز من فيه أطاع إلَهه ... متقرّباً متجنباً ما حرما
فالويل كل الويل للعاصي الذي ... في شهره أكل الحرام وأجرما

فللّه درّ أقوام وفقهم مولاهم للصيام فصاموا ، وأعانهم على القيام ليلاً ، طويلاً أظمؤوا لأجله الأكباد ، فأراحهم من جميع الأنكاد ، وكان لهم ببلوغ المراد كفيلاً ، شغلهم به عمن سواه ، والسعيد من بات بخدمته مشغولاً ، ولذذهم بطيب المناجاة فنالوا فضلاً جزيلاً . يا من يحزنون لمفارقة شهر الصيام . ويتأسفون على انقضاء ليالي التهجد والقيام ؛ لأنه موسم يلقون فيه رحمة وقبولاً :

شهر الصيام لقد كرمت نزيلا ... وشفيت من كل القلوب عليلا
شهر الأمانة والصيانة والتقى ... والفوز فيه لمن أراد قبولا
فيه الجنان تفتحت لقدومه ... والحور فيه تزينت تحفيلا
طوبى لعبد صح فيه صيامه ... ودعا المهيمن بكرة وأصيلا
وبليله قد قام يختم ورده ... متبتلاً لإلَهه تبتيلا
شهر يفوق على الشهور بليلة ... من ألف شهر فضلت تفضيلا
فاجهد عساك تنالها فيما بقي ... بالجد واحذر أن تكون غفولا

[إخواني] كيف لا يرغب في صيام شهر رمضان وقيامه ؟ كيف لا يتأسف على شهر تكفر في جميع ذنوب العبد وآثامه ؟ كيف لا يبكى في شهر يفوت فيه ربح العامل وفرصة اغتنامه ؟ فقد قيل : « إن الله تعالى موضعاً حول العرش يسمى حظيرة القدس ؛ وهو من النور وفيه ملائكة لا يعلم عددهم إلى الله عز وجل يعبدون الله عز وجل عبادة لا يفترون ساعة فإذا كان ليالي رمضان استأذنوا ربهم عز وجل أن ينزلوا إلى الأرض ويحضروا مع أمه محمد ﷺ صلاة التراويح فكل من مسهم أو مسوه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً » . فلما سمع ذلك عمر بن الخطاب

رضي الله تعالى عنه قال : نحن أحق بهذا الفضل والأجر فجمع الناس على صلاة التراويح في شهر رمضان :

فطوبى لمن أرضى الإلـه مسارعاً إلى سبل تهديه للرحلة الأخرى
وقام وصلى في الدياجي ودمعه على خده يجري بمقلته العبرا
وأخلص لله العظيم قيامه وعاهده سراً وراقبه جهرا
وصافحه حقاً ملائكة السما فنال بهذا في الورى العز والفخرا
وأحيا ليالي شهره بقيامه إلى ربه في الليل وامتثل الأمرا
فذاك بجد الله في طيب عيشة يفوز بها صوماً ويحظى بها فطرا

وقال محمد بن أبي الفرج : احتجت في شهر رمضان إلى جارية تصنع لنا الطعام فوجدت في السوق جارية ينادى عليها بثمن يسير وهي مصفرة اللون نحيفة الجسم يابسة الجلد فاشتريتها رحمة لها وأتيت بها إلى المنزل ، فقلت لها : خذي أوعية وامضي معي إلى السوق لنشتري حوائج رمضان ، فقالت : يا سيدي أنا كنت عند قوم كل زمانهم رمضان فعلمت أنها من الصالحات فكانت تقوم الليل كله في شهر رمضان . فلما كانت آخر ليلة قلت لها : امضي بنا إلى السوق لنشتري حوائج العيد ؟ فقالت : يا مولاي أي حوائج العيد ؟ حوائج العوام أم حوائج الخواص ؟ فقلت لها : صفي لي حوائج العوام وحوائج الخواص ! فقالت : يا سيدي ! حوائج العوام الطعام المعهود في العيد ، وحوائج الخواص الاعتزال عن الخلق والتفريد والتفرغ للخدمة والتجريد والتقرب بالطاعات للملك المجيد والتزام ذل العبيد . فقلت لها : إنما أريد حوائج الطعام . فقالت يا سيدي ! أي الطعام تعني ؟ طعام الأجساد أم طعام القلوب ؟ فقلت لها : صفيهما لي فقالت : أما طعام الأجساد فهو القوت المعتاد ، وأما طعام القلوب فترك الذنوب وإصلاح العيوب والتمتع بمشاهدة المحبوب والرضا بحصول المقصود والمطلوب ، وحوائجه الخشوع والتقوى وترك الكبر والدعوى والرجوع إلى المولى والتوكل عليه في السرّ والنجوى . ثم إنها قامت تصلي فقرأت في الركعة الأولى سورة البقرة إلى آخرها ثم شرعت في سورة آل عمران ، ثم لم تزل تختم سورة بعد سورة حتى وصلت إلى سورة إبراهيم إلى قوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴾ [إبراهيم : ١٧] ثم لم تزل تردد هذه الآية وهي تبكي إلى أن أغمي عليها ووقعت على الأرض فحركتها فإذا هي ميتة رحمة الله عليها . فللّه درّهم من أقوام غسلوا وجوههم بدموع الأحزان ، وأسهروا عيونهم في الليل بالذكر وتلاوة القرآن ، ونصبوا أقدامهم في خدمة الملك الديان ، واجتهدوا في العمل وبادروا الزمان فكل زمانهم رمضان :

طوبى لهم فازوا بذكر حبيبهم ... وتمتعوا بدنوّه ووصاله ... فهوا همو لا ينقضي وغرامهم
وكذا محبة كل صب واله ... ذلوا لعز حبيبهم واسهونوا ... ما كابدوا في الحب من أهواله

وبه قد اشتغلوا ويا بشرى لمن ... قد أصبح المحبوب من أشغاله

[**إخواني**] ما أحسن من خلع عليه مولاه خلع القبول . وما أنعم بال من بلغه غاية المقصود والمسؤول ، وما أشقى من رد عليه صيامه وأحصى عليه قبيحه وآثامه . ومضت في البطالة شهوره وأعوامه وآثر شهوة نفسه على خدمة ربه إلى أن ذهبت ساعاته وأيامه . قيل : مكث بشر الحافي خمسين سنة يشتهي هريسة ففتح عليه في بعض الأيام بدرهم فمضى إلى السوق ليشتريها به فسمع الهراس ينادي : ماذا خبىء للصوام فرجع باكياً ولم يشتر شيئاً ، فبقي مدة تطالبه نفسه بها فخرج إلى السوق ثانياً ليشتريها وإذا بالهراس ينادي : بقي القليل . فبكى ورجع وعاهد الله تعالى أن لا يذوقها :

للّه در السادة الزهاد ... في كل بر مقفر أو نادي ... هجوروا المراقد في الظلام لربهم
واستبدلوا سهراً بطيب رقاد ... كتموا الضنى حفظاً له وتحملوا ... فأتت عليهم حرقة الأكباد
ألوانهم تنبيك عن أحوالهم ... ودموعهم منهلة كغواد ... لا يفترون إذا الدجى وافاهمو
من كثرة الأذكار والأوراد ... نظروا إلى الدنيا تقرب أهلها ... لوصالها وتكرّ بالإبعاد
فترحلوا عنها وجدّوا في التقى ... وتزودوا من صالح الأزواد ... ومشوا على سنن النبي المصطفى
خير الأنام الهاشمي الهادي ... بالله كرر ذكره وحديثه ... وأجده وبالتلحين لي يا حادي
ردّد بعيشك لي حديث محمد ... فلذاذة الإسماع في الترداد ... لولاه ما هجر الأنام ديارهم
كلا ولا صبروا عن الأولاد ... فمتى أزور جنابه وضريحه ... وأبث ما عندي له وأنادي
يا سيد الكونين يا من حبه ... حقاً أقام بمهجتي وفؤادي ... يا ربنا فبحقه وبجاهه
وبآله الأنجاد والأمجاد ... اغفر لنا كل الذنوب تفضلاً ... يا خير مدعوّ وخير جواد

يا رب صلّ على النبي محمد ... ما سار مشتاق بليل هادي

إلـهي وقف السائلون ببابك ، ولاذ الفقراء بجنابك ، ووقفت سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك يرجون الجواز إلى ساحة رحمتك ونعمتك . إلـهي إن كنت لا تكرم في هذا الشهر الشريف إلا من أخلص لك في صيامه ، فمن للمذنب المقصر إذا غرق في بحر ذنوبه وآثامه . إلـهي إن كنت لا ترحم إلا الطائعين فمن للعاصين ، وإن كنت لا تقبل إلا العاملين فمن للمقصرين . إلـهي ربح الصائمون وفاز القائمون ونجا المخلصون ونحن عبيدك المذنبون ، فارحمنا برحمتك وجد علينا بفضلك ومنتك واغفر لنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السادس

في وداع شهر رمضان جعلنا الله وإياكم ممن تقبل فيه عمله وغفر له خطاياه وزلله

الحمد لله الذي عزت معرفته فلا يدركك بالمعقول خافيها ، وجلت صفته فلا يتكدر بالمنقول صفو صافيها ، وتمت كلمته فلا يردّ حكم قاضيها ، وعلت سلطنته فجل تعاليها ، ودامت أزليته فمن ذا يضاهيها ؛ توحده الكائنات ونواحيها ، والسموات ودراريها . قدر الأعوام والشهور والأيام ولياليها ، وجعل واسطة عقد الأيام أياماً اختارها باريها ، وفضل شهر رمضان وجعله معظماً فيها ، وأنزل فيه السور ومثانيها ، وفتح فيه باب العزة وأنزل منه آيات جلت عن كلام يحاكيها . فقال تعالى في محكم الآيات ومبانيها : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ : [البقرة : ١٨٣] تفضيلاً لهذه الأمة إذ لا أمة تباهيها . هل كان لغيرها من الأمم فخر « الصوم لي وأنا أجزي به » والجزاء تمتع الأبصار بنور باريها . هل قيل لغيرها بالإعلان : « للصائم فرحتان » وأسمع ذلك قاصيها ودانيها ؟ هل بشر سواها بليلة القدر التي تنزل الملائكة والروح فيها ؟ هل أعطى غيرها فضل هذه الأيام من شهر رمضان ولياليها ؟ ففي أول ليلة منه تفتح أبواب الجنان وتقبل الحور والولدان من سائر نواحيها ، ويقولون لرضوان : يا أمين الرحمن ما بال الجنان قد أشرقت معانيها ؟ فيقول لهم : هذه أول ليلة من شهر رمضان الذي تبلغ النفس في أمانيها . ثم تغلق أبواب النيران وتصفد مردة الجان وتمنع من تصرفها وتدانيها . وتكتب أسماء العتقى وتأتي الملائكة بالبشارة لهذه الأمة وتهنيها . وفي كل ليلة منه يسلم رب العزة على نفوس الصوام ويحييها . فإذا كانت ليلة القدر ينزل جبريل عليه السلام ويقول للملائكة : بشروا الصائمين فقد أنالهم مولاهم خيرات لا تستطيع الأنفس تحصيها ، وتفتح في تلك الليلة أبواب السموات وتنزل الملائكة من أول الليلة وتقوم تلك الليلة في الأرض وتحييها ، وتصافح الصوّام الذين عكفوا على القيام تحت دياجيها وتعلن تسبيحاً وتنزيهاً لباريها :

هــذي ليــالي تجلــى ســره فيهــا	علـى نفـوس رأت أنـوار سـاقيها
شهر الصيام صفت للقـوم حضـرته	دارت كؤوس التداني والرضا فيهـا
يا حبذا شـهر فضـل عـرف خلوتـه	يفوح مسكاً فـلا طيـب يضـاهيها

وفيه أوقات قرب نور جلوتها نوّر العرش والدنيا وما فيها
يا غافلاً وليالي الصوم قد ذهبت زادت خطاياك قف بالباب وابكيها
واغنم بقية هذا الشهر تحظ فما غرسته من ثمار الخير تجنيها
وتب لعلك تحظى بالقبول عسى أن تبلغ النفس بالتقوى أمانيها
وقل إلٓهي أنا العبد الذليل وقد أتيت أرجو أجوراً فاز راجيها
فلا تكلني إلى علمي ولا عملي واغفر ذنوبي فإني غارق فيها

[وروى **أبو أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه**] عن النبي ﷺ أنه قال : « من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر كله » :

وقد صمت عن لذات دهري كلها ويوم لقاكم كان فطر صيامي

[**وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه**] قال : قال رسول ﷺ : « يقول الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » فيا من يبارز بالعصيان ولم يستحي من رقيبه . وقد دنا فراق شهر رمضان وما فاز بمصالحة حبيبه . وقد هب نسيم القبول وما نشق عرف طيبه . أما سمعت قول الملك المنان في فضل شهر رمضان وترغيبه : « الصوم لي وأنا أجزي به » :

من كان يشكو عظم داء ذنوبه فليأت في رمضان عند طبيبه ويفوز من عرف الصيام بطيبه
أو ليس قال الله في ترغيبه الصوم لي وأنا الذي أجزي به

يا صائمي رمضان فوزوا بالمنى وتحققوا نيل السعادة والغنى وثقوا بوعد الله إذ فيه الهنا
أوليس هذا القول قول إلٓهنا الصوم لي وأنا الذي أجزي به

من صام نال الفوز من رب العلا وبوجهه أضحى عليه مقبلا يا من يروم توسلا وتوصلا
صم رغبة في قول رب قد علا الصوم لي وأنا الذي أجزي به

يا فوز من للصوم قام بحقه وأتى بحسن القوم فيه وصدقه ومن الجحيم نجا وفاز بعتقه
فالله قال عن الصيام لخلقه الصوم لي وأنا الذي أجزي به

[**وقيل**] : إن العبد إذا مات ونزل به عذاب القبر جاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ، وإذا احتوشته الشياطين جاءه ذكر الله تعالى فخلصه من أيديهم ؛ وإذا احتوشه ملائكة الغضب جاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ؛ وإذا تلهب عطشاً في القيام جاءه صوم شهر رمضان فسقاه .

[**إخواني**] انظروا إلى بركات شهر رمضان ونفعه لكم في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فيحميكم من الشهوات والموجبة للنار والعذاب . وأما في الآخرة فتفوزون بالعفو والرضا من

الملك الوهاب :

ما أحسن العفو من القادر	الصفح عن مندمة الغادر
بالله يا من تاب ثم انثنى	لا تفسد الأول بالآخر

[وروى عن أبي سليمان الداراني رحمة الله عليه] : أنه صام يوماً في الحر ثم نام فرأى قائلاً يقول له : أتبيع ثواب صومك في هذا اليوم بمائة ألف دينار ؟ فقال : لا وعزة ربي . قيل فبأيّ شيء تبيعه ؟ فقال : لا أبيع الثواب بالدنيا وما فيها . ولكن أبيعه بالنظر إلى المولى ، فقيل له : صم فسوف تراه إن شاء الله تعالى :

إذا اجتمع الأحباب في خلوة الرضا	بمقعد صدق والنسائم عاطره
ترى أعين العشاق نحو حبيبهم	إلى ذلك الوجه المقدس ناظره
فيا نفس هذا مشروب القوم فاشربي	عسى أن تكوني عند ذلك حاضره

يقول الله تعالى في كتبه المنزلة : يا عبدي تأهب للقائي فعن قريب ألقاك ، وأقبل على خدمتي فإني أنا مولاك ، بأيّ عين يراني من بارزني وعصاني ؟ بأيّ وجه يلقاني من نسي عظمة شأني ؟ لقد خاب من حجبته عني إذا قربت الصادقين مني ، وشقي من طردته عن جنابي إذا كشفت حجابي فتجليت للمتقين من أحبابي . يا عبدي قف على بابي فأنا الكريم ، ولذ بجنابي فصراطي مستقيم :

بادر إلى الأعمال ما	دمت بذي الدنيا مقيم	يا من يحدّث نفسه	بدخول جنات النعيم
إن كنت متقياً فأنـ	ـت على صراط مستقيم	لا ترجونّ سلامة	من غير ما قلب سليم
فاسلك طريق المتقيـ	ـن وظن خيراً بالكريم	واذكر وقوفك خائفاً	والناس في أمر عظيم
إما إلى دار الشقا	وة أو إلى العز المقيم	فاغنم حياتك واجتهد	وأنب إلى الرب الرحيم

[إخواني] هذا شهر رمضان قد عزم على الانصراف والانصرام ، ونوى النقلة عنكم والرحيل بعد المقام ، وهو شاهد لكم أو عليكم بما أودعتموه من الأعمال عند الملك العلام ، طالما عمرت به القلوب ودرست به معالم الذنوب والآثام . وقد كان لكم نعم الضيف . فهل أضعتم حقه أو قمتم بما يجب له من الإكرام ؟ فلعل المسوّف فيه بالتوبة لا يدركه بعد هذا العام والمغتر بالإهمال لا تهمله المنون إلى استكمال التمام ، فيندم حين لا ينفعه الندم ويتأسف على التفريط إذا زلت به في القيامة القدم :

فاستدركوا فائت ما قد مضى	فإنما الدنيا كثمل المنام
وحصلوا التوبة في شهركم	فقد دنا ترحال شهر الصيام

فالسعيد من بادر هذه البقية بالاغتنام ، والشقي من جعل هذه البقية بغفلته كالإعدام .

وكيف لا يدرك الخير من قام في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر بالصلاة وجعل التقوى إمام . أما هذه ليالي القبول فلم يغتر المفرط فيها بالأحلام ؟ أما هذه ليالي القدر وليالي القبول فإلى متى أنت مشغول فيها بطيب المنام ؟ . [كان وكان] :

انهض وداوي سقامك هذي ليالي المغفرة وامح قبيح آثامك في سالف الأعوام
لو كنت تعرف قدرك وأنت من أهل الوفا ما نمت ليلة قدرك وفاتك الإنعام
ثم الصلاة جهارا على النبي المصطفى الهاشمي التهامي الصائم القوّام

قال بعض الصالحين رحمة الله عليهم : حضرت مجلس منصور بن عمار الواعظ رحمة الله عليه في آخر جمعة من شهر رمضان فذكر فضل صيامه وأجر قيامه وما أعدّ الله فيه لمن أخلص الأعمال وتجنب الإهمال فكأنه يقدح زند وعظه على صم الأحجار لا والله ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ : [البقرة : ٧٤] فما تحرك في مجلسه باك ولا شكا عظم ذنبه شاك . فلما رأى جمود مجلسه قال : يا قوم ألا باك على ما ظهر من عيوبه ؟ ألا راغب إلى الله تعالى في غفران ذنوبه ! أما هذا شهر التوبة والغفران ! أما هذا معدن العفو والرضوان ! أما فيه تفتح أبواب الجنان ! أما فيه تغلق أبواب النيران ! أما فيه يصفد كل مارد وشيطان ! أما فيه تفرق خلع الإحسان ! أما فيه يتجلى الملك الديان ! أما فيه يعتق كل ليلة عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار ؟ فما لكم عن ثوابه ضالون وفي ثياب المخالفة رافلون ! ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ : [الطور : ١٥] فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون :

إذا وجد الإنسان للخير فرصة ولم يغتنمها فهو لا شك عاجز
وهل مثل هذا الشهر للعفو موسم ولكن فأين العامل المتناهز

قال : فهاج المجلس بالبكاء والنحيب . وقام إليه شاب وهو باك على ذنوبه حزين كئيب وقال : يا سيدي أتراه يقبل صيامي أو يكتب مع القائمين بعد أن جرى مني ما كان من الذنوب والعصيان قد انقضى عمري في كسب المعاصي وغفلت بشقوتي عن يوم الأخذ بالنواصي ؟ فقال له الشيخ : يا ولدي تب إليه فقد قال في محكم الكتاب : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ : [طه : ٨٣] ثم أمر الشيخ القارىء فقرأ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ : [الشورى : ٢٥] فصرخ الشاب وقال : واطرباه واشوقاه إلى من لم يزل إحسانه واصلاً إليّ وذيل حلمه مسبلاً عليّ وأنا مع ذلك أزيد في العصيان ولا أرجع عن طريق الغيّ والخذلان ! وهل يكون مثل هذا الوقت وقت صفا ؟ والحبيب قد تجاوز وعفا ! ثم صرخ ووقع ميتاً رحمة الله عليه :

روح دعاهـا للوصـال حبيبـها ... فسعت إليـه تطيعـه وتجيبـه
يـا مدعي صدق المحبة هكذا ... فعل الحبيب إذا دعاه حبيبه

[كان وكان]

يـا من تقضى عمره ... دع عنك نومك والكسل ... واعلم بأن أعمالك ... تعرض على الديان
كم ذا تبهرج بفعلك ... وليس يخفى بهرجك ... غداً تبان الفضائح ... وينصب الميزان
إن كنت تطلب توبة ... انهض فهذا وقتها ... فبعد خمس ليال ... يقال فرغ رمضان
يرحل وما أودعته ... إلا زخاريف العمل ... واحسرتك حين يشهد ... عليك بالخسران
تصم نهارك ولما ... تفطر تحصل فايتك ... تشبع وتنسى الجائع ... هذا هو الخذلان
تحضر صلاة التراويح ... بالجسم حاضر إنما ... القلب غائب يسعى ... في كان فلان وفلان
تقطع صيامك غيبة ... والصوم قبوله من عجب ... تأكل لحوم العالم ... وترتجي الإحسان
من ليس يحفظ لسانه ... ولا الجوارح عن الزلل ... ماله من الصوم إلا ... يقضي النهار جيعان
نصحت جهدي ولكن ... النصح يصعب على الشقي ... بنصح حالك والله ... عمري مضى مجان
بالله عليك ثم ودع ... شهر الصيام قبل السفر ... ولا تخله يرحل ... وهو عليك غضبان
بيض سواد الصحيفه ... فالموت أدنى من نفس ... وخف إلهك تحظى ... منه غدا بأمان

[إخواني] كيف لا يبكي على فراق شهر رمضان ؟ كيف لا يتأسف على شهر العفو والغفران ؟ كيف لا يحزن على شهر العتق من النيران ؟ .

وقد قيل : إن الجنة لتتزين من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان حتى إذا كان أول ليلة منه هبت ريح من تحت العرش يقال لها المثيرة فيصفق ورق الجنة وحلق المصارع فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه وتتزين منه الحور العين ويقمن بين شرافات الجنة فينادين : هل من خاطب إلى الله عز وجل فيزوجه الله عز وجل ثم يقلن : يا رضوان ما هذه الليلة ؟ فيجيبهن بالتلبية . ثم يقول : يا خيرات حسان هذه أول ليلة من شهر رمضان ويقول الله عز وجل ؛ يا رضوان افتح أبواب الجنان للصائمين من أمة محمد ﷺ ، يا جبريل اهبط إلى الأرض فصفد مردة الشياطين وغلهم بالأغلال ثم اقذف بهم في لجج بالبحار حتى لا يفسدوا على أمة محمد ﷺ صومهم . ويقول الله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان ثلاث مرات : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه سؤله ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ ولله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجبوا العذاب فإذا كان في اليوم الأخير من شهر رمضان أعتق الله في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره .

[إخواني] ارغبوا فيما عند الله عز وجل من الأجر والثواب ، وودعوا شهر رمضان فقد عزم على الذهاب ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل غلق الباب . فهذا شهر رمضان قد أزف رحيله ، وحان تحويله ، ولم يبق إلا كضيف طارق ، أو حبيب عما قليل مفارق . فأكثروا فيه من العمل الصالح وزودوه بالبكاء والأسف وودعوه . فللّه درّ أقوام صاموا عن الشهوات وقاموا في كل الخلوات . يرتلون القرآن ترتيلاً ، فلو رأيتهم وقت السحر هذا يبكي ويعدد ، وهذا يقرأ ويردّد ، وهذا يترنم بالقرآن فيطرب أسماعاً ويسبي عقولاً ، وهذا قد تردى بأكفانه ، وهذا قد التحف بأحزانه ، وهذا يبكي فيمطر من أجفانه سيولاً :

شهر الصيام لقد كرمت نزيلا ونويت من بعد المقام رحيلا وأقمت فينا ناصحا ومؤدبا
وشفيت منّا بالفؤاد غليلا نبكيك يا شهر الصيام بأدمع تجري فتحكي في الخدود سيولا
أسفاً على الأنس الذي عودتنا وصنيع فعل لا يزال جميلا شهر الأمانة والصيانة والتقى
والفوز فيه لمن أراد قبولا تبكي المساجد حسرة وتأسفاً إذ عطلت من أنسه تعطيلا
فيه الجنان تفتحت لقدومه وتزينت ولدانها تحفيلا وتفيأت أشجارها بظلالها
وقطوفها قد ذللت تذليلا والحور للصوام يشتقن اللقا والوصل والتقريب والتعجيلا
والنار يغلق بابها من أجله إذ زاده رب العلا تبجيلا والمارد الشيطان فيه قد غدا
عن صائميه مصفداً مغلولا طوبى لمن قد صح فيه صيامه ودعا المهيمن بكرة وأصيلا
وبليله قد قام يختم ورده متبتلاً لإلـهه تبتيلا يرتاح فيه إلى الخطاب وقد غدا
يتلو الكتاب مرتلاً ترتيلا يبكي لفرقة شهره أسفاً على تقصيره إذ لم ينل تحصيلا
شهر يفوق على الشهور بليلة عن ألف شهر فضلت تفضيلا هي ليلة مستغنم أوقاتها
وتنزلت أملاكها تنزيلا يا فوز عبد قد رآها مرة في عمره إذ أدرك المأمولا
من قامها يغفر له ما قد مضى من ذنبه وينال فيها السولا فاجهد عساك تنالها فيما بقى
بالجد واحذر أن تكون غفولا واسأل إلـهك بره ونواله يعطيك فضلاً من لدنه جزيلا
ثم اقتدي بالهاشمي المصطفى أزكى الورى في العالمين أصولا المجتبى المختار أفضل من غدا
في المذنبين مشفعاً مقبولا صلى عليه الله جل جلاله ما دام نجم في السماء أفولا

[إخواني] مضى شهر رمضان وكأنه ما كان ، وشهد على المسيء بالإساءة وعلى المحسن بالإحسان . وحصل كل على ما قسم له من ربح وخسران . فيا حسرة المفرط لقد أضاع الزمان . ويا خيبة المسّوف كأنه أخذ من الموت الأمان . اعلم أن القضاء يمهله إلى رمضان ثان . هذا شهركم قد انتصب لكم مودعاً وسار مسرعاً فأين البكاء لرحيله ؟ وأين الاستدراك لقليله ؟ وأين الاقتداء بفاعل الخير ودليله ؟ فللّه ما كان أطيب زمانه في صوم وسهر . وما كان

أصفى أوقاته من آفات الكدر . وما كان ألذ الاشتغال فيه بالآيات والسور . فيا ليت شعري من قام بواجباته وسننه . ومن اجتهد في عمارة زمنه . ومن الذي أخلص في سره وعلنه . ومن الذي تخلص من آفات الصوم وفتنه .

[إخواني] راحة الغريب عن الديار في البكاء والضراعة . إخواني : كيف من نسي أهله وإخوانه وأتباعه ؟ إخواني : سودت وجوهنا الزلات ، فمتى تبيض بالطاعات ؟ إخواني : أكثروا من التضرع إلى الله عز وجل في هذه الساعة . وقولوا برفيع الأصوات : إلٓهنا لا تحرمنا من نبيك الشفاعة . واجعل التقوى لنا أربح بضاعة . ولا تجعلنا في شهرنا هذا من أهل التفريط والإضاعة . وآمن خوفنا يوم تقوم الساعة . برحمتك يا أرحم الراحمين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس السابع

في فضائل ليلة القدر أعاد الله علينا وعليكم من بركاته

الحمد لله الذي أحكم الأمور وقدرها وقدر الأشياء ودبرها . ودبر الموجودات وصورها . وصور الخليقة وأظهرها . وأظهر الأسرار وطهرها . وطهر القلوب ونورها ونور الكواكب وسيرها وسير الأفلاك وسخرها وسخر الرياح ونشرها ونشر السحب وأمطرها وأمطر الرياض وأزهرها وأزهر الأشجار وأثمرها وطيب أنفاس الأسحار بطيب الأذكار وعطرها وفضل مواسم الطاعات على سائر الأوقات وللخيرات والبركات بسرها وشرف شهر رمضان على جميع الشهور وخص لياليه بالفضل المشهور وبتوفير الأجور شهرها وميزها بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وجعلها واسطة عقد الدهر فطوبى لمن عظمها ووقرها ، يا لها من ليلة ما أبركها وأنورها ! وما أكثر خيراتها وأغزرها ! تفتح فيها أبواب السموات ! وتنزل الملائكة بالبشارات لمن أحياها من الأنام ! ومنع جفونه من المنام وأسهرها ! فيا فوز من تلذذ فيها بالمناجاة وتملى ! وتهنى فيها بطاعات مولاه وتحلى ! وشاهد أنواره لما تجلى ! وسجدت له جميع المخلوقات وقد أذهلها في أنواره وحيرها ! فيا لها من ليلة ما رفعت إليه فيها قصة محتاج إلا نظرها ! ولا وصلت إليه دعوة مظلوم إلا أنجزها ونصرها ! ولا صعدت إليه أنفاس كربة إلا أزال كربها وضرها ! ولا انتهت إليه شكاية ملهوف إلا أزال عنها الحرج وأتاها بالفرج وبشرها ! ولا تضرعت بين يديه

معتذرة إلا قبلها وعذرها ! ولا توجعت من أجله قلوب منكسرة إلا أغاثها بلطفه وجبرها ! فسبحان من اطلع في هذه الليلة الشريفة على الذنوب فغفرها ! وعلى العيوب فسترها ! وعلى القلوب فسكنها وعمرها ! وعلى حوائج السائلين فقضاها بفضله ويسرها :

شهدت بالقهر له الأفلا ... ك مع الأملاك فسخرها ... وأتت بالباب ذوو الحاجات

تروم الفضل فيسرها ... كم قد رفعت قصصاً وشكت ... غصصاً للشوق فبشرها

هامت في الليل به الأحبا ... ب فحط الحجب وسامرها ... ولقد نظرت لما حضرت

في حضرته إذ أحضرها ... كأساً يملى وسنا يجلى ... لقلوب القوم فأسكرها

تاهت وبه باهت ولقد ... سهرت في الحب فساهرها ... وجلا أقداح كؤوس الذكر

لها فلهذا استأثرها ... فله نظرت لها اشتهرت ... بمحبته إذ أسهرها

ما أسعدها ما أزهدها ... ما أرشدها ما أذكرها ... ما أجملها ما أكملها

ما أحلمها ما أصبرها ... فليالي القدر لها كشفت ... ولها الباري قد أظهرها

فتعالى رباً مقتدراً ... خلق الأشياء ودبرها

وقضى الآجال مع الأعما ... ل لكل الخلق وقدرها

أحمده على نعمه التي نشرها وأغزرها . وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة نافعة لمن عنده ادخرها . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أيد الله له الشريعة ونصرها . وهدى الأمة إلى طريق الصواب وبصرها . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته التي برأها الله تعالى من الرجس وطهرها . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ : [القدر : ١] إلى آخرها . قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنزل الله تعالى القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر من شهر رمضان . قال المفسرون : بيت العزة في سماء الدنيا . وفي تسميتها بليلة القدر خمسة وجوه : **أحدها** : أن القدر هو العظمة وهي ليلة عظيمة .

الثاني : أنه الضيق فهي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون من السماء . **الثالث** : أن القدر هو الحكم فإن الأشياء تقدر فيها . **الرابع** : أن من لم يكن له قدر يصير بمراعاتها ذا قدر . **الخامس** : أنه نزل فيها كتاب ذو قدر وملائكة ذوو قدر . واختلفوا هل ليلة القدر باقية إلى زماننا هذا ؟ أم كانت في زمن النبي ﷺ خاصة ؟ على قولين : أصحهما أنها باقية إلى زماننا هذا وأنها في شهر رمضان . واختلفوا أيّ الليالي أخص بها على ستة أقوال : **أحدها** : أن الأخص بها أول ليلة من شهر رمضان . **الثاني** : هي ليلة الحادي والعشرين . **الثالث** : هي ليلة الثالث والعشرين . **الرابع** : هي ليلة الخامس والعشرين . **الخامس** : هي ليلة السابع

والعشرين . **السادس** : هي ليلة التاسع والعشرين . وقيل : إنها تنتقل في أفراد العشر الأواخر من شهر رمضان . قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ : [القدر : ٢ – ٣] قال مجاهد : قيامها والعمل فيها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ذكر عندَ رسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه ألف شهر في سبيل الله فتعجب أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك عجباً شديداً وتمنوا أن يكون لهم مثل ذلك فدعا ربه : أي رب أنت جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالاً فأعطاه الله ليلة القدر ، فقال : يا محمد ليلة القدر خير من ألف شهر وأعطيتك وأمتك هذه الليلة في كل سنة خيراً لك ولهم من بعدك إلى يوم القيامة في كل شهر رمضان ليلة خير من ألف شهر ، وألف شهر ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر . قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ : [القدر : ٤] جبريل عليه السلام ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ : [القدر : ٤] قال المفسرون : ينزلون بكل أمر قضاه الله تعالى في تلك السنة وقدره إلى قابل ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ أي سلامة لا يحدث فيها داء ولا يرسل فيها شيطان ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدر : ٥] أي إلى طلوع الفجر :

هي ليلة القدر التي شرفت على ... كل الشهور وسائر الأعوام ... من قامها يمحو الإلـه بفضله
عنه الذنوب وسائر الآثام ... فيها تجلى الحق جل جلاله ... وقضى القضاء وسائر الأحكام

فادعوه واطلب فضله تعط المنى ... وتجاب بالإنعام والإكرام
فالله يرزقنا القبول بفضله ... ويجود بالغفران للصوام
ويذيقنا فيها حلاوة عفوه ... ويميتنا حقاً على الإسلام

[**روى أبو هريرة رضي الله عنه**] عن النبي ﷺ أنه قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخاري ومسلم رحمهما الله . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ رأى ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر من رمضان فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر » رواه البخاري ومسلم . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شد مئزره وأحيا الليل كله وأيقظ أهله » رواه البخاري ومسلم رحمهما الله ، وروى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت ليلة القدر ثم أنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان في الوتر من لياليها ، وهي ليلة طلقة بلجة لا حارة ولا باردة كأن فيها قمراً لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها » . وقال عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فبم أدعو ؟ قال قولي : « اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني » .

[وعن محمد بن كعب رضي الله عنه] قال : بينما عمر رضي الله عنه جالس في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين إذ ذكروا ليلة القدر ومعهم ابن عباس رضي الله عنهما فتكلم كل رجل بما سمع عنها وعبد الله ساكت . فقال له عمر رضي الله عنه : ما لك لا تتكلم يا بْنَ عباس ؟ تكلم ولا تمنعك الحداثة ، فقال : إن الله تعالى وتر يحب الوتر ، وإنه جعل أيام الدنيا تدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، وخلق أرزاقنا من سبع ، وجعل فوقنا سبع سموات ، وجعل تحتنا سبع أراضين ، وجعل البحار سبعاً ، وجعل ما يقع في السجود من أعضائنا سبعاً ، وحرم من نكاح الأقربين سبعاً ، وقسم المواريث بينهم على سبع ، وأعطى نبيه ﷺ المثاني سبعاً ، ورمى الجمار بسبع . فأظنها والله أعلم ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان فتعجب عمر رضي الله عنه وقال : يا قوم من كان يروي هذا كرواية ابن عباس رضي الله عنهما ؟ ويقال : إن عدد كلمات هذه السورة ثلاثون كلمة . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ : آخرها و « هي » الكلمة السابعة والعشرون فدل أنها ليلة السابع والعشرين . ويقال : خصت تلك الليلة وفضلت بنور شجرة طوبى ، وقال بعضهم : هو من نور الرحمة ، وقال بعضهم : من نور لواء الحمد ، وقال بعضهم : من نور أجنحة الملائكة ، وقال بعضهم : من نور الطاعات ، وقال بعضهم : من نور أسرار العارفين ، وقال بعضهم : من نور الهيبة . ثم إن ليلة القدر ليلة مرغوبة وهي أفضل الليالي :

لليلة القدر عند الله تفضيل	وفي فضائلها قد جاء تنزيل	فجدّ فيها على خير تنال به
أجراً فللخير عند الله تحصيل	واحرص على فعل أعمال تسرّ بها	يوم المعاد ولا يغررك تأميل
فكم رأينا صحيح الجسم ذا أمل	في ليلة القدر لم يبلغه تنويل	فتب إلى الله واحذر من عقوبته
عن كل ما فيه توبيخ وتنكيل	ولا تغرنك الدنيا وزخرفها	فكل شيء سوى التقوى أباطيل

وقال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يعني الرحمة في هذه الليلة وحدها خير وأكثر من الرحمة في ألف شهر ، معناه أن رحمتي على العصاة والمذنبين فيه هذه الليلة وحدها مثل رحمتي عليهم في ألف شهر ، وإنما سميت ليلة القدر لوجيهن : **أحدهما** : أنها ليلة لها قدر وجاه ومنزلة وشرف عند الله تعالى فسميت ليلة القدر ، وقال أبو الفضل : يعني ليلة القدر يقدر فيها الأرزاق والآجال والأمراض والمصائب والبلايا والعافية والفرح والسرور والربح والخسران وما يكون في مثل هذه الليلة إلى مثلها من عام قابل ، وعن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إذا كانت ليلة القدر نزلت الملائكة وهم سكان سدرة المنتهى وجبريل عليه السلام معهم ومعهم أربعة ألوية فينصب لواء منها على قبري ولواء منها على طور سيناء ولواء منها على ظهر المسجد الحرام ولواء منها على ظهر بيت المقدس ولا

يدع بيتاً فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخله وسلم عليه ، يقول : يا مؤمن ويا مؤمنة : السلام يقرئك السلام فإذا طلع الفجر فأول من يصعد جبريل عليه السلام حتى يكون على الوجه الأعلى بين السماء والأرض فيبسط جناحه فتصبح الشمس لا شعاع لها حتى يدعو ملكاً ملكاً فيصعدون فيجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام فتصبح الشمس بيضاء لا شعاع لها فيقوم جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة بين السماء والأرض يومهم ذلك في دعاء واستغفار للمؤمنين والمؤمنات . فإذا أمسوا دخلوا سماء الدنيا ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا : مرحباً بأشرافنا وساداتنا من أين أقبلتم ؟ فيقولون : أقبلنا من عند أمة محمد ﷺ فيقولون : ما صنع الرب سبحانه وتعالى في حوائجهم ؟ فيقولون : غفر لصالح أمة محمد ﷺ وشفع صالحهم في طالحهم فيصيحون إلى الله تعالى بالتسبيح والتحميد والتقديس شكراً لما أعطاه الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ . ثم يسألونهم عن رجل رجل وامرأة امرأة فيقولون : ما فعل فلان ما فعلت فلانة ، فيقولون : وجدنا فلاناً عام الأول متعبداً ووجدناه هذا العام مبتدعاً فيكفون عن الاستغفار له ، ووجدنا فلاناً عام الأول مبتدعاً ووجدناه هذا العام متعبداً فيستغفرون له ويدعون له ، ووجدنا فلاناً يذكر الله تعالى ، ووجدنا فلاناً راكعاً ووجدنا فلاناً ساجداً ، ووجدنا فلاناً تالياً لكتاب الله تعالى ، ووجدنا فلاناً باكياً فيدعون لهم ويستغفرون لهم ، ثم يصعدون إلى السماء الثانية فهم في كل سماء يوماً وليلة في دعاء واستغفار لأمة محمد ﷺ حتى ينتهوا إلى مكانهم من سدرة المنتهى ، فتقول لهم سدرة المنتهى : أين غبتم هذه الأيام ؟ فيقولون : كنا عند نزول رحمة الله تعالى على أهل الأرض في ليلة القدر ، فتقول لهم : ما صنع الرب بهم ؟ فيقولون : غفر لمحسنهم وشفعه في مسيئهم . قال : فتهتز سدرة المنتهى وتثني على الله تعالى بالتسبيح والتقديس والشكر لما أعطى الله تعالى لأمة محمد ﷺ فتسمعها جنة المأوى وهي مطلة عليها فتقول : يا سدرة المنتهى لم اهتززت ؟ فتقول : أخبرني سكاني عن جبريل عليه السلام أن الله تعالى غفر لأمة محمد ﷺ وشفع محسنهم في مسيئهم فتصيح جنة المأوى بالتسبيح والتقديس والثناء والشكر لما أعطى الله تعالى لأمة محمد فتسمعها جنة النعيم وهي مطلة عليها فتقول : يا جنة المأوى لم صحت ؟ فتقول : أخبرتني سدرة المنتهى عن سكانها عن جبريل عليه السلام أن الله تعالى غفر لأمة محمد وشفع محسنهم في مسيئهم فتصيح جنة النعيم كذلك ثم جنة عدن ويسمع منها الكرسي ، فيقول كذلك ، ثم يسمع العرش . فيقول : يا كرسي لم صحت ؟ فيقول : أخبرتني جنة عدن عن جنة النعيم عن جنة المأوى عن السدرة عن سكانها عن جبريل عليه السلام أن الله تبارك وتعالى غفر لأمة محمد ﷺ وشفع محسنهم في مسيئهم قال :

فيهتز العرش طرباً ويصيح . فيقول الجليل جلّ جلاله : لم صحت ؟ وهو أعلم فيقول : يا رب أخبرني الكرسي عن جنة المأوى عن السدرة عن سكانها عن جبريل عليه السلام أنك يا أرحم الراحمين قد غفرت لأمة محمد ﷺ وشفعت صالحهم في طالحهم فيقول الله عز وجل : صدق جبريل وصدقت سدرة المنتهى وصدقت جنة المأوى وصدقت جنة النعيم وصدقت جنة عدن وصدق الكرسي وصدقت يا عرش ، أعددت لأمة محمد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

[إخواني] انظروا ما خصكم الله به من الإنعام والإكرام وحباكم به من العطايا الجسام وشرفكم بنبيّ الرحمة ورسول الهدى وأنقذكم ببركته من الردى ووهب من أسرف في الذنوب واعتدى لمن أحسن وعمل صالحاً ثم اهتدى . فاستدركوا رحمكم الله مواسم العمر فحادي الموت بالرحيل قد حدا ، واغتنموا ليلة القدر فلعل أن تكتبوا في ديوان السعداء ، فإنها ليلة تفوق ليالي الدهر وهي خير من ألف شهر ، ما دعا الله داع إلا أجابه وبلغه أملاً ومقصداً ، ولا سأله سائل إلا أعطاه سؤله وجاد عليه بالفضل والندى . فيا فوز من أحياها ويا سعادة عبد رآها لقد نال فخراً وسؤدداً . وقد جاء في صحيح الإسناد أنها تلتمس في ليالي الإفراد فاطلبوها في هذه الأعداد تظفروا بحسن القبول ونيل المراد غداً ، فيا أيها الضالّ عن طريق الهدى أما تخاف عاقبة الردى ! أما سمعت الحادي وقد حدا ! أما أنْ تسلك طريقاً رشداً ! أما تغنم ليالي القدر التي تجلو عن قلبك الصدا :

يا أيها العبد قم لله مجتهداً ... وانهض كما نهضت من قبلك السعدا
هذه ليالي الرضا وافت وأنت على ... فعل القبيح مصرّاً ما جلوت صدا
قم فاغتنم ليلة تحيا النفوس بها ... ومثلها لم يكن في فضلها أبدا
طوبى لمن مرة في العمر أدركها ... ونال منها الذي يبغيه مجتهدا
فليلة القدر خير قال خالقنا ... من ألف شهر هنياً من لها شهدا
فيها القرآن بأمر الله أنزله ... إلى السماء وقد خاب الذي جحدا
في ليلة القدر جلّ الله أنزله ... بعلمه وبهذا النص قد وردا
فيها تفتح أبواب السماء لمن ... يرى من الكشف من يعطي بها مددا
وينزل الروح فيها والملائك من ... عند المهيمن لن تحصى لهم عددا
يا فوز عبد رآها إنه رجل ... قد عاش في الدهر عيشاً دائماً رغدا
وفاز بالأمن والغفران مغتبطاً ... ونال ما يرتجى من ربه أبدا
فاطلب من الله إن وافيتها سحراً ... جنات عدن تكن من جملة السعدا

وابك ونح وتضرع في الدجى أسفاً ... ولـذ بجـاه شـفيع المـذنبين غـدا
خير البرية مـن عجـم ومـن عـرب ... محمـد خـير مبعـوث بـدين هـدى
الهـاشمي الـذي شـاعت رسـالته ... جهراً وأسخى الورى بالمكرمات يـدا
هـو البشـير النـذير المستضـاء بـه ... ومـن بإحسـانه عـمّ الأنـام نـدى
وأنـه خـير مـن يمشـي علـى قـدم ... وخير من فاق مولـوداً ومـن ولـدا
صلى عليه إلـه العـرش مـا طلعـت ... شمس وما سارَ سارٍ في الفلا وحدا

إلـهي وقف السائلون ببابك ، ولاذ الفقراء بجنابك ، ووقفت سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك ، يرجون الجواز إلى ساحة رحمتك ونعمك ، إلـهي إن كنت لا ترحم في هذا الشهر الشريف إلا من أخلص لك في صيامه وقيامه فمن للمقصر إذا غرق في بحر ذنوبه وآثامه ، إلـهي إن كنت لا ترحم إلا المطيعين فمن للعاصين ، وإن كنت لا تقبل إلا العاملين فمن للمقصرين ، إلـهي ربح الصائمون وفاز القائمون ونجا المخلصون ونحن عبيدك المذنبون فارحمنا برحمتك وجد علينا بعفوك ومنتك واغفر لنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الثامن

في ذكر حجاج بيت الله الحرام وما أعدّ الله لهم من الإفضال والإنعام ، جعلنا الله وإياكم في هذا العام ممن فاز بحج البيت الحرام وزيارة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام

الحمد لله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ ولا يخشى فناء ولا زوالاً ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ شهود على عظمته لا يجد العقل له شبيهاً ولا مثالاً ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ ولا يطيق أحد بين يديه جواباً ولا سؤالاً ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ ﴾ وفوقاً وتحتاً ويميناً وشمالاً ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ

مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ولا يدرك أحد لكنهه مثالاً ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ وكل يبدي من هيبته خوفاً وإجلالاً ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ وإن كانا ثقالاً ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] الذي تعالى وتعاظم عزاً وجلالاً :

جلّ رب في عزه قد تعالى … وسما قدره وعز منالا
أحد ماجد كريم عظيم … ليس يخشى على الدوام زوالا
جلّ عن مشبه له ونظير … ليس تحصى له العقول مثالا

فسبحانه من إلّه افترض حج بيته الحرام على عباده فشدوا إليه رحالاً ، دعاهم لقربه فما استبعدوا في حبه بعيداً ولا استهولوا أهوالاً ، سار بهم الدليل فكيف يضلون السبيل ووجوههم في ظلام الليل تتلالا فلو رأيت النياق يا هذا كيف تمدّ بوادي العقيق الأعناق فتنشر أشواقاً وتطوي رمالاً . فإذا وصلت إلى شريف حرمه وحططت بباب كرمه رحالاً ، نادى منادي القبول عند الوصول ارتجالاً :

قد دعا الشوق للحبيب رجالا … قطعوا في السرى إليه رمالا … حبذا قد أتوه شعثاً وغبرا
يرتجون النوال والإفضالا … قد أتوا يهرعون من كل فج … فارقوا في رضاه أهلاً ومالا

ثم نادوا بجمعهم في حماه … يا كريماً إذا استقيل أقالا

فسبحان من شرف البيت العتيق ، بركن من ركن إليه نجا من الهمّ والضيق ، وبباب من دخل إليه كان آمناً وكتب له توقيع التوفيق ، وبميزاب تنصبّ منه الرحمة على من سلك إلى الخير أقوم طريق ، وبحجر يشهد لمن قبله بالوفاء والتصديق ، وبحجر سبى العقول بالمحبة إليه والتشويق ، وبحرم تأتي إليه الوفود مشاة وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق :

عن أيمن الشعب بوادي العقيق … لا السنا من نحو ذاك الفريق
وقد بدت أعلام وادي النقا … والقلب مأسور ودمعي طليق
طوبى لقوم أدركوا قصدهم … وكابدوا كل عسير وضيق
ويمموا البيت فبشراهمو … لما أتوا من كل فج عميق

فسبحان من شرف بيته على سائر الأماكن والأقطار ، وجعل ترابه جلاء للأبصار . ووعد من طافه بتضعيف الأجر والثواب وأن يسقيه من شراب الاقتراب رحيقاً سلسبيلاً ، هذه صفة كعبة الله التي مَنْ عظمها كان معظماً مبجلاً ، ومن أقبل إليها كان مولاه عليه مقبلاً ، فكم من محب مات شوقاً إليها ولم يبلغ منها أملاً ، فلسان حاله يقول عندما لبست من خلع القبول حللاً :

يا كعبة الحسن كم من عاشق قتلا ... شوقاً إليك ورام الوصل ما وصلا
قد يتمت بعد الأولاد حين سرى ... وظل يبكي بدمع فاض منهملا
فكم غريق بحار في هواك غدا ... وآخر ظل في البيداء منجدلا
وأنتمو معشر الزوّار قربكم ... إلى مقام به أمن لمن دخلا
فلا تخافوا فأنتم في ضيافته ... فهو الكريم الذي بالجود ما بخلا

فللّه درّ أقوام دعاهم مولاهم إلى جنابه فساروا إلى بابه شعثاً وغبراً ، وعرفهم بعرفات أنه قد تجاوز عن الذنوب والزلات فسجدوا له حمداً وشكراً ، فإذا زمزم لهم الحادي بذكر زمزم والعقيق وقصدوا ذلك الفريق ألقى في قلوبهم من الشوق لهباً وجمراً ، ونادي الصب الكئيب وقلبه بذكر الحبيب مغرم مغرى :

بشيري بأيام الوصال لك البشرى ... عساك رأيت الحيّ والخيم الحمرا
وشاهدت سكان العقيق وحاجر ... وبانت لك الأعلام والقبة الخضرا
ولاح لك الحسن البديع صفاته ... وأصبحت مثلي هائماً مغرماً مغرى
بعيشك حدثني وقل لي عن الحمى ... وعن أهله إن شئت أن تغنم الأجرا
رعى الله أياماً تقضت بقربكم ... وطيب ليال ما عرفت لها قدرا

فيا أيها الغافل ونسيم القبول قد هب من الأراضي الحجازية وأتى بطيب أخبارها ، وروى أن عروس الكعبة المعظمة قد جليت في حلل أستارها وتجلت للطائفين ففازوا بمشاهدتها وقرب مزارها وأدركوا السعود بالصعود إلى عرفات وفازوا في منى برمي جمارها فواشوقاه إلى ليالي منى فقد طالت عليّ مدة انتظارها :

واحسرتي ضاع الزمان باطلا ... ولم تصل روحي إلى أوطارها ... وقد تذكرت زمان وصلها
فهاجت الأشجان من تذكارها ... متى أرى الكعبة تجلى جهرة ... ويقرب البعيد من مزارها
وأجتليها بعد طول حسرة ... في حلل البهاء من أستارها ... وبعدها أسعى إلى خير الورى
مستنقذ الأمة من أوزارها ... المجتبى الهادي الرسول المرتضى ... محمد المختار من نزارها

صلى عليه الله ما هبت صبا ... وضوعت شذاه في أقطارها

قال الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما : معنى السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له زاد وراحلة من غير أن يجحف به ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني من كفر بالحج فلم ير حجه براً ولا تركه إثماً ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « من أتى هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بها الملائكة ، فيقول ما أراد هؤلاء ؟ فيقولون يا ربنا يريدون العفو والمغفرة ، فيقول الله تعالى : يا ملائكتي أشهدكم أني قد غفرت لهم وعفوت عنهم » . فللّه درّ أقوام رأوا خدمة مولاهم في دنياهم ربحاً ومغنماً ورأوا تضييع الأوقات في غير الطاعات خسراناً ومغرماً ، أوقفهم على عرفات قربه فأضحى كل منهم بحبل حبه معتصماً ، غفر ذنوبهم وبلغهم مطلوبهم ونشر لهم بالسعادة علماً :

يا فوز قوم قد أتوا لجنابه فأباحهم منه الرضا والمغنما
قوم على عرفات قد وقفوا وقد باهى بهم ذو العرش أملاك السما
إذ قال يا أهل السموات انظروا وفدي وكل قد أضرّ به الظما
أشهدتكم أني قد غفرت ذنوبهم وعفوت عنهم أجمعين تكرما

[وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه] قال : « خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس إن الله تعالى قد فرض عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل أفي كل عام يا رسول الله ؟ فسكت . فقال : يا رسول الله أفي كل عام ؟ قال : لا ، ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم » رواه مسلم وأحمد والنسائي رضي الله تعالى عنهم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد » رواه النسائي رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم » رواه ابن ماجه ، وفي لفظ آخر : « الحجاج والعمار وفد الله إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوه استجاب لهم وإن شفعوا شفعوا » :

فَهُمُوا وفدي إذا ما حضروا عند بيتي يطلبون الزلفا
أُعْطِهم ما سألوني جهرة وأنلهم من جنابي غرفا
وإذا ما اجتمعوا أسمعتهم من جنابي أنّ مولاكم عفا
فأبشروا بالفوز مني والرضا قد دنا الوصل وقد زال الجفا

[وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه] قال : قال رسول الله ﷺ : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » رواه البخاري ومسلم . قال العلماء : الحج المبرور : الذي ليس بعده معصية كما قال الفضيل بن عياض لبعض من حج : يا هذا إن الله تعالى يختم على عمل الحاج بطابع من نور فإياك أن تفك ذلك الختم بمعصية الله عز وجل :

أبشر فحجك مقبول ومبرور ... وكل سعيك محمود ومشكور
وما تصدقت في أرض الحجاز به ... فأجره لك عند الله مدخور
وكل سعي وما قدمت من عمل ... فإنه لك بعد الربح موفور
فإن حججت ولم تأتي بمعصية ... نلت المراد وأنت اليوم مسرور

[**وعن أبي رزين العقيلي رضي الله تعالى عنه**] أنه أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج والعمرة فقال : « حج عن أبيك واعتمر » رواه الترمذي وابن ماجه والنسائي رضي الله عنهم ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « قلت : يا رسول الله هل على النساء من جهاد ؟ قال : نعم عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة » .

[**إخواني**] كيف تتخلفون عن الحج وقد فرضه الله على العباد ، وكيف لا ترغبون فيه وهو ذخيرة لكم يوم المعاد ، وكيف لا تهتمون به وقد قيل : ليدخلنّ الجنة ثلاثة نفر بالحجة الواحدة الموصي بها والمنفذ لها والحاج عنه ؟ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله كلمات أسأل عنهن ، قال : اجلس ، وجاء رجل من ثقيف فقال : يا رسول الله كلمات أسأل عنهن ، فقال رسول الله ﷺ : سبقك الأنصاري ، فقال الأنصاري : إنه رجل غريب وإن للغريب حقاً فابدأ به فأقبل على الثقفي ، فقال : إن شئت أخبرتك عما جئت تسأل ، وإن شئت سألتني وأخبرك ، فقال : يا رسول الله بل أخبرني عما جئت أسألك فإنه أعجب قال : جئت تسألني عن الركوع والسجود والصلاة والصوم ، فقال : والذي بعثك بالحق نبياً ما أخطأت مما كان في نفسي شيئاً ، قال : فإذا ركعت فضع راحتيك على ركبتيك ثم فرج بين أصابعك ثم امكث حتى يأخذ كل عضو مأخذه ، وإذا سجدت فمكن جبهتك ولا تنقر نقراً وصلّ بأول النهار وآخره ، فقال : يا نبيّ الله فإن أنا وصلت بينهما ، قال : فأنت إذاً مصلّ ، وصم من كل شهر ثالث عشرة ورابع عشرة وخامس عشرة ونم أول الليل وقم أوسطه ونم آخره ، فإن قمت من أوسطه إلى آخره فأنت إذاً مصلّ ، فقام الثقفي ثم أقبل الأنصاري ، فقال : إن شئت أخبرتك عما جئت تسأل وإن شئت سألتني فأخبرك فقال : يا نبيّ الله أخبرني عما جئت أسألك ، قال : جئت تسألني عن الحاج ما له حين يخرج من بيته وما له حين يقوم بعرفات وما له حين يرمي الجمار وما له حين يحلق رأسه وما له حين يقضي آخر طواف بالبيت ، فقال : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق ما أخطأت مما كان في نفسي شيئاً ، قال : فإن له حين يخرج من بيته أن راحلته لا تخطو خطوة إلا كتب له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة ، فإذا وقف بعرفة فإن الله عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا ، فيقول : انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً اشهدوا أني قد غفرت لهم ذنوبهم وإن كانت عدد قطر السماء

ورمل عالج ، وإذا رمى الجمار لا يدري أحد ما له حتى يوفاه يوم القيامة ، وإذا قضى آخر طواف بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » رواه ابن ماجه في صحيحه ، وفي لفظ آخر عن أنس بن مالك ﷺ قال : « جاء رجل من الأنصار يسأل النبي ﷺ ، وجاء رجل من ثقيف يسأله أيضاً ، فقال رسول الله ﷺ : يا أخا ثقيف إن أخاك الأنصاري قد سبقك بالمسألة فاجلس كيما نبدأ بحاجة الأنصاري قبل حاجتك فتغير وجه الثقفي ، فقام الأنصاري . فقال : يا رسول الله ابدأ بحاجة الثقفي قبل حاجتي فإني رأيته آنفاً تغير وجهه وأخاف أن يكون قد وجد عليك وما يسرني ذلك فأخرني ، فدعا النبي ﷺ للأنصاري بخير ، ثم قال : يا أخا ثقيف سل عما بدا لك وإن شئت أنبأتك بالذي جئت تسألني عنه ، فقال : يا رسول الله أخبرني فهو عجب إليّ ، فقال : جئت تسألني أيّ الشهر تصوم وأيّ الليل تقوم وجئت تسألني كيف تصنع في ركوعك وكيف تصنع في سجودك ؟ فقال : والذي بعثك بالحق إنه الذي أردت أن أسألك عنه ، فقال : صم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ونم أوّل الليل وقم وسط الليل ونم آخر الليل ، فإن قمت في وسطه إلى آخر ، فأنت إذا مصلّ وإذا ركعت فضع يديك على ركبتيك وفرّج بين أصابعك ، فإذا سجدت فمكن جبهتك من الأرض ولا تنقر نقراً ، ثم قال : يا أخا الأنصار سلني عما بدا لك وإن شئت أنبأتك بالذي جئت تسألني عنه ، فقال : يا رسول الله حدثني كما حدثت صاحبي فهو أعجب إليّ ، قال : جئت تسألني عن خروجك من بيتك تؤم المسجد الحرام مالك فيه من الأجر وجئت تسألني عن وقوفك بعرفات ما لك فيه من الأجر وجئت تسألني عن رميك الجمار ما لك فيه من الأجر وجئت تسألني عن حلقك رأسك ما لك فيه من الأجر وجئت تسألني عن طوافك ما لك فيه من الأجر وجئت تسألني عن شيء غيره فقال : والذي بعثك بالحق إنه الذي أردت أن أسألك عنه . قال فإن خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام يكتب الله لك بكل خطوة تخطوها حسنة ويحط عنك بها خطيئة ويرفع لك بها درجة ، وأما ركعتاك للطواف فكعتق رقبة ، وأما سعيك بين الصفا والمروة فكعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك بعرفات فإن الله تبارك وتعالى يطلع على أهل عرفات فيقول عبادي أتوني شعثاً غبراً أتوني من كل فج عميق فيباهي بهم الملائكة ، فلو كان عليك من الذنوب مثل رمل عالج وعدد نجوم السماء وقطر البحر والمطر غفرها لك ، وأما رميك الجمار فإنه مدخور لك عند ربك أحوج ما تكون إليه ، وأما حلقك رأسك فإن لك بكل شعرة تقع منك نوراً يوم القيامة ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك وهو طواف الصدر فتطوفه ولا ذنب عليك ويأتي ملك فيضع يده بين كتفيك ، ثم يقول لك قد غفر الله لك ما مضى فأحسن فيما بقي أفيضوا مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه » . فللّه درّ الفائزين بالحج ، لقد بلغوا الأماني وأدركوا الأمان وساعدهم على نيل

مقاصدهم الزمان ، فازوا بحج البيت الحرام ، وقد كفر عنهم مولاهم الذنوب والآثام . يا فوزهم قد سرت بهم المطايا وحط عنهم ثقل الخطايا والعصيان ، وفازوا بنيل المطلوب وحصول القبول والرضوان [وينشد من كان وكان] :

فازوا بنيل الأماني   وأدركوا مطلوبهم   من الإله وطافوا   بالبيت والأركان
وبالمقام تملوا   وبالحطيم تمتعوا   وشاهدوا النور يجلى   فيه بكل مكان
طوبى لهم إذ نالوا   مرادهم لما سعوا   بين الصفا والمروة   في طاعة الرحمن
يا بالغين مناهم   وفائزين بحجهم   بشراكمو قد أراكم   كل الرضا بأمان
فزتم بما أملتم   والله عنكم قد عفا   عن كل ما قد فعلتم   في سالف الأزمان

وقال الشبلي رحمه الله : الحج حرفان : حاء وجيم ، فالحاء من الحلم والجيم من الجرم والإشارة فيه كأنه يقول : يا رب أتيتك بجرمي وجفائي إلى حلمك ورحمتك فإن لم تغفر لي جرمي فمن يغفر لي ؟

[**إخواني**] ما كل مسافر حاج ولا كل جبل عرفات ولا كل بيت مكة ولا كل زاد يوصل .

[**إخواني**] سار الأحباب في ليل العزم ونمتم وربحوا في معاملتهم وما غنمتم لو تفكرتم فيما فاتكم لندمتم ، يا منقطعين عن القوم إن لم تنهضوا للحاق الإخوان فابكوا معي على البعد والحرمان :

إذا ما دعا داع إلى البيت والحِجْرِ   أجابته أجفان مدامعها تجري
ولي كلما سار الحجيج إلى منى   حنين وأشواق تجلّ عن الحصر
فجسمي مقيم في الديار ومهجتي   بخيف منى مع كل ركب يسري
أعلل بالصبر الفؤاد وإن دنا   أوان مسير الركب لم يغنني صبري
وأذكر أهوال الطريق وأجرها   فيسهل عندي ما أخاف من العسر
وإن خفت من فقر تقول عزيمتي   تقدم فكم بالفخر فاز أخو فقر

وقيل : ثلاثة لا تردّ له دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمريض حتى يعافى ، والحاج حتى يقدم . وقيل : من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الركن اليماني ليستلمه خاض في الرحمة ، فإذا استلمه وقال : بسم الله والله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله غمرته الرحمة ، فإذا طاف بالبيت كتب الله له بكل قدم سبعين ألف حسنة ومحا عنه سبعين ألف سيئة .

[**إخواني**] اغتنموا هذه الفوائد والربح ، فمن اجتهد وجدّ وجد وليس من سهر كمن رقد والفضائل والفوائد تحتاج إلى وثبة كوثبة أسد .

[إخواني] من أوقد مصباح الذكر لاحت له الأعلام ، ومن تغرب في بادية الشوق ظهرت له الخيام :

إذا ما الخيام البيض لاحت لشيق ... فعرج فإنا بعدها بقليل
ترانا على الأطناب صرعى من الهوى ... نكفكف دمعاً لافتقاد خليل
وكم أنة أردفتها بتحسر ... وكم عبرة أتبعتها بعويل
قفوا وانظروا ذلي وعز معذبي ... تروا عجباً من قاتل وقتيل

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الحكمة في أفعال الحج وما في المناسك الشريفة من المعاني اللطيفة ؟ فقال : ليس من أفعال الحج ولوازمه شيء إلا وفيه حكمة بالغة ونعمة سابغة ونبأ وشأن وسر يقصر عن وصفه كل لسان . فأما الحكمة في التجرد عند الإحرام فإن من عادة الناس إذا قصدوا أبواب المخلوقين لبسوا أفخر ثيابهم من اللباس فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول القصد إلى بابي خلاف القصد إلى أبوابهم لأضاعف لهم أجرهم وثوابهم ، وفيه أيضاً أن يتذكر العبد بالتجرد عند الإحرام التجرد عن الدنيا عند نزول الحمام كما كان أولاً لما خرج من بطن أمه مجرداً عن الثياب ، وفيه شبه أيضاً بحضور الوقف يوم الحساب كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء : ٤٠] ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

تجرد عن الدنيا فإنك إنما ... خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد
وتب من ذنوب موبقاتٍ جنيتها ... فما أنت في دنياك هذي مخلد

وأما الاغتسال عند الإحرام فلحكمة ظاهرة الإحكام ، وهو أن الله تعالى يريد أن يعرض الحجاج على الملائكة ليباهي بهم الأنام فلا يعرضون على الملائكة الكرام إلا وهم مطهرون من الأدناس والآثام ، وفيه أيضاً حكمة أخرى وهي أن الحجاج يضعون أقدامهم على موضع أقدام الأنبياء الأبرار فيكونون قبل ذلك قد اغتسلوا لينالوا بركتهم في تلك الآثار كما قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ : [البقرة : ٢٢٢] .

تطهر من الذنب يا مذنب ... إذا شئت من بابه تقرب
وكن راضياً بالذي يرتضي ... فإن رضا الحِبِّ يستعذب

وأما الحكمة في التلبية فإن الإنسان إذا ناداه إنسان جليل القدر أجابه بالتلبية وحسن الكلام ، فكيف بمن ناداه مولاه الملك العلام ودعاه إلى جانبه ليُكفّر عنه الذنوب والآثام ، وإن العبد إذا قال : لبيك يقول الله تعالى ها أنا دان إليك ومتجل عليك فسل ما تريد فأنا أقرب من حبل الوريد :

عبـد دعـاه لقربـه مـولاه فأجابـه بـاللطف حـين دعـاه
وأتـى يلبيـه بفـرط تـذلل يـا فـوزه بـالربح إذ لبـاه

وأما الحكمة في الوقوف بعرفة وأخذ الجمار من المزدلفة فإن فيه أسراراً لذوي العلم والمعرفة فمعناه كأن العبد يقول : سيدي حملت الذنوب والأوزار ، وقد رميتها في طاعتك بالإقرار إنك أنت الكريم الغفار :

إليـك مـن هجـرك أبغـي الفـرار وأنـت مـا زلـت مقيـل العثـار
فـاغفر لعبـد راح في قلبـه مـن ألم الأوزار وقـد الجمـار

وأما الحكمة في الذكر عند المشعر الحرام وما فيه من الأجور العظام فكأن الحق تعالى يقول : اذكروني أذكركم ، من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من مَلَئِهِ ، فإذا ذكرتموني عند المشعر الحرام ذكرتكم بين ملائكتي الكرام ، وكتبت لكم توقيع الأمان من حلول الانتقام :

ذكرتك يـا سؤلي وغايـة مقصـدي وأنـت لنـا يـا سـيدي خـير ذاكـر
فجد بقبول منـك أرجـو بـه المنى فذكرك في قلبي وسـري وخـاطري

وأما الحكمة في حلق الرأس بمنى ففيه حكمة يبلغ بها العبد جميع المنى ، وذلك أن فيه يقظة وتذكيراً لا يفهمها إلا من كان عالماً نحريراً لأن الحاج إذا وقف بعرفة وذكر الله عند المشعر الحرام وضحى بمنى وحلق رأسه وطهر بدنه من الأدناس والآثام كتب الله عز وجل له ثواباً وضاعف له أجوراً ووقاه جحيماً وسعيراً ، وجعل له بكل شعرة يوم القيامة نوراً وأعطى توقيع الأمان كما قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

إلى بـابكم أسـعى وإني مقصـر فقـير إلـيكم فـارحموا زلـة البعـد
فإن تطردوني لـيس لي غـير بـابكم وإن أنتمو عني رضيتم فيا سعدي

وأما الحكمة في الطواف وما فيه من المعاني والألطاف ، فإن الطائف بالبيت يقول بلسان حاله عند دعائه وابتهاله : سيدي أنت المقصود ، وأنت الرب المعبود ، أتيت إليك مع جملة الوفود ، وطفت ببيتك المشهود ، وقمت ببابك أرجو الكرم والجود ، وقد سبق خطابك لخليلك الأمين في محكم كتابك المبين : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج : ٢٦] .

بســجود الجبــاه في الأرض ذلاً بطـواف الحجـاج عنـد القـدوم
جـد علينـا بتوبـة يـا إلّـهي ثم فـرج عنـا جميـع الهمـوم

وأما الحكمة في الوقوف بعرفات ، وما فيه من المعاني البديعة الصفات ، فإن فيه تنبيهاً وتذكيراً بالوقوف بين يدي الحق سبحانه وتعالى يوم القيامة حفاة عراة مكشوفي الرأس واقفين على أقدام الحسرة والندامة يضجون بالبكاء والعويل ويدعون مولاهم دعاء عبد ذليل ، كما قيل :

وقفـت بالـذل في أبـواب عزكمـو مستشفعاً من ذنوبي عنـدكم بكمـو
أعفـر الخـد ذلاً في التـراب عسـى أن ترحمـوني وترضـوني عبيـدكمو
فإن رضـيتم فيـا عـزي ويـا شـرفي وإن أبيـتم فمـن أرجـوه غيركمـو
لا بلّـغ الله عـيني طيـب رؤيـتكم إن طاب للسمع يوماً غير ذكركمـو
إن مت في حبكم شـوقاً فيـا شـرفي ويا سروري بمـوتي فيكمـو بكمـو
وإن نويت اصـطباراً عـن محبـتكم عـدمت طيـب مسـرّاتي بأنسـكمو
نسـيت كـل طريـق كنـت أعرفهـا إلا طريقـاً تـؤديني لربعكمـو
أنـا المقـرّ بـذنبي فاصـفحوا كرمـاً فبانكسـاري وذلي قـد أتيتكمـو
لا تطردوني فإني قـد عرفـت بكـم وصرت بين الورى أدعى بعبدكمو

فللّه درّ أقوام دعاهم مولاهم إلى البيت العتيق ، فأجابوا داعي الوجد والتشويق ، وساروا إليه مشاة على قدم التصديق ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق :

مـا أشـوقني إلى نسـيم الرنـد يشـفي سـقمي إذا أتـى مـن نجـد
والشـيح فإنـه مـثير الوجـد شوقي شوقي لهم ووجدي وجدي

[قال عليّ بن الموفق رحمة الله عليه] : حججت إلى بيت الله الحرام فطفت به أسبوعاً وقبلت الحجر الأسود وصليت ركعتين واستندت إلى جدار الكعبة وأنا أبكي وأقول : كم أتردّد إلى هذا البيت وأحضر ولا أدري : هل قبلت أم لا ثم غلبتني عيناي فنمت نوماً خفيفاً ، فبينما أنا بين النائم واليقظان إذ سمعت هاتفاً يقول : يا علي بن الموفق قد سمعنا مقالتك أفتدعو أنت إلى بيتك إلا من تحب ؟ :

الناس بطيب وصلهم قـد سـعدوا وأنـا المضـنى بهجـرهم منفـرد
هـم مـا وجـدوا بحبهـم مـا أجـد مـا جـن بحبـهم جنـوني أحـد

[وقيل] : وقف بكر ومطرّف بعرفات ، فلما عج الحجيج بالبكاء والضجيج بكى بكر ،

وقال : ما أحسنه من مقام لولا أني فيهم ، وقال مطرف وقد تغير وجهه وانتقع لونه : اللهم لا تردهم من أجلي :

ما ضر ريح الصبا لو نسمت حرقي — واستنقذت مهجتي من أسر أشواقي
داء تقادم عندي من يعالجه — ومن يكون له من هجرهم راقي
تمضي الليالي وآمالي مقسمة — ممن أحب على مطل وإملاقي
واضعية العمر لا الماضي انتفعت به — ولا حصلت على شيء من الباقي

[ويروى عن محمد بن المنكدر] أنه حج ثلاثاً وثلاثين حجة ، فلما كان آخر حجة حجها قال وهو بعرفات : اللهم إنك تعلم أنني قد وقفت موقفي هذا ثلاثاً وثلاثين وقفة واحدة عن فرضي والثانية عن أبي والثالثة عن أمي وأشهدك يا رب أني قد وهبت الثلاثين لمن وقف موقفي هذا ولم تتقبل منه ، فلما دفع من عرفات ونزل بالمزدلفة نودي في المنام يا بْنَ المنكدر أتتكرم على من خلق الكرم ؟ أتجود على من خلق الجود ؟ إن الله تعالى يقول لك : وعزتي وجلالي لقد غفرت لمن وقف بعرفات قبل أن أخلق عرفات بألفي عام :

مذ تجلى لنا أنار الوجودا — مانح يمنح المحبين جودا — ودعا أمة الغرام إليه
فأتاه أهل الوفاء وفودا — وأتى المذنبون ما بين باك — خدد الدمع مع جواه خدودا

ثم نادوا يا دائم الجود يا من — لم يزل محسناً كريماً ودودا
أنت قدماً وعدت من تاب بالعفـ — ـو وها قد جئناك نرجوا الوعودا
سمعوا القول قد محونا الخطايا — ورحمنا المهجور والمطرودا
وجبرنا بالعفو كل كسير — كان قدماً يشكو الجفا والصدودا

[وعن علي بن الموفق رحمة الله عليه] قال : حججت في بعض السنين فنمت بين مسجد الخيف ومنى فرأيت ملكين قد نزلا من السماء . فقال أحدهما لصاحبه : يا عبد الله أتعلم كم حج بيت ربنا في هذه السنة ؟ قال : لا ، قال : ستمائة ألف ، ثم قال له : أتدري كم قبل منهم ؟ قال : لا ، قال : ستة أنفس ثم ارتفعا في الهواء فقمت وأنا مرعوب ، وقلت : واخيبتاه أين أكون أنا في هذه الستة أنفس ، فلما وقفت بعرفة وبت بالمزدلفة رأيت الملكين قد نزلا من السماء على عادتهما فسلم أحدهما على الآخر ، وقال : يا عبد الله أتدري ما حكم ربك في هذه الليلة ؟ : قال : لا ، قال : فإنه وهب لكل واحد من الستة المقبولين مائة ألف وقد قبلوا جميعاً . قال : فانتبهت وبي من السرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى إذ قبل الحجاج جميعهم ومنحهم براً وجوداً ولم يجعل منهم شقياً ولا محروماً ولا مطروداً :

قل للذي ألف الذنوب وأجرما وغـدا علـى زلاتـه متنـدما
لا تيأسـن مـن الجميـل فعنـدنا فضـل ينيـل التـائبين تكرمـا
يا معشر العاصين جودي واسع توبـوا ودونكـم المـنى والمغنمـا
لا تخنعـوا مـن قـبح ذنـب سـالف إني أحـب بـأن أجـود وأرحمـا

[وقيل : إن رابعة العدوية رحمة الله عليها] حجت إلى بيت الله الحرام حافية تمشي على الأقدام وتؤثر بما يفتح الله عليها من الطعام ، فلما وصلت إلى الكعبة خرت مغشياً عليها ، فلما أفاقت وضعت خدها على البيت وأنشدت تقول :

هـذه دارهـم وأنـت محـب مـا بقـاء الـدموع في الآمـاق

ثم إنها طافت وسعت ، فلما أرادت الوقوف بعرفة حاضت فبكت وقالت : يا سيدي ومولاي لو وقع لي هذا من غيرك لشكوته إليك ، فكيف وقد وقع لي منك ؟ فسمعت هاتفاً يقول : يا رابعة قد قبلنا الحجيج كلهم من أجلك وجبرناهم لأجل كسرك :

أقام الهوى العذري لي فيكمو عـذرا فمن أجل ذا لم أستطع عنكمو صبرا
وأصبحت مشغوفاً آتيه على الـورى وأوسع من قد لامني في الهوى عذرا
فـإن كنـت أصـغي للعـذول فعـاذر علـى أنـه بالحـال مـن غـيره أدرى
ولي قمـر في أرض نجـد محلـه على أنه قد أخجل الشمس والبـدرا
ولمـا تبـدى حسـنه وجمالـه ولاح لعـيني نـور طلعتـه الغـرا
وهبت له روحي وقلت لـك الحشا محلـك يـا مـن حسـنه حـير الفكـرا
إذا قـال يـا عبـدي أقـول ذكـرتني وسميـتني عبـداً وشـرفتني قـدرا
ومن أنـا يـا مـولاي حـتى ذكـرتني لقـد تم إسـعادي وذا أول البشـرى
فيا رب بالهادي البشير الـذي رقـى على ذروة الأفـلاك في ليلـة الإسـرا
وأرسـلته فينـا بشـيراً ومنـذراً ومـا زال في يـوم المعـاد لنـا ذخـرا
أذقنـا جميعـاً بـرد عفـوك واهـدنا إلى خـير أسـباب بهـا نغـنم الأجـرا
وشـفعه فينـا مـن ذنـوب تراكمـت وقد أثقلـت منـا الكواهـل والزهـرا
نـبي لـه في المعجـزات خـوارق تحـير في إدراكهـا العقـل والفكـرا
فضـائل لـو أن الـورى كلفـوا بهـا بيانـاً وحصـراً مـا أطـاقوا لهـا حصـرا
عليـه سـلام الله مـا هبـت الصبـا ومـا حملـت مـن طيبـة للـورى نشـرا

المجلس التاسع

في فضائل الكعبة التي شرفها الله تعالى وجعلنا وإياكم من القادمين عليها في هذا العام ومن الفائزين بزيارة قبر نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام

الحمد لله الذي أرشد العقول إلى توحيده وهداها ، وجعل توحيدها سبباً للنجاة في سفينة السلامة ، وقال الموحد : بسم الله مجراها ومرساها ، فاتصلت بمحبوبها وظفرت بمطلوبها ومناها ، وسارت في بحر مشاهدته فاستغرقت في لذة منادمته عندما ناداها ، أسمعها خطابه فطابت وأجابت لما دعاها ، أشهدها عجائب حكمته وأراها آثار قدرته في أرضها وسماها ، فالأفلاك بمشيئته سخرها والأملاك بإرادته دبرها عندما يراها ، فسبحانه من ملك عظيم أزليته كأبديته لا تنفد ولا تتناهى ، أحديته كأزليته لا تماثل ولا تضاهى ، فجل مقتدراً وعز رباً وتعالى إلـهاً ، رفع السماء بغير عمد وبحسن الإتقان بناها ، وبسط الأرض على الماء بحكمته ودحاها ، وجعل الكعبة البيت الحرام أشرفها بقعة وأعظمها رفعة ، وأكثرها بركة ووجاهة وجاهاً ، ودعا إليها نفوس أهل مجالسته ففازت بمؤانسته وصفا عيشها عند الصفا لما صفاها ، وهيمها في أودية وجدها عندما رفع عنها حجاب بعدها وإلى مقام قربه رقاها ؛ وزمزم لها مزمزم الشوق عند زمزم ومن رائق زلاله سقاها وألبسها خلع التكريم عند الحطيم فحط عنها كل ذنب عظيم وعفا عن زللها وخطاياها ، فلما انتهى الزوار من جميع الأقطار نادتهم بلسان حالها وقد رفعت الأستار عن جمالها وأبدت نورها وسناها :

إليّ إليّ يا عشاق حسني ... فهذا الوقت وقت لا يضاهى ... فكأس وصالها قد دار صرفاً
وشمس جمالها أبدت سناها ... وقالت دونكم قربي تملوا ... تروا بجنابنا عزاً وجاها

فأين يصاب مثل عروس حسني ... وما في الكون معشوق سواها
وقد سعدت عيون قد رأتها ... وقد شقيت عيون لا تراها

فسبحان من شرّف الكعبة البيت الحرام وخصها والإجلال والإعظام واصطفاها ، وجعلها حمى مباحاً وجناباً رحباً لمن حام حول حماها ، وحرماً آمناً لمن دخل إليه ووفى ما عليه حين وافاها ، ووجهة لمن واجهها وأراد عنده جاهاً ، وهي التي هاجر منها الحبيب وما هجرها ولا قلاها ، وما انقلب قلبه إلى قبلة سواها ، حتى أنزل عليه في آيات سمعها وتلاها : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ

وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة : ١٤٤] :

فولي وجهك الحسن المفدى إليها حيثما كنت اتجاها فإن أباك إبراهيم قدماً

لأجل رضاك حقاً قد بناها وإسمعيل طاف بها ولبى وطهرها لمشتاق أتاها

هو البلد الأمين وأنت حل فطأها يا أمين فأنت طاها ووجه حيث كنت إذن إليها

ولا تعدل إلى شيء سواها فوجه الله قبلة كل حي لِمَنْ شهد الحقيقة واجتلاها

وهذا البيت بيت الله فيه تسر النفس إذ بلغت مناها وهذا الحجر والحجر المفدى

وزمزم والحطيم وما زهاها فهلل عند مشهده كفاحا وزمزم عند زمزمه شفاها

فيا حجاج بيت الله طوفوا بكعبته ولبوا في ذراها فطوبى ثم طوبى ثم طوبى

لنفس في منى بلغت مناها فقل للناسكين بكل فج لكم ثج وعج في رباها

فلا يجدي سوى الإخلاص حقاً ونيته التي فيها نواها

وإقلاع عن العصيان جهراً وتجريد لنفسك عن هواها

وإرفاق وإنفاق وبذل لذي الحاجات مما قد عراها

وتقوى الله أفضل كل زاد لنفس بالتقى عرفت هداها

فقل بلسان عزمك في رباها إذا شاهدت في المغني سناها

إليك شددت يا مولاي رحلي وجئت ومهجتي تشكو جواها

وها أنا جار بيتك يا رجائي وبالأستار ممتسك عراها

وللجيران والضيفان حق على الجار الكريم إذا دعاها

إليك شفيعنا الهادي المفدى ومَنْ قد حل جهراً في حماها

شفيع الخلق يوم الحشر حقاً رسول الله أقوى الناس جاها

عليه من المهيمن كل وقت صلاة غير منحصر مداها

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦ – ٩٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ هي كعبة وضعها الله تعالى في الأرض قبالة البيت المعمور كما روى أن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة وحج البيت لقيته الملائكة ، فقالت له : برّ حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . قال : فما كنتم تقولون ؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر . فكان آدم عليه السلام يقولها في طوافه ثم يقول : اللهم اجعل لهذا البيت عماراً من ذريتي ، فأوحى الله تعالى إليه : إني معمر بيتي من

ذريتك بنبي اسمه إبراهيم أتخذه خليلاً ، وإني لأقضي على يديه عمارته . فلما جاء الطوفان في عهد نوح عليه السلام رفع الله عز وجل البيت إلى السماء الرابعة ، وكان من زمردة خضراء وفيه قناديل من قناديل الجنة وأخذ جبريل الحجر الأسود فأودعه في جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق . فكان مكان البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه السلام فلما ولد له إسماعيل وإسحاق أمره الله تعالى ببناء بيت يذكر فيه فقال : يا رب بين لي صفته فأرسل الله تعالى سحابة على قدر الكعبة فسارت معه حتى قدم مكة فوقفت في موضع البيت ، ونودي : يا إبراهيم ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص فكان جبريل عليه السلام يعلمه وإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ذكره ابن عباس وابن شهاب وقتادة ، قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي آيات واضحات دالات على توفير الأجور والثواب . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ يعني آمناً من النار ، وقيل : آمناً من الفزع الأكبر ، وقيل : آمناً من الشرك ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ الاستطاعة أن يكون قادراً على الزاد والراحلة ، وأن يصح بدن العبد ، وأن يكون الطريق آمناً . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي من كفر بالحج فلم ير حجه براً ولا تركه إثماً . وقال رسول الله ﷺ : « من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات بأحد الحرمين بعث يوم القيامة من الآمنين » ، وفي الحديث : « استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أفضل شيء تجدونه في صحفكم يوم القيامة وأغبط عمل تجدونه » ، وفي الخبر : « من طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » رواه ابن حبان في صحيحه .

[وقيل] : إن الله تعالى وعد البيت بأن يحجه في كل سنة ستمائة ألف فإن نقصوا كملهم من الملائكة ، وإن الكعبة تحشر يوم القيامة كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها . وفي الحديث : « إن الحجر الأسود ياقوته من يواقيت الجنة وإنه يبعث يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به فيشهد لمن استلمه بحق وصدق » وكان رسول الله ﷺ يقبله كثيراً ، وقبله عمر رضي الله عنه وقال : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك ، فقال عليّ كرم الله وجهه : لا تقل كذا ، بل هو يضر وينفع ، فقال له : يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتجاب الدعوات ، فقال عليّ : يا أمير المؤمنين ، بل هو يضر وينفع بإذن الله تعالى ، فقال : وكيف ، قال : لأن

الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد على الكافرين بالجحود ، وهو معنى قول الناس عند الاستلام : اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ . وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : الصلاة بمكة بمائة ألف صلاة وصوم يوم بها بمائة ألف يوم ، وصدقة درهم بمائة ألف درهم ، وكذلك كل حسنة بمائة ألف :

يا كعبة الله لي غرام إليك لم يثنه ملام
أنت لنا تشفعين حقًا عند حبيب له ذمام
تضاعف الحسنات فيك دوماً وزوارك الكرام

وجاء في الحديث : « إن الله تعالى ينظر كل ليلة إلى أهل الأرض وأول من ينظر إليهم أهل الحرم وأول من ينظر إليهم من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفاً غفر له ومن رآه مصلياً غفر له ومن رآه مستقبل الكعبة غفر له » . وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ينزل على هذا البيت كل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين » . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « الحجر والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة » ، وعن ابن مسعود ﷺ : « وقف النبي ﷺ على ثنية المقبرة وليس بها يومئذ مقبرة . فقال : يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً » ، وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام » ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « هذا البيت دعامة الإسلام من يخرج من بيته يطلب هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله أن يدخله الجنة إن قبضه وإن رده رده بأجر وغنيمة » . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج : ٢٩] لأنه خلق قبل الأرض بألفي عام وسمي البيت عتيقاً لأن الله تعالى أعتقه من أيدي الجبابرة فلم يسلط عليه جباراً قط ، بل كل من قصده بسوء هلك . وقال أبو بكر الواسطي : إنما سمي عتيقاً لأن من طاف به صار عتيقاً من النار :

طوبى لمن طاف بالبيت العتيق وقد لجا إلى الله في سر وإجهار
ونال بالسعي كل القصد حين سعى وطاف جهراً بأركان وأستار
ذاك السعيد الذي قد نال منزلة علياء في دهره من كل أوطار
وكل من طاف بالبيت العتيق غدا بين الورى معتقاً حقاً من النار

وسُمّيَ أبو بكر الصديق عتيقاً ، فمن لم يتوجه إلى الكعبة لم تقبل صلاته ومن لم يشهد بولاية أبي بكر الصديق لم تقبل زكاته . وعن عبد الله بن سليمان قال : طاف آدم عليه السلام بالبيت سبعاً حين نزل على الأرض ، ثم صلى ركعتين ثم أتى الملتزم ، فقال : اللهم إنك تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم ما في نفسي فاغفر ذنوبي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي ، الله إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي والرضا بما قضيت عليّ ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد دعوتني بدعوات فاستجبت لك ، ولن يدعو بها أحد من ولدك إلا كشفت همومه وغمومه وكشفت عنه ضيقه ونزعت الفقر من قلبه وجعلت الغنى بي عينيه ورزقته من حيث لا يحتسب وأتته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها . وعن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان بعد الطوفان الذي أغرق الله به قوم نوح ورفع البيت المعمور الذي كان بناه آدم عليه السلام إلى السماء السادسة أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يأتي إلى الموضع البيت ويبني على آثره فانطلق إبراهيم عليه السلام فلم ير له أثراً وخفي عليه مكانه ، فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر البيت الحرام في الطول والعرض فيها رأس له لسان يتكلم وعينان فقامت على ظهر البيت بحياله ، ثم قالت : يا إبراهيم ابن على قدري وحيالي ، قال : فأخذ إبراهيم عليه السلام على ظهر قدرها وحيالها ، فأسس عليها البيت الحرام فذهبت السحابة ، ثم بناه حتى فرغ منه فطاف به أسبوعاً فأوحى الله تعالى إليه أن أذن في الناس بالحج قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : يا إبراهيم عليك بالنداء وعلينا البلاغ . وفي رواية : عليك الأذان وعلينا البلاغ ، فلما أمره بذلك صعد إبراهيم على جبل أبي قبيس ونادى : يا عباد الله ألا إن ربكم قد بنى بيتاً وأمركم بحجه فحجوه فأسمع الله عز وجل من في الأرض وأجابه الإنس والجن والحجر والمدر والشجر والجبال والرمال وكل رطب ويابس ، وأسمع من في المشرق والمغرب وأجابوه من بطون الأمهات ومن أصلاب الرجال كلّ يقول : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، فإنما يحج اليوم من أجاب يومئذ ، فمن لبى مرة حج مرة ومن لبى مرتين حج مرتين ومن لبى ثلاثاً حج ثلاثاً ومن لبى أكثر حج بقدر ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ أي رجالة ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي ركباناً على ضمر من طول السفر ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] . أي بعيد غامض :

لما رأيت مناديهم ألمّ بنا ... شددت مئزر إحرامي ولبيت
وقلت للنفس جدي الآن واجتهدي ... وساعديني فهذا ما تمنيت
لو جئتكم قاصداً أسعى على بصري ... لم أوف حقاً وأي الحق أوفيت

[وعن محمد بن كعب ﷺ] عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : « كنت طائفاً مع النبي ﷺ بالبيت الحرام فقلت : فداك أبي وأمي ما هذا البيت ؟ قال لي : يا علي أسس الله تعالى هذا البيت في دار الدنيا كفارة لذنوب أمتي ، فقلت فداك أبي وأمّي ما هذا الحجر الأسود ؟ قال : تلك جوهرة كانت في الجنة أهبطها الله تعالى إلى الدنيا لها شعاع كشعاع الشمس فاشتد سوادها وتغير لونها منذ مستها أيدي المشركين » .

[إخواني] ما كل بيت كعبة ولا كل جبل عرفات ولا كل زاد يوصل ، فيا من فاته الحج ولم يجد إليه سبيلاً ومضى عمره في اللهو ، وقد حمل من الذنوب حملاً ثقيلاً ، وجر في ميدان العصيان بالغفلة منه ذيولاً ، وطلب النجاة فلم يجد إليها وصولاً ، بادر بالحج إلى بيت الله الحرام واجعل لك نور الإسلام دليلاً . فقد قال من لا تدركه الأبصار ولا تجد له العقول ولا الأفكار عديلاً ولا مثيلاً : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فطوبى لمن حجه ، فأدرك ربحاً ومغنماً ودخل حرمه الذي هو أمن لمن دخله وحمى . أما شاقه الركب إذا سار إلى ذلك الجناب ميمماً ، أما أطربه الحادي إذا حدا باسم الحبيب مترنماً وغنى بذكره مزمزماً :

يا سائقاً غن النياق وزمزما ... أبشر فقد جئت المقام وزمزما
كم كنت تذكرنا منازل مكة ... وتقول إنّ بها المنى والمغنما
بردّ بماء سقاية العباس ما ... كابدته طول الطريق من الظلما
وانهض وهرول بين مروة والصفا ... وادخل إلى الحجر الكريم مسلما
ومقام إبراهيم زره مبادراً ... وبحجر إسماعيل صلّ معظما
وانظر عروس البيت يجلى حسنها ... للناظرين ولذ بها مستعصما
فهي التي ظهرت فضائلها فلا ... تخفى وهل يخفى سنا قمر السما
لم يلقها الإنسان إلا باكياً ... فرحاً بها أو ضاحكاً متبسما
والنور من أرجائها لا يختفي ... أبداً وإن جن الظلام وأعتما
ومن العجائب أنها محروسة ... والصيد فيها لا يزال محرّما
والطير لا يعلو على أركانها ... إلاّ ليشفى إذ غدا متألما
تختال في حلل السواد وبابها ... بالنور دام مبرقعاً وملثما
هي كعبة المولى الكريم وكل من ... وافى إليها حقه أن يكرما
يا رب قد وقفت ببابك عصبة ... يرجون منك تفضلاً وتكرما
ما منهمو إلا ذليل خاضع ... باك على زلاته متندما
ذا طالب فضلاً وذا متنصل ... مما جناه من الذنوب وقدّما

[قال وهب بن منبه ﷺ] مكتوب في التوراة : إن الله عز وجل يبعث يوم القيامة سبعمائة ألف ملك من الملائكة المقربين بيد كل واحد منهم سلسلة من ذهب إلى البيت الحرام فيقول لهم : اذهبوا فزموه بهذه السلاسل ، ثم قودوه إلى المحشر فيأتونه بتلك السلاسل ويمدونه وينادي ملك يا كعبة الله سيري فتقول : لست بسائرة حتى أعطى سؤلي فينادي ملك من جوّ السماء سلي فتقول الكعبة : يا رب شفعني في جيراني الذين دفنوا حولي من المؤمنين فتسمع النداء : قد أعطيتك سؤلك ، قال : فتحشر موتى مكة بيض الوجوه كلهم محرمين مجتمعين حول الكعبة يلبون . ثم تقول الملائكة : سيري يا كعبة الله فتقول : لست بسائرة حتى أعطى سؤلي فينادي ملك من جوّ السماء سلي تعطي فتقول الكعبة : يا رب عبادك المذنبون الذين وفدوا إليّ من كل فج عميق شعثاً غبراً تركوا الأهل والأولاد والأحباب وخرجوا شوقاً إليّ زائرين مسلمين طائعين حتى قضوا مناسكهم كما أمرتهم فأسألك أن تشفعني فيهم وتؤمنهم من الفزع الأكبر وتجمعهم حولي ، فينادي الملك فإن فيهم من ارتكب الذنوب بعدك وأصرّ على الكبائر حتى وجبت له النار فتقول : يا رب أسألك الشفاعة في المذنبين الذين ارتكبوا الذنوب العظام والأوزار حتى وجبت لهم النار فيقول الله تعالى قد شفعتك فيهم وأعطيتك سُؤْلك فينادي ملك من جوّ السماء ألا من زار كعبة الله فليعتزل عن الناس فيعتزلون فيجعلهم الله تعالى حول البيت الحرام بيض الوجوه آمنين من النار يطوفون ويلبون . ثم ينادي ملك من السماء ألا يا كعبة الله سيري فتقول الكعبة : لبيك اللهم لبيك والخير كله بيديك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . ثم يمدونها إلى المحشر فسبحان من جعل الكعبة البيت الحرام أمناً على من كان لها من الأنام أهلاً ، وخص بزمزم والمقام من قام بواجبه فرضاً ونفلاً ، واصطفى للمروة والصفا من سعى على أقدام الوفا واستبدل من الجفا وصلا ، فيا لها من عروس حنت إليها النفوس فراح المحبون من حبها أسرى وقتلى منادي الحبيب بالترحيب أهلاً وسهلاً :

مرحبًا مرحبًا وأهلاً وسهلا ... بعروس على المحبين تجلي ... لبست خلعة الجمال وزفت
سلبت للمشوق قلباً وعقلا ... قد هجرنا الديار والأهل شوقًا ... وقطعنا القفار وعراً وسهلا
وأتينا شعثاً وغبراً نلبي ... ودموع الأشواق تزداد هطلا ... ثم بعنا النفوس بيع سماح
وعلمنا بأن وصلك أغلى ... كم مشوق قد رام منك وصالاً ... قبل موت فلم ينل منك وصلا

تحت ظل الأراك أضحى طريحاً ... باكي العين عن حماك مخلى
عاقه حظه فعاد حزيناً ... وزمان السرور عنه تولى
أي شيء يكون في الأرض جمعاً ... من طواف القدوم والسعي أحلى

والتـزام السـتور والـدمع يجـري ... مـن سـرور وكعبـة الله تجلـى
رفعـت برقـع الجمـال ونـادت ... ألـف سـهلاً بالقـادمين وأهـلا
قـد عفـا الله عنكمـو وحبـاكم ... برضـاه وزادكـم منـه فضـلا
فاشـكروا الله مـذ دعـاكم إليهـا ... وأعـاد العسـير يـا قـوم سـهلا
بـادروا الآن للطـواف وقومـوا ... قـد صـفا الوقت والحبيب تجلى
ما ترى الصيد عندها كيف يُحمى ... وكـذا الطـير فوقهـا مـا تعلـى
عـن قريـب نسـير في عرفـات ... ثم نرمـي مـن المـآثم حمـلا
وينـادي بالبشـير فينـا منـاد ... عنـدها تنظـر النـهار تـولى
قـد عفـا الله عـنكمُ وحمـاكم ... مـن جحـيم بهـا العصـاة أذلا
فـانفروا بـارك المهـيمن فـيكم ... واركبـوا الـنجم يـا كرامـاً أجـلا
فانثنينـا عنـد الصـباح جميعـاً ... نحـو وادي مـنى وأرض المصـلى
ورمينـا الجمـار لمـا قـدمنا ... وأتانـا السـرور والحـزن ولى
وحلقنـا الـرؤوس مـن بعـد نحـر ... واتبعنـا فعـال مـن كـان قـبلا
وقضـينا مناسـك الحـج حـتى ... عـاد مـن حـرّم المهـيمن حـلا
وشـددنا المطـي نحـو نـبيّ ... أطيـب العـالمين فرعـاً وأصـلا
أحمـد المصـطفى شـفيع البرايـا ... فـاز مـن زار قـبره وتملـى
فعليـه مـن الإلـه صـلاة ... وسـلام علـى المـدى لـيس يبلـى

المجلس العاشر

في ذكر ما جاء في البكاء والبكائين من خشية الله تعالى

الحمد الله الذي أبكى عيون الخائفين خوف الوعيد فجرت عيونهم كالعيون ، وأجرى سحب المدامع من عيون أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع فهم من خوف القطيعة يبكون ، أخذوا في النوح والتعديد خوف الوعيد فهم من مكره خائفون ، جعلوا التقوى لهم أفخر لباس فأطار الخوف نومهم والنعاس فهم عندما يفرح الناس يحزنون ، قد منع الدمع نومهم والهجوع فهم يبكون بفؤاد موجوع وقلب محزون ، قد جعلوا البكاء لهم دأباً والدمع شراباً يقطعون النهار حزناً والليل انتحاباً فهم عن البكاء لا يفترون ، فسبحان من أضحك وأبكى وأمات

وأحيا وعلم ما كان وما يكون ، عاهدوا مولاهم فوجدوه وفياً وعاملوه فوجدوه ملياً . فهم الذين ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم : ٥٨] قد عفر كل منهم في التراب وجه المصون ، إذا خلا حزينهم بنفسه أنّ وشكا . وإذا تفكر في ذنوبه تضرع وبكى ، وقرّح بالمدامع الجفون ، فكلهم في حضرة الملك الديان يمطرون الدمع من سحائب الأجفان ويخرون للأذقان يبكون ؛ سمعوا ما قيل لأهل الصدق والوفاء : « إن لم تبكوا فتباكوا » فهم من البكاء لا يملون ، أقلقهم الخوف فهم سائحون ، وأحرقهم الوجد فهم هائمون ، لزموا الحذر فهم في النهار صائمون ، وألفوا السهر فهم في الليل قائمون ، دموعهم شرابهم وصمتهم جوابهم فهم في الفتنة سالمون ، يبكي كل منهم على زلته وكلهم يخافون من سطوته ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] فسبحان من ابتلى عباده بأنواع الابتلاء من جميع الفنون ، ولم يعف من ذلك الأنبياء وهم المقربون ، فآدم عليه السلام بكى أربعين عاماً لما أخرج من الجنة وهو أبو البشر وصاحب العرض المصون . ويعقوب عليه السلام بكى على يوسف عليه السلام حتى ابيضت عيناه من الحزن وقال لباقي أولاده لما حجبوه عنه : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٨٦] ولما علم إخوة يوسف من أبيهم محض الودّ له وفرط الحب ألقوه في غيابة الجب ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] وداود عليه السلام بكى أربعين عاماً على خطيئته ولم يرفع فيها رأسه إلى السماء من خجلته فنودي : يا داود أما الذنب فقد غفرناه وأما الود فلا يعود في الدنيا ولا يكون ، ولسان الحال يقول من فرط الحزن والشجون :

بكيت من حزني حتى جرى ... لما ألاقي من عيوني عيون

يا سادة أغضبتهم ساهيا ... عسى إلى حال الرضا يرجعون ... بكيت بالدمع على ما مضى
من زمن ولي وعيش مصون ... فيا رعى الله ليالي مضت ... بكم وقرت بلقاكم عيون
رضيت ما يرضاه لي سيدي ... وما أراد الله مني يكون ... والله ما استصعبت ما نالني
في حبه والصعب عندي يهون ... يا هل ترى يرجع عيش مضى ... بمن لقلبي في لقاه سكون
من قبل أن أعصيك يا سيدي ... يا ليتني لاقيت ريب المنون ... لكنني تبت ومالي سوى
بابك إذ يقصده التائبون ... وقد تشفعت بخير الورى ... ومن لديه لا تخيب الظنون

صلى عليه الله ما غردت ... ورقاء عند الصبح فوق الغصون

قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين : قطرة دمع مع خشية الله وقطرة دم تراق في سبيل الله » ، وقال ﷺ : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله تعالى وعين سهرت في سبيل الله تعالى وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله

تعالى » ، وكان من دعائه ﷺ : « اللهم ارزقني عينين هطالتين يبكيان الدمع من خشيتك قبل أن يكون الدمع دماً والأضراس جمراً » .

[**إخواني**] يقول الله تعالى في بعض كتبه المنزلة : وعزتي وجلالي لا يبكي عبد من خشيتي إلا أبدلته ضحكاً في نور قدسي ، قال للبكائين من خشيتي أبشروا فإنكم أول من تنزل عليه الرحمة إذا نزلت ، قل للمذنبين من عبادي يجالسوا البكائين من خشيتي لعلّي أن أصيبهم برحمتي إذا رحمت البكائين ، وقال النضر بن سعد رحمه الله : ما اغرورقت عين بمائها من خشية الله تعالى إلا حرم الله تعالى وجه صاحبها على النار فإن فاضت على خده لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة يوم القيامة ، ولو أن محزوناً بكى من خشية الله تعالى في أمة من الأمم لرحم الله تعالى ببكائه تلك الأمة ، وما من عمل إلا وله وزن إلا الدمعة فإنها تطفىء بحوراً من النار . وقال عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما : لأن أدمع دمعة من خشية الله تعالى أحب إليّ من أن أتصدق بألف دينار .

[**إخواني**] إذا تمكن الخوف من أرض القلوب والضلوع جرت سواقي الدموع فسقت بستان الخشية ، فأزهر بالندم وأثمر بالتوبة . كان داود عليه السلام يبكي الليل والنهار على خطيئته فخلع خلع الفرح ولبس جلباب الحزن فأسكت الحمام بنوحه وشغلها عن صدحها بصوته وأقلق الأفئدة بشجنه وروى العشب من دموعه . وكان يقول في مناجاته : خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا قلبي من داء علتي فكلهم عليك دلني . إلـهي امدد عيني بالدموع وضعفي بالقوة حتى أبلغ رضاك عني :

يا من تجنبت صبري من تجنبه ... هب لي من الدمع ما أبكي عليك به
حتى متى زفراتي في تصعدها ... إلى الممات ودمعي في تصببه
وبي فؤاد إذا طال الغرام به ... هام اشتياقاً إلى لقيا معذبه

قال : فما زال يغسل العين من عين العين وهو يستغيث وينادي حتى أقلق الحاضر والبادي :

إن شفيعي إليك مني ... دموع عيني وحسن ظني
فبالذي قادني ذليلاً ... إليك إلا عفوت عني

[**وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله**] : البكاء من الخوف والاضطراب من الرجاء والشوق .
وكان محمد بن المنكدر رضي الله عنه إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ، فقيل له في ذلك ، فقال : بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع ، يا هذا البكاء يطفىء جمر الذنوب ويحيي زرع القلوب ويوصلك إلى المطلوب ، فابك في خلواتك على جفواتك ، ابك بعبراتك على

عثراتك ، ابك في أيامك على ذنوبك وآثامك ، ابك في لياليك على غيك وتماديك :

بكى وحق له إرسال دمعته عبد تباعد عن مولاه وانتزحا
سقته لوعته أنواع عبرته إذا انقضى قدح أهدت له قدحا
كذا المحب إذا صحت مودته أيام فرقته لا يعرف الفرحا

[قال أبو بكر الكناني رحمه الله] : رأيت في المنام شاباً لم أر أحسن منه فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا التقوى ، فقلت له : فأين تسكن ؟ فقال : في كل قلب حزين بكاء . وقيل : رأى يزيد الرقاشي في نومه النبي ﷺ فقرأ عليه ، فقال له : هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله : رأيت في المنام جارية ما رأيت أحسن منها يتلألأ وجهها بهاءً وجمالاً ، فقلت لها : ما أنور وجهك ؟ فقالت : أتذكر الليلة التي بكيت فيها من خشية الله عز وجل ؟ قلت : نعم ، قالت : حملت إليّ دمعتك فمسحت بها وجهي فصار كما ترى .

[وحكي] عن عطاء السلمي أنه كان كثير البكاء فسئل عن ذلك فقال : لم لا أبكي ووثاق الموت في عنقي والقبر منزلي والقيامة موقفي والخصوم حولي يقولون لي يا مرائي بيننا وبينك الموقف لفصل القضاء . وبكى يزيد الرقاشي عند موته فقيل له : ممَّ تبكي ؟ فقال : أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار وحضور مجالس الذكر . ولما احتضر عامر بن قيس رحمه الله بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : والله إنما أبكي على صيام هواجر الصيف وقيام ليالي الشتاء . وبكى أبو الشعثاء رحمه الله عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : اشتقت إلى قيام الليل . وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه : مرض بعض العباد فدخلنا عليه نعوده فجعل يتنفس ويتأسف . فقلت له : على ماذا تتأسف ؟ فقال : أبكي بأن يصوم الصائمون ولست فيهم ، ويذكر الذاكرون ولست فيهم ، ويصلي المصلون ولست فيهم .

[إخواني] انظروا إلى هؤلاء السادة كيف يتأسفون على الفوت ، ويندمون على ترك العمل الصالح بعد الموت ، فاستدرك ما بقي من عمرك أيها الإنسان ، واعلم أنك كما تدين تدان . أما ترون على قبورهم الدوارس وتعتبروا ! أما ترونهم في قبوهم قد أسروا يتمنون العود إليكم وهيهات ! ويسألون التدارك وقد فات ، وكم وعظ الزمان من ألباب ، وكم أنذر المشيب من شباب ، وكم أباد الموت من أتراب ! وكم فرق بين أحباب ! أما لك سمع للمواعظ يسمع ! أما لك عين على فراق الحبائب تدمع ! أما لك قلب من الخوف يخشع ! أما لك في التوبة إلى الله مطمع :

كم رأينا من أناس هلكوا فبكى أحبابهم ثم بكوا

تركوا الدنيا لمن بعدهمو ليتهم لو قدموا ما تركوا
كم رأينا من ملوك سوقة ورأينا سوقة قد ملكوا
قلب الدهر عليهم فلكاً فاستداروا حيث دار الفلك

[وقيل] : أوحى الله تعالى إلى شعيب النبي ﷺ : يا شعيب هب لي من رقبتك الخضوع ، ومن قلبك الخشوع ، ومن عينيك الدموع ، وادعني فإني قريب . وقيل : بكى شعيب عليه السلام مائة عام حتى ذهب بصره فردّه الله تعالى عليه فبكى مائة أخرى حتى ذهب بصره فأوحى الله تعالى إليه يا شعيب ما هذا البكاء إن كان خوفاً من ناري فقد أمنتك منها ، وإن كان شوقاً إلى جنتي فقد أبحتك إياها . فقال : وعزتك وجلالك يا رب ما بكائي شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك ولكن عقد حبك في قلبي عقدة لا يحلها إلى النظر إلى وجهك الكريم . فقال الله تبارك وتعالى : إذا كان ذلك كذلك فلأبيحنك النظر إلى وجهي ولأبعثنّ إليك عاجلاً عبداً من عبادي يخدمك عشر سنين ثم أجعله كليماً ببركة مناجاتك :

هل سبيل للتلاقي فلقد طال اشتياقي بعد وصل واجتماع وحديث واتفاق
قد سقاني البين كأساً طعمه مرّ المذاق فدموعي فوق خدي في انسكاب واندفاق
ليتني متّ ولم ألق مرارات الفراق

آه على قلوب أذابها حرّ الغليل ، آه على نفوس أفناها البكاء والعويل ، آه على جوارح قابلت بفعلها القبيح الفعل الجميل ، آه على أكباد لم تتقطع خيفة من الملك الجليل ، آه على قلوب لم تتفكر في يوم الموت والرحيل ، آه على جنة عدن وظل ظليل ، آه على قسوة سلكت بالقلب إلى النار بئس السبيل ، آه على شراب من سلسبيل ، آه على نعيم نعم مقيل ، آه على قلب بالذنوب عليل ، آه على منّ شد عظمه للطاعة فأصبح وهو نبيل ، آه على سائق الرشد دليل ، أما آن لك يا مسكين أن تقلع عن هواك ! أما آن لك أن ترجع إلى باب مولاك ! أنسيت ما خولك وأعطاك ! أما خلقك فسواك ! أما عطف عليك القلوب وبرزقه غذاك ؟ أما ألهمك إلى الإسلام وهداك ! أما قربك بفضله وأدناك ! أما برّه في طرفة عين يغشاك ! فقابلت ذلك بالغفلة وركوب الشهوات ، والمبادرة بالخطايا والزلات ، فنقضت عهده ، وعصيت أمره ، ودمت على الإصرار ، وأطعت هواك وخالفت الجبار ، أما آن لك أن تستحي ممن شاهدك على المعصية ورآك ومع هذا الحرمان والبعد عن مولاك إن عدت إليه قبلك وارتضاك ، وإن لزمت خدمته قربك وأدناك :

تغسل من الطبع ثوبك تخشى من الناس تنظره وقلبك أضحى أسود ما تغسله بمتاب
الناس تنظر ثيابك والحق ينظر باطنك فاغسل ثياب الباطن تكتب من الأحباب

يا ناقض العهد تعلم ... بأن ربك مشرف ... على فعالك وتخشى ... تعلم بك الأصحاب
للهو تخلى سرّك ... وتستلذّ مسامعك ... وبين قلبك وسمعك ... عن الصلاح حجاب
أفنيت في اللهو عمرك ... وما ربحت سوى العنا ... إلى متى ذي المعاصي ... وشعر رأسك شاب
فقم وبادر بتوبة ... فنجم عمرك قد أفل ... وأخلص لمولاك ساعة ... من قبل غلق الباب
ياعبدنا كم تعرض ... عنا وفي جنح الدجى ... ندعوك في كل ليلة ... ولا تردّ جواب
وعزتي يا عبدي ... لقد أرى من فعلك ... ما لو رآه غيري ... ما راسلك بكتاب
لكن أجود بحلمي ... عليك علك تنصلح ... وأسترك حين تعصي ... وتغلق الأبواب
وبعد هذا تأتي ... إليّ تائب أقبلك ... وأتحفك بالعطايا ... في سائر الأسباب
وإن خشيت الفضيحة ... يوم القيامة فالذي ... بيني وبينك مخفي ... أنسيه للكتاب
فانهض بعزم صادق ... وأخلي لخوف باطنك ... وقف على باب جودي ... تسمع لذيذ الخطاب
وابكي ونح وتضرع ... وتب وبادر واعتذر ... وادعو وعفر خدودك ... على ثرى الأعتاب

[وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله] : دخلت يوماً على أبي سليمان الداراني فوجدته يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد وكيف لا أبكي وقد بلغني أنه إذا جن الليل وهدأت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه استنارت قلوب العارفين وتلذذت بذكر ربها وارتفعت همها إلى ذي العرش وافترش أهل المحبة أقدامهم بين يدي مليكهم في مناجاتهم ورددوا كلامه بأصوات محزونة وجرت دموعهم على خدودهم فتقطرت في محاريبهم خوفاً واشتياقاً إليه فأشرف عليه سبحانه ونظر إليهم وناداهم : أحبابي العارفين بي اشتغلتم بي ، ونفيتم عن قلوبكم ذكر غيري ، أبشروا فإن لكم السرور والقرب يوم تلقوني ، ونادى الجليل جل جلاله : يا جبريل بعيني من تلذذ بكلامي ، واستراح إليّ وأناخ بفنائي فإني مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وبكاءهم وأرى تقلبهم واجتهادهم فنادى فيهم : ما هذا البكاء الذي أسمع ؟ وما هذا التضرع الذي أرى منكم ؟ هل سمعتم أو أخبركم أحداً أن حبيباً يعذب أحبابه بالنار ! أم بلغكم أني أطرد من لاذ بي واستجار ؟ فوعزتي لأبيحنكم دار القرار ، ولأرفعنّ كل حجبي والأستار ، ولأعوضنكم بدموع الفرح والاستبشار :

ما ناح في أعلى الغصون الهزاز ... إلا تشوّقت لتلك الديار
ولا سرى من نحوكم بارق ... إلا وأجريت الدموع الغزار
وأسفي أين زمان الحمى ... وأين هاتيك الليالي القصار
واحرّ قلباه متى نلتقي ... وتنطفي من داخل القلب نار
وأنظر الأحباب قد واصلوا ... ويأخذ الوصل من الهجر ثار
أقول للنفس أبشري باللقا ... قد وصل الحب وقر الفرار

وقال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يخرج من عينيه دموع وإن كانت مثل رؤوس الذباب من

خشية الله تعالى فتصيب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه الله تعالى على النار » . وقال وهب بن منبه ﷺ : سجد آدم ﷺ على جبل الهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب وأنبت الله في ذلك الوادي من دموعه الدارصين والقرنفل وغير ذلك من الطيب وجعل طير ذلك الوادي الطواويس ، ثم جاء جبريل ﷺ فقال له : ارفع رأسك فقد غفر لك فرفع رأسه وأتى الكعبة فطاف بها أسبوعاً فما أتمه حتى خاض في دموعه .

فيا أيها العاصي تفكر في حال أبيك وتذكر ما جرى له يكفيك :

بكت عيني وحق لها بكاها ... على نفسي التي عصت الإلٓها
ومن أولى بطول الحزن منها ... وبالآثام قد قطعت مداها
فلا تقوى تصدّ عن المعاصي ... ولا تخشى الإلٓه ولا تناهى
تتوب من الإساءة في صباح ... وتنقض قبل أن يأتي مساها
وتنكث عهدها حيناً فحيناً ... كأن الله فيه لا يراها
وتقعد عن حقوق الله عمداً ... وتبغي دائماً مالاً وجاها

[وقال مجاهد] : بكى داود ﷺ أربعين يوماً وهو ساجد لا يرفع رأسه حياء من الله عز وجل حتى نبت من دموعه المرعى وحتى غطى رأسه فنودي : يا داود أجائع أنت فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى أم مظلوم فينتصر لك ؟ فنحب نحبة فهاج ما ثمّ من الزرع فأنزل الله إليه التوبة والمغفرة . فقال : يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لغيره إلا رآها مقابلته وكان يؤتى بالقدح وثلثاه ماء فإذا تناوله رأى خطيئته فلا يضعه حتى يفيض من دموعه . فقال : يا رب أما ترحم بكائي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود نسيت خطيئتك وذكرت بكاءك . فقال : إلٓهي كيف أنسى خطيئتي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء عن جريانه وسكن هبوب الريح وأظلتني الطير على رأسي وأتت الوحوش إلى محرابي . إلٓهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي ، وأسجدت له ملائكتي ، وألبسته ثوب كرامتي ، وتوجته بتاج وقاري وشكا إليّ الوحدة فزوّجته أمتي وأسكنته جنتي فعصاني ، فأخرجته من جواري عرياناً ذليلاً حائراً لا يدري أين يذهب فظل يبكي أربعين عاماً ، ولو وزنت دموعه لعدلت دموع الخلائق :

بكت عيني على ذنبي ... وما لاقيت من كربي ... فيا ذلي ويا خجلي ... إذا ما قال لي ربي
أما استحييت تعصيني ... ولا تخشى من العتب ... وتخفي الذنب من خلقي ... وتأبى في الهوى قربي
فتب مما جنيت عسى ... تعود إلى رضا الرب

[وكان فتح الموصلي ﷺ] يبكي الدموع ، ثم يبكي الدم ، فلما مات رؤي في المنام فقيل له :

ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين يديه ، وقال لي : يا فتح هذا البكاء لماذا ؟ قلت : يا رب على تخلفي عن واجب حقك ، قال : فلم بكيت الدم ؟ قلت : يا رب خوفاً على دموعي أن لا تصح لي . قال : يا فتح ما أردت بذلك كله ؟ قلت : يا سيدي أردت بذلك وجهك الكريم فأرنيه واصنع بي ما شئت . فقال : وعزتي وجلالي لقد صعد إليّ حافظاك منذ أربعين سنة بصحيفتك وليس فيها خطيئة واحدة فلألبسنك لباس التكريم ولأمتعنك بالنظر إلى وجهي الكريم :

فإذا جلا ذاك الجمال عليهم   جهراً أفاق الصب من غمراته
مولى إذا العشاق حار دليلهم   وجدوا الهدى والرشد في آياته
ما في جميع الكون إلا عاشق   ومولـه في حسنه وصفاته

هؤلاء والله هم الخواص من العبيد ، وهؤلاء صفوة الملك المجيد ، فهم السابقون إلى المقصود والمتنزهون في حضرة شاهد ومشهود ، فكيف حالك أيها الشقي المطرود ، المنقطع عنهم بمخالفة الملك المعبود ؟ بالله نح على نفسك وابك بكاء من أصبح عن الجناب وهو مبعد مطرود ؟

دع المفرط يبكي   عسى المدامع تنفعه   فالمدمع لا شك أشفى   لقلبي المكمود
أنا الشقي المفرط   قد ضاع عمري في الهوى   وقد شقيت بفعلي   ورأيي المفسود
من للمفرّط إذا ما   رأى الحبايب واصلوا   أحبابهم وهو عنهم   دون الورى مبعود
يا غارقاً في المعاصي   قد ضل عن طريق الهدى   إلى متى يا معنى   تبارز المعبود
انظر عبيد الطاعه   كيف استنار قلبهم   قوم يبيتون ركع   لربهم وسجود
قاموا وصاموا وداموا   واستوهبوا مليكهم   جميع ما قد أرادوا   وحصلوا المقصود
قوم أطاعوا المولى   وشمروا واستيقنوا   بأن ماذي الدنيا   للمرء دار خلود
ما تستحي من ربك   تأتي غداً يوم الجزا   والخلق بيض الصحايف   وأنت صحفك سود
تقدر بأنك تجحد   وأن حالك يخفى   استيقظ إن كنت نايم   ما ذاك يوم جحود
أملاك ربك تكتب   جميع ما قد تفعله   وكل أعضاك تنطق   وهم عليك شهود
واخجلتي من وقوف   في وقت عرضي للقضا   وقد تسودّ كتابي   في المنظر المشهود
هناك تبدو الفضائح   وينظروا ما قد جنوا   وعند ذلك يبين   الشقي من المسعود
فكم ترى ذا شيبة   يسحبه الزبانية   وكم فتى بالذلة   والمعصية مطرود
وكم وجوه تقلب   في النار في خزانها   وكم جلود تبدل   من حرها بجلود
وليس ينجي الخلائق   من هول ما قد شاهدوا   إلا الذي بالشفاعة   من ربه موعود
رسول رب البرايا   المصطفى الهادي الذي   يسقي عطاش الأمة   من حوضه المورود
صلى عليه الباري   وما صارت النوق في الفلا   وما سرت كل عام   إلى حماه وفود

المجلس الحادي عشر

في فضائل الفقراء رضي الله عنهم

الحمد لله الذي جعل الأولياء صفوة خلقه ، فهم إلى لقائه يتأهبون ، تسلوا بالصوات على الشهوات وبحلاوة التلاوة عن اللذات ، فحبه في قلوبهم مصون ، صفحات وجوههم تنبيك عن أنوار قلوبهم ، فبنور جمال جلاله يعرفون ، مسك أنفاسهم قد عطر الكون . فهم في خيمة العزلة يتكتمون ، ونسيم السحر يحمل ذلك العطر فله الخلائق يستنشقون ، فلو ذاق الملوك قطرة من شرابهم لكانوا للدنيا يطلقون ، وإذا ترنموا بكلام الحبيب رأيتهم صحاة سكارى يغيبون ويحضرون ، وإذا هاج شوقهم هاموا في الجبال فلو رأيت أحدهم لقلت : إنه مجنون وإنما هو بحب مولاه مفتون ، فالجبال أوتاد الأرض وهو أوتاد الجبال فلولاهم لمادت الأرض بالخلائق حين يعصون ، فلا أخلى الله الأرض منهم ولا برح بيننا الصالحون ، يسلم عليهم الجبل وتستأنس بهم الوحوش وبهم البهائم يتبركون ، تتوسل بهم الأشجار وتصافحهم نسمات الأسحار ، تحرق أنفاسهم الشياطين فلا يصلون إلى سجادة أحدهم ولا يتقربون ، تعرض الدنيا كنوزهم عليهم فلا يميلون إليها ولا يلتفتون ، يفتخر الجبل على الجبل بوطء أقدامهم ويصير ترابه كحلاً للعيون وصحائف أعمالهم الظاهرة إذا صعدت به الملائكة المقربون تتعطر بطيبها السموات وتنظر إليها الملائكة ويتعجبون . وأما سرائرهم فلا يطلع عليها الكروبيون ولا الروحانيون ، وإنما الحق جل جلاله يقول : ما عندكم سواي فأنا الحبيب وأنتم المحبون . تحزن الدنيا على فراقهم والجنة من شوقها إليهم تسأل الله تعالى متى عليها يقدمون ، وفي غرفها ينزلون وبكاساتها يشربون وبحورها يتمتعون وفي حدائقها يتبخترون وفي روضاتها يحبرون وعلى نجائبها يركبون ولكلام الحق يسمعون ولوجه الكريم ينظرون ، فهذه مقاماتهم ، فما ادخرتم أيها المقصرون ﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١]

أنتم بقلبي أيها الراحلون ... جودوا بعود أيها الغائبون
متى أرى أشخاصكم في الحمى ... وأجتلي ذاك الجمال المصون
متى أنادي عندما تقدموا ... أهلاً وسهلاً أيها القادمون
يا جيرة الحي وحق الذي ... صير صبري عنكمو لا يهون
إن غرامي واشتياقي بكم ... زاد إلى أن قيل عنه جنون
وما تعوضت بديلاً بكم ... وذاك شيء في الهوى لا يكون
نحن المسيئون ومن ذنبنا ... إليك يا رب الورى تائبون
فلا تؤاخذنا بأفعالنا

إنا على أنفسنا مسرفون قد مسنا الضر ولا راحم سواك يا من لا تراه العيون

لا نشتكي إلا إلى راحم يطمع في رحمته المذنبون

وقال رسول الله : « أفضل الحرف ثلاث : الفقر والعلم الزهد » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما الفقر ؟ قال خزانة من خزائن الله ، ثم قال الثانية : ما الفقر يا رسول الله ؟ قال : كرامة من كرامات الله ؟ ثم قال الثالثة : ما الفقر يا رسول الله ؟ قال : شيء لا يعطيه الله إلا نبياً مرسلاً أو كريماً على الله عز وجل » .

وقال رسول الله ﷺ : « الفقير هو الذي لا يعلم الناس بجوعه ومرضه ، وخلق الله تعالى الخلق من طين الأرض وخلق الأنبياء والفقراء من طين الجنة ، فمن أراد أن يكون في عهد الله تعالى فليكرم الفقراء » . وقال رسول الله ﷺ : « للجنة ثمانية أبواب سبعة منها للفقراء وباب منها للأغنياء ، وللنار سبعة أبواب ستة منها محرمة على الفقراء حلّ للأغنياء وباب منها للفقراء » . وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « أحب الخلق إلى الله تعالى الفقراء ، لأنه كان أحب الخلق إلى الله تعالى الأنبياء وابتلاهم بالفقر » . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال : أيها الناس لا تحملكم العسرة والفاقة عن أن تطلبوا الرزق من غير حله فإني سمعت النبي ﷺ يقول : « اللهم توفني فقيراً ولا تتوفني غنياً واحشرني في زمرة المساكين » ، وقال النبي ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى ينظر من هذه الأمة إلى العلماء والفقراء ، فالعلماء ورثتي والفقراء أحبائي » . وعن شقيق الزاهد ﷺ أنه قال : اختار الفقراء ثلاثة أشياء والأغنياء ثلاثة أشياء : اختار الفقراء : راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب ، واختار الأغنياء : تعب النفس ، وشغل القلب ، وشدة الحساب :

طيبوا فلذات الهوى في الشجون ولم يزل سر هواكم مصون يا فقراء الحب قوموا اشهدوا
حسن حبيب عنه لا تحجبون في حضرة فيها لكم كل ما تهوون من فوز وما تشتهون
قد خصكم فيها برضوانه وروضة أنتم بها تحبرون وقد صفا الوقت لكم فاشربوا
كأساً وساق حسنه تشهدون في جبة دانية المجتنى قطوفها قد ذللت والغصون

أنهارها تجري بنيل المنى وكم بها قد فجرت من عيون

هذا هو الملك وهذا العطا وغير هذا مثله لا يكون

قال بعض السلف : والدليل على فضل الفقراء قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ١١٠] يعني أقيموا الصلاة لي ، وأدّوا الزكاة إلى الفقراء ، فقرن حق الفقراء بحق نفسه يقال : الفقير طبيب الغني ، وقصاره ورسوله وحارسه . قيل : هو طبيبه ، لأن الغنيّ إذا مرض يتصدق على الفقير فيدعو له فيبرأ من مرضه ، وإنما قيل : هو قصاره لأن

الغني إذا تصدق على الفقير يدعو له فيطهر الغني من ذنوبه ويطهر ماله ، وإنما قيل : هو رسوله لأن الغني إذا تصدق على الفقير بصدقة عن والديه أو عن أحد أقاربه فيصل ذلك إلى الموتى فصار الفقير رسوله ، وإنما قيل : هو حارسه لأن الغني إذا تصدق على الفقير فدعا له تحصن مال الغني بدعائه :

قوم همو في الدجى للناس أقمار وهم لمن هجر الأوطان أنصار
وأين حلوا يحل الخصب ساحتهم كأنهم مثل ما قد قيل أمطار
صفوا فلا غرو أن تصفو مشاربهم وفي المصافاة للعشاق أسرار

يروي عليل الصبا عنهم صحيح هوى من الشذا فهو نقال ومعطار
هم العيون فإن تبصر هدى فبهم وفي الهدى ليس بعد العين آثار
سلهم وسل عنهمو إن كنت ذا وطر فعندهم لذوي الحاجات أوطار
وانعم إذا كنت تهواهم بعيشهم واصحبهمو إن نأت يوماً بك الدار
واحلل بساحتهم تسعد فهم عرب يحموا النزيل ولا يؤذى لهم جار

[وحكي] أنه لما مات ثابت البناني رحمه الله ودفن وسوى عليه اللبن انكسرت لبنة ، قال جعفر بن الحسين رحمه الله : فمددت يدي لآخذها من اللحد فلم أجده في لحده فتحيرت ولم أخبر بذلك أحداً وبقيت أفكر في ذلك حتى أتيت منزله وعزيت ابنته وسألتها عما كان يكثر من القول والدعاء ؟ فقالت : كنت أراه يبكي كثيراً يقول : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٩] فقلت : قد استجاب الله تعالى دعاء الشيخ ، وقيل : لما مات ودفن قيل له : من ربك وما دينك ؟ فسمعوا هاتفاً من قبره يقول :

ولو ناديتني ميتاً للبيتك من قبري
ولو فتشت في سري وجدت اسمك في صدري
رجائي فيك مدخور ليوم البعث والحشر
وما أبدي وما أخفي من الإعلان والسر
فأنتم سادتي أدرى به والغير لا يدري
وها أنا رهن عفوكمو ليوم الحشر والنشر

[وقال بعض السلف رضي الله عنهم أجمعين] : رأيت شاباً في سفح جبل عليه آثار القلق ودموعه تجري على خدوده ، فقلت له : من أنت يرحمك الله ؟ قال : عبد آبق من مولاه ، فقلت : يعود ويعتذر ، قال : العذر يحتاج إلى إقامة حجة ، فكيف يعتذر المقصر ؟ قلت : يتعلق بمن يشفع له . قال : كل الشفعاء يخافون منه ، قلت : فمن هو : قال مولى رباني صغيراً فعصيته كبيراً فواحيائي منه حين ألقاه من حسن صنعه وقبح فعلي ، ثم صاح وخرّ ميتاً ، فخرجت عجوز وقالت : من أعان على قتل البائس الحزين ؟ فقلت : أقيم عندك حتى أعينك على تجهيزه فقالت : خله ذليلاً بين يدي قاتله عسى يراه ذليلاً فيرحمه :

حاشاك تكسر قلباً أنت جابره أو يشتكي خذلاً من أنت ناصره

أنت العزيز وذلي فيك يشفع لي ... من عظم ذنب وجرم أنت غافره
يا سيدي عبدك المسكين ليس له ... سواك من شؤم قبح أنت ساتره
يلقاك في الحشر بالسرّ المصون ولم ... ينس الوداد ولا خانت ضمائره
لا يشتكي وحشة من أنت مؤنسه ... ولا يخيب عبيد أنت ذاكره
فأوّل العمر قد ضعيت واأسفاً ... عطفاً على ما بقي قد حان آخره

[وقال يوسف بن الحسين رحمه الله] : كنت قاعداً عند ذي النون المصري رحمه الله وحوله الناس وهو يتكلم عليهم والناس يبكون وشاب يضحك ، فقال له ذو النون : ما لك أيها الشاب الناس يبكون وأنت تضحك ؟ فأنشأ يقول :

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان فيضحوا ... في رياض ويشربوا سلسبيلا
ليس في النار والجنان مرامي ... أنا لا أبتغي بحبي بديلا

فقال ذو النون : فإن طردك فما تصنع ؟ فأنشأ يقول :

فإذا لم أجد من الحب وصلا ... رمت في النار منزلاً ومقيلا
ثم أزعجت أهلها ببكائي ... حيث عذبت بكرة وأصيلا
قائلاً والغرام حشو ضلوعي ... حيث لا ألتقي لفوزي سبيلا
معشر المذنبين نوحوا على من ... لم يجد للوصال منهم وصولا
عذبوني أو أعتقوا كل ما فيـ ... ـه رضاكم وجدته مقبولا
إن أكن بالذي ادعيت محقّا ... فعسى نظرة تعيد الجميلا
أو أكن كاذباً ودعواي زور ... فأجازى به عذاباً طويلا

فهتف هاتف يقول : يا ذا النون هكذا يكون المخلصون في حبهم لربهم يحبونه في السرّاء والضرّاء ويشكرونه على النعماء والبلاء :

أهل الصلاح وأهل البرّ قد سعدوا ... لما لمولاهمو دون الورى قصدوا
ما صدهم عن بلوغ القصد إذ رغبوا ... فيه من الفوز لا أهل ولا ولد
فأصبح القوم في كد وفي تعب ... أحلى من الشهد بل ما مثله الشهد
فطالما كابدوا في حب سيدهم ... وما انثنوا عن ورود القرب إذ وردوا
فليس يرتحلون الدهر من بلد ... إلا ويبكي عليهم ذالك البلد

[وقال ذو النون المصري رحمه الله] : بينما أنا سائح في بعض الجبال إذ سمعت صوتاً يئنّ ويستغيث ويبكي فتبعت الصوت فإذا هو شاب خشن الثياب عليه مدرعة من الشعر وقد افترض الرماد وهو يتمرغ عليه ويقول في مناجاته : إلٰهي وسيدي وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخافتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا بعقوبتك مستخف ولكن

سوّلت لي نفسي وغلبت عليّ شقوتي وغرني سترك المرخى عليّ فعصيتك بجهلي وخالفتك بسفهي فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من أعتصم إذا قطعتني وأبعدتني ، واسوأتاه من الوقوف بين يديك ، واخجلتاه من العرض عليك فكم أتوب وأعود وأنقض العهود :

خنت العهود وقد عصيت تعمدا ... واخجلتي وفضيحتي منه غدا
واخجلتي ممن يراني دائماً ... أعصي ويسترني على طول المدى
فليندمنّ المذنب العاصي إذا ... لم ينتبه من قبل أن يأتي الردى
ما الأمر سهل فاستعدّ إلى اللقا ... واعلم بأنك لا تكون مخلدا
واذكر وقوفك في المعاد وأنت في ... كرب الحساب وجئت عبداً مفردا
سوفت حتى ضاع عمرك باطلاً ... وأطعت شيطان الغواية والعدا
فانهض وتب مما جنيت وقم إلى ... باب الكريم ولذ به متفردا
وادعوه في الأسحار دعوة مذنب ... واعزم ولاتك في المتاب مفندا
وإذا طردت عن الجناب فقم على ... أعتابه بالنوح منك معددا
فلعل رحمته تعم فإنها ... تسع العباد ومن بغى ومن اعتدى
وإذا أردت بأن تفوز وتتقي ... نار الجحيم ومرها المتوقدا
لذ بالنبي الهاشمي محمد ... خير الورى نسباً وأكرم محتدا
صلى عليه الله ما سرت الصبا ... وشدا الهزار على الغصون وغردا

المجلس الثاني عشر

من كلام الشيخ عز الدين المقدسي

الحمد لله مظهر الحق ومبديه ، ومنجز الوعد وموفيه ، ومسعد العبد ومشقيه ، ومذهب الذنب ومخفيه ، ومظمي القلب ومرويه ومعلّ الصب ومشفيه ، ومزيل الكرب ومجليه ، ومرسل السحاب ومنشيه ، ومبسم البرق وموريه ، ومنطق الرعد ومدويه ، ومورق الشجر ومربيه ، ومونق الزهر ومزهيه ، وممر الثمر ومحليه ، ومصور الجنين ومغذيه ، ومحق الحق ومبقيه ، ومبطل الباطل ومنفيه ، الذي تعرف إلى خلقه فحارت الخليقة فيه ، وتوعرت سبل معرفته فوقع السالكون في التيه ، فمالوا إلى العقول ، فقالت العقول : لا ندري من أي جهة

نأتيه ، فبعثوا بريد الأفكار فانقطع في مقطع انقطع فيه كل فقيه ، فأوقد مصابيح البصائر بأذهان الأذهان ، فاستدلوا بنور الإيمان ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢٠] فلما انتهوا إلى قضاء العرفان ، تنكر لهم عزه في رفعة تعاليه ، وتحجب عنهم غيرة على عزة تجليه ، فانقلبوا إلى القلوب ، فقالت القلوب : إنما نحن بيوت التنزيه ، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه ، فاستمسكوا بأسمائه ، فقالت الأسماء : لا نطيق نسميه ، فعلقوا بالصفات . فقالت الصفات : لا نطيق نبديه . فعدلوا إلى الكلمات . فقالت الكلمات : ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٤] فأشاروا إلى عرشه : هل أنت بقربك تليه ، أم بذنوك تدانيه ؟ فناداهم العرش من سكرة تغاشيه وحيرة تلاشيه : لست بالمحيط به فأدريه . ولا بالحامل له فأحكيه ، ولا بالمتصل به فأحاذيه ، ولا بالمنفصل عنه فأقصيه . ولقد سألتم عن أمر لا أدريه . وكشفتم عن سرّ ما برحت أستميله وأستجليه . فما وقعت منه إلا على الحيرة والتيه . قالوا : فما أفادك قربك من تعاليه . وسموك في معاليه ؟ فقال : إن قربي منه كقرب النفس من تراقيه . وبعدي عنه كبعد السهم عن راميه ، وذلي له كذل العبد لمواليه ، وحنيني له كحنين العاشق إلى أيام وصاله ولياليه . قالوا : فما تقول ؟ قال : ما يقول المتحير فيه ، والمنقطع عن أمانيه . فقالوا : إن وصفت فصف على سبيل التنزيه . وإياك إياك بالتشبيه . وقال : هو الأول الذي لا أول يثانيه . الآخر الذي لا آخر يدانيه . الظاهر الذي لا ظاهر يضاهيه ، الباطن الذين لا باطن يواطيه ، البعيد الذي لا بالمسافة نوافيه ، القريب الذي متى شئت تلاقيه ، الأحد الذي لا أحد يحاذيه . الفرد الذي لا أمد له فينقطع تماديه . إن صافيته سقاك من كأس صفوته صافيه . وإن شربت بكأس محبته فالكأس هو ساقيه :

وحياة قلبي وقلبي في القسم تمويه	الذكر للقلب والمعنى لمن هو فيه
هذا حبيب عظيم جل عن تشبيه	وقد كتمت هواه لم أطق أبديه
ناديته وفؤداي في لظى يصليه	إن مات قلبي غراماً فاللقا يحييه
العبد قانع بنظرة منكمو تكفيه	والقلب طامع بزورة منكمو تشفيه
أنتم علمتم بما أبدي وما أخفيه	وحياتكم في فؤادي منكمو ما فيه

إلـهي أنت سؤلي ومنائي . وأنت في الظلمات نوري وضيائي . إلـهي ما لي سواك وكم لك سوائي عصيتك بجهلي ودعوتك على قبيح فعلي فأجبت بفضلك دعائي . ولم تخيب في قصدك رجائي ، وشكوت إليك سقام قلبي فأزلت كربي وعجلت شفائي . وكم وقعت في الشدائد والأخطار . فأعنتني بالأنصار ونصرتي على أعدائي ، فلك الحمد يا عدتي في شدّتي ورخائي :

يـــا مالكـــاً لـــيس لي ســـواه كـم لـك في الخلـق مـن سـوائي
أنـــت غـــنيّ وبي افتقـــار إليـــك يـــا ســـامع الـــدعاء

إن كنـت أذنبـت فيـك ذنبـاً ولمـتني منـك واحيـائي عبـدك بالبـاب مسـتجيرا
قـد قـرح الجفـن بالبكـاء لـيس لـه عنـك مـن بـراح في العسـر واليسـر والرخـاء
عسى الـذي قـد قضـى ببعـدي يسـمح بـالقرب واللقـاء أراك بـالهجر تعتمـدني
حاشـاك مـا هكـذا رجـائي يـا بغيـة القلـب يـا مـرادي يـا منتـهى القصـد يـا منـائي
يـا راحـة الـروح يـا حيـائي يـا نـور عـيني ويـا ضـيائي أنـت الـذي حـزت كـل أيـن
بـلا ابتـداء ولا انتـهاء قـد كنـت مـن قبـل كـل كـون بغـير أرض ولا سمـاء
ولا سـحاب ولا حجـاب ولا فضـاء ولا هـواء بغـير عـرش بغـير فـرش
بغـير نـار بغـير مـاء جـل عـن الكيـف في وجـود وفي شـهود وفي بهـاء
وفي اقـتراب وفي احتجـاب وفي نـزول وفي اسـتواء وعـن قيـام وعـن قعـود
وعـن هبـوط أو ارتقـاء ظهـرت في الكـل لسـت تخفـى وأنـت أخفـى مـن الخفـاء
في كـل شـيء أراك حقـاً بـلا جـدال ولا مـراء وحيثمـا كنـت أنـت مـني
كقـاب قوسـين غـير نـاء مـن عـن يمـيني وعـن شمـالي ومـن أمـامي ومـن ورائـي

يطيـب مـا عنـك حـدثتني نسـائم الصـبح والمسـاء

[قال الجنيد رحمة الله عليه] : عزمت على الحج في بعض السنين فركبت ناقتي ووجهتها نحو الكعبة شرفها الله تعالى فلوت عنقها وردت إلى نحو القسطنطينية فرددتها مراراً وهي تعود فقلت في نفسي : لله عزّ وجل في ذلك سرّ خفي فأطلقتها أين تريد ، وقلت : إلٓهي وسيدي ليس لي حيلة إن كنت تريد أن تردني عن بيتك فالأمر كله إليك . قال : وجعلت الناقة تسير سيراً سريعاً حتى دخلت القسطنطينية ، فلما دخلت البلد رأيت الناس في هرج ومرج ، فسألت بعض أصحابي : ما سبب الذي هم فيه ؟ فقالوا : إن ابنة الملك قد ذهب عقلها وهم يلتمسون لها طبيباً يداويها ، فقلت في نفسي : وعزة ربي لهذا الأمر صرفني عن الحج في هذا العام ، فقلت لهم : أنا الطبيب ، فقالوا : أنت تداويها ؟ فقلت : نعم إن شاء الله تعالى فأخذوا بيدي وأدخلوني على الملك فاشترط عليّ الشرط فاستعنت بالله فأدخلني مخدعاً ، فسمعت فيه خشخشة الحديد وقائلاً يقول : يا جنيد كم تجدّ بك الناقة إلينا وأنت تردّها نحو الكعبة فطاش عقلي من ذلك الكلام ، ثم دخلت فرأيت جارية لم ير الراؤون أحسن منها وهي مقيدة مسلسلة ، فقلت : ما هذه الحالة ؟ فقالت : يا طبيب القلوب صف لي صفة أنجو بها من المكروب ، فقلت لها : قولي : لا إلٓه إلى الله محمد رسول الله فرفعت صوتها بقول : لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله فتساقطت الأغلال والقيود عنها وتفكك الحديد . فلما رأى أبوها ذلك

قال : ما أحسنك من طبيب وما أحسن دواءك ! بالله عليك داوني بالدواء الذي داويتها به ؟ فقلت : قل لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ثم أتت أمها وفرحت وأسلمت وأسلم كل من كان في البلد معهم . فحمدت الله عز وجل على ذلك وعزمت على الخروج فقالت الجارية : يا جنيد لا تعجل عليّ بالخروج فإني سألت الله عز وجلّ أن يتوفاني وأنت حاضر حتى تقف وتصلي عليّ وتقف على دفني ، ثم تشهدت وخرت ميتة رحمة الله عليها :

يا منقذ الجهال من ظلمتها يا خير من حطت به النزال من ذاق حبك لم يزل متلهجا
أنت الإلـه القادر الفعال أنشأتني وهديتني ورحمتني فاغفر فأنت المنعم المفضال

ومننت بالإيمان منك تفضلاً أنت الإلـه وما عداك محال

[وقال عبد الله الرحمن بن جعفر] : كنت بالبصرة أصلي الصلوات الخمس في مسجد بجواري يعرف بمسجد الخشابين وكان له إمام مغربي يدعى أبا سعيد مشهور بالخير ، وكان يتكلم في المسجد بعد صلاة الصبح فخرجت بعض السنين حاجاً إلى بيت الله الحرام وكانت تلك السنة حراً شديداً فكنت في الليل أسبق الركب وأنام حتى يلحقني رفقائي فنمت في بعض الليالي وكنت عادلاً عن الطريق فسار الركب ولم تشعر بي رفقتي ونمت حتى طلعت الشمس ثم انتبهت وأنا لا أدري كيف الطريق فقلت : سيدي ومولاي إلى هنا حملتني وعن بيتك قطعتني ، ثم سرت حتى أعييت وقوي الحر فأيست من الحياة وانطرحت على كثيب رمل أنتظر الموت وإذا إنسان ينادي باسمي فقمت فإذا هو الشيخ أبو سعيد فقال : أنت جائع ؟ فقلت : نعم فناولني رغيفاً سخناً فأكلته فاشتدّ رمقي فعطشت فناولني ركوة فيها ماء ألذ من الشهد وأبرد من الثلج فشربت وغسلت وجهي فعادت إليّ روحي ثم قال : اتبعني فتبعته قليلاً ، وإذا أنا بجدران مكة شرفها الله تعالى ، فقال : البث هنا فالركب يأتيك بعد ثلاثة أيام ثم ناولني رغيفاً ومضى فكنت آكل من ذلك الرغيف لقمة فأشبع فأقام الرغيف معي ثلاثة أيام إلى أن جاء الركب ، فلما وقفت بعرفة رأيت الشيخ أبا سعيد واقفاً عند الصخرات وهو مشغول بالدعاء فسلمت عليه ، فلما فرغ رد عليّ السلام ، وقال : ألك حاجة ؟ قلت : ادع لي فدعا لي ثم نزلنا من الجبل ولم أره بعد ذلك فلما قضيت الحج سرت إلى البصرة ودخلت منزلي وبت ، فلما أصبحت صليت الصبح في المسجد خلف الشيخ أبي سعيد ، فلما فرغ من صلاته سلمت عليه وصافحته فصافحني وعصر يدي ففهمت عنه أن أكتم السر ، وكان في المسجد مؤذن يخدمه كثيراً فسألته عن غيبة الشيخ عن المسجد في أيام الحج فحلف أن الشيخ أبا سعيد لم يقطع الصلوات الخمس في هذا المسجد ، فعلمت أنه من الأبدال السادة الرجال ، وينشد :

أنت في الموضع البعيد قريب هل منيب على رضاك يؤوب

كل وصل خلاف وصلك هجر كل حب خلاف حبك حوب يـا إلـهي وعـدتي ورجـائي
بك يـا سيدي تـزول الكـروب بغيتي من جمال وجهك مـرأى لـيس إلا بـه النفـوس تطيـب

أنـت روح القلـوب أنـت شـفاها بـك تحيـا وتسـتريح القلـوب
بـك يـدنو البعيـد مـن كـل أمـر بـك تنـأى عـن المسـيء الـذنوب
تسمع الصوت حين لا يسمع الصو ت ومـن حيثمـا دعيـت تجيـب
أنـت رب العبـاد مالـك في الملـ ـك شـريك ولا عليـك رقيـب
يـا دواء القلـوب أنـت المـداوي يـا شـفاء السـقام أنـت الطبيـب
جـد بعفـو ورحمـة لكئيـب لـيس يشـكو إلا إليـك الكئيـب

[قال عبد الصمد البغدادي] : كنت أبحر من بغداد إلى بلاد اليمن وأحج في كل سنة فبينما أنا في بعض السنين في الطريق بين منى وعرفة ، إذ رأيت شاباً حسن الشباب نقي الأثواب كأن وجهه قنديل ، وهو راقد على الرمل وتحت رأسه حجر وهو يعالج سكرات الموت فتقدمت إليه وسلمت عليه وقلت له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، تقيم عندي ساعة حتى أقضي نحبي وألحق بربي فقلت له : ما الذي تريد ؟ فقال : إذا أنا مت فوارني التراب ، وخذ هذه المعضدة من كتفي ، فإذا وصلت إلى صنعاء اليمن فسل عن دار الوزارة فإذا خرجت إليك عجوز وبنات فادفع إليهن هذه المعضدة وقل لهن عثمان الغريب يقرئكم السلام . ثم غاب عن حسه ساعة ثم أفاق وهو يقرأ : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ثم شهق شهقة فارق فيها الدنيا فغسلته وكفنته ووجهه يضيء ويتلألأ نوراً ثم صليت عليه في جماعة ودفنته ، ثم أخذت المعضدة فلما وصلت إلى صنعاء اليمن سألت عن الدار فخرجت إليّ عجوز وبنات فدفعت إليهن المعضدة . فلما رأينها أخذن بالبكاء والنحيب وخرت العجوز مغشياً عليها ، فلما أفاقت قالت : وأين ذهب صاحب هذه المعضدة فأخبرتها بخبره وما كان منه ، فقالت : هو والله ولدي عثمان وهؤلاء أخواته ترك أهله وحشمه وخدمه وزهد الدنيا وخرج سائحاً على وجهه لا ندري أين ذهب ؟ فجزاك الله عني وعن ولدي خيراً ، ثم بكت وجعلت تقول ؟

يا فقيداً أضحى وحيداً غريبا يـا عزيـزاً أمسـى ذلـيلاً كئيبـا قد هجرت الديار من بعد أنس
وسـكنت القفـار فـرداً سـليبا وتغربـت في الـبلاد حزينـا بـانفراد ولسـت تـدعو مجيبـا
منـذ فـارقتني تـنغص عيشـي ولقـد كنـت لي خلـيلاً حبيبـا ليتني مـت قبـل يومـك جهـرا
لـيتني كنـت مـن حمـاك قريبـا فعليـك السـلام مـني حقـا كلمـا حـرك النسـيم قضـيبا

[إلـهي] إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين ، وإن كنت لا تقبل إلا

المخلصين فمن للمخطئين ، وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين فمن للمسيئين . إلَـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشد مصيبتي ، أنبه غيري وأنا النائم . سيدي ما أغرب قصتي ، أدل غيري وأنا الحائر . إلَـهي جد بالعفو على مذكر متكلف وسامع متخلف ، إلَـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك ، أتراك تقبل المدلول ترد الدليل ، إلَـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك الكريم وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، والحمد الله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الثالث عشر

في ذكر جهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها والمسلمين

الحمد لله الذي وعد من أطاعه بنعيم جنانه ، وتوعد من جحده بجحيم نيرانه وقهر من كفر بقويّ سلطانه وستر من فجر بجميل إحسانه وعذر من اعتذر من قبيح عصيانه وغفر لمن عبر إلى حرم غفرانه وجبر من انكسر لأجل رضوانه ونصر من انتصر بعظيم شأنه وشكر من ذكر بجزيل امتنانه يسبحه الملك بأعوانه والفلك بدورانه والبرق بلمعانه والسحاب بسريانه والريح بخفقانه والنهر بجزيل امتنانه يسبحه الملك بأعوانه والفلك بدورانه والبرق بلمعانه والسحاب بسريانه والنهر بجريانه والشجر بأغصانه والزهر بألوانه والطير بأشجانه والروض بغدرانه والبر بكثبانه والبحر بحيتانه كل يسبح بغريب لغته ولسانه :

وكل مقر في فصيح بيانه ... بتسبيحه جهراً بنطق لسانه
هو الواحد الفرد الذي قد تفردت ... صنائعه في خلقه وزمانه
له الفرش والعرش الرفيع على العلا ... له المثل الأعلى علواً لشأنه

فسبحانه من إلَـه عظيم حيّ قيوم ، قدر الرزق المقسوم ، والأجل المحتوم ، والوقت المعلوم ، وحير في إدراك معرفته العقول والفهوم . خلق الجنة من نور رحمته لأقوام سقاهم من الرحيق المختوم ، وخلق النار من سطوة غضبه لأقوام كتب لهم بالشقاوة المرسوم ، لهم فيها دمار وعذاب وتوبيخ وعقاب لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم فسبحانه من إلَـه لم يزل عظيماً قوياً جليلاً بهياً واحداً في ملكه سرمدياً جعل الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاه ولو كان شريفاً قرشياً جعلها مسكن المشركين والكفار ومأوى الأشقياء الفجار

كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ ﴾ [غافر : ٤٦] فكيف الخلاص منها ، وقد قال حين تحققها منكرها وجاحدها ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم : ٧١] فهي بيت الأحزان ، والخزي والهوان ، ليس لجاحدها منها أمان ، وحق عليهم الخلود فيها والنسيان ، ينادون فيها وهم يسمعون ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴾ [الرحمن : ٤٣ – ٤٤] يا لها من دار محتوم بلاؤها ، معدوم رجاؤها ، مظلم مسالكها ، مبهم مهالكها شراب أهلها الحميم ، وعذاب أهلها أبداً مقيم ، لهم فيها بالويل ضجيج ، وبالثبور دعاء وعجيج أمانيهم فيها هلاك ، وما لهم من أسرها فكاك ، ينادون من فجاجها وشعابها ، من ترادف عذابها : يا مالك حق علينا الوعيد . يا مالك قد أثقلنا الحديد ، يا مالك قد نضجت منا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود ، قد أثقلتنا القيود ، وأيقنوا فيها بالخلود ، وباؤوا بغضب الملك المعبود ، وقد جاوروا الفجار ، وخالطوا الكفار ، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود ، مسكن أهل الجحود ، والارتياب ، طعامهم فيها الزقوم ، وشرابهم فيها الصديد والرصاص المذاب ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ ﴾ [النساء : ٥٦]

النار منزل أهل الكفر كلهم طباقها سبعة مسودّة الحفر
جهنم ولظى من بعدها حطمه ثم السعير وكل الهول في سقر
وتحت ذاك جحيمٌ ثم هاوية تهوي بهم أبداً في حر مستعر
فيها العقارب والحيات قد تركت جلودهم كالبغال الدهم والحمر
فيها السلاسل والأغلال تجمعهم مع الشياطين جهراً جمع منقهر
لهم طعام مِنَ الزقوم يعلق في حلوقهم شوكه كالصاب والصبر

سوداء مظلمة شنعاء موحشة همَّاء محرقة لواحة البشر
أعاذنا الله منها ثم عوضنا بجنة الخلد بين الروض والزهر

[وعن أبي هريرة رضي الله عنه] عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى دعا جبريل فأرسله إلى الجنة ، وقال : انظر إليها وما أعددت لأهلها فيها ، فنظر إليها ورجع فقال : وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفت بالمكاره فقال له : ارجع فرجع فقال : وعزتك وجلالك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ، ثم أرسله إلى النار وقال له : انظر إليها وما أعددت لأهلها فيها فنظر إليها وقال : وعزتك وجلالك لا يدخلها أحد فحفت بالشهوات ، ثم قال له : عد إليها فانظر فعاد ورجع فقال : وعزتك وجلالك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم » . وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « ناركم هذه جزء من

سبعين جزءاً من تلك النار ولولا أنها ضربت في البحر مرتين ما انتفعتم منها بشيء » . ويروي مسلم من حديث شقيق عن عبد الله بن عمر ، قال : قال النبي ﷺ : « يؤتى بجهنم يوم القيامة ولها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » . وفي حديث مسلم عن أبي هريرة قال : « كنا مع النبي ﷺ إذ سمع وجبة ، فقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر رُمي في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار إلى الآن حتى وصل إلى قعرها » .

[إخواني] أما تعتبرون بهذا الأحوال أما تشفقون من نار جهنم والأنكال ، أما تحذرون سلاسلها والأغلال ، واعجباه لمن كان في الجنة في ظهر أبيه آدم كيف يدخل ناراً وقودها الناس والحجارة :

إذا برزت ليوم العرض نار ... لها الناس الوقود مع الحجاره
يفرّ المرء حقاً من أخيه ... وينكر في المعاد من استزاره
فلا الخل الحميم يغيث خلاً ... ولا الجار المجير يجير جاره
وقد برز الجليل لفصل حكم ... ونشرت الصحائف مستطاره
فيفتضح المسيء بقبح فعل ... ومن يك محسناً فله البشاره

[ويروى] أن لهب النار يرفع أهل النار حتى يطيروا كما الشرر فإذا رفعهم أشرفوا على أهل الجنة وبينهم حجاب فينادي أهل الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا : نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة حين يرون الأنهار تطرد بينهم أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا : إن الله حرمها على الكافرين فتردهم ملائكة العذاب بمقامع من حديد إلى قعر النار قاله بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : ٢٠] وذكر الترمذي من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ثم قال النبي ﷺ : « لو قطرت قطرة من الزقوم في الدنيا لأفسدتها وأفسدت على أهلها معايشهم ، فكيف من يكون ذلك طعامهم » . وذكر الترمذي من حديث ابن عباس أيضاً ، قال : قال النبي ﷺ : « غلظ جلد الكافر اثنان وسبعون ذراعاً وضرسه مثل جبل أحد وإنّ مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة » أعاذنا الله وإياكم من النار ، ومن مقام الكفار فيها والفجار فلو رأيت أهل جهنم وشرابهم الحميم ، وكلما اشتد جوعهم ليس لهم

طعام إلى من ضريع ، يا أهل الذنوب و الخطايا ألكم صبر على النار ؟ كلا إنها لظى يساقون إليها من كل مكان ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الفرقان : ١٢ - ١٣ - ١٤] فلو رأيتهم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] حلت بهم المحن وظهر عليهم الغبار وجرت دموعهم من سحائب جفونهم كالأمطار والقلق قد أحاط بهم من جميع الأقطار :

أما سمعت بأكباد لهم صعدت ... خوفاً من النار فانحطت إلى النار

أما سمعت بضيق في مجالسهم ... ولا قرار لهم يا صاح في النار

أما سمعت بحيات تدب بها ... إليهم خلقت من مارج النار

فيا إلهي بأحكام وما سبقت ... به قديماً من الجنات والنار

أدعوك أن تحمي العبد الضعيف فما ... للعبد من جسد يقوى على النار

والشمس ما لي عليها قط من جلد ... فكيف يصبر ذو ضعف على النار

ويروى من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سيق أهل النار إلى النار فتلقطهم بعنف فتنفحهم نفحة لم تترك لحماً على عظم إلا أبانته عن العروق » وهم في توبيخ وعتاب وفي سجن وعذاب وفي حزن وعقاب » كما قال الله تعالى في محكم الكتاب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦] فإنهم كانوا يفرحون بدار الغرور وينسون النفخ في الصور ويغترون بالأماني والزور ، قال في حقهم من يعدل في حكمه ولا يجور : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر : ٣٦] لهم فيها بكاء وزفير ، وعذاب سعير ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٧] فيا من سمع بذكر النار حتى كأنه شاهدها عياناً ، ما هذا الأمل والرحيل قد تدانى ؟ يا مقبلاً على لذاته ولم يأخذ من هول الموقف أماناً :

اذكر وقوفك يوم الحشر عرياناً ... مستضعفاً فارغ الأحشاء حيرانا

النار تزفر من غيظ ومن حرق ... على العصاة وتلقى الرب غضبانا

في موقف قد تجلى فيه حاكمه ... وقال فيه لمن قد لج طغيانا

اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... وانظر إليه ترى فيه الذي كانا

لما قرأت كتاباً لا يغادر لي ما كان في السر أو ما كان إعلانا
قال الجليل خذوه يا ملائكتي مروا به لأليم النار ظمآنا
يا رب لا تخزنا يوم المعاد ولا تجعل لنارك فينا اليوم سلطانا

وقال رسول الله ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً وأنها تتعوذ من نار جهنم في كل يوم سبعين مرة » . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « اذكروا من النار ما شئتم فلا تذكرون منها شيئاً إلا وهي أشد منه » ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن أهل النار ليدعون مالكاً فلا يرد عليهم جواباً أربعين عاماً ثم يرد عليهم ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف ٧٧] يعني دائمون أبداً ، ثم يدعون ربهم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون ١٠٦ - ١٠٧] فلا يجيبهم مقدار ما كانت الدنيا ثم يجيبهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] . قال : فوالله ما ينطقون بعدها بكلمة واحدة ولم يكن لهم بعد ذلك إلا الزفير والشهيق في النار ، شبه أصواتهم بأصوات الحمير أوّلها زفير وآخرها شهيق . قال قتادة : يا قوم هل لكم بذا طاقة أم هل لكم على هذا صبر ؟ يا قوم طاعة الله عليكم أهون من هذا فأطيعوه . وعن ميمون بن مهران أنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٤٣] . وضع سلمان يده على رأسه ثم خرج هائماً ثلاثة أيام لا يقدر عليه أحد حتى جيء به . ويروى أن أهل النار يجزعون ألف سنة ثم يقولون : كنا في الدنيا إذا صبرنا أتانا الفرج فيصبرون ألف سنة فلا يخفف عنهم شيئاً فيقولون : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١] فيدعون ألف سنة فلا يأتيهم الغيث لما بهم من العطش وشدّة العذاب لكي يزول عنهم بعض الحرارة من العطش فيتضرعون ألف سنة ، فإذا تضرعوا يقول الله تعالى لجبريل : يا جبريل أيّ شيء يطلبون وهو أعلم ؟ فيقول : يا رب يطلبون الغيث فتظهر لهم سحابة حمراء فيظنون أنهم يمطرون بها فيرسل الله عليهم فيها العقارب كأمثال البغال فتلدغ الواحد منهم لدغة فلا يذهب الوجع ألف سنة ثم يسألون الله الغيث فتظهر لهم سحابة سوداء فيقولون : هذه سحابة المطر فيرسل الله عليهم فيها حيات كأمثال الإبل كلما لسعت لسعة لا يذهب وجعها ألف سنة وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] يعني بما كانوا يكفرون ويعصون الله فمن أراد أن ينجو من عذاب الله وينال ثوابه فعليه بالصبر على شدائد الدنيا فإن الجنة قد حفت بالمكاره والنار حفت بالشهوات .

[إخواني] مثلوا أنفسكم وقد وقفتم على النار وقلتم : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾

[الأنعام : ٢٧] كلها ثم صحتم : ﴿ يَحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ وقد صرفتم همتكم في طلب الدنيا وأعرضتم عن أخراكم بالكلية ، فكيف بكم ﴿ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ [الأنعام : ٤٦] .

يا نفس توبي فإني الموت قد حانا واعصي الهوى فإن الهوى ما زال فتانا

[حكي] أنه لما دخل هارون الرشيد مكة ابتداء بالطواف ومنع الناس من الطواف فسبقه أعرابي وجعل يطوف معه فشق ذلك على أمير المؤمنين والتفت إلى حاجبه كالمنكر عليه ، فقال الحاجب : يا أعرابيّ خلّ الطواف ليطوف أمير المؤمنين ، فقال الأعرابي : إن الله ساوى بين الأنام في هذا المقام والبيت الحرام ، فقال تعالى : ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فلما سمع الرشيد ذلك من الأعرابي أمر حاجبه بالكف عنه ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابي فاستلمه ثم أتى على المقام ليصلي فيه فسبقه فصلى فيه فلما فرغ الرشيد من صلاته وطوافه قال للحاجب : ائتني بالأعرابي فأتى الحاجب الأعرابي وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي إليه حاجة إن كانت له حاجة فهو أحق بالقيام إليها ، فانصرف الحاجب مغضباً ثم قص على أمير المؤمنين حديثه ، فقال : صدق نحن أحق بالقيام والسعي إليه ، ثم نهض أمير المؤمنين والحاجب بين يديه حتى وقف بإزاء الأعرابي وسلم عليه فرد السلام ، فقال له الرشيد : يا أخا العرب أأجلس هنا بأمرك ؟ فقال له الأعرابي : ليس البيت بيتي ولا الحرم حرمي ، البيت بيت الله والحرم حرم الله ، وكلنا فيه سواء إن شئت تجلس وإن شئت تنصرف . قال : فعظم ذلك على الرشيد حيث سمع ما لم يخطر في ذهنه وما ظن أحداً يواجهه بمثل ذلك ، فجلس إلى جانبه وقال له : يا أعرابي أريد أن أسألك عن فرضك فإن قمت به فأنت متعنت ؟ قال : فعجب الرشيد من سرعة جوابه وقال : به سؤال متعلم . فقال الأعرابي : قم واجلس مقام السائل من المسؤول . قال : فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدي الأعرابي ، فقال له : قد جلست سل عما بدا لك . فقال : أخبرني عما فرضه الله عليك . فقال له : تسألني عن أي فرض ؟ أعن فرض واحد أم خمسة فروض ، أم عن سبعة عشر فرضاً ، أم عن أربعة وثلاثين فرضاً ، أم عن أربعة وتسعين فرضاً ، أم عن واحدة من أربعين ، أم عن واحدة في طول العمر ، أم عن خمسة من مائتين ، قال : فضحك الرشيد مستهزئاً به . ثم قال : سألتك عن فرض فأتيتني بحساب الدهر . قال : يا هارون لولا أن الدين حساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة قال تعالى : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] قال : فظهر

الغضب في وجه أمير المؤمنين ، وتغير من حال إلى حال حين قال له : يا هارون ، ولم يقل يا أمير المؤمنين وبلغ منه ذلك مبلغاً شديداً ، غير أن الله عصمه من ذلك الغضب ورجع إلى عقله لما علم أن الله هو الذي أنطقه بذلك ، ثم قال الرشيد : وتربة آبائي وأجدادي إن لم تفسر لي ما قلت وإلا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة ، فقال له الحاجب : يا أمير المؤمنين اعف عنه وهبه لله تعالى لأجل هذا المقام الشريف . قال : فضحك الأعرابي من قولهما حتى استلقى على قفاه ، فقال له الرشيد :ممّ تضحك ؟ قال : عجباً منكما فإن أحدكما يستوهب أجلاً قد حضر والآخر يستعجل آجلاً لم يحضر ، فلما سمع الرشيد ما سمع منه هانت عليه الدنيا ثم قال له : سألتك بالله إلا ما فسرت لي ما قلت ، فقد تشوقت نفسي إلى شرحه . فقال الأعرابي : أما سؤالك عما فرض الله عليّ فقد فرض الله عليّ فروضاً كثيرة ، فقولي لك عن فرض واحد فهو دين الإسلام وأما قولي لك عن خمسة فروض فهي الصلوات الخمس ، وأما قولي لك عن سبعة عشر فهي سبع عشرة ركعة في اليوم والليلة ، وأما قولي لك عن أربع وثلاثين فهي السجدات ، وأما قولي لك عن أربع وتسعين فهي التكبيرات ، وأما قولي لك عن واحدة من أربعين فهي الزكاة دينار من أربعين ديناراً ، وأما قولي لك عن واحدة في طول العمر فهي حجة واحدة في طول العمر على الإنسان ، وأما قولي لك عن خمسة من مائتين فهي زكاة الورق ، قال : فامتلأ الرشيد فرحاً وسروراً من تفسير هذه المسائل ومن حسن كلام الأعرابي وعظم فطنته واستعظمه في عينه ، ثم إن الأعرابي قال للرشيد : سألتني فأجبتك فإذا سألتك أنا تجيبني ؟ فقال الرشيد : سل ، فقال له الأعرابي : ما يقول أمير المؤمنين في رجل نظر إلى امرأة وقت الصبح فكانت عليه حراماً ، فلما كان الظهر حلت له ، فلما كان العصر حرمت عليه ، فإذا كان المغرب حلت له ، فإذا كان العشاء حرمت عليه فإذا كان الفجر حلت له ، فإذا كان الظهر حرمت عليه ، فلما كان العَصر حلت له ، فلمّا كان المغرب حرمت عليه ، فلما كان العشاء حلت له ؟ فقال له الرشيد : لقد أوقعتني في بحر لا يخلصني منه غيرك ، فقال له الأعرابي : أنت أمير المؤمنين ، وليس أحد فوقك ، ولا ينبغي أن تعجز عن شيء ، فكيف تعجز عن مسألتي ؟ فقال له الرشيد : لقد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك ، فأريد أن تفسر لي ما ذكرت إكراماً لي ولهذا البيت الشريف . فقال الأعرابي : حباً وكرامة : أما قولي في رجل نظر إلى امرأة وقت الصبح فكانت عليه حراماً ، فهذا رجل نظر إلى أمة غيره فهي عليه حرام ، فلما كان الظهر اشتراها فحلت له ، فلما كان العصر أعتقها فحرمت عليه ، فلما كان المغرب تزوجها فحلت له ، فلما كان العشاء طلقها فحرمت عليه فلما كان الفجر راجعها فحلت له ، فلما كان الظهر ارتد عن دين الإسلام فحرمت عليه فلما كان العصر استتيب فرجع فحلت له ، فلما

كان المغرب ارتدت هي فحرمت عليه ، فلما كان العشاء استتبيت فرجعت فحلت له . قال : فتعجب الرشيد وفرح به واشتد عجبه ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما حضرت قال : لا حاجة لي بها ردها إلى أصحابها ، قال : فهل تريد أن أجري لك جراية تكفيك مدة حياتك ؟ قال : الذي أجرى عليك يجري عليّ ، قال : فإن كان عليك دين قضيناه فلم يقبل منه شيئاً ثم أنشأ يقول :

هب الدينا تواتينا سنينا فتكدر تارة وتلذ حينا
فما أرضى بشيء ليس يبقى وأتركه غداً للوارثينا
كأني بالتراب عليّ يحثى وبالإخوان حولي نائحينا
ويوم تزفر النيران فيه وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالقي وجلال ربي لأنتقمنّ منكم أجمعينا

فلما فرغ من إنشاده تأوه الرشيد وسأل عنه وعن أهله وبلاده فأخبروه أنه موسى الرضا ابن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وكان تزيا بزي الأعراب زهداً في الدنيا ، وتورعاً عنها فقام وقبله بين عينيه ، ثم قرأ : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

[إخواني] هؤلاء قوم كانوا يخفون حالهم بين الأنام وهم شعث غبر لا يؤبه لهم وهم عند الله في أرفع مقام ، هذه صفاتهم إذ قبلوا فكيف صفاتك يا مردود ؟ هذه صفاتهم إذ قربوا فكيف صفاتك يا مطرود ؟ هذه صفاتهم فنح على نفسك يا منكود ، ويحك يا مسكين أنت في النهار في البطالة وفي الليل من جملة الرقود ، وينشد :

يا عليماً بما يكنّ الضمير أنت نعم المولى ونعم النصير
من لعبد قد أوبقته الخطايا من عذاب يا سيدي يستجير
هل لأهل الذنوب عنك محيص ونفوس الورى إليك تصير
حسبنا في غد من الذنب مولى علمنا أنه الرحيم الغفور

باب صفة الفقير

من صفة الفقير في الدنيا أن يكون صائماً قائماً راكعاً ساجداً طالباً راغباً صبوراً شكوراً رحيماً لطيفاً وحيداً ، قليل الكلام ، قليل الطعام ، كثير الذكر ، مليح الفكر بعيد الأوطان ، قليل الإخوان ، كثير الأحزان ، معرضاً عن متاع الدنيا وشبهاتها ، مخلصاً من مكرها وشهواتها ، لا يبيع ولا يشتري ، ولا أخذ له ولا عطاء ، إن حضر لا يعرف ، وإن غاب لا يذكر ، كثير الخلوة غزير الدمعة لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء محاسباً لنفسه مراقباً لربه ، أنفاسه محروسة وربوع قلبه مأنوسة ، لا يطيل في الدنيا فكره ، وينظر فيها بعين العبرة ، قليل الشهوات ، تارك الشبهات ، ملازم الطاعة ، كثير القناعة ، تارك الحيلة ، قليل الوسيلة ، ليس له حاجة بالناس أبد الأبد ولا يؤخر من يومه إلى غد متوجهاً لمولاه ، لا يعبد إلا إياه ، خرج من الدنيا خروج صحيح ، وأقبل على الله بوجه مليح ، ليس له بلغة ، ولا يملك ذرة ، مشتغلاً بالله ، معرضاً عما سواه ، لا يعرف النفاق ، ولا يمشي في الأسواق ، يسلك الطريق بلا تعويق ، بدنه نحيف ، وجسمه لطيف ، نظره عفيف ، علم العلم والعمل ، وترك الدنيا وانعزل ، جاهد فشاهد ، مسارعاً إلى الملكوت ، مراقب الحي الذي لا يموت لا يمشي مرحاً ولا يرى فرحاً ، بعيداً عن الناس وأكثر منهم الإياس سلم فسلم لا متكبراً ولا متجبراً صادق المقال حسن الفعال فارق العالم وراح وتركهم واستراح ، أنس بوحوش الفلا وأيس من الملا يطوف السهل والجبل قصير الأمل لا يملك من الدنيا حبة ولا ينظر إليها بعين المحبة هجر الأحباب والأصهار وأنس بوحوش القفار أقام على نفسه الحدّ ولزم طريق الجد ، علم أن القلب بيت الرب فطهره وأخلاه فتجلى فيه إذ لم يجد فيه سواه ولو أُعْطِيَ الدنيا بما فيها لم ينظر إليها فهذا هو الفقير . وقيل : أربع من كنوز الجنة : كتمان المصيبة وكتمان الفاقة وكتمان الصدقة وكتمان الألم . وقيل : من كمال المرء خصلتان : لا يدخله الرضا في الباطل ولا يخرجه الغضب عن الحق . وقيل : العجلة من الشيطان إلا في ستة أشياء تعجيل الصلاة إذا دخل وقتها وقرى الضيف إذا دخل وتجهيز الميت إذا مات وتزويج البنت إذا أدركت وقضاء الدين إذا وجب والتوبة من الذنب إذا وقع .

المجلس الرابع عشر

في ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفقراء والأولياء رضي الله تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم

الحمد لله الذي ذرأ وبرأ ، وصور العالم صوراً ، وخلق من الماء بشراً ، وخرق له سمعاً وبصراً وأمضى بقدرته قضاء وقدراً ، وأظهر بحكمته من آياته عبراً ، وألبس العمال من ملابس الأعمال ثوباً مفتخراً ، وجبر من خضع لديه ووقف بالذلة بين يديه منكسراً ، وأغنى بفضله من تمسك بحبله وأمسى إليه مفتقراً ، فسبحانه من إلـه ليس في قدرته مراً ، ولا في واحدانيته أمتراً ، وهو السميع البصير الذي يسمع ويرى ، نظر إلى الماء فعاد من الهيبة حجراً ، وإلى الجماد فسال برحمته كالسيل وجرى ، ورفع قبة السماء بغير عمد كما ترى ، وجعل فيها سراجاً وقمراً ، ورصعها بدراري الكواكب فحكت دراريها درراً ، وأرسل الرياح بين يدي رحمته نشراً ، وأذن للنجم أن يسري فسرى ، وإلى السحاب أن يحمل مطراً ، وحرس قلعة السماء بحراسة الشهب ، فلم يسمع مسترق السمع منها خبراً ، وحير الفكر في إدراكه فرجع مقهقراً ، وبقي في بيداء التيه محيراً ، وعذب من كفر واجترا ، وقرب من أناب ووحد وتذلل ولم يبد تكبراً ، وأرسل الصواعق على مقدمة نقمته عبرا ، وألمع البرق بترادف تألف نعمته مبشراً ، وأنطق الرعد بعواصف قدرته مزمجراً . هبت من خزائن كرمه نفحات نسمات نعمه فاستنشق العارفون منها عنبراً عطراً ، فجاء بالسر المألوف معروفاً منكراً ، وجعل لأبي يزيد التأييد فأصبح على دنياه بتقواه منتصراً ، وبات الشبلي لعرائس المحبة يستجلي فظل ممزقاً متحيراً ، وجند الجنيد من أجناده إلى لقاء أنداده عسكراً ، فشمر في الخدمة الذيل وظل باكياً طول الليل متحسراً ، وخص ذا النون بالسر المصون فهام ولم يجد مصطبراً ، وشرب الحلاج صرف المزاج فجرى منه ما جرى ، فلما حصل لهم من المحبة الذوق هبت نسمات الشوق ، وروت لهم عن الحبيب خبراً ، وأخبرتهم أن حبيبهم نظر إليهم وتجلى عليهم مسحراً ، فالراجي في الليل الداجي قد بسط كفاً منكسراً ، والجاني بالقلب العاني قد نكس رأساً معتذراً ، والعاصي قد خاف من يوم الأخذ بالنواصي فأطرق حياءً وحذراً ، والمذنب ينوح على ذنوبه ويقطع الليل بالبكاء على عيوبه بكاءً وسهراً :

لا ذقت يا صاح لذيذ الكرى ... أو يصفح الرحمن عما جرى

ويبعد الهجر ويدنو اللقا ... ويفرح القلب بطيب القرى
ويرجع الود الذي بيننا ... والعيش صاف بعدما كدرا
متى بشير الصلح يأتي لنا ... ويرجع العود وقد أثمرا
وألصق الخدّ بأبوابهم ... معفراً في ترب ذاك الثرى
ها قد بسطت راحتي سائلاً ... وقد مددت الكف مستمطرا
يا سادتي قد تبت من زلتي ... وقد أتيت الآن مستغفرا
فسامحوني كرماً منكم ... فعهدكم عندي وثيق العرى
ما لي سوى أبوابكم سادتي ... وقد تشفعت بخير الورى

قيل : لما آن نزول البلا على سيدنا أيوب المبتلى ، أتى طاوس الملائكة جبريل بأمر الملك الجليل ، فقال له : يا أيوب سينزل بك مولاك من البلاء والأهوال ما يعجز عن حمله الجبال ، فقال أيوب عليه السلام : إن دمت على مواصلة الحبيب ، سأصبر حتى يقال عجب عجيب ، فنودي : يا أيوب استعدّ لبلائي ، واصبر لنزول حكمي وقضائي . وكان السبب في ابتلائه أن إبليس لعنه الله حسده وتحيل عليه بأنواع المكر والحيل فلم يقدر عليه ، فقال : إلٰهي إنما شكر أيوب وسبب طاعته لك أن وسعت عليه في الأموال والأرزاق والأولاد والعافية . فلو سلبته ذلك ما أطاعك طرفة عين ، فقال له الحق جل جلاله : اذهب فقد سلطتك عليه وإنه لم يغيره ذلك فأول يوم ابتلاه أخذ الأولاد فزاد في الخدمة واجتهد غاية الاجتهاد ، وفي اليوم الثاني أخذ الأموال فأحرقها ومزقها ، فقال أيوب : العطايا عطاياه إن شاء سلبها وإن شاء أطلقها ، وفي اليوم الثالث نفخ إبليس في جسده وهو في صلاة الفجر فلعب الدود في جميع بدنه ولم يزل يذكر الله في سره وعلنه فلما تمكن البلاء من جسده بعد ذهاب ماله وولده قال : الحمد لله الذي اصطفاني لخدمته ، ومن عليّ بفضله وخيرته ، فلم يشغلني بغيره ، ولم يزل أيوب ذاكراً ولربه حامداً وشاكراً إلى أن تمزق جلده وذاب لحمه ودق عظمه وصار الدود يغدو في جسده ويروح وهو بالشكوى لا يبدي ولا يبوح وكان كلما سقط من جسده دودة إلى الأرض ردها إلى مكانها يقول لها : كلي أيتها الدودة فهذه مائدة جسدي ممدودة ، فنزل عليه الأمين جبريل عليه السلام فسلم عليه فلم يرد السلام لاشتغال لسانه عن الكلام ثم سلم عليه ثانياً فرد عليه السلام ، فقال له جبريل عليه السلام : يا نبي الله ما منعك من رد السلام في المرة الأولى ؟ فقال : يا أخي يا جبريل : إن الملك الودود أرسل إليّ أضيافاً من الدود لكي أطعمهم من لحمي على مائدة جلدي وعظمي فكان بعض الأضياف من الدود على طرف لساني فخشيت أن أردّ عليك

السلام فتسقط من مكانها فأمنعها حقها وأكلها فأطالب برزقها فأكون عاصياً لربي [١] :

عـــذبونا ثم قـــالوا في المـــلا   أنـــت راض بـــالبلا قلـــت بلـــى
أنـــا راض بـــالبلا لكـــن علـــى   أن تـــذيبوا القلـــب بـــالهجر فـــلا
عـــذبوا إن شـــئتمو أو فـــارحموا   عـــذب التعـــذيب عنـــدي وحـــلا

[إخواني] البلاء يظهر أحوال الرجال وما أسرع ما يفتضح المدعي ، هذا أيوب نبيّ الله أرسل عليه سبعين ألف نوع من العذاب والبلاء فصبر وما شكا له ضيراً ، واسمع يا من تضر به شوكة فلا يطيق لها صبراً فأيوب المبتلى جرّبه نقاد الورى محك الابتلاء فزاد في الخدمة وعلا ، أخذ منه المال فما زاغ عن المحبة ولا مال ، وأخذ منه الولد فزاد في الخدمة واجتهد ورضي بجميع المحن وما باح في شكواه بسر ولا علن ، نودي : يا أيوب أين المكروب وقد صبرت على بلائنا وسلمت لقضائنا سنردّ عليك مالك وولدك ونعافي من البلاء جسدك ونكتب اسمك في محكم الكتاب وننشر ذكرك في ديوان الأحباب ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤٢] .

أهـــل الـــبلاء موكـــل بهـــم الـــبلا   في هـــذه الـــدنيا يحـــل معجـــلا
مـــا ضـــرهم مـــا كابـــدوه مـــن العنـــا   حـــتى بـــدار الخلـــد عنـــهم حـــوّلا
يتمتعـــون بضـــرهم فلأجـــل ذا   قـــد راق عنـــدهم العـــذاب وقـــد حـــلا
وإذا ابـــتلاهم بـــالبلاء يرونـــه   نعمـــاً وجـــوداً دائمـــاً وتفضـــلا
والأنبيـــا صـــبروا علـــى بلـــواهم   ســـراً وإعلانـــاً فهـــم أهـــل الـــولا

حكي أن إبراهيم عليه السلام لما قال : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قيل له : يا إبراهيم أنت شاك في قدرتنا حتى تقف على باب حجتنا وتقول أرني ؟ فقال : يا رب أنت أريتني بعين بصيرتي فأرني بعين بصري لأجمع بين النظرين فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير ويذبحها ويمزقها ويفرّق أجزاءها ويجعل على كل جبل منهن جزءاً وأمره أن يأخذ رؤوسهن فيجعلن بين أصابعه ويدعوهنّ ففعل ذلك فهب نسيم من جانب القدرة وجمع تلك الأجزاء المتفرقة واللحوم المتمزقة وأتوا نحوه وعطف كل منهم على رأسه من بين أصابعه ، ولما صاروا أحياء بقدرة الله تعالى عكفوا على رأس إبراهيم عليه السلام ونادوه بلسان فصيح وقلب جريح : أي شيء أردت منا حتى سفكت دماءنا يا إبراهيم ؟ تأدب فربما باسطك مثل ما باسطته ففي تلك الليلة رأى ذبح ولده فكأن الله تعالى يقول : يا إبراهيم نحن أريناك إحياء الموتى فأرنا إماتة الأحياء

---

(١) هذا الكلام لا يجوز في حق الأنبياء لأنه من الإسرائيليات .

فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ [الصافات : ١٠٢] فاستسلم للقضاء وصبر و ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] يا أبت من ذا الذي يطيق يعترض على الحاكم فيما حكم يا أبت إن كان مولاي راضياً عني وقد اختار ذلك مني فامض لما أمرت معوّلاً ، فقد طاب الموت وحلا ثم أنشد لسان الحال هذه الأبيات :

أمـا والـذي لـدمي حلـلا　　لقد خص أهل الولا بالبلا
لئن ذقت فيك كؤوس الحمام　　لما قلت يوماً لساقيه لا
وإني لـن أشتكي في الهوى　　ولو قدّني مفصلاً مفصلا
رضيت وحقك كل الرضا　　إذا كان يرضيك أن أقتلا

[حكي] أن موسى عليه السلام لما شرب كأس المدام من الكلام ، وكان قد خرج ليقتبس النار وقد سبقت له الأقدار بالعناية من الجبار ، فلما أتى الشجرة ونفسه للأنوار مرتقبة منتظرة سمع النداء : يا موسى فوجد بذلك قرباً وأنساً وظل متفكراً في أيّ جهة يقرب أو يأتي فسمع النداء من جميع الجهات : يا موسى لا بأس عليك ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] موضع لا يطرقه من بالمعاصي تدنس ولا جاءه مستوحش إلا يأنس ثم سمع النداء : يا موسى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ فاعرفني ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ [طه : ١٤] وأنا إلـهك العظيم فعظمني ، وأنا الملك الرزاق فلا تسأل غيري واسألني ، وأنا شديد العقاب فاحذرني وأنا جليس لمن ذكرني فاذكرني . قال موسى : يا رب دللتني عليك وقربتني إليك فأرني ﴿ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وينشد :

طلعت شموس شواهدي　　لما شهدت خيامهم
وبدت لواعج لوعتي　　لما سمعت كلامهم
وفنيت عن بشريتي　　لما بدت أعلامهم
ما ضرّهم لو أرسلوا　　مع النسيم سلامهم

[إخواني] الطريق عسرة المسالك ، ضيقة على السالك ، فبكى فيها آدم ، وناح لأجلها نوح ، ورُميَ في النار إبراهيم الخليل ، وأضجع للذبح إسماعيل ، وبيع يوسف ، ونشر زكريا ، وذبح يحيى ، وابتلي أيوب ، وهام مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر محمد عليه الصلاة والسلام . يا أخي أول قدم في الطريق بذل الروح ، هذه الجادة ، فأين السالك ، وهذا القميص ، فأين يعقوب . هذا جبل طور سينا ، فأين موسى يا جنيد احضر يا شبلي اسمع يا ابن أدهم أقبل :

قف بالديار فهذه أطلالهم　　تبكي الأحبة حسرة وتشوقا

كم قد وقفت بها أسائل مخبراً ... عن أهلها أو صادقاً أو مشفقا

فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقت من تهوى فعز الملتقى

[فقال الشبلي رحمة الله عليه] : بينما أنا أسيح في بعض الجبال إذ رأيت ريحانة العابدة ، وهي تنشد هذا البيت :

أحضرتني فيك لكن ... غيبتي في التجلي

قال : فنظرت يميناً وشمالاً وفتشت عليها فرأيتها فسلمت عليها فردت عليّ السلام . فقلت : ريحانة ! فقالت : لبيك يا شبلي . فقلت : على من تفتشين ؟ فقالت : على ريحانة ، فقلت لها : ألست ريحانة ؟ فقالت : بلى ولكن يا شبلي منذ قرب ودنا وقعت في العنا وصرت لا أعرف أين أنا ، فغبت عن وجودي ، وضعت مني وصرت أسائل الركبان عني فلا أجد من يخبرني عني فقلت : عودي يجمع عليك فقد رفعت الأعلام إليك فقالت : يا شبلي لقد سألت عناصري ، فلم أجد فيهم أحداً ناصري ، وسألت الحواس فإذا هم سكارى من غير كاس ، وسألت فهمي فدلني على وهمي ، وسألت سري فقال لا أدري وسألت فؤادي فما بلغني مرادي ، وسألت قلبي فاستغرق وقال حسبي لا أتكلم ولا أبدي ، ثم قالت : يا شبلي من هيبة ربي لم يبق حيّ إلا وسألته أن يوصلني إليّ ويدلني عليّ فعجز الكل عن لفظي وتركن حظي ، فإن كنت يا شبلي تعرف مكاني فقد دعاني ترجماني فقلت لها : يا ريحانة قرارة مكانك عند رحيمك ورحمانك ، قال : فصرخت صرخة ، أتبعتها زفرة فحركتها فإذا هي ميتة فأسندتها إلى الصخرة وأصعدت في فلاة من الأرض لعلي أرى من يعينني على تجهيزها فلم أر أحداً فعدت إلى الأثر فلم أجد لها خبراً لكن رأيت لها نوراً تشعشع وبروقاً تلمع ، فقلت : يا ليت شعري ما فعل بهذه الأمة ؟ فنوديت : يا شبلي من أخذناه منه في حال حياته غيبناه عن الأعين في مماته . قال الشبلي : فلما كانت تلك الليلة رأيتها في المنام فقلت : ريحانة ما فعل الله بك ؟ فقالت : يا بطال زال العنا ونلنا المنى وتحققنا مالنا وبلغنا قصدنا وآمالنا ، وإن كنت تريد العز الكلي فمت مثلي :

شهدت بعين الفكر في حان حضرتي ... ومنذ تجلى للقلوب فجنت

سقاني بكأس من مدامة حبه ... فكان من الساقي خماري وخمرتي

وخاطبني سراً فناديت جهرة ... ألا يا عباد الله فزت ببغيتي

فغبت عن الأكوان شغلاً بنشوتي ... وتهت عن العشاق جهراً بسكرتي

شغلت بمن أفضى فؤادي محله ... ولم يك شغلي بالرباب وعلوة

ولم ترض روحي بالديار وإنما ... إلى عالم الأسرار زمت مطيتي

فشاهدت معنى لو بدا كشف سره لصم الجبال الراسيات لدكت
وها أنا قد ألهمت قصة شكوتي فوقع فضلاً منه غفران زلتي

[قال بعض السادة] : حججت إلى بيت الله الحرام في بعض الأعوام فلما قضيت الحج وأردت الرجوع رأيت شاباً قد نحل جسمه واصفر لونه وخفي رسمه وقد وقف على الراحلة وتنفس تنفس الحزين . وقال : هل فيكم من يحمل كتاب الغريب الذي طالت غربته واشتدت زفرته وقويت حسرته من أجل عجوز أفنت عمرها في تربيتي وطال اشتياقها إلى رؤيتي فهل فيكن من يحمل كتابي ويوصله إلى أحبابي ويغنم أجري وثوابي ؟ :

هذا كتابي إليكم مخبراً لكم بأنني لم أطق تسطيرها بيدي
لأن إحداهما مشغولة أبداً بمسح دمعي والأخرى على كبدي
فإن تعوضت واستبدلت بعدكم يوماً فلا قالني الرحمن من كمدي

ثم قال : بالله عليكم إذا وصلتم سالمين فأوصلوا إليها كتابي وأخبروها بما بي ثم أنشد يقول :

وقولوا تركنا العامري موهاً بنار الأسى والشوق قد بلغ الجهدا
فإن سألوكم كيف حالي بعدكم فقولوا لهم والله ما نقض العهدا

قال : فرق قلبي له وأخذت كتابه من يده وقلت له : ما الذي يمنعك عن الوصول إلى والدتك ؟ فقال لي : يا سيدي إذا كانت الأقدار تعوق فما يصنع المخلوق ، ثم أنشد يقول :

خرجت وفي أملي عودة ولكنني لست أدري متى
وإن قد تلذذت في غربتي بأنس حبيبي لما أتى
ولكنني أرتجي في غد بها الاجتماع كما شتتا

قال : فلما فرغ من شعره صرخ صرخة عظيمة وخر مغشياً عليه فاجتمع أهل القافلة إليه ، ثم أفاق بعد ساعة وهو يقول : هيهات هيهات إنّ ما توعدون لآت قرب المزار ودنت الديار وكان اللقاء وآن الرحيل إلى دار البقاء ، ثم صرخ صرخة عظيمة أخرى فارق الدنيا رحمة الله تعالى عليه ، قال : فجهزنا وكفناه وصلينا عليه ودفناه وسرنا طالبين البصرة فلما قربنا منها خرج أهل البلد لتلقي غيابهم والتهنئة بسلامة أصحابهم وإذا في آخر الناس عجوز ضعيفة البصر وقد أضرّ بها الكبر قلبها بذكر الله منتعش وهي تمشي وترتعش وتقول أما آن قدوم الغائب المنتظر أما له في القافلة من خبر ؟ قال : ثم نادت يا معشر القادمين هل لكم فيكم حامل كتاب فيه من ولدي خبر أو جواب ؟ ثم أنشأت تقول :

يعود إلى أوطانه كل غائب ونجلي مع الغياب ليس يعود

لقد ذهبت عيناي من كثرة البكا ونيران قلبي بالفراق تزيد
لقد كنت أرجو أن يعود ونلتقي ولكنني عما أريد بعيد

قال : فتقدمت إليها وقلت لها : أيتها العجوز الحزينة الغريبة الضعيفة الكئيبة معي كتاب من شاب غريب يشكو البعاد ويذكر أن أهله في هذه البلاد ويشتاق إلى أم كانت له كثيرة الوداد ، فعند ذلك صرخت العجوز صرخة عظيمة وقالت : هذه والله صفة ولدي الغريب فناولني الكتاب ليرد ما بقلبي من اللهيب والاكتئاب . قال : فناولتها الكتاب فجعلت تقبله وتتأمله وتضعه على عينيها وقلبها وتقول : يا رسول ولدي الغريب ما فعل بسيدي الحبيب ؟ فقلت لها : قد قضى نحبه ولحق بربه . قال : فلما سمعت أن ولدها أضحى غريباً وحيداً بكت بكاءً شديداً ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي إنما كنت أحب البقاء في الدنيا رجاء الاجتماع بولدي واللقاء ، والآن لا حاجة لي بعده في البقاء ثم صرخت صرخة ووقعت على الأرض ميتة فعزمت على تجهيزها وإذا بقائل يقول أسمع صوته ولا أرى شخصه : يا هذا هون عليك فليس أمرها إليك وأنشد يقول :

سأبكي عليكم بالدموع تأسفاً وأندب أياماً بوصل تقضت
ولهفي على ربع خلا من أنيسه وصاح به داعي النوى والتشتت
ودار لنا بالرقمتين عهدتها بها كان أحبابي وأهل مودتي
ولي زفرات بالغرام تأججت لها في فؤادي نار شوق أمضت
فإن لم تعودوا إليّ وأنظر حسنكم إذا أقض نحبي من عذابي وحسرتي
فيا معشر الإخوان رقوا لمدنف غريب بلي بالذل في أرض غربة
فيا رب بالهادي البشير محمد نبي رقى حقاً لأرفع رتبة
أجرنا من النيران واغفر ذنوبنا وشفعه فينا فهو خير البرية
عليه سلام الله ما أظلم الدجى وما لاح برق لامع في الدجنة

قال الأستاذ أبو محمد الفراء : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء : رجل مؤمن قتل مؤمناً ، ورجل يموت على الكفر ، ورجل في قلبه خوف الفقر . وقال الأستاذ الجنيد : يا معشر الفقراء إنكم تكرمون لله وتعرفون بالله فانظروا كيف تكونون مع الله إذا خلوتم به ، وقيل : نعت الفقر ثلاثة أشياء : حفظ سره وأداء فرضه ، وصيانة فقره . وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام تريد أن تكون لك في القيامة مثل حسنات الخلق أجمع ؟ قال : نعم يا رب ؟ قال : عد المرضى وكن لثياب الفقراء فالياً فجعل موسى عليه السلام على نفسه في كل شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء يفلي ثيابهم ويعود المرضى .

[قال عبد الله بن المبارك] : إظهار الغنى في الفقر أحسن من الفقر . وقيل : أقل ما يلزم الفقير في فقره أربعة أشياء : علم يسوسه وورع يحرزه ويقين يحمله وذكر يؤنسه . قال أبو حفص : لا يصح لأحد الفقر حتى يكون العطاء أحب إليه من الأخذ ، وليس السخاء أن يعطي المعدم الواجد ، وقال ابن الخلال : فلولا شرف التواضع كان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر ، وقال بعضهم : رأيت القيامة قد قامت وكأن قائلاً يقول : ادخل يا بْن دينار ومحمد ابن واسع الجنة . قال : فنظرت إليهما أيهما يتقدّم فتقدم محمد بن واسع فسألت عن سبب تقدّمه فقيل لي : إنه قد كان له قميص واحد ولمالك بن دينار قميصان ، وقال يحيى بن معاذ : لا يوزن غداً الفقر والغنى وإنما يوزن الشكر والصبر فعالوا نصبر ونشكر :

يــا معشــر الفقــراء رب حــاكم ... لمــا احتميــتم عــن ســواه حمــاكم
أبــديتمو فقــراً إليــه وأنتمــو ... أزكى الـورى سبحان مـن أعطـاكم
مـا شـأنكم في شـأنكم فقـر ولا ... ضــر إذا مــولاكم والاكــم
وإذا الملــوك تــذللت لجنــابكم ... جـاءت غـداً تختـال تحت لـواكم
يــا فــوز مــن صـافاكم في يومـه ... ليفــوز في غــده بصـدق ولاكــم

يا أخي ما يتصف بأوصافهم ولم يكن بهم مقتدياً لا يكون فيه أحد معتقداً . وقيل : إنه كان بعض المشايخ معه جماعة من الفقراء المسلمين بالصوفية رأى في المنام كأن السماء قد انشقت ونزل جبريل عليه السلام ومعه ملائكة إلى النبي ﷺ والملائكة بأيديهم الطشوت والأباريق وكأنهم يصبون الماء على أيدي الفقراء وأرجلهم ، فلما بلغوا إليّ مددت يدي ليصبوا عليّ فصبوا عليّ وعلى الفقراء الحاضرين . قال سهل رحمه الله عليه : لو دخل هذه الصفة بالصدق ولو يوماً واحداً حتى أبلغ إلى السرقة أو غيرها لوجب عليّ نصرته ولو قطع يدي :

ملـوك الأرض أربـاب الرعايـا ... ونحـن عبيـد خـلاق البرايـا ... إذا رفعـوا قـدوداً كـالعوالي
ركعنـا في قـدود كالحنايـا ... وإنـا في الثـرى وهمـو سـواء ... إذا نزلـت بنـا رسـل المنايـا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً .

المجلس الخامس عشر

في مناقب الأولياء رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي جعل الفقراء صفوة خلقه ، ورفع لهم منزلة وقدراً ، وفوا له بالعهود فنشر لهم في الوجود ثناء وذكراً ، زين بهم الزمان وملأ بعرف عرفانهم الأكوان عطراً ، جعل قربه غاية مطلوبهم وصير حبه لكسر قلوبهم جبراً ، نكسوا بالذل نفوسهم فأجرى لهم أجراً ، استعذبوا التعذيب في رضا الحبيب واستحلوا ما كان مراً ، تاهوا على الوجود ، فجادوا بالموجود ، وأضحوا في قيود محبته أسرى ، عرضت عليهم الكنوز فرفضوها ، وحدّقت إليهم الدنيا فتركوها ، واختاروا فاقة وفقراً ، ابتلاهم بالمحن فشكروه على هذه المنن ولزموا صبراً ، تحيل عليهم الشيطان فلم يكن له عليهم من سلطان ولا أطاق لهم كيداً ولا مكراً ، فهم الفقراء إلى الله الأغنياء بالله الذي حجبهم عن الأغيار ، ورفع لهم في الأسحار حجاباً وستراً :

هم الفقراء عنهم فارو ذكراً ... وقف واسمع لهم خبراً وخبرا

بذكرهم القلوب تهيم وجداً ... ومنهم تكتسي الأكوان عطرا

إذا ما الحب ناجاهم تراهم ... يميلوا في الدجى طربا وسكرا

وإن سكروا لهم حال عجيب ... يحير حالهم عقلاً وفكرا

عن الدنيا تجافوا فاستراحوا ... وقد قطعوا بها الأعمار صبرا

على وجناتهم كتبوا إليه ... بأدمعهم حروفاً ليس تقرا

وقد شمخوا على الأكوان تيهاً ... وإعجاباً بحالهم وفخرا

إذا سهروا تراهم في الدياجي ... يديمون الخضوع لديه جهرا

وإن ناموا تولاهم حبيب ... بأسرار القلوب إليه أسرى

حبيب كلما راموا لقاه ... تجلى للقلوب وشال سترا

فدعهم يا عذول ولا تلمهم ... فساقيهم بهم لا شك أدرى

هم الفقراء والحقراء حقاً ... هم الأمراء إذا حققت أمرا

[قال أبو الأشهل السائح رحمة الله عليه] رأيت غلاماً بطريق مكة شرفها الله تعالى قائماً يصلي عند بعض الأميال قد انقطع عن القافلة . قال : فوقفت أنتظره فأطال ، فلما سلم قلت له : سلام عليك قال : وعليك السلام ، فقلت له : إنك قد انقطعت عن الركب ألك رفيق يؤانسك حتى تلحقه ؟ فبكى وقال : نعم . فقلت : وأين هو ؟ قال : أمامي وخلفي عن يميني

وعن شمالي . قال : فعرفت أنه عارف . قلت : أمعك زاد ؟ قال نعم ، فقلت : فأين هو ؟ قال : في قلبي إخلاصي لربي ، قلت هل لك في مرافقتي ؟ قال : الرفيق يشغل عن الله تعالى ولا أحب أحداً يشغلني عنه طرفة عين . فقلت : فمن أين تأكل ؟ قال : الذي غذاني في ظلمة الأحشاء صغيراً قد تكفل برزقي كبيراً فمتى احتجت إلى الطعام والشراب حضر بين يدي ، قلت : فهل من حاجة ؟ قال : نعم ، إذا رأيتني بعد هذا اليوم فلا تكلمني ، فقلت : ادع لي . قال : حجبك الله عن كل معصية وشغلك بما يقربك إليه . قلت : فأين اللقا بعد هذا اليوم ؟ قال : ما بقي بعد هذا اليوم لقاء ، فإن كنت من أهل القرب فاطلبني غداً في منازل المقربين ، ثم غاب عني فلم أره بعدها فأنا متأسف عليه طول عمري :

همو قدحوا الغرام بلا زناد فطار الشوق من شغف الفؤاد
إذا لم يطفئوا نيران شوقي بوصل صار قلبي كالرماد
عذولي لا تضع في العذل وقتي فلست بقاطع حبل السوداد
ويا حادي النياق لأهل نجد إذا ما جزت في تلك البوادي
فقل للحب بالجرعاء عني مقالة مغرم الأحشاء صادي
أيا راحي وريحاني وروحي أتسهرني وتسلبني رقادي
ظلام الليل أحسن من ضياء إذا نظر المحب بلا انتقاد
يقوم به المحب إلى حبيب عظيم العفو منسكب الأيادي
وسار العارفون إلى رضاه يحثهم البكا والشوق حادي
وقد جعلوا الحنين لهم حديثاً وتذكار الأحبة خير زاد

[قال مالك بن دينار رحمة الله عليه] : كان لي جار مسرف على نفسه فاجتمع الجيران إليّ يشكونه فأحضرته وقلت له : إنه قد كثر عصيانك ، فإما أن تتوب وإما أن تخرج من هذه المحلة ؟ فقال : أنا في ملكي ما أخرج منه ، قلت : نشكوك إلى السلطان ؟ فقال : أنا من أصحابه ، قلت : فندعو الله عليك ؟ فقال : ربي أرحم بي منكم ثم نهض من عندي ، فلما كان الليل رفعت يديّ في وقت السحر وقلت : سيدي قد آذانا هذا الرجل فاصنع اللهم به وافعل فهتف بي هاتف : لا تدع عليه فإنه من أوليائنا . قال : فقمت من ساعتي وطرقت عليه الباب فخرج وظن أني جئت أخرجه من المحلة فخرج يبكي ويعتذر ويقول : يا سيدي السمع والطاعة أنا أخرج من هذه المحلة . قال : فقلت : ماجئتك لهذا ، وإنما الساعة تضرعت إلى الله تعالى فهتف بي هاتف : لا تدع عليه فإنه من أوليائنا ، فبكى بكاءً شديداً وتاب وحسنت توبته فأصبح الناس يزورونه ويتبركون به وكثروا عليه فخرج إلى مكة شرفها الله تعالى ماشياً

فأقام بها فحججت في العام المقبل . فبينما أنا في وقت الظهيرة في المسجد الحرام أستظلّ بحائط وإذا بجماعة قد اجتمعوا في جانب المسجد فقمت إليهم فإذا هم قد أحدقوا برجل فتأملته فإذا هو صاحبي وهو ملقى على التراب وهو يجود بنفسه فجلست عند رأسه أبكي ففتح عينيه فرآني فقال : يا مالك ترى يعفو عن تلك السيئات ويرحم هذه العبرات إنما خرجت من تلك المحلة وفارقت وطني وأهلي حياء منك وأنت مخلوق مثلي فكيف أقف غداً بين يدي الخالق ! ثم تنفس ومات رحمة الله عليه . [كان وكان] :

ما كان وصل يواصل	ولا العنا يدني المنا	هذي سوابق لواحق	لمن يشا الوهاب
قل لي إذا لم تصبر	وتحتمل إيش لك عمل	تقدر بقوة عزمك	تغالب الغلاب
سلم قيادك تسلم	واخضع لمالك مهجتك	إذا عنى بك أتى بك	من أقرب الأبواب
كم من موفق تائب	قد بان سبل الهدى	وكم شقي عاصي	إلى الساعة ما تاب
ويحك عروس المنايا	لبيت لحدك خبئت	وذا مشيبك وافي	في جملة الخطاب
كأس المنايا دائر	على البرايا كلهم	فقل لمن هو حاضر	يقل لمن قد غاب
غداً تبين الفضائح	ويشتهر من قد جنى	وفي القيامة ينادي	هل من قصدنا خاب

[وحكي عن الجنيد رحمة الله عليه] قال : سافرت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام فبينما أنا في الطريق وإذا بصوت موزون من كبد محزون فبادرت إليه وسلمت عليه فقال لي : وعليك السلام يا جنيد ، فقلت له : يا حبيبي ومن أعلمك باسمي ؟ فقال : التقت روحي وروحك في الملكوت فأعلمني باسمك الحيّ الذي لا يموت ثم إنه قال : يا جنيد إذا أنا مت فغسلني وكفني في ثيابي هذه واطلع على هذه الرابية وناد الصلاة على الغريب يرحمكم الله . قال : وإذا بالشاب قد عرق منه الجبين واشتدّ به الأنين . فقال : بالله عليك يا جنيد إذا أنت قضيت حجك ورجعت فارجع إلى بغداد واسأل عن درب الزعفراني واسأل عن أمي وعن ولدي وقل لهم : الغريب يقرئكم السلام لا إلى بيته أوصله ولا معكما تركه وإذا أنا بالشاب قد فارق الدنيا رحمة الله عليه . قال الجنيد : فغسلته وكفنته وطلعت على الرابية وناديت الصلاة على الغريب يرحمكم الله وإذا بجماعة قد أقبلوا من كل فج عميق فصلينا عليه وواريناه تحت التراب فلما قضيت حجي ورجعت إلى بغداد وسألت عن درب الزعفراني فأرشدت إليه وإذا أنا بصبيان يلعبون فنهض إليّ من بينهم صبي وقال لي : يا عماه لعلك أنت الذي أتيت تخبرنا بموت والدي ؟ قال الجنيد : فتعجبت من كلام الصبي وأخذ بيدي وأتى بي إلى الدار فطرقت الباب فخرجت إليّ عجوز وقالت : يا جنيد أين مات ولدي ؟ لعله مات بعرفة قلت لها : لا ، قالت : لعله مات بالبادية تحت شجرة أم غيلان ، قلت لها : نعم ، فقالت : يا ولداه لا إلى بيته أوصله ولا

معنا تركه ثم تأوهت وأنشدت تقول :

أرأيت كيف جنى عليّ زماني ... وبأي سهم بالبعاد رماني
فارقت أحباباً عليّ أعزة ... كانوا بقلبي في أعز مكان
فرزيت بعد فراقهم برزية ... فمحت أصول السر من كتماني
فلئن بكيت ولم تفض عيني دماً ... لفراقهم يوماً فما أقساني
فتنفسوا الصعدا وقالوا يا فتى ... أقرحت جفن العين بالهملان
ما أنت أول من مضت أحبابه ... وجرت عليه نوائب الحدثان
الدهر ما يبقى بحال واحد ... لا بد من فرح ومن أحزان

ثم شهقت شهقة ففارقت الدنيا فنظر الصبي إليها ، وقال : اللهم لا مع أبي أخذتني ولا مع جدتي خلفتني إلـهي ألحقني بهما إنك على كل شيء قدير . قال : فشهق الصبي شهقة فمات رحمة الله عليهم أجمعين :

مدامعي تجري كفيض الغمام ... وقد جفا جفني لذيذ المنام
من أجل جيران لنا قد نأوا ... والوجد عندي بعدهم قد أقام
كم قلت للحادي وقد جد في ... سير المطايا لبدور التمام
بالله قف بي ساعة نشتفي ... ونشتكي الشوق لأهل الخيام
من كان أهنى عيشنا بالحمى ... لله طيب العيش لو كان دام

[قال أبو بكر بن المفضل رحمه الله] : سألت بعض أصدقائي ، وكان أصله رومياً عن سبب إسلامه فامتنع أن يحدثني فما زلت به حتى حدثني قال : نزل بنا عسكر المسلمين فحاصرونا سنين فخرجنا إليهم وقاتلناهم فقتلوا منا وقتلنا منهم جماعة وأسرنا منهم جماعة كما جرت عادة العساكر في القتال فأسرت أنا وحدي عشرة من المسلمين وكانت لي في الروم المنزلة العظمى فسلمت العشرة إلى غلماني فقيدوهم وحملوهم على البغال ، فرأيت في بعض الأيام أحد الموكلين بهم قد أخذ من أحدهم شيئاً وتركه يصلي فأخذت الموكل به وضربته وقلت : أخبرني ما الذي أخذته من هذا الأسير ؟ فقال : إنه في وقت كل صلاة يدفع إليّ ديناراً وأطلقه يصلي فقلت : وهل معه شيء ؟ قال : لا ولكنه إذا صلى وفرغ من صلاته ضرب الأرض بيده ودفع إليّ ديناراً فأحببت أن أعرف حقيقة ذلك فلما كان من الغد لبست ثياب الموكل ووكلت نفسي بذلك الرجل وقلت للموكل به رح عنه فإني اليوم أتوكل به حتى أنظر حقيقة ما ذكرت لي ، فلما كان وقت صلاة الظهر أومأ إليّ أنه يريد الصلاة ويدفع إليّ ديناراً فقلت : لا آخذ إلا دينارين فقال : نعم فتركته فصلى فلما فرغ من صلاته رأيته وقد ضرب بيده الأرض ودفع إليّ دينارين جديدين فلما جاء وقت العصر أشار إليّ كالمرة الأولى فأشرت إليه : لا آخذ إلا خمسة

دنانير فقال : نعم فتركته فصلى فلما فرغ من صلاته ضرب بيده الأرض فأعطاني خمسة دنانير جدداً . فلما كان وقت صلاة المغرب أشار إليّ كعادته فقلت : لا آخذ إلا عشرة دنانير ، فقال : نعم ثم صلى ، فلما فرغ من صلاته ضرب بيده الأرض فأعطاني عشرة دنانير جدداً . فلما كان وقت العشاء الآخرة أشار إليّ على عادته فقلت : لا آخذ إلا عشرين ديناراً فقال : نعم وقام فصلى ، فلما فرغ ضرب الأرض بيده ودفع إليّ عشرين ديناراً جدداً . وقال : اطلب ما شئت فإن سيدي غني كريم لا يبخل عليّ بما أسأله فيه فبتّ تلك الليلة وقد داخلني من أمره شيء عظيم وعلمت أنه من أولياء الله تعالى فهبته وداخلني منه هيبة عظيمة ففككت قيده من رجليه . فلما أصبحت دعوته وبجلته وأكرمته وألبسته ثوباً جديداً كان عليّ حسناً وخيرته في الإقامة عندنا في بلادنا في أعز مكان وأكرم محل ويكرم غاية الإكرام والرجوع إلى بلاد الإسلام فاختار الرجوع إلى بلده فأحضرت له بغلاً ودفعت له زاداً وحملته بنفسي على البغل فقال لي : توفاك الله على أحب الأديان إليه . فوالله ما استتم هذه الكلمة حتى وقع دين الإسلام في قلبي ثم أنفذت معه من وجوه أصحابي وغلماني عشرة وأوصيتهم بإيصاله إلى بلده مبجلاً معظماً مكرماً بحيث لا يسوؤه شيء ولا يعترضه عارض وأن يمتثلوا منه جميع ما يأمرهم به ويفعلوا له كل ما يختاره ولا يخالفوه في شيء يريده ودفعت إليه دواة وقرطاساً وجعلت بيني وبينه علامة يكتبها إليّ إذا وصل سالماً إلى مأمنه ، وكانت مسيرة ما بيننا وبين بلاده خمسة أيام . فلما كان اليوم السادس قدم أصحابي عليّ ومعهم القرطاس مكتوباً بخطه والعلامة التي بيني وبينه في القرطاس فسألتهم عن سرعة حضورهم فقالوا : لما خرجنا من عندك وهو معنا وصلنا في ساعة واحدة من غير تعب ولا نصب أصابنا وأقمنا في المجيء خمسة أيام بالجهد والتعب والنصب فقلت عند ذلك : أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وأن دين الإسلام حق ثم خرجت من بلاد الروم إلى بلاد الإسلام وصار أمري إلى ما صار إليه ، والحمد لله على الهداية والتوفيق :

هكـذا الأوليـاء عـزوا وذلـوا ... وأشـاروا إلى الطريـق فـدلوا ... فهمـو للأنـام مـزن وغيـث
وهمـو للقلـوب بـرد وظـل ... هجروا الخلق في رضاه وساحوا ... لـيس للقـوم في الخلائـق خـل
وصلوا الصوم والصلاة فمهما ... مـل ذو الكـد كـده لم يملـوا ... حسـبوا أنهـم كـثير فلمـا
طلبـوا في مهامـه الأرض قلـوا ... فبـهم يـدفع الـبلاء عـن الخلـ ... ـق وهم من أهلها حيث حلـوا

إلـهي إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين ، وإن كنت لا تقبل إلا المخلصين فمن للمخلطين وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين فمن للمسيئين . إلـهي توسلنا إليك بحسن الظنون فاغفر جميع زلاتنا يا من لا تراه العيون ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السادس عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩]

الحمد لله العلي المجيد ، الولي الحميد ، المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد المتوحد في جلال كبريائه من غير تكييف ولا تحديد ، الذي لا ينفد ملكه ولا يبيد ، خلق الخلائق وسلكهم أحسن الطريق إلى الأمر الرشيد ، فصورهم فأحسن صورهم وبشرهم في الجنة بالتنعيم والتخليد ، بصرهم بعين الاعتبار وحذرهم عذاب النار والوعيد ، وألزمهم شكره ، وضمن لهم من فضله المزيد ، وحكم عليهم بالموت فما لأحد عنه محيص ولا محيد ، فكم أثكل خليلاً بفراق خليله ؛ وكم أيتم ولداً وشغله ببكائه وعويله ، فهو لا يبدي بعد رحيله ولا يعيد ، حكم بالموت على أهل هذا الداء وجعلهم غرضاً لسهام الأقدار ، الأحرار منهم والعبيد ، أوحش المنازل من أقمارها ، ونفر طيور الأرواح من أوكارها ، وعوضهم عن لذة العيش والتنغيص والتنكيد ، فالملك والمملوك والغني والصعلوك كلهم سواء في الفقر والبيد ، فسبحان من أذلّ بالموت من الجبابرة كل جبار عنيد ، وكسر به من الأكاسرة كل بطل صنديد ، أخرجه من سعة القصور ، إلى ضيق القبور ، وقطع حبل أمدهم المديد ، أخذ به الآباء والجدود ، والأطفال من المهود ، وأسكنهم اللحود ، وعفر وجوههم بالتراب والصعيد ، وساوى في الموت بين الصغير والكبير ، والغني والفقير والمأمور والأمير والولد والوليد ، أخمد به ذكر الذكور والإناث فهم في سجن الأجداث إلى يوم الوعيد ، أفلا يعتبر العاقل بمصرعهم ، وقد ساروا بأجمعهم إلى منازل التفريد ؟ أين أهل المدن والحصون أين أرباب المعاني والفنون ، أين المتحصنون بكل حصن منيع ، وقصر مشيد ؟ أما أصبح منهم ذو الشدّة والبأس بعد القرب والإيناس ، في ظلمة اللحد وهو وحيد ، أم وعظكم الموت بمن أخذ منهم من شقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، أما أنذرهم قول الملك المجيد : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] .

[كان وكان]

ويحك تنبه لنفسك … واعمل لما تلقى غدا … فالموت يأتي بغتة … وليس له عنه محيد

ما لك إذا ما ملك … من كان يهوى صحبتك … وحزت لحدك وحدك … مفلس غريب وحيد

إن كنت يا صاح نائم … يوم القيامة تنتبه … إذا رأيت الخلائق … في موقف التهديد

وقيل لك اقرأ كتابك ... كفى بنفسك شاهده ... وقد أتيت الموقف ... بسائق وشهيد
فدع دموعك تجري ... قبل أنه يقال بين الملا ... ألم تكن قبل تدري ... أن الحساب شديد
ترى الخلائق حيارى ... من هول ما قد شاهدوا ... وليس تدري من هو ... منهم شقي أو سعيد
فمن أطاع المولى ... فذاك منه قد قرب ... ومن عصاه وخالف ... فذاك منه بعيد
كل القلوب قد لانت ... لكن قلبك قد قسا ... كأن قلبك أضحى ... بين القلوب حديد
ويحك فراقب ربك ... واسمع كلامي واتعظ ... عسى قساوة قلبك ... تلين بالتشديد

فيا غافلاً عن الموت وقد هدم ركن عمره المشيد ، إلى متى أنت في نوم غفلتك لا تبدي ولا تعيد ، أما هيجك الوعد أما أنذرك الوعيد ، أما سمعت قول العزيز الحميد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ يريد بذلك وعد الله تعالى على لسان نبيه ﷺ من ظهور ملك الموت وجنوده وانشقاق السقف وأن يكشف له عن مقعده إما في الجنة أو في النار ، وذلك عند مجيء سكرة الموت ، وهو الحق الذي ذكره المصطفى ﷺ من الإيمان بالغيب ، ثم من بعده سؤال القبر بمنكر ونكير ، وهو أوّل ما يلقى الميت إذا ألحد . وأما سكرة الموت فهو اسم مفرد للجنس لأن الموت سكرات . ولما كان رسول الله ﷺ يعالج سكرات الموت ، كان يقول :« إن للموت سكرات » وسكرات الموت بحسب كل شخص بما فعل في دار الدنيا ، وسميت سكرة لأنها تذهل العقول عند ظهورها فيبقى الإنسان كالسكران وذلك أن أعمال العبد تظهر له عند الموت صفاتها في الحسن والقبح يريد جزاء العمل . فالمغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار ، والسامع للغيبة يسلك في أذنيه نار جهنم ، والظالم تتفرق روحه بكل مظلوم ، وآكل الحرام يقدم له الزقوم ، وكذلك إلى آخر أفعال العبد كل ذلك يظهر عند سكرات الموت ، فالميت يجوزها سكرة بعد سكرة فعند آخرها تقبض روحه وهو قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] يعني تحيد بطول الآمال والحرص على البقاء في دار الدنيا . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ : « أن رسول الله ﷺ رأى أناساً يضحكون فقال : أما إنكم لو ذكرتم هاذم اللذات لشغلكم عما أرى ثم قال : أكثروا من ذكر هاذم اللذات وإنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » . وقال عمر بن الخطاب ﷺ لكعب الأحبار : يا كعب حدّثنا عن الموت ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين كأنه غصن شوك أدخل في جوف رجل فأخذت كل شوكة بعرق ثم أخذها رجل شديد الجذب فجذبها جذبة شديدة فقطع منها ما قطع وأبقى ما أبقى . وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال : كان أبي رحمه الله تعالى كثيراً ما يقول : إني لأعجب من الرجل نزل به الموت ومعه عقله ولسانه كيف لا يحدّث به ويصفه ؟ قال : فلما نزل به الموت

قلت له : يا أبت كنت تقول كذا وكذا قال : يا بني الموت أعظم من أن يوصف ولكن سأصف لك منه شيئاً ، والله لكأن على كتفيّ جبال رضوى وتهامة ولكأن روحي تخرج من ثقب إبرة ولكأن في جوفي شوك القتاد ولكأن السماء أطبقت على الأرض وأنا بينهما . وروي عن عيسى عليه السلام أن بني إسرائيل أتوا إلى قبر سام بن نوح عليه السلام فقالوا له : يا روح الله ادع الله تعالى أن يحيي لنا صاحب هذا القبر حتى نسمع منه حديث الموت فجاء عيسى عليه السلام إلى قبره فصلى ركعتين ، ودعا الله تعالى أن يحيي سام بن نوح فأحياه الله تعالى فقام وإذا رأسه ولحيته قد ابيضتا فقال له : ما هذا الشيب فإنه لم يكن في زمانك ؟ قال : سمعت النداء فظننت أن القيامة قد قامت فشاب رأسي ولحيتي من الهيبة فقال له : منذ كم أنت ميت ؟ قال : منذ أربعة آلاف سنة وما ذهبت مرارة الموت عني . وقال وهب بن منبه رضي الله عنه : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يرى الملكين اللذين كانا يحفظان عمله في الدنيا ، فإن صحبهما بخير قالا : جزاك الله عنا خيراً ، فكم من مجلس خير قد أجلستنا وعمل صالح قد أحضرتنا وإن كان رجل سوء ، قالا له : لا جزاك الله عنا خيراً فكم من مجلس شر قد أجلستنا ومن كلام سوء قد أسمعتنا قال : فذلك الذي يشخص بصر الميت ثم لا يرجع إلى الدنيا أبداً . وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولم يلحد بعد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه وقال : استعيذوا بالله من فتنة القبر ومن عذابه مرتين أو ثلاثاً ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه الملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه يقول : أيتها النفس المطمئنة الزكية اخرجي إلى مغفرة الله ورضوانه قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذونها ولا يدعونها في يده طرفة عين فيجعلونها في ذلك الكفن والحنوط فيخرج منها أطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله تعالى اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما تقول في هذا الرجل الذي

بعث فيكم أهو رسول الله ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ ، فيقولان له : ما علمك به ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقته . قال فينادي مناد من السماء : صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها وروحها ورائحتها ويفسح له في قبره مدّ البصر ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له أبشر بالذي يسرّك هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : ربّ أقم الساعة شوقاً إلى ما يرى من النعيم » :

نحــن في عيشــة الوصــال الهنيــه ... نجتلــي الــراح في الكــؤوس السـنيه

قــد هجرنــا دار الفنــاء وسـرنا ... لــــديار حياتهـــا أبديــــه

آنســتنا هياكــل النــور لمــا ... فارقتنـــا الهياكـــل البشـــريه

وسمعنـا الخطـاب طيبـوا فـلا حـز ... ن علـــيكم ولا تخــافوا منيــه

قــد حظيــتم بــرؤيتي وخطــابي ... وســكنتم دار الجنـــان العليــه

[قال] : وأما العبد الكافر إذا كان في إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة نزلت إليه ملائكة سود الوجوه ومعها المسوح فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط الله وغضبه فتتفرق في الأعضاء كلها فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول فتتقطع الأعضاء كلها فيأخذها فلا يدعونها في يده طرفة عين فيأخذونها فيجعلونها في تلك المسوح وتخرج منها رائحة منتنة كأنتن رائحة وجدت على الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هو فلان بن فلان بأقبح أسمائه حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون فلا يفتح لهم ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] ويقول الله تعالى : اكتبوا كتابه في سجين ثم تطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] فتعاد روحه من جسده ، ثم يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! فيقولان له : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! فينادي مناد من السماء : كذب عبدي فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيدخل عليه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول له : أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له : من أنت ؟ فيقول :

أنا عملك الخبيث السيىء في دار الدنيا فيقول : رب لا تقم الساعة » .

واطول حزن الأنفس الشقيه — إذا أتاها طارق المنيه
ويا حياها ساعة العرض على — عليم أسرار الورى الخفيه
ما حالها إن دخلت دار البقا — وخلدت في نارها مجزيه
وألبست من السعير حلة — لم تبق من أوصافها بقيه
أعمالها خبيثة من أجل ذا — خصت بدار الحزن والرزيه

وقال رسول الله ﷺ : « سكرات الموت أشدّ من ألف ضربة بالسيف وإن بعده سبعين هولاً كل هول أشدّ من الموت بسبعين ضعفاً » . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه : فكرت ليلة في الموت والقبر فرأيت تلك الليلة كأني في القبر والأموات في لحودهم ولهم فرش ورائحة طيبة فقلت : من هؤلاء ؟ فقيل لي : هم المطيعون وهم في كرامة الله إلى يوم يبعثون . قلت : فأين المعذبون ؟ قيل لي غارت بهم الأرض في ظلمات الوحشة ومهاوي القطيعة لا يرون ولا يرون ، شتان بين الطائفتين من كانت الدنيا سجنه كان القبر فرجه ، ومن كانت الدنيا فرجه كان القبر سجنه ومحنته ، ما نالوا حلاوة الوصل وراحة الوجد إلا بعد مرارة التعب ، ما طربوا على سماع الإيقاع إلا بسدّ السمع ، ولا شاهدوا وجه الجمال إلا بغضّ البصر ، ولا سكروا من المحبة إلا بعد شراب الشوق :

عج بالمعالم والربوع — واسأل بهنّ عن الجموع
من سادة في دهرهم — صبروا على الضيم الفظيع
أين الذين عهدتهم — يا دار في العزّ المنيع
إن لم تجبك ديارهم — عن ذا ولا القصر الرفيع
فلسان حالهم يقو — ل أما نظرت إلى الربوع
قد أصبحت مهجورة — من بعد منظرها البديع
هيهات أن ينجو غداً — يوم الحساب سوى المطيع

[إخواني] ما هذه الغفلة وإلى البلى المصير ! وما هذا التواني والعمر قصير ! وإلى متى هذا التمادي في البطالة والتقصير ؟ وما هذا الكسل وقد أنذرك النذير ؟ خلفك والله عن باب الحبيب سوء التدبير فإلى متى تتبهرج والناقد بصير ! يا هذا جولانك في البطالة حيرك ، وركونك إلى اغترارك غيرك ، وهروبك عمن صوّرك إلى النار صيرك ! أنسيت مصرعك في القبر لا بدّ لك ، وقد سوّد العصيان قلبك وبدّلك ! أما تذكر ساعة يعرق لهولها الجبين ،

وتخرس من فجأتها الألسن ، وتقطرت قطرات الأسف من الأعين ، فتذكروا رحمكم الله فالأمر شديد ، وبادروا بقية أعماركم فالندم بعد الموت لا يفيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] .

[إخواني] أين أحبابكم الذين سلفوا ، أين أترابكم الذين رحلوا وانصرفوا ، أين أرباب الأموال وما خلفوا ، ندموا على التفريط يا ليتهم عرفوا هول مقام يشيب منه الوليد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ واعجباً كلما دعيت إلى الله توانيت ، وكلما حركتك الواعظ إلى الخيرات أبيت وتماديت ، وكم حذرك المنون فما انتهيت ، يا من جسده حيّ وقلبه ميت ستعاين عند الحسرات ما لا تريد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا أخي كم أزعج المنون نفوساً من ديارهم ، وكم أباد البلى من أجساد منعمة لم يدارها ، وكم نقل إلى الحفائر أرواحاً بأوزارها ، وكم أذلّ في التراب خدوداً بعد مزارها . فابك يا أخي على نفسك قبل بكاء لا يفيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ انتبه يا هذا فالدنيا أضغاث أحلام ، ودار الفناء لا تصلح للمقام ، ستفهم قولي بعد قليل الأيام ، وما غاب عنك بعضه ستراه على التمام ، إذا جاء الكشف وذهب التقليد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ويحك أما علمت أنك ترحل في كل مرحلة ، أما علمت أنه يحصى عليك من الأعمال خردلة وكم من مؤمل خانه في الحساب ما أمله غافصه مر القضاء وعاجله ولم تبلغه الأمال إلى ما يريد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا معرضاً عن المولى إلى متى هذا الإعراض ، وقد ولى شبابك في طلب الأعراض ، أما علمت ويحك أن عمرك في انقراض وقواك كل ساعة في انتقاض ، ويحك تزوّد فالسفر والله بعيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا من يجلس في المجالس وقلبه في الأسباب ، يا من تنقضي المواعظ وهو ما تاب ، يا من كسته المعاصي ظلمة الحجاب ، يا من أغلق الهوى في وجهه الأبواب ، نح على نفسك فربما ينفع التعديد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أما علمت أن الموت لك بالمرصاد ، أما صاد غيرك ولك سيصطاد ، أما بلغك ما فعل بسائر القصاد ، أما حذرك غفلتك عنه في كل موطن وواد ، أما سمعت قول الملك المجيد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ عباد الله تدبروا القرآن المجيد ، وأحضروا قلوبكم لفهم الوعد والوعيد ، ولازموا طاعة الله فهذا شأن العبيد ، واحذروا غضبه فكم قصد من جبار عنيد ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] أين من بنى وشاد وطول وتأمر على العباد وسار في الأوّل ، وظن جهلاً منه أنه لا يتحول ،

فسقوا إذ فسقوا كأساً على هلاكهم عول أتراهم لم يسمعوا الإنذار بالموت والتهديد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فيا من أنذره يومه وأمسه وحادثه بالعبر قمره وشمسه ، وهو مصرّ على الخطايا وقد دنا رمسه ، وهو غافل عما جاء بالزجر والوعيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أما علمت أيها الإنسان ، أنك مسؤول عن الزمان ، ومحاسب على خطوات الأقدام وهفوات اللسان ، وتشهد عليك الجوارح والأركان ، بما فعلت في زمن الإمكان ، أما علمت أن الموت لك بالمرصاد ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فيا من ينظر العبر بعينيه ويسمع المواعظ بأذنيه ، وكلمته معدودة عليه ونذير الموت قد دنا إليه بالإسراع والتأكيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ كأنك بالموت وقد اختطفك اختطاف البرق ولم تقدر على دفعه عنك بملك الغرب والشرق وتأسفت على ترك الأوّل والآخر الأسف الشديد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ . . .

[كان وكان]

ويحك تهدم عمرك وربع قلبك قد خرب أما ترى الشيب أبيض والقلب في التسويد
من عن يمينك كاتب لكل خير تفعله كذاك للشر حاسب على الشمال قعيد
تروغ مثل الثعلب إذا أشرت بتوبتك وإن بدت لك شهوه وثبت كالصنديد
ويحك فقرب قلبك إلى سبيل الموعظه عسى قساوة قلبك تلين بالتشديد
فكل قلب قاسي يلين عند الموعظه يرجى له الخير فافهم إشارة التجريد
إن كان مالك عده ولا سلاح يحملك فاحرص عسى تسلم لك علامة التوحيد

إلـهي إن كانت ذنوبنا قد أخافتنا من عقابك ، فإن حسن الظن قد أطمعنا في ثوابك ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك . إلـهي إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين ، وإن كنت لا تقبل إلا المخلصين فمن للمخلطين ، وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين فمن للمسيئين ، إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشدّ مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم ، سيدي ما أبلغ قصتي أدل غيري وأنا الحائر ، إلـهي جد بالعفو على مذكر متكلف وسامع متخلف ، إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وترد الدليل ، إلـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السابع عشر

في إثبات كرامات الأولياء رضي الله عنهم

الحمد لله الذي نصب لأهل محبته باب خدمته خياماً وأعلاماً ، فإذا نامت الخلق جذبهم إليه فباتوا بين يديه سجداً وقياماً ، فما أحسنهم أول الليل خداماً ، وما ألطف شمائلهم آخر الليل ندامى ، فلو رأيتهم وقد فتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب وأنعم عليه بمشاهدته إنعاماً :

حادي الركب إن وصلت الخياما أقر عني تلك الوجوه السلاما
قبل الأرض ثم قل أنا والله على العهد ما نقضت الذماما
كيف أختار مذ رحلتم بديلاً وهواكم بمهجتي قد أقاما

[اعلم] أن من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والحفظ من المعاصي والمخالفات ، ومما يشهد من القرآن على إظهار الكرامات للأولياء قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام ولم تكن نبياً ولا رسولاً : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] وقال تعالى لمريم عليها السلام : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥] وكان ذلك في غير أوان الرطب ، ومن ذلك ما ظهر للخضر عليه السلام من إقامة الجدار وغيره من الأعاجيب وما كان يعرفه مما خفي سره على موسى عليه السلام كل ذلك أمور خارقة للعادة اختص الخضر بها ولم يكن نبياً ، وإنما كان ولياً . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت إليه وقالت : إني لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث » . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه : كان بعبادان رجل فقير أسود يأوي إلى الخربات فحصل معي شيء فطلبته ، فلما وقعت عينه عليّ تبسم وأشار بيده إلى الأرض فصارت الأرض كلها ذهباً تلمع ، ثم قال : هات ما معك فناولته وهالني أمره فهربت . وعن أبي يزيد ، قال دخل عليّ أبو علي السندي وكان أستاذه وبيده جراب فصبها فإذا هي جواهر فقلت له : من أين لك هذا ؟ قال وافيت وادياً ههنا فإذا هو يضيء كالسراج فحملت هذا منه فقلت : كيف كان وقتك الذي وردت فيه الوادي ؟ قال : وقت فترتي عن الحالة التي كنت فيها . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق حسن . وقال ذو النون المصري : رأيت شاباً عند الكعبة يكثر الركوع والسجود فدنوت منه وقلت له : إنك لتكثر الصلاة .

فقال : أنتظر الإذن من ربي في الانصراف . قال : فرأيت رقعة سقطت مكتوب فيها من العزيز الغفور إلى عبدي الصادق انصرف مغفوراً لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر . وقال جابر الرحبي رحمه الله : كان أكثر أهل الرحبة على الإنكار في باب الكرامات فركبت السبع يوماً ودخلت الرحبة . وقلت : أين الذين يكذبون أولياء الله تعالى ؟ قال : فكفوا بعد ذلك عني . وقال بكر ابن عبد الرحمن رحمه الله : كنا مع ذي النون المصري في البادية فنزلنا تحت شجرة أم غيلان فقلنا : ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رطب ! فتبسم ذو النون ، وقال : تشتهون رطباً وحرك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذي أنبتك وخلقك شجرة إلا ما نثرت علينا رطباً جنياً ثم حركها فنثرت رطباً فأكلنا وشبعنا ثم نمنا وانتبهنا وحركنا الشجرة فنثرت علينا شوكاً :

أيا من كلما نودي أجابا ... ومن بجلاله ينشى السحابا ... وكلم في الدجى موسى بلطف

كلاماً ثم ألهمه الخطابا ... ويا من رد يوسف بَعْدَ بُعْدِ ... وكان أبوه ينتحب انتحابا

ويا من خص أحمد واصطفاه ... وأعطاه الرسائل والكتابا ... وقربه وسماه حبيبًا

وأعتق في شفاعته الرقابا ... لك الفضل المبين على عطاء ... مننت به وضاعفت الثوابا

وقيل : كان جماعة مع أيوب السختياني في سفر فأعياهم طلب الماء . فقال أيوب : أتسترون عليّ ما عشت ؟ فقالوا : نعم فدوّر دائرة فنبع الماء ، قال : فشربنا فلما قدموا البصرة أخبر به حماد بن زيد ، فقال عبد الواحد بن زيد : شهدت معه ذلك اليوم . وقيل : حج سفيان الثوري مع شيبان الراعي فعرض لهما سبع . فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا السبع ؟ فقال : لا تخف فأخذ شيبان أذنه فعركها فبصبص وحرك ذنبه ؟ فقال سفيان : ما هذه الشهرة ؟ فقال : لولا مخافة الشهرة لوضعت زادي على ظهره حتى آتي مكة . وقال جعفر بن تركان رحمه الله : كنت أجالس الفقراء ففتح عليّ بدينار فأردت أن أدفعه إليهم ، ثم قلت في نفسي : لعلي أحتاج إليه فهاج بي وجع الضرس فقلعت سناً فوجعت الأخرى فقلعتها فهتف بي هاتف : إن لم تدفع إليهم الدينار لم يبق في فمك سنّ واحدة . وقال أحمد بن منصور رحمه الله : قال لي أستاذي أبو يعقوب السوسي : غسلت مريداً فأمسك إبهامي وهو على المغتسل فقلت : يا بني خل يدي أنا أدري أنك لست بميت وإنما هي نقلة من دار إلى دار ، فخلى يدي . وقال الشبلي رحمه الله : عقدت عقداً مع الله تعالى أن لا آكل إلا من الحلال فكنت أدور في البراري فرأيت شجرة تين فمددت يدي إليها لآكل منها فنادتني الشجرة : احفظ عليك عقدك لا تأكل مني فإني ليهودي .

[وقال عبد الله بن حنيف رحمه الله] : دخلت بغداد قاصداً الحج ولم آكل الخبز أربعين يوماً ولم أدخل على الجنيد وكنت على طهارة فرأيت ظبياً على رأس البئر وهو يشرب وكنت

عطشاناً ، فلما دنوت إلى البئر ولى الظبي ، فإذا الماء في أسفل البئر فمشيت ، وقلت : يا سيدي ما لي محل هذا الظبي فنوديت من خلفي : جربناك فلم تصبر فارجع وخذ ، فرجعت فإذا البئر ملآنة فملأت ركوتي فكنت أشرب منه وأتطهر إلى المدينة ولم ينفد ولما استقيت سمعت هاتفاً يقول : إن الظبي جاء بلا ركوة ولا حبل وأنت جئت ومعك الركوة ، فلما رجعت من الحج دخلت الجامع فلما وقع بصر الجنيد عليّ قال : لو صبرت ساعة لنبع الماء من تحت رجليك :

غرست الحب غرساً في فؤادي ... فلا أسلو إلى يوم التنادي
جرحت القلب بالهجران مني ... فشوقي زائد والحب بادي
سقاني شربة أحيا فؤادي ... بكأس الحب من بحر الوداد
فلولا الله يحفظ عارفيه ... لهام العارفون بكل وادي

[وقال محمد بن سعيد البصري رحمه الله] : بينا أنا أمشي في طريق البصرة إذ رأيت أعرابياً يسوق جملاً له فالتفت فإذا الجمل وقع ميتاً ووقع الرجل والقتب فمشيت ثم التفت ، فإذا الأعرابي يقول : يا مسبب كل سبب ويا مأمول كل ذي طلب رد عليّ ما ذهب يحمل الرحل والقتب فإذا الجمل قائم والرحل والقتب فوقه .

[وقال أبو بكر الهمداني رحمه الله] : بقيت في بريّة الحجاز أياماً ولم آكل شيئاً فاشتهيت باقلاً حاراً وخبزاً من باب الطاق فقلت : أنا في البرية وبيني وبين العراق مسافة بعيدة فلم أتم كلامي إلا وإذا أنا بأعرابي من بعيد ينادي : يا باقلا حار وخبز فتقدمت إليه وقلت له : عندك باقلا حار وخبز ؟ قال : نعم وبسط مئزراً كان عليه وأخرج خبزاً وباقلا ، وقال لي : كل فأكلت ثم قال لي : كل فأكلت ثم قال لي : كل فأكلت ، فلما قال لي الرابع ، قلت : بحق الذي بعثك لي إلا ما قلت لي من أنت ؟ قال : أنا الخضر ثم غاب عني فلم أره :

كفاني سبق علمك بي كفاني ... وحسبك من سؤالك أن تراني
ولي في كل وقت منك برّ ... يبشر بالأمان وبالأماني
وما حاولت رزقاً منك يوماً ... على بعد المدى إلا أتاني

[وقال إبراهيم الخوّاص رحمة الله عليه] : دخلت خربة في بعض الأسفار في طريق مكة شرفها الله تعالى بالليل فإذا فيها سبع عظيم فخفت منه فهتف بي هاتف أثبت فإن حولك سبعين ألف ملك يحفظونك . وقال أيوب الحمال رحمه الله : كان أبو عبد الله الديلمي رحمه الله إذا نزل منزلاً في سفر عمد إلى حماره ، وقال في أذنه : كنت أريد أن أربطك فالآن لا أربطك وأرسلك في هذه الصحراء لتأكل الكلأ فإذا أردنا الرحيل فتعال ، قال : فإذا كان وقت الرحيل

يأتيه الحمار . وقال آدم بن أبي إياس رحمة الله عليه : كنت بعسقلان وكان يغشانا شاب ويجالسنا ويتحدث معنا ، فإذا فرغنا قام إلى الصلاة يصلي فودّعنا يوماً ، وقال : أريد الإسكندرية فخرجت معه فناولته دراهم فأبى أن يأخذها فألححت عليه فألقى كفاً من الرمل في ركوته واستقى من ماء البحر فقال لي : كله فنظرت فإذا هو سويق وسكر كثير ، فقال : من كان حاله مثل هذا يحتاج إلى دراهمك ؟ ثم أنشأ يقول :

ليس في القلب والفؤاد جميعاً ... موضع فارغ لغير الحبيب
هو سؤلي ومنيتي ومرادي ... وبه ما حييت عيشي يطيب
فإذا ما السقام حل بقلبي ... لم يكن غيره لسقمي طبيب

[**فصل**] إذا هبّ على القوم نسيم عناية الحق فأحيا القلوب التي أماتتها الجهالة والغفلة سقاها بكأس التوفيق رحيق التحقيق فسرت في أرواحهم آثار المسرّة والأفراح ، ولاح عليهم أثر الجد والارتياح ، نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار فرأوها ليست لهم بدار ، فاغتنموا البدار إلى الآخرة بالجدّ والاقتدار ، قطعوا النهار بالصيام والليل بالقيام والأذكار ، فإذا التذّ الغافلون بالنوم تلذذوا بمناجاة الكريم في الأسحار ، قد بذل لهم الحبيب رضاه فآثروا حبه على ما سواه ، فسقاهم بكأس المصافاة . وتجلى عليهم في خلوة السحر فتلذذوا بمشاهدته ورؤياه ، وناداهم عبادي وأحبابي هلموا إلى بابي فقد رفعت لكم حجابي وأبحتكم جناني وأعطيت كلاً منكم قصده ومناه :

قوم على مولاهمو أقبلوا ... وأعرضوا عن كل شيء سواه
وحرّموا نوم الدجى رغبة ... فيما لديه كي ينالوا رضاه
دموعهم فوق خدود لهم ... تجري اشتياقاً منهمو في لقاه
قد طلقوا الدنيا بلا رجعة ... وآثروا فوق هواهم هواه
يا من أضاع العمر في غفلة ... ولم ينل من فعل خير مناه
بادر إلى التوبة من قبل أن ... تعدم والله سبيل النجاه
وازرع ليوم البعث زرع التقى ... لعل أن ينمو وتجني جناه
وإن تخف من قبح ذنب مضى ... فلذ بمن تأوي إليه العصاة
محمد المختار خير الورى ... من طبق الأرض جميعاً شذاه
صلى عليه الله ما أشرقت ... شمس وما حنت إليه الحداة

المجلس الثامن عشر

في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

[آل عمران : ١٠٦]

الحمد لله الذي تعرّف إلى أوليائه بنعوت الجمال فعرفوه ، دلهم به عليه فوافقهم بالأنس فألفوه ، ألهم أسرارهم أسماءه فبذكره لهم ذكروه ، يباهي بأحوالهم الملائكة وكيف لا وقد أحبهم وأحبوه ؟ حمى إقليم قلوبهم من طوارق الغفلة فلا يتركوه ، أحرزوا حاصل العمر في صندوق الإخلاص وختموه ، تفقدوا دفتر أعمالهم من غلط الخطايا وصححوه ، خافوا الفضيحة يوم الحساب فحفظوا الأمانة فيما أُوتمن ، نالوا المقصود من محبوبهم وفوق ما طلبوه ، والمحروم في تيه الحرمان حرموه وما رحموه ، واخجلته في المحشر وسرابيل الذلّ ألبسوه ، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ، والحمد لله الذي اخترع الموجودات بلا شريك ولا معين ، تعالى في علوّ شأنه عن صفات التمكين والتكوين ، استوى على العرش وينزل إلى السماء لاستغفار المستغفرين والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات باليمين ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] أبدعه من نطفة حقيرة وسفره في إقليم الأطوار ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧] سلط عليه الشهوة ليعلم أنه ذليل مهين ، فأهل المعاصي جفت من عيونهم دموع العبرات فلا معين ولا معين ، والأحباب بالباب يناديهم حبيبهم نداء المحبين : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] والحمد لله الذي لا تغيره الحوادث ولا يبليه تعاقب الأزمان والدهور . الأول من عدد ، الآخر لا بالمدد ، الظاهر لا بالرصد ، الباطن فلا يحد ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا عنصر ، تقدس من حجابه النور ، المعطل أكمه والجاحد أعمى والمجسم أعشى والمشبه في سجن الجهل مأسور ، أنزل من المعصرات ماء أحيا به النبات منظومه والمنثور ، نقله إلى الأغذية فتولد منه المنيّ لإيجاد الإناث من الحيوان والذكور ، ليظهر فيهم فضله وعدله فهذا مجبور وهذا مكسور ، نقش في ألواح أرواحهم يوم الإيجاد حروف الحبور والثبور ، فكل منهم يجري لما لا يدري ، غيب عنهم عواقب الأمور ، ثم رماها بسهم المنية الصائب فأصاب منهم

النحور ، ثم عزاهم بقوله ليعلموا عدله في قضائه وأنه لا يجور ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] فسبحان من يقضي ولا يقضى عليه يكسر الصحيح ويجبر المكسور ، أحمده حمد من يرجو رحمته لعلمه أنه الرحيم الغفور ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أعدّها ليوم النشور ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله شفيع الأمم يوم يبعث من في القبور ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما دامت الأزمان والعصور .

[إخواني] : لقد خسر من طلب الفاني وهو عنه راحل ، أما يشاهد حادي الجديدين وهو يطوي من العمر المراحل ، أما الليل والنهار مرصدان لحمل الأعمار بالرواحل ، أما ترى من قال تحت ظلها كيف زال بظلها الزائل ؟ أما ترى من عمر ألف عام إذا سئل قال : لبثت أياماً قلائل ؟ أما ترى من شيد الحصون وعقل العقائل ؟ أبادهم بسف الحمام فكل عن ملكه زائل ؟ أين نوح وعاد وثمود وتبع والملوك الأوائل ؟ أين من ملكها شرقاً وغرباً رحل وما حَظِيَ منها بطائل ؟ نقل إلى بيت مظلم فاستوى فيه ذو السطان والخامل ، اندرست معالمهم وعادت دروساً تدرس ليعتبر الظالم والجاهل أما تسمع نداءهم وهم صموت ؟ أما تتعظ بهم يا عاقل ؟ أين شداد والنعمان ؟ أين كسرى والإيوان ؟ أين ملوك بابل ؟ أبادهم الحدثان ليوم يقومون فيه على ما قدموه ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] .

[كان وكان]

لا تـأمنن الـدنيا ... وقـد أرتـك خـداعها ... كـم مـن رفيـع شـامخ ... إلى البلـى جلبـوه

فازرع إذا شئت تحصـد ... وجـد في طلب العـلا ... وثـق بوعـد المـولى ... في كـل مـا ترجـوه

واعلـم بـأن النـاجي ... يوم القيامـة مـن لظـى ... يـوم أطـاعوا المـولى ... جهـراً ولم يعصـوه

قد خص أهل السعاده ... بنـور علـم المعرفـه ... وزاد أهـل الشـقاوة ... جهـلاً فمـا عرفـوه

فاعمـل ليـوم تسـودّ ... فيه الوجوه مـن الشقا ... كـذا لأهـل السـعادة ... تبـيضّ فيـه وجـوه

[قال عبد الواحد بن زيد رحمه الله] : سألت الله تبارك وتعالى ثلاث ليال أن يُرِيَني رفيقي في الجنة فرأيت كأن قائلاً يقول لي : يا عبد الواحد رفيقك في الجنة ميمونة السوداء ، فقلت : وأين هي ؟ قال : في آل بني فلان بالكوفة . قال : فخرجت إلى الكوفة وسألت عنها فقيل : هي مجنونة بين ظهرانينا ترعى غنيمات لنا . فقلت : أريد أن أراها فقالوا : اخرج إلى الجبال فخرجت فإذا هي قائمة تصلي وبين يديها عكاز لها وعليها جبة من صوت مكتوب عليها لا تباع ولا تشترى وإذا الغنم مع الذئاب فلا الذئاب تأكل الغنم ولا الغنم تخاف من الذئاب . فلما رأتني أوجزت في صلاتها ثم قالت : ارجع يا بْنَ زيد ليس الموعد ههنا ، إنما الموعد في

الجنة ، فقلت : يرحمك الله ومن أعلمك أني ابن زيد ؟ فقلت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ! فقلت لها : عظيني فقالت : واعجباً بواعظ يوعظ ! ثم قالت : يا بْنَ زيد إنك لو وضعت معايير القسط على جوارحك لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها ، يا بَنْ زيد إنه بلغني أنه ما من عبد أعطي من الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله عز وجلّ حبّ الخلوة معه ، وبدّله بعد القرب البعد ، وبعد الأنس الوحشة ، ثم أنشأت تقول :

يا واعظاً جاء بالعيوب ... يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى وأنت السقيم حقّا ... هذا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا ... عيبك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبي ... موضع صدق من القلوب
تنهى عن الغيّ والتمادي ... وأنت في النهي كالمريب

فقلت لها : إني أرى هذه الذئاب مع الغنم فلا الغنم تفزع من الذئاب ولا الذئاب تأكل الغنم فأيّ شيء هذا ؟ فقالت : إليك عني فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي ، فأصلح ما بين الذئاب والغنم ، ثم أنشأت تقول :

لو كنت لي يوم اللقا معينا ... لم يردوا ماء اللوى معينا
لولا الهوى لم أدر ما طعم الردى ... ولا أذعت سرّي المصونا
تصدّ ليلى كل يوم جفوة ... تبدلنا من الأسى فنونا
بانوا ففي الأحشاء منهم لوعة ... يمنعها الغرام أن تبينا
لهفي على بعد الحمى وقد أرى ... تلهفي من بعدهم جنونا
حرمتمو طرفي على النوم فما ... أظن نومي يعرف الجفونا
حاشى لسمعي أن يرى مستمعاً ... عذلاً وحاشى أن يرى مفتونا

[إخواني] هذه علامات الصادقين ، إخواني هذه مدائح المؤمنين ، إخواني هذه آثار المتقين ، إخواني هذه روضات السابقين ، يا من تحير في طريق المعاصي الطريق قريب ، يا من أوبقته الزلات بادر بالتوبة تصيب ، يا من توالى في المعاصي ارجع فالذي دعاك يجيب ، إخواني كأنكم بقاطع الآمال قد هجم ، ونقلكم إلى بيت الديدان والظلم وفرق من شمل الأحباب ما انتظم ، وقد ندم المفرط حيث لا ينفعه الندم على ذهاب الأعمار في الأيام الخالية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] ويحك أما تحذر من بوعيده حذرك ، أما تستحي ممن أوجدك وصوّرك كأني بك والله وقد نسيك الحبيب وأفردك ، وإلى ضيق قبرك أوردك ، وعادت قلوب حزنة عليك سالية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] .

واحسرتي واشوقي من يوم نشر كتابيه
واطول حزني إن أكن أوتيته بشماليه
وإذا سئلت عن الخطا ماذا يكون جوابيه
واحرّ قلبي أن يكون مع القلوب القاسيه
كلا ولا قدمت لي عملاً ليوم حسابيه
بل أنني لشقاوتي وقساوتي وعذابيه
بارزت بالزلات في أيام دهر خاليه
من ليس يخفى عنه من قبح المعاصي خافيه
أستغفر الله العظيم وتبت من أفعاليه
فعسى الإلّه يجود لي بالعفو ثم العافيه

وحكي أن عمر بن عبد العزيز ﷺ شيع جنازة ، فلما اصطف الناس تأخر عنها ، فقال له أصحابه : يا أمير المؤمنين جنازة أنت وليها تأخرت عنها وتركتها ؟ فقال : إني ما تأخرت عنها إلا لأن القبر ناداني من خلفي يا عمر بن عبد العزيز ألا تسألني ما صنعت بالأحبة ؟ فقلت له : وما صنعت بهم ؟ فقال : خرقت الأكفان ومزقت الأبدان ومصصت الدم وأكلت اللحم ، ألا تسألني ما صنعت بالأوصال ؟ فقلت له : ما صنعت بها ؟ فقال : فرقت الكتفين من الذراعين والركبتين من الساقين والساقين من القدمين ثم بكى عمر ، وقال : إن الدنيا بقاؤها قليل وعزيزها ذليل وغنيها فقير ، وشبابها يهرم وحيها يموت ، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها ، أين قراء القرآن ؟ أين حجاج بيت الله الحرام : أين صوّام شهر رمضان ؟ ما صنع التراب بأبدانهم والديدان بأجسادهم والبلى بعظامهم وأوصالهم ؟ كانوا والله في الدنيا على أسرة ممهدة ، وفرش منضدة ، بين خدم يخدمون ، وأهل يكرمون . أليس هم بعدها في مدلهمة ظلماء قد حيل بينهم وبين العمل فارقوا الأهل والوطن ، قد فارقوا الحدائق وصاروا بعد السعة في المضايق ، وتزوّجت نساؤهم وتردّدت في الطرقات أبناؤهم وتوزعت القرابات ديارهم وتراثهم . فمنهم والله الموسع له في قبره ، ومنهم والله المضيق عليه في لحده . هيهات هيهات يا مغمض الوالد والأخ والولد وغاسله ، ويا مكفن الميت وحامله ، يا محله في القبر وراجعاً عنه ليت شعري بأيّ خديه يبدأ البلى ، ثم بكى حتى غشي عليه وما بقي إلا جمعة ومات رحمة الله عليه :

ضعوا خدّي على لحدي ضعوه ومن عفر التراب فسوّدوه
وشقوا عنه أكفاناً رقاقاً وفي الرمس البعيد فغيبوه
فلو أبصرتموه إذا تقضت صبيحة ثالث أنكرتموه
وقد مالت نواظر مقلتيه على وجناته ورفضتموه
وقد نادى البلا هذا فلان هلموا فانظروا هل تعرفوه
حبيبكمو وجاركم المفدى تقادم عهده فنسيتموه

[أخي] دنا والله من زرعك الحصاد ، فإلى متى التمادي والرقاد ، وبين يديك أهوال يوم المعاد ، يوم يفرّ الوالد فيه من الأولاد ؟ واحزناه عليك إذ تبدّد شمل أعمالك من الأرباح ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ! فإلى متى هذه الغفلة وعلم القبول قد لاح ! يا غريقاً في بحر هواه اركب سفينة النجاة وأقلع عن أفعالك القباح ، وألق نفسك إلى ساحل الندم مولاك أهل الكرم والسماح .

[كان وكان]

قم في الدياجي وناجي	مولاك في وقت السحر	إن كنت يا متخلف	إلى السحر ترتاح
إلى متى أنت تائه	في ظلم ليل المعصيه	ارجع إلينا نقد لك	من نورنا مصباح
إلى متى كم تبارز	مولاك بالفعل الردي	انهض وبادر بتوبة	وما مضى فسماح
وقم صالح حبيبك	فذا أوان صلحه	فهو الكريم المسامح	والواهب الفتاح
يدعوك في كل ليلة	لعلّ حالك ينصلح	وأنت نائم غافل	ما تقبل الإصلاح

فانهض إذا شئت تربح واسبل دموعك في الدجى
هذا طريق السلامة ومعدن الأرباح

[بالله يا إخواني] ابسطوا الأيدي إلى المولى بالذلّ والضراعة ، وتضرعوا بالذل والانكسار في هذه الساعة ، ونادوا : يا من لا تضره المعصية ولا تنفعه الطاعة ، نسألك أن تبدل منا الفساد بالصلاح والخسران بالأرباح ، وأن تعاملنا بالعفو والسماح ، يا من مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، برحمتك يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين .

المجلس التاسع عشر

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم

الحمد لله الواحد الكريم الواجد ، القديم الواحد المنزه عن الولد والوالد ، المقدّس عن المشارك والمساعد ، والمتعالي عن الصاحب والمماثل والمضادّ والمعاند ، والمشكور على جميع النعم المحمود بجميع المحامد ، الذي يسبل ستره الجميل على العاصي وهو ناظر إليه ومشاهد ، ويمنّ برفده الجزيل ، على عبده الذليل ، ويبلغه جميع المقاصد . فسبحان مفجر الأنهار من صم الأحجار والجلامد ، ومطلع الأشجار ومزهي الأزهار من العود اليابس الجامد ، مخرج رطب الثمار من أفنان الأغصان مختلفة المطاعم والألوان صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد . هذه

بعض آثار قدرته وعجائب حكمته وصنعته ، ومن ذلك فليشاهد :

أيا من جلّ عن كيف وأين ... وعن ندّ وعن ولد ووالد
ملكت الكائنات بحسن صنع ... ولانت من مخافتك الجلامد
أذنت لها تكون فاستكانت ... وأنت على جميع الخلق شاهد
وكنت بحيث لا كون وعون ... وحاشى أن تحيط بك المعاهد
وأنت بحيث أنت وليس أين ... ولا كيف تمثله الشواهد
أحطت بجملة الأشياء علماً ... وأنت لكل ما فيها مراصد
فيا من ما له في الملك ثان ... ولا مثل وليس له مضادد
أجرنا من عذابك واعف عنا ... وبلغنا إلى نيل المقاصد
فقد عودتنا الإحسان لطفاً ... وصعب عندنا قطع العوائد

[قال يحيى بن الجلاد] : سمعت أبي رحمة الله عليه يقول : كنت عند معروف الكرخي ﷺ فدخل عليه رجل ، فقال له : يا أبا محفوظ رأيت في هذه الليلة عجباً ، قال : وما هو ؟ قال : اشتهى عليّ أهلي سمكة فذهبت إلى السوق فاشتريتها لهم وحملتها مع حمال صبيّ ومشى معي ، فلما سمع أذان الظهر ، قال لي : يا عم هل لك أن تصلي ؟ فكأنه أيقظني من غفلة فقلت : نعم فوضع الطبق الذي فيه السمكة على باب المسجد ودخل ، فقلت في نفسي : هذا الغلام قد جاد بالطبق فلا أجود أنا بالسمكة فلم يزل يتركع حتى أقيمت الصلاة فصلينا جماعة وتركع بعد الصلاة ، ثم خرجنا فإذا الطبق في مكانه لم يبرح فجئت إلى البيت وأخبرت أهلي بالذي جرى منه ، فقالوا لي : قل له يأكل معنا من هذه السمكة ، فقلت له فقال : أنا صائم ، فقلت له : تفطر عندنا : قال : نعم أرني طريق المسجد فأريته فدخل المسجد وجلس إلى أن صلينا المغرب فجئت إليه وقلت له : تقوم إلى المنزل ، فقال : حتى نصلي العشاء الآخرة فقلت في نفسي هذه ثانية ، فلما صلينا جئت به إلى منزلي وفيه ثلاثة أبيات ، بيت فيه أنا وأهلي ، وبيت فيه صبية مقعدة منذ عشرين سنة ، وبيت فيه ضيفنا فبينما أنا مع أهلي ، وإذا بالباب يطرق في آخر الليل قلت : من ؟ قالت : أنا فلانة ، قلت : إن فلانة مقعدة منذ عشرين سنة وهي قطعة لحم مطروحة في البيت كيف يستوي لها أن تمشي ، فقالت : أنا هي افتحوا لي ففتحنا لها فإذا هي قائمة مستوية فقلنا لها : أخبرينا بخبرك ؟ فقالت : سمعتكم تذكرون ضيفنا هذا بخير فوقع في نفسي أن أتوسل إلى الله تعالى به في كشف ضري فقلت : اللهم بحرمة ضيفنا هذا عندك إلا ما كشفت ضري وعافيتني فاستويت قائمة كما تروني ، قال : فقمت إليه فلم أجده في البيت فجئت إلى الباب فوجدته مغلقاً بحاله ، فقال معروف ﷺ : نعم فيهم صغار وكبار ، يعني

بذلك أولياء الله تعالى رضي الله عنهم أجمعين :

عبقت بنشر هواهمو ريح الصبا ... وإلى شذاهم كل قلب قد صبا
وتضوعت أنفاسهم ولطالما ... صمت اللسان بها فأصبح معربا
قوم إذا نزلوا بواد مجدب ... فقر تأرّج بالعبير وأعشبا
وإذا بدا البحر الأجاج لشارب ... منهم يعود من المدامة أعذبا
علم المحبة في هواهم مذهب ... فلذاك أصبح حبهم لهم مذهبا
وجدوا فؤادي منزلاً لهواهمو ... فلذاك خيم في حشاي وطنبا
قوم لهم نبأ وحال يقتضي ... شرف الجلال إذا سألت عن النبا
فيهم يزول عن السقيم سقامه ... لما غدا بجنابهم متحسبا
يجزون بالعفو الجميل مسيئهم ... والصفح عن عبد لهم قد أذنبا
هم أولياء الله حقاً في الورى ... وغداً يقال لهم جهاراً مرحبا

فللّه درّهم من أقوام عبدوه لمحبته لا لجنته ، وخدموه لوصله لا لمنحته ، فهم بنور المعرفة إليه ناظرون ، وبأجنحة الشوق إليه طائرون ، وبمناجاته في الأسحار يتلذذون ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] . قال أبو عامر الواعظ رحمة الله عليه : بينا أنا ذات ليلة أسيح في بعض الجبال إذ سمعت صوتاً يئنّ ويصيح ، من قلب قريح ويقول : يا دليل الحائرين في الفلوات يا أنيس المستوحشين في الخلوات ، أنت أنسي إذا استأنس البطالون وأنت فخري إذا افتخر الجاهلون . قال : فأسرعت نحوه وسلمت عليه ، فرد عليّ السلام وقال لي : من أين أقبلت في سواد هذا الليل وإلى أين تريد ؟ قلت : رجل ضال عن الطريق ، وقد سمعت منك كلاماً أنار بقلبي أحزانه وهيج وجده وأشجانه فصاح صيحة وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق أخذ في البكاء . قلت : ما هذا البكاء ؟ قال : إني أكره الأماني وضياع الزمان في الفاني ، ثم ولى فاتبعته فأشرف على واد فجلس وهو يبكي فقلت : يرحمك الله إني على غير الجادة فاشتد بكاؤه وصياحه ، وقال : ويحك وأين الجادة أين ذات اليمين ، أين مراتب عليين ؟ ثم ضرب على يدي وتخطى ، فإذا نحن بجانب الوادي . قلت : هذا الفجر قد طلع ونحن نحب الوضوء فضرب بيده الأرض فانفجرت عين ماء عذب ، فقال : دونك فتوضأ وتوضأت ، ثم أذن وأقام الصلاة وصلينا ، فلما سلم قال : يا عبد الله قد دنت مفارقتك فعليك السلام فقلت : بالذي أباحك الوصول إليه والإقبال عليه إلا ما مننت عليّ بدعوة ثم أومأت إلى مزودي . فقال : أجائع أنت ؟ قلت : نعم ، قال : شغلت قلبك عن التفكر في الملكوت بطلب القوت لو ذقت طعم اليقين ، وما أعد الله للمتقين لدام خشوعك ،

وسكن جوعك ثم ضرب الأرض فإذا برغيف كأنما أخرج من النار . فقال : كل فأكلت وأنا متعجب ، وفي نفسي أريد أن أسأله عن ذلك . فقال : يا بطال إن لله رجالاً صدقوا في ترك الشهوات فأخدمهم الأكوان في الحياة والممات ثم غاب عني فلم أره :

اصطفاهم لقربه واجتباهم ... وحماهم من فتنة الشيطان
ودعاهم لبابه وسقاهم ... بكؤوس من خمرة العرفان
وجزاهم بجنة ونعيم ... وقصور والحور والولدان
فهمو لا يرون هذا نعيماً ... لا ولا شوقهم لحور حسان
إنما قصدهم تجلي حبيب ... ليروا ذا الجمال رأي العيان
ويناديهمو عبادي هلموا ... تظفروا بالأمان والإحسان
فبهذا النعيم تاهوا دلالاً ... وتباهوا به على الأكوان
فبهم يدفع البلاء عن النا ... س ويحمون من سائر الحدثان
وبهم يستقي الإلّه تعالى ... غيثه عند حاجة الظمآن
فأجرنا بحقهم يا إلّهي ... من أليم العذاب والنيران
وتجاوز عما جنيناه جهلاً ... مِنْ قبيح الذنوب والعصيان
واعف عنا فإننا قد أسأنا ... ثم سامح بالعفو والغفران

فللّه درّهم من رجال ، ما تركوا في قلوبهم لغير محبوبهم مجال . قال ذو النون المصري رحمة الله عليه بينا أنا أسيح في بعض الجبال إذ مررت بواد كثير الأشجار والنبات والثمار فجعلت أتفكر في قدرة الله تعالى وحسن صنعته فسمعت صوتاً أهطل مدامعي وهيج نار أضالعي ، فاتبعت الصوت إلى باب مغارة في سفح الجبل ، وإذا الكلام يخرج من داخل المغارة فدخلت فرأيت رجلاً من أهل التعبد والاجتهاد قد براه النحول ، وعليه آثار القبول فسمعته يقول : سبحان من أحيا قلوب المشتاقين بالمناجاة بين يديه ، وكفى نفوسهم مؤنة الطلب فهي لا تعتمد إلا عليه وأفردها لمحبته فهي لا تحنّ إلا إليه ، فلما أحسّ بي ، قلت : السلام عليك يا حليف الأحزان وقرين الأشجان فقال : وعليك السلام ، ما الذي أوصلك إلى من أفرده الخوف عن الأنام ، واشتغل بمحاسبة نفسه عن التنطع في الكلام فقلت : أوصلني إليك الرغبة في التصفح والاعتبار ، والتنزه في رياض الأسرار الأولياء الأخيار . فقال : يا فتى إن لله عباداً قدح في قلوبهم زناد الشغف بمحبوبهم فأرواحهم لشدة الشوق إليه تسرح في الملكوت وتنظر إلى ما ادّخر لها في خزائن الجبروت فأعينهم إلى جماله ناظرة وقلوبهم بمحبته عامرة وأرواحهم إلى لقائه طائرة فهم ملوك الدنيا والآخرة ، ثم بكى وقال : يا سيدي لأعمالهم وفقني وبهم فألحقني ثم صاح

ووقع إلى الأرض ميتاً ، هذه والله صفات الخائفين رحمة الله عليه ، وهذه علامة العارفين :

للّـه قـوم أطـاعوه ومـا قصـدوا سـواه إن نظـروا الأكـوان بـالعبر
والوجـد والشـوق والأفكـار قـوتهم ولازمـوا الجـدّ والإدلاج في البكـر
وبـادروا لرضـا مولاهمـو وسـعوا قصـد السـبيل إليـه سـعي مـؤتمر
وآمنـوا واسـتقاموا مثـل مـا أمـروا واستغرقوا وقتهم في الصوم والسهر
وجاهـدوا وانتـهوا عمـا يباعـدهم عـن بابـه واسـتلانوا كـل ذي وعـر
جنـات عـدن لهـم مـا يشـتهون بهـا في مقعد الصدق بين الـروض والزهـر
لهـم مـن الله مـا لا شـيء يعدلـه سمـاع تسـليمه والفـوز بـالنظر

[وعن عبد الرحمن الأزدي] قال : كنت أطوف في ساحل بيروت فمررت برجل جالس على البحر ورجلاه في الماء ، وهو يقول : سبحان من في السماء عرشه ، سبحان من في الأرض حكمه ، سبحان من في الهواء قدرته ، سبحان من في البحر سلطانه ثم سكت ، فقلت له : ما لك جالساً وحدك ؟ فقال : اتق الله عزّ وجل ولا تقل إلا حقاً ما كنت قط وحدي منذ خلقت ، وإن معي ربي حيث كنت ومعي ملكان يحفظاني ويحفظان عليّ فقلت له : أين مقامك ؟ قال : ليس لي مقام معروف ولا كان مخصوص ، قلت : فمن أين تأكل ؟ قال : إذا عرضت لي حاجة إلى ربي سألته إياها بقلبي ولم أسأله بلساني فيأتيني بها . قلت : فبم نلت هذه المرتبة ؟ قال : بصدق التوكل عليه والالتجاء دون الناس إليه ، قلت : قد وجب عليك أن تدعو لنا فقال : ما أنا من خيل هذا الميدان ، ولكن أنت أحق بذلك فقلت : لا بدّ أن توصيني بشيء فقال : قف ذليلاً على بابه ولا تبرح عن جنابه يوصلك إلى حضرة أحبابه ثم مشى على البحر حتى غاب عن عياني :

شـاهدوه وقـد تجلـى فتـابوا وحـلا للمحـب فيـه العـذاب
شـربوا شـربة فأضـحوا سـكارى ليـت شعري يـا صـاح مـاذا الشراب
كتبـوا بالـدموع قصـة شـوق فأتـاهم مـن الحبيـب الجـواب
ركبـوا بحـر حبـه ثم سـاروا ودعـاهم لوصـله فأجـابوا
فهمـو بالجسـوم بـين البرايـا حضـروا عنـد حبـهم ثم غـابوا
وهمـو في الثيـاب لم يبـق منـهم غـير رسـم تضـمه الأثـواب
فـاقتفي إثـرهم وجـز بحمـاهم يأتـك الفـوز والمـنى والصـواب

[إخواني] عبارات النسيم لا يفهمها إلا المشتاق وحديث البروق لا يروق إلا للعشاق ، خلوا والله بالحبيب في دار المناجاة فكساهم ثياب المواصلة وضمخهم بطيب المعاملة وغالية

السحر غالية ﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٤] فيصبحون وقد كساهم السحر نحولاً وسقاماً ، فازوا بالله ثم بالربح والغنائم وأنت يا مسكين في بيداء الغفلة نائم ، ألك علم بما جرى للقوم يا أسير الغفلة والنوم ؟

[حكي] أن علي بن بكار وأبا إسحاق الفزاري وكانا من الأولياء الصالحين كانا يحتطبان ويأكلان من كسبهما فاتفقا أن يصعدا إلى الجبل من الغداة فيحتطبا ويساعد بعضهما بعضاً فسبق عليّ بن بكار إلى الجبل فاحتطب حزمة وأبطأ عليه رفيقه فجعل يطوف عليه الجبل فرآه وهو جالس متربع وفي حجره رأس أسد وهو ينش الذباب عنه فقال : يا أبا إسحاق ما هذا ؟ فقال له : التجأ إليّ فرحمته وأنا أنتظره لينتبه وألحقك فتركه عليّ بن بكار ومضى فرأى صخرة عليها كيس فيه ألف دينار وقد علاه الغبار والتراب فقال في نفسه : آخذه وأتصدّق به فنزل من الجبل فمرّ بعبد أسود وهو مطروح على وجهه وهو مكسور الرجل وعند رأسه حزمة حطب كان يروم بيعها فقال : ما أجد لصرف هذا الذهب موضعاً أحق من هذا العبد فأخرج من الكيس عشرة دنانير وأتى إليه وقال له : خذ هذه واستعن بها على حالك فرفع العبد رأسه إليه ، وقال له : ضع هذا الذهب مكانه ولا تتصدق بغير كسبك فأنا والله لي سنة أمرّ كل يوم على الكيس وهو ملقى على الصخرة ولم أعلم ما فيه فكيف رغبت أنت في الدنيا وأخذت ما لا يحل لك أخذه ؟ قال عليّ : فخجلت من كلامه وعلمت أنه من الأولياء ثم رددت الكيس إلى مكانه ورجعت إلى العبد فلم أره فسألت عنه فقيل لي : إنه يأتي في كل أسبوع مرة بحزمة حطب فيبعها بدرهم فيتقوّت به باقي الأسبوع ولا يأخذ من أحد شيئاً فهذه والله أحوال الزاهدين وهذه صفات الصالحين . قال بعض السادة : خرجت ليلة من المسجد الحرام أريد جبل أبي قبيس فصحبني عبد أسود عليه أطمار رثة ، وهو يقول : أنت أنت يا هو يا هو لا يزيد على ذلك شيئاً ، فلما أكثر من القول قلت : يا هذا أمجنون أنت ؟ فقال : يا شيخ إنما المجنون من يمشي ألف خطوة ولم يذكر مولاه ، فقلت له : أفضل الذكر عند المحققين ما كان بالقلب فقال : صدقت ، ولكن القلب إذا امتلأ بالذكر فاض على اللسان ثم غاب عن عيني فلم أره فندمت على جفائي عليه ، فلما كان الليل ونمت هتف بي هاتف وقال : يا شيخ إن لذلك العبد الأسود يوم القيامة نوراً يملأ ما بين السماء والأرض فللّه در أقوام أعيادهم قبول الأعمال ومرادهم بلوغ الآمال وأحوالهم تجري على تمام وكمال وجمالهم بالتقوى ويا له من جمال إذا رجع الناس إلى لذاتهم رجعوا إلى عباداتهم وإذا سكن الخلق إلى أوطانهم سكنوا إلى حرقات أشجانهم وإذا أقبل التجار على أموالهم أقبلوا على تفقد أحوالهم وإذا التذ الغافلون بالنوم على جنوبهم تلذذوا في الدجى بكلام محبوبهم ، مثلوا الآخرة بين أيديهم فجدّوا ، ومثلوا المنادي يناديهم فاستعدوا ، وأقبلوا

بالصدق إلى باب مولاهم فما ردّوا ، أقلقهم ذكر الذنوب فما ناموا ، وحركهم رجاء المطلوب فقاموا ، وذكروا العرض ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] فاستقاموا ، وتفكروا في قصر الأجل فاجتهدوا في الخدمة وداموا ، وتذكروا سالف الذنوب فوبخوا أنفسهم ولاموا ، وراموا السلامة في دار المقامة فبلغوا ما أملوا وراموا ، فانتبه يا هذا من رقدة إعراضك وتجافيك وأصلح ظاهرك بالتقى قبل أن يعسر تلافيك ، وتزوّد للرحيل فالقليل لا يكفيك ، وامح ذنوبك بكف الإنابة لعل مولاك من خطاياك يعفيك ، وداو أمراض أملك بشراب ذكر أجلك ، وسل المولى لعله يشفيك :

لكم مهجتي والروح والجسم والقلب ... وكلي لكم ملك وإني بكم صب
وأنتم أحبائي على كل حالة ... فيا فرحتي إن صح لي فيكم الحب
نأيتم فعيني دمعها متواصل ... عليكم وقلبي لا يفارقه الكرب
وكم أتمنى أن أسير إليكمو ... فيمنعني حظي وما تنفع الكتب
خليليّ إن عاينتما أرض يثرب ... وعند رسول الله قد نزل الركب
فقولا له يا أحمد يا محمد ... محب عن الزوّار عوّقه الذنب
عسى جاهك المقبول يكشف غمه ... فجاهك يا مختار يرضى به الرب
فأنت الذي لولاك لم يخلق امرؤ ... ولا فلك يجري ولا غصن رطب
ووجهك بدر في سما الحسن مشرق ... أضاءت به الآفاق والشرق والغرب
على وجهه ستر الغمامة مسبل ... لكيلا تراه الشمس تكسف أو تخبو
على شط بحر النور جبريل قائل ... مقامي هذا ما على صادق عتب
دنا فتدلى حين في النور زجه ... بلا كيف لكن حيث شاء له الرب
جلاه على الأملاك جبريل في السما ... وكانت له من قبل مبعثه تصبو
إلـهي بما في قاب قوسين ناله ... أجرنا فإن النار تعذيبها صعب
وكن لي فإني من عذابك مشفق ... بأحمد داركني إذا عظم الخطب
وصلّ على خير الأنام محمد ... وأصحابه في جمعهم وجب الحب

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

المجلس العشرون

في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

[مريم : ٣٩]

الحمد لله الذي فتح بصائر أوليائه لمشاهدة مشاهد عجائب الاعتبار والعبر ، واستخلص هممهم بصفاء المناجاة ولذة المصافاة من شواغل الأسباب وشوائب الكدر ، تقلبهم يد الألطاف في مهد اللطف فترضعهم ثدي العطف وتفطمهم عن الشهوات المانعة نور البصائر والبصر ، فأصبحت قلوبهم راضية بتعاقب الأحكام وتدبير المشيئة وتقدير الإرادة وتصريف القدر ، مهد لهم فرش الأعمال بلين الصفاء فاستعذبوا طيب الخلوة مع الحبيب ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] يتلذذون بالسهر ، لا تغيرهم محدثات الحوادث وتحوّل الأحوال لاستغراق أسرارهم في أودية التذكر وبحار الفكر ، نزهوا نفوسهم عن عبادة الهوى فأضحت أطيار أرواحهم تسرح في رياض الملكوت بين جنات المعارف ونهر ، لاحظوا إشارة التوحيد في الأكوان فاستوى عندهم الفقر والغنى والعزّ والذلّ والمدح والذم والسهل والوعر ، فسبحان من هداهم إلى نهج منهاج الخلاص بالإخلاص فتخلصوا من شباك الأكوان وطاروا إلى أوطار القرب لا يحزنهم الفزع الأكبر ، أحمده وأشكره ، وأؤمن به وأتوكل عليه وأبرأ من الحول والقوة إليه براءة من اعترف بالتقصير وأقرّ ؛ وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة من شاهد جمال الحضرة المقدسة واستحضر بحسن الخاتمة فحضر ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وصفوة المرسلين ، وإمام المتقين رسيد البشر ، ﷺ وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في دين الله حتى ارتفعت أعلامه على الأديان وظهر .

[إخواني] كم تحملون أحمال الأوزار وهي ثقال ، وكم تبارزون بالمعاصي ذا الجلال وكم تتعللون بالتسويف والآمال ، وكم تتبعون الشهوات وهي خيال . وكم تطمعون في البقاء وقد دنا الانتقال وكم قيدتكم الأماني من التواني بالأغلال . وكم أنذركم من رحل من الأحباب بالارتحال . أين من حصن الحصون وشيدها ؟ أين من جمع الأموال وعددها ؟ أين من عمر الحدائق وغرسها ؟ أين من قاد الجيوش وساسها ؟ أزعجه والله هاذم اللذات من غير اختياره . وأخرجه كرهاً من أهله وداره ولم يمهله ساعة ولم يداره . وقطعه عن آماله وأوطاره . وحال بينه وبين أعوانه وأنصاره . كم دموع من الأسف عند الحمام سواكب على ما مضى من أيام البطالة

في المصائب . وقد شابت في الشهوات الذوائب . فيا له من وقت لا ينفع فيه الحبائب . ولا يغني في النائح والنادب . قضي الأمر فما ينفع العتاب للمعاتب . يا مغتراً بالآمال رب أمل خائب . كم ينام المطلوب ولا ينام عنه الطالب . ستدري في ظلمة اللحد عاقبة العواقب . وما أمليت من أعمالك على الكاتب . وبعده هول الموقف بين يدي المحاسب . ويبدو لك مسوف أمله الكاذب . هناك والله تضيق المذاهب . وتبدو الخيبة والحسرة والمصائب ، فاغتنموا رحمكم الله أيام أعماركم الفانية ، فسيندم والله أهل القلوب القاسية ، إذا فاز المتقون ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر : ٧٨] ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] الإنذار هو التخويف ، يوم الحسرة هو يوم القيامة : أي يوم يتحسر المسيء إذ لم يحسن والمقصر في الخيرات إذ لم يتزايد . ومعنى قضي الأمر : أي فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار وهم في غفلة ، هذا خطاب في الدنيا . وهم لا يؤمنون خطاب في الآخرة : أي لم يردّوا فيؤمنوا . روى عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها نودوا أن اصرفوهم عنها فلا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا كان أهون علينا . قال : ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتم وبارزتموني بالمعاصي وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم . هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني ، فاليوم أذيقكم أليم عذابي مع ما حرمتكم من ثواب الآخرة » . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت والتوابيت في توابيت فلا يظن أحدهم أنه بقي في النار من يعذب سواه ، وليست نفس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار ، يقال لهؤلاء لو عملتم ، ويقال لأهل الجنة : لولا أن منّ الله عليكم . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كأني بكم صادرين عن الحوض يلقى الرجل الرجل فيقول : أشربت ؟ فيقول : نعم ، ويلقى الرجل الرجل فيقول : واعطشاه ، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: إن ملكاً موكل بالميزان ، فإذا ثقل ميزان إنسان نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خفت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً . وقال قتادة رضي الله عنه لم يجرم أحد فيخفى جرمه على أحد يوم القيامة .

[إخواني] أهل القبور قد أسروا ، وأكثر القوم في تجارتهم خسروا ، فمروا أنتم عليهم واعتبروا ، وتفكروا في أحوالهم وانظروا ، يتمنون العود وهيهات ، ويسألون التدارك وقد فات ، يا مطلقاً اذكر قيودهم ، يا متحركاً قد عرفت همومهم ، خلص نفسك من أسر الذنوب

وتأهب فإنك مطلوب ، وتذكر بقلبك يوماً تتقلب فيه القلوب ، قبل أن يمسك اللسان ويتحير الإنسان ويزول العرفان ، وتنشر الأكفان وتزول الحضرة وتطول السفرة ويأتي منكر ونكير ويقوى الشهيق والزفير ويلقى العبد ما أسفله وينساه من خلفه ، ويبقى هنالك أسيراً إلى أن يعود فيقوم عرياناً حسيراً ، فحينئذ تسلب الكرائم ، وتنشر الجرائم وتعظم المصائب ، وتنسد المذاهب ، وتبين العجائب وتسود الوجوه ويفوت العاصي ما يرجوه وتثقل على الظهور الأوزار ، ويؤخذ الكتاب باليمين أو اليسار ، وليس لأحد هنالك قرار إلا الجنة أو النار ، فبادروا رحمكم الله بالمتاب قبل ما تعاينون هذه الأهوال وتشهدون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] قال مسمع بن عاصم رحمه الله : بتّ أنا وعبد العزيز ابن سليمان وكلاب بن حرب وسلمان بن الأعرج على بعض السواحل فبكى كلاب حتى خشيت أن يموت ثم بكى عبد العزيز لبكائه ثم بكى سلمان لبكائه وبكيت أنا والله لبكائهم لا أدري ما أبكاهم ؟ فلما كان بعد ذلك سألت عبد العزيز : ما أبكاك ؟ فقال : إني والله العظيم نظرت إلى أمواج البحر فذكرت أطباق جهنم وزفراتها فذاك الذي أبكاني ثم سألت كلاباً فقال مثل ذلك ثم سألت سلمان فقال : ما كان في القوم شر مني ما كان بكائي إلا لبكائهم رحمة لهم مما كانوا يصنعون بأنفسهم :

قف يا صاح نبكي الدمنا ... بعد من قد كان فيها سكنا
وننادي من غرام مقلق ... بعدهم في دارهم واحزنا
طالما كنا بها في دعة ... نجتني من وصلهم ما يجتنى
كم بلغنا من أكناف الحمى ... من لبنات المنى ما سرنا
وافترقنا فكأنا لم نكن ... أبداً في الدار نولي المننا
ليت روحي قبل أن فارقتهم ... فارقت من قبل ذاك البدنا
يا أصيحابي انتهوا وانتهزوا ... فرصة الأوقات فالموت دنا

[إخواني] كأني بكم وقد بلغتم يومكم الموعود وغافصكم ما لم تفتدوا منه بوالد ولا مولود ، مقام تشهد عليكم فيه الألسنة والجوارح والجلود ، ولا يوجد التجلد على النار والجمر ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] قال الجنيد رحمة الله عليه : دخلت على سري السقطي عند الموت وكان ممن أحرق قلبه الخوف فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال :

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ... والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروح عليه فقال : كيف يجد ريح المروحة من قلبه يحترق ؟ ثم أنشد :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى والشوق والقلق

ثم ذكر الله ومات رحمه الله .

[إخواني] ما الذي أعددتم من حلاوة الطاعة لتجرع مرارة الموت ، وما الذي قدّمتموه من زاد التقوى قبل حلول الفوت ، وما الذي حجب أسماع الغافلين عن سماع الصوت ، يا من خلا بالمعاصي ليتك ما خلوت كم ينادي الغافلين منادي المواعظ فلا يستجيبون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال إبراهيم التيمي رحمه الله : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها ثم قلت لنفسي : ما تريدين ؟ قالت : أردّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً قلت : فأنت في الأمنية فاعملي :

يا نفس قد طاب في إمهالك العمل فاستدركي قبل أن يدنو لك الأجل
إلى متى أنت في لهو وفي لعب يغرّك الخادعان الحرص والأمل
وأنت في سكر لهو ليس يدافعه عن قلبك الناصحان العتب والعذل
تزوّدي لطريق أنت سالكة فيها فعما قليل يأتك المثل
ولا تغرك أيام الشباب ففي أعقابها الموبقان الشيب والأجل
يا نفس توبي من العصيان واجتهدي ولا يغرنك الإبعاد والملل
ثم احذري موقفاً صعباً لشدته يغشى الورى المتلفان الحزن والوجل
ويختم الفم والأعضاء ناطقة ويظهر المفصحان الخط والخطل
ويحكم الله بين الناس معدلة فتذكر الحالتان البرّ والزلل

[إخواني] تداركوا ما فرطتم في أيام البطالة فسيلقى كل عامل منكم أعماله يوم يستقيل فلا يجاب إلى الإقالة ويعض أنامله بالندم على الضلالة فيا لها حسرة ما أهولها ورقدة في التراب ما أطولها بالله عليكم نوحوا على أيام الغفلات بالله عليكم تفكروا في مصارع الأموات بالله عليكم بادروا باب الحبيب قبل الفوات فكأني بكم قد غافصكم المنون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

[إخواني] فكوا أنفسكم من أسر الشهوات ، وأيقظوا عقولكم من سكرة الغفلات ، واستعدوا لدار البقاء قبل الفوات فكأني بكم وقد وافاكم حادي المنون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ

قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ستجري والله دموعك أسفاً وحزناً ويشخص لملك الموت البصير الذي بصر نورنا وتبقى على الصراط بأعمالك مرتهناً وتبدو قبائح أفعالك من السر إلى الجهر وتذرف منك والله العيون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هيهات بعد فوات الأعمار لا تنفع الحسرة وعند انقطاع الآمال لا تفيد الفكرة ليت شعري ما جوابكم يوم الحيرة إذا نودي : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥] ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إلـهي من لعبيدك أخجلتهم المعاصي والذنوب من لآبق أبعده عن الباب قبيح الزلات والعيوب عفوك يا علام الغيوب فقد حسنا برحمتك الظنون . إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشد مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم سيدي ما أبلغ قصتي أدل غيري وأنا الحائر . إلـهي جد بالعفو عن مذكر متكلف وسامع متخلف . إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وتردّ الدليل . إلـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

المجلس الحادي والعشرون

في قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ـ ٢]

الحمد لله الذي برهن باهر قدرته على إثبات ثبات وحدانيته ببرهان وجود الموجودات الباطنة والظاهرة ، جعل دلائل الحكم وبراهين القدم وآيات الإبداع وشواهد الاختراع نطقاً لقارىء الأفكار على سطور الكائنات الواردة والصادرة كتب رسول القضاء بقلم القدر في دروج الموجودات لا تقرأ كتابة أسرارها إلا بألسنة الأرواح الصافية الطاهرة . بعث كواكب الفهم لعيون العقول فشاهدت عجائب الجبر وغرائب القهر في إثبات الكسب في ديوان ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] سكر العقل من خمرة العجز وظهر له خيالات الصور من وراء ستر العيب على بساط الحركات والسكنات مقهورة في باطنها وفي ظاهرها قاهرة ، أطلق لمريد العقل طرف الطرف على أرض الفكر ليصل إلى مدينة الإدراك فانقضّ عليه فارس القدر فأوقفه على حدّ العقول حد يقف عنده فعلم أن

قواه عن الإدراك قاصرة ، رفع العقل بصر الأبصار فشاهد مراتب الأملاك في مناصب الأفلاك فساجد بالهيبة وراكع بالعظمة وقائم بالقدرة وذاهل بالمحبة وشاخص لامتثال الأمر في البسائط والمركبات والأدوار الدائرة ، وخفض مرآة الاعتبار فقابلت صور الكائنات عن العدم بإرادة الندم فظهر له سرائر الصنعة في إقامة برهان الأشكال من مشكلات الطبائع المتعاندة المتنافرة شاهدنا الحرارة وماء البرودة مجموعة في خزائن الحيوان ، فلا الحرارة تقي البرودة ولا البرودة تقي الحرارة قدرة قادر قدرته في المقدورات باهرة ، حير الألباب في قسمة أجزاء الغذاء الواحد تنفصل منه الحرارة للحارّ والبرودة للبارد بأوزان من المقادير فالماء واحد والغذاء واحد وسرّ القسمة مختلف بحكمة لا تشاهدها البصائر الباصرة ، نادى حكيم حكمته أسماع العقول : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] من الأرزاق والآجال والشقاوة والسعادة والقرب والبعد فيا ليت شعري بم سبق الكتاب ؟ وكيف الخلاص من هذه الدائرة ، قدرة قادر لا تتعلق يد النقائص بذيل حكمته ولا تتشبث أنامل الإبادة في تغيير صمديته ولا يطمع طامع الغير في تبديل كلمته ولا تعلل العقول أسرار مشيئته ، فإن عللت بقيت في ليل الجهل حائرة ، قدم بين يدي تقديره زمام أم الكتاب ، وأمر كاتب القضاء بقلم القدر بكتابة أسرار المقرّبين والمبعدين فقرب بلا علة وأبعد بلا سبب وختمه بخاتم السابقة فهي غائبة حاضرة ، محا وكتب ونسخ وأثبت وأبعد وقرب وهدى وأضلّ وأعزّ وأذلّ وأمر أفهام العقول بفهم الرموز ، وكيف تدرك العقول القاصرة . فباللّه يا أخي كيف الحيلة وما السبب ؟ وبم سبق الأقدار ، ومن الرابح في أعماله ومن أعماله خاسرة ؟ فسبحان من غمض بصائر الباصرين ، عن مشاهدة أسراره بستر التركيب ، وحجب الطبائع في سرادقات التكاليف فافتقرت إلى مرشد الرسالة على توالي الدهور الداهرة . أحمده وأؤمن به وأتوكل عليه وأبرأ من الحول والقوة إليه ، براءة عبد معترف بما كسبت يداه من الزلات مفتقر إلى رحمته العامرة ، أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له المنزه عن الكمّ والكيف والأين والزمان والمكان والكل والجزء والفوق والتحت واليمين والشمال والوراء والأمام . فهذه صفات الأجسام الفانية الغائرة . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأولّين والآخرين والمرسلين وسلطان الصديقين وإمام المقرّبين ، وقائد الغرّ المحجلين إلى جنات النعيم ، التي قال في حقها ذو القدرة الباهرة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة ٢٢ - ٢٣] صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأنصاره صلاة تؤمن روعنا يوم ترى القلوب من الأهوال خائفة طائرة . أيها الناس : أين الذين جمعوا الأموال ولم يغنهم ما جمعوا ، أما كلهم في القبور جمعوا ، أين الذي قطعوا أيامهم

في الشهوات وما شبعوا ، أتراهم أعجبهم المقام أم حبسوا فما رجعوا ؟ أين الذين غرّتهم الدنيا خذلوا والله بالشهوات وخدعوا ، أين الذين نصبت لهم الأسباب شباك الغفلة حتى وقعوا ؟ نزل بهم مفرّق الأحباب فذلوا لسطوته وخضعوا ، أزعجهم من بين الأهل والأحباب وقد فجعوا ، يبكيه أهله وأحبابه يا ليتهم نجحوا ، أفردوه بأعماله ونسوه وانقطعوا ، يناديهم بلسان الحسرات يا ليتهم سمعوا ، ارحموا من صار رهيناً في التراب بلا عمل ينجيه ولا مفزع يؤويه هيهات شربوا كأس الأسف والندامة وتجرعوا ، مزقت الديدان أوصالهم فتقطعوا يودّون لو ردوا أفصاموا بالنهار وبالليل ما هجعوا ، هيهات والله قد حصوا من أعمالهم ما زرعوا ، فبادروا رحمكم الله فبين أيديكم الصراط والحساب ، وأهوال من سكرات الموت صعاب . ويوم تنقطع في الأرحام والأنساب ، ولا ينفع فيه الأهل والأموال والأسباب ، إما نعيم في الجنان أو تقلب في العذاب ، وكل ينادي بلسان الحسرات يا ويلتنا ما لهذا الكتاب . فيا من قادتهم الشهوات إلى الحفائر ، يا من دنس الحرام منهم البواطن والظواهر ، ويا من أعماهم الهوى فعميت منهم البصائر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ – ٢] . قوله تبارك وتعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ أي شغلكم ، يقال لها بمعنى لعب ولهى عن الشيء غفل ، والتكاثر هو تكلف الكثرة ، والتكاثر أيضاً التفاخر بالكثرة في المال والأولاد والأنساب حتى أدرككم الموت . وهذا خطاب ظاهر في الدنيا إذا كان معنى زرتم مستقبلاً ، أي حتى تزوروا المقابر ، وباطن هذا الخطاب هو قوله تعالى لجامعي الأموال وأهل التفاخر : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ – ٢] أي ليس الأمر الذي يكون التكاثر عليه ، ويحتمل أن يكون توكيداً ينوب عن اليمين ، ويحتمل أن يكون ردعاً وزجراً عن التكاثر والافتخار ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٣] أي ستعلمون بعد هذا ما يحاسب عليه أهل التكاثر في عرصات القيامة ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٤] ذكر المفسرون من طريق العربية أنه تكرار وتأكيد للوعيد وتغليظ للنهي عنه ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٥] أيها الناس ما لكم عند الله وعليكم إذا بدت سكرات الموت ونشر ديوان العمل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴿ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٥] وهو ثلوج الصدور بما يرتفع به الشك وجواب لو محذوف تقديره لشغلكم ذلك عن غيره ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر : ٦] في دار القبر لأنه يعرض على كل آدمي مقعده في النار فإن كان سعيداً عرض عليه وبشر بنواله ، وإن كان شقياً عرض عليه وقرّر له ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ٧ – ٨] قيل عن الصحة والفراغ ، وقال مجاهد وقتادة : كل ما التذّ به فهو نعيم . يا من سبقه القوم

وتخلف في الشهوات ، يا من قطع زمانه في التسويف والبطالات ، يا من قسا قلبه بالمعاصي وجمدت عيناه عن العبرات ، يا من شابت ذوائبه ، وهو مقيم على الزلات ، كم تبارزون بالمعاصي من يعلم خفيات السرائر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من اكتسب مالاً من حرام فتصدق به أو وصل به رحماً أو أنفقه في الله تعالى جمع ذلك كله وقذف به في جهنم » ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يكتسب العبد مالاً من حرام فيتصدق به فيؤجر عليه ولا ينفق منه فيبارك له فيه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار » ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أيها الناس إن أحدكم لن يموت حتى يستكمل رزقه فلا تستبطئوا الرزق واتقوا الله وأجملوا في الطلب فخذوا ما أحلّ الله تعالى وذروا ما حرّم الله تعالى » واعجباً كلما بسط المولى بساط النعم قابلته بالعصيان ، كم نراك يا عبدي تترك مجالستي وتجالس الشيطان ، كم أعطف عليك بالآلاء وأنا المنان ، يا عبدي أحب أن أوصلك وتحب البعاد عني والهجران ، ما حيلتك إذا حلّ عليك غضبي وفرّ منك الأهل والعشائر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ . قال منصور بن عمار رحمة الله تعالى عليه : حجبت سنة من السنين فنزلت سكة من سكك الكوفة فخرجت في ليلة مظلمة مدلهمة وإذا بصارخ يصرخ في جوف الليل وهو يقول : إلـهي وعزّتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بمكانك جاهل ولكن خطيئتي عرضت لي وسوّلت لي نفسي وأعانني عليها شقائي فغرني سترك المرخى عليّ فعصيتك بجهلي وخالفتك لشقوتي ، فمن عذابك من يستنقذني ، وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني ؟ واحسرتا إذا قيل للمُخِفّين : جوزوا ، وللمثقلين : حطوا . أتراني مع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ ويلي كلما كبر سني كثرت ذنوبي ، ويلي كم أتوب وكم أعود ، أما آن لي أن أستحي من علام الغيوب :

ما اعتذاري وأمر ربي عصيت … حين تبدي صحائفي ما أتيت
ما اعتذاري إذا وقفت ذليلاً … قد نهاني وما رآني انتهيت
يا غنياً عن العباد جميعاً … وعليماً بكل ما قد سعيت
ليس لي حجة ولا لي عذر … فاعف عن زلتي وما قد جنيت

ثم قال :

يا ربّ أنت أمرتني ونهيتني … وأريتني طرق الضلالة والهدى
وعلمت أني لا أفرّ من الذي … قدرت لي إن كان خيراً أو ردى

وسلكت بي ما شئت للشيء الذي ... في الخلق ما أخفيته عنهم سدى
ودخلت من غير اختياري تحته ... والعبد محكوم عليه وإن غدا
فاقبل بفضلك توبتي لك مخلصاً ... وارحم فإني قد بسطت لك اليدا
واصفح عن العبد الذي يا سيدي ... قد جاء معترفاً وعاش موحدا

[قال منصور] : فبكيت لما سمعت كلامه وقرأت قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] قال : فسمعت دكدكة عظيمة واضطراباً كثيراً ثم انقطع الحس ، فلما أصبحت مررت على الباب فرأيت جنازة رجل وامرأة تدخل وتخرج وهي تقول : يا بني يا قتيل القرآن ، يا بني يا قتيل الأحزان ، فدنوت منها وقلت : يا أمة الله من هذا الميت ؟ فقالت : ولدي وقرّة عيني ، كان يعمل الخوص فينفق عليّ ثلثاً ، وثلثاً يأكله وثلثاً يتصدق به ! فمرّ به رجل فقرأ عليه آية من كتاب الله تعالى فمات فما حيلتي ؟ :

قف بنا نبكي دياراً أقفرت ... فهي تبكي بعدهم إذا هجرت ... وتناغت عندها غربانها
وهي من قبل النوى قد زجرت ... آه من أكبادنا لو حفظت ... عهد سكان الحمى لانفطرت
لا تسل عن حالهم خلقاً فقد ... خبرت أطلالها ما خبرت ... فكأن الأهل ما سروا بها
وكأن الدرا ما قد حضرت ... لهف قلبي لليال سلفت ... تزعج القلب إذا ما ذكرت
خربت دارهمو من بعدهم ... وبهم كانت قديماً عمرت ... وبرغمي أن أرى أطلالهم
ووحوش البين فيها حشرت ... لو رأيت أعينهم ما نالهم ... لبكت من حزنها واستعبرت

[إخواني] أما آن لذي السفر أن يعدّ له الزاد ؟ أما آن لذي المعاصي أن يتوب قبل المعاد ؟ ويحك ما ينفعك غداً أهل ولا مال ولا أولاد ، فإلى متى هذه الغفلة وإلى متى هذا الرقاد ، تولت أيام شبيبتك وليس لك من أعمالك ناصر ، ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ كان خليل العصيري رحمة الله عليه يقول : كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعداً ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً ، فعلام تعرجون وما عسيتم تنتظرون ، الموت أول وارد عليكم من الله تعالى بخير أو بشر ، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً :

سيروا إلى ربكم فالعمر مندرس ... والموت قد حان والأيام تختلس
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانوا إذا الناس قاموا هيبة جلسوا
ومن سيوفهم في كل معترك ... تخشى ودونهم الحجاب والحرس
أضحوا بمهلكة في وسط بلقعة ... صرعى وماشي الورى من فرقهم بطس

كأنهم قط ما كانوا وما خلقوا قد مات ذكرهمو بين الورى ونسوا
والله لو أبصرت عيناك ما صنعت يد الليالي بهم والدود يفترس
لما انتفعت بعيش بعدهم أبداً أماهمو من جنى الدنيا فقد يئسوا

يا هذا إلى كم تضحك ونوادب الحمام تبكي عليك أسفاً ، غيرك يا محروم على الجادة وأنت من البعاد على شفا ، ستبكي زمان الوصال وما صفا ، أما آن لك أن تصالح مولاك ؟ أما كفى كيف عميت بصيرتك عما أنت إليه صائر ! ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ . ويحك كم تحضر المجلس بجسمك وقلبك عن الحضور غائب ! ويحك تملأ بطنك من الحرام وتطلب من الوهاب المواهب ، ويحك إن خرجت من المجلس وما تبت فأنت من القسمة خائب ! هذا باب التوبة مفتوح والتوّاب ينادي هل من تائب فبادروا قبل أن يغلق الباب وتبلى السرائر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشدّ مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم ، سيدي ما أبلغ قصتي أدلّ غيري وأنا الحائر ، إلـهي جد بالعفو على مذكر متكلف وسامع متخلف . إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وترد الدليل ، إلـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك ، وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

المجلس الثاني والعشرون
في صدقة التطوّع

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ١٨] وقال تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢] وقال رسول الله ﷺ : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله تعالى من حلل الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله تعالى من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم » رواه الترمذي رحمه الله . وعن أنس بن

مالك عن النبي ﷺ قال : « إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر ويدفع بهما ميتة السوء ويدفع بهما المكروه والمحذور » . وروى سعيد بن مسعود الكندي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من رجل يتصدّق يوماً أو ليلة إلا حفظ أن يموت من لدغة أو هدمة أو موت بغتة » . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة » ، وقال بعض العلماء : يتصدّق العبد بالصدقة ويكون البلاء قد نزل فتطلع الصدقة فيتلاقيان فلا البلاء يغلب الصدقة ولا الصدقة تغلب البلاء فهما يقتتلان بين السماء والأرض إلى أن يشاء الله تعالى . وروي عن رسول الله ﷺ : أنه قال : « يقول الله تعالى : عبدي استطعمتك فلم تطعمني ، واستسقيتك فلم تسقني ، واستكسيتك فلم تكسني ، فيقول العبد : وكيف ذلك يا رب ؟ فيقول : مر بك فلان الجائع وفلان العاري فلم تعد عليه بشيء من فضلك فلأمنعنك اليوم من فضلي كما منعته من فضلك » ، وقال الحسن رحمة الله عليه : لو شاء الله لجعلكم فقراء لا غنيّ فيكم ، ولو شاء لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « صدقة السرّ تطفىء غضب الربّ ، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصلة الرحم تزيد في العمر وتوسع في الرزق » ، وقال سالم بن الجعد رحمة الله عليه : إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء وفضل سرّها على علانيتها سبعون ضعفاً . وقيل : إن الصدقة أربعة حروف : صاد ودال وقاف وهاء . فالصاد منها تصون صاحبها عن مكاره الدنيا والآخرة ، والدال منها تكون دليله على طريق الجنة غداً عند تحير الخلق ، والقاف منها للقربة تقرّب صاحبها إلى الله تعالى ، والهاء منها للهداية يهدي الله تعالى صاحبها للأعمال الصالحة ليستوجب بها رضوانه الأكبر .
وعن أبي القاسم المذكور رحمة الله عليه قال : كان من خلق إبراهيم ﷺ أن يتصدق بخير ما يجد وأفضله وأحسنه فقيل له : لو تصدقت بدون هذا لكفى ، فقال : لا يراني الله تعالى أطلب خير ما عنده بشرّ ما عندي . وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اثنتان من الشيطان واثنتان من الله تعالى ثم قرأ هذه الآية : ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] يعني ينهاكم عن الصدقة ﴿ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] يعني بالمعاصي ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] يعني يأمر بالطاعات وبالصدقة لتنالوا منه مغفرته وفضله ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] يعني عليم بثواب من يتصدق . وعن أبي ذرّ الغفاري ﷺ قال : ما على الأرض صدقة تخرج حتى تفك لحي سبعين شيطاناً كلهم ينهاه عنها . وعن عكرمة ﷺ قال : كان في بني إسرائيل رجل ذو مال ، وكان ذا معروف في ماله

فمات وترك امرأة وابناً ، فقالت المرأة : ما أرى لما بقي من ماله وجهاً أفضل مما كان يصنع فتصدقت به إلا مائتي درهم ادّخرتها لولدها ، فلمّا أدرك الغلام قال : يا أماه ! أيّ رجل كان أبي ؟ قالت : من خيار بني إسرائيل ، قال : ما ترك مالاً ؟ قالت : بلى ولكنه كان يفعل المعروف وألحقته سبيله . قال : ما كان لك أن تتصدقي بمالي فما أبقيت منه ؟ قالت : مائتي درهم . قال : هاتيها أبتغي بها فضل الله تعالى فأخذها منها ومضى ، فخرج فمرّ بميت عريان مطروح على وجه الأرض ، فقال : ما وضع المال في أفضل من هذا ، فاشترى له كفناً بمائة وثمانين وكفنه وواراه التراب ومضى بالعشرين فإذا هو برجل على الطريق ، فقال له : أين تريد ؟ فقال : خرجت أبتغي فضل الله تعالى ، فقال له : إن دللتك على شيء تصيب فيه فضل الله تعالى تجعل لي فيه نصف ما تصيب ؟ قال : نعم . قال : فانطلق إلى هذه المدينة فإنك ستجد امرأة معها سنور تبيعه فاشتره منها بعشرين درهماً ، ثم اذبحه واحرقه بالنار ، ثم اجمع رماده واذهب بذلك إلى المدينة الأخرى ، فإن ملكها قد ذهب بصره فأكحله يرجع إليه بصره فذهب ففعل ذلك ، فقال الملك : أوردوه الوادي الذي فيه الكحالون ، ثم خبروه إن أبرأني فله ما شاء وإلا قتلته فإن شاء أن يقدم وإن شاء أن يرجع فنظر إلى الكحالين وهم مقتولون . فقال : إني أكحله فكحله . فقال : كأني أرى شيئاً ، ثم كحله ثانياً ، فقال : رأيت شيئاً ، ثم كحله ثالثاً فرجع إليه بصره ، فقال : ما أبرّك بشيء أجلّ من أن أزوجك ابنتي وتسأل حاجتك فأعطاه كل ما أحب من المال فمكث عنده مدة ، ثم تذكر أمه فاستأذن الملك في الانصراف فقال : نعم واحمل معك أهلك ومالك فمرّ بالرجل الذي على الطريق . فقال له : أتعرفني ؟ فقال : لا ، فقال : أنا الرجل الذي كنت وصفت لك كذا وكذا ، فنزل وقاسمه كل شيء معه . فقال الرجل : قد بقي لي شيء ، فقال : وما هو ؟ قال : امرأتك فأنشدك الله إلا ما وفيتني . قال : وكيف نصنع ؟ قال : تنشرها بمنشار قال : أفعل ، فلما وضع المنشار على رأسها قال : قف فإني رسول الله إليك حفظك الله حيث حفظت عهده ثم رد عليه ماله .

[كان وكان]

من عامل الله يربح … وكل من يصدق نجا … ومن وفى بالأمانه … يكتب من الأخيار

ومن عرف ما يطلب … هان الذي يبذل عليه … ومن يخاطر ويجسر … قد أدرك الأوطار

ومن زرع في الدنيا … يحصد غداً في الآخره … ويجتلي في الجنه … عرائس الأبكار

ومن يسلم أموره … لله يعطيه الرضا … ويتحفه بالعنايه … وكل ما يختار

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : « أن امرأة من بني إسرائيل كان لها زوج وكان غائباً وكان له أمّ فأولعت بامرأة ابنها فكرهتها فكتبت كتاباً على لسان ابنها إلى امرأة ابنها

بفراقها ، وكان لها ابنان من زوجها . فلما انتهى ذلك إليها لحقت بأهلها مع ولديها وكان لهم ملك يكره إطعام المساكين فمر بها مسكين ذات يوم وهي على خبزها فقال : أطعميني من خبزك ، فقالت : أما علمت أن الملك حرم إطعام المساكين ؟ قال : بلى ولكني هالك إن لم تطعميني أنت ، فرحمته وأطعمته قرصين وقالت له : لا تعلم أحداً أني أطعمتك فانصرف بهما فمر بالحراس ففتشوه وإذا بالقرصين معه ، فقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : أطعمتني فلانة فانصرفوا به إليها ، فقالوا لها : أنت أطعمتِه هذين القرصين ؟ قالت : نعم ، قالوا لها : أو ما علمت أن الملك حرم إطعام المساكين ؟ قالت : بلى ، قالوا : فما حملك على ذلك ؟ قالت : رحمته ورجوت أن يخفي ذلك فذهبوا بها إلى الملك وقالوا : هذه أطعمت هذا المسكين قرصين ، فقال لها : أنت فعلت ذلك ؟ فقالت : نعم ، فقال لها الملك : أو ما كنت علمت أني حرمت إطعام المساكين ؟ قال : نعم ، قال : فما حملك على هذا ؟ قال : رحمته ورجوت أن يخفي ذلك وخفت الله فيه أن يهلك فأمر بقطع يديها فقطعتا وانصرفت إلى منزلها وحملت ابنيها حتى انتهت إلى نهر يجري ، فقالت لأحد ابنيها ، اسقني من هذا الماء ، فلما هبط الولد ليسقيها غرق . فقالت للآخر : أدرك أخاك يا بنيّ ، فنزل لينقذ أخاه فغرق الآخر فبقيت وحدها فأتاها آت فقال : يا أمة الله ما شأنك ههنا إني أرى حالك منكراً ، فقالت : يا عبد الله دعني فإن ما بي شغلني عنك فقال : أخبريني بحالك ، قال : فقصت عليه القصة وأخبرته بهلاك ولديها . فقال لها : أيما أحب إليك ؟ أأردّ إليك يديك أم أخرج لك ولديك حيين ؟ فقالت : بل تخرج ولديّ حيين فأخرجهما حيين ، ثم رد عليها يديها وقال : إنما أنا رسول الله إليك بعثني رحمة لك فيداك بقرصين وابناك ثواباً لك من الله تعالى برحمتك لذلك المسكين وصبرك على ما أصابك واعلمي أن زوجك لم يطلقك فانصرفي إليه فهو في منزله وقد ماتت أمه فانصرفت إلى منزلها فوجدت الأمر كما قيل لها :

جعلت على لطفك المتكل ... وأعرضت عن فكرتي والحيل ... وما دام لطفك لي لم أخف
عدواً إذا كادني أو خذل ... ولطفك رد الذي أختشي ... كما كشف الضرّ لما نزل
ويا سيدي كم مضيق فرجت ... بلطف تيسره من عجل ... ملاذي ببابك لا حلت عنه
ويا ويح من عنه يوماً عدل ... وقفت عليه ببذل السؤال ... وما خاب بالباب من قد سأل

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩] قال أهل التفسير : إن بني إسرائيل لما مات موسى عليه السلام أخذوا في التخليط فاعتزلت عنهم فرقة ، وسألوا الله تعالى أن يباعدهم عن أهل التخليط ، فظهر لهم سرب أسفل الأرض فساروا فيه حتى إذا هم في فضاء من الأرض فنزلوا فيه وبنوا عليه وتناسلوا في ذلك المكان

وداموا فيه إلى أن سار إليهم ذو القرنين فلما وصل إليها رآهم في ذلك المكان وكانوا من أطول الناس أعماراً وليس بينهم فقير وقبورهم على أبواب دورهم ومساجدهم بعيدة وليس على دورهم أبواب ولا عليهم أمير ولا حاكم ، فقال لهم : ما شأنكم فيما تفعلونه : فقالوا : أيها الملك ! أما طول أعمارنا فإن الله تبارك وتعالى يبارك لنا فيها فإنا قوم منصفون فطول أعمارنا لإنصافنا ، وأما يسرنا جميعاً فنحن قوم نقوم بالمواساة ، فإذا أصيب واحد منا بفقر جمعنا له من بيننا أجمعين حتى تجبر ثلمته ولا يبين علينا ذلك فنحن بأجمعنا أغنياء ، وأما قبورنا فجعلناها على أبواب دورنا لأنا أخبرنا عن علمائنا وأنبيائنا أن القبر يذكر الحي الموت ، وأما مساجدنا فبعيدة عنا لأنا روينا وسمعنا عن علمائنا أن الخطا إذا كثرت إلى المساجد كثرت الحسنات ، وأما دورنا فليس عليها أبواب لأنا لا نتلصص ولا يسرق بعضنا بعضاً فلا نحتاج إلى الباب ، وأما الحاكم والأمير فلا يظلم بعضنا بعضاً ونحن نتناصف فلا نحتاج إلى أمير مانع ولا حاكم رادع . فقال ذو القرنين : ما رأيت قوماً مثلكم ولو أردت استيطان بلد كنت أستوطن بلدكم هذا لحسن معاشرتكم ، وجميل أخلاقكم .

وروي أن عابداً من بني إسرائيل عبد الله في صومعته كذا وكذا سنة فاطلع من صومعته يوماً فرأى خضرة وماء جارياً في وسطها فاهتزت نفسه إلى النزول من صومعته فنزل وشرب ماء وقعد متشوّقاً فمرت به امرأة متزينة خارجة من قرية إلى قرية فافتتن بها ثم إنه مرّ به سائل ، وكان له كل يوم قرصتان فآثره بذلك وجوع نفسه ، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لهذا العابد أبطلت عملك كله بما زنيت ، ثم أحييته كله بصدقتك بالقرصين وإيثارك المسكين على نفسك فهذا ثواب صدقتك إني قبلت ذلك منك ورددتك إلى حالتك :

ردوا علينا ليالينا التي سلفت ... وامحوا الذي قد جرى منا بفضلكم

فكم زللت وأنتم تصفحوا كرماً ... وكم أسأت وأرجو حسن عفوكم

ما لي سواكم وأنتم مشتكى حزني ... وقد جهلت ومالي غير ستركم

ولم أمل عنكمو يوماً إلى أحد ... وليس لي في البرايا غير قصدكم

ذلي لكم شرف في الحب أظهره ... وما أرجي وداداً غير ودكم

لو أن ألف لسان لي أبث بها ... شكري لكم لم أقم يوماً بشكركم

إحسانكم لمسيء في الهوى دنف ... مثلي ومالي سوى عادات خيركم

عودوا وجودوا كما كنتم فليس أرى ... يحلو بسمعي حديثاً غير ذكركم

إن كنت أذنبت فاعفوا سادتي كرماً ... فمن يرجى لعفو الذنب غيركم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته .

المجلس الثالث والعشرون
في صدقة الفطر وما أعدّ الله لمخرجها من الأجر

الحمد لله موفر الثواب للأحباب ، ومكمل الأجر ، وجاعل ظلام الليل ينسخه نور الفجر ، المحيط علماً بخائنة الأعين وخافية الصدر ، ومعلم الإنسان ما لم يعلم به ولم يدر ، المتعالي عن إدراك خواطر النفس وهواجس الفكر ، الموالي رزقه فلم ينس النمل في الرمل ولا الفرخ في الوكر ، جلّ أن تناله أيدي الحوادث على مرور الدهر ، وتقدّس أن يخفى عنه باطن السر وظاهر الجهر ، منته تيجان الرؤوس وقلائد النحر ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس : ٢٢] أحصى عدد الرمل في الفيافي والنمل في القفر ، وشاء فأجرى كما شاء تقدير الإيمان والكفر ، أغنى وأفقر بإرادته وقوع الغنى والفقر ، وأصم وأسمع بمشيئة إدراك السمع ومنع الوقر ، أبصر فلم يخف عليه دبيب الذر في البر ، وسمع فلم يعزب عن سمعه دعاء المضطر في السر ، وقدّر فلم يحتج إلى معين يمدّه بالإعانة والنصر ، وأجرى الأقدار كما شاء في ساعات العصر ، قسم بين الخلائق كما أراد أسباب العسر واليسر ، وسير الرزق في بحار الحكم ولو لم يشأ لم يسر ، هدانا إليه ودلنا عليه بقويم البيان وسليم الفسر ، وخصنا من بين سائر الأمم بشهر الصيام والصبر ، وغسل به ذنوب الصائمين كغسل الثوب بماء القطر ، فله الحمد إذا رزقنا إتمامه وأنالنا عيد الفطر ، أحمده حمداً لا منتهى لعدده ، وأشكره شكراً لا يحصى موصول مدده ، وأتوكل عليه توكل عبد على سيده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص في معتقده ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي نبع الماء من يمين أصابع يده صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وتابعي مقصده ، صلاة تدوم إلى يوم يفرّ الوالد من ولده وسلم تسليماً كثيراً لا ينقضي مدى الزمان ، بل يتجدد بتجدده . عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : « كنا نخرج زكاة الفطر إذ كان فينا رسول الله ﷺ صاعاً من طعام من شعير أو صاعاً من تمر » رواه الترمذي رحمه الله . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ بعث منادياً في فجاج مكة : « ألا إن صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ذكر أو أنثى حر أو عبد صغير أو كبير مدّان من قمح أو سواه صاع من طعام » رواه الترمذي رحمه الله . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر على الذكر والأنثى والحر والمملوك صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير » رواه البخاري ومسلم والترمذي رحمهم الله . وعن نافع عن ابن

عمر رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بإخراج الزكاة قبل صلاة العيد يوم الفطر » وهو الذي استحبه أهل العلم أن يخرج الرجل صدقة الفطر قبل صلاة العيد لقوله ﷺ : « أغنوهم من المسألة في مثل هذا اليوم » . ويستحب يوم الفطر للإنسان أن يغتسل ويستاك ويلبس أحسن ثيابه ويخرج صدقة الفطر ويأكل شيئاً ثم يتوجه إلى المصلى ماشياً وأن لا يركب إلا من عذر وأن يكون خروجه إلى المصلى من طريق ويرجع من طريق آخر لأن الله تبارك وتعالى يبعث ملائكة يجلسون في الطريق يكتبون اسم كل من مرّ عليهم فلذلك استحب الخروج من طريق والرجوع من أخرى . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا خرج يوم العيد من طريق رجع من غيره » رواه الترمذي رحمه الله . وعن بريدة عن أبيه : « كان النبي ﷺ لا يخرج يوم الفطر حتى يطعم ولا يطعم يوم الأضحى حتى يصلي » رواه الترمذي رحمه الله . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ كان يفطر على تمرات يوم الفطر قبل أن يخرج إلى المصلى » ، وعن أم عطية رضي الله عنها « أن رسول الله ﷺ كان يخرج الأبكار والعواتق وذوات الخدور والحيض في العيدين . فأما الحيض فيعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين ، قالت إحداهن : يا رسول الله إن لم يكن لها جلباب ؟ قال فلتعرها أختها جلابيبها » وراه الترمذي رحمه الله ، وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لو رأى رسول الله ﷺ ما أحدث النساء بعده لمنعهنّ المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل » . وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : أكره الخروج اليوم للنساء في العيدين فإن أبت المرأة إلا الخروج فليأذن لها زوجها أن تخرج في أطمارها ولا تتزين ، فإن أبت أن تخرج كذلك فللزوج أن يمنعها عن الخروج . وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : من أحيا ليلتي العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي أنه قال : أعظم الليالي ليلة الأضحى والفطر . وعن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع ليال يفرغ الله تعالى فيهنّ الرحمة على عباده إفراغاً : أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة الأضحى » وإنما سمي العيد عيداً للعود إلى الفرح والسرور ، وقال بعضهم : سمي عيداً لأنه يوم شريف كريم فللعاقل أن يستقبله بالتعظيم والتبجيل لله تعالى ويكثر من ذكر الله تعالى لأن يوم العيد مثاله كيوم القيامة يسمع فيه النفخة والصعقة ، فضرب الطبول تذكرة لها والنفخ في البوق تذكرة للنفخ في الصور ، واجتماع الناس في المصلى تذكرة لاجتماع الناس في القيامة على اختلافهم واختلاف أحوالهم ، فمنهم لابس بياض ، ومنهم لابس سواد ، ومنهم راجل ومنهم راكب ، ومنهم فرح ، ومنهم محزون ، ومنهم من ينقلب إلى نعمة ، ومنهم من ينقلب إلى نقمة ، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يحشر

الناس من قبورهم على ثلاثة أثلاث : ثلث على الدواب ، وثلث يمشون على أقدامهم ، وثلث يسحبون على وجوههم » والناس في المصلى ينتظرون الإمام كذلك في المحشر والوقوف في العرصات انتظار ما وعد الله تعالى ، والإشارة في الخطبة هو أن الإمام يخطب والناس سكوت كذلك الباري سبحانه وتعالى يحاسب الناس ويعاقب ونحن سكوت ومراتبهم في المصلى تشبه مراتبهم يوم القيامه منهم القاعدون في الظل ، ومنهم القاعدون في الشمس كذلك في القيامة منهم من يلجمه العرق ، ومنهم من يكون في ظلّ العرش ، وكذلك انصرافهم من المصلى بعضهم مقبول وبعضهم مردود . وعن وهب بن الورد رضي الله عنه : أنه خرج يوم العيد فجعل يحثو التراب والرماد على رأسه ، فقيل له : هذا يوم السرور والزينة ؟ فقال : هذا يوم السرور والزينة لمن قبل صومه . وخرج حسان بن أبي سنان رحمه الله تعالى يوم عيد ، فلما عاد قالت له زوجته : كم من امرأة حسناء قد رأيت ؟ فقال : والله ما نظرت إلا في أبهامي منذ خرجت من عندك إلى أن رجعت إليك ، وإنما بالغ السلف في غضّ البصر حذراً من فتنة النظر وخوفاً من عقوبته . وقال بعضهم : إياك والنظر فإنّه ينقش في القلب صورة المنظور ، وإنما الدنيا عيوبها بادية كم فتحت باب بلية ولا حيلة كحيلة عين كحيلة :

العين أصل عناها فتنة النظر ... والقلب كل أذاه الشغل بالفكر
كم نظره نقشت في القلب صورة من ... راح الفؤاد بها في الأسر والحذر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين العين موقوف على الخطر
يسرّ مقلته ما ضرّ مهجته ... لا مرحباً بسرور جاء بالضرر
فالقلب يحسد نور العين إذ نظرت ... والعين تحسده حقاً على الفكر
يقول قلبي لعيني كلما نظرت ... كم تنظرين رماك الله بالسهر
فالعين تورثه همًّا فتشغله ... والقلب بالدمع ينهاها عن النظر
هذان خصمان لا أرضى بحكمهما ... فاحكم فديتك بين القلب والبصر

[وكان الربيع بن خيثم] من شدة غضه لبصره وإطراقه يظن الناس أنه أعمى وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود رضي الله عنه عشرين سنة فإذا طرق الباب خرجت إليه الجارية فتراه مطرقاً غاضاً بصره فتقول لسيدها : صديقك ذاك الأعمى قد جاء فكان ابن مسعود رضي الله عنه يتبسم من قولها ، وكان إذا نظر إليه يقول : وبشر المخبتين أما والله لو رآك محمد ﷺ لفرح بك وأحبك . وكان بعض الصالحين رحمه الله يقول : يا قوم غرقت السفينة ونحن نيام هذا آدم لم يسامح بلقمة وداود لم يتساهل له في نظرة فكيف بنا ونحن على ما نحن فيه من سوء الفعال

وقبيح المقال وأشد الوبال والنكال والنظر إلى غير الحلال ، ثم قال :

يا من رأى سقمي يزيد وعلتي تُعيي طبيبي ... لاتعجبن فهكذا تجني العيون على القلوب

[قال الشيخ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله] : فأما عقوبة النظر فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يتشلشل دماً فقال له رسول الله ﷺ : ما لك ؟ قال : مرت بي امرأة فنظرت إليها فلم أزل أتبعها نظري فاستقبلني جدار فضربني وصنع بي ما ترى ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا » فكم من أناس صلوا في أوّل الشهر صلاة التراويح وأوقدوا في المساجد طلباً للأجر المصابيح وملؤوا بالعبادات المكان الفسيح ونسخوا بإحسانهم كان فعل قبيح . اقتنصهم عن آخرهم الصائل فقهروا وأسرهم الصائد فأسروا وغمسهم التلف في بحاره فمقلوا ولم ينفعهم المال ولا الآمال لما نقلوا ، رحلوا والله عنا قدماً ونقض ما بنوه من الدنيا هدماً أدارت عليهم المنون رحاها وأحلت وجوهم الثرى فمحاها ، انتهبتهم الآفات من غير تعويض ونظرت إليهم بطرف غضيض فقطعت حبل المنى الموصول وفرقت جميع الأمل المحصول أعدمتهم والله صوماً وفطراً وجعلت قبورهم لمهب الرياح قطراً وزودتهم الحنوط عطراً وأصبح كل منهم في اللحد سطراً وهكذا حالك عن قريب فتيقظ وهكذا مآلك فاجتهد وتحفظ يا قليل الاعتبار وكم قد سمع ورأى ، يا طويل الأمل ورفيقه قد نأى يا مشغولاً باللهو ومفتوناً بالمنى يا متعلقاً بما يوقن أن عقباه الفنا ، أما تعد توبتك فقل لي متى ، إنما الشيب رسول من المنون قد أتى ، أما أكثر العمر في التسويف قد مضى ، أما أنت غرض سهم القدر والقضا يا من راح إلى المعاصي كثيراً وغدا الأمر مجموع وسيفصل غداً ، يا قليل الزاد وحادي رحيله قد حدا تأهب للتلف وتهيأ للردى :

أمـا المشـيب فقـد كسـاك رداءه ... وأزال عـن كتفيـك أرديـة الصبـا
ولقـد مضـى القـوم الـذين عهدتهم ... لسـبيلهم ولـتلحقن بمـن مضـى
ولقلمـا تبقـى فكـن متفطنـاً ... ولقلمـا يصـفو سـرورك إن صـفا
وهـو السـبيل فخـذ لـذلك عـدّة ... فكـأن يومـك عـن قليـل قـد أتـى
لا يشـغلنك لـو وليـت عـن الـذي ... أصـبحت فيـه ولا لعـل ولا عسـى
خـالف هـواك إذا دعـاك لريبـة ... فلـرب خـير في مخالفـة الهـوى
علـم المحجـة بـين لمريـده ... وأرى القلـوب عـن المحجـة في عمـى
ولقـد عجبـت لهالـك ونجاتـه ... موجـودة ولقـد عجبـت لمـن نجـا
وعجبت إذ أخشى الحمـام ولـيس لي ... دون الحمـام وإنْ تـأخر منتـهى

مع أن ساعات النهار تدب لي رسلاً وإني لا أزال على الخطا
فلئن نجوت فإنما هي رحمة الـ ـرب الرحيم وإن هلكت فبالجزا
يا ساكن الدنيا أمنت زوالها ولقد ترى الأيام دائرة الرحا
أين الذين بنوا الحصون وجندوا فيها الجنود وأوثقوا فيها العرا
وذوو المفاخر والمنابر والمحا ضر والعساكر والدساكر والقرى
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا ما فيهم أحد يحس ولا يرى
حتى متى لا ترعوي يا صاحبي حتى متى وإلى متى وإلى متى

[قال أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله] : رأيت في الطواف رجلاً بعين واحدة وهو يقول في طوافه : أعوذ بك منك ، فقلت له : ما هذا الدعاء ؟ فقال : إني مجاوز خمسين سنة فنظرت إلى شخص يوماً فاستحسنته فإذا بلطمة وقعت على عيني فسالت على خذي ، فقلت : آه فرقعت أخرى ، فإذا قائل يقول : لو زدت لزدناك . وقال محمد بن عبد الله : كنت مع أستاذي أبي بكر رحمه الله فمرّ حدث فنظرت إليه فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه ، فقال : يا بنيّ لتجدن غبهاً ولو بعد حين فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي ذلك الغبّ فنمت ليلة وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيت القرآن كله وقائل يقول لي : هذا غبّ تلك النظرة .

[وقال أبو بكر الكتاني رحمه الله] : رأيت بعض أصحابنا في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك قال : عرض عليّ سيئاتي ، وقال : فعلت كذا وكذا ، فقلت : نعم ، قال وفعلت كذا وكذا ، فقلت : نعم ، قال : وفعلت كذا وكذا فاستحييت أن أقرّ ، فقلت له : ما كان ذلك الذنب ؟ فقال : مر بي غلام حسن الوجه فنظرت إليه فأقمت بين يدي الله عز وجل سبعين سنة أتصبب عرقاً من خجلي منه ثم عفا عني بفضله . وروي عن أبي عبد الله الزراد أنه رؤي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً استحييت أن أقرّ به فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقيل له : ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرت إلى شخص جميل ، وقال بعضهم في النظر وخطراته :

عاتبت قلبي لما رأيت جسمي نحيلا فألزم القلب طرفي وقال كنت الرسولا
فقال طرفي لقلبي بل أنت كنت الدليلا فقلت كفا جميعا تركتماني قتيلا
وقد أطلقت نواحي عليكما والعويلا ومن رضي بالذي لا يحل كان جهولا
يستهون الأمر فيه يراه أمراً مهولا فيفتدي القلب منه جهراً سقيماً عليلا
فتب إلى الله مما جنيت تعط القبولا وليس ثم عدو إليك يلقي سبيلا

فيا بن آدم عيوبك مطلقة في الحرام ، ولسانك منهمل في الآثام وجسدك يتعب في كسب

الحطام كم من نظرةٍ محتقرة زالت بها الأقدام ، واعلموا عباد الله أن يوم العيد يوم يسعد في ناس ويشقى فيه عبيد فطوبى لعبد قبلت فيه أعماله والويل لمن عمله عليه مردود وهو يوم يهنأ فيه المقبول ويعزى فيه المطرود فاجتنبوا رحمكم الله فيه قبيح الأعمال ، واسعوا في مرضاة الملك ذي الجلال عسى ينجيكم من رديء الأعمال ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان ليلة الفطر سميت ليلة الجائزة ، فإذا كانت غداة الفطر يبعث الله تعالى الملائكة في كل بلد فيهبطون إلى الأرض فيقفون على أفواه السكك فينادون بصوت يسمعه جميع الخلائق إلا الجن والإنس فيقولون : يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم ، فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله تبارك وتعالى : يا ملائكتي ! ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ؟ فتقول الملائكة : إلهنا وسيدنا جزاؤه أن يوفى أجره فيقول الله تبارك وتعالى : يا ملائكتي ! أشهدكم أني قد جعلت ثوابهم من صيامهم شهر رمضان وقيامهم رضاي ومغفرتي فيقول الله تبارك وتعالى : سلوني فوعزّتي وجلالي لأسترن عليكم عثراتكم ما راقبتموني فوعزّتي وجلالي لا تسألوني اليوم في جمعكم هذا شيئاً لآخرتكم إلا أعطيتكم ولا لدنياكم إلا نظرت لكم ، وعزّتي وجلالي لأسترن عليكم عيوبكم فلا أخزيكم ولا أفضحكم بين يدي أصحاب الحدود فانصرفوا مغفوراً لكم قد أرضيتموني ورضيت عنكم فتفرح الملائكة ويستبشرون بما يعطي الله تعالى هذه الأمة إذا أفطروا .

[**إخواني**] ما أحسن حال من خلعت عليه خلع القبول وبلغ غاية مقصوده ونهاية مطلوبه وما أشقى من ردّ عليه ماضي صومه وسالف تعبه ولم يحظ فيما أسلفه إلا بشدة نصبه ، واعجباً كيف يفرح بالعيد مطرود ومهجور . قال وهب بن منبه رضي الله عنه : خرج ثلاثة أحبار إلى العيد ، فقال أحدهم : اللهم إنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن نعتق العبيد في هذا اليوم ، ونحن عبيدك فاعتق رقابنا من النار ، وقال الآخر : اللهم أنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن لا نرد المساكين ونحن مساكينك فلا تردنا ، وقال الآخر : اللهم إنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن نعفو عمن ظلمنا ونحن عبيدك قد ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا إنك أنت أرحم الراحمين :

عيدي مقيم وعيد الناس منصرف ... والقلب مني عن اللذات منحرف
ولي قرينان ما لي عنهما خلف ... طولُ الحنين وعين دمعها يكف
والعيد عودي إلى مولاي أقصده ... وإنني بالخطا والذنب أعترف
لعل يشفع لي ذلي ومسكنتي ... فيه عسى ينجلي ضري وينكشف
فهو الكريم الذي عمت مواهبه ... فجاءنا من هدايا فضله تحف

المجلس الرابع والعشرون

في ذكر معراج النبي ﷺ وشرف وكرم

الحمد لله الذي قرّب من اختار من عباده إلى حضرة وداده ، واصطفى واجتبى من أحبابه من صلح لحضرة اقترابه وسقاه من صفو شرابه ما صفا ، ومنّ على من اجتباه من خلقه وجعل منهم أنبياء وأصفياء وأولياء وخلفا ، واختار المختار محمداً ﷺ وميزه على سائر الخلق قبل أن يكونوا في الأصلاب نطفاً ، فاصطفاه منعماً ومتحفاً ، وأعطاه بكرمه فخراً وكان له معيناً ومردفاً ، توسل به آدم إلى ربه فقبل توبته وعفا ، ودعا به نوح فنجاه في يمه وكان لقومه مغرقاً متلفاً ، واستجار به الخليل إلى ربه من نار نمروذ ففك عنه القيود وخمد لهيبها وانطفا ، وتوسل به إسماعيل فأغيث بالفدا ، وكان له من الردى معيناً ومسعفاً ، وسأل به موسى الكليم عطف الملك الكريم فعاد عليه متعطفاً ، والتمس بركته عيسى فكساه مولاه عقداً نفيساً إذ جاء مبشراً بأحمد المصطفى ، فهو سيد الكونين ، وإمام الثقلين ، ومن أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، إلى قاب قوسين معظماً مشرفاً ، وكان البراق مركبه وجبريل يحجبه والملائكة ترقبه ويهدى إليه من البشر والهنا طرفاً وتحفاً ، فلما وصل ركابه إلى المسجد الأقصى وجده الأنبياء مرتصاً ، فأمّ بهم وكل منهم دعا له ووصى فقال في حقه من خصه بالإسراء خصاً : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء : ١] ، فكان ذلك فخراً له وشرفاً ، ثم نصب له المعراج إلى السماء فرقى وسما وصار مبجلاً مفخماً ، موقراً معظماً مكرماً مؤيداً ، مقدماً حاكماً متصرفاً ، هذا وجبريل في ركابه لا يبغي عنه في ذهابه حولاً ولا تحرفاً ، فاستفتح أبواب السماء بالتعظيم والتبجيل ؟ فقيل : من معك يا جبريل ؟ فقال : محمد المصطفى ، قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحباً ولنعم المجيء جاء متوجاً مشرفاً فتلقته الملائكة الكرام ، وسلم على الأنبياء بالاحترام فكلّ رحب به وأضحى من بركة بركته مغترفاً ، فتجاوزهم وسار وقطع الرسوم والآثار ، ولم يبلغ تلبثاً ولا توقفاً فسمع صرير الأقلام وتسبيح الأملاك ورأى الجنة والنار ، وما أعد الله فيها للأبرار والفجار ، فخمد لهيب النار ببركة قدومه وانطفا ، وعطر رضوان في الجنة قصوراً وغرفاً ، ثم رفع إلى البيت المعمور ، وعاين الضياء والنور ، فرآه يدخله في كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه إلى ﴿ يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : ٢٧] ندماً وأسفاً فلما وصل به جبريل إلى سدرة المنتهى تأخر عندها ، فقال له الرسول الجليل : يا جبريل أههنا يترك

الخليل الخليل متخلفاً ؟ فقال : يا سيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، أنت صاحب السرّ المكتوم ، والعلم المرقوم ، ومن ههنا تنطمس الرسوم وتندرس العلوم ، فهذا مقامي المفهوم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، فسر في مطالع طوالع سعدك مشرّفاً ، وأرق من أنوار عزّك ومجدك رفرفاً رفرفاً :

رقى رفرف الأنوار والليل قد صفا وهبّ نسيم الوصل وانتسخ الجفا
وطاب له ذكر الخطاب منادماً وراق له ذاك الشراب تلطفا

فما زال المختار بتجاوز حجب الأنوار ، ويخترق الأستار ، يوقى رفرفاً رفرفاً ، إلى أن ذهب الأين واختفى ، وزال البين وانتفى ، وسلك المصطفى ﷺ حسن الأدب واقتفى وشاهد جمالاً ما زال بالوحدانية معرفاً ، وبالفردانية متصفاً ، فوقف موقف الحضور ، وقد ألبس خلع الضياء والنور ، مطرزة بطراز السرور ، مرقومة برقوم الحبور ، وقد وصل حبل الوصل وانتفى الجفا ، فبدأه السلام بالسلام متحفاً ، وحباه بالإنعام والإكرام تلطفاً ، وقال له العليّ الأعلى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] فسراج نبوّتك يضيء على أمتك إلى يوم القيامة ما وهن ولا انطفا ، فأنت الشاهد وأنا المشاهد ، وقد فزت بأشرف المشاهد ، والشاهد لا يكون في تحقيق شهادته متردداً ولا متوقفاً ، فاشهد بما رأيت لتكون للناس بالوحدانية معرفاً ولي بالعبودية معترفاً ، فقد أسمعتك كلامي شفاها وجعلته لك شفا ، وأشهدتك جمالي وكنت إليه متشوّقاً ، ولذذتك بخطابي فكان لسمعك مشنفاً ، وسقيتك من لذيذ شرابي كأساً راق ومن الأكدار قد صفا ، فقل لمن نام عني وغفا ، وتعوض عن وصلي بالجفا :

يا ذا الذي قد نام وهناً أو غفا ماذا يفوت النائمين من الوفا
قم يا غفولاً عن وصال حبيبه واذر الدموع على الخدود تأسفا
واسمع ودع عنك التكلف إنه ما طاب من أضحى هواه تكلفا
لي بالعقيق وبين جرعاء الحمى بدر رشيق القدّ أسمر أهيفا
أعيا عيون الناظرين بحسنه وقضى لطرف ناله أن يطرفا
إن يبد في ليل ترى بدراً بدا أو ينثني قلت الحسام المرهفا
ولقد علمت بأن طه أحمدا خير الأنام المجتبى والمصطفى
هو سيد الكونين والنور الذي ظهرت شريعتنا به بعد الخفا

وهـو المشـفع في القيامـة وحـده | فـيمن هـوى في النـار أو مـن أشـرفا
هو صاحب الخلق العظيم فـلا يـرى | إلا صـفوحاً عاطفـاً متلطفـا
هو صاحب المعـراج مـن أسـرى بـه | لـيلاً إلى أسـنى مقـام أشـرفا
ملئـت بـه الآفـاق نـوراً بـاهراً | وعـلا علـى مـتن الـبراق مشـرّفا
كانـت ملائكـة السـما خـدماً لـه | ولـه جنـان الخلـد أبـدت زخرفـا
أوحـى إليـه الله جـل جلالـه | أسـراره ولغـيره لـن تكشـفا
يـا سـيد الكـونين جئتـك أشـتكي | مـن جـور دهـر لي غـدا متعسـفا
أنـوي المسـير إليـك وهـو يصـدني | والقلـب نحـوك قـد غـدا متشـوفا
والعمـر قـد ولى ضـياعاً حسـرة | وأنـا لأجلـك قـد فنيـت تأسـفا
فعسـى لـديك عزيمـة نبويـة | لتنيلني قصـدي وعيشـاً قـد صـفى
صـلى عليـك الله يـا علـم الهـدى | مـا نـاح قمـري الأراك ورفرفـا

[وروى] الطبري في كتابه : أن رسول الله ﷺ لما بلغ إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر أسري به من بين زمزم والمقام إلى بيت المقدس وشرح صدره بأمر الملك العلام ، واستخرج قلبه فغسل بماء زمزم الشافي من الآلام ، أعيد مكانه بعد أن حشي إيماناً وحكمة بلطف وسلام ، ثم أسري به إلى أشرف مقام ، وكان السرّ في الإسراء به خفياً عن الأفهام ، دقيقاً على الأنام ، وذلك أنه لما أنزل عليه قول تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ قال رسول الله ﷺ : يا رب أنت شرعت لي أن الشاهد لا يشهد إلا بما يرى ، فأوحى الله تعالى إليه أيها السيد نحن نسري بك إلينا لتشاهد الملكوت الأعلى وتخبر عن العيان بما رأته العينان في الجنان والنيران . وقيل : لما أصعده وأشهده قال له : يا أيها النبي قد شهدت لي فاشهد عليّ ، قال : يا رب وبم أشهد عليك ؟ قال : اشهد عليّ أنه من جاءني وهو يشهد أن لا إلـه إلى الله وأنك رسول الله غفرت له كل ذنب عمله في سره وجهره . وقيل : كشف الله تعالى له الموانع وأزال الحجب المعترضة وطوى له الأرض وقرب الأقصى إلى وأحضره بين يديه ثم قال : يا محمد انظر وأخبرهم فكان كلما سألوه عن شيء نظر إليه وقال لهم على العيان والمشاهدة ، والله على كل شيء قدير ، فانقطعوا وأخرسوا ثم قصّ عليهم صعوده من بيت المقدس إلى السماء فلما لزمتهم الحجة بتحقيق الإسراء إلى بيت المقدس من مكة في ساعة واحدة من الليل ، وبينهما شهر للمسافر المسرع لزمهم الإقرار بصعوده إلى السماء . لأن من قدر على طيّ الأرض وهي تراب كثيف فهو أقدر على طيّ الفضاء والهواء وهو شيء لطيف . وقيل لرسول

الله ﷺ : يا رسول الله سمعنا منك أن عيسى بن مريم كان يمشي على الماء ؟ قال : نعم ولو أراد لمشى على الهواء ولكن لزم الأدب مع صاحب الإسراء إذ كان ذلك مخصوصاً بالمصطفى حين رقى السموات وقطع الفلوات وكشف له ألف حجاب من ظلمة وألف حجاب من نور ، والمشي في الهواء أعجب من المشي على الماء لأنه ألطف من الماء ، وأيضاً الماء يمشي عليه الأبرار والفجار والمؤمنون والكفار بواسطة خشبة أو لوح أو سفينة ، والهواء لا يقدر أحد أن يمشي عليه بشيء من ذلك إلا بعناية ربانية وموهبة إلـهية . قال بعض العلماء : كان رفيقه جبريل ، والآخذ بركابه ميكائيل ، والغاشية بيد إسرافيل ، والداعي له الرب الجليل ، والمدعو محمداً المصطفى الرسول الجميل ، وموضع الدعوة قاب قوسين أو أدنى ، والخلعة الشفاعة في العصاة من أمته ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥] .

يكفيــه فخــراً بــأن الله فضـــله ... علـى السماء ومـا فيهـا مـن الزمـر
وكـم لـه دون خلـق الله معجـزة ... تتلى على النـاس في الآيـات والسـور
وليلـة الوصـل كـم في طيهـا عجـب ... فـاسمع لهـا سيرة مـن أعجـب السـير
كانـت علـى غـير وعـد مـن زيارتـه ... وأطيـب الوصـل وصـل غـير منتظـر
أوحى إليـه الـذي أوحـى فـلا أحـد ... يـدري الحقيقـة مـن أنثـى ومـن ذكـر
أعطاه فوق الـذي يرضـى وخصصـه ... بـالقرب والفـوز والإقبـال والظفـر
وعطـر الكـون والآفـاق أجمعهـا ... بطيـب نفحـة ريـا نشـره العطـر

[وذكر الشيخ الإمام أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في بعض كتبه] أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى جبريل عليه السلام : أن قف على أقدام عبوديتي ، واعترف بعزّ ربوبيتي ، وامرح في ميدان شكري ، واعرف عظم شأني وقدرتي ، ها قد مننت عليك ، فاسمع ما أوحيه إليك ، فقال : إلـهي أنت اللطيف ، وأنا الضعيف ، وأنت المقتدر ، وأنا المفتقر ، فقال الله تعالى : يا جبريل خذ علم الهداية ، وبراق العناية ، وخلعة القبول والولاية ، ولباس الرسالة ، ومنطقة الجلالة ، وانزل مع سبعين ألف ملك إلى باب شفيع الأمم ، سيد العرب والعجم ، الموصوف بالفضل والكرم ، فقف ببابه ولذ بجنابه فأنت الليلة صاحب ركابه ، ويا ميكائيل خذ بيدك علم القبول ، وانزل في سبعين ألف ملك على باب حجرة الرسول ، فأنت اليوم صاحب غاشيته والمندوب على خدمته . ويا إسرافيل ويا عزرائيل افعلا كما فعل جبرائيل وميكائيل ، فكونوا الليلة مطرقين بين يدي سيد الأوّلين والآخرين . ويا جبريل زد من ضوء الشمس على نور القمر ، ومن نور القمر على نور الكواكب ، واجعلهما شمعتين بين يدي سيد الكونين فقال : إلـهي قرب قيام الساعة ؟ قال : ولكن حبيب أريد أن أقربه وأطلعه على الأسرار ، وأخلع

عليه خلعة الضياء والأنوار ، وهو محمد المصطفى المخصوص بالصدق والوفاء فانزل إليه ، وقبل الأرض بين يديه وكن له في هذه الليلة خادماً ، ولركابه ملازماً ، فنزل إليه جبريل بالبشر والتهاني ، وهو راقد في بيت أم هاني فناداه : يا أيها النبي المختار ، قم إلى حضرة الكريم الغفار ، فإن الملائكة لك في الانتظار ، فقام على أقدام الأشواق ، فأركبه جبريل البراق فركبه وساق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقطع سفراً لا يحدّ ولا يحصى وسارت الملائكة بين يديه ، وأكثروا من الصلاة والسلام عليه ونادوه : أيها السيد الكريم والرسول العظيم التفت بنظرك إلينا ، وتفضل بحسن عطفك علينا ، فقال : من نقل قدماً إلى غير المحبوب تعب ، ومن خطا خطوة لغير المطلوب نصب ، ومن وصل إلى هذا المقام الأعلى كيف يلتفت إلى غير المولى ؟ فلما صحت عزائم إرادته واشتغل بالخالق عن سائر مخلوقاته أذعن لسان شكره وما ونى ، وقال : إن أنا أفرطت في خدمته فمن أنا ، فلما اتصف بصفات الأدب والتعليم أدناه إلى مراتب التعظيم ، فدنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى :

هنيئاً له لما تملى بنوره ... وفاز من الرضوان بالمنزل الأسنى ... ترقى به الروح الأمين إلى العلا
فأودعه سراً وقد فهم المعنى ... وأحضره المولى بحضرة قدسه ... فيا حبذا المولى ويا حبذا المغنى
فشاهد معنى لا يحدّ لواصف ... وأدناه منه قاب قوسين أو أدنى ... فكم لك عند الله يا خير مرسل
مناقب فضل لا تبيد ولا تفنى ... وقال له ها قد منحتك رؤيتي ... فمن نال مني نظرة فقد استغنى

ثم نودي : يا محمد أنت الليلة ضيفنا وقد جئت إلى حضرتنا وتمتعت بقربنا فما ضيافتك وما الذي تريد ؟ فقال : إلـهي كل ما جدت به على الأنبياء قبلي خلع مستعملة لا أريدها ، قيل له : فما الذي يرضيك أيها الحبيب وما الذي نفسك به تطيب ؟ فقال له بلسان حاله عند تحقيق آماله : يا ذا الكرم والجود أنت أعلم بالمطلوب والمقصود ، فقيل له : أيها السيد المشفع الشافع ، وإن كنت تريد خلعة لم يصل إليها واصل ولم يطمع فيها طامع ولا طرق ذكرها سمع سامع فدونك فادخل خزائن كرمنا وتحكم في ملابس فضلنا ونعمنا فكانت خلعته ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] طرازها ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٨] توّج بتاج ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] ثم قيل : يا محمد أتدري أين أنت وفي أيّ مقام ؟ فقال : أنت أعلم وأنت العلام ، قال : ما رأى مقامك هذا أحد من الأنام نقلتك من منزل إلى منزل ومن عالم إلى عالم ومن معراج إلى معراج حتى لم يبق في ملكوت السموات والأرض عجيبة إلا أطلعتك عليها ولا منحة غريبة إلا أوصلتك إليها :

تعالى الله عن قرب وبعد ... عن قدر يقدر بالمكان ... وجلّ بعزّه عن كل وصف
يقدر في العقول وفي العيان ... فلا الألحاظ تدركه تعالى ... ولا الألفاظ منا والمعاني

فهـــذا كلـــه في الله يفـــنى   وجـــل عـــن التباعـــد والتـــداني

فلما حضر في الحضرة الأزلية وشرب بكاسات الصمدية أنارت بطلعته الكائنات وبشرته ببلوغ قصده ملائكة السموات فنودي ولم ير أحداً : الله حافظك ومولاك فاشكره على ما أولاك قال : فألهمت قول التحيات المبارك الصلوات الطيبات لله ، فأجبت : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فقلت : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فأشركت إخواني من الأنبياء وأمتي فيما خصصت به من الفضل الوافر والثواب الباهر ، فأجابت الملائكة : أشهد أن لا إلّـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم نوديت : ادن يا محمد فدنوت ، قيل : دنا محمد بالمعرفة فتقرب إلى الرب بالمحبة ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم : ٨] دنا محمد بحبه فتدلى عليه الوحي من ربه دنوّ رحمة ولطافة لا دنوّ قطع مسافة بل ذهب الأين من البين والمعنى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٩] فانتفى المكان والزمان وكان معه حيث لا جهة ولا مكان ولا وقت ولا زمان ولا حين ولا أوان ولا أفلاك ولا أكوان :

كـان مـن قبـل أن يكـون مكـان   وأوان وقبـــل كـــل زمـــان

أول آخـــر سميـــع بصـــير   وفـــرد مـــنزه عـــن ثـــان

بـــالنبي الكـــريم أســـرى إليـــه   ســـيد الرســـل مـــن بـــني عـــدنان

ثم أدنـــاه قـــاب قوســـين منـــه   ثم أوتي الكتـــاب بالتبيـــان

ثم أوحـــى إليـــه أســـرار علـــم   بـــاهرات بأوضـــح البرهـــان

فلما رجع المختار من سفر الأسرار بالإسراء قد عمه الفرح والاستبشار والغبطة والسرور وقد تم له السعد والحبور اعترضه صاحب الطور موسى الكليم فقال له : يا أيها النبي الكريم ماذا افترض ربك على أمتك من الصلوات ، يا سيد الكائنات ؟ فقال : خمسين صلاة في اليوم والليلة ، فقال : يا سيد الأنام عد إلى ربك فاسأله لهم التخفيف فإن فيهم العاجز والضعيف ، فلم يزل يردّده موسى عليه السلام حتى جعلها خمس صلوات على الدوام :

وإنمـــا الســـر في موســـى يـــردده   ليجتلـي حســـن ليلـى حـين يشـهده

يبدو سناها على وجـه الرسـول فيـا   لله درّ رســـول حـــين أرصـــده

فلما بلغ رسول الله ﷺ ما تمنى وخلا بمشاهدة مولاه وتهنّى ، قيل له : تمنّ واطلب ما تريد منا ، فقد أبحنا لك الطلب وبلوغ المرام ، فقال : أريد أن يصيب أمتي من تشريف خلعتي لينالهم من مواهب رحمتي جزيل الإنعام ، قيل له : يا سيد الكائنات ، ويا من تشرفت بوطء أقدامه الأرض والسموات ، قد خلعنا عليهم خمس خلع ، وقد أشرق كوكب سعدهم من أفق

مجدهم وطلع وهنّ الخمس صلوات ، التي يرتاحون إليها في الخلوات . فقال : وما صفة هذه الخلع ، وما أسماؤها التي ظهر على الآفاق نورها وسطع ؟ فقيل له : اجلس على مراتب التقريب ، يا أيها الحبيب . فها هي تزفّ بين يديك ، وتجلى عليك ، فأول عروس جليت عليه عروس مشرقة الأنوار عالية المقدار ، قد فاح عطرها في الأقطار ، ولاح نورها لذوي العقول والأبصار ، فنودي عند ذلك : يا من أمن بوصلنا من الصدود والهجر ، وحصل لأمته ببركته جزيل الثواب والأجر ، تسمى هذه الخلعة صلاة الفجر ، ثم جليت عليه عروس في حلل البياض ، وقد أمن من الصدود والإعراض ، فنودي عند ذلك : يا صاحب المناقب الزهر ، ومن فضلت أمته على سائر الأمم بالصلاة والطهر ، تسمى هذه الخلعة صلاة الظهر ، ثم جليت عليه عروس في حلل النور الباهر ، وقد أشرق الكون بنور وجهه الزاهر ، فنودي عند ذلك : يا من ليس لصفاته حدّ ولا حصر ، ومن قلد بسيف القهر والنصر ، تسمى هذه الخلعة صلاة العصر ، ثم جليت عليه عروس في حلل الكمال ، وقد بلغ جميع المقاصد والآمال فنودي عند ذلك : يا أشرف من هذب ، وأفضل من أدنى وقرب تسمى هذه الخلعة صلاة المغرب ، ثم جليت عليه عروس في حلل الوفا وقد نال عزاً وشرفاً وبلغ نهاية الاجتباء والاصطفا فنودي عند ذلك : يا أحسن من نشا وأفضل من هرول ومشى تسمى هذه الخلعة صلاة العشاء فهذه خمس صلوات في التكليف وخمسون بالأجر والتضعيف وقد زدتك يا صاحب الحوض والكوثر أني لا أقبل ذكر من ذكرني حتى تذكر ، فلما جليت عليه خلع الصلوات وعرائس الصلوات ناداه منادي القبول : طوبى لمن حافظ عليها وفاز ببلوغ المقصود والمأمول فقل لمن لم يجد من أسر هواه خلاصاً ولا فكاكاً ولا وجد له سبيلاً ولا حراكاً : ابك على نفسك بدمع الأسف على ما سلف وإن لم تبك فتباكَ :

يـا غاديـاً نحـو الحبيـب عسـاكا ... تقـرا السـلام إذا وصـلت هناكـا
وعسـاك تجـري ذكـر مثلـي عنـده ... فهـو الشـفاء لـدائنا ولـداكا
وقل السلام عليـك يـا خيـر الـورى ... مـن شـيق طـول المـدى يهواكـا
أنت الـذي لـولاك مـا سـرت الصبا ... كـلا ولا عـرف الهـدى لولاكـا
لـولاك مـا غفـرت لآدم زلـة ... لمـا التجـا في وقتـه لحماكـا
لـولاك مـا رفعـت ليـونس رتبـة ... لمـا نجـا مـن حوتـه بهـداكا
لـولاك مـا كـان ابـن عمـران ارتقـى ... طـور الخطـاب ونـال مـن نجواكـا
ولقـد سـريت إلى المهـيمن ليلـة ... والله مـا أحـد سـرى مسـراكا
بالجسـم كـان سـراك لا عـن ريبـة ... وتحكمـت في ملكـه عيناكـا

وطلبت تخلع نعل رجلك هيبة ... فأتى الندا لا تخلعن نعلاكا
ورقيت تخترق السموات العلا ... متوصلاً حتى بلغت مناكا
ناداك جبريل الأمين مخاطباً ... لك بالكرامة عن رضا مولاكا
إن كان آدم صفوة من خلقه ... فقد اصطفاك لحبه وهداكا
أو كان نوح قد نجا بسفينة ... فمن العدا في الغار قد نجاكا
أو كان إبراهيم أُعْطِيَ خلة ... فقد اجتباك الله إذ ناداكا
أو كان إسماعيل جاء له الفدا ... من ربه فكما فداه فداكا
أو كان موسى للإلّه مناجياً ... فبليلة المعراج قد ناجاكا
أو كان عيسى نال قبلك رتبة ... فمراتب المجموع قد أعطاكا
قد نلت بالمعراج كل فضيلة ... ورأيت رحمن السما ورآكا
فعليك يا خير الأنام تحية ... تأتيك بالإقبال من مولاكا

فلما رجع من معراجه ومرقاه ، وقد أشرق الكون بنوره وسناه ، وتعطر الوجود بطيب نشره وشذاه ، تحدث بما أولاه مولاه من الفضل والجاه وخصه به من الشرف واصطفاه ، فصدقه الصديق وبشره وهناه ، ولم يشق فيما نقله ورواه ، واطلع عليه ورآه :

حبيب سرى وهنّا فيا طيب مسراه ... وقد فاحت الأكوان من طيب رياه
وخادمه جبريل عند ركابه ... على متن ظهر للبراق ترقاه
وصلى بجمع الأنبياء وكلهم ... لرتبته العلياء حنّ للقياه
فلما علا السبع الطباق تحفه ... ملائكة الرحمن والنور يغشاه
تجاوز حداً لا يحد لواصف ... ولا حاسب في عده قط أحصاه
وفارقه جبريل عند مقامه ... وقال له هذا الحبيب ومولاه
هناك تجلى للحبيب مشاهداً ... بلا كيف لكن حيث شاء تلقاه
فأدهشه ذاك الجمال فلم يطق ... جواباً فنودي بالسلام فحياه
وأدناه منه قاب قوسين إذ دنا ... وناداه يا خير الأنام أنا الله
منحتك فانظر هذه ليلة الرضا ... فهل لي كما ظن المشبه أشباه
فبلغ وقل إن كنت عني محدّثاً ... رأيت حبيباً ليس يعبد إلا هو
يجود على العاصي ويستر أهله ... ويعفو عن الذنب الذي ليس يرضاه
بجاهك يا خير الأنام تشفعوا ... فحط عن المحزون منهم خطاياه
عليك سلام الله يا خير مرسل ... سلام شريف في الحقيقة ترضاه

فسبحان من خص هذا الحبيب بخلع التشريف والتقريب ، وجعله قبلة للطاعة وكعبة للشفاعة من النار واللهيب ، ووعد من صلى عليه بإجابة دعائه وانشراح صدره الرحيب ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ ﴾ [البقرة : ١٨٦] اللهم بجاهه العظيم وبما كان بينك وبينه ليلة الخلوة والجلوة والتقريب والتكريم ، اغفر لنا كل ذنب عظيم ، وألبسنا ملابس القبول ، وبلغنا نهاية المسؤول وجميع المأمول ، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، برحمتك يا أرحم الرحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس الخامس والعشرون

في حكايات الصالحين وما فيها من الرقائق والاعتماد على الخالق

فمن ذلك ما قال محمد بن السماك الواعظ رحمه الله : وصف لي عابد فسرت إليه لأزوره فوجدته في بيت ، وقد حفر فيه قبره وهو جالس على شفيره يصلح حوضاً بين يديه فسلمت عليه فرد عليّ السلام ردّاً ضعيفاً ثم قال : من أنت ؟ فقلت : محمد بن السماك ، قال : الواعظ ! قلت : نعم فألقى الحوض من يده وقال : يا بْن السماك إن الوعظ من المستمع بمنزلة الطبيب من العليل فاعرض عليّ شيئاً من وعظك ، فقلت له : يا شيخ أما تخشى أن تكون خطيئتك لا تنسى وذنبك لا يمحى ، ثم كم بين يديك من شدة وأهوال وكربة وأنكال ، فأولها ظلمة القبر ، ثم ظلمة النشر ، ثم ظلمة الحشر ، ثم ظلمة الصراط . ثم وزن الأعمال ، ثم قطع الآمال ، ثم سطوة الملك المتعال . فبكى بكاء شديداً . وقال لي : يا بْن السماك وما بعد ذلك ؟ قلت : حمل الأوزار والورود إلى النار ، وأعظم من ذلك توبيخ الملك الجبار ، فصاح صيحة عظيمة ثم سقط في قبره فخرجت إليه عجوز كبيرة وجعلت تمسح التراب عن وجهه وتقول : بأبي وأمي هاتان العينان طالما سهرتا في طاعة الله ، وطالما بكتا من خشية الله ، ثم حركته فإذا به مات فخرجت من المنزل فإذا أنا بسري السقطي وإبراهيم بن أدهم والجنيد وجماعة من وجوه العباد فقالوا لي : مات أبو يزيد الخوّاص ؟ قلت : نعم فدللتهم على المنزل فدخلوا ليخرجوه من قبره يغسلوه ويكفنوه فوجدوه مغسلاً مكفناً مطيباً فصلى عليه المسلمون ، ثم رجعت إلى منزلي وقد صغرت عندي نفسي :

إلى كم ذا التراخي والتمادي وحادي الموت بالأرواح حادي
فلو كنا جماداً لاتعظنا ولكنا أشدُّ من الجماد
تنادينا المنية كلّ وقتٍ وما نُصغي إلى قول المنادي
وأنفاسَ النفوسِ إلى انتقاصٍ ولكنَّ الذنوبَ إلى ازدياد
إذا ما الزرع قارنه اصفرار فليس دواؤه غير الحصاد
كأنك بالمشيب وقد تبدى وبالأخرى مناديها ينادي
وقالوا قد قضى فأقروا عليه سلامكمو لي يوم التناد

[قال عبد الله بن واسان رحمة الله تعالى عليه] : عبرت يوماً في أزقة البصرة فوجدت صبياً يبكي وينتحب فقلت له : يا ولدي ما الذي يبكيك ؟ فقال : خوفاً من النار ، فقلت : يا ولدي أنت صغير السن وتخاف من النار ، فقال : يا عمّ نظرت إلى أمي وهي توقد النار فرأيتها تقدم الحطب الصغار قبل الكبار . فقلت لها : يا أماه لم تقدمين الصغار قبل الكبار ؟ فقالت : يا ولدي ما تشعل الكبار إلا بالصغار فهذا الذي أبكاني وهيج لوعتي وأحزاني ، فقلت له : يا ولدي هل لك في صحبتي فتتعلم ما ينفعك ؟ فقال : على شرط إن قبلته فإني أصحبك وأتبعك . فقلت : وما هو ؟ قال : إن جعت تطعمني ، وإن عطشت تسقيني ، وإن زللت تغفر لي وإن مت تحييني . فقلت له : يا ولدي لا أقدر على ذلك كله ، فقال : يا عمّ دعني فإني على باب من يقدر على ذلك كله :

منك أرجو ولست أعرف رباً أرتجي منه بعض ما منك أرجو
وإذا اشتدت الشدائد في الأر ض على الخلق فاستغاثوا وضجوا
وابتليت العباد بالخوف والجو ع فصروا على الذنوب ولجوا
لم يكن لي سواك ربي ملاذ وتيقنت أنني بك أنجو

قيل : لما بلغ سفيان الثوري ﷺ من العمر خمس عشرة سنة قال لأمه : يا أماه هبيني لله تعالى ، فقالت : يا ولدي إنما يهدى للملوك من يصلح لهم ، وأنت ما فيك شيء يصلح لله فاستحيا ودخل بيتاً فأقام فيه خمس سنين متوجهاً إلى الله تعالى بالعبادة فدخلت عليه أمه بعد ذلك فوجدته مجتهداً في العبادة وعليه آثار السعادة فقبلت بين عينيه وقالت : يا ولدي الآن قد وهبتك لله فخرج عنها وغاب عشر سنين في سياحته متلذذاً بعبادته فاشتاق إلى أمه فزارها ليلاً فلما طرق الباب نادته من وراء الحجاب : يا سفيان من وهب لله شيئاً فلا يعود فيه وأنا قد وهبتك فلا أراك إلا بين يديه :

ولا تحسبوا أني نسيت ودادكم وإني وإن طال المدى لست أنساكم

حفظنا لكم عهداً قديماً وحرمة ونحن على العهد الذي قد عهدناكم
ونحن على ما تعهدون من الوفا يودكمو قلبي وبالغيب يرعاكم
ولست بناس عهدكم بَعْدَ بُعْدِكُمْ وما دام قلبي عندكم كيفَ ينساكم

[قال منصور بن عمار رحمه الله] : تكلمت في بعض مدائن العراق بكلام يذوب منه الجماد وتنفطر منه الأكباد ، فلم يجر لأحد في مجلسي دمعة ولا كأن كلامي طرق سمعه ، فبينما أنا أحدو نياق القلوب وأسوق الأرواح إلى حضرة المحبوب إذا أنا بشابّ حسن الثياب قد قام من المجلس وصرخ ثم جلس وزعق فزلزل بصرخته أركان الأفكار وخلا في سره بجمال الغفار فنزلت عن منبري ثم امتهلت حتى أفاق من سكر غرامه وصحا من راح هيامه ، ثم تقدمت إليه وقلت له : سيدي إلى أين وصلت خيل طربك ، فقال : وصلت خيل طربي إلى بلوغ طلبي ، قلت : وبماذا اتصلت ؟ قال : براحتي بعد تعبي ، قلت : وعلى ماذا حصلت ؟ قال : على كنز مقصودي ومطلبي ، قلت : فهل مررت على حضرة القرب ؟ قال : نعم ومنها كان مشربي ، قلت : فهل شاهدت رجال الوقار ، وخلعت معهم العذار ، فقال : يا بْن عمار وهل خلع العذار إلا مذهبي ، قلت : فكيف تحيلت حتى إلى الدخول توصلت ، قال : وقفت بالباب ولزمت أدبي فنظر الساقي الباقي إلى فرط أشواقي فرحمني ولطف بي وفتح لي الباب ورفع لي الحجاب وناداني تملّ بمشاهدتي عند رفع الحجاب ، ثم أنشأ يقول :

إن كنت من أهل عصبة الطلب بادر إلى شرب خمرة الطرب
وقم إلى نحوها لعلك أن تحصل من صرفها على الأرب
راح على أربع العناصر قد سمت إلى أن علت على الرتب
رقت وراقت وروقت وصفت وقدّست نسبة عن العنب

[قيل] : إن أبا القاسم الجنيد رحمة الله عليه حج هو وجماعة من الفقراء الصوفية فانقطع عنهم الماء أياماً حتى أشرفوا على الهلاك وكانوا تحت جبل ، فقال لأحدهم : خذ هذه الركوة واصعد هذا الجبل فخذ لنا تراباً طيباً طاهراً حتى نتيمم به فقد حان وقت الصلاة فأخذ المريد الركوة وصعد إلى الجبل فجعل يأخذ التراب ويجعله في الركوة وإذا بصوت يناديه فالتفت فإذا هو راهب في دير يناديه : ما تصنع بهذا التراب ، فقال : نحن مسلمون محمديون إذا عدمنا الماء تيممنا بالتراب ، فقال : عندي بئر عذب شراب خذ منها واشرب وتوضأ فقال المريد : نحن جماعة تحت الجبل فقال : انزل إليهم واعرض عليهم فنزل إلى الجنيد فأعلمه بذلك فقال : اصعد إليه وقل نحن في سبعين مرقعة أتحملنا فصعد إليه وقال له ذلك فقال : أحملهم ولو كانوا

ألفاً إكراماً لمحمد وأمته فإني أحبهم فنزل المريد على الجنيد وأخبره بقول الراهب فصعد هو والجماعة وفتح لهم الراهب باب الدير فوجدوا بئراً منقورة وفيها ماء عذب طيب فاستقوا منها وشربوا وتوضؤوا وصلوا فلما فرغوا قدّم لهم الراهب صحفاً على عددهم فيها أنواع الطعام فأكلوا وقدّم لهم الطست والإبريق فغسلوا أيديهم وطيبهم بالماء والورد والمسك فلما استقروا سألهم هل فيكم من يقرأ شيئاً من القرآن على حسب الحال فأمر الجنيد بعض مريديه فاستفتح وقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] فصرخ الراهب وقال : اصطلحنا ورب الكعبة فلما أتم القارىء قراءته سألهم وأقسم عليهم هل فيكم من يحسن أن يقول شيئاً فإني أحب السماع فأشار الجنيد إلى بعض المريدين فأنشد :

أقام على الإبعاد حيناً من الدهر فعرفه كيف الطريق إلى العذر

وأشفق أن يبقى على حالة الجفا فيغرق في بحر الصدود ولا يدري

لأن جراحات الجناية بالوفا وإن برئت لا ينمحي موضع الأثر

فبكى الراهب طويلاً ثم قال زيادة فأنشد له ثانياً :

لبيك يا من في القديم دعاني وإليه باللطف الخفي هداني

فصرخ الراهب وقال : لبيك سيدي لبيك وها أنت قد دعوتني إليك وأنا أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله وقطع الزنار وخلع ما كان عليه فألبسه الجنيد دلقه وفرح بإسلامه هو والجماعة وخلاص عنقه من النار ثم أخرج لهم ألف دينار كان مذخورة عنده ثم ترك الدير وما فيه وساح على وجهه هائماً لا يدرون أين ذهب فلما وصلوا إلى مكة شرفها الله تعالى ودخلوا الحرم فطافوا واجتمعوا وإذا بشخص متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : سيدي بكشفك حجابك لي حتى شهدتك وباستدعائك لي حتى أجبتك فيا من عرفني به فعرفته هب لي من الحجيج من لا قبلته . فقال الجنيد لبعض مريديه : انظروا من القائل لهذا الكلام فمضى إليه فوجده الراهب فقال له : يا هذا اذهب إلى الجنيد وأقرئه عني السلام وقل له : إني لما فتحت لكم المقام وبذلت لكم الطعام ناداني الملك العلام إلى الإسلام وخلع عليّ خلعة الإكرام حتى لبست ثياب الإحرام ودخلت البلد الحرام ولي عنده حرمة وذمام ، فعاد المريد إلى الجنيد فأخبره بذلك فقام إليه وضمه وقبّل بين عينيه وقال له : حبيبي كيف رأيت لذة الوصول إليه فقال : يا سيدي لما هجرت الطلول وتبعت القفول هبت عليّ نسمات القبول ففتح لي مولاي باب الوصول فحصلت على المحصول وبلغت القصد والسول ثم صاح وسقط على الأرض فحركناه فإذا هو مات . هذه والله الجذبات الربانية ، وهذه أمارات الإخلاص في الوحدانية :

غلب الغرام عليه حتى إنه ... ساوى هواه ليله بنهاره
وسطا عليه السكر حتى قد غدا ... متهتكاً في الحب بعد وقاره
ولهان بين معنف ومؤفف ... فرحان من طرب بخلع عذاره
أضحى بخمرة حبه متمايلاً ... بخماره شوقاً إلى خماره
وكليم شوق كم له من زورة ... يرجو شفا أوزاره بمزاره
في طور طور القلب حاول نظرة ... فقضى الهوى بالعبد عن أوطاره
لا عار للمضطر أن يبدي الجوى ... ويبث ما يلقاه من أضراره

[قال بعض العارفين] : رأيت غلاماً قد افترش الرماد وهو يتمرغ عليه ويئنّ أنيناً شديداً فقلت لصاحبي : اعدل بنا إلى هذا العليل نعوده فقال : ليس هذا عليلاً ولكنه من المحبين يدعى بعبيد المجنون قال : فتقدمت إليه فإذا هو فتى وعليه جبة صوف بالية وهو يقول : سيدي عجباً لمن وصل إلى معرفتك وذاق حلاوة محبتك كيف ينقطع عن خدمتك ثم لم يزل يردد ذلك القول حتى غشي عليه فقلت لصاحبي : إنما المجنون والله من لم يصل إلى هذه المنزلة فلما أفاق من غشيته نظر إلينا وقال : ما بالكم تنظرون إليّ ؟ قلنا : لعل دواء يشفي من الداء الذي تجده : فقال : إن الذي ابتلى بالداء عنده الدواء ولكن يطلب الذي يتداوى أن يحتمي أوّلاً فقلت : بماذا ؟ قال : بترك الحرام وعدم التعرض للآثام ومراقبة الملك العلام والتهجد بالليل والناس نيام وأخذ القليل من البلغة والصبر على البلا في حال السخط والرضا والتعفف والقناعة عند وجدان الاستطاعة والاستعداد للموت وإعداد الجواب لمسألة منكر ونكير والوقوف بين يدي الملك الجليل القدير ثم إما إلى الجنة وإما إلى السعير ثم بكى حتى علا بكاؤه وبكينا معه ، وقلنا له : نحن أضيافك فادع لنا ، فقال : لست من خيل هذا الميدان ، فأقسمنا عليه فقال : جعل الله قراكم الجنة ، وجعل ذكر الموت مني ومنكم على بال ، قال : فانصرفنا عنه وقد عاشت قلوبنا من حسن لفظه وموعظته ، وارتاحت النفوس لعذب كلامه ومحبته .

[إخواني] هذه أحوال المجانين ، فأين عقلك أنت أيها الكئيب الحزين المسكين ؟

يا من بديع جماله الفتان ... يسبي عقول أعزة الفتيان
لولا وصالك لي لما علق الهوى ... بحشاشتي وثنى إليك عناني
لاحظتني نظراً تضمن جملتي ... فعجبت من داعيك حين دعاني
يا نظرة أهدت لسرّ سرائري ... شوقاً فلم ينظر إلى إنسان
فتراسلت أسرارنا وتجوهرت ... أرواحنا وسرت عن الجثمان

مــا لي وللــبرق الخفــيّ يهــيجني وجــداً وإن ســجع الحمــام شــجاني
لــولاك مــا هــزّ الغــرام معــاطفي طربــاً ولا أصــبو إلى الألحــان
أشــتاقه لا عــن مســافة بيننــا لكــن يحــنّ إلى لقــاه جنــاني
مــا قلــت آه تألمــاً مــن وجــده لكــن لفــرط لــذاذة الوجــدان

[قيل] : جلس عبد الله بن مشرف وزير هارون الرشيد بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين لو استغاث بك رجل في ردّ عبد له هرب إليك أما كنت ترده إليه ؟ قال : بلى ، قال : فأنا عبد قد فررت إلى خدمة سيدي فاتركني له فقد أردت الرجوع إليه . فبكى الرشيد ومن حضره ، وقال : هذا رجل قد نجا من بيننا، ونحن جلوس ننظر إليه ، ثم خلى سبيله فخرج من وقته محرماً يقول : لبيك الله لبيك . فلقيه الثوري في بعض الطريق وهو نائم على الأرض والريح ترفع التراب على وجهه فسلم عليه وقال : يا عبد الله ما الذي عوضك الله عما تركت ؟ فقال : يا سفيان عوضني الرضا بما أنا فيه . فلما بلغ شيوخ الحرم قدومه خرجوا للسلام عليه ؛ فرأوا شعثه وجهده ، فقالوا له : كيف رأيت جهدك وصبرك على قطع المفاوز ؟ فقال : وكيف يأتي العبد المجرم إذا قاد نفسه إلى باب مولاه لو قدرت جئت أسعى على رأسي . ثم أخذ بالبكاء ، فقيل له : وما هذا البكاء ؟ فقال : شفيع قدمته لعله يقبل . فلما وقع بصره على البيت شهق شهقة ومات رحمه الله تعالى :

جنوني بكم حلـم وغيـي بكـم رشـد وحب الورى هـزل وحـبي لكـم جـد
رضيت بما ألقـاه في السـخط والرضـا ولو كان سمًّا فهـو مـن أجلكـم شـهد
وحقكمـو مـا سـرني مـن سـواكمو دنـوّ ولا مــن غيركـم سـاءني بعـد
وما سمحت بالصبر عنكم حشاشـتي ولا بخلــت بالــدمع أجفــاني الرمــد
وإني لأهــوى الشــوق حــتى كأنمــا علـى كبـدي مـن حـر نيرانكـم وقـد
وأستنشق الأرواح من نحـو أرضـكم وأسأل عـنكم مـن يـروح ومـن يغـدو
فحنـوا وجـودوا وارحمـوا وتعطفـوا وكونـوا كمـا شـئتم فمـا منكمـو بـد

[قال محمد بن السماك رحمة الله عليه] : وصف لي عابد في بعض جبال الشام فسرت إليه وسلمت عليه فرد عليّ السلام وقال لي : يا بْن السماك من أوردك إلى هذا المكان ؟ قلت : سمعت بك فجئت بك أزورك ، فقال : غرك من أخبرك ، أنا أعرف بنفسي من غيري ، فالعاقل يا بْن السماك من يجتهد في الخلاص والفكاك قبل الهلاك . فلما سمعت كلامه بكيت ، فلما عزمت على الانصراف قلت : هل لك من حاجة ؟ قال : من جلس في هذا المكان لم يبق له حاجة إلى إنسان ، ثم قال : يا بْن السماك هل لك أنت من حاجة ؟ فقلت له : سألتك بالله

إلا ما أخبرتني ، ما الذي تحب من الدنيا والآخرة ؟ فبكى وقال : والله لولا أقسمت عليّ ما أخبرتك ، فأما الذي أحبه من الدنيا فقوة على الطاعة ، وزهد وقناعة ، ونفس بعيدة عن الهوى ، وقلب حشوه الخوف والجوى . وأما الذي أحبه من الآخرة فسماعي من سيدي : اذهب فقد غفرت لك . ثم تأوه ووقع على الأرض ميتاً فبهت من حاله وحرت في أمره وهممت بغسله وتجهيزه فسمعت هاتفاً من خلفي : يقول : يا بْن السماك هوّن عليك فليس أمره إليك ثم غيب عني فسمعت صب الماء عليه وأنا لا أنظر إليه وسمعت قائلاً يقول : هنيئاً لك أيها الوليّ المحبور بالأمن من الخوف يوم النشور :

لما رأيتك حاضرا في القلب زاد بي الخمار فبقيت فيك محيرا والقلب ليس له قرار
يا صاح هات مدامتي صرفاً فما عنها اصطبار لطفت فلما داقها الأحـ ـباب نحو الحب طاروا
بذلوا إليه نفوسهم كلا وما في الموت عار وإليه في بحر الهوى ركبوا وبالأرواح ساروا
طلبوه حقاً بالقلو ب فعندها نظروا وحاروا

[قال منصور بن عمار ﷺ] : ـ وكان واعظ العراق ـ بينا أنا في بعض الليالي نائم إذ رأيت باباً في السماء مفتوحاً وقد نزل منه ملك كثير الأنوار ، فقال لي : يا بْنَ عمار يسلم عليك الملك الجبار ، وخالق الليل والنهار ، ويقول لك : انصب غداً منبرك في الخان ، وتكلم بعزم وجنان ، فلنا في ذلك سرّ ونبأ ، ونشهدك من آياتنا عجباً . قال ابن عمار : فاستيقظت من منامي وأنا فزع ولا أجيب . وقلت : إن هذا لشيء عجيب . هذا أمر ما أظنه يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . كيف تورد الأحاديث الصحاح ، على غير أهل الصلاح ؟ وكيف يتلى القرآن بين الدنان والأقداح ؟ أم كيف تجلى عرائس الأذكار والآيات ؟ على أهل الخمور وفي الحانات ، فأعدت الوضوء وصليت ركعتين ، ثم نمت وإذا بالملك قد عاد وقال : يا منصور ما جئتك إلا بأمر الملك الغفور وهو يقول لك : قم وتكلم في الخان ، وعلينا الضمان . فاستيقظت من منامي وأنا من هذا الأمر أتعجب وأتفكر . وقلت : أريد حمال المنبر فإذا به قد حضر وطرق الباب ، قلت : من ؟ فقال : يا سيدي أنا حمال المنبر تريد أن أنصب لك المنبر في وسط الخان ؟ أم بين الدنان ؟ فقلت : ومن كشف لك عن هذا السرّ المصون ؟ فقال : الذي يقول للشيء كن فيكون . اعلم يا سيدي أن الملك الذي جاء إليك البارحة جاء إليّ بعدك وقلدني الأمانة ، وأمرني أن أنصب لك المنبر في الحانة ، قلت : حبيبي إن كان الأمر كما تقول فافعل ما أمرك به الرسول ، فلما أسفر الصباح ، ونشر عطره الفياح ، سارعت إلى امتثال الأوامر . فإذا شيوخ الخان قد عقدوا الدساكر فصعدت منبري بين جلاسي ، وأطرقت ساعة ثم رفعت رأسي وقلت : الحمد لله الذي جذب قلوب أحبابه ، إلى حضرة اقترابه ، وأدخلهم إلى حانة وصله وسقاهم

شراب عتابه ، وشغلهم به عمن سواه ، والمحب لا يشغل بغير أحبابه وتجلى عليهم فدهشوا عند مشاهدة جماله ورفع حجابه . فيا أيها السكارى بخمر الهوى لو دخلتم حانة الحب وعاينتم دنان القرب لرأيتم رجال الوقار في حضرة الملك الغفار ، وأقداح الأفراح عليهم تدار ، وكاسات المصافاة تغنيهم عن شراب العقار ، فأقداحهم أفراحهم وخمارهم أذكارهم ، وريحانهم قرآنهم وورده وردهم ، وشمعهم سمعهم ومزمارهم استغفارهم ، فإذا جنّ الليل وغابت الرقباء والأغيار ، تجلى عليهم الملك الجبار ، ورفع لهم الأستار ، فشاهدوا جمالاً لا تكفيه العقول ولا تمثله الأفكار ، فتأملوا يا أولي الألباب ، كم بين القشور واللباب ، واعلموا أن محرك أغصان القلوب ، الجامع بين يوسف ويعقوب ، ما أمرني بالجلوس في هذا المكان إلا وقد عفا عما كان من الذنوب والعصيان ، وجاد بالعفو والرضا ، وصفح عما مضى ، وسمع للجاني وقبل المطرود والعاني ، فالمحبوب قد حضر ، وبعين الرضا إليكم قد نظر ، وقد انتهت إليكم النوبة ، فهل فيكم من يعزم على التوبة ؟ فقد دارت كؤوس المصالحة ، وهبت نسائم المسامحة . قال ابن عمار : فما استكملت كلامي إلا وشاب قد وقف أمامي وهو سكران وفي يده قدح بالخمر ملآن وهو ثمل نشوان ، وقال : يا بْنَ عمار ترى الملك المتعال ؟ يقبلني وأنا على هذا الحال ؟ فقلت له : يا حبيبي كيف لا يقبلك بإفضاله وإسعاده ، وقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى : ٢٥] قال : فرمى القدح من يديه وخرج هائماً ، واستيقظ من غفلته بعد أن كان نائماً ، ثم قام إليّ شيخ مخمور وبيده طنبور ، وقال : يا بْنَ عمار هل يقبل الاعتذار ؟ لمن ضيع عمره في المعاصي والأوزار ؟ فقلت له : يا سيدي كيف لا يقبل الاعتذار ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ ﴾ [طه : ٨٢] فأبشر من التوبة بالنجاح ، فقد فتح باب السماح . فلما سمع كلامي رمى الطنبور وصاح ، وخرج على وجهه هائماً وساح .
ثم قام إليّ غلام قد لعبت به المدام ، واستولى عليه الوجد والغرام ، وقال : يا منصور إن الملك الغفور ، قد أمرك أن تأخذ عليّ العهود ، فقد مضت دولة الصدود ، وأنجزت الوعود ! وآن أوان حصول المطلوب والمقصود ! فقلت له : يا غلام من أوصلك إلى هذا المقام ؟ فقال : أنا الذي خوطبت من أجله في المنام ! وأتاك الملك في شأنه من عند الملك العلام ! فقلت له : حبيبي ومن كشف لك عن هذا السرّ المستور ؟ فقال : الذي ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] ثم قال : يا منصور من هبت عليه نسمات الملاطفة لم يعجز عن حصول المكاشفة ! قلت : سيدي فمتى هبت عليك هذه النسائم ؟ قال : البارحة وأنت نائم ، ثم قال : يا بْن عمار أنت كنت السبب في دلالتي عليه وقربي لديه ؟ فهل لك من حاجة إليه ؟ قلت : سيدي فإلى أين عزمك ؟ فقال : يا منصور إلى حضرة الملك الغفور ! بين ندمان عليهم

كؤوس الأنس تدور بين ذاكر ومذكور ! وقد رفعت الحجب والستور ! فإن أحببت يا بْنَ عمار أن تراني فهناك غداً تلقاني ثم خطا في الهواء خطوات ، وقد نهى النفس عن الشهوات ، فغاب عن عياني ، فجعلت أرمقه بإنساني ؟ فسمعته يقول :

دعوني فالذي أهوى دعاني ونـاداني ومنه الوصل داني
وقال تريد ماذا قلت كأساً أهيم بسكرها طول الزمان
وأنظر نظرة يا نور عيني أراك بها على قرب التداني
فقد لبى عظيم الشوق مني ولم يخطر سواك على لساني
ومذ ناديتني للوصل جهراً أجبت وقد أتيت بلا تواني
وكنت على القبائح مستمراً كثير الذنب مضنى القلب عاني
فلاطفني حبيبي حين داوى فؤادي بالوصال وما جفاني
وكنت على شفا جرف المعاصي فداركني حبيبي واجتباني
وعرفني الطريق إليه جهراً فنلت القصد منه والأماني
فها أنا بعد ذلي في اعتزاز وعندي كل أسباب التهاني

المجلس السادس والعشرون

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله المتعزز بجلاله ، المتفرد بكماله ، المتوحد ببديع أفعاله ، الذي أودع جواهر حكمته في صناديق قلوب أهل معرفته ، وقفل عليهم بوثيق أقفاله ، دعاهم إلى حضرة قدسه ، وتولاهم بنفسه ، فخرج كل منهم عن أبناء جنسه وأشكاله ، قنعوا في المسير باليسير ، ونشطوا في الليل كما ينشط الأسير من عقاله ، قاموا في الدجى على أقدام التهجد بين يدي مولاهم ، فأصبحوا وقد أولاهم من فضله ونواله ، استعذبوا التعذيب في رضا الحبيب وصبروا على مرارة أهواله ، تجافوا عن الجفاء والغدر ، وداموا على استعمال الصبر وما كل أحد يقدر على استعماله ، جادوا في محبته بالأموال والأرواح فحصل لهم السرور والأفراح وما برح المحب يجود بروحه وماله ، سقاهم بكأس منادمته ، فأضحوا نشاوى من فرط محبته ، لا يعرف أحدهم يمينه من شماله ؛ فالعارف قد ترك لذة هجوعه ، والخائف قد تردى برداء ذله وخضوعه ، والمذنب قد بكى بفيض دموعه ، والهائم قد خرج عن ربوعه وأطلاله ، والمطرود

قد غص ببعده ، والعاصي قد احترق بنار وجده ، والواجد قد خرج عن حده ، ونادى بلسان حاله :

يا من سقى قلبي شراب وصاله ... وأباحه نظراً لحسن جماله
عودته منك الجميل فأجره ... كرماً على عادات حسن مثاله
حاشاك تنعمه رضاك وقد أتى ... متنصلاً من عظم قبح فعاله
لا تبتليه بالبعاد وبالجفا ... يا سيدي أنت العليم بحاله
يا أيها العاصي المسيء إلى متى ... تعصي الإلّه وتغتذي بنواله
قم في الدياجي طالباً لأمانه ... واخضع وذل لعزه وجلاله
واضرع إليه وناده بتذلل ... يا من يجود على الكئيب الواله
يا من إذا سأل المقصر عفوه ... فهو المجيب بفضله لسؤاله
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا ... وتشفعي بمحمد وبآله
المصطفى المختار أكرم شافع ... فيمن يرجيه ليوم مآله
صلى عليه الله ما جنّ الدجى ... وبدا الصباح بنور حسن جماله

[إخواني] أين الذين ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] أين الذين قيل في حقهم : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أين الذين ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] أين من بات وهو لربه ساجد وراكع ؟ أين الذي سبقت لهم العناية بالتوفيق والهداية . قال عبد الواحد بن زيد رحمة الله عليه : خرجنا جماعة من الفقراء نريد سفراً في البحر فعصفت الريح بنا فطرحتنا على جزيرة في البحر فرأينا فيها رجلاً يعبد صنماً من دون الله تعالى ، فقلنا له : أيّ شيء تعبد ؟ فأومأ بأصبعه إلى الصنم ، فقلنا له : يا مسكين إن معنا في السفينة من يحسن صنع مثل هذا ، وإنه ليس بإلّه يعبد . قال : فأنتم من تعبدون ؟ قلنا : نعبد الله ، قال : وما الله ؟ قلنا : الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الأحياء والأموات قضاؤه ، فقال : فكيف علمتم ذلك ؟ قلنا : أرسل إلينا رسولاً أخبرنا بذلك ، قال : فما فعل الرسول ؟ قلنا : لما أدى رسالة الملك قبضه إليه ، قال : فما ترك عندك علامة من الملك ؟ قلنا : بلى ترك عندنا كتاب الملك ، قال : أروني كتاب الملك ، فإن كتب الملوك تكون حساناً . قال : فأتيناه بالمصحف ، فقال : لا أحسن أقرأ هذا فقرأنا عليه سورة فما زال يسمع ويبكي إلى أن ختمنا السورة ، فقال : ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى فأسلم وحملناه وعلمناه شرائع الإسلام وشيئاً من القرآن . فلما أقبل الليل صلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا للنوم ، فقال : يا

قوم الإلّـه الذي دللتموني عليه ينام ؟ قلنا : لا يا عبد الله هو حيّ قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، فقال : فبئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام ، فأعجبنا كلامه ، فلما وصلنا إلى عبادان وأردنا أن نفترق جمعنا له دراهم وقلنا له : أنفق عليك هذه فنظر إلينا مغضباً . وقال : لا إلّـه إلا الله دللتموني على الطريق ولم تسلكوها ، أنا كنت في جزيرة في البحر أعبد صنماً من دونه فلم يضيعني فكيف الآن وقد عرفته ثم تركنا ومضى . قال عبد الواحد : فلما كان بعد أيام أتاني آت فأخبرني عنه أنه بأرض كذا وهو يعالج سكرات الموت فجئته ، وقلت له : ألك حاجة ؟ قال : قد قضى حوائجي من عرفتني به ، فبينما أنا أكلمه إذ غلبتني عيناي فنمت فرأيت في المنام روضة وفي الروضة قبة وفيها سرير وعليه جارية أجمل من الشمس والقمر وجهاً وهي تقول : سألتك بالله إلا ما عجلت عليّ به فانتبهت فإذا به قد مات فجهزته ودفنته في قبره فلما نمت رأيته في المنام في القبة التي رأيتها أولاً والجارية إلى جانبه وهو يتلو قول تعالى : ﴿ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣ ـ ٢٤] .

صب قضى في الهوى العذري مشتاقاً ... ولم يخن لأهل الحي ميثاقا
ومات وجداً بهم من بعد ما عطفوا ... عليه حين غدا بالذنب منعاقا
له الهنا وله البشرى غداة غد ... ينسى بطيب التلاقي كل ما لاقى
ويشهد الحسن في كل الوجود بدا ... والحجب قد رفعت والوقت قد راقا
وخمرة الأنس دارت والمدير لها ... أعارها منه أنوارا وإشراقا
كم نوّرت بصراكم جوهرت فكرا ... كم أيقظت في ظلام الليل أحداقا
وقد تجلى لأهل الحب فافتتنوا ... وأصبحوا كلهم للحسن عشاقا

[إخواني] لا تزدروا حلل الفقر فإن عليها أنوار المهابة ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : ٦] « رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » .

[قال محمد بن المنكدر] رحمة الله عليه : كان لي سارية في مسجد رسول الله ﷺ أجلس إليها بالليل فقحط أهل المدنية سنة فخرجوا يستسقون فلم يسقوا ، فلما كان الليل صليت العشاء في المسجد ثم جئت فاستندت إلى السارية فجاء رجل أسود تعلوه صفرة متزر بكساء فتقدّم إلى السارية وأنا خلفه ولم يشعر بي فصلى ركعتين ثم جلس ، فقال : يا رب خرج أهل حرم نبيك ﷺ يستسقون فلم تسقهم وأنا أقسم عليك بجاه محمد ﷺ وآله أن تسقيهم . قال ابن المنكدر : فما وضع يده حتى سمعت الرعد ثم جادت السماء بالمطر حتى أهمني الرجوع إلى أهلي ، فلما أحس بالمطر حمد الله وأثنى عليه بمحامد لم أسمع بمثلها ثم قام فلم يزل يصلي حتى قرب الفجر

فأوتر وصلى ركعتين ثم أقيمت الصلاة فصلى الناس وصلى معهم ، فلما سلم الإمام خرج مسرعاً فركضت خلفه حتى انتهى إلى باب المسجد فجعل يرفع كساءه ويخوض في الماء فحيل بيني وبينه فلم أدر أين ذهب فبقيت متأسفاً عليه متشوقاً إليه :

نهاري وليلي دائم الحزن والبكا ... على جيرة في ذي المنازل قد كانوا
لقد رحلوا عني وإني لبعدهم ... كئيب حزين واله القلب حيران
نأوا فبقلبي حرقة لفراقهم ... وفيه من الوجد المبرح نيران
فوا حسرتي ولى الزمان ولم أفز ... برؤية أحباب عن العين قد بانوا
نسيم الصبا بلغ سلامي إليهم ... فقد مضى منهمُ صدودٌ وهجرانُ
وإن لم أطق صبراً عليهم فليس لي ... سوى من له حلم وعفو وغفران
يفرج أحزاني ويغفر زلتي ... ففي القلب من فقد الأحبة أحزان

[**إخواني**] ما كل مسافر حاج ، ولا كل بيت مكة ، ولا كل زاد يبلغ ، ولا كل جبل عرفات ، ولا كل واقف واقف .

[قال ذو النون المصري] : حججت سنة إلى بيت الله الحرام ، فلما وقفت بعرفة رأيت شاباً عليه آثار الاصفرار والنحول والقلق والذبول ، فعلمت أن عنده من المحبة محصول فسمعته يقول : سيدي كيف ألبيك بلسان عصاك أو قلب جفاك ، سيدي ما أجمل هذه الساعة إذ أنت تناجيني وفي هذا الموقف تناديني . قال ذو النون : فتقدمت إليه ، فلما رآني قال : مرحباً يا ذا النون فقلت له : ومن أين تعرفني ؟ فقال : عرفني بك من عرفني وأخبرني بك من آنسني ، ثم قال : يا ذا النون حبه تيمني وهجره أنحلني فمتى أظفر بقربه ويجود لي الحبيب برفع حجبه ؟ قلت : من أين جئت ؟ قال : من بلد القلب أقصد حضرة الرب ، قلت : فبم تزودت ؟ قال بقطرة من شراب أنسه أرجو أن أصل بها إلى حضرة قدسه ، قلت : فهل كانت لك مطية ؟ قال : نعم صفو النية والانقطاع عن الدنيا بالكلية والتنزه في مقامات حضرته السنية ، ثم قال : إليك بنسكه وتقدّم بملكه وأنا ما أملك غير هذه النفس العانية الغافلة الساهية وإني أقربها إليك بالذلة والمسكنة بين يديك ، فإن تكرّمت بقبولها فجد بوصولها وأسرع في تعجيلها فأنت دليلها إلى سبيلها ثم صاح وتأوّه وسقط إلى الأرض ميتاً فسمعت قائلاً يقول : يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى . قال ذو النون : فوقفت عند رأسه أتفكر فيه ، إذا بعجوز قد أقبلت وألقت نفسها عليه ثم أجرت الدموع أسفاً وأظهرت حزناً ولهفاً ثم قالت : هنيئاً يا من كان دأبه النسك والوفا ، وما غفل عن خدمة سيده ولا هفا ، وطالما قام في الليل برداء الطاعة ملتحفاً يمسي كئيباً ويصبح

مدنفاً . قال ذو النون : فقلت لها : من يكون لك هذا الشاب ؟ قالت : هو ولدي سائح في الفلوات أجتمع أنا وهو كل سنة في الموسم والميقات ، فلا أعود أراه إلى العام المقبل ، فلما وقفت في هذه الساعة بعرفات طلبته على سالف العادات فهتف بي هاتف أنه قد مات ، وقد رفعت روحه إلى أعلى الدرجات ، ثم قالت : يا سيدي بما بيني وبينك في خلوتي وبما أودعت من محبتك في مهجتي إلا ما خلصت نفسي العانية من هذه الدار الفانية وأوصلتني مع ولدي إلى الدار الباقية . قال ذو النون :ثم تنهدت وخرت ميتة إلى جانب ولدها ، رحمهما الله تعالى :

فاز المحبون بالمحبوب واتصلوا ... ولم يخب منهمو في قصدهم أمل
وافوا ومحبوبهم وفى أجورهم ... وأقبلوا وهمو والله قد قُبِلوا
ومِنْ رضاه عليه أُلبسوا خلعاً ... بديعةَ الحسن فيها يُضرب المثل
يا جيرتي وأصيحابي بخيف منى ... متى تعود لنا أيامنا الأول
ما كان أحسن ذاك الشمل مجتمعاً ... والوصل متصل والهجر منفصل
والوقت صاف وساقي القوم سامرهم ... لما تجلى على أسرارهم ذهلوا
ناداهمو قد بلغتم كل قصدكم ... فاليوم لا صدّ تخشوه ولا ملل
ها قد خلعت عليكم من خزائن ما ... دخرته خلعاً ينأى بها الوجل
فاستبشروا بنعيم لا نفاد له ... على الدوام وجناتي لكم نزل
هم الأحبة أدناهم لأنهمو ... عن خدمة الصمد القيوم ما غفلوا
باعوا النفوس بجنات فبايعهم ... لما اشترى منهمو في حبهم قتلوا
عند المهيمن أحياء وقد رزقوا ... طيب الجنان على لذاتها حصلوا
وجاوروا المصطفى الهادي الذي رغبوا ... في حبه وله أرواحهم بذلوا
سعوا إلى بابه راجي شفاعته ... يوم المعاد إذا كل الورى ذهلوا
داعي التشوّق ناداهم وأقلقهم ... فكيف يهدوا ونار الشوق تشتعل
وشقة البيد تطوى في السرى لهمو ... وكل قاص دنا حتى به اتصلوا
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... يوم الحساب إذا ضاقت بنا السبل
صلى عليك إلّه العرش ما هتفت ... ورق الحمام وما سارت لك الإبل

[**حكاية**] : كان إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه صاحب خراسان ، فبينما هو ذات يوم راكب على جواده في معرك جلاده بين عسكره وأجناده ، إذ سمع من قربوس سرجه منادياً ينادي : يا إبراهيم ما لهذا خلقت عبادي ولا بهذا أمرت أهل ودادي ، فاترك مرادك لمرادي

وإلا فأنت من أهل عنادي ، قال إبراهيم : فأصابني السهم في مقتل فؤداي فتغربت عن بلادي وتشتت عن أولادي وخرجت هائماً إلى من عليه توكلي واعتمادي :

أهـــيم بحـــبكم في كـــل وادي　　وأســـأل عنكمـــوا في كـــل نـــادي
وأنـــدب كلمـــا عاينـــت ربعـــاً　　حـــدا لهمـــو بوشـــك الـــبين حـــادي

فلما انفصل إبراهيم ملكه ومماليكه واتصل بخالقه ومالكه دخل البادية وأشجانه عليه بادية وانقطع في الطريق عن الرفيق وبقي سبعة أيام لا يتناول شربة من الماء ولا لقمة من الطعام ، فغار الشيطان على صدقه والشيطان غيور ، وإنما يغار من الأكابر ملوك الحقيقة وسلاطين الطريقة وحق له أن يغار لأنهم ألبسوا خلعته التي انخلع منها وولايته التي انعزل عنها فظهر له الشيطان في هيئة شيخ صالح ، وقال له : يا إبراهيم اسمع مني فإني لك ناصح : إن الحبيب الذي تركت من أجله الممالك وركبت في محبته المهالك قد ضيعك حتى أشرفت على الموت ، فقال : لا بأس بالموت إذا حصل الأمان من الفوت :

يا لائمي لو بـذلت الـروح مجتهـدا　　وجملـة المـال والـدنيا ومـا فيهـا　　وجنة الخلد والفردوس أجمعهـا
بساعة الوصل كان القلب شـاريها　　لا تسلكن طريقاً لست تعرفهـا　　بـلا دليـل فتـهوي في مهاويهـا

فـــالروح أوّل موجـــود تجـــود بـــه　　والـــنفس أيســـر شـــيء فيـــه تفنيهـــا
ومـــا عليـــك إذا ماتـــت بغصـــتها　　مـــن الغـــرام فـــإن الوصـــل يحييهـــا

فبينما إبراهيم في دهشة حيرته إذ ظهر له شخص من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً ، وقال له : يا إبراهيم تريد أن أعلمك الاسم الأعظم فتسقى به وتطعم ، فقال : نعم فعلمه إياه فقال له : من أنت ؟ قال : أنا أخوك الخضر تريد أن أصحبك ؟ قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : لأن الصحبة لا تحصل إلا بالشركة وأنا لا أريد أن أشرك في مصحوبي ولا أصحب غير محبوبي ، فإني أخاف أن أصحب غيره وهو شديد الغيرة فلا حاجة لي في ذلك :

هـــاكم فـــؤادي فـــإن أبقيتمـــو أثـــراً　　لغيركـــم فـــاجعلوا التعـــذيب مـــأواه
وهـــا لســـاني فـــإن أنبـــاكمو خـــبراً　　عن غيركم صـحـحوا بالكـذب دعـواه
فمـــن تكـــن أنـــت دون النـــاس بغيتـــه　　فـــامنن عليـــه ولـــو يومـــاً بلقيـــاه
فأنـــت للصـــب أقصـــى مـــا يؤملـــه　　وأنـــت للقلـــب أحلـــى مـــا تمنـــاه

وكان إبراهيم لما انفصل عن أهله فارق زوجته وهي حامل فولدت له ولداً سموه أدهم باسم جده فلما كبر وترعرع قال لأمه : يا أماه ! أما كان لي أب ، قالت : بلى ، والله يا بني كان لك أب وأيّ أب ، فقال : أين ذهب ؟ قالت : يا بني ذهب في طلب ربه . فقال : يا أماه دعيني

أذهب وأطلب ما طلب أبي : لعلي أفوز بأربي .

فقالت : بالله عليك يا ولدي إن أباك قد أحرق قلبي فلا تحرق أنت قلبي بفراقك فمكث رعاية لأمه حتى ماتت فبقي حزيناً لا أم له ولا أب ، فخرج حافياً وعن الناس خافياً يبيت بالمساجد المهجورة ويسأل اللقمة من الأبواب إلى أن وصل إلى مكة شرفها الله تعالى ، فبينما إبراهيم في الطواف ومعه بعض مريديه : إذ نظر الشيخ إلى الشاب وجعل يحدقّ بالنظر إليه ، فأنكر المريد عليه ، وقال له : يا سيدي ما هذه الغفلة في هذا المكان والوقت تحدق بالنظر إلى صورة مستحسنة ، فبكى الشيخ . وقال للمريد : اذهب إليه وسله من هو ؟ فذهب المريد إليه وسلم عليه وقال له : من أنت أيها الشاب ؟ فقال : من بلاد العجم من بلخ ، فقال : ابن من ؟ فقال : لا أدري إلا أن أمي قالت لي إن اسمه إبراهيم بن أدهم ، ثم تناثرت دموعه على خده . قال المريد : فرجعت إلى إبراهيم فوجدته قد بكى حتى غشي عليه فجلست عند رأسه حتى أفاق . فقلت له : يا شيخ الله يأخذ حق هذا الشاب منك ، فقال : هذا والله ولدي تركته لله تعالى فلا أعود فيه ، فقلت له : أيها الشيخ سألتك بالله إلا ما قمت إليه فقام إليه ، فقال له الصبي : من أنت ؟ فقال : أنا أبوك إبراهيم بن أدهم ، ثم ضمه إلى صدره وقال : إلـٰهي هذا ولدي وقطعة من كبدي وقد جاء في طلبي ، وقد علمت موضعه في قلبي وأن لا أتفرغ له وأنت أعلم بمصالح عبادك ، فما مضت على الشاب سبعة أيام حتى قضى نحبه فغسله إبراهيم بيده وكفنه في قطعة كساء غليظ ، كلما غطى رأسه بانت رجلاه ، وكلما غطى رجليه بان رأسه وهو يقول : قرة عيني بالله يجمع بيني وبينك يوم القيامة :

إن كنت لا أبالي من فقدت ولا ... أرجو سواك ولا ألوي على أحد
ولو سفكت دمي عمداً بلا سبب ... يا برد ذاك الذي ترضى على كبدي
أهل الهوى كلهم في الحب قد وردوا ... لكنه ليس ورد الظبي كالأسد
كم وارد ملئت كأس الوصال له ... وواقف دون ذاك الورد لم يرد
وقد مددت يدي بالذل خاضعة ... وقد عجزت فيا مولاي خذ بيدي
وقد تشفعت بالهادي الشفيع ومن ... ترجى شفاعته في اليوم ثم غد
محمد المجتبى المختار من مضر ... ومن جلا كل قلب بالذنوب صدي
صلى عليه إلـٰه العرش خالقه ... وزاده منحاً جلت عن العدد

المجلس السابع والعشرون

فيما يجلو القلوب من القسوة : بذكر أخبار النسوة

الحمد لله الذي أنشأ العالم واخترعه وابتدعه ، وأتقن كل شيء صنعه وأحكم مفترقه ومجتمعه . [أحمده] على ما أولى من إحسانه حمد معترف بالتقصير عن شكر امتنانه [وأشهد] أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له الملك المنان ، وأشهد أن محمداً عبده وسوله بعثه بالبيان مرشداً يهدي الحيران مؤيداً بمعجزة القرآن فأظهر دينه على سائر الأديان ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة في كل وقت وأوان . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ [الفتح : ٢٥] وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] فقرن الله سبحانه ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما في الرجال ، وفي النساء من لهنّ الأوراد والسياحات والكشف وغير ذلك من الخصوصيات التي خصهن الله تعالى بها كمن مضين منهنّ في الصدر الأول مثل رابعة العدوية وشعوانة وريحانة وأمّ الخير وغيرهنّ من النساء المشهورات وغير المشهورات ؛ كما حكي عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى : أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت : إلـهي غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ثم تقبل على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : إلـهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها عليّ فأعزى ، فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني ، وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك ثم أنشدت :

يا سروري ومنيتي وعمادي ... وأنيسي وعدتي ومرادي ... أنت روح الفؤاد أنت رجائي
أنت لي مؤنس وشوقك زادي ... أنت لولاك يا حياتي وأنسي ... ما تشتت في فسيح البلاد
كم بدت منة وكم لك عندي ... من عطاء ونعمة وأيادي ... حبك الآن بغيتي ونعيمي
وجلاء لعين قلبي الصادي ... ليس لي عنك ما حييت براح ... أنت مني ممكن في السواد

إن تكن راضياً عليّ فإني ... يا منى القلب قد بدا إسعادي

[وقال سعد بن عثمان] : كنت مع ذي النون المصري رحمه الله في تيه بني إسرائيل وإذا بشخص قد أقبل ، فقلت : يا أستاذ شخص قد أتى ، فقال لي : انظر من هو ؟ فإنه لا يضع أحد قدمه في هذا المكان إلا صدّيق فنظرت فإذا هي امرأة ، فقال : صديقة ورب الكعبة فابتدر إليها وسلم عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ؟ فقال : أنا أخوك ذو النون ولست من أهل التهم ، فقالت : مرحباً حياك الله بالسلام ، فقال لها : ما حملك على الدخول في هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] . فقال لها : صفي لي المحبة ؟ فقالت : سبحان الله أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة وتسألني عنها ، فقال لها : للسائل حق الجواب ، فأنشدت تقول :

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

[وآخر] :

يا حبيب القلب ما لي سواكا ... فارحم اليوم مذنباً قد أتاكا
يا رجائي وراحتي وسروري ... قد أبى القلب أن يحب سواكا

[وقيل] : إنه لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصري في الدخول عليها هو وأصحابه فأذنت لهم وأرخت ستراً وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنه قد مات بعلك ولا بدّ لك من زوج وقد انقضت عدتك فاختاري من هؤلاء الزهاد من شئت منهم ، فقالت : حباً وكرامة من هو أعلمكم حتى أزوجه نفسي ؟ قالوا : الحسن البصري ، فقالت له : إن أجبتني عن أربع مسائل فأنا لك أهل ، فقال لها : سلي فأنا أجيب إن وفقني الله تعالى قالت : ما يقول الفقيه العالم إذا أنا متّ هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب والغيب لا يعلمه إلى الله تعالى ، قالت : فما يقول إن وضعت في القبر وسألني منكر ونكير أفأقدر على جوابهما أم لا ؟ قال : وهذا أيضاً غيب ، قالت : فإذا حشر الناس في القيامة وتطايرت الكتب فيعطى بعضهم كتابه بيمينه ويعطى بعضهم كتابه بشماله أفأعطى كتابي بيميني أم بشمالي ؟ قال : وهذا أيضاً غيب ، قالت : فإذا نودي في الخلائق فريق في الجنة وفريق في السعير فمن أيّ الفريقين أكون ؟ فقالها لها : وهذا أيضاً غيب ولا يعلم الغيب إلى الله عزّ وجل ، فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك وأنا في قلق وكرب من هذه الأربعة فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ،

ثم أنشدت :

راحتي يا إخوتي في خلوتي وحبيبي دائماً في حضرتي لم أجد لي عن هواه عوضًا
وهواه في البرايا محنتي حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه قبلتي
إن أمت وجداً وما ثم رضا واعنائي في الورى واشقوتي يا طبيب القلب يا كل المنى
جد بوصل منك يشفي مهجتي يا سروري وحياتي دائماً نشأتي منك وأيضاً نشوتي

قد هجرت الخلق جمعاً أرتجي منك وصلاً فهو أقصى منيتي

[قال صالح المرّي رحمة الله عليه] : رأيت جارية وهي تغني بالطار فمرّت يوماً بقارىء يقرأ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٤٩] قال : فرمت الطار من يدها وصرخت ثم سقطت إلى الأرض مغشياً عليها ، فلما أفاقت كسرت الطار وأخذت في العبادة والاجتهاد حتى شاع ذكرها . قال صالح : فدخلت عليها يوماً فكلمتها في الرفق بنفسها فبكت وقالت : ليت شعري أهل النار من قبورهم كيف يخرجون وعلى الصراط كيف يعبرون ، ومن أهوال يوم القيامة كيف يخلصون ، وللحميم كيف يتجرعون ، ولتوبيخ المولى كيف يسمعون ؟ ثم سقطت إلى الأرض مغشياً عليها ، فلما أفاقت قالت : مولاي وسيدي عصيتك وأنا غضة رطبة وأطعتك وأنا يابسة خشنة أتراك تقبلني ؟ ثم قالت : أوّاه كم من فضيحة تكشفها القيامة غداً ، ثم صرخت وبكت فلم يبق أحد في المجلس حتى غشي عليه من شدّة البكاء مما صنعت بنفسها ، ثم أنشدت تقول :

أما والذي قد قدّر البعد بيننا وعذبني بالشوق وهو شديد
وخصكمو بالصبر دوني وخصني بحزن عليكم يبتدي ويعيد
وصيرني مهما شممت نسيمكم أشدّ لقلبي راحتي وأميد
لقد ذاب قلبي من دموعي عليكمو على أنه في النائبات جليد
فيا ليت شعري هل على ما لقيته وكابدت من جور الفراق مزيد
لئن عاد ذاك الوصل أو عاد بعضه وملتم إليه إنني لسعيد
على أنها الأقدار قد تبعد الفتى قريباً وقد تدنيه وهو بعيد

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : كانت أم داب من كبار الصالحات العابدات إلى أن بلغ عمرها تسعين سنة وهي تحج في كل سنة على قدميها من المدينة إلى مكة فكفّ بصرها ، فلما حضر وقت الحج دخل عليها النساء يزرنها ويتغممن لها في كف بصرها فبكت ثم رفعت رأسها في إلى السماء وقالت : إلـهي وعزتك لئن فقدت نور بصري بين يديك ما فقدت أنوار شوقي إليك ثم أحرمت وقالت : لبيك اللهم لبيك وخرجت مع صواحباتها فكانت تمشي بين

أيديهن فتسبقهن في المسير . قال ذو النون : فتعجبت من حالها فهتف بي هاتف : يا ذا النون أتعجب من ضعيفة اشتاقت إلى بيت مولاها فحملها إليه بلطفه وقوّاها :

همو قدحوا الغرام بلا زناد ... فطار الشوق من شغف الفؤاد
إذا لم تطفئوا نيران شوقي ... بوصل صار قلبي كالرماد
عذولي لا تضع في العذل وقتي ... فلست بقاطع حبل الوداد
ويا حادي النياق لأرض نجد ... إذا ما جزت في تلك البوادي
فقل للحب بالجرعاء عني ... مقالة مغرم الأحشاء صاد
أيا راحي وريحاني وروحي ... أتسهرني وتسلبني رقادي
ظلام الليل أحسن من ضياء ... إذا نظر المحب بلا انتقاد
يقوم به المحب إلى حبيب ... عظيم العفو منسكب الأيادي
وسار العارفون إلى رضاه ... فنوقهم البكا والشوق حادي
وقد جعلوا الحنين له حداء ... وذكرهم الأحبة خير زاد
فتسمع صوتهم والعيس تسري ... بهم نحو الذي فيه رشادي
أجلّ الخلق أنسابًا وأعلى ... وأعظم حرمة يوم التنادي
هو الهادي البشير هو المرجى ... شفيع الخلق في يوم المعاد
عليه من المهيمن كل وقت ... صلاة ما حدا بالركب حادي

[قال محمد بن مروان] وكان من أهل الفقر والورع : كنت عند الركن اليماني بالكعبة شرّفها الله تعالى وقد خف الطواف وإذا بأربع جوار قد أقبلن وعليهنّ سيما القبول فتعلقت الكبرى منهنّ بالأستار ، وقالت بلسان الذلة والانكسار :

إليك حجي لا للبيت والحجر ... ولا طواف بأركان ولا جدر

ثم رفعت رأسها وقالت : إلـهي الشوق أقلقني إليك ، والحبّ هيمني وجداً عليك ، وها أنا بين يديك ، إلـهي إن كانت زلتي تطردني ، فمحبتي إلى بابك تجذبني ، وإن كان ذنبي عن بابك يبعدني فرجائي في عفوك يقربني وإن كانت خطاياي تقيدني ، فإخلاصي في متابي إليك يطلقني ، إلـهي فمتى إليك أصل ، وإلى حضرة جمالك أتصل ، يا أنيس المستوحشين ، ويا حبيب المحبين ، ويا أمان الخائفين ، ويا راحم المذنبين ، ويا قابل التائبين ، ويا أرحم الراحمين ارحمني برحمتك ، واشملني بمغفرتك ، ثم تنهدت وأنشدت :

أستغفر الله مما كان من زللي ... ومن ذنوبي وتفريطي وإصراري

يا رب هب لي ذنوبي يا كريم فقد أمسكت حبل الرجا يا خير غفار

ثم جلست وهي كئيبة عانية ، فقالت الثانية فتململت وتقلقلت وبكت ومادت ونادت : يا منتهى الآمال ، يا حامل الأبرار على نجب الأعمال ، يا مسرج قناديل الودّ في قلوب العارفين ، يا أنيس المستوحشين ، يا طبيب القلوب ، يا غافر الذنوب ، قد ذاب جسمي من اشتياقي إليك ، وقد استحييت من إقدامي عليك فارحمني ، واعف عني يا أرحم الراحمين ، ثم جالت وقالت :

أتيتك أشتكي سقمي ودائي وعندك يا منى قلبي دوائي
فلا أحد سواك إليه أشكو فيرحم عَبْرتي ويرى بكائي
فيا مولى الورى جد لي بعفو ومُنَّ بنظرة فيها شفائي

ثم جلست وهي من وجدها عائثة ، فقامت الثالثة فبكت طويلاً وأبدت عويلاً ثم قالت : إلّهي ذنوبي طردتني عن بابك ، ودوام الغفلة أبعدني عن جنابك ، وقد وقفت ببابك بالذلة والافتقار ، ورجوت العفو عن ذنوبي والأوزار ، وقد هربت منك إليك وها أنا بين يديك ثم تنهدت وأنشدت :

ببابك ربي قد أنخت ركائبي وما لي من أرجوه يا خير واهب
سواك فجد لي بالذي أنت أهله لأعطى من الأفضال أسنى المواهب
إذا لم أمت شوقاً إليك وحسرة عليك فلا بلغت منك مآربي

ثم جلست وعيونها بالبكاء دامعة ، فقامت الرابعة فبكت وتحسرت واستقالت من ذنوبها وقالت : إلّهي أمرت المجتهدين بالوقوف على بابك وما أظن أني منهم ، إلّهي لولا أن العفو من صفاتك لما ابتليت بالذنوب أهل ولاياتك ، إلّهي إن كنت غير مستأهلة لما أرجوه من مغفرتك ، فأنت أهل أن تجود عليّ بسعة رحمتك ، يا من لا تخفى عليه خافية ، ويا من نعمه لم تزل وافية ، استر عليّ ما خفي من ذنوبي ، فأنت غاية مقصدي ومطلوبي ثم أنشدت :

تعطفت بفضل منك يا مالك الورى فأنت ملاذي سيدي ومعيني
لئن أبعدتني عن جنابك زلتي فإن رجائي فيك حسن يقيني
وظني جميل أنني منك أرتجي عواطفك الحسنى فخذ بيميني

قال محمد بن مروان : فلقد أطربنني بما أسمعنني وأبكين أعيني بما وعظنني .

[قيل] : كانت امرأة مجاورة بمكة شرفها الله تعالى يقال لها : « حكيمة » وكانت إذا نظرت إلى باب الكعبة يفتح صرخت صرخة عظيمة وأغمي عليها ففتحت الكعبة يوماً في غيبتها ، فلما جاءت قيل لها : يا حكيمة فتح اليوم بيت ربك ، فلو رأيت الطائفين به يطوفون وهم محرمون

ملبون ، والباب مفتوح ، وكل منهم قلبه من الشوق مجروح ، ومن الوجد مقروح ، وهم ينتظرون من ربهم الرحمة والمغفرة ، ويبكون بالذلة والمعذرة ، لكانت تقرّ عينك ، فصرخت صرخة أزعجت بها القلوب ، ولم تزل تضطرب حتى ماتت أسفاً على ما فاتها من بلوغ المطلوب ورؤية الكعبة التي شرفها الله تعالى من بين الملأ ، ولم يجعل لها في الدنيا عوضاً ولا بدلاً :

يا كعبة الحسن كم من عاشق قتلا ... شوقاً إليك وعنك لم يرم بدلا
يمسي ويصبح محزوناً ومكتئباً ... ويهجر الأهل والأوطان والطللا
لولاك ما سارت الركبان من طرب ... كلا ولا قطعت سهلاً ولا جبلا
ولا رأت كل ضيق فيك متسعاً ... كلا ولا خف عنها كل ما ثقلا
باعوا النفوس رخيصاً في هواك وما ... تغلو النفوس بوصل منك إن حصلا

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : بلغني أن بالجبل المقطم جارية متعبدة ، فأحببت أن أزورها فخرجت إلى الجبل أطلبها فلم أجدها ، فلقيت جماعة من المتعبدين فسألتهم عنها ، فقالوا : أتسأل عن المجانين ؟ وتترك العقلاء ؟ فقلت : دلوني عليها وإن كانت مجنونة ؟ فقالوا : نراها تجوز بنا تقع مرة وتقوم مرة وتصيح مرة وتسكت مرة وتبكي مرة وتضحك مرة ، فقلت : دلوني عليها فقال أحدهم : تراها في الوادي الفلاني ، فخرجت في طلبها ، فلما أشرفت عليها سمعت لها صوتاً ضعيفاً وهي تقول :

يا ذا الذي أنس الفؤاد بذكره ... أنت الذي ما إن سواه أريد
يا منيتي دون الأنام وبغيتي ... يا من له كل الأنام عبيد
تفنى الليالي والزمان بأسره ... وهواك غض في الفؤاد جديد

قال ذو النون : فأتبعت الصوت ، فإذا أنا بالجارية ؛ وهي جالسة على صخرة عظيمة ، فسلمت عليها فردت عليّ السلام وقالت : يا ذا النون ما لك والمجانين ، فقلت لها : أمجنونة أنت ؟ فقالت : لو لم أكن مجنونة لما نودي عليّ بالجنون ، قلت : وما الذي جننت به ؟ قالت : يا ذا النون حبه خبلني ووجده أقلقني وشوقه تيمني ، فقلت : وأين محل الشوق منك ؟ فقالت : يا ذا النون الحب في القلب والشوق في الفؤاد والوجد في السرّ ، ثم بكت بكاءً شديداً حتى غشي عليها ، فلما أفاقت قالت : أوّاه من فرط المحبة ، يا ذا النون هكذا موت المحبين ، ثم صاحت صيحة عظيمة وسقطت إلى الأرض فحركتها فإذا هي ميتة رحمة الله عليها :

يا حبيب القلوب ما لي سواكا   ارحم اليوم مذنباً قد أتاكا   أنت سؤلي ومنيتي وسروري
قد أبى القلب أن يحب سواكا   يا رجائي وغايتي واعتمادي   طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس قصدي من الجنان نعيما   غير أني أريدها لأراكا   يا حبيب القلوب جد لي بعفو
وأنلني يا نور عيني رضاكا   أنا أهواك ما حييت وإن متـ   ـت فبعدي يا فوز من يهواكا
ليس لي عنك ما حييت براح   وفؤادي على المدى يرعاكا   كل من في حماك يهواك لكن
أنا وحدي كل من في حماكا   جئت يا منيتي إليك ومالي   غير ذلي إليك لا سواكا
فبذلي ولوعتي وانكساري   وافتقاري وفاقتي لغناكا   هب لي الفوز واعف عني لأني
في البرايا أصبحت من أسراكا   ليس لي قربة إليك من الخلـ   ـق سوى المصطفى الذي ناجاكا

أحمد المرتضى شفيع البرايا   سيد الكون خير من ناداكا
فعليه الصلاة في كل وقت   كلما حرك النسيم الأراكا

[عن جعفر الخادي رحمة الله عليه] قال : سمعت الجنيد رضي الله عنه يقول : حججت سنة من السنين على الوحدة وجاورت بمكة شرفها الله تعالى فكنت إذا جنّ الليل دخلت الطواف فبينا أنا أطوف إذا بجارية تطوف البيت وهي تقول :

أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمته   فأصبح عندي قد أناخ وطنبا
إذا اشتدّ شوقي هام قلبي بذكره   وإن رمت قرباً من حبيبي تقربا
ويمنحني وصلاً فأحيا به له   ويسكرني حتى ألذّ وأطربا

[قال الجنيد] فقلت لها : يا جارية أما تتقين الله تتكلمين بمثل هذا الكلام في مثل هذا المقام فالتفتت إليّ وقالت : يا جنيد لا تدخل بينه وبين محبيه . ثم أنشدت تقول :

لولا التقى لم ترني   هجرت طيب الوسن   إن الهوى شرّدني
كما ترى عن وطني   قد همت من حبي له   فحبه هيمني

ثم قالت : يا جنيد أنت تطوف بالبيت ، فهل ترى رب البيت ؟ فقلت : هذه دعوى تحتاج إلى إقامة حجة فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : سبحانك سبحانك ، ما أعظم شأنك ، وما أعزّ سلطانك ، خلق كالأحجار يطوفون بالإنكار على أهل الأسرار ، ثم أنشدت :

يطوفون بالبيت العتيق تقرّباً إليك وهم أقسى قلوباً من الصخر
فلو يخلصون السرّ جادت صفاتهم   وقامت صفات الحق منهم على الذكر

قال الجنيد : فأغمي علي من كلامها ، فلما أفقت طلبتها فلم أجدها :

يا ذا الذي آنسني في الفؤاد   وحرّم النوم وطيب الرقاد   أنت الذي أسهرتني دائما
وقد حلا لي فيك طيب السهاد   يا ذا الذي قد لامني في الهوى   ما تتقي الهجر وطول البعاد
إن كنت تبغي قربه فاجتهد   ولذ بجاه المصطفى في المعاد   طه شفيع الخلق يوم اللقا
إذا أتوا في الكرب يوم التناد   صلى عليه الله ما أورقت   أغصان أشجار وما سار باد

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : وصف لي عابدة من الزهاد ، ذات عمل واجتهاد ، فقصدتها فإذا هي صائمة النهار قائمة الليل لا تفتر عن العبادة ، ولا تملّ من العمل ، وهي مقيمة في دير خرب ، فلما جن الليل ، سمعتها تقول : سيدي لا ينام ، ولا ينبغي له المنام ، فكيف الجارية تنام ؟ والمخدوم لا ينام ؟ لا وعزّتك وجلالك ليس لي في هذه الليلة منام . فلما أصبحت سلمت عليها فردّت عليّ السلام ، فقلت لها : يا جارية تسكنين في مساكن النصارى وأنت على هذه الحالة ؟ فقلت : يا ذا النون لا تتكلم بمثل هذا الكلام السقيم ، وأنت على هذا القدم العظيم ، فلا يخطر غير الله في بالك ، ولا تتوهم غيره في خيالك ، فقلت لها : أما تستوحشين في هذا الدير ؟ فقالت : والذي ملأ قلبي من لطيف حكمته ، وهيمني في محبته ، ما علمت في قلبي موضعاً لغيره ، ولا في جسدي عرقاً إلا وهو ملآن بمعرفته ؟ فكيف لا أستأنس بذكره ؟ وأنا دائماً في حضرته ، فقلت لها : قد أرشدتني إلى الطريق فاسلكي بي مسالك القوم ، فإني والله في بحر ذنوبي غريق ، فقالت : يا ذا النون اجعل التقوى زادك ، والآخرة مرادك ، والزهد والورع مطيتك ، والانقطاع إلى الله تعالى سجيتك ، وارم هذه الدنيا عن قلبك ، فهو سبب الرجوع إلى ربك ، واسلك طريق الخائفين ، واترك طريق المذنبين تكتب في ديوان الموحدين ، وتلق الله تعالى وليس بينك وبينه حجاب ، ولا يردك عنه بوّاب .
قال ذو النون : فأثر كلامها في قلبي ، وكان سبب رجوعي إلى ربي ، ثم تركتني وهي تسوح ، وتقول في سياحتها :

هو الحبيب الذي بالوصل قد وعدا   وحقه لا سلته مهجتي أبدا
كرر على مسمعي ذكراه تطربني   روحي الفداء لمن باسم الحبيب حدا
هو الحبيب فلا شيء يماثله   تالله ما مثله للقلب حين بدا
إن متّ في حبه شوقاً فلا عجب   يا حبذا إن أكن من جملة السعدا
يا من يروم وصالاً منه يغنمه   اهجر منامك ما وصل الحبيب سدى
وانظر لأهل التقى في الليل قد وقفوا   في طاعة الله كلّ ربه عبدا
هذي صفاتهمو نالوا الذي طلبوا   وكل راج لما يبغيه قد وجدا

المجلس الثامن والعشرون

في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

الحمد لله الذي لا تدركه الأوهام ولا الظنون ولا تحويه الأبصار ولا العيون ، ولا تناله الآفات ولا المنون ، الذي أنزل الكتاب المكنون ، وأرسل السحاب الهتون ، وأخرج رطب الثمار من يابس الغصون ، وخلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧] تكوّنت بقدرته الأشياء ، وتوالت برحمته الآلاء ، وانشقت بحكمته الأرض والسماء ، وكتب بمشيئته السعادة والشقاء ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢١] الشافي صدور أولي الألباب ، النافي بإتقان مصنوعاته كل شك وارتياب ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] أنشأ بحكمته أصناف المبتدعات ، وقدر الأشياء من ماض وآت ، وغفر بالمتاب سائر الخطيئات ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٢٥] مبدع الدهور بالأحداث ، ومصوّر الذكور والإناث ، وباعث من في القبور فينهضون بالانبعاث ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] ـــ و ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٦] وأنزل من المعصرات ماء ثجاجاً . ولو شاء لجعله أجاجاً فلولا تشكرون . الكريم الشكور الرحيم الغفور المنزه في أقضيته عن أن يظلم أو يجور ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] مالك الأشياء بالطول والأرض ، وقبل من عباده السنن والفرض ، وإليه المآب والعرض ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم : ٢٦] أتقن خلق الإنسان وأبدع ، وركب فيه قوى حركاته وأودع ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٨] أوضح سبيل الرشاد وبين مسالكه ، وأسبغ على العباد نعمه المتداركة ، ونوّر وجوه الموحدين فهي مسفرة ضاحكة ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] أرسل من المعصرات الماء إلى الأرض وأنزل ، أسبغ بفضله الآلاء وخوّل ، وقضى على خلقه بما شاء وأجزل ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا

يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] أتقن صنعة خلق العالم وأحكم ، وجاد عليهم بفائض رزقه وأنعم ، ويدرك منهم السرّ المكنون المبهم ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النحل : ٢٣] ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن : ١٧] ومنور الكون بالنورين ، ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] حجب أرباب العقول عن تحديده فتاهوا ، وبصرهم بتوحيده فلم يشاققوا ولم يضاهوا ، وألهمهم ذكر تمجيده فنطقوا بذكره وفاهوا ، الله لا إلـه إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون أفاض على أوليائه من جزيل نعمائه فضلاً ونوالاً ، وأعدّ لأعدائه من عذابه وبالاً ونكالاً ، وحجبهم عن إدراكه فلا يتوهمون له شبيهاً ولا مثالاً ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ولا لنشر فضله طيّ ، ولا يعتري المهتدي إلى سبيله غيّ ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٩] .

فنون المحبة فيها فنون ولكن لقوم بها يعرفون
ففيها رموز لأهل الهوى وفيها صفات الجمال المصون
تعلم فيها رجال الوفا علوم الصفا فبها يعملون
وعرّفهم كيف طعم الهوى وطرق الهدى فيه يعرفون
وفيها إشارات سرّ الغرام وسرّ الغرام لديه فنون
عجيب لمن لامني فيهمو يهون باللوم ما لا يهون
ويقطع بالتعب أوقاته ويطلب في الكون ما لا يكون
فسبحان من لا له في الورى شريك وكل الورى يشهدون

أحمده حمداً يتقرّب به المتقرّبون ، وأشهد أن لا إلـه إلا وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي العربي الأمين المأمون ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون . قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] النافخ إسرافيل والصور قرن ، وقيل : جمع صورة على قراءة الحسن لأنه قرأ : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّوَرِ ﴾ بفتح الواو . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : صاحب الصور لم يطرف ، أي لم يطبق على جفن منذ وكل به ينظر تجاه العرش يخاف أن يؤمر قبل أن يلتقي جفناه وهذه هي النفخة الأولى ، ومعنى ﴿ فَصَعِقَ ﴾ ماتوا من الفزع وشدة الصوت ، وقوله : ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ قيل : هم الشهداء ، وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل

وعزرائيل ، وقيل : حملة العرش ، وقيل : الملائكة ، وقيل : هم الحور العين . ثم نفخ فيه أخرى يريد نفخة البعث ، وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إن الأجساد تنبت كنبات البقل فتخرج الأرواح كأمثال النحل فتدخل الخياشيم فتدب كدبيب السمّ في اللديغ فإذا هم قيام ينظرون إلى أهوال ما كانوا يوعدون » .

[إخواني] رحل الأحباب إلى القبور وسترحلون ، وتركوا الأموال والأوطان وستتركون ، وتجرعوا كأس الفراق وستتجرعون ، وقدموا على ما قدموا وستقدمون ، وندموا على التفريط في الأعمال وستندمون . وتأسفوا على أيام الإهمال وستتأسفون ، وشاهدوا ما لهم عند المنون وستشهدون ، ووقفوا ببصائرهم على الأهوال وستقفون ، وسئلوا عما علموا وستسألون ، ويودّ أحدهم لو يُفتدى بالمال وستودون . فبادروا للمتاب قبل يوم الحساب وخيبة الظنون ، فكأنكم بأيام الشباب قد أبلتها يد المنون ، وقد أظلكم من فجأة الموت ما كنتم توعدون ، ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] فكيف بك يا بن آدم إذا نفخ في الصور ، وبعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور وضاقت الأمور ، وظهر المستور ، وخرج الخلائق من القبور ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ يا له من يوم عظم فيه الزلزال وسيرت الجبال وترادفت الأهوال وانقطعت الأمال . وقلّ الاحتيال وخسر أصحاب الشمال ، وخرجوا من القبور بنفخة الصور يرجفون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ يوم تزل فيه الأقدام وتتبلد فيه الأفهام ويطول القيام وتظهر الآثام وينقطع الكلام ويخرجون من اللحود أحياء بعد شرب كأس المنون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فهو يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة ، يوم الزلزلة والطامة ، يوم يشاهد العاصي ذنوبه وآثامه ، يوم يخرجون من الأجداث بالانبعاث إلى ما يوعدون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق : ٩] وتكشف الضمائر وتظهر الجوائر وتعمى البصائر ، ويبهت الحائر ، يفتضح أهل الكبائر يبعثر ما في القبور فيخرج المؤمن والكافر والبرّ والفاجر إلى الموقف يهرعون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ كان محمد بن السماك كثير البكاء فسئل عن ذلك فقال : آية في القرآن أبكتني ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] كيف لا تذوق العيون من البكاء ألمها ؟ وهي لا تدري ما يختم لها ؟

[إخواني] سار المتقون ورجعنا ، ووصلوا وانقطعنا ، وأصابوا وامتنعنا ، ونجوا من الإشراك ووقعنا ، تعالوا ننظر في آثارهم وندرس أخبارهم ونبكي على ما نابنا ، ونندب على ما لحقنا وأصابنا :

تذكرت أيامي وما كان في الصبا ... من الذنب والعصيان والجهل والجفا
وكيف قطعت العمر سهواً وغفلة ... فأسكبت دمعي حسرة وتلهفا
وناديت من لا يعلم السرّ غيره ... ومن وعد الغفران من كان قد جفا
وعاد إليه من كبار ذنوبه ... فجاد عليه بالجميل تعطفا
أغثني إلهي واعف عني فإنني ... أتيت كئيباً نادماً متلهفا
وخذ بيدي من ظلمة الذنب سيدي ... وجد لي بما أرجوه منك تلطفا

[**إخواني**] زرع أعمالكم قد دنا للحصاد ، وزاد أيامكم قد آذن بالنفاد ، ويوم غفلتكم قد أطال الرقاد ، فستندمون يوم يفرّ الوالد من الأولاد . وتختلف الأمور ونفخ في الصور فأين الحسرات على فوات أمس ؟ أين العبرات على مقاساة ظلمة الرمس ؟ أين ما أعددتموه ليوم لا تجزى فيه نفس عن نفس ؟ ستذهل إذا خشعت الأصوات فلا تسمع إلا الهمس ، وتعلق الصحائف في النحور وتغلي النيران في الصدور ونفخ في الصور . قال الفضيل بن عياض ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ [فاطر : ١٨] قال : تلقى الوالدة ولدها يوم القيامة فتقول له : يا بنيّ ألم يكن بطني لك وعاء ؟ ألم يكن ثديي لك سقاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول : قد أثقلتني ذنوبي فتحمل عني منها ذنباً واحداً ؟ فيقول : إليك عني فأنا مشغول بنفسي عنك وعن غيرك :

أنا مشغول بذنبي ... عن ذنوب العالمينا
وخطايا أثقلتني ... تركت قلبي حزينا
ولقد كنت جليلا ... في عيون الناظرينا
صرت في ظلمة قبري ... ثاوياً فيها رهينا
بعد عز وسرور ... فوق وصف الواصفينا
فأتى الموت علينا ... بعد هذا ففنينا
وعلمنا ففهمنا ... ما لنا الآن نسينا
أنّ حياً ليس يبقى ... غير رب العالمينا
والذي صح لدينا ... وعلمناه يقينا
كل حي سوف يفنى ... غير محيي الميتينا

[**إخواني**] قلوبنا بالغفلة رحلت عن الأجساد ، إخواني إلى متى أتحدث وليس في الحيّ إلا الخيام ، إخواني أما تنظرون إلى ما فعلت بنا الزلات والآثام ، إخواني قيدنا التقصير وقد دنا الحمام ، فأوّاه علينا من هول يوم النشور ، ونفخ في الصور ، بالله يا إخواني إلى متى تؤخرون المتاب ، هذا المشيب أتى وقد تولى الشباب ، متى تصالح مولاك متى تقف بالباب ؟ أما اعتبرت بالراحلين من الأحباب والأتراب ، وما حدث بعد ذلك من الأمور ، ونفخ في الصور ، قيل : إنه إذا رجع الشاب إلى سيده وتاب تبشر الملائكة بعضهم بعضاً يقولون : ماذا وقع ؟ فيقال لهم : شاب استيقظ من نوم غفلته ورجع إلى الله بتوبته فينادي مناد : زينوا فراديسكم لقدوم توبته ، وفي الحديث : « إن الشاب إذا بكى من ذنوبه واعترف بعيوبه عند سيده ومحبوبه » . وقال :

إلهي أنا أسأت فيقول الله تعالى : وأنا سترت ، فيقول : إلهي وأنا ندمت ، فيقول الله تعالى : وأنا علمت ، فيقول : إلهي رجعت ، فيقول الله تعالى : قبلت ، أيها الشاب إذا تبت ، ثم نقضت فلا تستحي أن ترجع إلينا ثانياً وإذا نقضت ثانياً فلا يمنعك الحياء أنْ تأتينا ثالثاً ، وإذا نقضت ثالثاً ، فارجع إلينا رابعاً فأنا الجواد الذي لا أبخل ، وأنا الحليم الذي لا أعجل ، وأنا الذي أستر على العاصي وأقبل التائبين ، وأعفو عن الخاطئين ، وأرحم النادمين وأنا أرحم الراحمين . من ذا الذي أتى إلى بابنا فرددناه ؟ ومن ذا الذي لجأ إلى جنابنا فطردناه من ذا الذي تاب إلينا وما قبلناه ؟ من ذا الذي طلب منا وما أعطيناه ؟ من ذا الذي استقال من ذنبه فما غفرناه ؟ أنا الذي أغفر الذنوب ، وأستر العيوب ، وأغيث المكروب ، وأرحم الباكي الندوب ، وأنا علام الغيوب ، يا عبدي قف على بابي أكتبك من أحبابي ، تمتع في الأسحار بخطابي أجعلك من طلابي ، لذ بحضرة جنابي أسقك من لذيذ شرابي ، اهجر الأغيار ، والزم الافتقار ، وناد في الأسحار ، بلسان الذلة والانكسار ، وقل إن كنت من المحبين أهل الاشتياق والاشتهار :

يا من فؤادي عنه لا يسلو … وخاطري منه فما يخلو … قد انقضى عمري بلا موعد
يعلل القلب ولا وصل … انظر إلى حالي بعين الرضا … فالعيش بالهجران لا يحلو
واسمح على قدرك يا سيدي … حوشيت أن ينقصك الفضل … كل عذاب فيك مستعذب
وكل صعب هين سهل … لي بك عن كل الورى شاغل … يا فوز من أنت له شغل

[إخواني] جزاء الأعمال بالميزان عسير ، والوقوف بين يدي المولى بظلمة المعاصي خطير ، فإلى متى في المطال والعمر قصير ، لا تدري هول ما أنت إليه تصير ، وستندم إذا بعثر ما في القبور ، ونفخ في الصور وحصل ما في الصدور :

ما احتيالي وأمر ربي عصيت … حين تبدي صحائفي ما جنيت … ما احتيالي إذا وقفت ذليلاً
قد نهاني وما رآني انتهيت … يا غنياً عن العباد جميعًا … وعليماً بكل ما قد سعيت

ليس لي حجة ولا لي عذر … فاعف عن زلتي وما قد أتيت

كيف حالك يا أخي إذا بلغت القلوب الحناجر ، وقطعت الحسرات الأكباد قطع الخناجر ، واشتد عطش المفرطين من شدّة الهواجر ؟ فيا أيها العاصي بادر إلى باب مولاك وهاجر ، وأدرك مواسم الأرباح قبل أن تمور ، ونفخ في الصور :

سمعت حمامة هتفت بليل … وقد حنت إلى إلف بعيد … فأزعجت القلوب وأقلقتها
وما زلنا نقول لها أعيدي … أرى ماء وبي عطش شديد … ولكن لا سبيل إلى الورود

فرد من ماء موعظة وروداً … لتلق الأمن للقلب الشريد
ولازم خدمة المولى عسى أن … تنال الفوز من رب مجيد

واهاً على قلوب أقسى من الحديد ، واهاً على نفوس عن طريق الرشاد تحيد ، واهاً عن عيون أجمد من أصلاب الجلاميد سيشرب أهل الشهوات شراباً من صديد وتبرز أعمالهم بسوء أفعالهم فيذهلون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

[إخواني] كم خذل التفريط من البطالين ، وكم أقعدت البطالة قلوب الغافلين وكم أعمت الآمال بصائر الآملين . وكم قطعت الأسباب قلوب الخائفين وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أما لكم عيون من ألم الفراق تسمع ، أما لكم قلوب من وحشة الانقطاع تخشع ، أما لكم أسماع تصغي إلى المواعظ فتسمع ، أما لكم أكباد من طلب الفاني تشبع تالله ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ : [النحل : ٩٣] ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

[قيل] : إن بعض المريدين حصلت له فترة فرجع إلى ما كان عليه ثم إنه ندم وقال : ترى لو رجعت عن ذنبي كيف حالي مع ربي ؟ فسمع النداء : يا فتى عصيتنا فسترناك وتركتنا فأمهلناك فإن عدت قبلناك وإن كنت ما ترانا فنحن نبصرك ونراك ، عصيتنا في الملا جهراً وغطيناك وكم تباعدت عنا ثم قرّبناك بارزتنا بالخطايا ثم سامحناك ولو رجعت إلينا وطلبت الصلح صالحناك .

وكان علي بن الموفق يقول في مناجاته : سيدي وعزتك لا أبرح عن بابك ولو طردتني ولا أزول عن جنابك ولو أبعدتني ولا أحول عن وصلك ولو قطعتني ولا أسلو من محبتك ولو عذبتني سيدي وإن كنت محجوباً عن ناظري فأنت في قلبي وخاطري وإن كنت مقاطعي ومهجاري فحبك مكنون في سري وضمائري :

إن حجبوا شخصك عن ناظري ... ما حجبوا ذكرك عن خاطري
قد زارني طيفك في مضجعي ... يا حبذا طيفك من زائر
واصلتني أفديك من واصل ... هجرتني أفديك من هاجر
أصبحت ما بين الهوى والنوى ... في موقف ما لي من ناصر
فظاهري ينبيك عن باطني ... وباطني ينبيك عن ظاهري

غيره :

قولوا لمن غيب عن ناظري ... حبك في قلبي وفي خاطري
يا مالك الروح ترفق بها ... قد منع الصبر عن الصابر
تريد أن تقتلني عامداً ... لا بدّ للمظلوم من ناصر
بحرمة الودّ الذي بيننا ... لا تفسد الأوّل بالآخر

[إخواني] مدّوا أيدي الذلّ والافتقار ، وأسيلوا من عيونكم دمعها المدرار ، ونادوا برفيع الأصوات بالسرّ والإجهار : عبيدك أهل المعاصي والإصرار أتوك يرجون عفوك عن الذنوب والأوزار وقد عثرنا فأقل عثرتنا من النار ، إلـهنا شفيعنا إليك الذل والانكسار والندم والرجوع والدموع الغزار ، إلـهنا إن كانت ذنوبنا قد أخافتنا من عقابك فإن حسن الظن قد أطمعنا في ثوابك فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلـهي إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين وإن كنت لا تقبل إلا المخلصين فمن للمخلطين وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين فمن للمسيئين ، إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشدّ مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم ، سيدي ما أبلغ قصتي أدلّ غيري أنا الجائر ، إلـهي جد بالعفو عن مذكر متكلف وسامع متخلف : إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وتردّ الدليل ، إلهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس التاسع والعشرون

في بعض مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي نزه أبصار بصائر أوليائه في ملكوته ، وأراهم من آياته عجباً ، وأسرى بأرواحهم إلى محل قربه وجعلهم من الأتقياء والنجباء ، وشرّفهم بأن جعلهم عبيده فجعل لهم شرفاً ونسباً ، وأقامهم على الأقدام في جنح الظلام ، وقد مدّ عليهم من ستوره غيهباً ، وأطلعهم على أسرار ما كتبتها أقلام ولا أودعت كتباً ، وقذف في قلوبهم أنواراً يشاهدون بها الملكوت فيرون ما كان بعيداً مقترباً ، ومنّ عليهم بالكشف والإطلاع فيرون ما كان محتجباً ، وكساهم جمالاً ومهابة وسمة وأدباً ، وجذب أعنة قلوبهم إلى جنابه والسعيد من كان له منجذباً ، ونعمهم بطيب خطابه الذي فرّج هموماً وأذهب كرباً ، وأرواحهم لما تعبوا في خدمته فما وجدوا لذلك تعباً ، ونادمهم في خلوة السحر فقطعوا بالسهر وقتاً طيباً ، وناداهم في سرائرهم ببشائرهم أهلاً وسهلاً ومرحباً ، وسقاهم من ألذ مشروب ، وتجلى عليهم المحبوب وأراهم جمالاً للقلوب قد سبى ، فهو حبيب القوم وجليسهم ونديمهم وأنيسهم ، وقد رفع لهم عنده

رتباً ، فإذا غابوا كانوا في الحضرة قرباً ، وإذا حضروا حدّثوا عجباً ، فبهم ينزل الغيث يعشب من الأرض ما لم يكن معشباً ويخصب منها ما كان مجدباً ، وبهم يستجاب الدعاء ويكشف البلاء وهم أهل الاجتباء ، تركوا الدنيا لأجل محبوبهم فتساوى عندهم أن يروا حجراً وذهباً . رضوا به بدلاً من كل شيء فقالوا قصداً وبلغوا أرباً ، فإذا أقبل الليل تمسكوا بأذياله وأخذوا منهم حسباً وتملوا بمنادمة حبيبهم عندما غابت الرشاة ونامت الرقبا . وإذا هجم الصباح أعلنوا بالصياح وأجروا دمعاً منسكباً . وقالوا : يا ليت الليل ما ذهب وليته أقام وليت المشرق عاد مغرباً :

أيا ليل لا تنفد إلى الحشر دائما ... ومدّ على رغم العواذل غيهبا ... ويا صبح لا تهجم علينا بسرعة
وبالله لا تسفر وكن متأدبا ... فمحبوبنا في آخر الليل زارنا ... وقد بشرتنا باللقا نسمة الصبا
ولما سرى ذلك النسيم معطرا ... حسبناه بالمسك العبيق تطيبا ... وداخلنا سكر عجيب ونشوة
تخبر أن العشق من زمن الصبا ... فيا صاحياً من خمرة الحب خاليا ... من الوجد ما ذاق الغرام ولا صبا
تنح ودع عنك الهوى وحديثه ... فإن رمت سلوانا تروح مخيبا ... بروحي من طاوعت فيه صبابتي
وخالفت فيه عاذلي شاء أو أبى ... وقلت هو المحبوب ديني ومذهبي ... ويا حبذا إلى مذهب صار مذهبا

[قال بعض الصالحين] : كنت في البادية فتقدمت القافلة فرأيت قدّامي شخصاً فسارعت حتى أدركته ، فإذا هي امرأة بيدها عكاز وهي تمشي الهوينى فظننت أنها أعطبت فأدخلت يدي في جيبي ، فأخرجت لها عشرين درهماً وقلت : خذيها وامكثي حتى تلحقك القافلة فتكتري بها ثم ائتيني الليلة حتى أصلح أمرك ، فقالت بيدها في الهواء هكذا ، فإذا هي في كفها دنانير من الغيب وقالت : أنت أخذت الدراهم من الجيب وأنا أخذت الدنانير من الغيب ثم أنشدت تقول :

كم نعمة لك في الأنام ومنة ... موجودة في ذاتها لا تعدم
كم آية لك في الخلائق والنهى ... مشهودة أسرارها لا تفهم
كم حالة حولتها وتحولت ... فينا بنا عما نريد نترجم
ولدى كلامك تستوي أقوالنا ... ففصيحنا في بعض قولك أبكم
ونقول حقاً أنك الحق الذي ... حجب الجميع فعلمه لا يعلم

فسبحان من اختص من خلقه عباداً جعل لهم أرض الهدى مهاداً ومنحهم توفيقاً ورشاداً وزادهم في طريقهم زاداً ، نصب لهم شباك الملاطفة فأوقعهم في طريقهم وأدار عليهم كؤوس المعاطفة فصرعهم فقلوبهم في محبته واجلة وأبدانهم من خوف هجره ناحلة فهم في بساتين وصله يرتعون وفي روضات أنسه يتمتعون ومن أهوال يوم القيامة آمنون ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ : [يونس ٦٢] .

[قيل] : دخل لص على رابعة العدوية ليلاً فنظر في البيت يميناً وشمالاً فلم يجد غير إبريق فلما همّ بالخروج قالت له : يا هذا إن كنت من الشطار فلا تخرج بلا شيء فقال : إني لم أجد شيئاً ، فقالت له : يا مسكين توضأ بهذا الإبريق وادخل إلى هذا المخدع وصلّ ركعتين فإنك لا تخرج إلى بشيء ففعل ما أمرته به فلما قام يصلي رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي هذا قد أتى إليّ ولم يجد عندي شيئاً وقد أوقفته ببابك فلا تحرمه من فضلك وثوابك فلما فرغ من صلاة الركعتين لذت له العبادة فما برح يصلي إلى آخر الليل فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة العدوية فوجدته ساجداً وهو يقول في عتابه لنفسه :

إذا مـا قـال لي ربي أما استحييت تعصيني وتخفي الذنب من خلقي وبالعصـيان تـأتيني

فمـا قـولي لـه لمـا يعـاتبني ويقصـيني

فقالت له : حبيبي كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير وقفت بين يدي مولاي بذلي وفقري فجبر كسري وقبل عذري وغفر لي الذنوب وبلغني المطلوب . ثم خرج هائماً على وجهه فرفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي هذا وقف ببابك ساعة فقبلته وأنا منذ عرفتك بين يديك أترى قبلتني فنوديت في سرّها : يا رابعة من أجلك قبلناه وبسببك قرّبناه :

يـا سـيدي عبـدك المسـكين في بابـك يرجـو رضـاك فجـد بـالعفو أولى بـك
حاشاك تسدل حجابك دون طلابـك أو تبتلـي بعـذابك قلـب أحبابـك

يا هذا سبقك أهل العزائم وأنت في الغفلة نائم ، قف على الباب وقوف نادم ونكس رأس الذل وقل عبد ظالم وناد في الأسحار : أنا المذنب الهائم وقد جئت أطلب العفو والمراحم وتشبه بالقوم وإن لم تكن منهم فزاحم .

[**إخواني**] نظر العارفون بعين البصائر وعمل كل منهم لما هو إليه صائر هجروا المنام وقاموا في الدياجي الدياجر وغسلوا الوجوه بدموع المحاجر فأزعجهم ما يتلونه في القرآن من الزواجر :

خضـوع وخـوف واحتشـام وذلـة وهـذا لمـن يرجـو النجـاة قليـل
فهـل لي مـن الأحـزان حـظ مـوفر وهـل لي إلى طـول البكـاء سـبيل
لعلـي أن أحظـى بقـرب ولـذة ويحصـل لي بعـد الفـراق وصـول

[عن أنس بن مالك ﷺ] قال : كان رجل على عهد رسول الله ﷺ يتجر من بلاد الشام إلى المدينة ومن المدينة إلى الشام ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله تعالى . قال : فبينما هو جاء من بلاد الشام يريد المدينة ، إذ عرض له لص على فرس فصاح بالتاجر : قف ، قال :

فوقف التاجر وقال له : شأنك بمالي وخلّ سبيلي ، فقال له اللص : المال مالي وإنما أريد نفسك فقال له التاجر : ما تريد بنفسي ، شأنك والمال وخلّ سبيلي . فرد عليه بمقالته الأولى فقال له التاجر : انتظرني حتى أتوضأ وأصلي ركعتين وأدعو ربي عز وجل ؟ فقال له : افعل ما بدا لك قال : فقام التاجر وتوضأ وصلى أربع ركعات ، ثم رفع يديه إلى السماء فكان من دعائه أن قال : يا ودود يا ودود يا ذا العرش المجيد ، يا مبدىء يا معيد ، يا فعالاً لما يريد : أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك وبقدرتك التي قدرت بها على خلقك وبرحمتك التي وسعت كل شيء ، أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، لا إلـه إلا أنت يا مغيث أغثني ثلاث مرات ، فلما فرغ من دعائه إذا بفارس على فرس أشهب عليه ثياب خضر وبيده حربة من نور ، فلما نظر اللص إلى الفارس ترك التاجر ومر نحو الفارس ، فلما دنا شدّ الفارس على اللص فطعنه طعنة أرداه عن فرسه ، ثم جاء إلى التاجر فقال له : قم فاقتله ، فقال له التاجر : من أنت ؟ فما قتلت أحداً قط ولا تطيب نفسي لقتله ، قال : فرجع الفارس إلى اللص فقتله ، ثم رجع إلى التاجر وقال : اعلم أني ملك من السماء الثالثة حين دعوت الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة فقلنا أمر حدث ، ثم دعوت الثانية ففتحت أبواب السماء ولها شرر كشرر النار ثم دعوت الثالثة فهبط جبريل عليه السلام علينا من قبل السماء وهو ينادي : من لهذا المكروب ؟ فدعوت ربي أن يوليني قتله ، واعلم يا عبد الله أنه من دعا بدعائك هذا في كل كربة وكل شدة وكل نازلة فرج الله تعالى عنه وأغاثه . قال : وجاء التاجر سالماً غانماً حتى دخل المدينة وجاء إلى النبي ﷺ وأخبره بالقصة فقال له النبي ﷺ : لقد لقنك الله أسماءه الحسنى التي إذا دعي بها أجاب ، وإذا سئل بها أعطى :

لك الفضل يا مولاي والشكر والحمد ... فما زلت تولي الخير مذ ضمني المهد
ولو رمت أن أحصي جميلك لم أطق ... فما لجميل قد مننت به حدّ
وكم لك من لطف أتاني مفرج ... من الكرب ما لولاه قد كان يشتد
قصدناك نستكفي العداة وشرهم ... وعند عظيم الجود لم يخب القصد
فليس لعبد غير مولاه ملجأ ... فإن ردّه المولى فما يصنع العبد
وما لي شفيع غير جاه محمد ... ومن جاهه في الحشر ليس له ردّ
عليه صلاة الله ما لاح بارق ... وما هطلت سحب وما قهقه الرعد

إلـهي وصل العارفون بالمعرفة إليك وقام المجتهدون للخدمة بين يديك : إلـهي خضع المتكبرون من هيبة جلالك وخشع المتجبرون لسطوة كمالك ، وارتاح المشتاقون إلى مشاهدة جمالك ، إلـهي وقف السؤال ببابك ، ولاذ المحتاجون بجنابك ، وتقطعت أكباد المحبين في طلابك ، وفاز القائمون

بلذيذ خطابك ، وربح العاملون بثوابك ، حضر المراقبون في حضرة اقترابك ، إلَـهي ندم المفرطون على تقصيرهم في خدمتك ، وخجل العاصون وأطرقوا حياءً من مراقبتك وأطرق المذنبون من جلال هيبتك وتمزق الخائفون من عظيم سطوتك ، إلَـهي إن كنت لا ترحم إلا القائمين فمن للنائمين ، إلَـهي إذا لم تنظر إلا للعاملين فمن للمقصرين ، إلَـهي أجر أنهار المفتقرين من بحر إنعامك ، وروّ أكباد المحزونين من ماء عفوك وإكرامك ، إلَـهي ردّ شارد الحائرين إلى أبواب معرفتك ، واهد قلوب الضالين بأنوار رأفتك وأدخلهم جميعاً في ظل عفوك ورحمتك وآوهم إلى ركن تجاوزك ومغفرتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الثلاثون

في مناقب الأولياء رضي الله عنهم أجمعين

الحمد الله الذي ملأ قلوب أحبته من سر محبته سروراً ، وكسا وجوههم من إشراق ضياء بهجته نوراً ، وتوجهم بتيجان البهاء وكتب لهم بالولاء منشوراً ، وهداهم إلى طريق معرفته فداموا على خدمته وما غيروا تغييراً ، اطلع على سرائرهم وتجلى على ضمائرهم فصفى خلاصة جواهرهم وزادهم هدى وتبصيراً ، وروّق لهم الشراب ورفع لهم الحجاب ، وقال : مرحباً بالأحباب لا تخشوا اليوم حزناً ولا تكديراً ، فمنهم من ترنح فطرب ، ومنهم من باح بالسر إذا غلب ، ومنهم من ندب إلى الحضرة وطلب ، وناهيك من ساق أدار سروراً ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ : [الإنسان : ٥] فهم قائمون في خدمته متلذذون في حضرته متقلبون في نعمته يكسرون جباراً ويجبرون كسيراً ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ : [الإنسان : ٧] أخلاقهم القنوع ، وشعارهم الخشوع ، وأفعالهم السجود والركوع يطوون الضلوع على الجوع ، ويؤثرون على أنفسهم سائلاً وفقيراً ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ : [الإنسان : ٨] قد غضوا الأبصار وأخرسوا الأفواه ، وعفروا

الوجوه والجباه ، وقالوا لفقرائهم قولاً ميسوراً ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ : [الإنسان : ٩] قد شربوا من شراب حبه كؤوساً ، واستجلوا من أنوار مشاهدته شموساً ، وبرزت لهم الدنيا بزينتها عروساً ، فقالوا : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ : [الإنسان : ١٠] ذلك يوم يا له من يوم يحير من هوله كل قوم ، ويطير من شدته عن العيون النوم ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ : [الإنسان : ١١] اخترقوا حجب الأنوار وفازوا بجوار العزيز الغفار في جنات تجري من تحتها الأنهار ، تخدمهم الملائكة فيها مساءً وبكوراً ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ : [الإنسان : ١٩] لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم القيامة ولا تلحقهم حسرة ولا ندامة ، يستبشرون بعد طول سفرهم بالسلامة ويسكنون غرفاً وقصوراً ، ثم يقال لهم في الجنة تهنئة لهم وتبشيراً ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ : [الإنسان : ٢٢] أحضرهم في حضرة قدسه وتولاهم بنفسه وسقاهم بكأس أنسه شراباً طهوراً وناداهم : عبادي وأحبابي طالما وقفتم ببابي ولذتم بجنابي ، وكان كل منكم على مصابي صبوراً لأبوّئنكم دار النعيم ولأمتعنكم بالنظر إلى وجهي الكريم ولأجعلنّ جزاءكم جزاءً موفوراً :

نالوا بذلك فرحة وسرورا ... وسعوا فأصبح سعيهم مشكورا ... قوم أقاموا للإله نفوسهم
فكسا وجوههم الوسيمة نورا ... تركوا النعيم وطلقوا لذاتهم ... زهداً فعوضهم بذاك سرورا
قاموا يناجون الحبيب بأدمع ... تجري فتحكي لؤلؤاً منثورا ... ستروا وجوههم بأستار الدجى
ليلاً فأضحت في النهار بدورا ... عملوا بما علموا وجادوا بالذي ... وجدوا فأصبح حظهم موفورا

وإذا بدا ليل سمعت أنينهم ... وشهدت وجداً منهمو وزفيرا
تعبوا قليلاً في رضا محبوبهم ... فأراحهم يوم المعاد كثيرا
صبروا على بلواهمو فجزاهمو ... يوم القيامة جنة وحريرا

[كان أبو مسلم الخولاني رحمه الله عليه] يحب الصدقة والإيثار وكان يتصدق بقوته ويبيت طاوياً فأصبح يوماً وليس في بيته غير درهم واحد ، فقالت له زوجته : خذ هذا الدرهم واشتر به دقيقاً نعجن بعضه ونطبخ بعضه للأولاد فإنهم لا يصبرون على الجوع فأخذ الدرهم والمزود وخرج إلى السوق وكان برداً شديداً فصادفه سائل فتحول عنه فلحقه وألح عليه وأقسم عليه فدفع إليه الدرهم وبقي في همّ وفكر كيف يعود إلى الأولاد والزوجة بغير شيء فمرّ بسوق البلاط وهم ينشرونه ففتح المزود وملأه من النشارة وربطه وأتى به إلى البيت فوضعه فيه على غفلة من زوجته ثم خرج إلى المسجد فعمدت المرأة إلى المزود ففتحته ، فإذا فيه دقيق حواري أبيض فعجنت منه وطبخت للأولاد فأكلوا وشبعوا ولعبوا ، فلما ارتفع النهار جاء أبو مسلم ، وهو على خوف من امرأته ، فلما جلس أتته بالمائدة والطعام فأكل ، فلما فرغ قال : من أين

لكم هذا ؟ قالت : من المزود الذي جئت به فتعجب من ذلك وشكر الله تعالى على لطفه وحسن صنيعه .

[إخواني] انظروا إلى لطف الله تعالى بأوليائه ، كيف توكلوا عليه فكفاهم أمر دنياهم ورزقهم من فضله وفعل معهم ما هو أهله :

توكل على الرحمن تحظى برفده ... وكن واثقاً منه برزقك بالفعل
وسلم إلى مولاك أمرك إنه ... سيكفيك أسباب الكريهة والثقل
ومن يتوكل في الأمور جميعها ... على الله يحظى بالتباشر والفضل
فيلقى جميع الناس بالرحب والرضا ... ويحنو على الجيران والصحب والأهل
فذاك الذي قد أذهب الله همه ... وجازاه بالإحسان في الضيق والمحل

[كان أبو معاوية الأسود] رحمه الله مكفوف البصر ، وكان يحب قراءة القرآن ، وكان إذا فتح المصحف ردّ بصره عليه حتى يفرغ من القراءة فإذا أغلقه كف بصره فنودي في سره ماكففنا بصرك بخلاً عليك به ، ولكن غرنا عليك ، أن تنظر إلى غيرنا :

وغضضت طرفي عن سواك فما أرى ... في الكون غيرك من إلّه يعبد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... وله جميع الكائنات توحد
يا منتهى سؤلي وغاية مطلبي ... من لي إذا أنا عن جنابك أطرد
أنت المؤمل في الشدائد كلها ... يا سيدي ولك البقاء السرمد
ولك التصرف في العباد كما تشا ... فلذاك تشقي من تشاء وتسعد
فامنن عليّ بتوبة يا من له ... قلب المحب مقدس وموحد

[قال إبراهيم السائح رحمه الله] : بينما أنا أطوف بالبيت الحرام ، وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تنادي وتقول : يا وحشتي بعد الأنس ، ويا ذلي بعد العزّ ، ويا فقري بعد الغنى ويا عظم مصيبتي . فقلت لها يا جارية وما مصيبتك ؟ فقالت : فقدت قلبي ، فقلت : وهذه مصيبتك ! فقالت : وأي مصيبة أعظم فقد القلوب وانقطاعها عن المحبوب ؟ فقلت لها : هلا خفضت من صوتك ، فقالت : يا شيخ البيت بيتك أم بيته ؟ فقلت لها : بل بيته ، قالت فالحرم حرمك أم حرمه ؟ قلت : بل حرمه ، قالت : فمن استزارنا إليه ؟ قلت : هو ، قالت : فدعنا نتدلل عليه بين يديه كما استزارنا إليه ودلنا عليه ثم رفعت يديها وقالت : سيدي بحبك لي إلا ما رددت عليّ قلبي ، فقلت لها : من أين علمت أنه يحبك ؟ قالت : لسبق عنايته بي فإنه جيش الجيوش في طلبي وأنفق الأموال وجهد العبيد حتى أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني بلاد التوحيد وعرفني الطريق إليه ودلني بحسن التوفيق عليه فما شعرت إلا وأنا بين يديه :

شغفي بذكرك جنتي ونعيمي ... وإذا نسيتك فهو عين جحيمي
يا من أخاطبه به في خاطري ... وأراه وهو محدثي ونديمي
وأحبني من قبل أن أحببته ... فلذاك أوجب في الهوى تقديمي
وعليّ بالتوحيد جاد تكرماً ... والعفو والغفران والتكريم

[كان الشيخ أبو مدين رحمه الله عليه] كبير القدر وكان من الأبدال صاحب الخطوة والحظوة والكرامات والتصريف ، وكان يتكلم في الحقيقة بعد صلاة الفجر في مسجد الخضر بمدينة الأندلس فسمع به رهبان دير يعرف بدير الملك وكانوا سبعين نفراً فجاء من أكابرهم عشرة بسبب الامتحان فتنكروا ولبسوا زيّ المسلمين ودخلوا المسجد فجلسوا مع الناس ولم يعلم بهم أحد . فلما أراد الشيخ أن يتكلم سكت حتى دخل رجل خياط ، فقال له الشيخ : ما أبطأك ؟ فقال : يا سيدي حتى فرغت العشرة طواقي التي أوصيتني عليها البارحة ، فأخذها الشيخ منه ونهض قائماً فألبس كل واحد من الرهبان طاقية ، فتعجب الناس من ذلك ولم يعلموا الخبر ، ثم شرع الشيخ في الكلام ، فكان من جملة قوله : يا فقراء إذا هبت نسمات التوفيق من جناب الحق تعالى على القلوب المشرفة أطفأت كل نور ، ثم تنفس الشيخ فانطفأت قناديل المسجد كلها وكانت نيفاً على ثلاثين . ثم سكت الشيخ وأطرق ، فلم يجسر أحد أن يتكلم أو يتحرك لعظم الهيبة ثم رفع رأسه وقال : لا إلّه إلا الله يا فقراء إذا أشرفت أنوار العناية على القلوب الميتة عاشت وأضاء لها كل ظلمة . ثم تنفس الشيخ فاشتعلت القناديل وعاد إليها نورها واضطربت اضطراباً شديداً حتى كاد يلحق بعضها بعضاً . ثم تكلم الشيخ في تفسير آية سجدة فسجد وسجد الناس فسجد الرهبان مع الناس خشية الفضيحة والاشتهار . فقال الشيخ في سجوده : اللهم إنك أعلم بتدبير خلقك ومصالح عبادك وإن هؤلاء الرهبان قد واقفوا المسلمين في لباسهم والسجود لك وأنا قد غيرت ظواهرهم ، ولم يقدر على تغيير بواطنهم غيرك ، وقد أجلستهم على مائدة كرمك فأنقذهم من الشرك والطغيان ، وأخرجهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان ، فما رفع الرهبان رؤوسهم من السجود ، إلا وقد مضى عنهم الهجران والصدود ، ودخلوا في دين الملك المعبود فأسلموا وبلغوا المقصود ، فأتوا إلى الشيخ ، فتابوا على يديه ، وبكوا وندموا على ما كان منهم فكثر الصراخ والبكاء في المسجد ، وكان يوماً مشهوداً ، ومات ثلاثة أنفس في المجلس وبلغ الملك خبرهم فأحسن إليهم وأنعم عليهم ، وفرح الشيخ بإسلامهم ، هذه والله صفات الأولياء الأخيار السادة الأبرار أمناء الله على عباده ورحمته لهم في بلادة :

فهمو أولياؤه حيث حلوا ... وهمو للقلوب برد وظل
قد تفانوا عن الوجود فعزوا

وأشاروا إلى الطريق فدلوا فلهذا قد أصبحوا في البرايا كل صعب ينالهم فهو سهل
لم يزل ذكرهم على الدهر يتلى ولكل القلوب يجلو ويحلو
فبهم يرفع البلاء عن الخلْـ ـق ويهدوا مخافة أن يضلوا

إلـهي وقف السؤال ببابك ، ولاذ المذنبون بجنابك ورفع ذوو الحاجات قصص فاقتهم إليك نكس العصاة رؤوس الانكسار بين يديك ، انقطعت حجج المقصرين عن الاعتذار إليك ، أرست سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك ، وكلهم يرجون الجواز إلى ساحة فضلك ونعمك ، امتدت أيدي السائلين إلى وابل غيث جودك ، تقلقلت قلوب الخائفين من إزعاج وعيدك ، فكيف يجيبون وقد عمّ عفوك ورحمتك سائر عبيدك ؟ إلـهي فمن للسائلين إذا ردوا ، ومن للعاصين إذا طردوا عن بابك وصدوا ، ومن للمتخلفين إذا قطعوا ، ومن غيرك يقبل التائبين إذا رجعوا . إلـهي وصل العارفون بالمعرفة إليك ، قام المتهجدون للخدمة بين يديك . إلـهي خضع المتكبرون من هيبة جلالك ، خشع المتجبرون لسطوة كمالك ، ارتاح المشتاقون إلى مشاهدة جمالك. إلـهي تقطعت أكباد المحبين في طلابك ، فاز القائمون بطيب خطابك ، ربح العاملون بثوابك ، حضر المراقبون في حضرة اقترابك . إلـهي ندم المفرطون على تقصيرهم في خدمتك ، خجل العاصون وأطرقوا حياء من مراقبتك ، أطرق المذنبون من جلال هيبتك ، تمزق الخائفون من عظيم سطوتك ، إلـهي إن كنت لا ترحم إلا القائمين فمن للنائمين ، إلهي إذا لم تنظر إلا للعاملين فمن للمقصرين ، إلـهي إذا لم تغفر إلا للمطيعين فمن للمذنبين ، إلـهي رد شارد الحائرين إلى أبواب معرفتك ، اهد قلوب الضالين بأنوار رأفتك أدخلهم جميعاً في ظلّ عفوك ورحمتك ، آوهم إلى ركن تجاوزك ومغفرتك برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الحادي والثلاثون

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم

الحمد لله الذي فتح أقفال الصدور بمفاتيح السرور والأفراح ، وخص نسيم السحر بطيب الهبوب فأحيا به القلوب وأروح الأرواح ، سقى بساتين قلوب أوليائه بغيث جوده ونعمائه

فانبسط جزيل عطائه وساح ، انطلق بلابل تمجيدهم على أغصان توحيدهم فأثنت بشكر معبودهم في المساء والصباح ، عطر أزهار أسرارهم بأنفاس أذكارهم ففاح أرجها الفياح ، جمعهم تحت خيمة الليل في حضرة قربه وروّق لهم شراب حبه وسقاهم بكؤوس السماح ، فإذا صفقت أوراق الأشجار وشبب النسيم وغنى الهزار بصوته الرخيم حنّ كل مشتاق إلى عهده القديم وارتاح ، فمنهم من سكر وصحا ، ومنهم من فنى رسمه وانمحى ، ومنهم من هام مترنحاً ، ومنهم من كتم ، ومنهم من باح ، ومنهم من لازم الخضوع والانكسار ، ومنهم من تهتك ولبس ثوب الاشتهار وكلهم في خلوة الأسحار قد مزق الأطمار ، وهتكوا في محبته الأستار ، فسامحهم صاحب الدار وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ : [البقرة : ١٩٨] .

إذا غلب الوجد والافتضاح ... لأهل الهوى والجوى لا جناح

فكم في المحبة من هائم ... يطيل النحيب ويبدي النواح

وكم في دجى الليل من سادة ... لهم في الصباح وجوه صباح

وكم في المحبة من كاتم ... ينم عليه نسيم الصباح

فمن باح بالوجد في حبه ... فذاك الذي في هواه استراح

فقم يا لبيب بباب الحبيب ... فثَمَّ طبيب يداوي الجراح

وقم واسهرن في الدجى واعتذر ... إلى الحب واسمع منادي الفلاح

وإن تك بالذنب مستوحشاً ... فهم في الحقيقة أهل السماح

[قال عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه] : حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام ، فأتيت مكة شرفها الله تعالى فإذا بالناس قد خرجوا يستسقون أوّل يوم وثاني يوم وثالث يوم وأنا معهم فلم يسقوا فتركتهم ومضيت إلى الحجر فدخلت ، فإذا على البلاطة الخضراء شخص أسود نحيل الجسم مصفر اللون ، وعليه خلقتان متزر بإحداهما ومرتد بالأخرى ، وقد بكى وانتحب حتى بلت دموعه ثوبيه ، وهو رافع طرفه إلى السماء ، ويقول : إلّهي أخلقت الوجوه كثرة الذنوب والعيوب ومنعت عبيدك القطر من كثرة المعاصي والخطايا ، وأذهبت خلقك بالمحل والقحط وابتليتهم بالجوع والجهد ، وأنت عالم بالأحوال ، فقد قلقت الأطفال ، وهلكت المواشي والعيال ، فأقسمت عليك بجاه محمد ﷺ إلا ما سقيتنا الغيث الساعة ، وقد توسلت بك إليك ، وجعلت معتمدي عليك ، فهب للحاضرين ذنوبهم ولا تؤاخذهم بجرائمهم ، يا رباه يا رباه الساعة الساعة ، قال : فما استتم كلامه حتى تراكمت السحب ، وجادت بالقطر من كل جانب ومكان فجلست أبكي حتى خرج من الحجر فاتبعته حتى عرفت الموضع الذي دخل فيه

فعلمت الباب ورجعت إلى منزلي ، فلم يأخذني نوم طول ليلتي . فلما أصبحت صليت الصبح بغلس ، وأتيت الموضع فدخلت ، فإذا رجل حسن الهيئة فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، وقال هل لك من حاجة يا أبا عبد الرحمن ؟ قلت : نعم ، أريد شراء غلام ، فقال : عندي عشرة غلمان فاختر منهم من شئت فصاح بأحدهما فخرج غلام سمين ، فجعل يصفه لي ، فقلت : ليس من حاجتي ، فعرض آخر وآخر إلى أن عرض العشرة ، وأنا أقول : ليس من حاجتي ، فقال : لم يبق عندي إلا غلام أسود ضعيف الجسم متغير اللون ، إن ضحك الناس بكى ، وإن اشتغل الناس بأشغالهم صلى ، لا ينام الليل ، ينادي في بعض أوقاته بالحسرة والويل لا يصلح لخدمة أهل الدنيا من كثرة الضعف والبلى ، ومع هذا فإن قلبي يحبه ، وقد استبركت بنظره ، فصاح ميمون ، فقال إن شاء الله تعالى ميمون فخرج فنظرته فإذا هو صاحبي ، فقلت : هذا أريد ، فقال : ليس إلى بيعه من سبيل ، قلت : لم تبيعه ؟ قال : قد أنست به ، واستبركت بطلعته ومع هذا إنه قد حمل عني مؤنته ، فوالله ما يأكل عندي شيئاً إلا بعمل الشريط والخوص فيعمل كل يوم بنصف دانق ، فإن باع أفطر وإلا بات طاوياً . وقد أخبرني الغلمان أنه يحيى الليل كله ، فقلت : والله لئن لم تبعنيه لأتيتك بسفيان والفضيل ، فقال : إن كان هذا قضيت حاجتك فاشتريته منه ، وأخذت بيده وسرنا في الطريق فالتفت إليّ ، وقال لي : مولاي ، قلت : لبيك ، فقال : لا تلبني فإن العبد أحق بالتلبية للمولى ، ثم قال : سألتك بالله لم اشتريتني وأنا ضعيف نحل الجسم لا أقوى على الخدمة وقد أخرج سيدي إليك أجود مني ؟ فقلت : والله لا أستخدمك وإنما أكون لك خادماً ، فقال : سألتك بالله إلا ما أخبرتني بحالك معي فأخبرته بالخبر ، فقال لي : ينبغي أن تكون عبداً صالحاً ، فإن لله تعالى في خلقه نجباء وأولياء لا يكشف شأنهم إلا لمن ارتضاه من عباده ، قال فتمشينا إلى أن عبرنا على مسجد ، فقال لي : يا مولاي هل لك أن تأذن لي أن أصلي في هذا المسجد ركعتين ؟ قلت له : الساعة نسير إلى منزل الفضيل بن عياض فتركع فيه ما بدا لك ، قال : وما علمي بأن قد بقي من عمري ما يوصلني إلى منزل الفضيل ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من فتح له باب خير فليتم فإنه لا يدري متى يغلق عنه » . قال : فدخلنا المسجد فركع وركعت وأطال في الصلاة وأنا منتظره ، فلما سلم قال : يا مولاي قرب الأجل وانقطع العمل ، يا مولاي إنما كانت المعاملة طيبة بيني وبينه ، وقد علمت أنت وسيعلم غيرك وغيرك ولا حاجة لي في إفشاء السرّ وقد استودعتك الله وخر ساجداً ، فما زال يبكي ويتشهد إلى أن سكن حسه فحركته فإذا هو ميت رحمه الله عليه فتركته ومضيت إلى الفضيل وسفيان فأخذنا في أمره ما وجب ودفناه في المعلاة وانصرفت ، وفي قلبي لهيب النار فجئت إلى منزلي فلما كان الليل وقضيت وردي ونمت

فإذا بميمون قد أقبل في شملتين من الحرير وهو يتبسم وفي يده شيء فسلم عليّ وقال لي : يا مولاي حضرت بين يدي مولاي الكبير فشرحت له حالي ووزنك لثمني من غير منفعة انتفعت بها ولا خدمة ، فقال لي : يا ميمون إني أعلم السر وأخفى ، وأعلم ما في الضمائر القلوب وإنه لم يشترك إلا لوجهي وإجلالاً لكرامتي ، وقد أعتقته من النار بسببك وكرامتك عليّ وهذا ثمني فخذه . قال ابن المبارك : فبكيت وانتحبت واستيقظت من نومي والدراهم في يدي وأنا أبكي فوالله ما ذكرته قط إلا بكيت على فراقه :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل ... ففي حبه يحلو التهتك والذل
تذلل له تحظى برؤيا جماله ... إذا رضي المحبوب صح لك الوصل
أدار على العشاق خمرة قربه ... فطاب لهم فيها الصبابة والقتل
وقال لهم هذا جمالي تمتعوا ... وها خلع الإحسان والجود والفضل
سكارى حيارى واقفين ببابه ... وأجفانهم منها المدامع تنهلّ
فإن شئت أن تحظى برؤيا جماله ... تقدم وإلا فالغرام له أهل
فوالله ما في الكون يعشق غيره ... هو السّؤْل والمطلوب والقصد والكل

[قال مالك بن دينار رحمه الله] : أصابني في بعض أسفاري عطش شديد فملت إلى بعض الأودية طمعاً في الماء ، فسمعت صوتاً يهدر فقلت : هذه سباع مقبلة فوليت هارباً فناداني هاتف من بين الجبال : يا هذا ليس الأمر كما ظننت إنما هو وليّ لله سبحانه وتعالى قد عظمت زفرته واشتدت حسرته فارتفع صوته وعلا نحيبه فعدت إلى طريقي فإذا أنا بشاب قد أذابته العبادة حتى عاد كالخلال فسلمت عليه وأخبرته بعطشي . فقال : يا مالك ما وجدت في المملكة قطرة ماء ، ثم قام إلى صخرة فضربها برجله وقال لها : اسقنا ماء بقدرة من يحيي العظام وهي رميم فإذا الماء يخرج من الصخرة كما يخرج من العين فشربت حتى رويت ثم قلت : أوصني بشيء أنتفع به ، فقال : يا مالك كن لمولاك طائعاً في الخلوات حتى يسقيك الماء في الفلوات ثم ولى عني :

دمع أضر بمهجة المشتاق ... وجرت سوابق دمعه المهراق
صب إذا ما الليل أسبل ستره ... نادى بصوت في الدجى مشتاق
يا عالماً بسريرتي وبليتي ... وبما أجن من الأسى وألاقي
لو صرت نضواً في المحبة مغرماً ... ما حلت عن عهدي ولا ميثاقي
فامنن بعفوك لي فإني مذنب ... ما لي سواك لزلتي من راقي

[قال بعض السادة رحمه الله] : رأيت غلاماً في البادية وهو قائم يتعبد وليس معه أحد ، منقطعاً

عن العمارة والناس فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، فقلت له : يا فتى أنت في مكان منقطع بلا معين ولا رفيق . قال : بلى وعزة ربي معي المعين والرفيق ، قلت : وأين المعين أو الرفيق ؟ قال : هو فوقي بعزته ومعي بعلمه وحكمته وبين يدي بهدايته وعن يميني بنعمته وعن شمالي بعظمته . فلما سمعت هذا الكلام قلت : هل لك في المرافقة ؟ فقال : هيهات مرافقتك تشغلني عن خدمته وما أحب أن يكون هذا ولي ملك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، قلت له : أما تستوحش في هذا المكان ، فقال لي : يا هذا من كان المولى حبيبه وأنيسه كيف يستوحش ، قلت : من أين تأكل؟ قال : يا هذا غذاني بلطفه في ظلمة الأحشاء صغيراً أفلا يكفلني كبيراً ولي عنده رزق معلوم وله وقت محتوم فسألته الدعاء ، فقال لي : حجب الله طرفك عن معصيته وملأ قلبك بخشيته ولا جعلك ممن يشتغل بغيره عن خدمته ثم ذهب ليقوم فتعلقت به وقلت له : يا أخي متى ألقاك فتبسم وقال : أما بعد هذا اليوم فلا تحدث به نفسك في الدنيا ويوم القيامة يوم يجتمع فيه الناس كلهم فإن كنت ممن يلقاني فاطلبني في جملة الناظرين إلى الله عز وجلّ قلت له : ومن أين عرفت ذلك ؟ قال : به وعزته ، وذلك أني غضضت طرفي عن المحرمات ومنعت نفسي من تناول الشهوات وخلوت بخدمته في الليالي المظلمات ، فعوّضني النظر إلى وجهه الكريم ، ثم غاب عني فلم أره بعد ذلك :

أترى عبدكم يرى بالمصلى   قبل يقضي أسى بكم يتملى   سمعوني وأرسلوا لي جوابا
إن تكن صادقاً فأهلاً وسهلاً   قلت أمشي على جفوني إليكم   فعسى بالحبيب نجمع شملا
ثم أشري منه الوصال بروحي   قيل لي وصله من الروح أغلى   يا طريداً عن بابنا قبل الأر
ض لينا وعفر الخد ذلاً   إن ذل المحب خير شفيع   لحبيب قد صدّ عنه وولى
لا تظن الدموع تنفع إن لم   تك تجري من القلوب وإلا   ليس للدمع منة في هوانا
فابك مهما أردت طلا ووبلا   قلت للروح ودعيني وروحي   ثم للجسم خلني فتخلى
وإذا بالحبيب قد رفع الحجـ   ـب تعالى جماله وتجلى   ثم نادى أين المحب عبيدي
ادن مني وبالوصال تملى   يا عبيدي أطلت صبرك عني   أتسليت قلت حاشا وكلا
عطف السيد الكريم على العبـ   ـد وما زال للتعطف أهلا   ودعاه في مجلس الأنس جهرا
وعليه كأس التواصل يجلى   ومنادي القبول منه ينادي   هكذا هكذا يكون وإلا

فعلى أشرف النبيين صلوا   فعليه رب الخلائق صلى

[قال إبراهيم الخواص رحمه الله عليه] : حججت سنة من السنين وكانت سنة كثرة الحرّ والسموم ، فلما كان ذات يوم وقد توسطنا أرض الحجاز انقطعت عن الحاج وغفوت قليلاً فلم أشعر إلا وأنا وحدي في البرية فلاح لي شخص فأسرعت إليه فلحقته وإذا هو غلام لا نبات بعارضيه وجهه كالقمر المنير أو الشمس بالضاحية وعليه أثر الدلال والترفه ، فقلت له :

السلام عليك ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا إبراهيم ، فتعجبت منه أكثر العجب وقلت له : من أين تعرفني ولم ترني قبلها ؟ فقال : يا إبراهيم ما جهلت منذ عرفت ولا قطعت منذ وصلت ، فقلت له : ما الذي أوقعك في هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحرّ والسموم ؟ فقال : يا إبراهيم ما أنست بسواه ولا وافيت غيره وأنا منقطع إليه بالكلية مقرّ له بالعبودية ، فقلت له : من أين المأكول والمشروب ؟ قال : تكفل لي به المحبوب ثم أجابني ودموعه تنحدر على خديه كاللؤلؤ الرطب ، وأنشأ يقول :

من ذا يخوّفني بالبرّ أقطعه إلى المحبّ وقد قدّمت إيمانا
الحب أقلقني والشوق أزعجني ولا يخاف محب الله إنسانا
فهل لصغران سني اليوم تحقرني دع عنك عذلك بي قد كان ما كانا

ثم قال: يا إبراهيم أنت منقطع عن الحاج ؟ فقلت له : نعم ، قال إبراهيم : فنظرت إلى الغلام قد لمح بطرفه إلى السماء وهمهم بكلمات فعند ذلك لحقتني سنة من النوم فلم أفق إلا وأنا في وسط الحاج ورفيقي يقول لي : يا إبراهيم احذر أن تقع عن الراحلة فما أعرف أن الغلام صعد إلى السماء أم نزل في الأرض ، فلما انتهيت إلى الموقف ودخلت الحرم الشريف وإذا أنا بالغلام متعلق بأستار الكعبة وهو يبكي ويقول :

تعلقت بالأستار والقبر زرته وأنت بما في القلب والسرّ أعلم أتيت إليه ماشياً غير راكب
لأني محبّ في هواك متيم هويتك طفلاً حيث لا أعرف الهوى فلا تعذلوني إنني متعلم
وإن كان قد حانت إليّ منيتي لعل بوصل منك أحظى وأغنم

ثم وقع ساجداً وأنا أنظر إليه فأطال السجود فأتيت إليه وحركته فإذا هو ميت رحمه الله تعالى فتأسفت عليه كل الأسف ومضيت إلى راحلتي وأخذت ثوباً واستعنت بمن يغسله فأتيت إليه فلم أجده فسألت عنه الحاج جميعاً فلم أجد أحداً يقول رآه حياً ولا ميتاً فعلمت أنه مستور عن الخلق وأنه لم يره أحد غيري فأتيت إلى مكاني وغفوت فرأيته في المنام وهو في موكب عظيم وهو في أوائلهم وعليه أثر الدلال والترفه ، فقلت له : ألست صاحبي ؟ فقال : نعم ، فقلت له : ألست متّ ؟ قال : قد كان ذلك ، فقلت له : لقد طلبتك حتى أكفنك وأصلي عليك وأدفنك فلم أجدك ؟ فقال لي يا إبراهيم اعلم أن الذي من بلدي أخرجني ، ولمحبته شوّقني ، وعن أهلي غرّبني ، هو الذي تولاني وكفنني ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين يديه ، وقال : ما بغيتك ؟ فقلت : إلهي أنت أعلم ، فقال : أنت عبدي حقاً حقاً ، ولك عندي أن لا أحتجب عنك أبداً ، ثم قال لي : ما تريد ؟ فقلت : أريد أن تشفعني في القرن الذي أنا فيه ، قال: قد شفعتك فيه . قال إبراهيم : ثم صافحني فاستيقظت بعد المصافحة

وقضيت ما كان علي من الحج ونسكه ، ثم سرت مع جملة الحاج فما أجد أحداً إلا يقول لي : عجب الناس من طيب رائحة يدك . قال الناقل لهذا الحديث : ولم تزل رائحة الطيب تخرج من يد إبراهيم حتى قبض رحمة الله عليه :

قلوب بتقوى الله والذكر عامره ... وأوجههم بالقرب والبشر زاهره
يناجون مولاهم بفرط تضرع ... وأنوارهم من بهجة الحق باهره
يناديهم الرحمن أنتم أحبتي ... وأرواحهم شوقاً إلى القرب طائره
إذا اجتمعوا في خلوة الذكر في الدجى ... بمقعد صدق والزجاجات دائره
ترى أعين العشاق نحو حبيبهم ... إلى ذلك الوجه المقدس ناظره
فيا نفس هذا مشرب القوم فاشربي ... عسى أن تكوني عند ذلك حاضره
وتحظى برؤيا من بحسن جماله ... غدت ألسن المداح تتلو مفاخره
رسول أتى والشرك كالليل حالك ... فجلى بأنوار الرشاد دياجره
رؤوف رحيم شاهد متوكل ... سراج منير فاز من كان زائره
فلو شاهدت عيناك زوّار قبره ... وأعينهم كالسحب بالدمع ماطره
وتأتي وفود العاشقين صبابة ... إلى نحوه من كل فج مبادره
لتهدي نفوساً حجبت في ظلامها ... وكانت ضلالاً قبل ذلك حائره
وهبت لها من ذلك الحيّ نسمة ... وأنفاسها من طيب رياه عاطره
فيا أيها المختار من آل هاشم ... ومن كرم الله الكريم عناصره
أغثنا جميعاً في غد بشفاعة ... فأنت لكسر القلب ما زلت جابره
عليك سلام الله ماذرّ شارق ... ولاحت نجوم في دجى الليل نائره

المجلس الثاني والثلاثون

في مناقب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه

الحمد لله المعروف بالقدم قبل وجود الوجود ، الموصوف بالكرم والفضل والوجود ، المنزه في وحدانيته عن الأبناء والآباء والجدود ، المقدّس في ذاته عن الصاحبة والمصحوب والولد

والمولود ، العليم بأعداد الرمل والقطر وحبات السنبل والعنقود ، البصير بحركات الذرّ في البحر والبرّ تحت ظلام الديجور والليالي السود . الحكيم الذي فجر الأنهار من صمّ الجلمود ، وأخرج رطب الثمار من يابس العود ، لا تمثله الأفكار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا ينهيه المقدار ، ولا تفنيه الأعصار ، ولا تدركه الأبصار وهو الواحد المعبود . المعطي الذي لا مانع لما أعطى ولا دافع لما قضى ، الكريم الذي جاد لعبده بجزيل رفده وكم رآه عن بابه معرضاً . الحليم الذي ستر العاصي بحلمه ورأفته وقد رآه لمعصيته متعرضاً . الغفار الذي يغفر الذنوب ويستر العيوب ويعفو عما مضى ، القهار الذي قهر الجبابرة وكسر الأكاسرة وضرب بسوط بعاده من سلّ سيف عناده وانتضى . فسبحان من حير الأفكار في مدارك سبحات جلاله العظيم ، وأذهل العقول عن الوصول إلى كنه ذاته القديم ، وأخرس الألسن عن عبارات إشارات سرّ أفعاله بعد الفصاحة والتكليم . وأدهش الخواطر عن الإحاطة به فلا يرام بالتوهيم ؛ فهو الكريم الماجد القديم ! الواحد المنزه من الولد والوالد ! المقدس عن المشارك والمساعد ، المتعالي عن المشابه والمماثل والمضادد والمعاند ، الشكور على جميع النعم المحمود بجميع المحامد ، الذي أسبل ستره الجميل على عبده العاصي الذليل ، وهو إليه ناظر ومشاهد ، فهو المعروف بالربوبية الموصوف بالإلّهية ، المنفرد بحقيقة الوحدانية ، تنزه عن الأوهام الخيالية وتعزز في بقائه عن الفناء والمثلية ، عالم بكل خفية وجلية ، حارت العقول في عظمته فما عرفت له أينية ، وكلت الأفكار عن إدراك صمديته فلا تعرف بالعلوم العقلية فسبحانه من إلّه تعالى على المماثل والمناسب ، وجلّ عن المشارك المصاحب ، يقبل التائب ويجيب الآيب ، وليس على بابه بوّاب ولا حاجب ، من أمل سواه فهو الشقي الخائب ومن أناخ بباب كرمه ظفر بنيل المآرب . ومن ذاق حلاوة أنسه رأى من لطفه عجائب الغرائب . ومن أعرض عن سواه رفعه ورقاه إلى أرفع المراتب . يزيل الضرر ويجبر من انكسر وينادي في السحر هل من مستغفر هل من تائب . ويستعرض حوائج السائلين ويجود على التائبين بخلع القبول والمواهب :

إلّـه جل عـن شـبه ومثـل ... وعـن نـدّ يعـدّ وعـن مصـاحب
تفـرد في عـلاه فـلا شـريك ... ينازعـه ولا ضـد محـارب
تحجـب حيث شاء فـلا يـدانى ... وجـل عـن المماثـل والمناسـب
تجلـى للقلـوب فلـيس يخفـى ... وهل يخفى الحبيب على الحبائب

فسبحانه من إلّه شهدت له السموات وما فيها من العجائب . وأقرّت بربوبيته الأرضون في مشارقها والمغارب . واصطفى محمداً ﷺ نبيه المبعوث بالدين الواصب الموصوف بأحسن

الأوصاف وأجل المناقب . الذي شرّف الله به الوجود وكمل به السعود وبلغه أسنى المطالب والمآرب . واختار أصحابه النجباء وخلفاءه الكرماء الأخيار الأطايب وخص التابعين لهم بإحسان من أمته القائمين بشريعة الإسلام على توالي الزمان واختار منهم أربعة أقاموا قواعد الإيمان ودعوا العباد إلى عبادة الملك الديّان فملؤوا بعلومهم الآفاق والبلدان وسارت بها الركبان إلى كل مكان . فمنهم الإمام الشافعي المتصل نسبة بالشرف إلى عدنان . ومنهم الإمام الأصبحي مالك بن أنس الرفيع القدر والشأن . ومنهم الإمام أحمد بن حنبل الذي سلك بعلمه الطريق الأحمد في السرّ والإعلان . ومنهم الإمام الكوفي أبو حنيفة النعمان . فهؤلاء الأربعة السادات الأعيان الذين نفع الله بهم وبعلومهم الناس فزال عنهم البأس والجهل والغيّ والطغيان :

فالشافعي له علوم تشرق ... بين الورى وله ثناء يعبق ... ولمالك نشرت علوم مالها
حدّ كبحر زاخر يتدفق ... ولأحمد تعزى العلوم لأنه ... يروي الحديث وصدقه متحقق

وأبو حنيفة سابق فلأجل ذا ... آثاره وعلومه لا تسبق
فهم الأئمة خصهم رب العلا ... بالفضل منه فشأوهم لا يلحق

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى رضوان الله عليهم أجمعين ، ولد بالأنبار سنة ثمانين . ومات سنة مائة وخمسين وعاش سبعين سنة وكانت ولادته في عصر الصحابة وتفقه في زمن التابعين . قال أبو بكر بن ثابت المؤرّخ ﷺ : ويقال : إن أبا ثابت هو الذي أهدى الفالوذج لعليّ بن أبي طالب ﷺ يوم النيروز . وقيل : كان ذلك يوم المهرجان وكان ثابت أبو أبي حنيفة يقول : أنا في بركة دعوة صدرت من عليّ ﷺ في حقي . وقال السيد الشريف الحسيب النسيب أبو عبد الله محمد بن علي الحسيني أخبرني أبو العباس بن مسلمة قراءة عليه عن أبي البطي حدّثنا ابن خيرون أخبرنا الضمري . قال : كان أبو حنيفة حسن السمت والوجه والثوب والنعل والمواساة لكل من طاف به ، ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير وكان من أحسن الناس منطقاً سقطت في حجره حية فقام الناس عنه فنفض الحية وهو في مكانه لم يتغير . وعن أبي نعيم أنه كان يقول : كان أبو حنيفة حسن الوجه والثياب طيب الريح حسن المجلس شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه . وكان عابداً زاهداً عارفاً بالله تعالى خائفاً منه مريداً وجه الله بعلمه . [فأما كونه عابداً] فيعرف بما روي عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وقال عليّ ابن يزيد الصدائي رحمه الله : رأيت أبا حنيفة ختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمة بالليل وختمة بالنهار . وقال أبو الجورية رحمه الله : لقد صحبت حماد بن أبي سليمان وعلقمة بن مرثد

ومحارب بن دثار وعون بن عبد الله وصحبت أبا حنيفة فما في القوم أحسن ليلاً من أبي حنيفة لقد صحبته ستة أشهر فما منها ليلة وضع جنبه فيها . وروي أنه كان يحيى نصف الليل ، وأشار إليه إنسان وهو يمشي وقال لغيره : هذا هو الذي يحيي الليل كله فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله . وقال : أنا أستحي من الله تعالى أن أوصف بما ليس فيّ من العبادة :

للإمام النعمان فضل عظيم   حيث للدين قد أقام منارا   سنه ضاحك ويعلن حزنا
ألهب الخوف في الحشا منه نارا   لم يزل يكتم التهجد حتى   مات من خشية الإلّه اصطبارا
ليله قائم يصلي ويبكي   وإذا جاء الصبح صام النهارا   لو تراه إذا هدأت كل عين
باكياً يسفح الدموع الغزارا   إن هذا هو الكريم على   الله له صير الجنان قرارا

[وأما زهده] فقد روي عن بشر بن الوليد قال : كان أبو جعفر أمير المؤمنين أرسل إلى أبي حنيفة وأراد أن يوليه القضاء فأبى فحلف عليه أبو جعفر لتفعلن فحلف أبو حنيفة لا يفعل . فقال الربيع لأبي حنيفة : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر مني على كفارة يمينه فأمر به إلى السجن فمات في السجن ودفن في مقابر الخيزران . وفي موضع آخر : أن أبا جعفر المنصور دعا أبا حنيفة وسفيان الثوري وشريكاً فدخلوا عليه . فقال لسفيان : هذا عهدك على قضاء البصرة فالحق لها . وقال لشريك : هذا عهدك على قضاء الكوفة فامض إليها . وقال لأبي حنيفة : هذا عهدك على قضاء مدينتي وما يليها فامض . وقال لحاجبه : وجه معهم متوكلاً بهم فمن أبى منهم فاضربه مائة سوط . فأما شريك فإنه تقلد القضاء . وأما سفيان فإنه هرب إلى اليمن . وأما أبو حنيفة فإنه لم يقبل فضرب مائة سوط وحبس إلى أن مات ﷺ ورحمه رحمة واسعة .

وروي أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك . فقال : أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها فنفر منها ؟ وروي عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أمر لك أبو جعفر أمير المؤمنين بعشرة آلاف درهم . قال : فما رضي أبو حنيفة فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه . فقال من حضر : لا يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة أي هذه عادته ، فقال : ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته فقال لابنه : إذا متّ ودفنوني فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له : هذه وديعتك التي أودعنها أبا حنيفة قال ابنه : ففعلت ذلك . فقال الحسن : رحمة الله على أبيك لقد كان شحيحاً على دينه . وأما علمه بطريق الآخرة وأمور الدين ومعرفته بالله عزّ وجلّ فتدل على شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا ، وقد قال ابن جريج : بلغني عن

كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أن شديد الخوف من الله عزّ وجلّ . وقال شريك النخعي رحمه الله تعالى : كان أبو حنيفة ﷺ طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس ، وهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطن والاشتغال بمهمات الدين فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله :

قد غدا في الزمان أسمى وأعلى زاده الله منه نسبلاً وفضلا صار في مجمع العلوم إلى حد
ذا التناهي فليس يلحق أصلا ذو بيان ما أشكل الخطب إلا حله فضله على الفور حلا

وغدا في السماح مثل سحاب لمعت نار برقه فاستهلا
حلّ أرض العراق فاعتاض منه أهلها العلم فارتووا منه نهلا

ويروى أن أبا حنيفة ﷺ كان يوماً جالساً في المسجد فدخل عليه طائفة من مقدمي الخوارج شاهرين سيوفهم ، فقالوا : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فإن أجبت نجوت وإلا قتلناك ، قال : اغمدوا سيوفكم فإن برؤيتها يشتغل قلبي قالوا : كيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها في رقبتك فقال : سلوا إذن ، فقالوا : جنازتان على الباب : إحداهما رجل شرب الخمر فغص فمات سكران ، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة أهما كافران أم مؤمنان ؟ والقوم الذين جاؤوا يسألون مذهبهم التكفير بذنب واحد فإن قال : مؤمنين قتلوه . فقال : من أي فرقة كانا من اليهود ؟ قالوا : لا ، قال : من النصارى ، قالوا : لا ، قال : من المجوس ؟ قالوا لا ، قال : من عبدة الأوثان ؟ قالوا : لا ، قال : ممن كانا ؟ قالوا : من المسلمين ، قال : قد أجبتم ، قالوا : وكيف ؟ قال : قد اعترفتم أنهما كانا من المسلمين ومن كان من المسلمين كيف تجعلونه من الكافرين ؟ قالوا : هما في الجنة أو في النار . قال : أقول فيهما ما قال إبراهيم خليل الرحمن ﷺ في حق من هو شر منهما ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : [إبراهيم : ٣٦] وأقول ما قال عيسى روح الله عليه الصلاة والسلام فيمن هو شرّ منهما : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ : [المائدة : ١١٨] فتابوا واعتذروا إليه . وروي أن امرأة دخلت مسجده وهو جالس بين أصحابه فأخرجت تفاحة أحد جانبيها أحمر والآخر أصفر فوضعتها بين يديه ولم تتكلم فأخذها أبو حنيفة وشقها نصفين فقامت المرأة وخرجت ولم يعرف أصحابه مرادها فسألوه عن ذلك ، فقال لهم : إنها ترى الدم تارة أحمر مثل أحد جانبي التفاحة وتارة أصفر مثل الجانب الآخر أيهما يكون حيضاً أو طهراً فشققت التفاحة وأريتها باطنها وأردت بذلك أنها لاتطهر حتى ترى البياض مثل باطنها فقامت . وقال أبو حنيفة : دخلت البصرة فظننت أن لا أسأل عن شيء إلا

أجبت عنه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب فجعلت على نفسي أن لا أفارق حماداً فصحبته عشرين سنة قال : وما صليت صلاة إلا واستغفرت لحماد مع والديّ ولكل من قرأت عليه وحدثنا صلح بن محمد عن يوسف بن رزين عن أبي حنيفة ﷺ قال : رأيت في المنام كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فأخرجت عظاماً فاحتضنتها قال : فهالتني هذه الرؤيا فدخلت إلى ابن سيرين فقصصتها عليه فقال : إن صدقت رؤياك لتحيينَّ سنة محمد ﷺ . وحدثنا يوسف بن الصباغ قال : قال لي رجل رأيت كأن أبا حنيفة نبش قبر النبي ﷺ . فسألت عن ذلك ابن سيرين ولم أخبره من الرجل قال : هذا رجل يحيي سنة رسول الله ﷺ . وكان أبو حنيفة ﷺ يقول : ما جاءنا عن رسول الله ﷺ قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن أصحابه اخترنا منه ولم نخرج عن قولهم وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال . وأما غير ذلك فلا نسمع :

لقد أيد الله الأنام بعلمه ... وقد ردّ حزب الجهل بالعلم معروف
وقد ملأ الآفاق فضلاً بعلمه ... وكم جاءه في الكشف للضر ملهوف
وكم من منامات رآها له الورى ... وكم نفعتهم من نهاة التصانيف
وكم من كرامات حكى القطر عدها ... فلا الفضل محجوب ولا الحق مصروف
فهذا هو النعمان حقاً وإنه ... له عند رب العرش في القدر تشريف

وأما تأدّبه عند مجالسة العلماء فحدّثنا أبو هاشم أيوب بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن رشيد صاحب عبد الرحمن بن أبي القاسم عن يوسف بن عمرو عن عبد العزيز الدراوردي قال : رأيت أبا حنيفة ومالك بن أنس في مسجد رسول الله ﷺ بعد العشاء الآخرة وهما يتذكران ويتدارسان حتى إذا وقف أحدهما عن القول الذي قال به أمسك الآخر من غير تعنيف ولا تعيير ولا تخطئة حتى صليا الغداة في مجلسهما ذلك رضي الله عنهما . وأما إنصافه واعترافه فإنه ﷺ كان يقول : قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب . وأما قيامه لله تعالى حق القيام فإنه كان إذا رأى منكراً ذهب ذلك اللين فظاظة واحمرّت عيناه وانقلبتا في أمّ رأسه ، وانتفخت أوداجه ، وما رأى منكراً قط إلا أزاله ؛ ولقد خرج يوماً فرأى بعض الملاهي مع رجل فهاوشه فأوجعه الرجل ضرباً ولم يعرفه وهو مع ذلك يحرص على كسر ذلك حتى كسره ورجع إلى بيته فمكث شهرين منقطعاً في بيته من شدة الضرب . وقال الخطيب : قيل لسفيان الثوري : ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة ، ما سمعته يغتاب عدواً له قط . قال : هو والله أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها . وقال علي بن عاصم رحمه الله : لو وزن عقل أبي حنيفة بعقل نصف أهل الأرض لرجح بهم . وأما تأدّبه مع السلف فيروى أن سئل ﷺ عن علقمة والأسود أيهما كان أفضل ؟ فقال : والله ما بلغ قدري أن أذكرهما إلا بالدعاء

والاستغفار إجلالاً لهما ولا أفضل بينهما . وأما كرمه ﷺ ، فقال قيس بن الربيع : كان أبو حنيفة يجمع ما يكتسبه من بضائعه فيشتري به الكسوة للمشايخ المحدّثين وما يحتاجون إليه ويقول : احمدوا الله تعالى فهو الذي أعطاكم فوالله ما أعطيتكم من مالي شيئاً . وكان ﷺ إذا جلس إليه الرجل يسأل عنه فإن كان به فاقه أعطاه فجلس إليه رجل عليه ثياب رثة ، فلما تفرّق الناس عنه أمره بالقعود حتى خلا به فقال : ارفع هذا المصلى وخذ من تحته ألف درهم أصلح بها حالك ، فقال الرجل : أنا موسر وأنا في نعمة ، فقال له : أما بلغك الحديث : « إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتمّ بك صديقك :

لأبي حنيفة في العلوم منار ملئت بها الآفاق والأقطار
شيخ البرية في العلوم ومن له تروى المناقب عنه والأخبار
متعبد لله طول حياته وعليه منه سكينة ووقار
قد كان يحيي ليله متهجداً وله بكل وظيفة أذكار
وعطاؤه قد كان سحاً في الورى وله بذاك على الأنام فخار

وكان ﷺ لا يكلمه أحد في حاجة إلا قضاها . وأما ورعه عما دخله الشبه ؛ فعن حفص بن عبد الرحمن وكان شريك أبي حنيفة : أن أبا حنيفة كان يتجر عليه ويبعث إليه بمتاع ويقول له في ثوب كذا عيب فبين إن بعته فباع حفص المتاع ولم يبين ونسي ، فلما علم أبو حنيفة ذلك تصدّق بثمن الثياب كلها ، ومن ورعه ﷺ أن شاة سرقت في عهده فلم يأكل لحم شاة مدة تعيش الشاة فيها . وروي أن الخليفة بعث إلى أبي حنيفة وابن أبي ذئب بمال ، فقال ابن أبي ذئب : إن لا أرضى له بهذا المال فكيف أرضاه لنفسي ، وقال أبو حنيفة : لو ضربت على أن أمسّ منه درهماً ما مسسته ، وروي أن الخليفة دعاه فقال : يا أبا حنيفة : كم يحلّ للرجل الحرّ من النساء الحرائر ؟ فقال : أربع ، فقال الخليفة : اسمعي يا حرة ، فقال أبو حنيفة : على البديهة يا أمير المؤمنين لا يحل لك إلا واحدة فغضب الخليفة وقال : الآن قلت أربع ، فقال : يا أمير المؤمنين قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ : [النساء : ٣] فلما سمعتك تقول اسمعي يا حرة عرفت أنك لا تعدل ، لهذا قلت لا يحل لك إلا واحدة ، فلما خرج أبو حنيفة بعثت زوجة الخليفة إليه ألف دينار وأنفذت تشكره وتثني عليه ، فلم يقبلها أبو حنيفة وردها وقال للرسول : قل لها أنا ما تكلمت لأجلك وما تكلمت إلا لأجل الله فأجري على الله . وكان ﷺ كثيراً الخوف والصدقة ، قال الخطيب : كان أبو حنيفة إذا أنفق على عياله نفقة

تصدق بمثلها ، وإذا اكتسى ثوباً جديداً كسا بقدر ثمنه العلماء ، وكان إذا وضع بين يديه الطعام ترك منه على الخبز بقدر ما يأكل ثم يطعمه لإنسان فقير أو لمن في بيته يحتاج إليه ، وكان يؤثر رضا ربه على كل شيء ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل ، وكان دائماً يتمثل بهذين البيتين :

عطاء ذي العرش خير من عطائكمو　　وفضله واسع يرجى وينتظر
تكدرون العطا منكم بمنتكم　　والله يعطي فلا منّ ولا كدر

وقال محمد بن الحسين الليثي : قدمت الكوفة فسألت عن أعبد أهلها فدفعت إلى أبي حنيفة ثم قدمتها وأنا شيخ فسألت عن أفقه أهلها فدفعت إلى أبي حنيفة . وقال مسعر بن كدام وكان مشتهراً بالزهد والاجتهاد : أتيت أبا حنيفة في مجلسه فرأيته يصلي الغداة ثم يجلس للناس للعلم إلى أن يصلي الظهر ثم يجلس إلى العصر فإذا صلى العصر جلس إلى المغرب فإذا صلى المغرب جلس إلى أن يصلي العشاء الآخرة فقلت في نفسي : هذا الرجل في هذا الشغل متى يتفرغ للعبادة لأتعاهدنه الليلة . قال : فتعاهدته فلما هدأ الناس خرج إلى المسجد فانتصب للصلاة إلى أن طلع الفجر ودخل منزله ولبس ثيابه ، وخرج إلى المسجد ففعل كفعله اليوم الأوّل ، فلما جاء الليل تعاهدته ففعل كفعله الليلة الماضية . قال : فقلت لألزمنه إلى أن أموت أو يموت . قال ابن أبي معاذ : فبلغني أن مسعراً مات في مسجد أبي حنيفة في سجوده . وعن محمد بن الحسن قال : حدثني القاسم بن معن أن أبا حنيفة ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ : [القمر : ٤٦] فلم يزل يرددها ويبكي ويتضرع إلى أن طلع الفجر . وقال حفص بن عبد الرحمن : كان أبو حنيفة يحيي الليل بقراءة القرآن في ركعة ثلاثين سنة . وقال أسد بن عمرو : صلى أبو حنيفة ﷺ الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة . وكان يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه . وقيل : إنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه ستة آلاف مرة . وقال ابن أبي زائدة : صليت مع أبي حنيفة العشاء الآخرة ، وخرج الناس وأنا في المسجد أريد أن أسأله عن مسألة وهو لا يعلم أني في المسجد فقرأ حتى بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ : [الطور :٢٧] فلم يزل يرددها حتى طلع الفجر . ويروى أنه من شدّة خوفه سمع قارئاً يقرأ ليلة في المسجد : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] فلم يزل قابضاً على لحيته إلى الفجر وهو يقول : نجزى بمثقال ذرة ، فرحمة الله عليه ورضوانه :

إن ترد في أبي حنيفة وصفا　　فالرواة الثقات عنه تشير
كان شمساً يضيء بالعلم حقا　　وهو في الناس بالعلوم الأمير
كان شيخ الإسلام قدوة خلق الله　　حقاً لما اقتضاه القدير
لم يزل وجهه جميلاً بهيا　　خاشعاً لا يشوبه تكدير
معرضاً عن حطام دنيا تلهى　　كل عقل بحبها مأسور
قد تساوى لديه تنزيه نفس　　عن حطام قليلها والكثير

وأما وفاته فحدثنا أحمد بن كامل وعبد الباقي بن قانع قالا : توفي أبو حنيفة ﷺ ببغداد في رجب أو شعبان سنة خمسين ومائة وبلغ سبعين سنة . قيل : إنه سقي السم فمات رحمه الله ، وصلى عليه قاضي القضاء الحسن بن عمارة في جمع عظيم . وأما رؤيته بعد الموت فحدثنا جعفر بن الحسن قال : رأيت أبا حنيفة في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . وعن علي ابن الحسن قال : حدّثنا علي بن مسلمة قال : سمعت عبد الحميد بن عبد الرحمن الجماني يقول : رأيت في النام كأن نجماً سقط من السماء فقيل أبو حنيفة ، ثم سقط نجم آخر فقيل : مسعر ، ثم سقط آخر فقيل : سفيان . فمات أبو حنيفة قبل مسعر ثم مسعر قبل سفيان . وحدثنا خلف بن سالم قال : حدّثنا صدقة ـ وكان صدقة مجاب الدعوة ـ : أنه لما دفن أبو حنيفة رحمة الله عليه في مقابر الخيزران سمعت صوتاً ليال يقول :

ذهب الفقه فلا فقه لكم ... فاتقوا الله وكونوا خلفا
مات نعمان فمن هذا الذي ... بعد يحيي ليله إن سجفا

وقال بعضهم في وفاته :

ألا كم لنعمان علوم سوابق ... ويعزى له فضل وتنمى حقائق
وزهد ولطف زانه وتفرد ... معارف شاعت في العلا وطرائق
فللّه يوم حان فيه حمامه ... فكادت له تهوي الجبال الشواهق
وغص به كل الأنام فذا شج ... كئيب وذا باك وآخر شاهق
ويعلو وقار نعشه وسكينة ... وكل فؤاد قد غدا وهو خافق
وقاموا صفوفاً للصلاة كأنهم ... سطور وهاتيك البقاع مهارق
تحفهمو فيها الملائك خشعاً ... ومن حوله حور حسان عرائق
وقد حسد المسك التراب لطيبه ... بقبر له فالطيب من ذاك عابق
وفتحت الجنات يوم قدومه ... يقبله رضوانه ويعانق
وكم من منامات رآها أولو النهى ... له فهي بالإسناد عنه توافق
وكم من علوم واجتهاد بفقهه ... يصون حماها حافز منه صادق
وكم حل إشكالاً وكم من أدلة ... تشدّ إلى معناه فيها الأيانق
وحدث عن خير الورى عند قبره ... أحاديث صدق وهو بالنقل واثق
وأحيا بعلم الفقه سنة أحمد ... نبي له قلب المتيّم شائق
نبي الهدى جالي الصدى قامع العدا ... مزيل الردى يوماً تحق الحقائق
شفيع الورى خير الأنام محمد ... ومن فضله في الخلق والذكر سابق

أحنّ إليه كل وقت وأنثني		وقد عوقتني عن لقاه العوائق
لئن أوصلتني أرض نجد مطيتي		وزرت حماه الرحب والدمع دافق
كحلت عيوني من تراب ضريحه		ومن لي به كحلاً لعيني يوافق
عليه صلاة الله ثم سلامه		مدى الدهر والأزمان ما ذرّ شارق

المجلس الثالث والثلاثون

في ذكر كرامات الأولياء رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي ظهر بالبرهان وتجلى ، وتصرف في الأكوان فعزل وولى ، ووفق من شاء من عباده فجاهد في الله حق جهاده وما ولى ، أقامه في الليل لخدمته فجاهد في طاعته ، وتلذذ بمنادمته والسعيد من بات بمشاهدة مولاه يتملى ، وسقاه من شراب قربه بكؤوس حبه فنادى بلسان ذوقه وقلبه على جمرات شوقه يتقلى :

هذه الكاسات في الأسحار تجلى		ما ترى الساقي علينا قد تجلى		زالت الوحشة بالأنس وقد
قيل يا من يطلب الوصل تملى		دولة الهجر توالت وانقضت		والذي قد كان معزولاً تولى
أيها الأحباب هذا وقتكم		إن عزمتم فابذلوا الأرواح بذلا		خلوة الليل خلت من عاذل
والذي تهواه لا يسمع عذلا		واحد منفرد في ذاته		عنه آيات صفات الحسن تتلى

فسبحان من نظر بحسن اصطفائه إلى أوليائه ومنحهم من عطائه نعماً وفضلاً ، أعطاهم ومناهم اختبرهم وابتلاهم فشكروا على ما أعطى وصبروا على ما أبلى ، سبقت لهم العناية بالسعادة في سابق الإرادة فكانوا من الذين أحسنوا الحسنى وزيادة إذ صيرهم لها أهلاً ، خف منهم معروفاً بالمعروف فخرق في محبته الصفوف ، وجال في مجال الحتوف ، وما زاغ من محبته ولا ولى ، وفقه لمحبته ومنحه من طيب حضرته قرباً ووصلاً ، وسقاه بكأس الوصال حين رقاه إلى رتبة الاتصال ففاز بقربه وتملى :

مذ شهدت الحبيب جهراً تحلى		همت شوقاً ونلت قرباً ووصلا
فلهذا عرفت فيه جهاراً		بشهود الهوى وكأسي تملى

وجاد بالمزيد على أبي يزيد ، فلزم التجريد وشطح على كل مريد بالمورد الأحلى ونادى بلسان

حاله مترجماً عن وجده وبلبابه متعجباً بأحواله مدلاً :

ويح من لم يكن لوصلك أهلاً ذاك عن قصده تباعد جهلا

لو يذوق الغرام في الحب أضحى مستهاماً بناره يتقلى

وشعشع شموس العناية للشبلي ، فبات لأنوار الهداية يستجلى ، ولأسرار المحبة يستملى ، إذ شرب بين الناس بالكأس الأملى ، وخاطبه في خلوة أنسه ، وقال له بنفسه مرحباً وأهلاً وسهلاً :

كأس شوقي من دنّ ذوقي تملى وعروس الرضا لعيني تجلى

لو تراني وقد براني نحول هو عندي أهنى لقلبي وأحلى

وتفضل على الفضيل ، فشمر في خدمته الذيل ، وسار في نيل التحقيق بعد قطع الطريق مستقلاً وأصلى بالمصالحة أسرار قلبه وناداه وقد جمع له بقربه شملاً :

قد عفونا عما مضى منك فضلاً مذ رأيناك للتواصل أهلا

ثم قلنا لما أتيت منيباً مرحبا مرحبا وأهلاً وسهلا

وأدار صرف المزاج على الحلاج فسكر وهاج ، وخرج عن المنهاج ، وبات بنار شوقه يتقلى ، ونادى بلسان وجده ، وقد خرج عن حده لما رأى ساقي شهوده في وجوده قد تجلى :

ساقي الراح لا تزدني مهلا ما ترى القوم من شرابك قتلى

ياحبيب القلوب أنت لقلبي كعبة الحسن للخلائق تجلى

جئت أسعى على جفوني إليها قيل لي لن تنال بالسعي وصلا

قلت إن جئت زائراً تقبلوني قيل إن كنت للتواصل أهلا

قلت قد متّ في هواكم غراماً قيل هكذا يكون وإلا

أيها الخاطب الذي جاء يبغي من حمانا قرباً ويطلب وصلا

غضّ عن غير حسننا كل طرف وتهنى بحسننا وتملى

وإذا جئت فامدد الكف فقراً في الدياجي وعفر الخدّ ذلا

واعترف بالذنوب وابك الخطايا وزماناً مضى وعمراً تولى

ثم لذ بالنبي خير البرايا والذي في الإسرا دنا فتدلى

ثم صلّ عليه في كل وقت فعليه رب الخلائق صلى

[عن سهل بن عبد الله ﷺ] قال : مرض رجل من أولياء الله تعالى مرضاً شديداً فكان الناس إذا رأوه قالوا به جنون فأكثروا عليه ، فلما عظم كلام الناس في أمره قالوا له : نعالجك ؟ . فقال

لهم : يا قوم اعلموا أن لي طبيباً إذا سألته داواني لكنني لا أسأله أن يداويني فقيل له : ولم ذلك وأنت محتاج إلى الدواء ؟ فقال : أخشى إن برئت من هذه العلة طغيت . فقيل له : إن عندنا مجنوناً فاسأل طبيبك هذا أن يداويه ، قال نعم ائتوني به فأتوه برجل في عتقه غلّ عظيم ويداه مشدودتان إلى عنقه في قيد ثقيل قد استمكنت منه العلة ، فقال لهم : خلوا بيني وبينه فنهض جهال القوم إلى يديه فحلوهما وأدخلوه معه في البيت الذي كان فيه وأغلقوا عليهما الباب وهم يظنون أنه سيفضي إليه بمكروه ، فلما كان بعد ساعة صاحوا به فأجابهم وخرج إليهم وسلم ليهم وكلمهم بكلام عاقل وهو يبكي بكاءً شديداً . فقال له : أخبرنا بقصتك وما كان منك ومنه ، فقال : دخلت على هذا الرجل وأنا على ما قد علمتم لا أعقل شيئاً كما رأيتموني فقرّبني منه وأدناني وجعل يده على صدري والأخرى على رأسي فأحسست بالعافية وزال ما بي فقالوا له : ادخل معنا إليه لنسأله أن يدعو الله عزّ وجلّ لنا فدخل مع القوم إليه فلم يجدوه في البيت وستره الله عزّ وجلّ عن أعينهم . قال سهم : وهذا رجل من بيت المقدس يقال له إدريس بن أبي خولة ﷺ :

أهل المحبة ما نالوا الذي وجدوا — حتى لربهم في الخلوة انفردوا
تراهم الدهر لا يمضون من بلد — إلا ويبكي عليهم ذلك البلد
لا يعطفون على أهل ولا ولد — ولا ينامون إن كان الورى رقدوا
فالذكر مطعمهم والشكر مشربهم — والوجد مركبهم من أجل ذا سعدوا
لا يبرحون على أبواب سيدهم — ولا يريدون إلا من له عبدوا
فالشوق يضرم ناراً في قلوبهم — ونارهم في دجى الظلماء تتقد
مساجد الله مأواهم ومسكنهم — وعيشهم طيب في قربه رغد

[قال الجنيد رحمة الله عليه] : حججت سنة من السنين وجاورت بمكة شرّفها الله تعالى فجئت يوماً إلى بئر زمزم لأرتوي منها فلم أجد بها حبلاً ولا ركوة ولا سقاء ، فبينا أنا كذلك إذ دخل عبد أسود ومعه ركوة وحبل فدلاهما في البئر فلم يصلا فرفعهما وقال : وعزتك لئن لم تسقني لأغضبن فإذا بالماء قد طفح على جانب البئر فتوضأ وشرب وملأ ركوته ثم عاد الماء إلى قعر البئر ، قال الجنيد : فلما خرج تبعته وقلت حبيبي على من كنت تغضب ؟ فقال : يا جنيد ما هو كم خطر لك كنت أغضب على نفسي لا أسقيها الماء إلى يوم القيامة ، فلما علم سيدي صدق الدعوى أنبع لي الماء ثم غاب عني فلم أراه :

قوم أقاموا وداموا — على العهود وراقبوا — حبيبهم واستقاموا — في السر والإجهار
طوبى لهم إذ وفوا — إليه من دون الورى — وبادروا بالطاعة — في خدمة الجبار

لبوه لما دعاهم	وقدموا أرواحهم	وأقبلوا لحماه	من سائر الأقطار
لهم حقائق دقائق	على الخلائق تنعجم	محلها من بوارق	خوارق الأفكار
هبت عليهم نسيمة	فاستنشقوا من نشرها	شذا الحبيب ومنها	تنسموا الأخبار
وحين وافت وطافت	تفردوا وتجردوا	عن الوجود وولوا	عن سائر الأغيار
قلوبهم معمورة	بحبّ مولاهم فلا	يضرّهم في الظاهر	ملابس الإنكار
باعوا النعيم الفاني	وحققوا واستيقنوا	بأن هذي الدنيا	ليست بدار قرار
أباحهم مولاهم	يوم القيامة والجزا	جنات عدن تجري	من تحتها الأنهار
فعند ما يدخلوها	تقبل تنادي الملائكة	بشراكم إذ صبرتم	فنعم عقبي الدار

[قيل] لمعروف الكرخي رحمة الله عليه : يا معروف بماذا أنت معروف ، وبأيّ وصف في المحبة موصوف ؟ فقال : ياقوم ويحكم هل يجهل المعروف أو ينكر المألوف ، وهل يخفى القمر إلا على البصر المكفوف ؟ أما تنظرون إلى قلبي المشغوف ولبي الملهوف وعقلي المخطوف فكم خرقت في المحبة من صفوف ، وكم جرعت من كؤوس صروفها من حتوف ، وكم قرأت في رموز مشكلها من حروف ، حتى صرت بين أهل المحبة معروف ، ولولا أن يكون معروف لكان عن طريق السعادة مصروف فإن المستور بأثواب غروره مكشوف ، والمتبهرج بدعواه ترد عليه الزيزف :

جسدي على حكم الضنى موقوف	أبداً وطرفي بالبكاء مطروف
والقلب حول حماكمو ورضاكمو	يسعى على قدم الصفا ويطوف
فبحسنكم قلبي يهيم صبابة	وبحبكم أبداً أنا موصوف
وبوصلكم قد غدت من هجرانكم	فأنا الحزين وقلبي الملهوف
وبكم عرفت فكيف تنكر حالتي	والفضل أن لا ينكر المعروف
ما لي سوى أبوابكم يا سادتي	والقلب من هجرانكم مرجوف
حاشاكمو أن تطردوا عبداً لكم	عن بابكم قد جاء وهو مخوف
يبغي الأمان ومنكمو يرجو الرضا	والستر فهو لديكمو مكشوف

[قيل] للفضيل بن عياض رحمة الله عليه : يا فضل أخبرنا كيف جذبتك يد التوفيق من قطع الطريق ، وكيف نقلت من فريق الشقاوة إلى أسعد فريق ؟ فقال : يا قوم كنت ضالاً عن الطريق بعيداً عن التوفيق ، فأنقذني مولاي من بحر الآثام ، وغمرني بالإحسان والإنعام ، فقالوا : كيف كان ذلك ، وكيف قربت عليك المسالك ؟ فقال : بينا أنا يوماً قد خرجت لأقطع الطريق على المارة وتقودني إلى الشرّ نفسي الأمارة غرّني الزمان واستحوذ عليّ الشيطان ، فذهب لأستلب الرقاب وأنتهب الركاب ، وأنا في ظلمة الحجاب آتيه ولا أعرف لطريق

الصواب باب ، إذا طلع عليّ من مكامن التوفيق كمين : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ : [الحديد : ١٦] فألقيت له سمعي وأجريت بالبكاء دمعي وطار قلبي وأثر ذلك في رجوعي إلى بي . فقلت : بلى والله قد آن وحان رجوعي إلى الرحمن وخوفي من العصيان ، ولكن لا بد للخائف من أمان ، فجاءت بشائر القرآن بترجمان : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ : [الرحمن : ٤٦] فرجعت من قطع الطريق الجادة إلى قطع السجادة وخرجت عن طريق الوسادة ودخلت في طريق أهل السعادة ، فصرت تحت قهر قدرته أسيراً ووقفت على باب رحمته فقيراً ونكست رأس ذلتي على باب عزته كسيراً . وقلت : سيدي رجعت إليك رجوع العبد الآبق مستشفعاً بفضلك السابق فغدوت صائداً ورجعت مصاداً ، وذهبت قائداً ورجعت إلى بابك منقاداً ، ثم أنشد يقول :

عبيدك في معاصيه تمادى ... وبارز إذ طغى وبغى عنادا ... وها أنا واقف بالباب فردا
كما تأتي العبيد غداً فرادى ... فكم سوّدت من صحف ولكن ... ستور الحلم غطين السوادا
فوا خجلي ومالي ثم وجه ... أواجههم ولا أعددت زادا ... ولا مال يقربني إليهم
ولا جاء يبلغني المراد ... تراك معذبي يا نور عيني ... وقلبي فيك قد أصفى الودادا
فإن يرضيك إبعادي وطردي ... على رأسي ولو أضنى الفؤادا ... فيا الله ما أهنا محبا
إلى أحبابه ألقى القيادا ... وما أشقى معنى قد تعنى ... وسدّ الباب فانقلب ارتدادا

فيا مولاي جد بالعفو وارحم ... كثيباً قد أسا جهراً ونادى
أقلني عثرتي يا رب واغفر ... لعبد في المعاصي قد تمادى

[كان] في بني إسرائيل رجل عابد في كهف جبل لا يراه الناس ولا يراهم وعنده عين ماء يتوضأ منها ويشرب ويقتات من نبات الأرض وهو صائم النهار قائم الليل لا يفتر عن العبادة وعليه آثار السعادة فسمع به موسى عليه السلام فقصده في النهار فوجده مشغولاً بالصلاة والأذكار وقصده في الليل فوجد مستغرقاً في مناجاة العزيز الغفار ، فسلم عليه موسى عليه السلام : وقال له : يا هذا ارفق بنفسك ، فقال يا نبي الله أخاف أن أؤخذ على غفلة فأقضي نحبي وأكون مقصراً في خدمة ربي ، فقال له موسى عليه السلام : هل لك من حاجة ؟ قال : سل مولاك أن يعطيني رضاه ولا يشغلني بسواه حتى ألقاه ، فصعد موسى عليه السلام إلى المناجاة واستغرق في لذة كلام مولاه ، فنسي قول العابد ، فقال له الحق سبحانه وتعالى : ماذا قال لك عبدي العابد ؟ فقال : إلهي أنت أعلم سألني أن تعطيه رضاك ولا تشغله بسواك حتى يلقاك . فقال : يا موسى اذهب إليه وقل له بتعبد ما شاء في الليل والنهار فهو من أهل النار لما سبق له عندي من الذنوب والأوزار وأعلم منه ما لا يعلمه غيري من الفضيحة والعار ، فأتاه موسى عليه السلام فأخبره بقول ربه وما سبق من

عظيم ذنبه ، فقال : مرحبًا بقضاء ربي وحكمه وكل شيء بعينه وعلمه لا مردّ لأمره ولا معقب لحكمه ثم بكى بكاء شديداً ، وقال : يا موسى وعزته وجلاله ما برحت عن بابه ولو طردني ، ولا حلت عن جنابه ولو أحرقني ومزقني ثم أنشد :

لـو قطعـني الغـرام إربـاً إربـاً ... مـا ازددت علـى الغـرام إلا حبـا

لا زلـت بـه أسـير وجـد وضـنى ... حـتى أقضـي علـى هـواه نحبـا

فلما صعد موسى عليه السلام إلى المناجاة وقال : إلهي أنت أعلم بما قال عبدك العابد ، قال : يا موسى بشره بأنه من أهل الجنة فقد أدركته الرحمة والمنة وقل له تلقيت قضائي بالصبر والرضا ورضيت مني بأصعب حكم وقضا ، فلو ملأت ذنوبك السموات والأرض والفضا ، وجميع الأقطار لغفرتها لك وأنت الكريم الغفار ، فلما بلغه موسى ذلك خرّ ساجداً وحمد ربه ، وما زال في سجوده حتى قضى نحبه :

نوح الحمام على الغصون شجاني ... ورأى العـذول صـبابتي فبكـاني

إن الحمام ينوح من خـوف النـوى ... وأنـا أنـوح مخافـة الـرحمن

فلئن بكيـت فـلا ألام علـى البكـا ... ولطالمـا اسـتغرقت في العصـيان

يا رب عبدك مـن عـذابك مشـفق ... بـك مستجير مـن لظـى الـنيران

فـارحم تضـرعه إليـك وحزنـه ... وامـنن عليـه اليـوم بـالغفران

فيا أيها العبد المريب إلى متى يدعوك مولاك وأنت معرض لا تجيب وكم يتقرّب إليك بإحسانه وأنت تبارزه بعصيانه وعليك منه رقيب ؟ بادر بالتوبة إلى بابه ولذ بجنابه فهو منك قريب ، واسأله الهداية والتوفيق واقصده في إفراج الهمّ والضيق فقاصده لا يخيب ، وعامله بما يرضيه واحذر من معاصيه فإنه حاضر لا يغيب ، وادعه حين تناجيه فإنه لداعيه مجيب ، وتب في هذه الساعة إليه ، وتضرع بين يديه بالبكاء والنحيب ، فعسى يجتبيك بعنايته ، ويهديك بهدايته ، فإن الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب .

[كان وكان]

تعصي الإلـه وتغلق ... بابك لكـيلا تفتضـح ... فكـل مـا قـد علمتـه ... عليـك فيـه رقيـب

تـزعم بأنـك عاقـل ... وأنت مـن أهـل الوفـا ... وتتبـع شـهواتك ... مـا ذاك فعـل لبيـب

انهض وداوي سقامك ... فـذا أوان طبـه ... قبـل أن تجيـك المنية ... مـا ينفـع التطبيـب

وقـم وهـيىء زادك ... فقد دنـا وقـت السـفر ... وراع غصـن شـبابك ... مـا دام غصـن رطيـب

فيا أخي إلى متى تضيع عمرك وما نلت منه نصيب ، إلى كم يستحضرك إلى حضرة جنابه وأنت في المغيب ، إلى متى أنت سقيم بعلة زلتك ولا تبدي شرح قضيتك إلى الطبيب ؟ .

[كان وكان] :

ارفع إلى محبوبك قصة ذنوبك في الدجى فهو الطبيب المداوي ومن دعاه يجيب
حيث اتجهت رأيته حاضر معك في خلوتك وحيث كنت وجدته معك فليس يغيب
فقم وداوي سقامك واهجر منامك والكرى واخلص قيامك عسى أن تنال منه نصيب

فيا أيها الغريق في بحار الخطايا والذنوب ، المشتهر بالقبائح والعيوب ، المعرض عن خدمة علام الغيوب ، إن كنت مستوحشاً بالذنوب ، فباب الكريم مفتوح لمن يتوب .

[كان وكان] :

فانهض وبادر بتوبة ثم اعتذر عما مضى إلى متى أنت معرض عن الرضى محجوب
وقم وقول ارحموني وسامحوني سادتي فكم علمت قبايح وكم ركبت ذنوب
وها أنا جئت تائب من زلتي يا سيدي فارحم خضوعي وذلي ودمعي المسكوب

فيا أيها المريد المنقطع عن حبل حبه المديد لا تستصعب الطريق ، ولا تستبعد التوفيق ، فكم من ضعيف محمول ، وكم من منقطع موصول ، اركب جواد همتك وضع قدم أقدامك في ركاب عزيمتك ، فإن لم تملك زاداً من التقوى فاجعل لك زاداً من الشكوى ، واقدح به في حراق قلبك المحترق وأرسل عليه سحاب دمعك المندفق ، فإذا صعد دخان زفراتك وعلت أنفاس حسراتك ، قف على الباب منتظراً ماذا يكون من الجواب ؟ فإن سمعت في العتاب من ذا الغريب الواقف بالباب وقوف المريب ؟ فقل :

العبد واقف بالباب وقوف سائل مفتقر منكس الرأس يبكي بدمعه المسكوب
قلب الفقير رأس ماله ورأس مالي قد خرب واحسرتي واعنائي بقلبي المسلوب

فإن قيل لك فما الذي أبطأ بك عن مطلوبك وما الذي قطعك عن محبوبك ؟ فقل :

ما كنت أعرف بجهلي مقدار وصل أحبتي حتى هجرت فقلبي
عن وصلهم محجوب حتى متى بالقطيعة والصدّ عمري ينقضي

عودوا إلى الوصل عودوا وحياتكم وأتوب

فإن قيل : فكم تتوب وتنقض ، ونتعرض لك وأنت عنا معرض ؟ فقل :

من الساعة إن سمحتم بالصلح قلبي ينصلح وينصلح كل حال من كلي المعيوب
ترى تزول الوحشة ونصطلح بعد الغضب ونجتمع بعد فرقة ونبلغ المطلوب
وافر حتى يوم أنظر جمال وجه أحبتي ويشفى بالتلاقي فؤادي المكروب
وأزور قبر الهادي خير الأنام المصطفى الهاشميّ التهامي المجتبى المحبوب
صلى الله علي وسلم رب السموات العلى ما دام قلبي إليه على الدوام طروب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الرابع والثلاثون

في مناقب معروف الكرخي رحمة الله عليه

الحمد لله الرحيم الرؤوف الكريم العطوف ، المعروف بالمعروف ، الواحد الأحد الذي لا يتأثّر بالوحدة ولا يتكثر بالألوف ، الغنيّ في ملكوته عن الوزير المشير والأليف والمألوف ، العالم فوق النجوم وما تحت التخوم ، فستر الغيب عنده مكشوف ؛ استوى على العرش استواء منزهاً عن الحركة والجلوس والوقوف ، أحمد الله سبحانه وتعالى لما دفع من المخوف ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة من لسانه بالصدق محفوف ، وكفه على الامتداد إلى غير الحق مكفوف ، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله أرسله إلى الشريف والمشروف ؛ وبشر بالجنة الدانية القطوف ، وحذر من النار الحامية العسوف ، ولبس الصوف وانتعل المخصوف ، وكان من الله بمكان مكين ومقام موصوف . اللهم صلّ على هذا النبي الكريم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الشم الأنوف ، وسلم عليه وعليهم ما صفّ في الصلوات من الجماعة صفوف :

هذا الولي الذي بالخير موصوف … واسمه في الورى لا شك معروف

هو الوليّ الذي أعطى كرامته … حديث سنّ له بالبرّ مألوف

له الكرامات عند الله قد جمعت … وشوقه زائد والطرف مطروف

ما نام عن خدمة الله ليلته … وقد غدا السرّ منه وهو مكشوف

هو معروف وهو والله بالخير موصوف ، وكنيته أبو محفوظ واسم أبيه فيروز وهو منسوب إلى كرخ بغداد ، وكان أبواه نصرانيين ، وكان معروف في صغره يصلي بالصبيان فكان يعرض الإسلام على أبويه فيضجان منه فأسلماه يوماً إلى معلم دينهما ليعلمه فأجلسه قدامه وقال له : يا بنيّ أنت وأبوك وأمك كم أنتم في العدد ؟ فقال : ثلاثة ، فقال : قل ثالث ثلاثة ، فصاحت به الغيرة : إياك أن تذكر غيره فتهوي في مهاوي الحيرة ، واحذر أن تتجاوز من الأحد إلى أحد فتضرب بسياط البعد والكمد ، قال معروف : فطاب لي سماع هذا الخطاب ، ثم رفع الحجاب ، وزال الاحتجاب فرأيت كأساً من المحبة والإخلاص ، مكتوباً عليه بقلم القبول والاختصاص ، على الجانب الواحد : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ : [البقرة : ١٦٣] وعلى الجانب الثاني : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ : [النحل : ٥١] وعلى الجانب الثالث :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ : [المائدة : ٧٣] وعلى الجانب الرابع : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ :[طه :١٤] فلما شربت ذلك الكأس ، ذهب عني البأس ، وزال الغيّ والالتباس ، فغبت في سكرتي وطبت في حضرتي ، وناديت بلسان فكرتي :

جسدي على حكم الضنى موقوف ... أبداً وطرفي بالبكا مطروف
والقلب حول حماكمو ورضاكمو ... يسعى على قدم الصفا ويطوف
وبكم عرفت فكيف تنكر حالتي ... والفضل أن لا ينكر المعروف

ثم قال له المؤدب قل ثالث ثلاثة ، فقال : بل واحد أحد فضربه ضرباً مبرحاً ثم أحضره ، وقال له : قل ثالث ثلاثة ، فقال : بل واحد أحد فضربه أشدّ من الأول وأمر أبويه فحبساه في خزانة فمكث فيها ثلاثة أيام كل يوم يرمون له رغيفاً وشربة ماء فبكت أمه وقالت لأبيه : إن ولدك صغير وأخاف أن يعتريه في هذه الخزانة جنون فأخرجه منها ففتحا عليه الباب فوجدا الثلاثة أرغفة لم تكسر فراوداه على الخروج فأبى فقال له : ما تريد بحبسك في هذه الخزانة ؟ فقال : إن الحبيب الذي حبستماني من أجله وجدته عندي فآنسني :

واحد لاشيء يشبهه ... أبداً قلبي يوحده ... لو رآه الجاحدون له ... لرأوا لا شيء يشبهه
هو فرد والفؤاد له ... عن جميع الخلق أفرده ... أنا معروف بألفته ... يا عذولي كيف أنكره
حيثما وجهت فهو معي ... هات قل لي كيف أجحده

فلما ألحوا عليه في الخروج خرج وساح على وجهه وبقي أياماً لا يأكل طعاماً ولا يذوق شراباً ولا يستظلّ بجدار وجعل أبواه يبكيان ويقولان : ليته يرجع إلينا على أيّ دين شاء فنتبعه ونوافقه ، فلما كان بعد مدة طرق الباب فقيل : من ؟ قال : معروف ، قالا : على أيّ دين أنت ؟ قال : على دين الإسلام فخرج إليه أبواه واعتنقاه وأقبلا عليه وأسلما على يديه :

تعالوا بنا نصطلح ... فباب الرضا قد فتح ... وداووا الفؤاد الذي ... بسيف الجفا قد جرح
فيا مدّعي حبنا ... دع الروح ثم انطرح ... ووحد جمال الحبيب ... وقل للعذوب استرح

وروى معروف الكرخي بإسناده عن أنس بن مالك وابن عمر رضي الله عنهم : « أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال له : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : لا تغضب ، قال : فإن لم أطق ذلك يا رسول الله ؟ قال : فاستغفر الله عزّ وجلّ كل يوم بعد صلاة العصر سبعين مرة يغفر لك ذنوبك سبعين عاماً ، قال : فإن لم يأت عليّ ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : يغفر لأمك ، قال : فإن ماتت أمي ولم يأت عليها ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : يغفر لأقاربك » . وروى معروف الكرخي أيضاً رضي الله عنه بإسناده عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قضى لأخيه المسلم حاجة كان له من الأجر كمن حج واعتمر » .

وروى معروف الكرخي ﷺ بإسناده عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « من قال عند منامه : اللهم آمنا مكرك ولا تنسنا ذكرك ولا تكشف عنا سترك ولا تجعلنا من الغافلين . اللهم ابعثنا في أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفر لنا إلا بعث الله تعالى ملكاً في أحب الساعات إليه فيوقظه فإن قام وإلا صعد الملك وبعث إليه ملكاً آخر فإن قام وإلا صعد ذلك فقام مع صاحبه الأول فإن قام بعد ذلك ودعا استجيب له ، وإن لم يقم كتب الله تعالى له ثواب أولئك الملائكة » .

[ومن كراماته ﷺ] قال ابن مردويه : كنا جالسين مع معرف الكرخي فلما كان ذات يوم رأيت وجهه متهللاً ، فقلت له : يا أبا محفوظ بلغني أنك تمشي على الماء ؟ قال لي : ما مشيت على الماء قط ولكن إذا هممت بالعبور يجمع لي طرفاها فأتخطاها . وقال محمد بن واسع رحمه الله عليه : كنت عند معروف أذان المغرب وجئت إليه من الغد ، فإذا في وجهه أثر فقلت لشيخ إلى جانبي كان أنس به : سله ، فقال له يا أبا محفوظ كنا عندك أمس وما بوجهك هذا الأثر وجئنا اليوم وهو في وجهك فما السبب في ذلك ؟ فقال معروف : لا تسأل عما لا يعنيك عافاك الله ، فقال له الرجل : سألتك بالله أي شيء سببه ؟ فقال معروف : ويحك ما حملك على هذا ! قال : ثم تغير وجهه ثم قال : صليت البارحة ههنا العتمة واشتهيت أن أطوف بالبيت فمضيت إلى مكة شرفها الله تعالى ، فطفت ثم ملت إلى زمزم لأشرب من مائها ، فرأيت صورة حسنة فحدقت إليها بالنظر فزلقت رجلي في الباب فأصاب وجهي ما ترى وإذا أنا بقائل يقول : يا هذا لو زدت زدناك . وقال : حدثنا محمد بن مخلد قال : قرأ عليّ الحسن بن عبد الوهاب وأنا أسمع ، قال : قالوا : إن معروفاً الكرخي يمشي على الماء ولو قيل لي إنه يمشي في الهواء لصدقت . وقال عبد الصمد بن حميد : سمعت عبد الوهاب يقول : ما رأيت أزهد من معروف .

[ومن كلامه ﷺ] قال إبراهيم البكاء رحمه الله عليه : سمعت معروفاً الكرخي رحمه الله عليه يقول : إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل . وجاء يحيى بن معين وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما عند معروف ، فقال يحيى : أريد أن أسأله عن سجدتي السهو ؟ فقال له أحمد : اسكت فلم يسكت ، فقال له : يا أبا محفوظ ما تقول في سجدتي السهو؟ فقال له معروف : عقوبة للقلب لما اشتغل وغفل عن الصلاة ، فقال له أحمد بن حنبل ﷺ : هذا من كيسك . وقال : أقام معروف الصلاة يوماً ، ثم قال لمحمد بن أبي توبة تقدم فضلّ بنا وذلك أن معروفاً كان لا يؤم إنما يؤذن ويقيم ويقدم غيره ، فقال له محمد بن أبي توبة : إن صليت بكم هذه

الصلاة لم أصلّ بكم صلاة أخرى ، فقال له معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى ! نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل . ومن كلامه أيضاً ﷺ : الدنيا أربعة أشياء : المال والكلام والمنام والطعام . فالمال يطغي ، والكلام يلهي ، والمنام ينسي ، والطعام يقسي . وقال سري السقطي رحمه الله : سمعت معروفاً الكرخي يقول : من كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكره خدعه ، ومن توكل عليه نفعه ، ومن تواضع له رفعه

تواضع لرب العرش علك ترفع   فما خاب عبد للمهيمن يخضع   وداو بـذكر الله قلبـك إنـه
لأشفى دواء للقلوب وأنفع   ولا تغترر بالمكر منك وبالمنى   فمن خادع الله المعظم يخدع

[قيل لمعروف ﷺ] : بأي شيء يخرج حب الدنيا من القلب ؟ قال : بصفاء الود ، وحسن المعاملة ، وللفتيان علامات ثلاث : وفاء بلا خلاف وعطاء بلا سؤال ومدح بلا جود . وعلامات الأولياء ثلاث : همتهم لله وشغلهم فيه وفرارهم إليه . وجاء رجل إلى معروف الكرخي ﷺ فقال له : يا سيدي عرفني كيف أصل إلى الله تبارك وتعالى ؟ فأخذ بيده وأتى به دار أمير فوجد على الباب عبداً قائماً مكسور الرجل ، فقال لسائله : كن مثل هذا تصل إلى الله تعالى وأشار الشيخ يعني كن عبداً مكسوراً وقفاً على الباب :

العبد واقف على أبوابكم مكسـور   واحسرتي إن أمت في حبكم مهجـور
يا ليت شعري تراكم تعتقـوا المأسـور   عسى إذا ما التقينا ينمحي المسطور

[وأنشد آخر] :

بالله عليكم دعوا مـا بيننـا مسـطور   وامحوا بإحسانكم ما قد حوى الدستور
لا يسمعون العدا حين ينقري المسطور   ترجع فضيحة وقلبي ينثني مكسور

ومما يدل على شدة خوفه رحمه الله قال أبو بكر بن أبي طالب : دخلت مسجد معروف الكرخي وكان في منزله فدخل إلينا ونحن جماعة . فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرددنا عليك السلام فقال : حياكم الله بالسلام في دار السلام ونعمنا وإياكم في الدنيا بالإحسان وفي الآخرة بالغفران ثم أذن فلما أخذ في الأذان اضطرب وارتعد حين قال : أشهد أن لا إلـه إلا الله وقام شعر حاجبيه ولحيته واضطرب حتى خفت أن لا يتم أذانه وانحنى حتى كاد أن يسقط . وقال الثقفي : سمعت عبد الله بن محمد الوراق رحمه الله يقول : ربما كنا مع أبي محفوظ في المجلس وهو قاعد يتفكر ثم يفرغ ثم يقول : واغوثاه. وقال القاسم البغدادي رحمه الله عليه : كنت جار معروف الكرخي فسمعته ليلة في المسجد ينوح ويبكي وينشد ويقول :

أي شـيء تريـد مـني الـذنوب   شـغفت بي فلـيس عـني تغيـب
مـا يضـر الـذنوب لـو أعتقـتني   رحمـة لي فقـد عـلاني المشـيب

وقال يحيى بن الحسن رحمه الله : سمعت معروفاً الكرخي رحمه الله عليه يقول : رأيت رجلاً بالبادية شاباً حسن الشباب وله ذؤابتان وعلى رأسه رداء قطن وعليه قميص كتان وفي رجليه طاق نعل قال معروف : فتعجبت منه في مثل ذلك المكان فسلمت عليه فرد عليّ السلام فقلت له : من أين أنت ؟ قال : من مدينة دمشق ، قلت له : ومتى خرجت منها ؟ قال : ضحوة النهار فتعجبت منه وكان بينه وبين دمشق مسافة بعيدة ومراحل كثيرة ، قلت : وأين تقصد ؟ قال : مكة فعلمت أنه محمول بالعناية فودعته ومضى ولم أراه حتى مضت ثلاث سننين ، فلما كان ذات يوم وأنا جالس في منزلي أتفكر وإذا بالباب يطرق فخرجت فإذا هو صاحبي فسلمت عليه ، وقلت : له أهلاً ومرحباً وأدخلته المنزل فرأيته منقطعاً والهاً حافياً حاسراً ، فقلت له : ما الخبر ؟ فقال : يا أستاذ لاطفني حتى أدخلني الشبكة فرماني ، فمرة يلاطفني ومرة يهددني ومرة يجيعني ومرة يكرمني فليته أوقفني على بعض أسرار أوليائه ثم ليفعل بي ما شاء . قال معروف : فأبكاني كلامه ، فقلت : حدثني ببعض ما جرى عليك منذ فارقتني ، فقال : هيهات أن أبديه وهو يريد أن أخفيه ، ثم استفرغه البكاء ، فقلت : وما فعل لك ؟ فقال : جوعني ثلاثين يوماً ، ثم جئت إلى قرية فيها مقثأة كمأ قد أخرجت الورق فقعدت آكل من الورق فنظرني صاحب المقثأة فأقبل يضربني على ظهري وعلى بطني . ويقول : يا لص ما أخرب مقثأتي غيرك وأنا منذ كم أرصدك حتى وقعت عليك . والله لأعذبنك أنواع العذاب فبينما هو يضربني إذْ أقبل فارس نحوه مسرعاً وقلب السوط على رأسه . وقال له : ويلك تعمد إلى وليّ من أولياء الله تعالى فتقول له : يا لص وتضربه وتهينه ولم يأكل من مقثأتك غير الورق ، قال : فأخذني صاحب المقثأة وقبل يدي ورأسي واعتذر إليّ وذهب بي إلى منزله وأكرمني وأحسن إليّ وسبل مقثأته للفقراء والمساكين من أجلي ، فقلت له : أنا من أصحاب معروف ، فقال : صف لي معروفاً فوصفتك له فعرفك فما استتم كلامه حتى دق الباب صاحب المقثأة ودخل إلينا ، وكان موسراً فخرج عن جميع عن جميع ماله وفرقه على الفقراء وصحب الشاب سنة ثم خرجا إلى الحج فحجا واعتمرا وماتا جميعاً ودفنا بالمعلاة من مكة رحمهما الله تعالى :

الله حسبي في الأكوان آيات	فيها لمعرفة الرحمن إثبات
انظر إلى كل مخلوق تعاينه	إذا تعتريه من التغيير حالات
جمع وفرق وصفو بعده كدر	قرب وبعد وإعراض وإخبات
تصريف رب حكيم مالك صمد	وكل فعل له في اللوح ميقات
لله أيام أنس قد صحبت بها	قوماً هم في سلوك الحق سادات

قوم مضوا كانت الـدنيا بهـم نزهـاً   والدهر كالعيد والأوقـات أوقـات
ماتوا وعشـنا فهـم عاشـوا بمـوتهم   ونحـن في صـور الأحيـاء أمـوات
هـم الأحبـة إن مـاتوا وإن رحلـوا   علـى مضـاجعهم مـن التحيـات
أضحت أحـاديثهم مـا بيننـا سمـراً   وذكـر أوقـاتهم للقلـب أقـوات
أخـــي فبـــادر إلى زاد تحصــله   ولا تســوّف فللتــأخير آفــات
وكم سرور أتـى مـن بعـده حـزن   وكـم أتـت بعـد أحـزان مسـرات
يا رب صلّ على أعلى الـورى شـرفاً   محمـد مـا علـت بالـذكر أصـوات
وآلـه وعلـى الأصـحاب كلـهم   مـني السـلام علـيهم والتحيـات

[ومن دعائه ﷺ] : اللهم يا من وفق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفقنا للخير وأعنا عليه . وجاء رجل إلى معروف رحمه الله ، فقال : ادع الله أن يلين قلبي ، فقال : قل يا ملين القلوب لين قلبي قبل أن تلينه عند الموت . قال سري السقطي رحمه الله عليه : هذا الذي أنا فيه ما نلته إلا ببركة معروف الكرخي ﷺ . وذلك أن انصرفت مرة من صلاة العيد فرأيت معروفاً ومعه صبي أشعث وهو باك مكسور القلب ، فقلت : ما لي أرى معك هذا الصغير باكياً . فقال لي : رأيت الصبيان يلعبون وهذا الصبي واقف مكسور القلب لا يلعب معهم فسألته فقال لي : أنا يتيم مات أبي ولم يخلف لي شيئاً وليس معي شيء أشتري به جوزاً ألعب به مع الصبيان ، فأخذته معي لعلي أجمع له نوى يشتري به جوزاً يلعب به . فقلت له : أعطني إياه أغير من حاله ما تشعث قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم ، قال : خذه أغنى الله قلبك بالإيمان وعرفك الطريق إليه في السر والإعلان . قال السري : فأخذت الصبي ومضيت به إلى السوق فكسوته كسوة حسنة واشتريت له جوزاً فلعب به مع الصبيان نهاره فقالوا : من فعل بك هذا المعروف ؟ فقال : سيدي السري ومعروف فلما مضى الصبيان أتى إليّ وهو فرحان فقلت له : كيف كان يومك ؟ فقال : يا عم كسوتني من ملابس الإحسان وفرحتني بين الصبيان وجبرت قلبي بعد الكسر والأحزان فالله تعالى يجبرك بين يديه ويفتح لك طريقاً إليه . قال : فسررت بذلك سروراً شديداً وجددت لي بالفرح عيداً جديداً :

كـــرر حـــديثهمو فمـــا أحـــلاه   وألـــذه عنـــدي ومـــا أهنـــاه
روّح بـه روحـي وحـدّث عنـهمو   فحـــديثهم للقلـــب مـــا أشـــهاه
بـالله واهتـف مـرة أخـرى بهـم   فعسـى ينـال الصـب منـه منـاه
ولنـا رمـوز لـيس يعـرف شـرحها   إلا الـذي نشـر الهـوى وطـواه
ولقـــد تنادمنـــا بكـــل لطيفـــة   ســـراً ولم تـــتلفظ الأفـــواه

[قال عامر بن عبد الله الكرخي رحمه الله] : كان بجواري رجل نصراني . فبينما أنا ذات يوم في منزلي وإذا به قد أتاني وقال لي : يا أبا عامر إن لي عليك حق الجوار ، وأنا أسألك بحق خالق الليل والنهار إلا ما مضيت بي إلى وليّ من أولياء الله الأبرار ليدعو لي أن يرزقني الله ولداً فقلبي إليه بالأشواق وفي كبدي منه لوعة واحتراق . قال : فأخذته ومضيت به إلى معروف الكرخي رحمه الله عليه فأخبرته بأمره فدعاه معروف إلى الإسلام. فقال له : يا معروف إنك لن تقدر على هدايتي إلا أن يهديني العلام . وأنا أسألك الدعاء فيما جئت فيه والسلام فرفع معروف يديه وقال : اللهم إني أسألك أن ترزقه ولداً يكون باراً بوالديه ويكون إسلامهما على يديه فاستجاب الله له ورزقه ولداً فاق بكمال عقله على أهل زمانه وعلا بنجابته على أبناء جنسه وأقرانه . فلما كبر أتى به أبوه إلى معلم دينهم ليعلمه كتابهم ويوضح له أسبابهم فأجلسه المعلم بين يديه ودفع اللوح إليه وقال له : قل ! قال : وما أقول " ولساني عن تثليثكم معقول وقلبي بحب ربي مشغول ، فقال له المعلم : يا بني ما عن هذا سألتك ، فقال عمّ سألتني ؟ قال : سألتك عما جئت إليّ تتعلمه وأتيت تتفهمه ، فقال له : علمني شيئاً يقبله عقلي ويدركه ذهني ونقلي :

قال : قل يا بنيّ ألف فقال الصغير: ألف الوصل ألفت كل قلب ... لحبيب صفاته أزليه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل باء فقال: باء عين البقاء أحيا نفوسا ... لم يدع حبه لها من بقيه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل تاء فقال : تاء توق القلب يكشف عنها ... كل شك تكون منه بريه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل ثاء فقال : ثاء ثوب الثياب ثبت قوما ... قد ثووا في المقاعد العنديه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل جيم فقال : جيم نور الجمال تجلى عليهم ... في تجليه بكرة وعشيه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل حاء فقال : حاء حمد الإلّه أحمى قلوبا ... فحماها من الخصال الدينه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل خاء فقال : خاء خوف الإلّه أذهب عنهم ... كل حزن لهم وكل رزيه

وما زال المعلم يلقنه حرفاً حرفاً وهو يجيبه عنها بكلام منظور مقفى إلى أن ذهل عقل المعلم ووجد في قلبه مما سمعه منه انتعاش ، وعلم أن كل دين غير دين الإسلام لاش ، فقال له المعلم : شاباش لك يا موحد المحبوب شاباش :

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أخرج المرعى
لقد خاب من يسعى إلى غير بابه ... وضلّ الذي يوماً إلى غيره يدعى
هو القصد لا شيء سواه فمن سعى ... إلى غير ذاك القصد يا خيبة المسعى
هو الماجد البرّ الرحيم وغيره ... من الناس لا يستطيع ضرّاً ولا نفعا
يرى العبد يعصيه ويستر ذنبه ... ويرزقه من غير ما أنه يسعى
يعامل بالغفران والصفح من عصى ... ويوصل من يستوجب الهجر والقطعا

فسبحانه لا رب في الكون غيره | يحب الذي يلقي إلى قوله السمعا

قال : فلما سمع المعلم كلامه الذي سلب عقله وشجاه علم أن ما أنطقه إلا الذي حلقه وأنشأه ، فقال عند ذلك في سر نجواه : أشهد أن لا إلّـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم أخذ الصبي وأتى به إلى أبيه ، فلما رآهما أبوه قد أقبلا صار وجهه بالبشر مهللاً ، فقال للمعلم : كيف وجدت ولدي في ذكائه وفطنته ، فقال له المعلم : اصغ إلى مقالته ، ثم عرض عليه المقال فقال أبوه : والذي يغيث المضطر والملهوف ما نال ولدي هذه المنزلة إلا ببركة دعوة معروف . ثم قال : الحمد الله الذي أنقذنا بك يا بنيّ من الضلال بعد أن كنا على أسوأ حال ، وأنا أشهد أن لا إلّـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم أسلمت أمّ الصبي وكل من في الدار وكسروا الصليب وقطعوا الزنار وأنقذهم الله بدعوة معروف من النار :

ما مضى لا يعاد منكم فإنا | قد عفونا عما مضى واصطلحنا | أبشروا بالمنى فإن حمانا
من أتاه ينال ما يتمنى | فاز من جاءنا ببذل وأضحى | من جميع الأنام أعلى وأغنى
والذي جاءنا بزهو وعجب | خاب في الناس سعيه وتعنى | كم عزيز وافى حمانا مدلا
حجبته أيدي الشقاوة عنا | والذي جاءنا بإخلاص قلب | حاز فضلاً ونال عزاً وأمنا

[قال أحمد بن العباس رحمه الله عليه] : خرجت من بغداد أريد الحج فاستقبلي رجل عليه أثر العبادة ، فقال لي : من أين خرجت ؟ قلت : من بغداد هارباً لما رأيت فيها من الفساد خفت أن يخسف بأهلها ، فقال : ارجع ولا تخف فإن فيها قبور أربعة رجال من الأولياء هم حصن لهم من جميع البلايا ، قلت : فمن هم ؟ قال : أحمد بن حنبل ومعروف الكرخي وبشر الحافي ومنصور بن عمار فرجعت وزرت تلك القبور ، وحصل لي أمر عظيم من الفرح والسرور :

لأحمد أوصاف وبالعلم اشتهر | ومعروف لا تنساه فيمن قد انحصر
وبشر ومنصور ولا سيما هما | لهم أعين في الليل ما ملت السهر

[وقال أبو الفتح بن بشر رحمه الله عليه] : رأيت بشراً في منامي في بستان وبين يديه مائدة فقلت له : أبا نصر ما فعل الله لك ؟ قال : رحمني وغفر لي وأباحني الجنة بأسرها ، وقال لي : كل من جميع ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وتمتع بجميع ما فيها كما كنت تحرم نفسك الشهوات في دار الدنيا قلت له : فأين أخوك أحمد بن حنبل ؟ قال : هو قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول القرآن كلاما لله تعالى غير مخلوف ، قلت له : فما فعل الله تعالى بمعروف الكرخي ؟ فحرك رأسه ، وقال : هيهات حالت بيننا وبينه الحجب : إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره وإنما عبده شوقاً إليه فرفعه الله تعالى إلى الرفيق الأعلى

ورفع الحجب بينه وبينه فمن كانت له إلى الله تعالى حاجة فليأت قبره وليدع فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى :

معروف كل الورى لا شك تعرفه بالبرّ والخير والأنعام توصفه
لقد أتى وله علم ومعرفة وخدمة في جنان الخلد توقفه

[قال محمد بن عبد الرحمن الزهري رحمه الله عليه] : سمعت أبي يقول : قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج . وقال يحيى بن سليمان كانت لي حاجة ، وقد تعسرت عليّ فأتيت قبر معروف فقرأت : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾: [الإخلاص : ١] ثلاث مرات ، وأهديتها له ولأموات المسلمين ثم ذكرت حاجتي فما رجعت إلا وقد قضيت حاجتي . وقال أبو بكر الخياط رحمه الله : رأيت كأني دخلت المقابر فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الرياحين ، وإذا بمعروف قائم فيما بينهم يذهب ويجيء فقلت له : يا أبا محفوظ ما فعل الله بك أليس قد متّ ؟ قال : بلى ، ثم أنشأ يقول :

موت التقيّ حياة لا نفاد لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمو على الهدى لمن استهدى أدلاء
ماتوا وعشاقهم عاشوا بموتهمو ونحن في صفة الأموات أحياء

[وأما تاريخ موته] فقال أبو بكر العجوري رحمه الله : سمعت ثعلباً يقول : مات معروف الكرخي رحمه الله سنة مائتين ، قال أبو القاسم النضري من بني نضر بن معين قال : حدثني أبي قال: بلغني أنه صلى على معروف ثلثمائة ألف إنسان ، قال عبد الرحمن بن محمد الوراق جاء رجل من أهل الشام إلى معروف الكرخي فسلم عليه ، وقال له : إني رأيت في المنام يقال لي : اذهب إلى معروف الكرخي فسلم عليه فإنه معروف في أهل الأرض معروف في أهل السماء . وبلغني عن بعض القدماء أنه قال : مات أخ لي فرأيته في المنام بعد عام ، فقلت له : يا أخي ما فعل الله بك ، قال : الآن أعتقت ، دفن عندنا معروف الكرخي فأعتق عن يمينه ثلاثون ألفاً ، وعن شماله ثلاثون ألفاً ، ومن بين يديه ثلاثون ألفاً ، ومن خلفه ثلاثون ألفاً :

سلكت طريق الفقر ظناً بأنني أوافق بشراً أو أصاحب معروفا
ودمت على حسن العبادة عاكفاً وأصبح حسن الظن حولي معكوفا
ولم أبد يوماً للخلائق قصتي وما زلت في ثوب الصيانة ملفوفا
فما صح لي فقر ولا صح لي غنى بل ازددت في علم التقلب تعريفا
فلم أر لي كالصالحين وسيلة ألذ الورى عرفاً وأطيب معروفا

رجال إذا ما طبق الأرض حادث رموه بصدق العزم فانجاب مكشوفا
هم العروة الوثقى وهم أنجم الهدى بهم يذهب الله المصائب تلطيفا
إذا وجدوا في الوقت كانوا طرازه وقد طرزوا من قبل ذاك التصانيفا
صفاتهمو أسنى من الشمس في الضحى وأحسن من در القلائد مصفوفا
فيا رب وفقنا كما قد منحتهم ووفقهم كي لا نحاول تحريفا
وهبنا لهم يا ذا الجلال فإننا أتيناك نخشى منك زجراً وتخويفا
وليس لنا من شافع غير سيد به الضر عنا عاد في الحشر مكشوفا
رسول الهدى جالي الصدا كاشف الردى أنلنا به يا رب في الحشر تخفيفا
عليه صلاة الله ما مرت الصبا وزاد حماه من عطاياه تشريفا

المجلس الخامس والثلاثون

في ذكر الأولياء والأبرار والصالحين والأخيار

الحمد لله الذي خص بحسن اصطفائه خواص أوليائه الأبرار ، وأسرى بأسرارهم في ليل نيل أوطارهم إلى عالم الأسرار ، قاموا بواجب حقه فجعلهم أمناء على خلقه العبيد منهم والأحرار ، ترفع على أيديهم قصص السائلين وتغفر ببركاتهم للخاطئين الذنوب والأوزار ، فهم بأمره متصرفون في البلاد لمصالح العباد البادين منهم والحضار ، فمنهم النقباء والأبدال ، ومنهم النجباء والرجال ، ومنهم الأقطاب الأخيار ، ومنهم الغوث الذي يسقى به الغيث وتدرّ ببركته الضروع والزروع والثمار ، فالنقباء سبعون وهم بمصر دون سائر الأمصار ، والأبدال أربعون : وهم بالشام كالشامة الواضحة لذوي المعروفة والاستبصار ، والنجباء ثلثمائة : استخفلهم بالغرب للقيام بالحرب فهم لدينه حماة وأنصار ، والرجال عشرة وهم بالعراق وشرابهم قد راق وصفاً من الأكدار ، والأقطاب سبعة أركزهم بالأقاليم السبعة لمنافع العباد في سائر البلاد والأقطار ، والغوث واحد قد أقامه بمكة المشرفة المعظمة الذكر والمقدار ، فهؤلاء أمناء سره المصون ، وخزان علمه المكنون ، إلى حين انقضاء الأعمار ، فلولا وجودهم لغاضت العيون والأنهار ، ولولا ركوعهم وسجودهم لارتفعت الأمطار ، وتعطلت الأرض

من الزروع والثمار ، فهم في دائرة إرادته ليس لهم عن مراقبة حضرته غفلة ولا قرار . إذا غلقت الملوك أبوابها رفعت لهم الأستار ، وإذا أرخت السلاطين حجابها تجلى لهم الواحد القهار ، فلو احتجب عن أحدهم طرفة عين لدكت الجبال وزلزلت الأقطار ، ونادى قتيل الوجد منهم بلسان الاشتياق والاشتهار .

[كان وكان]

من ذا الذي في الحضرة	يشرب بكاسات الصفا	من صرف صافي المحبة	ويستطيع فرار
قوم تراهم نشاوى	من وجدهم بحبهم	وهم حيارى سكارى	من غير شرب خمار
لهم حقائق رقائق	على الخلائف تنعجم	محلها من بوارق	خوارق الأفكار
هبت عليهم نسيمة	فاستنشقوا من نشرها	طافت سحيراً ومنها	تنسموا الأخبار
وحين وافت وطافت	تفردوا وتجردوا	عن الوجود وولوا	عن سائر الأغيار
قلوبهم معمورة	بحب مولاهم فلا	يضرّهم في الظاهر	ملابس الإنكار
فازوا بما قد حازوا	من المكارم والنهى	وأحرزوا بالعناية	نهاية الأوطار
نالوا المنا والحظوة	بقربهم عند الملك	وخصهم بالجلوة	في خلوة الأسحار

فسبحان من قرّب أقواماً لحضرته وحجبهم عن الأغيار ، وأبعد آخرين فضربهم بسيف البعد والانتهار ، نصب فخّ المحبة للسيد فعلق بحبل حبه الجنيد ، فحصل له العز والفخار ، وأرسل عقبان التوفيق إلى شقيق فجذبه بزيق التمزيق والافتقار ، ومنّ بالمزيد على أبي يزيد فلزم التجريد وطلب الزيادة والإكثار ، وجاد بالمعروف على معروف فعمر قلبه بالمعرفة والاستبصار ، وتفضل على الفضيل فشمر في الخدمة الذيل وأدلج في طلبه وسار ، وسقى صرف المزاج للحلاج فسكر وهاج وباح بالأسرار ونادى بلسان وجده ، وقد خرج عن حده ولم يطق اصطبار .

[كان وكان]

ياذا الذي قد سقاني	من صرف كاسات الهوى	وقال لي لا تغني	فتهتك الأستار
ولو سقى فرد قطرة	مما سقاني للجبل	غنى وصاح وأضحى	بين الجبال غبار
القوم دارت عليهم	في الليل كاسات الصفا	فأصبحوا في البرايا	سكرى بغير خمار
منها الجنيد تروّى	وبشر بشر بالفرح	ومن سناها الشبلي	بدت له الأنوار
وكم كتم ابن أدهم	حاله وذو النون اختفى	فصار بين الندامى	معروف بالإشهار
قوم دعوا فأجابوا	وطهروا أسرارهم	وأخلصوا في المحبة	لعالم الأسرار
فهم رجال الحقيقة	وهم ملوك الآخرة	وهم شيوخ الطريقة	لهم سما المقدار
يا فوز من كان سالك	طريقهم أو يقتدي	أو يهتدي بهداهم	ويتبع الآثار
بهم عن الخلق تدفع	كل البلايا والمحن	لولا سناهم لكانت	تزلزل الأقطار

فهم طراز الدنا وهم شموس للهدى بهم ترى الأرض تنبت وتنزل الأمطار

قوله عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ : [يونس : ٦٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا خوف عليهم في الدنيا ، ولا هم يحزنون في الآخرة ، بل يتلقاهم مولاهم بالرحب والتكريم ، ويعطيهم النعيم المقيم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قيل لرسول الله ﷺ : « من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال : الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما عملوا أنه سيتركهم ، فما عارضهم من نائلها عارض إلا رفضوه ، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه . خلقت الدنيا عندهم فما يجدّدونها ، وخربت بينهم فما يعمرونها ، وماتت في صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها ، فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها ، فيشترون بها ما يبقي لهم ، نظروا إلى أهلها صرعى قد خلت بهم المثلات فما يرون أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفاً دون ما يجدون » :

قوم جفوا لذة دنياهم وآثروا خدمة مولاهم
فلا قرار منهم دونه ولا جنود النوم تغشاهم
واصلهم والناس في غفلة عنهم وقد أكرم مثواهم
فهو وليّ لهم دائماً أكرم أولاهم وأخراهم

[وقال ابن ظفر رحمة الله عليه] : دخل أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه الكتاب وهو صغير فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ : [المزمل : ١-٢] قال لأبيه طيفور ابن عيسى : يا أبت من ذا الذي يقول له الحق سبحانه وتعالى هذا الخطاب ؟ فقال : يا بني ذاك محمد ﷺ ، فقال : يا أبت مالك ما تفعل كما كان يفعل رسول الله ﷺ ؟ فقال : يا بني أمر خص به رسول الله ﷺ ؟ ثم خفف عنه في سوره طه . فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ : [المزمل : ٢٠] قال : يا أبت إني أسمع أن طائفة كانوا يقومون من الليل ، قال أبوه : نعم أولئك أصحابه ﷺ ، قال : يا أبت فأيّ خير في ترك شيء فعله رسول الله ﷺ وأصحابه ؟ قال : فكان أبوه بعد ذلك يقوم الليل كله فانتبه أبو يزيد ليلة فقال : يا أبت علمني أصلي معك ، قال : يا بنيّ ارقد فإنك صغير بعد ، فقال : يا أبت إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم وقال لي ربي : ما فعلت ؟ أقول لربي : قلت لأبي : علمني أصلي معك ، فقال لي : ارقد فإنك صغير بعد ، فقال أبواه : لا والله ما أريد أن تقول ذلك ، ثم علمه يصلي فكان بعد ذلك يقول الليل ويصلي غالبه :

أيها القائمون في حندس الليـ ـل وقد أسدلت ذيول الظلام
قد وصلتم حمى الوصال فطيبوا وانزلوا وابشروا بكل مرام
هذه دارنا ونحن كرام ربحت عندنا ضيوف الكرام
إن طلبتم قرى وجدتم لدينا كل ماتشتهي نفوس الأنام
قد رفعنا حجابنا فاشهدونا وادخلوا خلوة الرضا بسلام

فللّه درّ أقوام ما زالت نياق وجدهم تسرى في ليل نيل قصدهم حتى بلغوا المنزل وحصلت لهم العناية وكان عمر بن عبد العزيز يأتي المساجد المهجورة في الليل فيصلي فيها ما يسره الله عزّ وجلّ فإذا دخل وقت السحر وضع جبهته على الأرض ومرغ خده على التراب ولم يزل يبكي إلى طلوع الفجر ، فلما كان بعض الليالي فعل ذلك على العادة ، فلما فرغ ورفع رأسه من صلاته وتضرعه وجد رقعة خضراء قد اتصل نورها بالسماء مكتوب عليها : هذا براءة من النار من الملك العزيز ، لعبده عمر بن عبد العزيز :

طلعت شموس طويلع فلي الهنا وحنى عليّ محجب بالمنحنى
وحنى على فقري إليه وذلتي متعطفاً متلطفاً متحنناً
هبت نسيمة قربه لمحبه فكسا الوجود بها المهابة والسنا
رفع الحجاب عن الجمال وقال لي بتلطف أهلاً بطارق حيننا
وغدت عليّ لطائف من قربه وأنالني ما أرتجيه من المنا

[وقيل] : صعد بن عمار الواعظ يوماً منبره بالعراق فأخذ في المواعظ والتخويف والزجر والتعنيف ، حتى كادت النفوس تهيم قلقاً وتموت فرقاً ، وكان في المجلس شاب مسرف على نفسه خائف من حلول رمسه ، فانصرف وقد أثرت المواعظ في قلبه ، وندم على ما كان من ذنبه ، وأتى إلى أمه فقال لها : يا أماه دونك وما تريدين من كسر لهو الشيطان وما كنت أعددت لمعصية الرحمن ، وأخبرها بحضوره مجلس بن عمار وما حصل له من الندم على الذنوب والأوزار ، فقالت : يا ولدي الحمد لله الذي ردّك إليه رداً جميلاً ، وأنقذك من ذنوب كنت بها عليلاً ، وإني لأرجو أن يكون الله تعالى قد رحمك ببكائي عليك ، وقبلك وأحسن إليك ، فكيف كان حالك يا ولدي عند سماع الموعظة ؟ فأنشد :

شمرت للتوبة أذيالي وصرت ذا طوع لعذالي لما دعا الواعظ قلبي إليّ
طاعة ربي انحل أقفالي يا أم هل يقبلني سيدي على الذي قد كان من حالي
واسوأتا إن ردني خائباً أو صد عني حين إقبالي

ثم أقبل الفتى على صيام النهار وقيام الليل حتى نحل جسمه وذاب لحمه ودق عظمه

واصفر لونه فأتته أمه بقدح فيه سويق ، وقالت له : أقسمت عليك يا بني بالله إلا ما شربته فقد أجهدت نفسك . فلما صار القدح في يده جعل يبكي ويضطرب ويذكر قوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ : [إبراهيم : ١٧] ثم صرخ صرخة عظيمة وخرّ ميتاً ، هذا والله مقام الخوف ، يا من ضيع زمانه في لعل وعسى وسوف :

على باب من أهوى يطيب التخضع	وإن أكثر اللوّام عذلاً وأوسعوا
وفي حبه يحلو غرام ولوعة	ووجد وتبريح وشوق وأدمع
ويجمل تعفير الخدود على الثرى	لمرضاته إن كان ذلك ينفع
ومن لم يخاطر في هواه بروحه	فذاك برؤيا الحسن لا يتمتع
ومن كان مشتاقاً محباً موهاً	حشاشته من شوقه تتقطع
إذا قام في جنح الظلام مراقباً	رأى النور من طور الأحبة يلمع
ناداه من يهواه فز بجمالنا	فدونك عيشاً لم يكن عنه مدفع
وشاهد جمالاً لا يحدّ لواصف	وبادر إلى رؤياه إن كنت تسرع
محب ومحبوب وساعة خلوة	وقرب ووصل ليس فيه تمنع

فيا أرباب المعاملة في ظلام الليل ، فسبحان من أقامكم وأقعدنا يا معشر التائبين ، سبحان من قرّبكم وأبعدنا ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ : [إبراهيم : ١١] .

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : ضاق صدري في بعض الأيام فخرجت أتمشى على شط النيل : فمرّ بخاطري العبور إلى ذلك الجانب فركبت سفينة وجعلت رأسي بين ركبتيّ فلم أرفعها حتى توسطت البحر ، فلما رفعت رأسي رأيت عن يميني جارية ذات حسن وجمال ، وفي حجرها عود وبين يديها خمر وعن يمينها شاب حسن الشباب نقيّ الأثواب ، فقلت في نفسي : يا نفس بعد عبادة سبعين سنة وقعت في هذه السفينة بين قوم خمارين يعصون الله بالإجهار ، فالتفتت إليّ الجارية وقالت لي : يا شيخ تشرب شيئاً ؟ فقلت : إن سقاني مولاي شيئاً شربت ، فأشارت الجارية إلى الغلام أن املأ له الكأس واسقه فملأ الكأس وأعطاني . فلما حصل الكأس في يدي لحقني وجد ، فقالت الجارية : يا شيخ لم لا تشرب من شرابنا ؟ أتريد أن أغني لك حتى تشرب ، أو تغني أنت لنا حتى نشرب ؟ فقلت : بل أغني لكم حتى تشربوا ، فقالت : غنّ لنا حتى نسمع غناءك فأنشدت :

أحسن من قينة ومزمار	في ظلمة الليل نغمة القاري
يا حسنه والجليل يسمعه	بحسن صوت ودمعه جاري
وخده في التراب عفره	وقلبه في محبة الباري
يقول يا سيدي ويا أملي	أشغلني عنك ثقل أوزاري
اغفر ذنوبي لأنها عظمت	

ولم تـزل يـا جليـل غفـاري ذاك غـداً في الجنـان مسـكنه بـدار قـدس بقـرب جبـار
يسـكن مـع زوجـة تشـاركه يـا حسـن مختـارة لمختـار

فلما سمعت الجارية ذلك خرّت مغشياً عليها ، فلما أفاقت خلعت ما كان عليها من الديباج وكسرت العود ورمت بالخمر إلى البحر وقالت : يا شيخ إذا تبت إليه يقبلني ؟ قال : نعم ، هكذا قال في محكم الآيات : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ : [الشورى : ٢٥] فكشفت رأسها وقبلت يديّ ، وقالت : يا سيدي أنت كنت السبب في المصالحة فاسأله فيما مضى العفو والمسامحة . قال ذو النون المصري : ثم نزلنا من السفينة وتفرقنا فلم أرها بعد ذلك . فلما كان في بعض السنين حججت إلى بيت الله الحرام فبينا أنا أطوف بالبيت وإذا بجارية شعثاء وهي متعلقة بأستار الكعبة تبكي وتتضرع وتقول : إلهي بسكري البارحة وبخماري إلا ما غفرت اليوم أوزاري ، فقلت : مه يا جارية في مثل هذا المقام تقولين هذا الكلام ؟ فقالت : إليك عني يا ذا النون ، لما بتّ البارحة بكأس الهوى مسرورة ، أصبحت اليوم بحب مولاي مخمورة . فقلت لها : من أخبرك أني ذو النون ؟ فقالت : يا شيخ أنا الجارية التي تبت على يديك في نيل مصر ، فقلت : وأين ذلك الحسن والجمال ، فأنشدت :

ذهبـت لـذّة الصبـا في المعاصـي وبقـي بعـد ذلـك أخـذ النواصـي
ومضـى الحسـن والجمـال ومـالي عمـل أرتجيـه يـوم الخـلاص
غـير ظـني بـالله وهـو جميـل فيـه أخلـص غايـة الإخـلاص

ثم قالت : يا ذا النون قف مكانك حتى أعود ، فغابت لحظة ثم أقبلت ومعها طبق وعليه رطب وتين وعنب في غير أوانه ، فوضعته بين يديّ فاختلج في قلبي أني بعد عبادة سبعين سنة لم أصل إلى ما وصلت إليه هذه الجارية ، فقالت لي : يا شيخ لما تبت إليه ، واعترفت بين يديه ، رزقني صدق التوكل عليه ، ثم أنشدت :

عـش غريبـا ولا تـذل لخلـق واطلب الرزق في بلاد الحبيب ثم سر في البلاد شرقاً وغرباً
وتوكل على القريـب المجيـب فعسـى أن تنـال مـا ترتجيـه بيد اللطف من مكـان قريـب

قال ذو النون : ثم التفت فلم أرها . هذه والله صفات التائبين ، وهذه علامات المقرّبين :

إن لله عبـــــــاداً طلقـوا الـدنيا وهـاموا فلـه ذلـوا فعـزوا ولـه صلـوا وصـاموا
هجروا الأهل وساحوا وعلـى الأوراد دامـوا فـإذا مـا رقـد النـا س ونـام الخلق قاموا
فلـهم في الليـل أحـوا ل إذا جـن الظـلام وعلـى الأفـواه منـهم حـذر اللـهو لجـام
تركـوا الشـهوة زهـداً وسـواه مسـتهام فهـي للعـالم حـلّ وعلـى القـوم حـرام
أخلصـوا في الحـب لله وعلـى الخـير أقـاموا فعلـى الـدنيا إذا لم يوجـدوا فيهـا السـلام

يا هذا لا تبرح عن الجناب ولو طردت ، ولا تزل عند الباب ولو منعت .

[قيل] : إن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة التي نهي عنها ونسي عهد ربه سقط عنه لباس الجنة واستوحش منه كل شيء فيها ، فولى هارباً ، فجعل يستتر بورق الجنة ، فناداه ربه جل جلاله : أتفر مني يا آدم ؟ قال : لا يارب ، ولكن حياءً منك ، فقال له الله تعالى : أما خلقتك بيدي ، أما أسجدت لك ملائكتي ! أما نفخت فيك من روحي ! أما أسكنتك في جواري ! أما أبحتك جنتي ، اخرج من جواري فلا يجاورني من عصاني ، فبكى آدم عليه السلام ما شاء الله ، ثم قال : إلٓهي إن لم ترحمني أنت فمن يرحمني ؟ . فأوحى الله تعالى إليه أن قل : سبحانك الله وبحمدك لا إلٓه إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، فهذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه ، هذا قول مجاهد وجماعة من المفسرين :

وإنا ليرضينا رجوع وصالكم فردّوا لنا ذاك الوصال كما كانا
وكنا نغطي في الدنو غرامنا ونكتم ما نلقي فقد كان ما كانا

[وعن كعب الأحبار رضي الله عنه] قال : إذا كان يوم القيامة تخرج نار من قعر بحر عدن فتسوق الناس جميعاً إلى الموقف ، فبينما هم سكارى حيارى عطاشى مروّعين من هول الموقف إذ تجلى الحق سبحانه وتعالى فتشرق الأرض من نوره فينظر الخلائق بعضهم بعضاً وتنظر الوالدة إلى ولدها الذي كانت تشفق عليه في دار الدنيا فتعرفه فتناديه : يا ولدي أما كان بطني لك وعاء ، أما كان حجري لك وطاء ، أما كان ثديي لك سقاء فيقول : يا أماه ما الذي تريدين ؟ فتقول : قد أثقلتني ذنوبي فتحمل عني منها ذنباً واحداً ، فيقول : هيهات كل نفس بم كسبت رهينة ، يا أماه إذا حملت عنك فمن يحمل عني ؟ فبينما هم كذلك إذا بمناد من قبل الحق ينادي : يا فلان ابن فلان هلمّ إلى العرض على الله سبحانه وتعالى ، فإذا سمع ذلك النداء تغير لونه واضطربت جوارحه حياء من الله تعالى ، فإذا نظرت أمه إلى ما حل به من الوجل قالت له : ما حالك يا ولدي ؟ فيقول : يا أماه قد نوديت للعرض على الله عز وجل فكيف لي بالهرب منه ، أم كيف لي بالخلاص ؟ فبينما هي كذلك إذا أقبل ملكان يقبضان عليه ويجرانه فإذا نظرت أمه إليهما جذبته إلى صدرها وغطته بشعرها ودفعت عنه الملكين بجهدها فلم تقدر على دفعهما عنه ، فلما علمت أن لا طاقة لها بهما بكت وقالت : والذي بعثني من مرقدي لو وجدت سبيلاً لما مكنتكما منه ، ثم تودعه وهي تبكي وتقول : سألتك يا ولدي بالذي استدعاك للعرض عليه والحساب بين يديه إن أنت نجوت فلا تنسني فقد طال وقوفي وعظمت حسرتي واشتدّ كربي وعطشي . قال : فيأتي به الملكان إلى الملك الموكل بسدرة المنتهى ، فيقول له : من أيّ أمة أنت ؟ . فيقول له : أنا من أمة محمد ﷺ فيقول له : طوبى لك ولأمة محمد ﷺ ثم يزجه في النور فلا

يدري أين يذهب يميناً أو شمالاً أو خلفاً أو أماماً ، وإذا النداء من العليّ الأعلى اثبت فأنا ربك ، فسكن جوارحك وهدئ قلبك ، فوعزّتي وجلالي إني لأشفق عليك من أمك حين جذبتك إليها وضمتك إلى صدها . ثم يقول له : عبدي اقرأ كتابك ، قال : فيقرؤه فإذا مرّ بسيئة أخفاها وإذا مرّ بحسنة جهر بها ، فيقول الله تعالى : عبدي لم تجهر بالحسنة وتخفي السيئة فيبكي ويقول : يا رب تعلمت منك أنك تظهر الجميل وتستر القبيح :

أنت الذي لم تزل بالعفو متصفاً | تجود حلماً على العاصي وتستره
تخفي القبيح وتبدي كل صالحة | وتغمر العبد إحسانًا وتشكره

ثم يقول الله عزّ وجل : عبدي كيف أخفيت ذنوبك وعيوبك عن الخلائق وبارزتني بها ، أما علمت أني مطلع عليك وناظر إليك ، فيقول : سيدي ومولاي مر بي إلى النار ، فلا طاقة لي بالتوبيخ والعار ، فيقول الله عزّ وجلّ : إن أمرت بك إلى النار ، فأين جودي وكرمي وأين حلمي ومغفرتي ؟ يا ملائكتي انطلقوا بعبدي إلى جنتي بفضلي ورحمتي :

من ذا سواك يجود قبل سؤاله | ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه | غفر الذنوب وجاد بالإحسان

ثم يقول : إلٰهي وسيدي إن لي والدة كانت في الدنيا تشتاق إليّ وتشفق عليّ وقد رأتني اليوم واستجارت بي وطمعت أنني أجيرها ، إلٰهي وسيدي إن كنت قد عفوت عني فاجعلها موضعي وهبها مكاني فلا طاقة لها بما هي فيه ، قال فيقول الله عزّ وجل : وعزتي وجلالي ما فرقت بينكما إلا وقد رحمتكما ، يا ملائكتي انطلقوا بهما إلى جنتي وأنا أرحم الراحمين :

ما زلت أعرف بالإساءة دائماً | ويكون منك العفو والغفران
لم تنتقصني إن أسأت وزدتني | حتى كأن إساءتي إحسان
تولي الجميل على القبيح تكرماً | أنت الكريم المنعم المنان

يا هذا قف على الباب تكتب من الأحباب ، والزم الآداب تحشر مع الطلاب :

يا خجلة العبد من إحسان سيده | يا حسرة القلب من ألطاف معناه
فكم أسأت وبالإحسان قابلني | واخجلتي واحيائي حين ألقاه
بلطفه وبفضل منه عرّفني | في حبه كيف أرجوه وأخشاه
يا نفس كم بخفيّ اللطف عاملني | وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس كم زلة زلت بها قدمي | وما أقال عثاري ثم إلا هو
يا نفس توبي إلى مولاك واجتهدي | وصابري فيه إيقاناً برؤياه
يا نفس من منقذي يوم الحساب غداً | سواه أو مشهدي إياه إلا هو

ومن لقلب إذا لج الغرام به إلا الذي جملة العشاق تهواه
قم يا مشوقاً إذا ما الليل جنّ تجد قوماً سكارى حيارى عند ذكراه
في كل شيء له معنى تشاهده فمن لمعناه أبدى حسن معناه
وكيف يبعدني عن بابه وإلى حماه قد جئت أرجو طيب لقياه
ولي شفيع إليه لا يردّ وفي جماله الكل قد حاروا وقد تاهوا
محمد المصطفى المختار من مضر من طبق الأرض طيباً عرف رياه
أموت شوقاً ولم أحظى برؤيته واحسرتي فمتى أحظى برؤياه
تالله ما في فؤادي قط جارحة إلا وذكراه فيها لست أنساه
صلى عليه إلّه العرش ما طلعت شمس وغابت حياء من محياه

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين .

المجلس السادس والثلاثون

في ذكر النيل المبارك

الحمد لله قاصم الجبابرة قهراً ، وكاسر الأكاسرة جبراً ؛ الذي فلق الحب وأنبت منه براً ، وأطلع الأبّ وعده للأنعام براً ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ : [الفرقان : ٥٤] نطقت الكائنات بفضله فلا غرو أن فاهت الألسن بذكره شكراً ، ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ : [الزمر : ٢١] وقسمه بحكمته مدّاً وجزراً ، فالأنهار تتخرق ، والغدران تتدفق وجعل لكم نيلكم الآية الكبرى ، فهو أعجبها رفداً ، وأعذبها ورداً ، وأطيبها نشراً ، وأوفرها وقراً ، جعله دالاً على غريب قدرته ، وعجيب حكمته فسبحان من خص به مصراً ، فأعجب له من بحر هو في الحر في انقضاض ، وفي البرد في انتفاض ، فإذا غاض كل ماء فاض ، وإذا أخذ الشتاء في الإعراض ، أتى هو ببلوغ الأغراض ، وملأ القلوب فرحاً وبشراً ، فكلما هاج لمفارقة خلجانه ، توحم توحم الغيور ، وماج بمحامل السرور براً وبحراً ، فتأمل كيف أقبلت قوابل مقياسه في يوم نفاسه ، تعالج فتح رحم انحباسه ، فكلما تنفس نفساً من أنفاسه ، ملأ

الوهاد مداً وذخراً ، وغمر البلاد بطناً وظهراً ، وعمّ العباد طيباً ونشراً ، فكم جبر بكسر خليجه كسراً ، ولكم أطلق بانطلاقه أسرى ، ولكم أبرد عند ورده كبداً حرّاً :

تـراه إذا هبت بـه نسمة الصبا تجمـده نظمـاً وترسـله نثـرا
هـو النيـل إلا أنـه عنـد نيلـه ترى كل قطر قد أسال به بحرا
يجـود إذا سـنّ السـحاب بوبلـه فتهتز منه الأرض إذا حملت وقرا
يفـيض إذا غـاض الميـاه كأنهـا بجدوله تسري فسبحان من أسرى
حكـى ملكـاً كـل المياه رعيـة يفـرقهم طـوراً ويجمعهـم أخـرى

فإذا أصبحت الرياض قفراً ، وشكت الحياض بعد غناها فقراً ، وضجت عطاشها في الآفاق سهلاً ووعراً ، وقع مغيث الإغاثة والإجابة على رقعة الإنابة : ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ : [الشرح : ٦] وبعث من نيل نيله نوالاً مع الجاريات يسرا ، فأصبحت هنالك الأرض باسمة ثغرا ، ووجدت بعد اليبس خضرا ، واكتسبت بعد الإفلاس حللاً خضراً :

وجاد عليها النيل بالنيل فاغتدت بأزهارها تحكي السماء أنجما زهـرا
لهـا كـل عـام كسـوة بعـد كسـوة فأول ما يهدى لها الكسوة الخضـرا

فسبحان من قدرته لا تضاهى ، وحكمته لا تباهى ، ونعمته لا تتناهى ، أوسع للمذنبين عفواً ، وأجزل للمطيعين أجراً ، ما أعرض معرض عن جنابه إلا لقي في طريقه خسراً ، ولا انحرف منحرف عن بابه إلا وجد حلو شرابه مرّاً ، فيا أيها الحائم حول حمى عناده لقد جئت شيئاً نكراً ، ويا أيها الهائم في فلوات إلحاده لقد صبرت على ما لم تحط به خبراً ، أما تخاف سطوة : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ : [النمل : ٥٠] تالله لقد أوضح لك السبيل فما أبقى لمقصر عذراً وبين في الدليل . فقال : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ : [فاطر : ١٨] فللّه درّ العارفين تيقظوا لخدمة مولاهم من رقدات دنياهم فأفنوا أوقاتهم تسبيحاً وذكراً ، أضرم قلوبهم من محبته جمراً ؛ وأدار عليهم من كؤوس محبته خمراً ، فلما دارت السقاة ، وغنت الحداة ، مالوا بأصوات نغمات ذكره طرباً وسكراً :

أدار علـيهم مـن مدامـة حبـه كؤوساً من التقوى فأبدت لهم سرّا
فأكرم له بحراً جلا ظلمة الصدا وقد ملأ الأقطار والسهل والوعرا
لـه فرحـة عنـد الوفـاء بحقـه فمن أمه يلقى التهاني والبشرى
فرؤيتـه تجلـو عـن القلـب همـه وذكراه يشفي السقم والقلب والصدرا
فمصر له فيها الفخار على الربا وقد أصبحت تسمو على غيرها قدرا

وأمست بـه الآفـاق تزهـو بحسنـه		كما قد كسا البلدان من نشرها عطرا

فانظر يا هذا بعين الفكرة كيف ساقته القدرة من البلاد الأسوانية ليعم نفعه البرية فهو أعجب الأشياء وأغربها وأحسنها في المنظر وأنسبها وأحلاها في المياه وأعذبها ، فسبحان من حقق به الظنون ، وأقربه العيون وجعله حياة للأرواح فانبسط بقدرته ، وساح في فساح الأقطار والجهات لإحياء النبات والغصون وساق من بحر إنعامه إلى خلجان إكرامه ﴿ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ : [النحل : ١٠ـ١١] فهو الذي أجراه بحكمته ، وأنشأه بقدرته ولم يخيب الظنون ، وأذن لشهود عموده عند وفاء حقوقه وحدوده بحسن النظام والقانون في كسر سده وفتح كسره فانجبر بكسره قلب كل محزون ، وعمت بركته البرك والخلجان ، وسار بيد القدرة إلى البلدان ، فروى به الظمآن وشبعت برؤيته البطون ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ : [السجدة : ٢٧] .

قـرت بحمـد الله منـا العيـون		مذ هطلت سحب وفاضت عيون
وعـم لطـف الله سـبحانه		كـل الـورى فليحمـد الحامـدون
وأقبـل النيـل بأمواجـه		كأنـه جـيش السـحاب الهتـون
يحيـا بـه الـزرع وينمـو بـه		ومنـه تكسـى عاريـات الغصـون
وتكتسـي الأرض بـه بهجـة		وتـبرز الأرض بحسـن الفنـون
فنسـأل الـرحمن نفعـاً بـه		فهو المرجى عند حسن الظنون
وقـد تشـفعنا بخـير الـورى		ومـن لـه في القلـب حبّ مصون
صـلى عليـه الله مـا غـردت		حمـائم الأيـك وأبـدت شجون

[وحكي] أن فرعون كان يتمرد ويدعي الفرعنة والطغيان في الأرض وكان يضل قومه بهذا النيل فإذا كان يوم النيروز وقد وفى النيل أجله وبلغ نهايته أمر بأن ينادى في الناس : إن فرعون قد وفى لكم نيلكم فاسجدوا له فكان جهال القوم يعتقدون ذلك ، فلما كان في بعض السنين قصر النيل عن وفائه ولم يأذن الله تعالى له بالطلوع فاستشعر الناس بالجوع وأحسوا بالقحط فاجتمعوا إلى فرعون وقالوا له : قد هلكنا وهلكت دوابنا وأهلنا أولادنا فإن كنت إلـهنا فأجر لنا نيلنا . فقال : لكم ذلك ، ثم إنه عمد إلى مسح وقلنسوة من شعر وكيس فيه رماد ، ومضى إلى مكان المقياس الآن وكانت خربة في الجزيرة المعروفة بالمقياس الآن فأمر أن لا يتبعه

أحد من قومه ولا من رعيته ودخل الخربة ونزع ثياب الملك والتاج الذي كان على رأسه ولبس المسح والقلنسوة الشعر وفرش الرماد وجعل يتمرّغ عليه ويبكي ويسجد لله عز وجل ، ويمرّغ وجهه على الرماد وهو يقول : إلـهي وسيدي أعلم أنك إلـه السموات والأرض وإلـه الأوّلين والآخرين ، ولكن غلبت عليّ شقوتي وزدت في عصياني وطغياني وأنت إلـهي وأنا عبدك وقد حكمت عليّ بما حكمت فلا تفضحني بين قومي وأنت أكرم الأكرمين فما استتمّ كلامه حتى أذن الله للنيل أن يوفي في تلك الساعة وأن يسير معه حيثما سار فكان فرعون يسير بين قومه والماء يبلّ أذياله فكانوا يغمسون أكمامهم في الماء والطين ويضربون بعضهم بعضاً فرحاً به فصارت في مصر سنة إلى الآن ويقولون نيروز أي طلع النيل ، فيما هذا إذا كان هذا عدو الله وقد أخلص لله طرفة عين فأعطاه الله تعالى ما طلب وستره في قومه ولم يفضحه عندهم فكيف بمن أخلص لله عزّ وجل عمره كله ولم يبرح في طاعته وخدمته ماذا يريد أن يعطيه في الآخرى ، وكذلك العبد العاصي إذا تاب من ذنوبه واعترف بعيوبه وتضرع إلى مولاه في سره وجهره فالله تعالى أكرم من أن يعذبه أو يفضحه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

[وحكى ابن مسعود ﷺ] أنه إذا كان يوم القيامة وأراد الله بعبد خيراً أعطاه كتابه جهراً وقال : اقرأه سراً حتى لا يفضحه بين خلقه فيقرأ كتابه سراً فلم يسمعه أحد فتقول الملائكة : إلـهنا هذه عناية لم تسبق لأحد من العصاة وقد أوعدت من عصاك أن تعذبه وتحرقه بالنار فيقول سبحانه وتعالى : يا ملائكتي إن أحرقته في الدنيا بنار الجوع والعطش في الحر الشديد في شهر رمضان فلا أحرقه اليوم بالنيران ، وقد عفوت عنه وغفرت له ما أسلف من الذنوب والعصيان وأن الكريم المنان :

أيها الهائم المشوق إذا ما	شئت تبغي الرضا وتهوى لقانا
غض عن غير حسننا كل طرف	منك واحذر أن تشتغل بسوانا
وتخضع ببابنا وتضرّع	وتذلل لنا وقف بحمانا
واعترف بالتقصير والعجز واندب	في المعاصي عمراً مضى وزمانا
وتوسل بجاه خير البرايا	وتوسل به تنال رضانا
فهو نعم الشفيع في الخلق والحشـ	ـر ومن حوضه غداً ملآنا
فعليه الصلاة منا إليه	ما شكت أيكة لها أشجانا

[وقيل] : إنه كان سنة لفرعون إذا بدت أوحام النيل أن يأمر ببنت من بنات أهل مصر يجلونها بأنواع الحلي ويلبسونها أفخر الحلل ويزينونها بأنواع الزينة كالعروس التي تزف إلى زوجها ثم يأمر بإلقائها في النيل كان دأبهم ذلك في كل سنة ، وكان عامة الناس وجهالهم

يعتقدون أن النيل ما يطلع حتى يرموا فيه العروس واستمر الأمر على ذلك إلى زمان خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وكان نائبه بمصر عمرو بن العاص ﷺ ، فلما أنكر عليهم ذلك كتب كتاباً إلى عمر بن الخطاب يخبره الخبر فكتب له عمر كتاباً يردّ الجواب ورقعة يقول فيها : من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر : أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الواحد القهار أن يجريك ، فألقى البطاقة في النيل ، وكان أهل مصر قد أيقنوا بالغلاء فأصبحوا وقد أجرى الله تبارك وتعالى النيل وطلع ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، كل ذلك من بركات عمر بن الخطاب وحسن إيمانه ﷺ ، وأراح الله المسلمين من تلك البدعة ، وأمر عمرو بن العاص الناس بالشكر لله والثناء عليه والتوبة من المعاصي وأبطل ما كانوا يفعلونه من المنكر ورمي البنات في الماء ، فلما رأى القبط ما فعله عمر ﷺ ساءهم ذلك وأرادوا أن يقووا دينهم ويكون ذلك منسوباً إليهم فاحتالوا بحيلة الشهيد الذي يرمونه في التابوت أوان الزيادة واتخذوه عيداً إلى الآن ، وكذلك أحدثوا الخمسة أيام التي يسمونها النسيء : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٣٧] فهذا في دينهم طغيان ، ونحن بحمد الله تعالى قد خصنا الله تعالى بأشرف الأديان وأوضح لنا فيه طرق الإيمان وخصنا بشفاعة سيد الأكوان محمد المصطفى سيد ولد عدنان ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله السادة الأعيان ، وأزواجه وذريته صلاة دائمة في السرّ والإعلان ، ولبعضهم في هذا المعنى :

يا أيها النيل المبارك إن تكن	من عند ربك تأت فاجرِ بأمره
أو إن تكن من عند نفسك تأتنا	فالله يبسط بره في برّه
كم من بلاد ليس تعرف أرضها	ملأ الإلّه بيوتها من برّه
إن كان دفعك لا يجيء تأدباً	إلا بإذن مليكه فبعذره
قال الصليبي اللعين بجهله	والكفر يركض في جوانب صدره
ذا العام لم يرموا الشهيد فلم يفي	ذا النيل إلا أن رموه بنحره
هون به وبشهره ونسيئه	وشهيد مسراه وطينة بئره
نحن الذين لنا بجاه محمد	عند الإلّه بحمده وبشكره
ما يرتجيه غنينا بغنائه	وفقيرنا بالالتذاذ بفقره
ندعو و نستسقي الغمام بوجهه	فبذاكَ أخبر عمه في شعره

وقـد اسـتجرنا بـالنبيّ محمـد ... وبآلـه وبصـحبه وبسـرّه
صـلى عليـه الله مـا سـرت الصـبا ... وأتـت بطيـب ثنائـه و بعطـره

[**إخواني**] يفكروا في جريان هذا النيل كيف أمده الله تعالى بالمد الجليل ، والرزق الجزيل ، واللطف الجميل ، وجعله حياة للأرواح في المسير والمقيل ، فلو منعه منكم مانع أو قطعه عنكم قاطع لضاقت بكم الرحاب ، وتقطعت بكم الأسباب ، وحلت بكم الأمور الصعاب ، ولكن ترحمون بالأطفال الرضع ، والمشايخ الركع ، والدواب الرتع ، والحق سبحانه لم يمنعه عنكم بخلاً عليكم برزقه ، ولا تعجيلاً لعقوبة خلقه . وإنما يرسله رحمة إليكم و إشفاقاً عليكم شفقة لا تشبه شفقتكم على أبنائكم . ويفعل معكم من اللطف و التدبير ما لا يفعله تدبير آبائكم . فإنه سبحانه و تعالى يسوقه إليكم في وقت احتياجكم إليه ونفعه ، ويصرفه عنكم وقت حاجتكم إلى صرفه ودفعه ، لينتفع كل منكم بغرسه وزرعه ، فكيف يعصى من هذه ملاطفته بعباده في سائر الدهور ، أم كيف يبارز بالخطايا وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وقيل في المعنى :

فيا مـن بـات يخلـو في المعاصي ... وعـين الله شـاهدة تـراه ... أمـا تخشى مـن الـديان طردًا
وتحـرم دائمـاً أبـداً تـراه ... تبـارز بالمعاصـي منـك مـولى ... علـى جهـل يـراك ولا تـراه

أتعصـي الله وهـو يـراك جهـراً ... وتنسـى في غـد حقـاً لقـاه
وتخلـو بالمعاصـي وهـو دان ... إليـك ولسـت تخشـى مـن سطاه
وتنكـر فعلـها ولـه شـهود ... علـى الإنسـان تكتـب مـا حـواه
فويـل العبـد مـن صـحف وفيهـا ... مسـاويه إذا وافى مسـاه
ويـا حـزن المسـيء لشـؤم ذنـبٍ ... وبعـد الحـزن يكفيـه جـواه
ويـندم حسـرة مـن بعـد فـوت ... ويبكـي حيـث لا يجـزي بكـاه
يعـض يديـه مـن نـدم وحـزن ... ويـندم حسـرة مـا قـد عـراه
فكـن بـالله ذا ثقـة وحـاذر ... هجـوم المـوت مـن قبـل أن تـراه
وبـادر بالمتـاب و أنـت حـيّ ... لعلـك أن تنـال بـه رضـاه
ولـذ بالمصـطفى خـير البرايـا ... رسـول قـد حبـاه واجتبـاه
عليـه مـن المهـيمن كـل وقـت ... سـلام عطـر الـدنيا شـذاه

اللهم أفض علينا من بحر برّك وإحسانك واجبر قلوبنا بعفوك وغفرانك ، وارو عطاش قلوبنا بنيل نيل رحمتك ورضوانك ، واكتب لنا بالأمن من الخوف توقيع أمانك برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

المجلس السابع و الثلاثون

في مناقب عمر بن عبد العزيز ﷺ

الحمد لله الذي تعززَ في وحدانيته فهو الواحد العزيز ، وتفرَد في أزليته وأغرق العالم في بحر الحيرة و التعجيز ، أتقن خلق الموجودات فليس في إتقان صنعه نقص ولا تعويز ، زين شقة حلة السماء بنعوت البهاء و طرزها بالكواكب المشرقة أحسن تطريز ، ورقم كميها برقم الشمس والقمر كالفضة النقية والذهب الإبريز ، وحرسها من استراق السمع بالشهب الثواقب أتمّ حرس و أمنع تحجيز ، وجلاها على عيون المعتبرين أولي العقل و التمييز ، وسطح الأرض على تيار الماء و أبرزها بقدرته أحسن تبريز ، وثبتها برواسي الجبال و جعلها مسكناً للرجال والأقطاب والصالحين الأنجاب ، وخلع عليهم خلع التكريم و التعزيز ، صرف عنهم الدنيا فلم يعرفوا الادّخار والتكنيز ، وجعلهم قائمين بحقه خلفاء على خلقه لمن فهم الإشارة والتلغيز ، وخص منهم من شاء بالرفق في بلاده و النصيحة لعباده كالصحابة ومن تابعهم مثل عمر بن عبد العزيز ،رضوان الله عليهم أجمعين .

قال محمد بن سعد رحمه الله : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي ابن أمية بن عبد شمس ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ ، ويكنى أبا حفص ، ولد بالمدينة في سنة ثلاث وستين وهي السنة التي ماتت فيها ميمونة زوج النبي ﷺ .

وعن العباس بن راشد رحمة الله عليه قال : نزل بنا عمر بن عبد العزيز فلما رحل قال لي مولاي : اخرج معه شيعه فخرجت معه فمررنا بواد حية ميتة ملقاة على الطريق فنزل عمر فدفنها ثم ركب وسرنا فإذا نحن بهاتف يقول : يا خرقاء يا خرقاء نسمع صوته و لا نرى شخصه . فقال عمر : أسألك بالله أيها الهاتف إن كنت ممن يظهر إلا ما أظهرت وأخبرتنا ما الخرقاء ؟ فقال: هذه الحية التي دفنتموها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لها يوماً : يا خرقاء تموتين بفلاة الأرض فيدفنك خير مؤمني أهل زمانه . فقال له عمر : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا من الجن السبعة الذين بايعوا رسول الله ﷺ في هذا الوادي . فقال عمر : آلله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم فدمعت عينا عمر ثم انصرف . وعن مجاهد قال : إن الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين سبعة مضى منهم خمسة و بقي اثنان . قال خارجة : أبو بكر وعثمان و عليّ و عمر بن عبد العزيز . وعن زيد بن أسلم قال : كان لعمر بن عبد العزيز سفط فيه درع من شعر وغل و كان له بيت في جوف بيته يصلي فيه لا يدخل فيه أحد غيره فإذا

كان في آخر الليل فتح ذلك السفط و لبس ذلك الدرع ووضع الغّل في عنقه فلا يزال يناجي ربه ويبكي حتى يطلع الفجر ثم يعيد الدرع والغل إلى السفط فهذا دأبه مدة حياته ﷺ [مفرد] :

ذم المنـازل بعـد منزلـة اللـوى والعـيش بعـد أولئـك الأيـام

[وقال] الحرث بن يزيد جار عمر بن عبد العزيز رحمه الله : تالله لقد سمعت عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما أرخى الليل سدوله ، و غارت نجومه و هو يتململ تململ السقيم ، و يبكي بكاء الحزين فكأني أسمعه و هو يقول : يا دنيا إليّ تعرضت أم إليّ تشوّقت هيهات هيهات غري غيري قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كثير ، آه من قلة الزاد و بعد السفر ووحشة الطريق ، ثم أنشد :

من العار بعد النجدتين هجوعي وغـدر بهـم أن لا تسـح دمـوعي
ولي زفـرات كلمـا هبـت الصـبا يقـوم منـهن اعوجـاج ضـلوعي
سـلام علـى تلـك الـديار فإنهـا ديـاري الـتى أشـتاقها وربـوعي

كان عمر بن عبد العزيز ﷺ إذا صلى الصبح أخذ المصحف في حجره ودموعه تبّل لحيته فكلّما مرّ بآية تخويف ردّدها فلا يتجاوزها من كثرة البكاء حتى تطلع الشمس ، واشوقاه إلى تلك الوجوه ، واطرباه عند سماع أخبارهم ، وأسفاه على محو آثارهم :

وأسـفاه علـى فـراق قـوم هـم المصابيح والحصـون والمـزن والأمـن والـتمني
والخـير والعقـل والسـكون بعـدهم العـيش لـيس يصـفو كيـف تفـاجئهم المنـون

فكـل نـار لنـا قلـوب وكـل مـاء لنـا عيـون

[وعن يزيد بن حوشب] قال : ما رأيت أكثر خوفاً من الحسن ومن عمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله . وروي أن عمر بن عبد العزيز قرأ يوماً قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ : [يونس : ٦١] فبكى بكاءً شديداً حتى سمعه أهل الدار فجاءت فاطمة زوجته فجلست تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما فجاء ولده عبد الملك فدخل عليهم وهم يبكون . فقال : يا أبت ما يبكيك ؟ فقال : يا بني ودّ أبوك لم يعرف الدنيا ولم تعرفه ، والله يابني لقد خشيت أن أكون من أهل النار . يا هذا كان عمر بن عبد العزيز يخاف مع عدله وأنت تأمن مع ظلمك وجودك . رؤي في المنام بعد اثنتي عشرة سنة ، فقال : الآن تخلصت من حسابي ، اسمع يا من أمن الأقدار ، وليس له عند مولاه اعتذار :

تشـاغل بالـدنيا أنـاس فأصـبحوا عن الباب محجوبين قد منعوا القربا

وأهـل التقـى لله تسـري قلـوبهم | إلى غاية نـالوا بهـا المشـرب العـذبا
فجالوا بنور العلم في روضة التقـى | بها أنفس الأبـرار قـد ملئـت حبـا
همو قطعوا الدنيا بخـوف وعيـدهم | فـذكرُهمو للمـوت أورثهـم كربـا

[وعن عطاء رحمه الله] قال : كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة ويتذاكرون الموت والقيام والآخرة فلا يزالون يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة ، وعن ابن حبان رحمه الله عليه قال : صليت الصبح خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ : [الصافات : ٢٤] فجعل يكررها ولا يستطيع أن يتجاوزها من البكاء . وعن سفيان قال : كنت مفكراً في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها ثم بكى .

وعن شيخ من أهل خراسان قال : لما أراد أبو جعفر بيت المقدس نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز إذا أراد بيت المقدس ، فقال : يا راهب أخبرني بأعجب شيء رأيته من عمر بن عبد العزيز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين : بينا عمر ذات ليلة على سطح غرفتي هذه . وكان السطح من رخام ، وأنا مستلق على قفاي فإذا بماء يقطر من الميزاب على صدري فقلت : والله ما عندي ماء ولا رشت السماء ماء فصعدت لأنظر فإذا هو ساجد ودموعه تنحدر من الميزاب.

وعن الحسن بن الحسن رحمهما الله قال : رأيت عمر بن عبد العزيز يبكي حتى بكى الدم .

[وروي] أن عمر بن عبد العزيز منذ وُلّيَ الخلافة لم يضع لبنة على لبنة ولم يحدث له دابة ولا امرأة ولا جارية حتى لحق بالله عز وجل ، وعن عمر بن مهاجر قال : قال لي عمر بن عبد العزيز :إذا رأيتني ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي وهزني ، ثم قل : ماذا تصنع يا عمر ؟ واعجباه هذا خوف عمر مع كماله فكيف أمنك مع نقصانك ، الدنيا مرآة الآخرة فما عملته في هذه رأيته في تلك ، فأنت اليوم تعمل وغداً ترى فإن كنت عاقلاً فابك على ما جرى ، وإن كنت نائماً فستذهب عنك لذة الكرى :

لو بكـت عينـاك يـا هـذا دمـا | مـا تقـدمت إلينـا قـدما | كيـف يصـفو لـك ود بعـدما
نشـر الغـدر عليـك العلمـا | نـح علينـا أسـفاً أو لا تـنح | واسـكب الـدمع علينـا والـدما
إنمـا يصـفو وداد لامـرئ | حفـظ العهـد وراعـى الـذمما | لـو أردنـاك لنـا مافتنـا
ووصـلنا حبلنـا مـا انصـرما | مـا رأينـا منصـفاً عاملـه | منصـف في صـفقة فاختصـما

[إخواني] كانت الدنيا إذا قدمت إلى الصالحين قدموها إلى الآخرة ، فأين نحن من القوم ، كم بين اليقظة والنوم ، كان عمر بن عبد العزيز يأتيه خراج اليمن فيدخله بيت المال ويبيت في الظلام ، وكان يقول : إذا سهرت في أمر العامة أشعلت سراجاً من بيت المال ، وإذا سهرت في أمر نفسي أسرجت على نفسي من مالي .

[وروي] أنه جاء خراج اليمن ومعه عنبر حمل على اثني عشر بغلاً فأحضر المال بين يديه ثم أمر به إلى بيت المال وأمر بالعنبر ، فلما حضر بين يديه سدّ أنفه وأمر به فأدخل بيت المال فقيل له : إن هذا العنبر لا ينقصه ريحه . فقال : إنما ينتفع منه بريحه . وروي أن ابنة لعمر بن عبد العزيز بعثت إليه بلؤلؤة ، وقالت : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن يبعث لي أختها حتى أجعلها في أذني فافعل . قال : فأرسل إليها بجمرتين ، ثم قال : إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت بأخت اللؤلؤة إليك . وعن عيسى بن سنان رحمه الله قال : كان عمر ابن عبد العزيز لا يبني بناء ، فقيل له في ذلك ، فقال : ذلك سنة رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم يضع لبنة ولا قصبة على قصبة . وعن أبي داود الرومي رحمه الله قال : كان لعمر بن عبد العزيز درجة يصعد عليها ، وكانت تتحرك كلما نزل أو طلع يرتاع منها فعمد بعض أصحابه فشدها بطين ، فلما صعد عمر رآها قد تثبتت ، فسأل عنها ؟ فقيل : إن فلاناً بناها ، فقال : أعيدوها إلى ما كانت عليه فإني عاهدت الله تعالى من وليت أن لا أضع لبنة على لبنة ولا آجرة على آجرة . اسمع يا من أفنى في عمارة الدنيا عمره ، وقلل نفعه فيها وكثر ضرره كان السلف يخربون الدنيا فيعمرون بها الآخرة ، وأنتم قد عكستم ، عمرتم الدنيا وأخربتم الآخرة :

زيـادة المـرء في دنيـاه نقصـان ... وفعلـه غير فعـل الخير خسـران
يـا عـامراً لِخَـرَابِ الـدار مجتهـداً ... تـالله مـا لخراب العمـر عمـران

فيا مستأنساً بالمنازل والدور ، وكاسات الموت عليه تدور ، يا مظلم القلب وما للقلب نور ، الباطن خراب والظاهر معمور . لو ذكرت الأجداث والقبور ، لأبطلت عمارة الدنيا أيها المغرور ، ستحاسب على الأيام والشهور ، يا من يصلي بلا حضور ، ويصوم والصوم بالغيبة مغمور كم يتلطف بك وأنت نفور ، كم ينعم عليك يا كفور ، كم تبارز بالمعاصي وأنت مستور ويمهلك لتتوب إليه إنه رحيم غفور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور :

إلى مـتى تلـهو بـدار الغـرور ... وفي تمـادي الغـيّ تفـني الـدهور
ناسـياً للمـوت يـا غـافلاً ... عليـه كاسـات المنايـا تـدور
حـادي السرى نـاداك مستعجلاً ... ومـا تـزودت ليـوم النشـور
فانهض وتب من كل ذنـب مضـى ... تحظـى برضـوان العزيـز الغفـور

[وعن الأوزاعي رحمة الله عليه] قال : كان عمر بن عبد العزيز يصوم ويفطر على البقل وكان في غالب أوقاته يغمس الخبز بالدقة ويأكله . وأهدي إليه طبق فيه تفاح وفاكهة فردّه ولم يأكل منه شيئاً ، فقيل له : ألم يكن رسول الله يقبل الهدية ؟ قال : بلى ولكن الهدية إلى رسول الله ﷺ هدية وهي لنا ولمن بعدنا رشوة ، وكان رحمه الله يمنع نفسه الشهوات ويسمح بالعطايا

للناس ، قال خزيمة أبو محمد العابد : إن عمر بن عبد العزيز قال : ما أعطيت أحداً مالاً واستقللته له ، وإني لأستحي من الله أن أسأله الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا . وعن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب رحمه الله تعالى قال : ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة سنتين ونصفاً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم . فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون من الفقراء فيقوم وماله معه لما أغنى عمر الناس بعطائه ، وعن النضر بن سهل عن أبيه قال : قال عمر بن عبد العزيز لجاريته يوماً : روِّحيني حتى أنام فروحّته فنام فغلبها النوم فنامت فلما انتبه أخذ المروحة يروّحها فلما انتبهت ورأته يروحّها صاحت فقال لها عمر : إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحر ما أصابني فأحببت أن أروّحك كما روّحتني . فللّه درّهم جعلوا التواضع لهم شعاراً . والتقوى دثاراً وجانبوا من الدنيا لهواً واغتراراً وتزينت لهم فرفضوها لما رأوها ثوباً معاراً كم كفت كفاً . وكم أعمت أبصاراً ، وكم بالخوف راعت راعيها وما راعته ليلاً ولا نهاراً ، فارحل بعزمك عنها واتخذ غيرها داراً ، واحذر لباس بأسها فكم كست لابسها عاراً :

يامحب الدنيا الغرور اغترارا راكباً في طلابها الأخطارا يبتغي وصلها فتأبى عليه
وترى أنسه فتبدي نفارا خاب من يبتغي الوصول إليها جارة لم تزل تسيء الجارا
كم محب أرته أنساً فلما طلب الوصول أبعدته مرارا فتعوّض عنها بخلة صدق
والتمس غير هذه الدار دارا فالبدار البدار بالعمل الصا لح ما دمت تستطيع البدارا

[وعن هلال بن قيس رحمه الله] قال : مرض عمر بن عبد العزيز مرضه الذي مات فيه أول شهر رجب سنة إحدى ومائة وكانت شكواه عشرين يوماً . وعن الوليد بن هشام رحمه الله قال : لقيني يهودي وكان قد أخبرني قبل ولاية عمر أن عمر سيلي هذا الأمر ويعدل فيه ، قال : فلقيت عمر فأخبرته فلما توليَ عمر لقيني اليهودي بعد مدّة ، فقال لي : ألم أخبرك أن عمر سيلي الخلافة وكان الأمر كما أخبرتك ؟ فقلت : بلى ، فقال لي : الآن هذا الرجل قد سُقيَ السمّ فمره فليتداو ويدرك نفسه قال : فلقيته فذكرت له ذلك فقال عمر : والله إني عرفت الساعة التي سقيت فيها السمّ ولو كان شفائي في مسّ شحمة أذني لما مسستها أو لو كانت عافية بطيب أرفعه إليّ ما رفعته . وعن مجاهد قال : سألني عمر بن عبد العزيز في مرضه : ما تقول الناس فيّ ؟ قال : يقولون إنه مسحور فقال : ما أنا بمسحور ولكن سقيت السم ثم استدعى بغلام فقال : ما حملك على أن سقيتني السم ؟ قال " أعطيت ألف دينار ووعدت بالعتق فقال : هات الألف دينار فجاء بها فألقاها في بيت مال المسلمين وقال للغلام : اذهب حيث شئت فأنت حر ؟ وعن أبي حازم رحمة الله عليه قال : شاهدت عمر بن عبد العزيز وقد رقد رقدة على أثر وجد وجده فبكى ثم ضحك فلما انتبه قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين ما الذي اعتراك في

منامك حتى ضحكت بعد البكاء ؟ قال : رأيت ذلك ؟ قلت : نعم وجميع من حولك قال : رأيت كأن القيامة قد قامت وقد حشر الناس مائة و عشرين صفاً أمة محمد ﷺ منهم ثمانون صفاً وإذا مناد ينادي : أين عبد الله ابن أبي قحافة فأجاب فأخذته الملائكة فأوقفوه أمام ربه عز وجل فحوسب حساباً يسيراً ثم نجا وأمر به إلى ذات اليمين . ثم جيء بعمر بن الخطاب فحوسب حساباً يسيراً ثم نجا ثم أمر به وبصاحبه إلى الجنة .ثم جيء بعثمان فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به إلى الجنة . ثم نودي بعلي بن أبي طالب فجيء به فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به إلى الجنة . قال عمر بن عبد العزيز :فلما قرب مني نودي : أين عمر بن عبد العزيز ؟ قال : فتصببتُ عرقاً ثم أخذتني الملائكة فأوقفوني أمام الحق سبحانه وتعالى فسألني عن النقير والقطمير وعن كل قضية قضيتها ثم غفر لي فأمر بي ذات اليمين فمررت بجيفة ملقاة فقلت للملائكة : ما هذه الجيفة فقالوا : سله يجبك فسألته ووكزته برجلي فرفع رأسه وفتح عينيه فقلت له : من أنت ؟ فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنا عمر بن عبد العزيز فقال لي : ما فعل الله بك ؟ فقلت : تفضل عليّ ورحمني وفعل بي كما فعل بمن سلف من الأئمة ، فقال : ليهنك ما صرت إليه فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا الحجاج بن يوسف الثقفي قدمت على الله عز وجل فوجدته شديد العقاب والغضب فقتلني بكل قتيل قتلته وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة وها أنا بين يدي ربي أنتظر ما ينتظره الموحدون من ربهم : إما إلى الجنة و إما إلى النار . قال أبو حازم : فعاهدت الله تعالى بعدما سمعت هذا من عمر ﷺ أني لا أقطع لأحد بالنار ممن يقول : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ، فالويل لأهل الظلم من الأوزار ، ذكرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار يكفيهم أنهم قد وسموا بالأشرار ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار داروا إلى دار العقاب وملك غيرهم الدار وخلوا بالعذاب في بطون تلك اللحود والأحجار فلا راحة لهم ولا سكون ولا قرار ، دموعهم تجري على التفريط كالأنهار ، شيدوا بنيان الأمل فإذا به قد انهار ، كم قتل الحجاج من قتيل وكم ظلم من جار ، أما علم أن الله ينتقم ممن تعدى وجار ؟ فإذا قاموا في القيامة حشروا في جهنم مع الفجار ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ : [إبراهيم : ٥٠] .

ويحك يا نفس البدار البدار ... مـا هـذه الـدنيا لحي بـدار ... منزلـة والنـاس سـفروكم
خـانهمو صـرف الليالي وجار ... قـد نفـد العمـر وقـل البقـا ... إلى متى يـا نفس ذا الاغترار

مـن كـان في الـدنيا يـرى راحـلاً ... كيـف لـه فيهـا يقـر القـرار
أم كيـف يهنـأ العـيش فيهـا لمـن ... عليـه كاسـات المنايـا تـدار
يـا أيهـا النـائم قـم وانتبـه ... قد فاتك المطلوب والركب سار
إن كنـت أذنبـت فقـم واعتـذر ... إلى كـريم يقبـل الاعتـذار

وانهض إلى مولى عظيم الرجا يغفر في الليل ذنوب النهار

[قيل] : إن مسلمة بن عبد الملك دخل على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه ، فقال له : يا أمير المؤمنين من توصي بأهلك ؟ فقال : إذا نسيت الله فذكروني ، ثم عاد وقال له : من توصي بأهلك ؟ فقال : إن وليي فيهم الله وهو يتولى الصالحين . وعن رجاء بن حيوة قال : قال لي عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه يا رجاء : كن أنت فيمن يغسلني ويكفنني ويلحدني في قبري فإذا وضعوني في لحدي فحل العقدة وانظر إلى وجهي فإني قد دفنت ثلاثة من الخلفاء كلهم إذا وضعته في لحده حللت العقدة . ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو مسودّ محولّ إلى غير القبلة . قال رجاء : فلما مات عمر بن عبد العزيز ﷺ كنت ممن غسله وكفنه ودفه فلما ألحدته حللت العقدة ونظرت إلى وجهه فإذا هو يضيء كالقمر المنير متوجهاً إلى القبلة ففرحت له بذلك . وعن عبيدة بن حسان ، قال : لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال : اخرجوا عني فلا يبقينّ عندي أحد وكان عنده مسلمة بن عبد الملك فخرجا وقعد مسلمة بن عبد الملك وفاطمة أخته زوجة عمر على الباب فسمعوه يقول : مرحباً بهذه الوجوه ليست بوجوه انس ولا بوجوه جن ، قال : وسمعنا صوتاً من ناحية البيت يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : [القصص : ٨٣] قال : ثم دخلوا عليه ، وقد مات رحمه الله ، وقد استقبل القبلة وغمض عينيه وطبق فاه . وعن الأوزاعي قال : قال عمر بن عبد العزيز : ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت فإنه آخر ما يكفر به عن المؤمن . وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ثقل مرضه قال لمسلمة بن عبد الملك : خذ من مالي دينارين فاشتر لي بهما كفناً فقال : يا أمير المؤمنين إن الدينارين لا يحصل بهما كفن لمثلك ، فقال : يا مسلمة إن كان الله عني راضياً فسيبدلني بما هو خير منه ، وإن كان ساخطاً فإنما يكون حطباً للنار . وروي أنه كفن في ثياب سحولية ، وقيل : في يمنية ، وكان قبره بدير سمعان من أرض حمص ، وكان قد أرسل إلى صاحب الأرض يساومه على موضع قبره ، فقال له : يا أمير المؤمنين والله إنني لأتبرك بقبرك ، وقد حاللتك منه فأبى أن يقبله إلا بثمنه ، وفي رواية : أنه بايعهم يعني أصحاب الأرض على موضع قبره بدينارين . وقال لهم : إنما أريد بطن الأرض فإذا دفنت فاحرثوا أرضكم وازرعوا فيها وابنوا وانتفعوا بها فلا يضرني ذلك . وروي أن ولاية عمر كانت ثلاثين شهراً إلا عشرة أيام . وتوفي وهو ابن خمس وأربعين سنة . وعن خالد الربعي قال مكتوب في التوراة : إن السماء والأرض لتبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً . [وروي] أن رسول عمر بن عبد العزيز كان إذا وصل البصرة تلقاه الناس بالرحب

والسعة فإنه كان لا يأتي إلا بزيادة عطاء وإنفاذ مال يتفقد به أحوال الفقراء ، فلما وصل الرسول بموته خرج الناس إليه على جري عادتهم فلما أخبرهم بموته ضج الناس بالبكاء والعويل وغم ذلك أهل البصرة بأسرهم لعظم مصيبتهم به [وقيل] : إن بعض الجن رثاه فقال :

عنا جزاك مليك الناس صالحة ... في جنة الخلد والفردوس يا عمر
أنت الذي لا نرى عدلاً نسرّ به ... من بعده ما جرى شمس ولا قمر

ولما مات عمر بن عبد العزيز رثاه جرير فقال :

تنعي النعاة أمير المؤمنين لنا ... مفضلاً حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاستطعت له ... وسرت فيه بأمر الله مؤتمرا

[وقال مسلمة بن عبد الملك] : رأيت عمر بن عبد العزيز بعد موته في المنام ، فقلت له إلى أيّ الحالات صرت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يا مسلمة هذا أوان فراغي والله ما استرحت إلى الآن فقلت : يا أمير المؤمنين فأين أنت . فقال : أنا مع أئمة الهدى في جنات عدن وكان عمر ابن عبد العزيز يأتي المساجد المهجورة في الليل فيصلي فيها ما يسر الله عزّ وجل فإذا كان وقت السحر وضع جبهته على الأرض ومرّغ خدّه على التراب ولم يزل يبكي إلى طلوع الفجر ، فلما كان في بعض الليالي فعل ذلك على العادة ، فلما فرغ ورفع رأسه من صلاته وتضرعه وجد رقعة خضراء قد اتصل نورها بالسماء مكتوب فيها هذه براءة من النار من الملك العزيز لعبده عمر بن عبد العزيز . وقال الفرزدق لما مات عمر ﷺ يرثيه :

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه ... لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة حق قد بعثت لها ... كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ... على الحبيب الذي يسقى به المطر
ثلاثة ما رأت عيني لهم شبهاً ... تضم أعظمهم في المسجد الحفر
وأنت تتبعهم إذ كنت مجتهداً ... للحق والأمر بالمعروف تبتدر
لو كنت أملك والأقدار غالبة ... تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكر
صرفت عن عمر المرضي مصرعه ... بدير سمعان لكن يغلب القدر
فالله يكرم مثواه ويرحمه ... ما أوجب الحج بل ما سنت العمر
وفي مصاب رسول الله تسلية ... فيمن يموت وفي أبنائه عبر
هو الرسول الذي منّ الإلّه به ... على البرية وازدادت به السير
وخير من ولدت عدنان قاطبة ... وخير من شرفت من أجله مضر
المصطفى المرتضى للخلق ينقذهم ... من الضلال الذي في طيه الخطر

أعطاه مولاه ما لم يعطه أحداً | خزائن الغيب منها الخير ينتظر
هو الحبيب الذي أسرى به عجلاً | إلى السماء وجنح الليل معتكر
صلى عليه إلـه العرش ما طلعت | شمس وما خلفتها الأنجم الزهر

اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الثامن والثلاثون

في مناقب الإمام الشافعي رضي الله عنه

الحمد لله الذي رفع العلماء إلى أشرف المناصب وأعلى وأسمى ، وخفض لهم المناصب حين نصبهم لفهم أسرار صفات ذاته والأسماء ، وعطفهم على حال المعرفة ونظم درّ عقولهم في سلك التمييز بالتّأكيد نظماً ، نشر في الأقاليم أعلامهم وأجرى بالحكم أقلامهم فكل بمذهبه يرقم سطر الطروس رقماً ، فنعمان النعمة ملكهم علماً وفهماً ، وفاضلهم مالك وطأ لهم الحديث ورسم نصيبه الأحكام رسماً ، وشافعي سائلهم وفر لهم من العلم نصيباً وقسماً ، وأحمدهم لسيدهم مسنداً إليه فلا يخشى لديه هماً ، وكلهم طامع من المولى ببلوغ سؤله متأدب بما قال تعالى في تنزيله لرسوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ : [طه : ١١٤] .

إذا ما شئت أن تسمو وتسمي | وتدرك راحة روحاً وجسما
فقم لطريق أهل العلم سعياً | لتقفو معهم أثراً ورسما
فإن حصلت لك الدنيا وإلا | ظفرت بأكبر الشرفين قسما
فأكرم ما حواه المرء علم | به يُهدى ويهدي من ألما
وليس يفيد ملك الكون عبداً | إلى العلياء يسري وهو أعمى
فكم أبدى ضياء العمر رشداً | وأذهب ظلمة وأزال ظلما
فنحمد ربنا إذ منّ لطفاً | به في رشدنا وأزال غما

أحمده حمداً أنال به من الإخلاص حظاً وقسماً ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة أمحو بها ذنباً وإثماً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أذهب الله بشريعته عن القلوب هماً ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين أطلع الله لهم في سماء الفضل والشرف نجماً .

قال أصحاب التاريخ : ولد الإمام الشافعي ﷺ بغزة من بلاد فلسطين ومات عنه أبوه وهو ابن

سنتين ، فحملته أمه إلى مكة شرفها الله تعالى ، فنشأ وترعرع بها وجالس أهل العلم وفتح الله عليه من العلم ما لم يفتح على غيره حتى كان مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة يحثه على الفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة . وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، ويتصل نسبه إلى عبد مناف ، وعنده يلتقي بالنبي ﷺ ، وسافر إلى بغداد فأقام بها سنتين ، ثم عاد إلى مكة فأقام بها أشهراً ، ثم خرج إلى مصر ومات بها ﷺ ، وكان يقسم الليل إلى ثلاثة أقسام : ثلث للعلم وثلث للصلاة وثلث للنوم . وقال الربيع رحمه الله : كان الإمام الشافعي رحمة الله عليه يختم القرآن في كل يوم مرة ، وقال الربيع أيضاً : كان الشافعي يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وقال الحسن الكرابيسي : بتّ مع الإمام الشافعي ﷺ غير مرة فرأيته يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة ، وكان لا يمر على آية رحمة إلا سأل الله تعالى الإنابة لنفسه وللمؤمنين ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ منها وسأل الله تعالى النجاة لنفسه وللمؤمنين ، وكان الشافعي ﷺ يقول : ما شبعت منذ ستة عشر سنة لأنه يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة . وكان الشافعي ﷺ يقول : ما حلفت بالله في عمري لا كاذباً ولا صادقاً وسئل ﷺ عن مسألة فسكت ، فقيل له : لما لا تجيب ؟ فقال : حتى أعلم الفضل في سكوتي أو في جوابي . وقال المزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم : جاء الشافعي إلى مالك رضي الله عنهما ، فقال له : أريد أن أسمع منك الموطأ ، فقال مالك : امض إلى حبيب كاتبي فإنه يقول قرأته فقال له الشافعي : تسمع مني رضي الله عنك صفحاً ، فإن استحسنت قراءتي قرأته عليك وإلا تركتك ، فقال له : اقرأ فقرأ صفحاً ثم وقف ، فقال له مالك : هيه فقرأ صفحاً ثم سكت ، فقال له الإمام هيه فقرأه فاستحسن مالك قراءته فقرأ عليه الموطأ أجمع ثم أتاه بعد ذلك ، فقال له مالك : اطلب من يقرأ لك ، فقال له الشافعي : أحب أن تسمع قراءتي فإن خفت عليك وإلا طلبت من يقرأ لي ، فقال : اقرأ فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، ثم قال : اقرأ فقرأت عليه من الموطأ من أوله إلى آخره حفظاً فدعا لي وسرّ بذلك . قال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول : حملت على محمد بن الحسن حمل جمل بختي ليس عليه إلا سماعي منه . وقال محمد بن عبد الله بن الحكم : قال الشافعي :لم يكن لي مال وكنت أطلب العلم في الصغر فكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها .

[إخواني] بهذا الاجتهاد بلغوا المراد ، وبهذا الطلب حصل لهم التوفيق والسداد ، وبهذه الهمة صاروا قدوة للعباد ، يا هذا الهمم العلية تدني إلى المراتب السنية ، وكل من تعب استراح ويحك يا مضيعاً عمره في البطالة ، وقد فاز غيره بنجح المطالب ، يا مهملاً نظره في العواقب ،

احذر فوات الفضائل والمناقب ، أما كان فيما مضى من عمرك من اللعب ما كفاك ، ولا فيما رأيت من تغيير أحوالك ما وعظك ونهاك ؟ ذهب العمر في كسب ما يضر ، وأتيت إلى الآخرة بما لا يسر :

ما زلت في ضر تكابده حتى قطعت العمر خسرانا وأتيت بالأوزار تحملها
لا كان ما قد كان لا كانا وركبت آثاماً أسرت بها ورأيت في عقباك أحزانا

فعسى الكريم يتم نعمته ويعيد ذاك السوء إحسانا

وكان الشافعي رحمه الله يقول : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وأما زهده ﷺ في الدنيا وسخاؤه فروى الحميدي أن الشافعي ﷺ خرج إلى اليمن في بعض أشغاله ثم انصرف إلى مكة ومعه عشرة آلاف درهم فضرب خيمته خارج مكة فكان الناس يأتونه فما برح من مكانه حتى فرقها جميعها ، وخرج يوماً من الحمام وقد أتى بمال كثير فدفعه للحمامي ، وسقط سوطه من يده وهو راكب فرفعه إليه إنسان فأعطاه خمسين ديناراً . وروي عنه أنه خاط قميصاً عند بعض الخياطين ممن جهل قدره فهزأ به الخياط وجعل له الكم اليمين ضيقاً لا تخرج منه يده إلا بجهد والكمّ الآخر كأنه رأس عدل ، فلما جاء الشافعي رأى كماً ضيقاً جداً والآخر متسعاً جداً . فقال : جزاك الله خيراً هذا الكم الضيق جيد لتشمير الوضوء وهذا الكم الواسع لأجل الكتاب ، وكان رسول الملك قد جاء إلى الشافعي بعشرة آلاف درهم فصادفه عند الخياط فقال له : ادفعها إليه حق خياطته هذا الثوب وفكرته في تفصيله ، فسأل عنه الخياط فقيل له : هذا الإمام الشافعي فتبعه وقبل أقدامه واعتذر إليه ثم خدمه وصار من أصحابه ، وقال الربيع : تزوجت فسألني الشافعي كم أصدقتها ؟ فقلت : ثلاثين ديناراً ؟ قال : كم أعطيتها ؟ قلت : ستة دنانير ، فأرسل إليّ بصرة فيها أربعة وعشرون ديناراً ، وجعل لي معلوماً على الأذان بالجامع سنة إحدى ومائتين . وقال الشافعي رحمه الله : أظلم الظالمين لنفسه الذي إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخفّ بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل ، وقرأ بعضهم عنده يوماً قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ : [المرسلات : ٣٥ ـ ٣٦] فتغير لونه واقشعرّ جلده واضطربت مفاصله وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين : اللهم لك خضعت قلوب العارفين ، وذلت لهيبتك نفوس المشتاقين ، إلهي هب لي جودك وجللني بسترك واعف عني في تقصيري بكرمك . يا هذا إذا كان هذا خوف الشافعيّ مع علمه فكيف أمنك مع جهلك ؟ ويح الجاهلين الغافلين ، أعمارهم تنهب وأيامهم تذهب وأثامهم تكتب ، أصمّ عن النصائح أم عمي والأمر واضح ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ : [النساء : ٨٧] أهل القلوب

القاسية يخرجون من مجالس الذكر كما دخلوا ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس : ١٠] المواعظ تحوم حول القلوب ولا تجد طريقاً إليها ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ : [البقرة : ٧] ومع هذا فلا يقطع الرجاء فإن الخمر ينقلب خلا في ليلة واحدة ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ : [النور : ٤٤] خرج عمر بن الخطاب ﷺ قبل الإسلام وهو أقسى قلباً من الصفا ، فأسلم ولان عند الصفا :

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر

ويحك إن اغتالك الظلام فاقتد بعلماء الإسلام . قال عبد الله بن محمد البكري : كنت مع الإمام الشافعي ﷺ بشط بغداد فرأى شاباً يتوضأ ولا يحسن الوضوء ، فقال له : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ثم مضى ، فأسرع الشاب في وضوئه ثم لحق الإمام الشافعي ولم يعرفه فالتفت إليه الإمام وقال له هل من حاجة ؟ قال : نعم تعلمني مما علمك الله ، فقال له : أعلم أن من عرف الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله غداً ، أفلا أزيدك ؟ قال : نعم ، قال : من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان من أمر بالمعروف وائتمر به ، ونهى عن المنكر وانتهى عنه ، وحافظ على حدود الله تعالى . قال : أفلا أزيدك ؟ قال : بلى قال : كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنجح مع الناجحين ثم مضى ، فسأل عنه الشاب بعد ذلك فقيل له : هذا الإمام الشافعي ﷺ، وكان يقول ﷺ : وددت أن الناس ينتفعون بهذا العلم ولم ينسب إليّ منه شيء ، وقال أيضاً ﷺ : ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله عز وجل ، وما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يظهر الحق على يديه ولا أبالي أن يبين الله عز وجل الحق على لساني أو على لسانه . وقال أيضاً : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت مودته ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته ، وقال أحمد بن حنبل ﷺ : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي . وقال له ابنه : يا أبت أيّ رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال الإمام أحمد : يا بنيّ كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس ، فانظر يا بنيّ هل من هذين خلف ؟ هكذا العلماء الصالحون هم كالشمس للدنيا والعافية للناس ، وليس منهما خلف ، فإن بهم يدفع الله البلاء وينزل الرخاء وتعمّ البركة وتنشر الرحمة ، فلله درّهم فروا من الدنيا إلى الله وأنتم تفرون من الله إلى الدنيا . كان السلف يسخرون من الشيطان وأنتم يسخر بكم ، كم بينكم وبينهم في المقدار ، ملكتكم الدنيا

وملكوها فأنتم عبيد لها والقوم أحرار ، كانت لهم أنفة فما احتملوا العار وعرفوا قدر الزمان فانتهبوا الأعمار ، لو اطلعتم عليهم في وقت الأسحار لرأيتموهم نجوم الهدى ، لا بل هم الأقمار ، قاموا في الدجى على قدم الاعتذار ، وأنتم في بحر النوم والغفلة في التيار :

طال والله بالذنوب اشتغالي ... وتماديت في قبيح الفعال
ليت شعري إذا أتيت فريداً ... والموازين قد نصبن حوالي
والدواوين قد نشرن جميعاً ... ثم لم يغنني هنالك مالي
ما احتيالي وما أقول لربي ... في سؤالي وما يكون مقالي

[كان] الشافعي ﷺ كثير الزهد في الدنيا عفيفاً عن اللغو والكلام الفاحش . ومرّ يوماً برجل يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت الشافعي ﷺ إليه ، فقال : نزهوا أسماعكم عن سماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به فإن المستمع شريك القائل ، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في وعائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لشقي رادّها كما يشقى قائلها . وروي أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً وكان يسأل الشافعي عن مسائل في الورع والشافعي يقبل عليه لورعه ، فقال للشافعي : أيما أفضل : الصبر أو المحنة أو التمكن ؟ فقال الشافعي ﷺ : التمكن درجة الأنبياء ولا يكون التمكن إلا بعد المحنة فإذا امتحن وصبر مكن ، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى امتحن إبراهيم ﷺ ثم مكنه وامتحن موسى ﷺ ثم مكنه وامتحن أيوب ﷺ ثم مكنه وامتحن سليمان ﷺ ثم آتاه ملكاً عظيماً ، والتمكن أفضل الدرجات .

[وقال عبد الملك بن عبد الحميد الميموني] : كنت عند أحمد بن حنبل وجرى ذكر الشافعي فرأيت أحمد يعظمه ، فقال : بلغني أو قال : يروى عن النبي ﷺ : « أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها » فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى .

[وقال هرون بن سعيد بن الهيثم الأيلي] : ما رأيت مثل الشافعي قط ، ولقد قدم علينا مصر فقالوا : قدم رجل من قريش فقيه فجئناه وهو يصلي فما رأينا أحسن منه وجهاً ولا أحسن صلاة فافتتنا ، فلما قضى صلاته تكلم فما رأينا أحسن منطقاً منه ، وكان يتكلم في الحقيقة أيضاً وفي الزهد وفي أسرار القلوب ، وكان يقول : كيف يزهد في الدنيا من لا يعرف قدر الآخرة ؟ وكيف يخلص من الدنيا من لا يخلو من الطمع الكاذب ؟ وكيف يسلم من لا يسلم الناس من لسانه ويده ؟ وكيف ينال الحكمة من لا يريد بقوله وجه الله عز وجل ؟ وسأله بعض الناس عن الرياء ، فقال له : أنت إذا خفت على نفسك العجب فانظر رضا من تطلب ،

وفي أي نعيم ترغب ، ومن أي عقاب ترهب ، وأيّ عافية تشكر ، وأيّ بلاء تذكر ؟ وله ﷺ :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرضا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فللّه درّ العارف الندب إنه ... تسح لفرط الوجد أجفانه دما
يقيم إذا ما الليل مد ظلامه ... على نفسه من شدة الخوف مأتما
فصيحاً إذا ما كان في ذكر ربه ... وفيما سواه في الورى كان معجما
ويذكر أياماً مضت من شبابه ... وما كان فيها بالجهالة أحرما
فصار قرين الهمّ طول نهاره ... ويخدم مولاه إذا الليل أظلما
يقول حبيبي أنت سؤلي وبغيتي ... كفى بك للراحلين سؤلا ومغنما
ألست الذي غذيتني وكفلتني ... وما زلت منانا عليّ ومنعما
عسى من له الإحسان يغفر زلتي ... ويستر أوزاري وما قد تقدما

وله أيضاً ﷺ نظم كثير يحتوي على الحكمة والمواعظ ، وسنذكر منها ما وصل إلينا وصح عنه ﷺ ، وله أيضا كلام في الحقيقة ومعان دقيقة . فمن ذلك ما رواه سويد بن سعيد رحمه الله ، قال : كان الشافعي جالساً بعد صلاة الصبح في مدينة النبي ﷺ إذا دخل عليه رجل ، فقال له : إني خائف من ذنوبي أن أقدم على ربي وليس لي عمل غير التوحيد ، فقال الإمام الشافعي ﷺ : يا مؤمن لو أراد الله عز وجل أن يؤيسك من المسامحة لديه لما أحالك في مغفرة الذنوب عليه ، حيث يقول : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ : [آل عمران : ١٣٥] . ولو أراد عقوبتك في جهنم وتخليدك لما ألهمك معرفتك به وتوحيدك ، ثم أنشد :

إن كنت تغدو في الذنوب جليدا ... وتخالف في يوم المعاد وعيدا
فلقد أتاك من المهيمن عفوه ... وأتاح من نعم عليك مزيدا
لا تيأسنْ من لطف ربك في الحشا ... في بطن أمك مضغة ووليدا
لو شاء أن تصلى جهنم خالداً ... ما كان ألهم قلبك التوحيدا

فبكى الرجل وأقبل على العبادة وفرح بكلامه ﷺ ، وله شعر كثير وأدعية ، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مروان ، قال : كنت أجلس في حلقة العلم عند الإمام الشافعي ﷺ وأكتب ما أفهمه منه فأتيته سحراً فوجدته في المسجد وهو قائم يصلي فجلست حتى فرغ من صلاته ثم دعا بدعوات حفظتها منه فكان من جملة ذلك : اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السنة وارزقنا صدق التوكل عليك وحسن الظن بك وامنن علينا بكل ما يقرّبنا إليك مقروناً بعوافي الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين . قال : فلما

فرغ من دعائه خرج من المسجد وخرجت خلفه فوقف ينظر إلى السماء ثم أنشد :

بموقف ذلي دون عزتك العظمى ... بمخفيّ سر لا أحيط به علما
بإطراق رأسي باعترافي بذلتي ... بمد يدي أستمطر الجود والرحما
بأسمائك الحسنى التي بعض وصفها ... لعزتها يستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من ألست بربكم ... بمن كان مجهولاً فعلمته الأسما
أذقنا شراب الأنس يا من إذا سقى ... محباً شراباً لا يضام ولا يظما

[ومن جملة مناقبه ﷺ] قال الربيع رحمه الله : سمعت الشافعيّ ﷺ يقول : رأيت وأنا باليمن كأني جالس في قضاء الطواف إذ أقبل علي بن أبي طالب ﷺ فقمت إليه مسرعاً وسلمت عليه فصافحته فعانقني ونزع خاتمه من أصبعه فجعله في أصبعي ، فلما أصبحت قصصت ذلك على المعبر ، فقال لي : أبشر يا أبا عبد الله ؛ أما رؤيتك لعليّ بن أبي طالب في المسجد الحرام فهو النجاة من النار ، وأما مصافحتك إياه فهو الأمان يوم الحساب ، وأما جعله الخاتم في أصبعك فسيبلغ اسمك في الدنيا ما بلغ اسم علي بن أبي طالب ﷺ . ومن جملة دعائه ﷺ : اللهم إني أعوذ بنور قدسك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك من كل آفة وعاهة وطارق من الإنس والجن إلا طارقاً يطرق بخير . اللهم أنت عياذي فبك أعوذ وأنت ملاذي فبك ألوذ ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له أعناق الفراعنة ، أعوذ بجلالك وكرمك ، من خزيك وكشف سترك ، ونسيان ذكرك والانصراف عن شكرك أنا في كنفك ليلي ونهاري ونومي وقراري وظعني وأسفاري ، ذكرك شعاري وثناؤك دثاري ، لا إلـه إلا أنت تنزيهاً لاسمك ، وتكريماً لسبحات وجهك ، أجرني من خزيك ، ومن شر عبادك وقني سيئات مكرك ، واضرب عليّ سرادقات حفظك ، وأدخلني في حفظ عنايتك ، يا أرحم الراحمين .

[إخواني] ذهب الصالحون والعلماء والمجتهدون ولم تذهب آثارهم ، ومحيت رسومهم ولم تمح محاسنهم وأخبارهم . كان الإمام أحمد بن حنبل يعظم الإمام الشافعي ﷺ ويذكره كثيراً ويثني عليه ، وكانت له ابنة صالحة تقوم الليل وتصوم النهار ، وتحب أخبار الصالحين الأخيار ، وتودّ أن ترى الشافعي لتعظيم أبيها له فاتفق مبيت الإمام الشافعي عند أحمد رضي الله عنهما في وقت ففرحت البنت بذلك طمعاً أن ترى أفعاله وتسمع مقاله ، فلما كان الليل قام الإمام أحمد إلى وظيفة صلاته وذكره والإمام الشافعي ﷺ مستلق على ظهره والبنت ترقبه إلى الفجر فقالت لأبيها : رأيتك أنت تعظم الشافعي وما رأيت له في هذه الليلة لا صلاة ولا ذكراً ولا ورداً ، فبينما هم في الحديث إذ قام الشافعي فقال له أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ فقال : ما رأيت ليلة أطيب منها ولا أبرك ولا أربح . فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأني رتبت في هذه الليلة مائة

مسألة وأنا مستلق على ظهري كلها في منافع المسلمين ثم ودّعه ومضى ، فقال أحمد بن حنبل لابنته هذا الذي عمله الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأنا قائم . يا هذا كانت حركاتهم وسكناتهم لله ، وأفعالهم وأقوالهم لله ، وذكرهم وفكرهم في الله ، فقيامهم طاعة ، ونومهم صدقة وذكرهم تسبيح ، وسكوتهم فكر ، وعلمهم شفاء ورحمة للأمة ، لا جَرَمَ أن الله تعالى منحهم ومدحهم وجعلهم أئمة الإسلام وقدوة للأنام ، وقيل في المعنى :

قوم إلى الله ساروا بالعلوم على ... نجائب الفكر ركباناً ووحدانا
وفارقوا الأهل والأولاد واغتربوا ... وقد جفوا في طلاب العلم أوطانا
حتى انتهوا منتهى علم ومعرفة ... وذكرهم عطر الأكوان إعلانا
هم الأئمة لا زالت علومهم ... تبدي لناشقها روحاً وريحانا

[وقيل] : إن الإمام الشافعي ﷺ كان يقطع الليل بوظائف العلوم والأذكار ويجول في روض الحقائق والأسرار ، ويتنزه في حدائق لطائف الأفكار ، فإذا هبت عليه نسمات الأسحار اضطرب كونه وتغير لونه وهاج وجده ولحقه حال لا يدركه إلا أرباب الأحوال فسئل عن ذلك ، فقال : لو تنشقون في السحر ما أنشق لشغلتم عن دنياكم ولهدتم لأخراكم ، ولسان حاله يقول :

لكم مهجتي والروح والجسم والقلب ... وكلي لكم ملكٌ وإني بكم صبّ
وأنتم أحبائي على كل حالة ... فيا فرحي إن صح لي فيكم الحب
نأيتم فعيني دمعها متواصل ... عليكم وقلبي لا يفارقه الكرب
وكم أتمنى أن أسير إليكم ... فيمنعني حظي وما تنفع الكتب
وأشتاق وادي الرقمتين لأجلكم ... وقلبي إلى وادي قبا والنقا يصبو
متى أنظر الأعلام من نحو أرضكم ... وقد ظهرت تلك المعالم والكتب
ويطربني نوح الحمام على الربى ... وبان الحمى والأثل والمنزل الرحب
متى تجمع الأيام شملي برامة ... وأنظر من أهوى وقد زالت الحجب
وإني لمشتاق إلى قبر أحمد ... نبيّ إليه ترحل العجم والعرب
هو القرشّي الهاشمي الذي له ... مناقب فضل لا تبيد ولا تخبو
ولولاه كان الناس في الغي والعمى ... ولكن هداه قد حبانا به الرب
عليه سلام الله ما لاح بارق ... وما هتفت ورق وما هطلت سحب
وعمّ جميع الآل والصحب كلهم ... سلام ففيهم دائماً وجب الحب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

المجلس التاسع والثلاثون

في مناقب الإمام مالك ﷺ

الحمد لله الذي جعل العلم للعلماء سبباً ، وأغناهم به وإن عدموا مالاً ونسباً ، ولأجله فاز إدريس عليه السلام بالجنة ورفعه الله واجتبى ، ولطلبه قام الكليم ويوشع وانتصبا ، فسار إلى أن لقيا في سفرهما نصباً . ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ : [الكهف : ٦٠] وبسببه خلق الله آدم للبشر أباً ، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا له إلا إبليس أبى ، واستخرج من ذريته قبائل وشعباً ، وأجرى عليهم قلم القضاء وجعل لكل شيء سبباً ، وفق أهل العلم بعنايته فقاموا في خدمته رغباً ورهباً ، وفقههم وعرفهم أحكامه فأحرزوا به مزايا ورتباً ، وجعلهم في الدنيا كالأعلام وهداة للأنام فاكتسبوا به مجداً وأدباً ، وقذف في قلوبهم أنواراً يرون بها من المشكلات ما كان بعيداً محتجباً ، وكساهم به عزاً وجلالةً وسمتاً ومهابة فغدا كل منهم مكرماً ومجتبى ، وأذاقهم حلاوة أحكامه فما وجدوا في سفر طلبه تعباً ، فإذا وفدوا إليه في القيامة ألبسهم تيجان الكرامة وناداهم أهلاً وسهلاً ومرحباً :

تقدّم وقدم في الهوى النفس إن ترد　　رضاهم إذا أحببت منهم تقربا

ولا تخش من طعن القنا إن أردتهم　　ورمت تلاقيهم فلا تخف الظبا

هم العلماء المخلصون لربهم　　فخذ واقتبس منهم وكن متأدبا

فإن كنت أهلاً حزت كل فضيلة　　ونلت مقاماً في الأنام ومنصبا

وساعدك الرحمن منه بفضله　　وصار لك الدين الحنيفيّ مذهبا

أحمده حمداً أتخذه للنجاة سبباً ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعتز بها طرباً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المصطفى والرسول المجتبى ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته البررة النجبا ، صلاة وسلاماً دائمين ما هطلت السماء بوبلها وأبدت سحباً .

[روى الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في كتاب الأنساب] أن الإمام مالك بن أنس عامر الأصبحي ﷺ : كان إمام دار الهجرة وفيها ظهر الحق وانتصر ، وقام الدين واشتهر ، ومنها فتحت البلاد ، وتواصلت الأمداد ، وسمي عالم المدينة وانتشر علمه في الأمصار واشتهر في سائر الأقطار ، وضربت له أكباد الإبل وارتحل الناس إليه من كل فج فانتصب لتدريس

العلم وهو ابن سبع عشرة سنة ، فاحتاج أشياخه إليه وعاش قريباً من تسعين سنة ، ومكث يفتي الناس ويعلمهم نحواً من سبعين سنة وشهد له التابعين بالفقه والحديث ، وروى عنه من الأئمة المشهورين والعلماء المذكورين محمد بن شهاب الزهري إمام السنة ، وربيعة بن عبد الرحمن فقيه أهل المدينة ، و يحيى بن سعيد الأنصاري ، وموسى بن عقبة ، وهؤلاء كلهم أشياخه ورووا عنه ، وتأول فيه التابعون وتابعوهم أنه العالم الذي بشر به النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره وهو قوله ﷺ : « ينقطع العلم فلا يبقى عالم أعلم من عالم المدينة » ، وفي حديث آخر : « ليس على ظهر الدنيا أعلم منه ، فتضرب إليه أكباد الإبل » ، وفي حديث آخر : « يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » . قال ابن عُيَيْنَة : كانوا يرونه مالكاً . وقال عبد الرزاق : كنا نرى أن مالكاً لا يعرف بهذا الاسم غيره ولا ضربت أكباد الإبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه . قال أبو مصعب : كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام لطلب العلم . وقال يحيى بن شعبة : دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ومالك أسود الرأس واللحية والناس حوله سكوت لا يتكلم أحد منهم هيبة له ولا يفتي أحد في مسجد رسول الله ﷺ غيره فجلست بين يديه فسألته فحدثني فاستزدته فزادني ثم غمزني أصحابه فسكتُّ . وقال مالك ﷺ : ما جلست للفتيا والحديث حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني مستحق لذلك . وقال حماد بن زيد لرجل جاءه في مسألة اختلف الناس فيها : يا أخي إن أردت السلامة لدينك فسل عالم المدينة واصغ إلى قوله فإنه حجة : مالك بن أنس إمام الناس . وقال حماد بن سلمة : لو قيل لي أختر لأمة محمد ﷺ إماماً يأخذون عنه دينهم لرأيت مالكاً لذلك موضعاً وأهلاً ورأيت ذلك صلاحاً للأمة . وقال الليث بن سعد : علم مالك علم تقي ، علم مالك أمان لمن أخذ به من الأنام ، وكان عبد الرحمن بن القاسم يقول : إنما أقتدي في ديني برجلين مالك وسليمان بن القاسم في ورعه فللّه درّهم نصبوا أنفسهم لنفع الناس فعبقت بأنفاسهم الأكوان واجتهدوا في طلب العلم فوفقهم الرحمن . قال رسول الله ﷺ : « ما سلك عبد طريقاً إلى العلم إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، ولعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولو أن عابداً مات في الإسلام ما نقص من الإسلام إلا شخصه ، ولو أن عالماً مات لفقده أمة من الناس ، وما نقص عَالم من الأرض إلا ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها أحد ما أختلف الليل والنهار ، ألا وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، ولمداد جرت به أقلام العلماء أفضل عند الله من دم الشهداء وليودّن رجال قتلوا في سبيل الله أن يبعثهم الله يوم القيامة علماء لما يرون من فضل أهل العلم ، فمن أصاب علماً فقد أصاب خيري الدنيا والآخرة ومن آذاهم فقد بارز الله تعالى بالمحاربة » :

عليك بعلم الفقه في الدين إنه سيرفع فاستدركه قبل صعوده
فمن نال منه غاية بلغ المنى وصار مجداً في بروج صعوده

[وقال محمد بن رمح رحمه الله] : حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم فنمت في مسجد رسول الله ﷺ في الروضة بين القبر والمنبر فرأيت النبي ﷺ قد خرج من قبره وهو متوكىء على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقمت فسلمت عليه فرد عليّ السلام فقلت : يا رسول الله أين أنت ذاهب ؟ فقال : أقيم لمالك الصراط المستقيم فانتبهت فأتيت أنا وأبي فوجدت الناس مجتمعين على مالك وقد أخرج الموطأ ، وكان أوّل خروجه .

[وحدث محمد بن عبد الحكم] قال : سمعت محمد بن أبي السري العسقلاني يقول : رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت : يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك . فقال ﷺ : إني قد أوصيت إلى مالك بكنز يفرقه عليكم ثم مضى فتبعته فقلت له : يا رسول الله صلى الله عليك حدثني بعلم أحدّث به عنك فقال: إني أوصيت إلى مالك بكنز يفرقه عليكم ثم مضى فتبعته فقلت : يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك فقال ﷺ : يابْنَ السري إني قد أوصيت إلى ابن مالك بن أنس بكنز يفرقه عليكم ألا وهو الموطأ ، ألا وليس بعد كتاب الله ولا سنتي في إجماع المسلمين حديث أصح من الموطأ فاسمعه تنتفع به . وقال عتيق بن يعقوب الزبيري رحمه الله عليه : قدم هارون الرشيد المدينة وكان قد بلغه أن مالك بن أنس عنده الموطأ يقرؤه على الناس فوجه إليه البرمكي ، فقال : أقرئه السلام وقل له يحمل إلي الكتاب فيقرؤه عليّ ، فأتاه البرمكي فقال له : أقرئه السلام وقل له إن العلم يزار ولا يزور وإن العلم يؤتى ولا يأتي فأتاه البرمكي وأخبره . وكان عنده أبو يوسف القاضي فقال : يا أمير المؤمنين يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بن أنس في أمر فخالفك اعزم عليه فبينما هم كذلك إذ دخل مالك بن أنس فسلم وجلس ، فقال له الرشيد : يابْنَ أبي عامر أبعث إليك فتخالفني ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين أخبرني الزهري عن خارجة بن يزيد بن ثابت عن أبيه ، قال : « كنت أكتب الوحي بين يدي النبي ﷺ فكتبت : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، وكان ابن أم مكتوم عند النبي ﷺ . فقال يا رسول الله إني رجل ضرير ، وقد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما قد علمت ، فقال النبي ﷺ : لا أدري وقلمي رطب ما جف حتى ثقل فخذ النبي ﷺ عليّ ثم أغمي على النبي ﷺ ثم جلس رسول الله ﷺ فقال : يا زيد اكتب غير أولي الضرر » يا أمير المؤمنين حرف واحد تعب فيه جبريل والملائكة من مسيرة خمسة آلاف عام ألا ينبغي لي أن أعزه وأجله ؟ وأن الله تعالى رفعك وجعلك في هذا الموضع فلا تكن أنت أوّل من يضع عز العلم فيضع الله عزك . قال : فقام الرشيد فمشى مع مالك إلى منزله ليسمع منه

الموطأ وأجلسه معه على المنصة فلما أراد أن يقرأه على مالك قال لمالك : تقرؤه عليّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما قرأته على أحد منذ زمان . قال الرشيد : فيخرج الناس حتى أقرأه أنا عليك . فقال : إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة فأمر أن يقرأه معن بن عيسى القزاز عليه فلما بدأ بالقراءة قال مالك ﷺ لهارون الرشيد : يا أمير المؤمنين أدركت أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبون التواضع للعلم فنزل هارون الرشيد عن المنصة فجلس بين يديه . وسئل مالك ﷺ عن طالب العلم ؟ فقال : حسن جميل ، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه . وكان رحمه الله في تعظيم علم الدين مبالغاً حتى إذا أراد أن يحدّث توضأ وصلى ركعتين وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن في الجلوس على وقار وهيبة ثم حدّث فقيل له في ذلك . فقال : أحبّ أن أعظم حديث رسول الله ﷺ هكذا يكون تعظيم العلم ، فالعلماء إذا عظموا العلم عظمهم الله عند الناس وجعل لهم الهيبة والوقار في قلوب الملوك ومن دونهم ، فيا أيها الطالب للعلم تواضع له ، فمن تواضع له تواضع الله ، ومن تواضع لله رفعه الله ، فإن التراب لما ذل لأخمص القدمين صار طهوراً للوجه كما قال : ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ ﴾ : [المائدة : ٦] . يا هذا دم على حضور مجلس العلم فالطفل يحتاج كل ساعة إلى الرضاع . فإذا صار رجلاً صبر على الفطام . واعلم أن طريق الفضائل مشحونة بالبلاء ليرجع عنها مخنة العزم :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
أأغرسه عزاً وأجنيه ذلة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما

فيا أيها الشاب جوهر نفسك بدراسة العلم وحلها بحلية العمل ، فإن قبلت نصحي لم تصلح إلا لصدر سرير أو لذروة منبر :

تعلم فليس المرء يخلق عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

[قيل] : لما اشتهر مالك ﷺ بالعلم وانتشر صيته وذكره في البلاد حملت إليه الأموال لانتشار علمه فكان يفرقها على أصحابه ، وأصحابُه يفرقونها في وجوه الخير موافقة لفعله وما كان يدخرها وكان يقول : ليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب عنه . وقال أيضاً : ما كان رجل صادقاً في حديثه لا يكذب إلا متعه الله بعقله ولم تصبه عند الهرم آفة ولا خرف . وقال عمر بن أبي سلمة رحمه الله : ما قرأت كتاب الجامع من موطأ مالك إلا أتاني آت في المنام فقال لي : هذا كلام رسول الله ﷺ حقاً . وقيل : إن مالكاً ﷺ لما أراد أن يؤلف كتابه بقي

متفكراً في أي شيء يسمي به تأليفه ، قال : فنمت فرأيت النبي ﷺ فقال : وطيء للناس هذا العلم فسمَّى كتابه الموطأ . وقال عبد الملك بن المبارك : كنا عند مالك ، وهو يحدثنا حديث رسول الله ﷺ فلدغته عقرب ست عشر مرة وهو يتغير لونه ويصفر ، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما تفرق الناس عنه قلت له : يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً . قال : نعم صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ . وقال مصعب بن عبد الله رحمه الله : كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه فقيل له في ذلك ؟ فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم ما ترون . وكان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو وهو مستعجل ويقول : أحبّ أن أعظم حديث رسول الله ﷺ . وقال الدراوردي رحمه الله : رأيت في المنام أني دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت النبي ﷺ يعظ الناس إذ دخل عليه مالك فلما رآه النبي ﷺ قال : إليّ إليّ فأقبل حتى دنا منه فنزع رسول الله ﷺ خاتمه من أصبعه فوضعه في خنصر مالك ﷺ فأوّلته العلم قد وضعه النبي ﷺ إليه ، وكانت العلماء تقتدي بعلمه ، والأمراء تستضيء برأيه ، والعامة منقادة إلى قوله فكان يأمر فيمتثل أمره بغير سلطان ، ويقول فلا يسأل على دليل قوله ، ويأتي بالجواب فلا يجسر أحد على مراجعته ، ولذلك قال فيه بعض محبيه :

يأتي الجواب فلا يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
لبس الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

هذه والله صفات العلماء الذين تبكي على فقدهم الأرض والسماء وترحم بهم العباد ، وتأمن بهم البلاد ؛ فهم العلماء الزهاد أهل الإخلاص والسداد حنت إليهم القلوب ، وانقادت إليهم النفوس ، وذلت لهم الصعاب وخضعت لهم الرؤوس ، فهم في الأقطار كالأقمار والشموس ، لا جرم صار ذكرهم مدوّناً في الطروس . وأما من تصنع بالرياء وعمل لأجل الدنيا وغرته أمانيه ، واشتهى أن يمدح بما ليس فيه فذاك من أهل الأذهان المعكوسة ، والأفكار المنكوسة إذا سمعوا ما لا تدركه فهومهم ، وتقصر عنه علومهم فسدت أصولهم والتبس عليهم محصولهم فعملوا بالمعاصي في صور الطاعات ، وجاؤوا بالسيئات في صفات الحسنات ، فخانوا في العمل ، وخابوا في الأمل ، وليس العجب من عامي بجهله قد اقترف ، وبذنبه قد اعترف ، فهو على هدف : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ : [الأنفال : ٣٨] . وإنما العجب ممن يدعي العلوم ، ولطلب الدنيا يروم ، وهو عند الله ملوم ، وعند الناس مذموم ، ومن الأجر محروم ، فهؤلاء اتخذوا دين الله هزواً ولعباً ، وجعلوا المواعظ فرحة وطرباً يسمعون ولا يلقون للقول سمعاً ، ويوعظون فلا يؤثر الوعظ في قلوبهم

صدعاً ، ولا في العيون دمعاً ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ : [الكهف : ١٠٤] . إن سمعوا بدلوا وحرفوا ، وإن وزنوا أو كالوا بخسوا وطففوا ، هذا والله حرام شرعاً ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ إن تواجدوا فبغير عزم ، وإن جادلوا فبغير علم ، وإن سألوا فبغير فهم لا جرم أنهم بسيوف الجهل صرعى ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ كان مالك ﷺ كثير الصلاة والأذكار ، والأوراد في الأسحار ، والدروس في العلوم والتكرار ، فجاء مدحه على لسان النبي المختار ، ما مدح مالك بذلك ، حتى سلك إليه أصعب المسالك ، واقتحم في طلبه جميع المهالك ، وأنت أيها الغافل في لجة الجهل بارك ، ولأوامر الربّ تارك :

واحرّ قلبي من العلوم ... من جاهل في الورى ظلوم
لم يدر فيما ادعاه فرقاً ... بين صحيح ولا سقيم
بذلت جهدي وحسن قصدي ... والصفو من قلبي السليم
غواص فكري ببحر سري ... يجتلب الدر للفهيم
واخيبة السعي إن لم يكن لي ... قصد سوى وجهك الكريم
وإن تكن هجرتي لشيء ... سواك يا خيبة القدوم
لله من خلقه خواص ... لهم خصوص من العموم
قد خصهم منه إذ حباهم ... بالفضل من جوده العميم
علومهم بالفهوم تقرا ... لا بسطور ولا رقوم

[وعن الشافعي ﷺ] قال : رأيت على باب مالك دواب من أفراس خراسان جاءته هدية ، وقيل من مصر ، ما رأيت أحسن منها فقلت له : ما أحسن هذه ؟ فقال : هي هدية مني إليك فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها ؟ فقال : إني لأستحي من الله أن أطأ تربة وطأ فيها نبي الله ﷺ بحافر دابة . وكان يحيى بن سعيد رحمه الله يقول : مالك رحمة لهذه الأمة . وقال أبو قدامة : مالك أحفظ أهل زمانه ، وقال أبو عبد الله المنتاب : حفظ مالك مائة ألف حديث . وقال الليث بن سعد : والله ما على وجه الأرض أحبّ إليّ من مالك . وقال : اللهم زد من عمري في عمره . وكان الأوزاعي معظماً لمالك ، وإذا ذكره يقول : قال عالمِ العلماء ، قال عالم المدينة . قال مفتي الحرمين . وقال المثنى بن سعيد القصير : سمعت مالكاً يقول : ما بتّ ليلة إلا رأيت النبي ﷺ فيها .

[فأما ذكر وفاته] فقال ابن القاسم رحمة الله عليه : كنا عند مالك في مرضه الذي مات فيه فدخل ابن الدراوردي ، فقال : يا أبا عبد الله رأيت البارحة رؤيا أتسمعها مني ؟ فقال : قل ،

قال : رأيت رجلاً ينزل من السماء عليه ثياب بيض وبيده سجل ينشره ما بين السماء والأرض ثلاث مرات يقول : هذه براءة لمالك من النار فبينا أنا أحدثه إذ دخل عليه رسول الأمير ، فقال : يا أبا عبد الله إن مؤذن مسجد المدينة رأى البارحة رؤيا فسمعتها منه فقصّ عليه مثل ذلك ، فقال مالك : الله المستعان ما شاء الله كان ، وعن أبي زكريا قال : سمعت الشافعي ﷺ يقول : قالت لي عمتي ونحن بمكة رأيت في هذه الليلة رؤيا قلت : وما هي ؟ قالت : رأيت فلاناً يقول : مات الليلة أعلم أهل الأرض فحسبنا ذلك اليوم الذي مات فيه مالك .

[وقال يونس بت عبد الأعلى] : سمعت بشر بن بكر يقول : رأيت الأوزاعي في المنام مع جماعة من العلماء في الجنة . فقلت له أين مالك ؟ فقيل : رفع . قلت : بماذا ؟ قال : بصدقه ورأى بعض الصالحين مالكاً بعد موته في المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قال : بماذا ؟ قال : بكلمة سمعتها من عثمان أنه كان إذا رأى ميتاً يقول : الله لا إلَـه إلا هو الحيّ القيوم ، سبحان الحيّ الذي لا يموت ، فأدمت قولها فأدخلني الله الجنة .

[وقال عبد العزيز] : توفي مالك ﷺ لعشرة أيام خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ، ومرض يوم الأحد ، ومات يوم الأحد ، وعاش تسعين سنة ، وأوصى أن يكفن في بعض ثيابه ، ويصلى عليه بموضع الجنائز فصلى عليه أكثر الناس ، فمن ذلك ابن عياش وهاشم وابن كنانة ، وشعبة بن داوود وكاتبه حبيب وابنه ، ونزل جماعة في قبره وأنشد أبو عمار الأرجواني في مالك ، وفي موطئه :

لقد بان للناس الهدى غير أنهم	غدوا بجلابيب الهوى قد تجلببوا
فلو أحدثت في بلدة الصين بدعة	رأيت إليها السفن في البحر تركب
فمن رام أن ينجو بمهجة نفسه	فلا يعد ما تحوي من العلم يشرب
أنترك داراً كان بين بيوتها	يروح ويغدو جبرئيل المقرب
وكان رسول الله فيها وبعده	بسنته أصحابه قد تأدبوا
وفرق سبل العلم في تابعيهم	فكل امرىء منهم له فيه مذهب
فخصه بالسبك للناس مالك	ومنه صحيح في المجلس وأجرب
فأبرى بتصحيح الرواية داءه	وتصحيحها عنه دواء مجرب
ولم يؤت هذا العلم من غير أهله	وفي قلة التمييز بالعلم معطب
أيا طالباً العلم إن كنت طالباً	حقيقة علم الدين محضاً وترغب
فبادر موطأ مالك قبل فوته	فما بعده إن فات للعلم مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده	فإن الموطا الشمس والعلم كوكب

هــو الحــق عنــد الله بعــد كتابــه … وفيـه لسـان الصـدق بـالحق معـرب
هو الأصل طـاب الفـرع منه لطيبـه … ولم لا يطيب الفـرع والأصـل طيـب
لقــد أعربــت آثــاره بثباتهــا … فمــا إنْ لهــا في العــالمين مكــذب
وممــا بــه أهــل الحجــاز تفــاخروا … بــأن الموطــأ في العــراق محبــب
وكــل كتــاب بــالعراق مؤلــف … تــراه بآثــار الموطــأ يعصــب
ومـن لم يكـن هـذا الموطأ في بيتـه … فـذاك مـن التوفيـق بيـت مخيـب
ولـو بالموطأ يعمـل النـاس كلـهم … لأمسوا وما منهم على الأرض مذنب
جــزى الله عنــا في الموطــأ مالكــاً … بأفضل ما يجـزي اللبيـب المهـذب
فقد جاد بالإحسـان في كـل مـا روى … كذا فعل من يخشـى الإلـه ويرغـب
لقـد رفـع الـرحمن بـالعلم قـدره … غلامـاً وكهـلاً ثم إذا هـو أشـيب
لقد فـاق أهـل العلـم شـرقاً ومغربـاً … فأضحت بـه الأمثـال في النـاس تضـرب
ومــا فــاقهم إلا بتقــوى وخشــية … وإذ كان يرضـى في الإلــه ويغضـب
فلا زال يسـقي قـبره كـل عـارض … من العفو إذا يهمـي عليـه ويكسـب
ويســقي قبــوراً جاورتــه كسـقيه … فيصـبح فيهـا نبتـها وهـو معشـب
ومــا فيـه بخـل إذ سـقاهم بسـقيه … ولكـن حـق العلـم أولى وأوجـب

ولما بلغ أهل العراق موت مالك ارتجت له العراق وعظمت مصيبتهم بموته ، وقال رجل لسفيان بن عيينة : يا أبا محمد رجل أراد أن يسأل عن مسألة رجلاً من أهل العلم يكون له حجة بينه وبين الله تعالى . فقال : مالك ممن يجعله الرجل حجة بينه وبين الله تعالى ، فقيل له : قد مضى مالك ؟ فقال : هيهات ذهب الناس .

[وأما زهده في الدنيا] فقد كان زاهداً فيها راغباً في الآخرة مجتهداً في العلم ونصيحته للمؤمنين . وسأله المهدي أمير المؤمنين ، وقال له : هل لك دار ؟ فقال : لا ولكن أحدّثك : سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره . وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال له : اشتر لك بها داراً فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الرحيل إلى بغداد ، قال له : ينبغي لك أن تخرج معنا فإني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان ﷺ الناس على القرآن فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس إلى ذلك سبيل ، لأن أصحاب النبيّ ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « اختلاف أمتي رحمة » وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله ﷺ : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » ، وقال : « المدينة تنفي خبثها كما

ينفي الكير خبث الحديد » وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها ، يعني أنك إنما كلفتني مفارقة المدينة بما اصطنعته لدي من أخذ هذه الدنانير فالآن خذها فإني لا أؤثر الدنيا وما فيها على مدينة النبي ﷺ .

[وقال بعض الصالحين] : رأيت في النوم أني دخلت الجنة فرأيت في وسطها عموداً من نور ورأيت أربعة يجرّونه بأربعة سلاسل من جهاته الأربع وهو ثابت لا يتغير من مكانه فقلت : يا الله العجب لو جرّه هؤلاء من جهة واحدة لكان أسهل عليهم فسألت بعض الملائكة عن ذلك ، فقال لي : هذا العمود هو دين الإسلام وهذه الأربع سلاسل المذاهب الأربعة وهؤلاء الذين يجرونه هم أئمة الإسلام الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ومالك رضي الله عنهم أجمعين فاتفاقهم فرض ، وقولهم حق واختلافهم رحمة للمسلمين :

هم الفقهاء والعلماء حقاً　　وعنهم في البرايا فاروا ذكرا　　وهم أهل التقوى والدين فاعلم
وعنهم فاستمع خبراً وخبرا　　فهم أهل الهداية حيث كانوا　　ومنهم تكتسي الأكوان عطرا
بهم تحمى البلاد ومن عليها　　من أسباب الردى براً وبحرا　　فكل منهمو في الخلق أضحى
لقلب الحائر المسكين جبرا　　إذا وافاهم المضني فيشفى　　وإن مرّ السقيم بهم فيبرا
وإن وافى الفقير إلى حماهم　　تراه بنيل فضل العلم يثرى　　وإن نامت عيون الخلق قاموا
يراعون الدجى سهراً وفكرا　　فهم في الليل في استغراق فكر　　إذا اضطجعوا وما يخشون نكرا
وجدوا في تصانيف إليها　　تشد رحال أهل الأرض طرا　　فذكرهمو يعطر كل أرض
ونشرهمو بطيب المسك أزرى　　فإن وجدوا فللدنيا ابتهاج　　وإن فقدوا أعيد العيش مرا
وكلهمو بدين الله حقاً　　وسنة أحمد المختار أدرى　　أجلّ العالمين رسول صدق
به الرحمن جنح الليل أسرى　　هو الهادي البشير ومن هدانا　　لدين قد سما شرفا وقدرا

شفاعته لأرباب الخطايا　　رأوها عند رب العرش ذخرا
عليه من المهيمن كل وقت　　صلاة تملأ الأقطار نشرا

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

المجلس الأربعون

في مناقب الإمام أحمد بن حنبل ﷺ

الحمد لله الذي أوضح الطريق إلى معرفته لكل سالك ، توحد بالكبرياء والعظمة والممالك ، إلـه لا وزير له ولا صاحبة ولا مشارك ، صمد ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا فان ولا

هالك ، يعلم ما كان وما يكون وما يخطر ببالك ، بصير يبصر أغذية الجنين من البطون في ظلمة الأحشاء في سواد الليل الحالك ، سميع يسمع دعاء كل داع وما تتحرك به شفتاك من ألفاظك وأقوالك ، مريد لما كان من خير وشر وما يكون بعد ذلك ، استوى على العرش كما قال لا كما يخطر ببالك ، لا بنزول ولا بحركة ولا انتقال ومهما خطر في النفس كان الله بخلاف ذلك ، فهذا اعتقاد البشر وهو الذي اتفق عليه أبو حنيفة وأحمد و الشافعي ومالك ، فقم أيها العاصي ، وتذلل لمالك النواصي ، وأقبل بافتقارك واشك حالك إليه فهو أعلم بحالك ، أحمده على السراء والضراء وأشكره في الشدّة والرخاء ، وأشهد أن لا إلّـه إلا الله وحده لا شريك له ذو العزة والبقاء ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أبي بكر وعمر وعثمان وعلى السادة الأتقياء .

[قال إدريس الحداد] : كان الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ﷺ صاحب رواية في الحديث ليس في زمانه مثله :

وأحمد المعروف في كل مشهد ... وقد رفع الله العظيم له قدرا
وآتاه علماً في الورى ومهابة ... وجاد عليه بالكرامة في الأخرى

وكانت له حالة الصالحين وشعار المؤمنين . قال : وكان له على ولده عبد الله رغيف خبز وشيء من الأدم ، فلما ولي ولده القضاء امتنع عن قبول الرغيف ، وقال : والله لا آكل له طعاماً أبداً . وكان كما قال إلى أن مات ، وقال إدريس الحداد : ما رأيت أحمد قط إلا مصلياً أو يقرأ في المصحف أو كتاب ، ما رأيته في شيء من أمور الدنيا ، قال : وكان إذا اشتد به الأمر بقي اليوم واليومين والثلاث لا يأكل شيئاً فإذا رأى أهله شرب الماء يوهمهم أنه شعبان .

[وقال المروزي] : لما حبس أحمد بن حنبل في سجن الواثق على أن يقول إن القرآن مخلوق جاءه السجان يوماً ، فقال له : يا أبا عبد الله الحديث الذي يروى في الظلمة وأعوانهم صحيح ؟ قال : صحيح ، قال السجان : فإني من أعوان الظلمة . قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أعوان الظلمة الذي يأخذ شعرك ويغسل ثوبك ويصلح طعامك وأما أنت فمن الظلمة . قال إدريس الحداد : لما زالت المحنة وصرف أحمد إلى بيته حمل إليه مال كثير جزيل وهو محتاج إلى أيسره فردّ جميع ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً فجعل عمه إسحاق يسحب ما رده في ذلك اليوم فكان خمسين ألف دينار ، فقال له أحمد : يا عم أراك مشغولاً بحساب ما لا يفيدك . فقال له : قد رددت اليوم كذا وكذا وأنت محتاج إلى حبة . قال : يا عم لو طلبناه لم يأتنا إنما أتانا لما تركناه . وقال علي بن سعيد الرازي : سرنا مع أحمد بن حنبل يوماً إلى باب المتوكل ، فلما أدخلوه من باب الخاصة . قال لنا أحمد : انصرفوا عافاكم الله فما مرض منا أحد بعد ذلك

اليوم ببركة دعائه . وقال هلال بن العلاء : أربعة لهم على الإسلام منة أحمد بن حنبل حيث ثبت على المحنة ولم يقل بخلق القرآن ، وأبو عبد الله الشافعي حيث بنى الفقه على الكتاب والسنة ، وأبو عبد الله القاسم بن سلام حيث فسر حديث النبي ﷺ ، وأبو زكريا حيث بين الصحيح من السقيم . وقال محمد بن موسى : حمل إلى الحسين بن عبد العزيز ميراثه من مصر وكان مبلغاً عظيماً فحمل منه إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس في كل كيس ألف دينار . وقال له : يا أبا عبد الله استعن به على عيالك ، فقال : لا حاجة لي بها أنا في كفاية من الله تعالى وردها عليه ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : كان أبي يقرأ كل ليلة سبع القرآن ويختم في كل سبعة أيام ختمة ثم يقوم إلى الصباح وكان يصلي في كل يوم ثلثمائة ركعة . فلما ضرب بالسياط أضعفه ذلك فكان يصلي في كل يوم مائة وخمسين ركعة . وكان له في الليل ثلاث هدآت وثلاث صيحات . قال : وكان ذات يوم جالساً عند الشافعي فمرّ بهما شيبان الراعي عليه مدرعة صوف ، فقال أحمد للشافعي : يا أبا عبد الله ألا أنبه هذا الجاهل على جهله ؟ فقال له الشافعي : لا تفعل دعه في شأنه . فقال أحمد : لا بدّ ، ثم إنه استحضر شيبان وقال له : يا شيبان ما تقول في رجل نسي صلاة من يوم لا يدري أيّ صلاة هي ما الواجب عليه أن يفعل ؟ فقال شيبان : يا أحمد هذا رجل غفل قلبه عن الله فهو ساه غافل : الواجب عليه أن يؤدب حتى لا يرجع إلى مثلها أبداً ، ثم بعد ذلك يقضي صلاة اليوم أجمع ثم التفت إليهما وقال : هل تقدران أن تردّا عليّ قال : فصاح أحمد وقال : لا والله بل هذا هو الحق ثم تركهما وانصرف . وقال إدريس : كان أحمد لا يلبس ثوباً مكفوفاً بل كان يشلله ويقور وسطه ويتركه في رأسه ويقول هذا لمن يموت كثير . قال : وكان أكثر مؤنته من نبات الأرض ويقول : هذا والله هو الحلال الذي ليس له حساب ولا تبعة . قال : وكان يوماً جالساً وعنده جماعة نساء من أصحابه فجاءت إليه امرأة . وقالت له : يا سيدي إننا جماعة نساء نقعد على سطوحنا بقطن الغزل فيمرّ بنا مشاعل أهل الشرطة أفيجوز لنا أن نغزل في ضوئها وشعاعها ، فقال لها أحمد : من أنت ؟ فقالت له : أنا أخت بشر الحافي ، فقال لها أحمد : من بيتكم خرج الورع لا تغزلي في ضوئها . وقال إدريس الحداد : لما دخل أحمد بن حنبل مكة للحج عسر عليه بعض حوائجه فأخذ سطلاً كان معه فدفعه إلى بعض البقالين رهناً على شيء يأخذه . فلما فتح الله عليه بفكاكه حضر عند ذلك البقال فدفع له ما كان له وطلب السطل . فقام البقال وأحضر سطلين على هيئة واحدة . وقال : قد اشتبه عليّ سطلك فخذ أيهما شئت . فقال أحمد : وأنا أشكل عليّ أيهما لي والله لا أخذته ، فقال البقال : وأنا لا أتركه أبداً فاتفقا على بيعه والتصدق به . قال : وكان إذا شهد جنازة لم يفطر ذلك اليوم ولم ينم تلك الليلة وكان إذا رأى قبراً يصرخ كما تصرخ الثكلى قال :

وخرج يوماً من داره فوقع نظره على امرأة مكشوفة الوجه ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحلف أن لا يخرج إلا مغطى الوجه لئلا يبصر أحداً . وكان إذا وقعت الحادثة أو المسألة لا يكتبها حتى يوردها على الفقهاء فإن وافق رأيهم رأيه كتبها وإلا تركها واستغفر الله مما خطر بباله قال : وكان من زهده وورعه إذا جف القلم بيده مسحه في رأسه ولم يمسحه في ثوبه فقيل له في ذلك فقال : أن هذا مداد أثر العلم فلا أضعه في خرقة لعلها ترمى في نجاسة . وقال محمد بن موسى : ولد أحمد بن حنبل في سنة أربع وستين ومائة ومات وهو ابن سبع وسبعين سنة ودفن يوم الجمعة بعد الصلاة وحشر الناس لجنازته وصلى عليه محمد بن عبد الله ابن طاهر وحسبوا من صلى عليه ذلك اليوم فكانوا ثمانمائة ألف رجل وستين ألف امرأة ومسح الموضع الذي صلى عليه فيه فكان أربعاً وستين جريباً مكسرة وجلس المتوكل ، وقيل الواثق وأمر القواد والخاصة أن يعزّوه قال : وكان أحمد بن حنبل أزهد أهل زمانه وأورعهم وأفقههم وأتقاهم وأعرفهم بحديث النبي ﷺ وأخبر بصحيحها من سقيمها وأعلم برجال الحديث والصادق منهم والمنتحل وقد روى ألف ألف حديث منها بالأسانيد والمتون مائة ألف وخمسون ألفاً . وقد روي أنه لما ضرب وجرى عليه ما جرى وثبت إلى المحنة حببه ذلك إلى أهل الشرق والغرب ، ولم يزل أحمد بن حنبل بعد ذلك في رفعة وعلوّ وزيادة في أعين الناس حتى إذا رأوه كأنهم رأوا أسداً . قال : ودخل عليه مجاهد في مرضه الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فبكى وقال له : يا أبا عبد الله أوصني فأشار إلى لسانه وقال : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ : [الصافات : ٦١] . ثم مات رحمة الله عليه :

وللحافظ المعروف بالحفظ والتقى   فخار عليه فبالله فخر ابن حنبل
هو العلم المضروب ظلماً ولم يحل   عن الحق يوماً من عذاب به بلي
رأى الله رب العرش تسعين مرة   وتسع مرار هكذا صح فانقل
وقال لئن أكملتها مائة لأسألن   وقد كان الذي فيه يأتلي
ولم يدخر قوتاً سوى قوت يومه   وكان له في الله خير توكل
لقد فك منه عند ضرب لباسه   ولم تبد عورات لما منه قد تلي
فهذا الذي قلناه من بعد ما جرى   تلخص قولاً من كلام مطول
فهم علماء المسلمين وذكرهم   إلى آخر الدنيا بغير تخزل
سقى الله رب العرش منهم مضاجعاً   كما قمعوا عن دينه كل مبطل
وأدوا عن الله المهيمن دينه   بأحسن أسلوب وأحلى تسلسل
إلٓهي كما أرشدتنا لطريقهم   علينا إلٓه الحق عفوك أنزل

ومِـنْ فِـتَنِ الـدنيا أجرنـا تكرمـاً　ومـن كـل هـول في المعـاد مهـول
وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

المجلس الحادي والأربعون

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي رفع السماء بقدرته ، وأدار دوائر الأفلاك وبسط الأرض بمشيئته ، ومهدها للسلاك ، وسخر الفلك ومهد الملك ، ودبر الأملاك ، الحيّ القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم الذي خلق الموت والحياة ، وقدر النجاة والهلاك القديم الخلاق ، الذي له الخلق والأمر ، وبيده الإطلاق والإمساك ، الذي أنشأ اللوح والقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، ووهب له العقل الكامل والفهم والإدراك ، منقذ الغرقى من لجج البحار بعد معاينة الأخطار والهلاك ، ومنجي الهلكى بعد انقطاع الحيل و الاستدراك ، ومطلق الأسرى من القيود الشديدة الوثاق ، ومسعفهم بالإطلاق والفكاك ، الغني عن العباد يأمرهم بالطاعة والإيمان ، ولا يرضى لهم الكفر والإشراك ، الذي لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية ، وإنما يأمرك أيها العاصي بطاعته وعن معصيته ينهاك ، ليريك بعين يقينك ويبين لك أمر دينك ودنياك ، فراقبه واتقه واحذر من معاصيه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وحافظ على الصلوات التي بها أمرك وأوصاك ، وقف بين يديه في الأسحار بالذلة والانكسار وقد جاد عليك بنعمه الغزار وبلغك مقصودك ومناك ، أما أحسن منشاك ومرباك ، أما أعزك وأكرم مثواك ، أما ألهمك رشدك وتقواك ، أما وهب لك العقل وإلى الإيمان هداك ، أما خوّلك في نعمه وأعطاك ، أما أمرك بطاعته ووصاك ، أما حذرك عن معصيته ونهاك ، أما دعاك إلى بابه وناداك ، أما أيقظك في السحر بلطيف خطابه وناجاك ، أما وعدك بالفوز والجزاء في أخراك ، أما سألته ودعوته فأجاب سؤالك ودعاك ، أما استغثت به في الشدائد فأغاثك منها ونجاك ، أما عصيته فسترك بذيل حلمه وغطاك ، أما أغضبته مراراً وأرضاك ، أفيستحق منك أن تبارزه بذنوبك وخطاياك ، ويمدك برزقه وتمد إلى معصيته خطاك ، وتستخفي من الناس ولا تستخفي من الله وقد شاهدك ورآك ، إلى متى أنت غريق في بحر غيك وهواك ، إن أردت النجاة فاركب سفينة الندم واقلع بريح التوبة إلى مولاك ، وألق نفسك إلى ساحل الإخلاص وقد جاد عليك بالإخلاص ونجاك .

[كان وكان]

يا من يعاهد وينكث   خف من إلّهك واستحي   واذكر هجوم المنايا
فما المراد سواك   إلى متى أنت غافل   تنسى مصيرك في الثرى
وأنت في اللحد وحدك   وقد جفاك أخاك   إن كنت عاصي مثلي
افق وقم وابكي معي   على الذنوب والخطايا   عسى تنال مناك
عند استماع الملاهي   تحضر بنية صادقة   وفي صلاة توسوس
قل لي فمن أغواك   احذر مصايد ذنوبك   فكم رمت لك من شرك
تروم صيدك وكيدك   وشقوتك وأذاك   ويحك تنبه لنفسك
واعمل لما تلقى غداً   إذا أتيت القيامة   وقامت الأملاك
وقمت تقرأ كتابك   خجلان من قبح الزلل   وما كفى ذاك حتى
تشهد عليك أعضاك   وإن أتيت جهنم   استقبلك زبانية
وقال مالك مالك   غفلت عن مولاك   تذكر غرور الدنيا
وتذكر الذنب الردى   لم لا سبقت بتوبة   هذا العذاب يداك
كم كنت تجني وتأمن   ولم تخف ربّ السما   هذا الذي قد لقيته
بما جنته يداك   كم قد سمعت المواعظ   تتلى وما عندك خبر
ولا جرت لك دمعة   ويحك فما أقساك   إن كنت أضمرت توبة
فهذه أوقاتها   فانهض بعزم صادق   وتب إلى مولاك
وقل إلّهي إني   أخطأت فاغفر زلتي   فمن يجير العاصي
من الذنوب سواك   وليس لي من وسيلة   إليك إلا المصطفى
ومن إليك رفعته   دون الورى ورآك   صلى عليه وسلم
رب السموات العلى   وآله والصحابه   السادة النساك

سبحان من نظر بعين اصطفائه إلى خاصة عبيده ، وجعل قلوبهم بيوت توحيده ، وسرائرهم مقراً تفريده ، وصدورهم مصادر ذكره وتمجيده ، فكلما طلع لهم من أفق التوفيق طالع ، أو لمع لهم من بروق التحقيق لامع ، انشرحت القلوب لذكر المحبوب ، فطاب لها المشروب وكشف لها المحجوب . قال أبو زيد رحمه الله : ما زلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي إلى أن سقتها إليه وهي تضحك فمن عرف الله ذلّ له كل شيء . وقال الأصمعي رحمه الله : خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام من طريق الشام فبينا نحن سائرون ، إذ خرج علينا أسد عظيم الخلقة هائل المنظر فقطع على الركب الطريق . فقلت لرجل إلى جانبي : أما في هذا الركب رجل يأخذ سيفاً ويردّ عنا هذا الأسد ؟ فقال : أما رجل فلا أعرف ، لكنني أعرف امرأة ترده عنا بغير سيف ، فقلت : وأين هي ؟ فقام وقمت معه إلى هودج قريب منا ، فنادى : يا بنية

انزلي وردي عنا هذا الأسد ، فقالت : يا أبت أيطيق قلبك أن ينظر إليّ الأسد وهو ذكر وأنا أنثى ؟ ولكن يا أبت قل للأسد : ابنتي فاطمة تقرئك السلام وتقسم عليك بالذي لا تأخذه سنة ولا نوم إلا ما عدلت عن طريق القوم . قال الأصمعي : فوالله ما استتم كلامها حتى رأيت الأسد ذاهباً أمامها ، هذه والله دلائل الصالحين ، وهذه أمارات العارفين :

فاز قوم رقوا سماء المعالي ... باجتهاد لهم وحسن الفعال ... فبهم تدفع الخطوب عيانا

وبهم قد بدت شموس الجمال ... كل من لم تكن دعاويه حقاً ... فضحته شواهد الأحوال

ويك يا قاصر العزيمة هذا ... مورد الأسد مرتع الأشبال ... ما وصال الحبيب سهل ولكن

إن ترد فابذل العزيز الغالي ... يا ضعيف السلوك هذا طريق ... فيه دون الوصال حد النصال

فتجرد عن الدنا وتفرد ... ذاك زاد من خالص الأعمال ... ثم لابد من دليل بصير

ومعين على صروف الليالي ... فإذا خفت من إلهك خافت ... منك أسد الشرى مع الأبطال

[قال سعيد بن إسحاق البصري رحمه الله] : دخلت في السحر إلى بئر زمزم ، فإذا شيخ قد أتى البئر فملأ الدلو وشرب فأخذت فضلته وشربتها فإذا هو سويق وسكر لم أذق قط أطيب منه ، ثم التفت فإذا الشيخ قد ذهب ثم عدت من الغد في السحر إلى بئر زمزم فإذا الشيخ قد دخل وملأ الدلو وشرب فشربت فضلته فإذا الماء مضروب بالعسل والطيب لم أذق أطيب منه ، ثم التفتّ فإذا الشيخ قد ذهب ، ثم عدت من الغد في السحر إلى بئر زمزم فإذا الشيخ قد دخل فملأ الدلو وشرب فأخذت فضلته فشربتها فإذا لبن مضروب بالسكر لم أذق أطيب منه ، فقلت له : يا شيخ بحرمة هذا البيت عليك من أنت ؟ قال : أوَ تكتم ذلك حتى أموت ؟ قلت : نعم ، قال : أنا سفيان الثوري :

بذكرك يا رب الورى نتنعم ... فقد خاب قوم عن سبيلك قد عموا

ألست الذي قربت قوماً فوافقوا ... ووفقتهم حتى أنابوا وأسلموا

وقلت استقيموا منة وتكرّما ... فأنت الذي قومتهم فتقوّموا

لهم في الدجى أنس بذكرك دائماً ... فهم في الدياجي ساجدون وقوّم

نظرت إليهم نظرة بتعطف ... فعاشوا بها والخلق سكرى ونوّم

لك الحمد عاملنا بما أنت أهله ... وسامح وسلمنا فأنت المسلم

[قال أبو يوسف الغلسوني رحمه الله] : كنت يوماً جالساً بمسجد الشام فدخل علي إبراهيم ابن أدهم ، فقال لي : يا غسلوني رأيت اليوم عجباً . قلت : ما هو يا أبا إسحاق ؟ قال : وقفت على قبر من هذه المقابر ، فانشق لي عن شيخ خضيب ، فقال لي : يا إبراهيم سل فإن الله عز وجل قد أحياني من أجلك . قلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : أتيت الله عز وجل

بعمل قبيح ، فقال لي : قد غفرت لك بثلاث : لقيتني وأنت تحبّ من أحبّ ، ولقيتني وليس في صدرك مثقال ذرّة من شراب حرام ، ولقيتني وأنت خضيب وأنا أستحي من شيبة الخضيب أن أعذبها بالنار . قال : ثم التأم القبر على الشيخ . قال الغلسوني : قلت : يا أبا إسحاق ألا توافقني في زيارة هذا القبر . فقال : ويحك يا غلسوني عامل الله يرك العجائب ، واشتغل بحبه عن جميع الأجانب :

لو يعلم الناس عمن اشتغلوا — لما تهنوا بما به اشتغلوا — بالأهل جادوا وكل ما ملكوا
والمال في حبه وما بخلوا — عاشوا وفازوا هم الملوك وإن — ذلوا وإن أملقوا وإن خملوا
لله قوم بالروح قد سمحوا — واستصغروا قدرها وما جهلوا — ذاقوا مدام الهيام فيه ولم
يحل لهم منزل ولا طلل — وما تفانوا عن الوجود سدى — إذ هم على قصدهم لقد حصلوا

[قال الليث بن سعد رحمه الله] : حججت في بعض السنين . فلما أتيت مكة صليت العصر ، ثم طلعت إلى جبل أبي قبيس فإذا أنا برجل جالس وهو يدعو ، فقال : يا رب يا رب حتى انقطع نفسه ، ثم قال : يا الله يا الله حتى انقطع نفسه ، ثم قال : يا حي يا قيوم حتى انقطع نفسه ، ثم قال : يا رحمن يا رحمن حتى انقطع نفسه ، ثم قال : ياأرحم الراحمين حتى انقطع نفسه . فلما فرغ قال : اللهم إني أشتهي العنب فأطعمنيه وإن بردي قد خلق فأكسني . قال الليث : فوالله ما استتم كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنب وليس على الأرض عنب يومئذ وبردين موضوعين فأراد أن يأكل فقلت : أنا شريكك ، فقال : ولم ؟ فقلت : لأنك دعوت كنت أنا أؤمن ، فقال لي : تقدم وسمّ الله تعالى وكل ولا تدخر منه شيئاً فتقدمت فأكلت فإذا عنب لا عجم فيه لم آكل قط أطيب منه فأكلت حتى شبعت والسلة لم تنقص شيئاً ثم قال لي : خذ أحب البردين إليك ، فقلت : أما البردان فأنا غنيّ عنهما ، ثم قال لي : توار عني حتى ألبسهما فتواريت عنه فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، ثم أخذ البردين اللذين كانا عليه فجعلهما على يديه ومضى فتبعته حتى أتى المسعى فلقيه رجل ، فقال له : اكسني كساك الله يابْنَ عم رسول الله ﷺ ، فدفعهما إليه فلحقت الرجل . فقلت له : من هذا يرحمك الله ؟ قال : هذا جعفر بن محمد ، قال الليث : فطلبته فلم أجده فتأسفت على فراقه :

أسائل الشمس عنكم كلما طلعت — وأسأل البرق عنكم كلما لمعا
لو منّ دهري على طرفي برؤيتكم — لكان أحسن إذ ما بيننا جمعا
لا تحسبوا أنني بالغير مشتغل — إن الفؤاد لحبّ الغير ما وسعا
مالي سوى عفوكم يا سادتي كرمًا — فالعبد في حبكم ثوب الهوى خلعا
منوا عليه بعفو منكمو كرمًا — فالذنب قطع منه قلبه قطعا

[قال أبو نصير الصياد] : مرّ بي بشر الحافي رحمه الله وأنا على باب الجامع وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة ، فقال : ما لي أراك في هذا الوقت ؟ قلت : ما في البيت دقيق ولا خبز ولا درهم ولا شيء يباع ، فقال : بالله المستعان احمل شبكتك وتعال إلى الخندق . قال : فحملتها وذهبت معه ، فلما وصلنا إلى الخندق ، قال لي : توضأ وصلّ ركعتين ففعلت ، فقال : سمّ الله تعالى وألق الشبكة ، فسميت الله تعالى وألقيتها فوقع فيها شيء ثقيل ، قال : فجعلت أجرّه فصعب عليّ ، فقلت له : ساعدني وأعني فإني أخاف أن تنقطع الشبكة ، فجاء وجرّ الشبكة معي فإذا فيها سمكة هائلة ، فقال لي : خذها وبعها واشتر بها مصالح عيالك ، قال : فحملتها إلى الباب فاستقبلني رجل ، فقال : بكم هذه السمكة ؟ فقلت بعشرة دراهم ، فقال : اشتريت فوزن لي عشرة دراهم فاشتريت لأهلي ما يحتاجون إليه ، ثم أخذت رقاقتين وجعلت فيهما من الحلوى وأتيت بهما إليه فطرقت الباب ، فقال : من ؟ فقلت : أبو نصر ، فقال : افتح الباب وضع ما معك في الدهليز وادخل ، قال : فدخلت إليه وحدثته بما صنعت ، فقال : الحمد لله على ذلك ، فقلت : إني هيّأت للبيت شيئاً ، وقد أكلوا وأكلت معهم ومعي رقاقتان فيهما حلوى ، فقال : يا أبا نصر لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرج السمك ، اذهب فكله أنت وعيالك :

حاشاك يا ذا الفضل والامتنان أخاف ضيقاً وبك المستعان
قد سوّد العصيان وجهي رحت أسير القلب واللسان
فمن مجيري من ذنوب بها قد انقضى العمر وضاع الزمان
ما لي سوى عفوك يا سيدي ومن رجا عفوك نال الأمان

[قال محمد بن أبي الحواري رحمه الله] : كان بالموصل رجل يسمى سعدون ، وكنت أحسن إليه فقلت يوماً : أخبرني ما كان سبب تولهك ؟ فقال : مررت يوماً في سياحتي لعلي أصادف من يجلو قلبي ويعرّفني الطريق إلى ربّي فرأيت رجلاً راكباً على أسد فخفت منه فناداني : أتخاف من مخلوق مثلك ؟ ثم طرد الأسد ومشى فتبعته وسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، فقلت له : بالذي أعطاك هذه المنزلة والقرب لديه إلا ما دللتني على الطريق إليه ، فقال : اجعل الدنيا لك سجناً والآخرة سكناً وحصناً ، وعوّد عينيك البكاء والسهر والزم الخدمة في السحر وكن منه على حذر ، قلت : سيدي زدني . قال : يا سعدون أنت عاقل أم مجنون ؟ والله إذا عَرَّفَكَ الطريق إليه سخر لك الوجود وأذلّ لك الأسود ، قلت : سيدي بالذي أطلعك على الأسرار وملأ قلبك بالأنوار إلا ما أذنت لي أن أصبحك بقية هذا النهار ، فقال : على شرط أن تكتم عني ما تراه ما دمت في الحياة . فقال : سمعاً وطاعة ، فقال : امض معي نحضر موت بعض الرجال فسار وسرت معه حتى أتى البحر ففرش رداءه وأمسك بيدي فجلسنا عليه حتى وصلنا

إلى جزيرة في وسط البحر فوجدنا رجلاً ملقى على ظهره وهو يعالج الموت ، فلما قضى نحبه غسله وكفنه وصلينا عليه ودفناه مكانه فقلت له : سيدي من يكون هذا الرجل وما اسمه ؟ فقال : هذا عبد الوهاب وهو من السبعة الأقطاب ، وقد أعطيت مكانه فهممت أن أسأله عن نفسه وعن اسمه فنهرني ثم سار وتركني فبكيت بكاءً شديداً إذ صرت في الجزيرة وحيداً فسمعت قراءة القرآن على القبر وأنا لا أرى أحداً فاستأنست بذلك وجلست على القبر وأنا بين النائم واليقظان فرأيت الشيخ في المنام على هيئة حسنة فقلت له : يا سيدي بالذي جاد عليك بخلع القبول والرضا ما اسم هذا الشخص الذي تركني في هذه الجزيرة وحيداً ومضى فقال : هذا صاحب العلم الرباني عبد الله اليوناني ، وقد أعطي مكاني وفي غد يأتيك ويبلغك أمانيك ولكن إذا اجتمعت به قل له : لا تنس العهد الذي بينك وبينه . قال سعدون : ثم انتبهت ، وقد طلع الفجر فتوضأت وصليت وقرأت شيئاً من القرآن ورنقت فلم أشعر إلا وصاحبي ينبهني فقبلت يديه واعتذرت إليه فأخذ بيدي ومشى إلى البحر إلى أن وصلنا إلى البرّ . فلما هممت بالانصراف قال : وأين وصية الشيخ ؟ فقلت : يا سيدي قد علمتها وهي العهد الذي بينك وبينه ، قال لك لا تنسه ، فقال : ما كنت بالنّاسي لعهده ، فقلت : يا سيدي احملني في هذه ما كان العهد الذي بينك وبينه ؟ قال : عهد إليّ أن أزوره في كل يوم ، فقلت بالذي خصك بمعرفته وشرفك بمحبته زودني بشيء أنتفع به في الدنيا والآخرة ، فقال : اسلك سبيل الهدى ، وجانب أهل الغيّ والردى ، واقنع برزق اليوم ولا تهتم برزق غداً ، وعامل مولاك بالرضا ،والصبر على البلاء والقضا ثم تركني ومضى . قال سعدون : فهذا كان سبب تولهي عليه وشوقي إليه :

مـن عـرف الله هـام وجـدا	وجـاء في حبـه مجـدّا	تملـك الحـب منـه قلبـا
صـيره لـلإلـه عبـدا	فدمعـه في حبه لـيس يرقـى	وقلبـه منـه لـيس يهـدا
يحسـبه الجـاهلون فيمـا	يرونـه جاهـداً مكـدا	جانـب كـل الـورى جميعـا
وعـاش في العـالمين فـردا	قـد ألـف الوحـوش لا تـراه	يلـهو بعـيش ولا بسـعدى
لكنـه للحبيـب عبـد	مشـمراً جـاء مسـتعدا	إن كنـت تبغـي بهـم لحوقـا
فابـذل لمـولاك منـه جهـدا	ولا تكـن طامعـاً بفـوز	ولم يـر الله منـك كـدّا
ولـذ بجـاه الـذي ترقـى	إلى السـماء ثم زاد مجـدا	محمـد المصـطفى رسـول
إلى جميـع الأنـام فـردا	صـلى عليـه الإلـه حقـا	مـا قصـد القاصـدون نجـدا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

[**فصل**] : الحمد لله الذي قرب بعيداً وأبعد قريباً ، وأقصى عدوّاً وأدنى حبيباً ، وأذل عاصياً وأعز طائعاً منيباً ، الذي ما دعاه داع إلا وكان بالتلبية مجيباً ، ولا سأله سائل إلا وأعطاه

سؤله ووفر له من فضله نصيباً ، فيا أيها العاصي تذكر وكن نفسك رقيباً ، واعمل ليوم عرضك ومآلك ما دام غصن شبابك غضاً رطيباً ، فإلى متى أنت سقيم بداء زلتك ولا تجد لعلتك شافياً ولا طبيباً ، انهض في ظلم الدياجي وناج من لم يزل سميعاً قريباً ، وتضرع بين يدي مولاك وكن في دنياك غريباً والتجىء إلى ظل رحمته مساءً وصباحاً وقف على بابه تجده باباً مباحاً وجناباً رحيباً ، وناد في الأسحار بلسان الاعتذار وقل مقالة من أصبح على ذنوبه حزيناً كئيباً :

أنا العبد الذي كسب الذنوبا ... وصدّته المعاصي أن يتوبا
أنا العبد الذي أضحى حزينا ... على زلاته دفناً كئيبا
أنا العبد الذي سطرت عليه ... صحائف لم يخف فيها الرقيبا
أنا العبد المسيء عصيت ربّي ... فما لي الآن لا أبدي النحيبا
أنا العبد المفرط ضاع عمري ... ولم أرع الشبيبة والمشيبا
أنا العبد السقيم من الخطايا ... وقد أقبلت ألتمس الطبيبا
أنا العبد المخلف عن أناس ... حووا من كل معروف نصيبا
أنا العبد الشريد ظلمت نفسي ... وقد وافيت بابكمو منيبا
أنا العبد الفقير مددت كفي ... إليكم فادفعوا عني الخطوبا

أنا الغدار كم عاهدت عهداً ... وكنت على الوفاء به كذوبا
أنا المهجور هل لي من شفيع ... يكلم في الوصال لي الحبيبا
أنا المقطوع فارحمني وصلني ... ويسر منك لي فرجاً قريبا
أنا المضطر أرجو منك عفواً ... ومن يرجو رضاك فلن يخيبا
فوا أسفاً على عمر تقضى ... ولم أكسب به إلا ذنوبا
وأحذر أن يعاجلني ممات ... يحير هول مصرعه اللبيبا
وواحزناه من حشري ونشري ... ليوم يجعل الولدان شيبا
فيا مولاي جد بالعفو وارحم ... عبيداً ولم أكسب به الذنوبا
وسامح هفوتي وأجب دعائي ... فإنك لم تزل أبداً مجيبا
وشفع فيّ خير الحق طراً ... نبياً لم يزل أبداً حبيبا
هو الهادي المشفع في البرايا ... وكان له رحيماً مستجيبا
عليه من المهيمن كل وقت ... صلاة تملأ الأكوان طيبا

[**إخواني**] ما أحسن حال من التجأ إلى ربّ العالمين ، إخواني ما أطيب حال من انتمى إلى عباده الصالحين ، إخواني ما أحسن حديث المحبين ، إخواني ما أطيب أخبار المتقين ، إخواني ما أربح بضائع العاملين ، إخواني ما أصبح وجوه المجتهدين ، إخواني ما أعطر أنفاس الذاكرين ، إخواني ما ألذ عتاب المشتاقين ، إخواني ما أنفع بكاء المحزونين ، إخواني ما أعذب

مناجاة القائمين ، إخواني ما أمرّ عيش المحجوبين ، إخواني ما أذل نفوس الخاطئين ، إخواني ما أسوأ حال المحرومين ، إخواني ما أعظم حسرة الغافلين ، إخواني ما أشنع عيش المطرودين ، إخواني ما أعمى قلوب الظالمين ، إخواني ما أقبح وجوه العصاة والمذنبين . كان في زمان بني إسرائيل رجل مذنب كلما زاد في ذنوبه وعصيانه أمده الله بوافر رزقه وإحسانه ، فلما سمع كلام موسى عليه السلام وتوبيخه لأهل الذنوب والآثام ، قال : يا موسى ما أرى ربي إلا كلما زدت في معصيته زادني من فضله ونعمته فتعجب موسى من كلامه الذي أبداه ثم صعد إلى المناجاة ، فقال : إلٰهي أنت أعلم بما قال عبدك العاصي كلما زاد في العصيان زدته أصناف البرّ والإحسان ، فقال : يا موسى أنا أعذبه ولا يدري ، فقال : يا رب كيف تعذبه وقد بسطت رزقه وأمهلته ؟ فقال : يا موسى عذبته ببعده عني وترك نصيبه مني ، أغفلته عن طاعتي ، أنمته عن لذة مناجاتي ، ولأحرمته في السحر لذة عتابي ، وطيب مناداتي وخطابي ، فوعزتي وجلالي لأذيقنه وبيل عذابي ، ولأحرمنه جزيل ثوابي ، يا هذا إذا رأيت المبارزين بالخطايا قد اتسع لهم مجال الإمهال فلا تستعجل لهم إنما نملي لهم لقد فرحوا بما يوجب الغمّ من اللذات ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ : [المؤمنين : ٥٥ ـ ٥٦] . بينا أرض إعراضهم قد أخذت زخرفها وازينت ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ : [يونس : ٢٤] . يا معشر الغافلين في لذاتهم ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ : [النبأ : ٤٠] واخجلتهم يوم ينبئهم الله بما عملوا ، والله بكل شيء عليم :

واخجلة العبد من إحسان سيده ... يا حسرة القلب من ألطاف معناه
وكم له من أياد غير واحدة ... عندي وأعصيه جهراً ثم أنساه
وكم أسأت وبالإحسان قابلني ... واخجلتي واحيائي حين ألقاه
وكم عكفت على العصيان مستتراً ... ممن سواه وما في الكون إلا هو
يرعى الذمام ويولي الفضل مبتدراً ... لا كان في الناس عبد ليس يرعاه
يا نفس كم بخفيّ اللطف عاملني ... وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس كم زلة زلت بها قدمي ... وما أقال عثاري إلا إياه
يا نفس توبي إلى مولاك واجتهدي ... عسى تنالي مناكي عند لقياه

[**إخواني**] تفكروا في عواقب الذنوب ، كيف تفنى اللذات وتبقى العيوب ، بالله عليكم احذروا طلب المعاصي فبئس المطلوب ، ما أقبح آثارها في الوجوه والقلوب ، فللّه درّ من أحسن سريرته وأخلى من الذنوب صحيفته ، وأخلص لله سره وعلانيته . روى أن عيسى ابن

مريم ﷺ خرج ليستسقي بالناس فأوحى الله تعالى إليه لا تستسق ومعك خطاؤون فأخبرهم عيسى بذلك ونادى فيهم : ألا من كان معنا من أهل الذنوب والخطايا فليعتزل ، قال : فاعتزل الناس كلهم إلا رجل مصاب بعينه اليمنى ، فقال له عيسى ﷺ : لم لا تعتزل مع الناس ؟ فقال : يا روح الله إني لم أعص الله طرفة عين ، ولقد التفت فنظرت بعيني هذه إلى قدم امرأة من غير قصد فقلعتها ولو كنت نظرت بالعين الأخرى لقلعتها . قال : فبكى عيسى ﷺ حتى ابتلت لحيته من دموعه ، ثم قال : فادع الله لنا قال : معاذ الله أن أدعو وأنت روح الله وكلمته فرفع عيسى ﷺ يديه ، وقال : اللهم إنك خلقتنا وتكفلت بأرزاقنا فأرسل السماء علينا مدراراً فما استتمّ عيسى ﷺ دعاءه حتى نزل الغيث وعمّ العباد والبلاد :

يا من عليه مدى الأيام معتمدي إليك وجهت وجهي لا إلى أحد
أنت المجيب لمن يدعوك يا أملي يا عدتي يا شفا دائي ويا سندي
يا مالك الملك يا معطي الجزيل لمن يرجو نداه بلا حصر ولا عدد
مالي سواك ومالي غير بابك يا مولاي فامح بعفو ما جنته يدي
أنعم وأمطر علينا رحمة فلنا عوائد منك بالإحسان والمدد
وانظر إلينا فكم أوليتنا نعماً ما إن تمرّ على بال ولا خلد
يا من أجاب دعائي عند مسألتي ومن عليه وإن أخطأت معتمدي
ثم الصلاة على المختار من مضر ما ناحت الورق في غصن مدى الأبد

[**إخواني**] لقد وعظتنا الدهور ، بمرّ الأيام والشهور ، ورأينا الحزن عقب السرور ، وعلمنا أن الزمان بأهله عثور ، وتيقنا أن آخر الأمر إلى القبور ، فالعامل بالتقى مشكور ؛ كم كسفت الدنيا من بدور ، وكم أخلت من أهلها من دور وقصور ، أعمى في الأبصار أم في عور ؟ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ : [الحج : ٤٦] .

تصرمت الحياة بغير نفع فما صنعي وقد وافى نذيري
وأعمالي وطاعاتي وبرّي غرور في غرور في غرور
وصبري والأمانة وارتجاعي عسير في عسير في عسير
وجرمي والإساءة والتعدي كبير في كبير في كبير
وسعيي واجتهادي واعتذاري صغير في صغير في صغير
ورحمته وعفو واغتفار كثير في كثير في كثير

قيل : كان في البصرة شاب يقال له رضوان ، كثير اللهو والعصيان ، والتيه والطغيان ،

يبيت الليالي بالخمر سكران ، قد غلبت عليه شقوته وأغواه الشيطان ، فبينما هو في بعض الأيام معتكف على شرب المدام ، ومعه جماعة من أصحابه الموافقين له على الذنوب و الآثام ، إذ سمع رجلاً فقيراً ينشد في الطريق :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل لمحة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

فبكى الشاب وقال : بالله عليك يا فقير إلا ما أعدت إليّ قولك فأعاده فأقسم عليه الشاب أن يحضر مجلسهم فحضر فقال له : والله يا سيدي لقد سعدنا برؤياك وأعجبنا صوتك وحسن غناك ، فغنّ لنا وطيب عيشنا فأنشد الفقير وقال :

تعصي الإلَه وأنت تأكل رزقه ويراك إذ من خلقه تتكتم
فاحذر فما حاولت أمراً منكراً إلا وينظره لديك ويعلم

فبكى الشاب وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق من غشيته كسر أواني الخمر وأقبل على الفقير وقال : يا سيدي هل من توبة ؟ فأنشد :

هذا زمان الصلح ما أقعدك عن باب من للخير قد عوّدك
فإن محوت اليوم ما سطرت أيدي خطاياك فما أسعدك

فصرخ الشاب ورمى نفسه إلى الأرض مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : سيدي هل يؤاخذني بما مضى ؟ فأنشد وقال :

لله ما أطيب صفو الوداد وما ألذّ القرب بعد البعاد وما أشدّ الهجر من بعدما
قد كنت من جملة أهل الوداد يا ناسياً للعهد عاملتنا ثم تعللت بطيب الرقاد

بمن تشاغلت وأين الذي حصلت كلا بل حرمت المراد
شمر من اليوم ودع ما مضى وكن فقيراً ما مضى لا يعاد

فبكى الشاب وبكى أصحابه ثم تابوا وخلعوا ما عليهم من لباس الزينة وتاب الشاب إلى ربه وندم على قبيح ذنبه وبات ليلته بحضرة الفقير في بكاء ونحيب وحسرات وزفرات ، فلما كان وقت السحر ذكر ذنوبه والسيئات فصرخ وأسبل العبرات ، ثم غشي عليه فحركه الفقير فإذا به قد مات :

أجلّ ذنوبي عند عفوك سيدي حقير وإن كانت ذنوبي عظائما
فما زلت غفاراً وما زلت راحماً وما زلت ستاراً عليّ الجرائما
لئن كنت قد تابعت جهلي في الهوى وقضيت أوطار البطالة هائما
فها أنا قد أقررت يا رب بالذي جنيت وقد أصبحت حيران نادما

فتب واعف عني يا إلهي تكرماً   وكن لي يا ربّ البرية راحما

[إخواني] إلى كم تضيعون السنن والفرائض ، إلى متى تتيممون بالتراب والماء فائض ، يا كسلان في الطاعة وهو في المعصية ناهض ، تالله من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ :

لا ينفع الوعظ قلباً قاسياً أبداً   ولا يلين لوعظ الواعظ الحجر
ولا أرى أثراً للذكر في جسدي   والحبل في الحجر القاسي له أثر

[روى أبو سفيان الثوري رحمه الله] كان يعظ الناس يشوّقهم إلى الله تعالى ويرغبهم في أثوابه ويحذرهم من عقابه ، وكان الناس يختلفون إليه فصعد يوماً منبره على عادته ، فلما استقرّ به الجلوس وأراد أن يتكلم رفعت إليه امرأة رقعة ، فلما قرأها تغير لونه وبكى بكاءً شديداً ثم نزل ولم يتكلم . فسأله أصحابه ومن يعزّ عليه أن يخبرهم بما في الرقعة فقرأها عليهم فإذا فيها مكتوب :

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى   كيما تصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا   أبداً وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدي   بالوعظ منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

فلما قرأ ذلك بكى بكاءً شديداً حتى أغمي عليه ، فلما أفاق قالوا له : يا سيدي أنت كلامك موزون وعرضك مصون ، تشفي القلوب بوعظك وتسلي المحزون ، فكيف يؤثر في قلبك هذا الكلام وأنت إمام وأيّ إمام ؟ فبكى وقال : أنا ما أصلح أن أتكلم على رؤوس الناس فأنا أعرف بنفسي من غيري ثم فاضت عيناه ، واشتغل بوجده وجواه ، وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يسمع كلامه ولا يراه ، حتى مات رحمه الله . إخواني أفلا تنظرون إلى قلوب هؤلاء الأقوام ؟ كانت قلوبهم كالزجاجة رقيقة يؤثر فيها الكلام ، ويقدح زناد الموعظة في إحراق قلوبهم نار الوجد والغرام ، وأنتم تسمعون المواعظ فلا تؤثر في قلوبكم ولا تغسلون بماء الدمع درن ذنوبكم بل تتركون ما ينفعكم وراء ظهوركم وتقبلون على اللهو والأباطيل كما قيل :

قلوب بذكر الوعظ تزداد قسوة   فلا الوعظ يجدي لا ولا العتب ينفع
ألين مقالاً في الكلام لعلها   تلين فلا تصغي ولا تتخشع
إذا قلت هذا مدرج القوم فادرجي   يقول الهوى حدثت من ليس يسمع

وإن عرضت يوماً إلى الناس شهوة تراها إلى ما يغضب الربّ تسرع
وأن ليس للإنسان إلا الذي سعى وكل مجازى بالذي كان يصنع

[إخواني] استحوذت عليكم الغفلة وغرتكم أيام المهلة ، فيا مغتراً في ظلمه بإمهاله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ : [إبراهيم : ٤٢] ليست المهلة على الإطلاق ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ : [إبراهيم : ٤٢] إذا انتهى أمدها طلبوا زيادة ﴿ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ : [إبراهيم : ٤٤] فيقابلون بتوبيخ ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾ : [فاطر : ٣٧] فلو رأيتهم يوم العرض ، وقد خرجوا من قبورهم حيارى وبرزوا لله الواحد القهار ترجف بوادرهم يوم ترجف الراجفة ، عليه أمارات الشقاء ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ : [الرحمن : ٤١] إذا اشتد جوعهم ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ : [الغاشية : ٦] إذا قوي عطشهم ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ : [محمد : ١٥] العرى خير من كسوتهم سرابيلهم من قطران إذا استغاثوا ﴿ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ : [الكهف : ٢٩] أتراهم لم يسمعوا ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ : [الدخان : ٤٠] إذا شاهدت النار من اشترى لذة ساعة بعذاب سنين ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ : [الملك : ٨] من أراد النجاة فليتب ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ : [المجادلة : ٤] .

ما حال من غلقت أبواب رحمته وخلدت نفسه في سجن غفلته
أعمته شهوته عن كل صالحة كأنما ختمت أجفان مقلته
فدعه إن لم يفق من قبل صرعته فسوف يعثر في أذيال جفوته
يا من ينادي ولا يصغي لصالحة كأنما قلبه في غير جثته
إن كان جسمك لا يقوى على ألم فالنار أعظم من آلام علته

[إخواني] إذا كان صفاء المواعظ لا تؤثر في قلوبكم الكدرة ، ومعاول التخويف لا تقطع في نفسكم المتحيرة ، فهذا كلام ربكم يتلى عليكم في آياته المطهرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ : [الزلزلة : ٧_٨] يا غافلاً عما نهاه وأمره ، يا مضيعاً في البطالة عمره ، إلى متى تلهو وذنوبك مكتوبة مسطرة ، كيف حالك في سفرك وطريقك خطرة ، وشاهدت ميزانك الذي يرجع بالذرة الحقرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ يا غافلاً والموت يقفو أثره ، كيف بك إذا شاهدت السماء منفطرة ، وحافظك قد أحصى ما عملت من خير وشر وحصره ، وقد تركبت عليك الحجة وتعذرت المعذرة ، فهناك يجد الإنسان من الإحسان أو العصيان ما أحضره

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ :

يا نفس توبي عن فعال منكره ... واسعي إلى دار البقا مستبصره

يا نفس فاز القوم من رب العلا ... بالعفو عن زلاتهم والمغفره

يا نفس قد قطعوا النهار لربهم ... صوماً وفازوا بالعلا في الآخره

يا نفس ويحك للمتاب فبادري ... من قبل أن تأتي الذنوب مسطره

يا نفس إن القوم زادوا خيفة ... من مكره وقلوبهم متنكره

يا نفس جدّي في التقى وتزوّدي ... عملاً وكوني للقا مستشعره

يا نفس كم قوم على الدنيا احتووا ... ظلماً وما لهمو إذا من آخره

يا نفس كم أمم تفانوا في البلا ... وعظامهم أضحت عظاماً ناخره

يا نفس توبي اليوم من قبل الردى ... فعسى تكوني من غد مستبشره

يا نفس آه من الذنوب وكلها ... يوم القيامة في الكتاب محرره

يا نفس ما ينجيك في اليوم اللقا ... من عظم أهوال الحساب المنكره

إلا شفاعة أحمد الهادي الذي ... يرجى لديه الفعو عند المقدره

فهو النبيّ الهاشمي المصطفى ... والمجتبى من خلقه إذ طهره

يا نفس جدّي في المسير لقبره ... واسعي إلى أبوابه مستصغره

وتمتعي بجماله ووصاله ... كي لا تكوني في الورى متحسره

وإذا وصلت إلى رباه فعظمي ... تلك المواقف وادخلي متوقره

فعسى تنالي الفوز من رب العلا ... وتعود زلات الذنوب مكفره

وتشاهدي ذاك الضريح وقد بدت ... أنواره للكائنات منوره

هو صفوة الرحمن من كل الورى ... وبأحسن التكوين حقاً صوره

أسرى به الباري إليه جهرة ... في جنح ليل صبحه ما أسفره

ورقى على ظهر البراق معظماً ... والكون من أنواره قد نوره

فاستبشرت بقدومه أهل السما ... فلذاك أضحت من شذاه معطره

وهو الذي جليت عروس جماله ... في ليلة المعراج لما أظهره

وهو الذي بالحق جاء وبالهدى ... وأباحنا الدين القويم ويسره

صلى عليه الله ما سرت الصبا ... وأتت بطيب ثنائه متعطره

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الثاني والأربعون

في فضائل يوم عاشوراء

الحمد لله الذي عزت عزته أوّلاً وآخراً ، وكفلت نعمته مؤمناً وكفوراً ، وأظهرت قدرته ضياء وديجوراً ، ووسعت رحمته من ضيع زمانه تقصيراً . كم أفقر غنياً وأغنى فقيراً ، ورحم مسكيناً وجبر كسيراً ، وغفر ذنوباً وعمر قلوباً وشرح صدوراً ، وأباح جنابه وفتح بابه لمن كان مهجوراً ، يخافه الملك فيكثر تهليلاً وتكبيراً ، ويجري بأمره الفلك فيسيره تسييراً ، كتب كتاب رحمته وسطره تسطيراً ، وأشهد على نفسه ملائكته أنه لم يزل غفوراً ، معظماً مقدساً مذكوراً معبوداً محموداً مشكوراً ، يبصر ما تحت التحت ، وكان الله سميعاً بصيراً ، ويعلم ما يختلج في الفكر وكان الله عليماً خبيراً ، ويفنى الكل ويبقى ؛ وكان الله على ذلك قديراً يخرج الحيّ من الميت وخلق كل شيء فقدره تقديراً ، أعطاك مع علمه بذنبك ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ : [الإسراء : ٢٠] ليس عليه حجاب فيكون مستوراً ، ولا هو جسم فيكون محصوراً . اختار قوماً قوّاماً فكسا وجوههم نوراً ، وملأ قلوبهم بمحبته وسروراً ، شرفهم إذ عرفهم طريق معرفته وجعل حظهم حظاً موفوراً ، رفعوا إليه قصة الشكوى من الهجران فكتب لهم بالأمان منشوراً ، أيقظهم من بين النائمين وجعل بينهم وبين الغافلين حجاباً مستوراً ، نصبوا في خدمته الأقدام وستروا وجوههم بأستار الظلام فجعلها بين الأنام شموساً وبدوراً ، ففههم لخطابه ولذذهم بعتابه وسقاهم بكأس اقترابه شراباً طهوراً ، وأدناهم من الجناب وفتح لهم الباب ورفع لهم حجاباً مستوراً ، فسبحانه من إلّه صرف أعواماً ودهوراً ، وشرف أياماً وشهوراً ، وفضل مواسم الطاعات على جميع الأوقات ، وخصّ بالفضل والبركات يوم عاشوراء ، وخاطب فيه نبيه موسى وسقاه من شرابه كؤوساً ، وجعل له عند سماع مناجاته طوراً ، وقربه واجتباه وخاطبه فيه وناجاه ، وأعطاه فضلاً غزيراً ، وافترض صيامه على بني إسرائيل وأعدّ لمن صامه من الفضل الجزيل أجوراً ، وفيه تاب الله على آدم ولقاه نضرة وسروراً ، وأخرج نوحاً من السفينة ، وجعل له من السكينة حظاً موفوراً ، وقد نجى الخليل من نار النمروذ ووقاه لهيباً وسعيراً ، وفيه أخرج يوسف من السجن إذ كان صبوراً ، وفيه ردّ بصر يعقوب وكشف ضرّ أيوب وغفر لداود فأصبح ذنب مغفوراً ، ولسان الإحسان يبشرهم في القرآن بقول الملك الديان : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ : [الإنسان : ٢٢] .

لا نلـت ممـا أرتجيتـه سـرورا   إن كـان قلبي عـن هـواك نفـورا
والمـرء لـيس بصـادق في حبـه   إن لم يكـن في النائبـات صـبورا
أشغلتني بهـواك عـن كـل الـورى   فلـذاك راح القلـب فيـك أسـيرا
لله قـوم أخلصـوا في حبـه   فكسـا وجـوههم الوسـيمة نـورا
تركـوا النعـيم وطلقـوا دنيـاهمو   زهـداً فعوّضـهم بـذاك أجـورا
قـاموا ينـاجون الحبيـب بـأدمع   تجـري فتحكـي لؤلـؤاً منثـورا
ستروا وجـوههم بأستار الـدجى   لـيلاً فأضـحت في النـهار بـدورا
عملوا بمـا علمـوا وجـادوا بالـذي   وجـدوا فأصـبح حظهـم موفـورا
وإذ بـدا ليـل سمعـت حنينـهم   وشـهدت وجـداً منـهمو وزفـيرا
تعبـوا قلـيلاً في رضـا محبـوبهم   فـأراحهم يـوم اللقـاء كـثيرا
صـبروا علـى بلواهمـو فجزاهمـو   يـوم القيامـة جنـة وحريـرا
يـا أيهـا الصـبّ الكئيـب إلى متى   تفـني زمانـك بـاطلاً وغـرورا
بـادر فهـذا يـوم عاشـروا الـذي   مـن صـامه لله نـال أجـورا
فاضـرع إلى مـولاك فيـه ونـاده   يـا واحـداً في ملكـه وقـديرا
إن لم أكـن أهـلاً لعفـوك سـيدي   كـن أنـت أهـلاً سـاتراً وغفـورا
مـا لي سـواك وأنـت غايـة مقصـدي   وإذا رضـيت فنعمتـه وسـرورا

[وروي أبو قتادة الأنصاري ﷺ] : أن رسول الله ﷺ قال : « صوم يوم عاشوراء يكفر العام الذي قبله » ، وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عزّ وجل افترض على بني إسرائيل صوم يوم في السنة وهو يوم عاشوراء وهـو اليوم العاشـر مـن المحرم فصوموه ووسعوا على عيالكم فيه فإنه من وسع فيه على عياله وأهله من ماله وسع الله عليه سائر سنته » فصوموه فإنه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم فأصبح صفياً ، ورفع فيه إدريس مكاناً علياً ، وأخرج نوح من السفينة ، ونجى إبراهيم مـن النار ، وأنـزل الله فيـه التوراة على موسى ، وأخرج فيه يوسف من السجن ، وردّ على يعقوب بصره ، وفيه كشف الضرّ عن أيوب وفيه أخرج يونس من بطن الحوت ، وفيه فلق البحر لبني إسرائيل وفيه غفر لداود ذنبه وفيه أعطى الله الملك لسليمان ، وفي هذا اليوم غفر لمحمد ﷺ ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وهـو أول يـوم خلق الله فيه الدنيا وأوّل يوم ينزل فيه المطر من السماء يوم عاشـوراء وأول رحمة أنزلـت إلى الأرض يوم عاشوراء فمن صام يوم عاشوراء فكأنما صام الدهر كله وهو صـوم الأنبيـاء ومـن أحيا ليلة عاشوراء بالعبادة فكأنما عبد الله تعالى مثل عبادة أهل السموات السبع ومن صـلّى فيـه

أربع ركعات يقرأ في كل ركعة الحمد لله مرة وقل هو الله أحد إحدى وخمسين مرة غفر الله له ذنوب خمسين عاماً ، ومن سقى يوم عاشوراء شربة ماء سقاه الله يوم العطش الأكبر كأساً لم يظمأ بعدها أبداً وكأنما لم يعص الله طرفة عين ومن تصدق فيه بصدقة فكأنما لم يردّ سائلاً قط ومن اغتسل وتطهّر يوم عاشوراء لم يمرض في سنته إلا مرض الموت ومن مسح فيه على رأس يتيم أو أحسن إليه فكأنما أحسن إلى أيتام ولد آدم كلهم ، ومن عاد مريضاً في يوم عاشوراء فكأنما عاد مرضى أولاد آدم كلهم وهو اليوم الذي خلق فيه العرش واللوح والقلم ، وهو اليوم الذي خلق الله فيه جبريل ورفع فيه عيسى وهو اليوم الذي تقوم فيه الساعة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله عز وجل : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ : [طه : ٥٩] قال : يوم عاشوراء فطوبى لمن قدم في هذا اليوم الشريف عملاً صالحاً ، وأتجر فيه بالخيرات للآخرة متجراً رابحاً ، وتاب من ذنوبه وخطاياه وأقبل إلى مولاه صالحاً واتعظ بغيره وقبل ممن أصبح له ناصحاً ، وترك الكبر والدعوى ، وسلك إلى التقوى طريقاً واضحاً :

يا غادياً في غفلة ورائحاً ... إلى متى تستحسن القبائحا ... وكم أخي كم لا تخاف موقفا
يستنطق الله به الجوارحا ... واعجباً منك وأنت مبصر ... كيف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرا في غد ... صحيفة قد حوت الفضائحا ... وكيف ترضى أن تكون خاسرا
يوم يفوز من يكون رابحا ... فاعمل لميزانك خيراً فعسى ... يكون في يوم الحساب راجحا

وصم فهذا يوم عاشروا الذي ... ما زال بالتقوى شذاه فائحا
يوم شريف خصنا الله به ... يا فوز من قدّم فيه صالحا

[وروى أبو هريرة ﷺ قال] : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » انفرد به مسلم . وسئل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن صيام يوم عاشوراء ؟ فقال : ما علمت أن لرسول الله ﷺ يوماً يطلب فضله في الأيام إلا هذا اليوم يعني يوم عاشوراء ، ولا شهراً إلا هذا الشهر ، يعني رمضان متفق عليه . وروى بن أنس ﷺ عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج وهو على المنبر يقول : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا يوم عاشوراء لم يكتب الله عليكم صيامه وأنا صائم فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر » متفق عليه . وروى ابن عباس وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « لئن عشت إلى قابل لأصومنّ التاسع والعاشر » فتوفي رسول الله ﷺ قبل ذلك فيحتمل أن يكون أراد نقل الصيام إليه ويحتمل أن يكون أراد أن يصومه مع العاشر ، ولهذا استحب الإمام الشافعي وغيره صيام اليومين احتياطاً وهو مرويّ عن ابن عباس أنه قال : « صوموا التاسع والعاشر ولا تشبهوا باليهود » وروت عائشة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ أنه قال :

« من صام أيام العشر إلى يوم عاشوراء ورث الفردوس الأعلى » وإلى هذا العشر أشار الله تعالى بقوله : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ : [الأعراف : ١٤٢] . ولعشر المحرم فضائل كثيرة ، وآثار غزيرة . فمن ذلك ما روى معاوية بن قرة أن نوحاً عليه السلام صام ومن معه في السفينة يوم عاشوراء شكراً لله تعالى إذ نجاهم يوم استوت على الجودي وكان يوم عاشوراء . وعن طاوس في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام في قوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ : [يوسف : ٩٨] قال أخرهم إلى ليلة الجمعة فوافقت ليلة عاشوراء . قال ابن شهاب : ومما بلغنا عن الصحابة والتابعين أنه كان يصوم يوم عاشوراء عليّ بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وعلي بن الحسين وسعيد بن جبير رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ذكرنا مما يستحب من الأعمال في يوم عاشوراء ما ذكرناه فيما تقدّم ، ومنها ما لم نذكره فمنه أنه يستحب أن يستعمل فيه الاغتسال ، وقد ذكر أن الله تعالى يخرق في تلك الليلة زمزم إلى سائر المياه فمن اغتسل يومئذ أمن من المرض في جميع السنة ومن ذلك الصدقة ، ومن ذلك مسح رأس اليتيم ، ومن ذلك تفطير الصائم ، ومن ذلك إسقاء الماء ومن ذلك زيارة أخ في الله ، ومن ذلك عيادة المرضى ، ومن ذلك الصوم ، ومن ذلك التوسعة على العيال ، ومن ذلك إكرام الوالدين والبرّ بهما ، ومن ذلك تشييع الجنائز ، ومن ذلك إماطة الأذى عن الطريق ، ومن ذلك كظم الغيظ ، ومن ذلك العفو عمن ظلم ، ومن ذلك التنفل وكثرة الذكر ومن ذلك ما روي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : « من قرأ في يوم عاشوراء ألف مرة قل هو الله أحد نظر الرحمن إليه ، ومن نظر الرحمن إليه لا يعذبه أبداً » .

[وعن ابن مسعود رضي الله عنه] أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل الله تعالى على موسى بن عمران في التوراة : من صام يوم عاشوراء فكأنما صام الدهر كله » وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : « أمر رسول الله ﷺ رجلاً أن ينادي في الناس ألا من كان أكل فليصم بقية يومه ومن لم يأكل فليصم فإن اليوم يوم عاشوراء » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء قال لهم : ما هذا ؟ فقالوا : هذا يوم صالح نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوّهم فصامه موسى شكراً لله ، فنحن نصومه لأجله فقال رسول الله ﷺ : أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه » . وأما الصدقة به فإنها مضاعفة والبر والإيثار والإحسان إلى ذوي القربى وصلة الرحم والرحمة والرأفة للفقراء والمساكين . كما روي أن فقيراً كان له عيال في يوم عاشوراء فأصبح هو وعياله صياماً ولم يكن عنده شيء فخرج يطوف على شيء يفطرون عليه فلم يجد شيئاً فدخل السوق الصرف فرأى رجلاً قد فرش في

دكانه النطوع المثمنة وسكب عليها أكوام الذهب والفضة فتقدم إليه وسلم عليه ، وقال له : يا سيدي أنا فقير لعل أن تقرضني درهماً واحداً أشتري به فطوراً لعيالي وأدعو لـك في هـذا اليـوم فولى بوجهه عنه ولم يعطه شيئاً فرجع الفقير وهو مكسور القلب وولى ودمعه يجري على خـده فرآه جار له صيرفي وكان يهودياً فنزل خلف الفقير وقال له : أراك تكلمت مع جاري فـلان ؟ فقال : قصدته في درهم واحد لأفطر به عيالي فردني خائباً وقلت له : أدعو لك في هذا اليوم ، فقال اليهودي : وما هذا اليوم ؟ فقال له الفقير : هذا يوم عاشـوراء وذكـر لـه بعـض فضـائله فناوله اليهودي عشرة دراهم وقال له : خذ هذه وأنفقها على عيالك إكراماً لهذا اليـوم فمضـى الفقير وقد انشرح لذلك ووسع على أهله النفقة ، فلما كان الليل رأى الصيرفي في المنام كـأن القيامة قد قامت وقد اشتد العطش والكرب فنظر فإذا قصر من لؤلؤة بيضاء أبوابه من الياقوت الأحمر فرفع رأسه ، وقال : يا أهل هذا القصر اسقوني شربة ماء فنودي هذا القصر كان قصرك بالأمس ، فلما رددت ذلك الفقير مكسور القلب محي اسمك مـن عليـه وكتـب باسـم جـارك اليهودي الذي جبره وأعطاه عشرة دراهم فأصبح الصيرفي مذعوراً ينـادي علـى نفسـه بالويـل والثبور فجاء إلى جاره اليهودي وقال : أنت جاري ولي عليك حق ولي إليـك حاجـة ، قـال : وما هي ؟ قال : تبيعني ثواب العشرة دراهم التي دفعتها بالأمس للفقير بمائة درهـم . فقـال : والله ولا بمائة ألف دينار ولو طلبت أن تدخل من باب القصر الذي رأيته البارحة لما مكنك مـن الدخول فيه . فقال : ومن كشف لك عن هذا السر المصون . قال : الذي يقول للشـيء كـن فيكون ، وأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

[**إخواني**] كان هذت يهودياً فأحسن الظن بيوم عاشوراء وما كان يعرف فضله فأعطاه الله ما أعطاه ومنّ عليه بالسلام فكيف بمن يعرف فضله وثوابه ويهمل العمل فيه :

ما حال من ظل على بـاب الرضـا مطـرود ... وعـن مـوارد سـاعات اللقـا مـردود
وقد حكـم في القـدم أن ينجـز الموعـود ... هذا بحكم القضـا يشـقى وذا مسـعود

فيا من ضيع أوقات المكنة والاقتدار ، ونسي الآخرة وأنس بهـذه الـدار ، وجانـب الصـالحين وصاحب الفجار ؛ وآثر على صفا الإخلاص كدر الأسرار ، وصار عبداً للهوى وقد كان مـن الأحرار ، ولم يذكر في حلاوة الشهوات مرارة الأوزار :

يـا غـافلاً في نومـه وسـناته ... متشـاغلاً باللـهو في غفلاتـه ... لا يسـتفيق مـن الـذنوب وكلمـا
وعظـوه جـاز الحـدّ في زلاتـه ... قد ضل عـن طريـق الهدايه والتقى ... والشـيب وافى منـذراً بوفاتـه

فلـو اسـتقال إلى الكـريم فربمـا ... يعفـو بفضـل منـه عـن هفواتـه

[وقيل] : كان بالبصرة رجل له مال وثروة وكان في سنة يجمع الناس في بيته ليلة عاشوراء

يقرؤوا القرآن ويذكرون ويهللون ويسبحون ويحيون تلك الليلة بالقراءة والذكر ويمدّ لهم الطعام ويفتقد المساكين ويحسن إلى الأرامل والأيتام . وكان له جار وله بنت مقعدة ، فقالت لأبيها : يا أبت ما بال جارنا يجمع الناس في كل سنة في هذه الليلة ويحيونها بالقراءة والذكر ؟ فقال لها : هذه ليلة عاشوراء ولها حرمة عند الله وفضائل كثيرة ، ثم ناموا وسهرت الصبية تسمع القرآن والذكر إلى وقت السحر ، فلما ختموا القرآن دعوا رفعت رأسها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي بحرمة هذه الليلة عندك وبهؤلاء الأقوام الذين باتوا يتلون ذكرك ساهرين في طاعتك إلا ما عافيتني ومسحت ضري وجبرت قلبي بعد كسري فما استتمت الكلام إلا وقد زالت عنها الأوجاع والأسقام ونهضت قائمة على الأقدام . فلما نظر أبوها إلى قيامها بعد ضرها وسقامها . قال : يا بنية من كشف عنك هذه الغمة والبلية ؟ قالت : الذي جاد لي بالرحمة ولا يبخل بالنعمة ، يا أبت إني توسلت بهذه الليلة إلى سيدي فأزال ضرري وعافى جسدي :

فلا تجزع لريب الدهر واصبر ... فإن الصبر في العقبى سليم ... فما جزع بمغن عنك شيئاً
ولا ما فات ترجعه الهموم ... إذا ضاق الخناق فكن صبوراً ... كريماً فالشدائد لا تدوم
فبالصبر الجميل تنال أجراً ... وتعطى بعد ذلك ما تروم ... فكم من محنة عظمت ودامت
وخان مواصل وجفا حميم ... أتى فرج الإله لها صباحا ... فما أمست وأقلعت الهموم

فسلم الذي أبلى يعافي ... وثق بالله فهو بنا عظيم

[**إخواني**] اغتنموا زمان الأرباح فأيام المواسم معدودة ، وانتهزوا الفرص فأوقات السلامة مشهودة ، وبادروا للعمل مبادرة مجتهد محق وارفضوا فضول الدنيا وتخلصوا من الرق قبل أن تلقوا ساعة حسرة تلقوا بعدها ظلمات حفرة كم من صحيح قبل هذا اليوم فسقم وكم مطمئن أزعجته حداة المنون فرحل ولم يقم ، وكم ركن شيد بالشهوات واللذات فهدم ، وكم موجود لم يأت عليه هذا اليوم حتى عدم ، وهذا حالك عن قريب لكن الغرور يخفيه وهذا مآلك فتدبر ما أنت فيه فكأني بك وقد تبدّلت الصحة بالسقم وعدمت العافية وجرى بالبلاء القلم وانقضى العمر كما قضى الله وحكم ، وأقبل الموت الذي قدره الله وحتم وبلغت الروح التراقي فنسيت لذة النعم وتحسر القلب لفراق الأحباب وأظهر الدمع ما كتم وما كانت إلا ساعة حتى ذهبت الروح وسكنِ الألم ثم تنقل إلى منزل وعر شديد الظلم فيا أسفاً إن جازاك مولاك بالمعاصي وانتقم ويا تعساً لك إن زلت عن الصراط منك القدم ، فيا من حالته هذه إلى كم هذه الغفلة في الهوى وكم :

تفنى اللذاذة ممن نال شهوته ... من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها ... لا خير في لذة من بعدها النار

[قيل]: إنه كان بمصر رجل تاجر في التمر يقال له عطيه بن خلف ، وكان من أهل الثروة ثم افتقر ولم يبق له سوى ثوب يستر عورته . فلما كان يوم عاشوراء صلى الصبح في جامع عمرو بن العاص ومن عادة هذا الجامع ألا تدخله النساء إلا في يوم عاشوراء لأجل الدعاء فوقف يدعو مع جملة الناس وهو بمعزل عن النساء فجاءته امرأة ومعها أطفال أيتام ، فقالت : يا سيدي سألتك بالله إلا ما فرجت عني وآثرتني بشيء أستعين به على قوت هذه الأطفال فقد مات أبوهم وما ترك لهم شيئاً وأنا شريفة ولا أعرف أحداً أقصده وما خرجت في هذا اليوم إلا عن ضرورة أحوجتني إلى بذل وجهي ، وليس لي عادة بذلك . فقال الرجل في نفسه : أنا ما أملك شيئاً وليس عندي غير هذا الثوب وإن خلعته انكشفت عورتي وإن رددتها فأيّ عذر لي عند رسول الله ﷺ فقال لها : اذهبي عندي حتى أعطيك شيئاً فذهبت معه إلى منزله فأوقفها على الباب ودخل وخلع ثوبه واتزر بخلق كان ثم ناولها الثوب من شق الباب ، فقالت : ألبسك الله من حلل الجنة ولا أحوجك باقي عمرك ففرح بدعائها ، وأغلق الباب ودخل بيته يذكر الله تعالى إلى الليل ثم نام فرأى في المنام حوراء لم يرى الراؤون أحسن منها وبيدها تفاحة قد عطرت ما بين السماء والأرض فناولته التفاحة فكسرها فخرج منها حلة من حلل الجنة لا تقوّم بها الدنيا بما فيها فألبسته الحلة وجلست في حجره ، فقال لها : من أنت ؟ فقال : أنا عاشوراء زوجتك في الجنة ، قال : بم نلت ذلك ؟ قالت : بدعوة تلك المسكينة الأرملة والأيتام الذين أحسنت إليهم بالأمس فانتبه وعنده من السرور ما لا يعلمه إلا الله عزّ وجل ، وقد عبق من طيبه المكان فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله عزّ وجل ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال : إلـهي إن كان منامي حقاً وهذه زوجتي في الجنة فاقبضني إليك فما استتمّ الكلام حتى عجل الله تعالى بروحه إلى دار السلام :

من عامل الله لم تخسر تجارته ... وكل ما كان منها كاسداً نفقا
والله حقاً يجازي المحسنين وقد ... جاء الكتاب بذا المعنى وقد نطقا
فاطلب رضا الله فيما ترتجيه وثق ... به تنال المنى والفوز والسبقا
وقف على الباب وأطرق بالمتاب تنل ... أما ترى الباب مفتوحاً لمن طرقا

[إخواني] هذه بعض بشارات المؤمن عند الموت فأين الاستعداد ، أين من يزرع الخير في دنياه ويحمد في عقباه الحصاد ، ما ينقص مال من صدقة بل يزداد ، أين الذين كنزوا الكنوز وعمروا البلاد ، أين الذين قادوا الجيوش واستعبدوا العباد ، أين من بنى وشاد ؟ أين الآباء والأجداد ؟ :

غداً توفى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

فلله درّ من عمل وبادر شهوره وسنينه ، وتدرّع بالحياء والوقار والسكينة وعمل ليوم فيه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ : [المدّثر : ٣٨] وعرف قدر هذا اليوم الشريف الذي تجلى الله تعالى فيه نوحاً وأخرجه من السفينة ، وذلك أن نوحاً عليه السلام لما نزل من السفينة هو ومن معه شكوا الجوع وقد فرغت أزوادهم فأمرهم أن يأتوا بفضل أزوادهم فجاء هذا بكف حنطة ، وهذا بكف عدس وهذا بكف فول ، وهذا بكف حمص إلى أن بلغت سبع حبوب ، وكان يوم عاشوراء فسمى نوح عليها وطبخها لهم فأكلوا جميعاً وشبعوا ببركات نوح عليه السلام فذلك قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ : [هود : ٤٨] وكان ذلك أوّل طعام طبخ على وجه الأرض بعد الطوفان فاتخذه الناس سنة يوم عاشوراء وفيه أجر عظيم لمن يفعل ذلك ويطعم الفقراء والمساكين .

[وقيل : إن موسى عليه السلام] لما وعده الله سبحانه وتعالى أن يخاطبه ويكلمه ويلقي إليه التوراة في الألواح أمره بصيام ثلاثين يوماً فصامها وهي شهر ذي الحجة ، فلما أنكر خلوف رائحة فمه استاك بعود خروب ، وقيل : زيتون ، وقيل غير ذلك فقيل له : أيها الصائم عن أمرنا كيف أفطرت برأيك ؟ أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فأمر بصيام عشرة أيام أخر كفارة لما فعل ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ : [الأعراف : ١٤٢] وهي عشر المحرم ، وقيل : عشر ذي الحجة وعلى الوجه الأول يكون آخرها يوم عاشوراء ، وهو اليوم الذي كلم الله فيه نبيه موسى وأنزل عليه التوراة ، وهو يوم عظيم فضيل فيه تضاعف الحسنات ويعفى عن كل ذنب ثقيل ، فيه تاب الله على آدم وأخرج نوحاً من السفينة وحمله ومن معه بالزاد القليل ، وفيه نجى من النار إبراهيم الخليل ، وشفى من البلاء أيوب ، وردّ يوسف على يعقوب بعد حزنه الطويل ، وفيه أخرج يونس من بطن الحوت وفلق البحر لبني إسرائيل وغفر لداود ذنبه ، وفيه ردّ لسليمان ملكه الردّ الجميل ، وفيه خاطب الله تعالى موسى ورفع فيه عيسى ، وفيه ينزل بالرحمة جبريل ، وفيه غفر لمحمد ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وناهيك به من يوم شريف فضيل من صامه فكأنه صام الدهر ومن قام ليله فاز بالأجر الوافر والعطاء الجزيل ، ومن كسا فيه عارياً أو أجرى فيه من المعروف جارياً أجاره الله من العذاب الوبيل ، ومن جبر فيه يتيماً أو أطعم جائعاً عديماً أو سقا فيه شربة ماء أطعمه الله من موائد الجنة وسقاه من الرحيق المختوم والسلسبيل ومن تصدق فيه بصدقة كان يوم القيامة تحت ظلها الظليل ، ومن وسع فيه على عياله وسع عليه رزقه وحسن خلقه وخلقه الجميل ، فأكثروا فيه التسبيح والتهليل وبادروا فيه بالتوبة إلى الملك الجليل وتزوّدوا فيه

من الأعمال الصالحة للسفر الطويل فقد ورد في فضله من الإنعام والإحسان ما يقصر عن وصفه كل لسان ويقصر عن حصره كل فضيل .

[كان وكان]

يا من يروم الفضائل	في يوم عاشوراء استمع	فإنه في الحقيقة	يوم شريف فضيل
فتب إلى الله واغنم	صيامه تلقى المنى	وإن نويت الإنابة	بادر إلى التعجيل
وحصل الزاد واغنم	هذي الليالي بالتقى	وابكي بدمع هامي	على الخدود يسيل
طوبى لعبد تيقظ	وقام في وقت السحر	وقال يا رب إني	مذنب عليل ذليل
فامنن عليّ بتوبة	فأكثر العمر انقضى	ولا تخيب رجائي	فالظنّ فيك جميل
وليس لي من وسيلة	إلا النبيّ المصطفى	الهاشمي المفضل	بالوحي والتنزيل
رسول ربّ البرايا	ماحي الخطايا والزلل	هو النبيّ المخصص	بالقرب والتبجيل
صلى عليه وسلم	ربّ السماوات العلى	ما دامت الورق تبدي	على الغصون هديل

اللهم اجعلنا من المقبولين في هذا الشهر الفضيل ، وخصنا بالأجر الوافر والعطاء الجزيل واغفر لنا فيه كل ذنب عظيم ، وخفف ظهورنا من كل وزر ثقيل ، وتقبل فيه يسير أعمالنا فإنك تقبل العمل القليل ، وأجرنا فيه من عاداتك على كل حسن جميل ، واحشرنا تحت لواء من أنزلت عليه في محكم التنزيل : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ : [آل عمران : ١٧٣] ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الثالث والأربعون

في مولد رسول الله ﷺ

الحمد لله الواحد فلا يجحد . الأحد الذي في سرمديته توحد . الفرد الذي في ربوبيته تفرّد الشكور الذي لا يشكر غيره ولا يحمد ، الغفور الذي يغفر الذنوب لمن يتوب ولا يتردد ، الملك الذي أفنى الممالك والملوك وملكه سرمد ، العلي الذي إليه الكلم الطيب يصعد ، الحاكم الذي حكم بالموت على أهل الدنيا فليس فيها أحد يخلد ، أرسل الرسل ليرشدوا الناس إلى الطريق الأحمد . وجعلهم حجاباً بين يدي من هم الشفاعة ولواء الحمد في القيامة يعقد ، وجعله آخر الأنبياء ليبين لهم الطريق الأرشد ، فلذلك قال تعالى في كتابا الممجد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا ﴾ : [الصف : ٦] فنوّه بذكره تشريفاً بقدره وتوقيراً ،

وأطفأ به للمشركين نارهم وأظهر به للمؤمنين نوراً . وأكمل به لأمته فرحةً وسروراً . وأرسله إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ، وجعله داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً . وبعثه رحمة لكل موجود ونوراً به الوجود تنويراً ، فقال في حقه الملك العلي : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ : [الأحزاب : ٤٥ـ٤٦] فهو سيد المرسلين وإمام المتقين ، ومن شرفه الله على جميع المخلوقين ، ونبأه وآدم بين الماء والطين ، وأرسله إلى كافة الخلق . فقال تعالى في كتابه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ : [الأنبياء : ١٠٧] وجعل مقامه رفيعاً وحسنه بديعاً مولده للمؤمنين ربيعاً ، فما برح دين الإسلام به مرفوعاً ، ودين الشرك به موضوعاً . نقله من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية فطاب أصولاً وزكا فروعاً ، ارتجّ لميلاده إيوان كسرى فانهار بنيانه وتداعى وقوعاً ، شفعه الله تعالى في العصاة من أمته تعظيماً لقدره ، وجعل كلاً منه لقوله سامعاً ولأمره مطيعاً ، واختاره لهم في الدنيا رسولاً وفي الآخرة شفيعاً ، وأمره بإظهار شرفه عليهم ، فقال له : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ : [الأعراف : ١٥٨] توّجه الله بتاج الوقار ونوّر به جميع الأقطار ، وشرف فيه البادين والحضار ، وصفاه من جميع الأكدار ، وأخمد لنوره نار فارس وأضاء بمولده غياهب الحنادس وخلع عليه خلع الهيبة والوقار ، وختم به النبيين وتمم به المرسلين ، وأنزل عليه في كتابه المبين ، تشريفاً له ولأصحابه الأخيار ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ : [الفتح : ٢٩] نبي بوّأه مقاماً جليلاً وأعطاه عطاءً جزيلاً ، بشرت بنبوته الأحبار والرهبان ، وأخبرت بظهوره الكهان ، وأظهرت له في الأكوان وصفاً حسناً وثناءً جميلاً ، وأوجده الله في مثل هذا الشهر الشريف ، وفضله على سائر الخلق تفضيلاً ، وكساه من حلل الوقار ثوباً جليلاً ، وأنذر الناس برسالته فقال في محكم آياته : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ : [المزمل : ١٥]

ربيع السرور أنار السبيلا ... وأهدى لنا كأسه السلسبيلا
بمولد خير الأنام الذي ... له الله كان ولياً كفيلا
ترى قبل موتي أزور الحمى ... وأبرىء منها الفؤاد العليلا
وأنظر وادي قبا قد بدا ... لعيني وأشهد ذاك النخيلا
ويدنو البقيع وقبر الشفيع ... بمن طاب فرعاً وأصلاً أصيلا
وألثم ذاك الضريح الذي ... تضمن خير الأنام الرسولا

نبي الهدى ما حيا للردى ... ويجلو الصدا وهو يهدي السبيلا
عليه من الله طول المدى ... سلام إذا رام حاد رحيلا

فيا ذوي العقل الراجح والذهن السليم ، أنظروا ما أعدّ الله تعالى لهذا النبيّ الكريم من العطاء الجزيل والتبجيل التكريم ، والحظ الوافر والفضل الجسيم ، فهو النبي الكريم المخصوص

بالخلق العظيم الموصوف بالتبجيل والتعظيم ، المنزل عليه في الآيات والذكر الحكيم ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ : [التوبة : ١٢٨] إن أولى ما استفتح به الإنسان ونطق به اللسان ، كلام من خلق الخلق والأنام للتفضل عليهم والإحسان إليهم ليس ذلك لحاجة ألجأته إلى إيجادهم ، ولا ضرورة أحوجته إلى انقيادهم ، إذ هو الغني على الإطلاق والذي لا تفنى خزائنه بكثرة الإنفاق ، ومن أعظم إحسانه وأكثر امتنانه على عباده إن أرسل إليهم صفيه الكريم ، ونبيه الجليل العظيم ، ورسوله الصادق الأمين ، الذي قال سبحانه في صفة إبلاغه ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ : [التكوير : ٢٤] فأطفأ بنور وجوده دياجي الكفر ، وأطلع في سماء الإيمان زهر الدراري ودراري الزهر ، وأضاء بأنواره غياهب الحنادس ، وأخمد به نار فارس ، وشق إيوان كسرى إنذار بزوال ملكه ، ورأى قيصر رؤياه الدالة على هلكه ، فيجب على أمته التي رفعها الله به على الأمم ، وطأطأ لها بسيوف عزمه شوامخ القمم ، أن يتخذوا ليلة ولادته عيداً من أكبر الأعياد ، ويجتهدوا في الفرح فيه غاية الاجتهاد ، ويتقربوا إليه بإكرام الغرباء والفقراء ، ويمتثلوا وصيته في إطعام اليتامى والأرامل والضعفاء ، ويتلوا قصة مولده على أسماع الأمم ، ويتحققوا عندهم ما أوجده الله بوجوده من الكرم ومحاسن الشيم ، ليتقرر في خواطرهم ماله عند الله من المكانة والإمكان ، وأنه ما خلق الله مثله من إنسان وها أنا أذكر مولده مسنداً عن الأئمة الصادقين وأتلوا قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ﴾ : [المؤمنون : ١٤] فقد روي عن مخزوم بن هانىء عن أبيه وكان قد بلغ من العمر مائة وخمسين سنة قال : ولد النبي ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول عام الفيل ، ولاثنتين وأربعين سنة من ملك كسرى أنوشروان ، ولثمان سنة وستة أشهر من ملك عمرو بن هند . وذلك أن عبد المطلب نام ليلة في الأبطح فرأى كأنه خرج منه سلسلة بيضاء لها أربعة أطراف : طرف بلغ مشارق الأرض ، وطرف بلغ مغاربها ، وطرف بلغ إلى عنان السماء ، وطرف رجع حتى صار شجرة خضراء ، فلما أصبح سأل عن ذلك ؟ فقالوا : إن صدقت رؤياك ليخرجنّ من صلبك من يؤمن به أهل السموات والأرض ، وروى كعب الأحبار ﷺ قال : لما أراد الله عز وجل خلق الموجودات ، وخفض الأرض ورفع السموات قبض قبضة من نوره وقال لها كوني محمداً فصارت عموداً من نور وأشرق حتى انتهى إلى حجاب العظمة فسجد وقال : الحمد لله ، فقال الله تعالى : لهذا خلقتك وسميتك محمداً منك أبدأ الخلق ، وبك أختم الرسل ، ثم إن الله عز وجل قسم نوره إلى أربعة أقسام : فخلق من القسم الأول اللوح ، ومن القسم الثاني القلم ، ثم قال الله تعالى للقلم : اكتب ، فارتعد من الهيبة ألف سنة ، فقال : يا رب وما أكتب ؟ قال :

اكتب لا إلـه إلا الله محمد رسول الله فكتب القلم ذلك فاهتدى إلى علم الله تعالى في خلقه فكتب : أولاد آدم لصلبه ، من أطاع الله أدخله الجنة ، ومن عصى الله أدخله النار ، أمة إبراهيم كذلك ، أمة موسى كذلك ، أمة عيسى كذلك حتى انتهى القلم إلى أمة محمد ﷺ فكتب أمة محمد من أطاع الله أدخله الجنة ومن عصى الله أراد أن يكتب أدخله النار ، فإذا النداء من العلي يا قلم تأدب فانشق من الهيبة وانقط بيد القدرة فصار ذلك عادة في القلم لا يكتب إلا أن يكون مشقوقاً مقطوطاً ، فقال له : اكتب : أمة مذنبة ورب غفور . ثم خلق الله عز وجل من القسم الثالث العرش ، ثم قسم القسم الرابع على أربعة أقسام : فخلق من القسم الأول العقل ، ومن الثاني المعرفة ، ومن الثالث نور الشمس والقمر ونور الأبصار والنهار ، فكل هذه الأنوار من نور النبي المختار فكان هو أصل المخلوقات كلها ، ثم بقي ذلك القسم الرابع من النور مستودعاً تحت العرش حتى خلق الله عز وجل آدم ﷺ فوضع ذلك النور في ظهره وأسجد له الملائكة وأدخله الجنة فكانت الملائكة تقف خلف آدم صفوفاً ينظرون إلى نور محمد ﷺ فقال آدم : يا رب ما هؤلاء الملائكة يقفون صفوفاً خلف ظهري ؟ قال الله تعالى : يا آدم ينظرون إلى نور حبيبي وصفوتي من خلقي محمد خاتم الأنبياء الذي أخرجه من ظهرك ، فقال آدم : يا رب اجعل هذا النور في مقدمي حتى يستقبلوني ولا يستدبروني فجعل الله ذلك النور في جبهته فكانت الملائكة تقف قبالة آدم فيسلمون على نور محمد ويصلون عليه ، فقال آدم : يا رب أريد أن يكون لي نصيب من هذا النور كما للملائكة فاجعله مني في كان أراه فنقل الله ذلك النور من جبهته إلى السبابة من يده اليمنى فكانت الملائكة تسبح فيسبح نور محمد ﷺ في أصبع آدم . فلذلك سميت من بين الأصابع المسبحة ، ثم قال آدم : يا رب هل بقي من هذا النور شيء في ظهري ؟ فقال : بلى بقي نور بقية صحابته ، فقال : يا رب اجعله في بقية أصابعي فجعل الله نور أبي بكر في أصبعه الوسطى ، ونور عمر في البنصر ، ونور عثمان في الخنصر ، ونور علي في الإبهام فما زالت هذه الأنوار تتلألأ في أصابع آدم ما دام في الجنة حتى أصاب من الشجرة ما أصاب فردّ الله تلك الأنوار إلى ظهره ، ثم إن الله عز وجل عرّف آدم قدر ما أودعه من السر ؛ وقال له : تطهر وسبح وقدس واغش زوجتك على طهارة منك ومنها ، فإني مخرج منكما نوري ، ففعل آدم ما أمر ربه فنقل الله ذلك النور من آدم إلى حواء فكان يرى في جبهتها دارة كدارة الشمس ، فلما وضعت شيثاً ﷺ انتقل النور إلى جنين شيث ﷺ ، فلما كبر وأخذ حدّ الرجال أخذ آدم ﷺ العهد والميثاق ألا يودع هذا السر إلا في المطهرات من النساء ليصل إلى المطهرين من الرجال ، فانتقل ذلك النور من شيث إلى أنوش ، ثم إلى قينان ، ثم إلى مهلائيل ، ثم إلى يرد ، ثم إلى أخنوخ ، ثم إلى متوشلخ ، ثم إلى لمك ،

ثم إلى نوح عليه السلام ، ثم إلى سام ، ثم إلى أرفخشذ ، ثم إلى شالخ ، ثم إلى عابر ، ثم إلى فالع ، ثم إلى راغو ، ثم إلى ساروغ ، ثم إلى ناحور ، ثم إلى تارخ ، ثم إلى آزر ، ثم إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم إلى إسماعيل ثم إلى قيذار ، ثم إلى نبت ، ثم إلى سلامان ، ثم إلى الهميسع ، ثم إلى اليسع ، ثم إلى أدد ، ثم إلى أدّ ، ثم إلى عدنان ، ثم إلى معد ، ثم إلى نزار ، ثم إلى مضر ، ثم إلى إلياس ، ثم إلى مدركة ، ثم إلى خزيمة ، ثم إلى كنانة ، ثم إلى النضر ، ثم إلى مالك ، ثم إلى فهر ؛ ثم إلى غالب ، ثم إلى لؤي ، ثم إلى كعب ، ثم إلى مرة ، ثم إلى كلاب ، ثم إلى قصي ، ثم إلى عبد مناف ، ثم إلى هاشم ، ثم إلى عبد المطلب ، ثم إلى عبد الله والد محمد ﷺ :

مـــازال نـــور محمـــد متـــنقلاً في الطيـبين الطـاهرين أولى العـلا

حـــتى لعبـــد الله جـــاء مطهـــراً ومكرمـــاً ومعظمـــاً ومـــبجلا

فلما أراد الله عز وجل إخراج تلك الوديعة من خزائن الأصلاب الرفيعة ، إلى كنز أحشاء آمنة المنيعة ، وظهرت لانتقال نوره الآيات ، وتباشرت به جميع المخلوقات ؛ نودي في جميع الأرض والسموات : يا عرش تبرقع بالوقار ، يا كرسي تدرع بالوقار ، يا كرسي تدرع بالفخار . يا سدرة المنتهى ابتهجي . يا أنوار المهابة تبلجي . يا جنان تزخرفي . يا حور من القصور أشرفي ، يا ملائكة الله اصطفي وتمنطقي بالعرش وحفي . يا رضوان افتح أبواب الجنان . وزين الحور والولدان . أطلق مجامر الطيب وعطر الأكوان . يا مالك أغلق أبواب النيران ، فإنّ النور المكنون والسر المصون المخزون . الذي في خزائن قدرتي في هذه الليلة من عبد الله ينفصل ، وإلى آمنة يتصل . وإلى أحشائها في هذه الساعة ينتقل . التي فيها يتم خلقه تماماً جلياً . ويخرج إلى الناس بشراً سوياً . فلما أذن الله سبحانه وتعالى في انتقال نور محمد ﷺ انتقل عشية الجمعة أول ليلة من شهر رجب الفرد . وقيل منتصف جمادى الآخرة وهو قول الواقدي ولم يبق في تلك الليلة دار ولا مكان إلا ودخله نور . ولا دابة إلا نطقت . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان من دلائل حمل آمنة برسول الله ﷺ أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت : حمل برسول الله ﷺ ورب الكعبة وهو أمان الدنيا وسراج أهلها . قالت آمنة : لما مر لي من حمله ستة أشهر مات أبوه عبد الله وأتاني آت في المنام فوكزني برجله ، وقال : يا آمنة أبشري فقد حملت بخير العالمين طراً ، فإذا ولدتيه فسميه محمداً واكتمي شأنك ، قالت : وفي مدة حملي به ما شكوت وجعاً ولا ألماً ولا ثقلاً ولا مغصاً ، ولقد حملت به تسعة أشهر كملاً . فلما حان وقت ولادتي أخذني ما يأخذ النساء ولم يعلم بي أحد من قومي وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه فمددت كف السؤال إلا من لا تخفى عليه خافية ، فإذا أتت بالأخت المواسية : امرأة فرعون آسية . ثم نظرت نوراً أضاء منه المكان . فإذا هي مريم ابنة عمران .

ثم شاهدت وجوهاً كالبدور . فإذا هم جماعة من الحور . فاشتد بي الطلق فاستندت على النساء . ثم أعانني عالم الغيب والشهادة على تسهيل الولادة ، فوضعت الحبيب معتمداً على يديه شاخصاً إلى السماء بعينيه ، حنت آسية عليه ، بادرت مريم إليه ، قبلت الحور قدميه ، نزل إلى المنزل جبريل ، حف به ميكائيل . جاء إلى خدمته إسرافيل أخفوه عن الأبصار . طافوا به جميع الأقطار . غمسوه في الجنة في سائر الأنهار . كتبوا أسمه على أوراق الأشجار . ثم عادوا على بالمفضل على الكونين . في أسرع من طرفة عين ، أخذته آسية تكحله فوجدته مكحولاً بكحل الهدى ، أرادت مريم أن تقطع سرته فوجدته مقطوع السرة قد زال عنه الردى ، قدمت حور العين أنواع الطيب ، طيبت به شمائل هذا الحبيب ، سارعت إلى طلعته المباركة ، ثلاثة من الملائكة ، مع أحدهم طست من الذهب الأحمر ، ومع الثاني إبريق من الجوهر ، ومع الثالث إبريق من السندس الأخضر ، فغسلوا وجه الحبيب بماء الإبريق ، وأخرجوا من الخرقة خاتم النبوة والتصديق ، وله لمعان وبريق ، وختموا به ظهر هذا النبي الشفيق ، فتم بذلك سعده والتوفيق ، وقيل لأمه آمنة : لا تدعي أحداً من العالمين ينظر إلى محمد الصادق الأمين ، حتى تنقضي عنه زيارة الملائكة المقربين . ولنا ولد محمد ﷺ وسقط اهتزّ العرش طرباً ، وزها الكرسي عجباً ، ومنعت الجنّ عن السماء ، وقالوا : لقد رأينا في طريقنا نصباً ، وضجت الملائكة بالتسبيح رغباً ورهباً ، ونشرت الرياح وأبدت سحباً ، وأمالت في الحدائق من الغصون قضباً ، ونادت الكائنات من جميع الجهات أهلاً وسهلاً ومرحباً :

نسيم الصبا أهلاً وسهلاً ومرحباً ... قدمت فأقدمت السرور إلى الربا
وجدّدت في كل القلوب مسرة ... ونشرك أضحى في الوجود مطيبا
متى أنظر الأعلام يا سعد قد بدت ... ويصبح قلبي من حماه مقرّبا
فقد زمزم الحادي بذكر محمد ... نبيّ كريم للشفاعة مجتبى
رسول عظيم مصطفى ذو مهابة ... له الله بالذكر المرفع قد حبا
فلولاه ما سار الحجيج لمكة ... ولا حنّ مشتاق لنجد ولا صبا

فسبحان من أطلع كواكب سعوده في الأكوان فطلعت ، وألمع بوارق جوده فلمعت ، وبثّ أنوار أقمار شهوده فتلألأت وسطعت ، وقطع آمال الكفار من مرادهم فانقطعت ، وأذل ملوكهم بعزه فذلت لهيبته وخضعت ، فالإنس بقدومه قد تآنست وارتفعت ، والجن من استراق السمع قد منعت ، والأملاك في الأفلاك قد سجدت وركعت ، وآمنة قد فازت بما حازت حين لجمال هذا الحبيب قد وضعت ، وحليمة الحليمة تشرفت إذ له أرضعت ، وألسنة المداح قد أثنت بشكره في الآفاق وأسمعت :

قلوبنا في الغرام قد ولعت ... ما فترت عنه لا ولا رجعت ... وأذننا شرفت ومسمعها

من طيب أذكاره التي سمعت ... طلعته تخجل البدور إذا ... ما ظهرت للعيون أو طلعت

وقده يخجل الغصون إذا ... ما نظرت قده له ركعت ... كل مليح له أقر كما

جوامح الحسن فيه قد جمعت ... محمد سيد الأنام ومن ... أعناق أعدائه له خضعت

جاءت لنا رحمة بمولده ... ومذ أمدت به فما انقطعت ... وفي ربيع جاءت بشائره

فمذ أتانا أسواؤنا دفعت ... فمثله في الأنام سائرة ... ما حملت حامل ولا وضعت

أفي الدنيا غيره بمولده ... أشرقت الأرض والسما سطعت ... وينزل الغيث والغياث به

ومن سناه البرق قد لمعت ... يا مولد المصطفى جمعت لنا ... أنواع بشر في القلوب قد زرعت

ويا ربيعاً لنا بمربعه ... أوقات أنس بالخير قد رفعت ... ليتك لو كنت دائماً أبداً

فإن أعدائنا بك انقمعت ... يا سيد المرسلين خذ بيدي ... فأدمعي من جنايتي همعت

واشفع لنا في المعاد يا أملي ... من حر نار الجحيم قد لذعت ... فمنك نرجو أن لا تخيبنا

يا من به الكائنات قد نفعت ... عليك صلى الإله ما سهرت ... عين وما في منامها هجعت

وآلك الطهر والصحاب ومن ... تحب من أمة لك اتبعت

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الرابع والأربعون

في التنزيه ، وذكر الصالحين

الحمد لله الذي اعترف بفضله كل حاضر وبادي ، واغترف من بحر بره كل رائح وغادي ، وهمعت بفضل وجوده عيون السحب الغوادي ، وسبح بحمده النهار الزاهر والليل الهادي ، ونطقت بحكمته الكائنات لذوي البصائر والعقول ، والسموات تقول : سبحان من رفعني بقدرته وأمسكني بقدرته فهو ركني وعمادي ، والأرض تقول : سبحان من وسع كل شيء علماً ، وفرش فراشه على الماء ومهد مهادي ، والجبال تقول : سبحان من قوّى أركاني وثبّت بنياني وأوتادي ، والبحار تقول : سبحان من بمشيئته أجراني وأسال عيوني وغدراني لورّادي وقصادي ، والعارف يقول : سبحان من دلني عليه وجعل إليه مرجعي ومعادي ، والعالم يقول : سبحان من فتح مسامع أفهامي ووفقني في أحكامي واجتهادي ، والعابد يقول : سبحان من أيقظني في الليل لنيل أوطاري وأقامني لأذكاري وأورادي ، والمذنب يقول : سبحان من اطلع عليّ في المعصية ورآني فسترني وغطاني وتاب عليّ لما تبت وهداني وأصلحني

بعد فسادي ، فسبحانه من إلّـه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا وينادي : هل من تائب فأتوب عليه ؟ وأنظر إليه بعين ودادي ، هل من مستغفر فأغفر له ، وأريه طريق رشادي ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ وأنجز له بالفضل ميعادي ؟ هل من سائل فأعطيه ما سأل وأجود عليه بانعامي وإرفادي ؟ فيا أيها الغافل إلى متى هذه الغفلة والتمادي ؟ انهض على قدم الندم والاعتذار ، وداو بمداومة الأذكار قلبك الصادي ، وقف في الأسحار بالذلة والانكسار بين يدي الملك الجبار ونادي :

أتيت إليك يا رب العباد ... بإفلاسي وذلي وانفرادي ... وها أنا واقف بالباب أبكي

زماناً ما بلغت به مرادي ... عسى عفو يبلغني الأماني ... فقد بعد الطريق وقلّ زادي

فأنت ذخيرتي وبك انتصاري ... وفيك توهلي وبك اعتمادي ... وعنك إشارتي وإليك قصدي

ومنك مسرتي وبك انقيادي ... ومالي حيلة إلا رجائي ... وفيك على المدى حسن اعتقادي

ولو أقصيتني وقطعت حبلي ... وحقك لا أحول عن الوداد ... فجد بالعفو يا مولاي وارحم

عبيداً ضل عن طريق الرشاد ... وقد وافى ببابك مستجيراً ... يخاف من القطيعة والبعاد

توسل بالنبيّ الطهر حقاً ... شفيع الخلق في يوم المعاد

عليه من المهيمن كل وقت ... صلاة ما حدا بالركب حادي

[وعن ثوبان رحمه الله] قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي من عدن إلى عمان إلى البلقاء ، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً . أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين » ، فقال عمر بن الخطاب ﷺ : هم الشعث رؤوساً الدنسون ثياباً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم السدد أولئك أهل الله وخواصه من عباده :

رجال لهم حال مع الله صادق ... فلا أنت من ذاك القبيل ولا أنا

تحوم على الدنيا وتبغي تزهداً ... فلا أنت معدود هناك ولا هنا

[مرّ سريّ السقطي رحمه الله] برجل ملقى على الأرض ، وهو سكران والخمر يطفح من فيه ، وهو يقول : الله الله فرفع السريّ طرفه إلى السماء وقال : إلّـهي إنسان يذكرك لا يكون هكذا ثم دعا بماء فغسل فمه ، ثم تركه ومضى . فلما أفاق الرجال قالوا : إن الشيخ السريّ قد رآك ، وفعل معك خيراً وغسل فمك فخجل واستحى ولام نفسه ووبخها . وقال : ويحك يا نفس إن لم تستح من الله ومن أوليائه فممن تستحين ؟ ثم ندم وتاب مما كان فيه وبات السريّ فرأى في منامه قائلا يقول له : يا سريّ أنت طهرت فمه لأجلنا ، ونحن طهرنا قلبه من أجلك ، فلما أصبح السريّ سأل عن ذلك الرجل فوجده في بعض المساجد وهو قائم يصلي ، فلما فرغ قال

له السري : يا أخي كيف حالك ؟ فقال : يا سيدي كيف تسأل عن حالي ، وقد أخبرك الكريم أنه طهّر قلبي من أجلك وأصلح بالي ؟ قال : وقد أعلمك بهذا ؟ قال : الذي طهر قلبي من سواه ، وجاد عليّ بعفوه ورضاه :

من مثل ربك تعصيه وتهجره ويسبل الستر يا ذا الغدر فارتدع
يا ناقض العهد يا من حاله قبحت مع الإله بلا خوف ولا جزع
ضيعت عمرك تسويفاً بلا عمل تمسي وتصبح بين الحرص والطمع
وتسمع الوعظ لا تنهاك زاجرة بل أنت في غفلة عن ذاك فاستمع
فقم لتقرع باباً للذي كثرت للسائلين عطاياه وأنت معي
لعله أن يرانا تائبين له يمنّ بالعفو عن عصياننا الشنع

[قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى] : رأيت غلاماً نحيفاً مصفر اللون دقيق الساقين يمشي في البرية بلا زاد ولا ماء ولا نعل فسلمت عليه وقلت له : ما لي أراك على هذه الحالة ؟ فبكى وأنشد :

ذاب مما بفؤادي بدني وفؤادي ذاب مما في البدن اقطعوا حبلي وإن شئتم صلوا
كل شيء منكمو عندي حسن صح عندي الناس أني واله غير أن لم يعلموا حبّي لمن

قال ذو النون المصري : ثم لا أدري أين ذهب ، يا هذا أطيب المعاملة ما طاب منهلاً ، وأعذب الموارد ما راق وحلا ، ما صفا عيش القوم حتى قلبهم في قليب الابتلا ، سكن قلوبهم بسكينة المسكنة وقطع منها أرباً وأملاً ، ونادى عليهم في سوق الشوق بين الملا ، أتصبرون على البلاء قالوا : بلى ، فسقاهم رحيق التوفيق ختامه مسك التصديق ، فعابوا على النفس وغابوا في فلوات التحقيق ، وتلذذوا بالفقر والفاقة في سلوك الطريق ، فأنسوا بخلواتهم في البرّ الأفقر ، لهم تهافت عند ذكر الحبيب الأكبر ، ولهم تواجد عند سماع « ربّ أشعث أغبر » كان أويس القرني رحمه الله إذا جاع يأتي المزابل فأتاها يوماً فإذا كلب ينبح عليه ، فقال له : لا تؤذ من لا يؤذيك أنت تأكل مما يليك ، وأنا آكل مما يليني ، فإن دخلت الجنة فأنا خير منك ، وإن دخلت النار فأنت خير مني :

ذل الفتى في الحبّ مكرمة وخضوعه لحبيبه شرف
وإذا تذلل عزّ قدراً في الهوى وأتته بعد الفاقة التحف

[وقال سري السقطي رحمه الله] : دخلت المقبرة فرأيت بهلولا المجنون على قبر يتمرّغ على التراب فقلت له : ما جلوسك ههنا ؟ فقال : أنا عند قوم لا يؤذونني ، وإن غبت عنهم لا يغتابونني فقلت له : الخبز قد غلا ، فقال : والله ما أبالي ولو حبة بدينار ، علينا أن نعبده كما

أمرنا ، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا . وقيل : إن رابعة العدوية رحمها الله مرت برجل وهو يذكر الجنة وما أعد الله فيها ، فقالت له : يا هذا إلى متى تشتغل بالأغيار عن الواحد الجبار ؟ ويحك عليك بالجار ثم الدار ، فقال لها : اذهبي يا مجنونة فقالت : أنا لست بمجنونة ، وإنما المجنون من لم يفهم ما أقول يا مسكين الجنة سجن من لم يكن الله أنيسه ، والنار بستان من كان الله مؤنسه وجليسه ، ألا ترى إلى آدم لما كان في الجنة كان يرتع ويتهنى فلما تعرض للأكل من الشجرة صارت عليه سجناً ، وإبراهيم الخليل لما حفظ سره لمولاه قربه واجتباه ، فلما طرح في النار صارت عليه برداً وسلاماً :

فروحي وريحاني إذا كنت حاضراً وإن غبت فالدنيا عليّ محابس
إذا لم أنافس في هواك ولم أغر عليك ففيمن ليت شعري أنافس

[قيل : كان حبيب النجار رحمه الله] من الأولياء الأخيار الأتقياء الأبرار يقوم الليل ويصوم النهار ، ويؤثر بطعامه عند الإفطار ، ويبيت طاوياً في خدمة الملك الغفار ، فإذا كان وقت الأسحار ناجى ربه ، وقال بلسان الذلة والانكسار : غرقت في بحار غفلتي ، وركضت في ميدان صبوتي ، وعثرت بأذيال ذلتي ، وتحيرت في بيداء شقوتي ، ومالي غيرك أعتمد عليه ، ولا أعرف باباً غير بابك فألتجىء إليه ، وها أنا عبدك الذليل المذنب العليل قد وقفت ببابك ولذت بجنابك ، فإن لم ترحمني فيا ذلي ويا شقوتي ، وإن لم تعف عني فيا طول حسرتي ، ثم يسجد فلا يرفع رأسه حتى يطلع الفجر ، فإذا صلى وفرغ شرع في القراءة من أول الختمة إلى آخرها بقية يومه فلما مات كان آخر آية تلاها في سورة يس قوله تعالى ﴿ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ : [يس : ٢٤] فلما دفن سأله ملائكة ربه عن الإيمان . فقال : ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ : [يس : ٢٥ ـ ٢٦ـ٢٧] فلله درّهم من أقوام قاموا يناجون الحبيب والناس نيام ، يتحملون أثقال الوجد والغرام ؛ ويفرحون بالليل إذا جنّ الظلام ، فهم غداً في جنان الخلد يتنعمون ، وإلى وجه الحبيب ينظرون ، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا يحزنون :

ـه قوم بذكره اشتغلوا وفي حمى قربه لقد نزلوا ليس لهم غير ذكره فرح
ـهم حقيقاً عليه قد حصلوا من ذاق وصل الحبيب هام ولم يحل له منزل ولا طلل
بروحهم في وصاله سمحوا وحققوا ربحهم وما جهلوا قاموا يناجونه وقد عملوا
بأنهم للمعاد قد عملوا فاستعذبوا الصعب في هواه وقد لذّلهم في رضاه ما حملوا

[قال أبو بكر بن عبد الله رحمه الله] : تهت في بادية العراق أياماً فلم أجد شيئاً أرتفق به فبينما أنا سائر إذ رأيت خيمة من شعر لبعض العرب فقصدتها فإذا على باب الخيمة ستر مسبل

فسلمت فردّت علي السلام عجوز من داخل الخباء ، وقالت : من أين الرجل ؟ قلن : من مكة ، قالت : وأين تريد ؟ قلت : الشام ، قالت : أرى سيحك سيح البطالين هلا لزمت زاوية تعبد الله فيها إلى أن يأتيك اليقين ثم تنظر في هذه الكسرة التي تأكلها إن كانت من حلال فتجوهر باطنك ثم قالت لي : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم قالت: فاقرأ عليّ آخر سورة الفرقان فقرأتها فصرخت وأغمي عليها فلمّا أفاقت قالت : لما قرأت هذه الآيات اقشعر جلدي لقراءتها ثم قالت لي : اقرأها ثانية فقرأتها فلحقها مثل ما لحقها في المرة الأولى ثم مكثت طويلاً فقلت في نفسي : ترى ماتت أم لا ؟ فرجعت ذاهباً مقدار نصف ميل فأشرفت على واد فيه عرب فابتدرني غلامان ومعهما جارية فقال لي أحد الغلامين : يا هذا أتيت على الخيمة الشعر التي بالفلاة ؟ قلت : نعم قال : قرأت القرآن عند العجوز ؟ قلت : نعم قال : ماتت ورب الكعبة ، فمضيت مع الغلامين حتى أتينا الخيمة فدخلت الجارية وكشف عن وجه العجوز فإذا هي ميتة فعجبت من خاطر الغلام ثم قلت للجارية : من هذان الغلامان ؟ فقالت : هما شريفان جعافرة وهذه أختهما منذ ثلاثين سنة لم تستأنس بكلام أحد من الناس وإذا نزلوا بواد انفردت عنهم وضربت خيمتها في الفلاة وحدها ، وكانت تأكل كل ثلاثة أيام مرة واحدة .

[**إخواني**] إلى متى تشتغلون في اللذات الفانيات عن الباقيات الصالحات ، بادروا الأوقات واستدركوا الهفوات وكفوا عن الشبهات ، أما أيقظكم منادي الشتات ، أما هزّكم حديث الصالحين والصالحات ، إذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات ، وإذا أقبل الليل ضجوا فيه بحنين الأصوات ، ليس لهم إلى غير محبوبهم التفات ، فهم الأبطال والسادات :

حياتنا باطل غرور ... وعمرنا ذاهب قصير
والناس في غفلة نيام ... وقد دعتهم لها القبور
والعمر يمضي وليس ندري ... مثل سفينٍ بنا تدور
يا نفس ما سرّ فهو حزن ... لا تحسبي أنه سرور
تذكري الموت واستعدي ... له فقد جاءك النذير

[قال عبد الرحمن القرشي] : كنت أصحب إبراهيم بن أدهم وأسوح معه فسرنا في طريق الحجاز ثلاثة أيام لم نستطعم فيها بطعام ولا شراب فقلقت فعرف ما بي من الجوع فجلس ورنق وجلست إلى جانبه ، وإذا برغيف سخن سقط في حجري فرفع إبراهيم رأسه وقال لي : كل فأكلت نصفه فشبعت ثم سرنا فمررنا بقافلة قد حبسها الأسد عن المسير فتقدم إبراهيم إليه وقال له : يا قسورة إن كنت قد أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فاذهب فولى الأسد هارباً وسار القوم فقالوا له : بالله عليك يا سيدي إلا ما دعوت لنا فنحن نخاف في السفر ، فقال

لهم : قولوا اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام ، واكنفنا بكنفك الذي لا يضام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، لا نهلك وأنت رجاؤنا . قال عبد الرحمن : فلقيت رجلاً من أهل القافلة بعد مدة فسألته ، فقال : والله مذ كنا ندعو بهذا الدعاء الذي علمنا الشيخ ما مرّ بنا سبع ولا لص ولا مرجف ثم ركب معنا ذلك الرجل في مركب في البحر فعصفت الريح وهاجت الأمواج واضطرب المركب وخفنا الغرق فبكى الناس وضجوا فقال : الرجل : يا قوم معنا في السفينة شيخ صالح كان من أمره كيت وكيت فسلوه أن يدعو لكم فأتيناه وهو نائم في ناحية السفينة ملفوف رأسه في الكساء فأيقظناه وقلنا له : يا سيدي أما ترى ما الناس فيه من الشدة فرفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك ، قال : فما استكمل كلامه حتى سكنت الريح وهدأ الموج وسارت السفينة . قال عبد الرحمن : فلما نزلنا من السفينة سرنا أياماً فهلكت من الجوع فشكوت إليه فأخذ المزود ورقى إلى شجرة البلوط فملأ المزود ثم أتى به فإذا هو رطب جني فما أكلت شيئاً ألذ منه ولا أطيب . قال : وعطشت معه في بعض السياحات ليلاً فشكوت إليه ذلك ، فقال لي : اشرب فنظرت فإذا دلو قد دُلي من الهواء وفيه ماء لم أذق أطيب منه طعماً ولا أحسن ريحاً فشربت منه حتى رويت فكنت بعد ذلك أصوم في الهواجر فلا أجوع ولا أعطش ، هؤلاء والله الأقوام صفوة الملك العلام :

قوم إذا عبث الزمان بأهله ... كان المفر إلى الزمان إليهم ... وإذا أتيتهمو لدفع ملمة
جادوا عليك بما يكون لديهم ... فإذا أتيتهمو أنخ بجنابهم ... أو لا تنخ فاقر السلام عليهمو

فلله درهم من رجال ما تركوا في قلوبهم لغير محبوبهم من مجال قد أسبلوا العبرات على الوجنات ووصلوا الزفرات بالحسرات ، ونادوا : يا من لا تحيط به الصفات ، أنقذنا من ظلم الآفات ، فلو تراهم وقد براهم الوجد ، وأنحلهم الشوق ولم يشكوا ألماً ولا ضرراً ، وناجاهم الحبيب وناداهم بالترحيب سحراً ، وركبوا خيل الليل وساروا فحمدوا عند الصباح السري :

لله درّ رجال واصلوا السهرا ... واستعذبوا الوجد والتبريح والكفرا
قوم نجوم الهدى في الليل تعرفهم ... هم الملوك هم السادات والأمرا
كل غدا قلبه بالله مشتغلاً ... عمن سواه وللذات قد هجرا
يمسي ويصبح في وجد وفي قلق ... مما جناه من العصيان منذعرا
يقول يا سيدي قد جئت معترفاً ... بالذنب فاغفره لي يا خير من غفرا
حملت ذنباً عظيماً لا أطيق له ... ولم أطع سيدي في كل ما أمرا
عصيته وهو يرخي ستره كرماً ... يا طالما قد عفا عني وقد سترا
يا طالما كان لي في كل نائبة ... إذا استغثت به في كربة نصرا

وإنـني تائب مما جنيـت وقـد وافيت بابك يا مولاي معتذرا
لعـلّ تقبـل عـذري ثم تجـبرني يوم الحساب إذا وافيت منكسرا
وقـد أتيـت بـذلي راجيـاً كرمـاً إليك يا سيد السادات مفتقرا
وقد تشفعت بالهادي البشير ومن فاق النبيين والأملاك دون مرا
تالله لو لم يكن في الأرض ما نبتت زرعاً ولا أنزل الباري بها مطرا
متى أسير إلى ذاك الجناب متى أحظى برؤيته أقضي بها وطرا
صلى عليه إلٓه العرش ما ركضت نوق وما زمزم الحادي لها وسرى

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الخامس والأربعون

في محبة الله عزّ وجل

الحمد لله ذاكراً من كان له ذاكراً ، وشاكر من كان له شاكراً ، الذي عمت رحمته أوّلاً وآخراً ، وكفلت نعمته مؤمناً وكافراً ، وأسهر عيون أهل محبته في خدمته ، فالسعيد من بات في طاعته ليلاً ساهراً ، شغلهم بحبه ولذذهم بعتبه فأصبح شذاهم بتقواهم في الأكوان عابقاً عاطراً ، سامرهم في خلوة التقريب عند غفلة الرقيب ، ويا فوز من له الحبيب مسامراً ، سقوا بساتين أشجانهم بماء دموع أحزانهم فأصبح روض إيمانهم زاهياً زاهراً ، وخربوا ربوع هواهم زهداً في دنياهم ورغبة في أخراهم فأضحى ربيع تقواهم بمولاهم عامراً ، دعاهم إلى مشاهدة جماله وجعل لهم من الجزيل نواله وأفضاله نصيباً وافراً :

فهـم الـذين تمزقـوا في حبـه وتهتكـوا فـرأوا جمـالاً بـاهرا
فوجـوههم بضيائه قـد أشـرقت وشذاهمو في الكون أصبح عاطرا
ركبوا نجائب شوقهم تحت الدجى فلأجل ذا حمدوا سراهم باكرا
قـد خصهم بـالقرب منه وبالرضا وكسـا وجـوههم ضياء مزهـرا
مـولى إذا العاصـي ألمّ ببابـه غفر الذنوب لـه وأضحى ساترا
وإذا أتـاه الطـالبون لفضلـه أعطـاهمو منـه نصـيباً وافـرا

فسبحانه من إلٓه لم يزل عظيماً قادراً حليماً غافراً ، كريماً ساتراً حاكماً على الخلائق بسطوته

قاهراً ، عادلاً في حكمه لا خائفاً ولا جائراً ، من عامله أربحه بعدما كان خاسراً ، ومن لجأ إليه بذله وفقره كان لذله راحماً ، ولكسره جابراً ، ومن عصاه بجهله ثم تاب إليه من قبيح فعله كان لذنوبه غافراً ، ومن ذكره في نفسه كان له بين ملائكة قدسه ذاكراً ، ومن تقرّب منه شبراً تقرّب منه ذراعاً وافراً ، من طلبه عند شدّته ودعاه عند كربته وحده لضره كاشفاً ولخذلانه ناصراً :

أنت الذي ما زلت مني حاضرا ... ولناظري يا نور عيني ناظرا
ولقلبي الملهوف شغلاً شاغلاً ... ولمسمعي أبداً حديثاً سائرا
فإذا نظرت فأنت قبلة ناظري ... حيث اتجهت رأيت نوراً باهرا
وإذا سمعت فعنك أسمع دائماً ... وإذا نطقت فعنك أروي ماهرا
أنت الذي مازلت لي في وحدتي ... عند انفرادي مؤنساً ومسامرا
ما رمت منك على الحقيقة نصرة ... إلا وجدتك لي معيناً ناصرا
كلا ولا ناديت في غسق الدجى ... يا رب إلا كنت مني حاضرا
أبداً يناجيك الضمير وطالما ... أبدى العيان له دليلاً طاهرا
فلأنت سري في الفؤاد ولم تزل ... في خاطري في كل وقت حاضرا
يا من غدا مأوى الطريد ومن له ... باب ينيل الوفد براً وافرا
أنعم وجد فرضاك غاية مقصدي ... وسحاب دمعي فيك أضحى ماطرا
فامنن عليّ بتوبة أمحو بها ... وزري وكن لي بعد كسرى جابرا

أحمده أوّلاً وآخراً ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلصة ليس فيها شك ولا مراً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي نبع الماء من بين أصابعه وجرى ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما حدا الحادي إليه وسرى .

[إخواني] اعلموا أن المحبة معنى يدق في الأفكار ، ويخفي عن الأسرار ، فهي للخواص نور ، وللعوام نار ، ما علق الحب بقلب امرىء ولا حلّ إلا تلاشى واضمحل ، فالحب حرفان حاء وباء ، فحاؤه حتف وباؤه بلاء ، فهو في الحقيقة داء ، يستخرج لذائقه من صفو رائقه دواء وشفء ، فأوله فناء وآخره بقاء ، وظاهره تعب وعناء ، وباطنه سرور وهناء ، هو لمن جهله شقاء ، ولمن عرفه شفاء ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ : [فصلت : ٤٤] فالناس في المحبة على أنواع وأجناس ، ومحبو الله هم خلاصة الناس . قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ : [البقرة : ١٦٥] قال ابن عباس : أثبت وأدوم . وذلك أن المشركين كانوا إذا عبدوا صنماً ورأوا شيئاً أحسن منه تركوا

ذلك الوثن وأقبلوا على عبادة الأحسن . وقال عكرمة : أشد حباً لله في الآخرة . وقال قتادة : إن الكافر يعرض على معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى وذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ : [العنكبوت : ٦٥] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ : [الإسراء : ٦٧] والمؤمن لا يعرض عن الله في السرّاء والضرّاء والرخاء والبلاء ولا يختار عليه سواه . وقال الحسن : إن الكافرين عبدوا الله واسطة . وذلك قولهم للأصنام : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ : [الزمر : ٣] وقولهم : ﴿ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ : [يونس : ١٨] والمؤمنون عبدوا الله تعالى بلا واسطة وذلك قوله عزّ وجل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ : [البقرة : ١٦٥] وقيل : لأن المشركين يحبون أنداداً كثيرة فحبهم مشترك . وأما المؤمنون فحبهم غير مشترك لأنهم يحبون إلـهاً واحداً . وقيل : إن الكفار يتخذون معبودهم مصنوعهم ، والمؤمنون يرون الله تعالى صانع كل مصنوع وخالق كل مخلوق . وقيل : لأنهم أحبوا الأصنام وعاينوها ، والمؤمنون يحبون الله تعالى ولم يعاينوه بل آمنوا بالغيب فلأجل ذلك وعدهم الله بالنظر إليه في الآخرة ، وقيل : إنما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ لأن الله عزّ وجل أحبهم أولاً ثم أحبوه ثانياً ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم وأصح ، قال الله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ : [المائدة : ٥٤] .

[وقال سفيان الثوري] في قول الله عزّ وجل : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] قال : هو الحب ، وقال أبو الدرداء ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « كان داود عليه السلام يقول : اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك ، والعمل الذي يبتغي حبك . اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد » .

[وعن أنس بن مالك ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب الله تعالى فليحبني ، ومن أحبني فليحب أصحابي ، ومن أحبّ أصحابي فليحب القرآن ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أبنية أذن الله تعالى برفعها وتطهيرها وبارك فيها فهي ميمونة ميمون أهلها محبوبة محبوب أهلها فهم في صلاتهم والله تعالى في حوائجهم ، وهم في مساجدهم والله تعالى في نجح مقاصدهم » .

[وعن أبي هريرة ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل » وفي رواية : « قال لجبريل عليه السلام ناد في أهل السماء والأرض أن الله عزّ وجل يحب فلاناً فأحبوه فعند ذلك يلقى حبه في الأرض ويقع في الماء فيشربه البر والفاجر فيحبه البر والفاجر وإذا أبغض الله عبداً أمر الله تعالى جبريل أن ينادي بالعكس من ذلك فيبغضه البر والفاجر » . وفي

هذا الخبر حكاية عن ثابت البناني رحمه الله أنه دخل على خليفة من الخلفاء . فقال له الخليفة : ما كان يدعو صاحبك صالح اليماني رحمه الله في دعائه ؟ فقال ثابت : كان يقول في دعائه : اللهم حببني إلى قلوب عبادك ، فقال الخليفة على سبيل الاستخفاف : وهذا كان دعاؤه ؟ فقال ثابت : أتستخف في هذا الدعاء وقد سمعت أنس بن مالك ﷺ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى إذا أحبّ عبداً نادى جبريل ﷺ إني أحب فلاناً فأحبوه » إلى آخره ، فقال الخليفة : تبت إلى الله تعالى وأنبت ، قال ثابت : فرجعت إليه من الغد فقام بين يديّ وعانقني وقبل رأسي ، وقال : نبهك الله كما نبهتني ، إني رأيت البارحة في المنام كأني دخلت على رسول الله ﷺ في مسجده ، فقال دم على قولك : اللهم حببني إلى قلوب العباد ، فإن أولياء الله لا يحبون عبداً إلا بعد أن يحبه الله ، ثم سلمت عليه وانصرفت .

[وكان أبو يزيد البسطامي رحمه الله] يقول في مناجاته : إلـهي لست أعجب من حبي لك وأنا عبد حقير ، وإنما أعجب من حبك لي وأنت ملك قدير . وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول في مناجاته : إلـهي ليس العجب من عبد ذليل يحب ربّاً جليلاً ، بل العجب من رب جليل يحب عبداً ذليلاً .

[وقال بعض العارفين] : الحب حب يبذر في أرض القلوب ويسقى بماء العقول فيثمر على قدر طيب الأرض وصفو الماء ، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً .

[وعن أنس بن مالك] عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإسلام : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

[وعن أبي هريرة ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون لجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » .

[وعن معاذ] قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » .

[وقيل] : كانت لعبد الله بن الحسين جارية أعجمية . قال : فكانت ذات ليلة نائمة فرأيتها قامت وتوضّأت ، ثم قامت تصلي ، فلما فرغت خرت ساجدة ، وهي تقول : سيدي بحبك لي إلا ما غفرت لي فقلت لها : ويحك لا تقولي هكذا ، ولكن قولي بحبي لك فربما هو لا يحبك . فقالت لي : يا بطال لولا حبه لي لما أنامك وأوقفني بين يديه ، وبحبه لي أخرجني من دار المشركين وكتبني في ديوان المؤمنين ، فقلت لها : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى . قالت : يا

مولاي أسأت إليّ كان لي أجران فصار لي أجر واحد ، ثم صرخت صرخة وقالت : هذا عتق مولاي الأصغر فكيف عتق مولاي الأكبر ، ثم خرّت ميتة . هذه والله صفات المحبين المتعلقة قلوبهم بحب رب العالمين :

الحب فيه حلاوة ومرارة ... وتنسك وتهتك ببشائر
ما شاء يصنع بالمحب فإنما ... حكم الهوى بيد الحبيب الآمر
لو كنت أملك في الهوى أمر الذي ... أهوى لكان مؤانسي ومسامري
لكن قيادي في يديه فتارة ... يجفو وطوراً حين يحنو زائري

[قيل] لبعض المحبين : كيف رأيت المحبة ؟ فقال : وقفت على ساحل بحر زاخر ماله من آخر فقرب مني قارب : « من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً » ، فكبت موافقة له واتباعاً ، فأجابت الروح من دعاها : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ : [هود : ٤١] ، فلما توسطت اللجة توعرت سبل المحبة فما زلت حتى جمعني في مجمع بحري ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ : [المائدة : ٥٤] فأنا بين البقاء والفناء ، حتى أصل ذلك الفناء :

حروف المحبة مرموزها ... يبشرنا ببلوغ المنى ... فميم الممات وحاء الحياة
وباء البلاء وهاء الهنا ... فلا تطمعنّ بطيب اللقا ... وطول البقا بدون الفنا
حمينا الوصال بحد النصال ... فإن تلق سمر القنا تلقنا ... فلا تجزعن لمرّ النكال
وحر الوبال ففيه الهنا ... ومت مثل ما مات أهل الهوى ... وذابوا اشتياقاً فنالوا المنى

[وعن أبي سليمان الداراني رحمه الله] أنه كان يقول في بعض مناجاته : سيدي لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك ، ولئن طالبتني ببخلي لأطالبنك بجودك وكرمك ، ولئن طالبتني بإساءتي لأطالبنك بإحسانك . ولئن أدخلتني النار لأخبرن أهل النار بأني أحبك ، فنودي أن يا أبا سليمان لا ندخلك النار بل ندخلك الجنة فتخبر أهلها بمحبتنا ، ولا تخبر أهل النار بمحبتنا فإن مكان المحبين الجنة ، ومكان الأعداء النار :

من ألم الهجر إليك الفرار ... يا سالبي في الحب طيب القرار ... عذب بغير الهجر قلبي تجد
له على غير جفاك اصطبار ... النار مع أنسك لي جنة ... وروضة الجنة إن غبت نار
يهواك طرفي وفؤادي معاً ... والروح من هذا وهذا تغار ... فإن دخلت النار أخبرتهم
أني محب لك لكن أغار ... عليك أن قالوا محب له ... عذابه بين الأعادي جهار

[إخواني] المحبة عروس ، مهرها النفوس ، ولها تخضع الرقاب والرؤوس ، فهي تجلى على الأسرار وتصفو بها الأكدار ، فهي للعارف نور وللجاهل نار ، إذا مزجت خمرة المحبة على أهل الصفاء حضرت قلوب أهل الوفاء ، فالذكر ألحانها ، والتوحيد ريحانها ، والشكر ترجمانها

والهيبة سلطانها ؛ فأهل المحبة فتحت لهم أبواب جنة الوصال يتنعمون فيها بالغدو والآصال ، والحبيب يتجلى عليهم بلا حجاب ، وملائكة السرور يدخلون عليهم من كل باب . فالذين يتلون الكتاب طوبى لهم وحسن مآب . والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب متكؤون فيها على الأرائك نعم الثواب .

[كان وكان]

ما كل واصل موصل ... ولا العنا يدني المناب ... هذي سوابق لواحق ... لمن يشا الوهاب

كم قد رأينا عاشق ... صادق وآخر يدّعي ... هذا مجالس مؤانس ... وذاك برا الباب

لاتدّعي الحب فينا ... وفي فؤادك غيرنا ... نخاف عليك ينادي ... يا مدعي كذاب

لكن إذا شئت فاصبر ... على مرارات الشقا ... واخضع إذا شئت تحسب ... من جملة الأحباب

[وعن يوسف بن الحسين رحمه الله] قال : سمعت ذا النون المصري يقول : بينا أنا مار في شوارع مصر إذ رأيت جارية مسفرة بغير خمار ، فقلت لها : يا جارية أما تستحين أن تمشي بغير خمار ؟ فقالت : يا ذا النون وما يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصفرار ؟ فقال ذو النون : ومن أي شيء علاه الاصفرار ؟ قالت : من محبته ، فقلت : يا جارية عساك تناولت شيئاً من شراب القوم . فقالت : اسكت يا بطال شربت بكأس ودّه ونمت مسرورة ، فأصبحت بحب مولاي مخمورة . فقلت : يا جارية عسى فائدة أنتفع بها منك أو وصية أرويها عنك فقالت : يا ذا النون عليك بالسكوت حتى يتوهموا أنك مبهوت ، وارض من الله بالقوت يُبْنَ لك بيتاً في الجنة من ياقوت ، ثم أنشدت :

تهتك ولا تخش في الحب عارا ... وإياك إياك تبدي استتارا ... وبادر إلى الباب مع فتية

لهم في الظلام عيون سهارى ... وإن خفت عند المسير الضلال ... فوجه حبيبك يهدي الحيارى

أيها العارف إذا سرى نسيم المحبة إلى مسامّ القلوب ، ارتاحت إلى لقاء المحبوب ، فسمعت المناجاة في الأسحار لأهل القلوب والأسرار ، فكل أجاب على حسب ما حصل له من الأحوال المترجمة على لسان الحال : أيها الحزين علينا كيف وصلت إلينا ؟ قال : ركبت جواد توكلي عليه واشتياقي إليه فلما شعرت إلا وأنا بين يديه : أيها الخائف من الفوت كيف رأيت الموت ؟ قال : استعذبت التعذيب في رضا الحبيب ، فرأيت فضله سابقاً وجواد عزمي لاحقاً ، فكيف لا أرجو أن أنجو وأنا برحمته واثق : أيها الزاهد كيف عهدك بتلك المعاهد ؟ قال : سمعته يقول : في البذل والإنفاق ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ : [النحل : ٩٦] فتركت ما عندي لما عنده وغمضت عيني على الفاني فما فتحتها إلى على الباقي : أيها المحب لنا كيف كان اتصالك بنا ؟ قال : وهل كانت إلا شربة شربتها في حضرة : يحبهم . فسكرت بها في خلوة :

ويحبونه . فما أفقت من ذلك المشروب إلا بمشاهدة المحبوب :

لما علمت بأن قلبي فارغ ممن سواك ملأته بهواك
وملأت كلي منك حتى لم أدع مني مكاناً خالياً لسواك
فالقلب فيك هيامه وغرامه والنطق لا ينفك عن ذكراك
والطرف حيث أجيله متلفتاً في كل شيء يجتلى معناك
والسمع لا يصغي إلى متكلم إلا إذا ما حدّثوا بجلاك

[وروي عن الربيع من خيثم رحمه الله] أنه كان يديم السهر فقالت له ابنته : يا أبت من أفضل خلق الله عزّ وجل ؟ قال : محمد ﷺ ، قالت : بحرمة محمد نم هذه الليلة ، فقال : يا رب أنت تعلم أن السهر أحب إليّ من النوم ولكن لأجل ما أقسمت ابنتي عليّ بمحمد أنام هذه الليلة فنام فرأى في المنام أن في البصرة أمة يقال لها ميمونة تكون زوجتك في الجنة . فلما أصبح خرج إلى البصرة ، فلما سمع أهل البصرة بقدومه تلقوه ، فلما دخل قال : عندكم امرأة لها ميمونة ؟ قالوا : وما تصنع بميمونة المجنونة هي ترعى الغنم بالنهار وتشتري بأجرها تمراً فتفرقه على الفقراء وتصعد في الليل على سطح لها أحداً ينام من كثرة البكاء والصياح قال لهم : فما تقول في صياحها ؟ فقالوا : تقول :

عجباً للمحب كيف ينام كل نوم على المحب حرام

فقال : والله ما هذا كلام المجانين ، دلوني عليها ، فقالوا : هي في البراري ترعى الأغنام فخرج إليها فوجدها قد اتخذت محراباً وهي وتصلي فيه ورأى الغنم ترعى والذئاب تحرسها فتعجب من ذلك . قال الربيع : فلما فرغت من صلاتها قلت : السلام عليك يا ميمونة قالت : وعليك السلام يا ربيع ، قلت : كيف عرفت اسمي ؟ قالت : سبحان الله الذي عرفني باسمك الذي أخبرك البارحة في المنام أني زوجتك ولكن ليس الموعد ههنا ، الموعد بيننا غداً في الجنة فقلت لها : كيف اجتماع الذئاب بالغنم ؟ فقالت : لما تعلق حبه بقلبي واحتكم ، تركت الدنيا من قلبي فأصلح ما بين الذئاب والغنم ، ثم قالت : يا ربيع أسمعني شيئاً من كلام سيدي فقد اشتاقت نفسي إليه فقرأت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ : [المزمل : ١-٢] وهي تسمع وتبكي وتضطرب إلى أن وصلت إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ : [المزمل : ١٢-١٣] فصرخت صرخة فخرّت ميتة فتحيرت في أمرها فجاءت جماعة من النساء فقالت : نحن نغسلها ونجهزها فقلت : من أين عرفتنّ موتها ؟ قلن : كنا نسمع دعاءها وهي تقول : اللهم لا تمتني إلا بين يدي الربيع . فلما سمعنا بحضورك إليها علمنا أن الله استجاب دعاءها . إخواني إذا أصلح الله أرض قلب قلبها بمحرات الخوف وبذر فيها حب الحب وسقاها

بماء الدمع فأنبتت زرع ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ : [المائدة : ٥٤] سبحوا في بحر حبه وعاموا ولازموا الخدمة على بابه وقاموا وواظبوا على امتثال أوامره وداموا وتولهوا فيه فلأجل ذلك سهروا في الليل ولم يناموا فإذا ماتوا من حبه شوقاً إليه لم يلاموا :

أهل المحبة بالمحبوب قد شغلوا ... وفي محبته أرواحهم بذلوا
وخربوا كل ما يفنى وقد عمروا ... ما كان يبقى فيا حسن الذي عملوا
لم تلههم زينة الدنيا وزخرفها ... ولا جناها ولا حلْيٌ ولا حلل
هاموا على الكون من وجد ومن طرب ... وما استقلّ بهم ربع ولا طلل
داعي التشوق ناداهم وأقلقهم ... فكيف يهدوا ونار الشوق تشتعل
من أول الليل قد سارت عزائمهم ... وفي خيام حمى المحبوب قد نزلوا
وافت لهم خلع التشريف يحملها ... عرف النسيم الذي من نشره ثملوا
هم الأحبة أدناهم لأنهمو ... عن خدمة الصمد المحبوب ما غفلوا
سبحان من خصهم بالقرب حين قضوا ... في حبه وعلى مقصودهم حصلوا

[وقال عبد الله بن الفضل رحمه الله] : لما توفي يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله رؤي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قيل بماذا ؟ قال : كنت أقول في مناجاتي إلـهي إن كنت مقصراً في خدمتك ، فما كنت مقصراً في محبتك .

[وقال ذو النون المصري رحمه الله] : سمعت برجل باليمن قد سما على المحبين وفاق على المجتهدين وعرف بالعلم والحكمة فخرجت حاجاً . فلما قضيت نسكي مضيت إليه لأسمع كلامه وأنتفع بموعظته أنا وأناس معي يطلبون مثل ما أطلب ، وكان معنا شاب عليه سيما الصالحين وشعار المحبين ، فخرج الشيخ إلينا فجلسنا إليه فبدأ الشاب بالسلام والكلام ، فصافحه الشيخ ، أقبل عليه ، فقال له الشاب : يا سيدي قد جعلك الله طبياً لأسقام القلوب وبي جرح قد أعيا الأطباء ، فإن رأيت أن تتلطف بي ببعض مراهمك فافعل . فقال الشيخ : عما بدا ذلك فاسأل . فقال : ما علامة الحب لله ؟ قال : أن تنزل نفسك منزلة السقيم ألا تراه يحتمي عن الطعام حذاراً من السقام ، فصاح الفتى صيحة ظننا روحه قد خرجت فلما أفاق قال : يرحمك الله فما علامة المحبين ؟ قال : إن درجة المحبين رفيعة ، فقال : صفها لي ، فقال : إن المحبين لله تعالى نظروا إلى نور جلال الله فصارت أبدانهم روحانية وعقولهم سماوية تسرح تسرح بين صفوف الملائكة بالعيان ، وتشاهد تلك الأمور باليقين فعبدوه بمبلغ استطاعتهم لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره . قال : فشهق الفتى شهقة خرجت فيها روحه فعجل الشيخ يبكي ويقبله ويقول : هذا والله مصرع الخائفين ، وهذه درجة المحبين :

يا مالك القلب رقا رفقاً بعبدك رفقا قد لذ فيك وجدي فلست بالوجد أشقى
فلا أرى للتشكي بما أنا منك ألقى فإن أمت فسروري بأن أموت وتبقى

[وعن الحسن البصري] قال : أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ : أن يا داود أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي . فقال : يا رب أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال : ذكرهم آلائي ونعمائي فإنهم لم يعرفوا مني إلا الحسن الجميل :

يا من له فضل عليّ جميل هل لي إليك إذا اعتذرت قبول
فأنا المقرّ بسوء فعلي سيدي وبحسن ظني عندك المقبول

[وقيل] : إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل ﷺ : إنك لي خليل ، وأنا لك خليل فاحذر أن أطلع على قلبك فأجده مشتغلاً بغيري فأقطع حبك مني فإني إنما أختار لحبي من لو أحرقته بالنار لم يلتفت قلبه عني ولم يشتغل بغيري ، فإذا كان لي كذلك أسكنت محبتي في قلبه فتواترت عليه ألطافي فقربته مني ووهبت له محبتي فأي نعيم يعدل ذلك عندي وأي شرف أشرف منه عندي فوعزتي وجلالي لأشفينّ صدره من النظر إليّ وذلك أني محب لمن أحبني .

[إخواني] إذا كانت محبته سبقت للعبد بالعناية القديمة كيف لا يسلك العبد الطريق المستقيمة ؟ يا جبريل أنم فلاناً وأقم فلاناً ، فالمحب بين يدي محبوبه قائم ، ولخدمته ملازم ، وفي حبه هائم فما عليه من عتب العاذل واللائم :

يا عاذل القلب في صبابته ولائم الصب في تصابيه اترك ملامي وصدّ عن عذلي
فالحب معنى ولست تدريه وفي ضميري من لا أبوح به وفي فؤادي من لا أسميه
قد أدهش الطرف في محاسنه وحير القلب في معانيه محجب والقلوب تشهده
مغيب والغرام يبديه ووجهه حيث قمت واجهني لا شيء يخفيه أو يواريه
إن قلت يا بغيتي ويا أملي يقول لبيك في تعاليه ها أنا دان إليك مقترب
فخذ من الوصل صرف صافيه واغنم زمان الرضا فما أحد يدري الذي في غد يلاقيه

[وقال أبو حيان رحمه الله] : حضرت مجلس ذي النون رحمه الله في فلاة مصر فحسبت من حضر فكان عددهم سبعين ألفاً ، فتكلم في محبة الله تعالى وما يتعلق بالمحبين وصفاتهم ، فمات في مجلسه أحدهم عشر نفساً ، وماج الناس في الصراخ والبكاء ووقع إلى الأرض خلق كثير مغشي عليهم ولم يفيقوا ذلك النهار ، فناداه بعض مريديه : يا أبا الفيض أحرقت قلوب بذكر محبة الخالق وأورثتها الأحزان والنيران ، فلو بردت القلوب بذكر محبة المخلوقين ، فتأوه ذو النون تأوهاً شديداً وشق قميصه نصفين وقال : آه ثم أواه علقت قلوبهم واستعبرت عيونهم ، وحالفوا السهاد وخالفوا الرقاد ، فليلهم طويل ونومهم قليل ، أحزانهم لا تنفد وهمومهم لا تفقد ، أمورهم عسيرة ودموعهم غزيرة ، باكية عيونهم قريحة جفونهم ، قد عاداهم الزمان

وجفاهم الأهل والجيران ، قد أحرقت المحبة قلوبهم وصفا من الكدر مشروبهم ، لا جرم أنهم بشروا في الهنا وبلوغ المنى :

فلله قوم أخلصوا لحبيبهم ... فأوسعهم فضلاً وأتحفهم منا
هنيئاً لهم لما تملوا بحبه ... وفازوا من الرضوان بالمنزل الأسنى
وذو العرش في فردوسه يستزيدهم ... فيا حبذى المولى ويا حبذى المعنى
يقول عبادي هل رضيتم بنعمتي ... فها أنا منكم قاب قوسين أو أدنى
تملوا بوجهي وانظروا ما منحتكم ... فمن نال مني نظرة فقد استغنى

[**إخواني**] للمحبة رجال ، ما تركوا في قلوبهم لغير محبوبهم مجال ، فما في الحب عضو ولا جارحة إلا وعليه شواهد المحبة لائحة فالألسن قد شغلها أنيس ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ : [البقرة : ١٥٢] والأسماع منصتة لاستماع كلام الحبيب بألحان ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ : [البقرة : ١٥٨] والأبصار شاخصة لانتظار ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : [القيامة : ٢٢_٢٣] والأبدان قائمة بوظيفة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : [الفاتحة : ٥] ، والقلوب مرتبطة برابطة ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ : [المائدة : ٥٤] ، والأسرار مستغرقة في مشاهدة حضرة ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ : [البروج : ٣] ، والأرواح ترتاح لأذكار ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ : [الواقعة : ٨٩] فما للعارف غفلة عن مشهوده ، ولا للعابد غفلة عن معبوده :

لما علمت بأن قلبي فارغ ... ممن سواك ملأته بهواك
وملأت كلي منك حتى لم أدع ... مني مكاناً خالياً لسواك

قال ذو النون : رأيت فتى ظاهره الجنون ، وباطنه الفنون ، فعلمت أنه بحب مولاه مفتون ، فسمعته يبكي ويقول في مناجاته : مولاي قرّبت المحبين وطردتني فما ذنبي ، وخصصتهم بالوصال منك وهجرتني فواكربي . أيقظتهم للقيام بين يديك وأنمتني فواندامي ، لذذتهم في السحر بمناجاتك وما لذذتني فواألمي ، ثم أخذ في البكاء . قال ذو النون : فحرك مني ما كان ساكناً ، وهيج من شوقي ما كان كامناً ، فقلت له : يا فتى ما هذا البكاء ؟ فقال : يا ذا النون أخبرني سواد الثوب يزول بالماء والصابون وسواد القلب بماذا يزول ؟ فقلت : والله أنا في طلب ما أنت فيه ، وما وقت منه إلا في الحيرة والتيه :

رأى سوادي فقلت ويلي ... أشد منه سواد قلبي ... طلبت منه لذاك غسلا
فقال لي ليس ذا بصعب ... كذاك قلبي به سواد ... فازددت كرباً لعظم كربي

[**إخواني**] إذا سكنت المحبة في قلوب أنارت بأنوار المحبوب فأثرت وأثمرت في القلب سبعة

أشياء لا يتم مصباح معرفة الرب إلا بها : إخلاص النية لله ، والخوف من الله ، ورجاء ثواب الله ، والصدق مع الله ، والتوكل على الله ، وحسن الظن بالله ، والشوق إلى الله ، فهذه السبعة لا يتم مصباح معرفة ربك إلا بها : كما أن المصباح لا يوقد إلا بسبعة أشياء لا بدّ منها : الزناد والحجر والحراق والكبريت والمسرجة والزيت والفتيلة فبدون هذا الأشياء لا سبيل إلى إيقاد المصباح ، فإن أردت يا هذا إيقاد مصباح قلبك لمشاهدة ربك فلا بد من زناد المجاهدة وحجر المكابدة وحراق الأشواق وكبريت المحبة ومسرجة التوكل وزيت الفكر وفتيلة الصبر ثم تعلق المصباح في سلاسل التضرّع إلى ربك فعند ذلك يتوقد نوره في قلبك ، فتشاهد جمال ربك :

كشف الحجاب وزالت الأستار ... وصفا العتاب وطابت الأسمار
وأتى النسيم مبشراً ومخبراً ... فصفا النعيم وزالت الأكدار
وروت حديثاً عن شذاك معطراً ... فصفت بلطف صفاتك الأسرار
شهدت معانيك القلوب بصفوها ... فتحيرت في حسنك الأفكار
وتوهت أهل الهوى وتحيروا ... مذ شاهدوك وكيف لا يحتاروا

[وحكي] عن محمد بن أحمد المفيد قال : سمعت الجنيد رحمه الله يقول : كنت نائماً عند سريّ رحمه الله فأيقظني وقال : يا جنيد رأيت كأنني وقفت بيدي الله عزّ وجل ، وقال لي : يا سريّ خلقت الخلق وكلهم ادّعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي العشر ، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار وبقي معي عشر العشر ، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر ، فقلت للباقين : لا الدنيا أردتم ، ولا للجنة طلبتم ، ولا من البلاء هربتم فما الذي تريدون وما الذي تطلبون ؟ قالوا : أنت المراد ، لو قطعتنا في البلاء لم نحل عن المحبة والوداد فقلت لهم : إني مسلط عليكم من البلاء والأهوال ما لا تقوم بحمله الجبال أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : بلى . إذا كنت أنت المبتلي لنا فافعل ما شئت بنا ، فهؤلاء عبادي حقاً وأحبائي صدقاً :

بما شئتموا في الهوى عذبوا ... فتعذيبكم عندنا يعذب ... ومهما أردتم بنا فافعلوا
وفينا فدونكما جربوا ... فمن كان فينا محباً لكم ... فقد فاز منكم بما يطلب

[إخواني] البلاء موكل بالمحبين قد أضنى منهم الأجساد وتمكن من القلوب لا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى المحبوب . قال إبراهيم الخوّاص : كان عتبة الغلام من الخواص المعروفين بالإخلاص وكان يزورني في بعض الليالي وكان صائم الدهر فبات عندي ليلة فقدمت له العشاء ليفطر عليه فلم يفطر إلا على الماء ، فلما صلى العشاء الأخيرة تحزم وقام يصلي إلى وقت السحر فسمعته يقول في مناجاته : سيدي إن تعذبني فإني لك محب وإن ترحمني فإني لك محب ،

ثم بكى وشهق شهقة عظيمة وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق قلت له : يا عتبة كيف كانت ليلتك ؟فصرخ صرخة ثم قال : يا إبراهيم ذكر العرض على أسرع الحاسبين ، قطع أوصال المحبين ، ثم غشي عليه ، فلما أفاق رفع رأسه وقال : يا سيدي أتراك تعذب من أحبك بالنيران ، أو تبتلي قلبه بالهجران ، فسمع هاتفاً يقول : حاشى أن يعذب من أحبه واجتباه واصطفاه :

في وصف حبك ما يغني عن العذل ... وفي حديثك ما يلهي عن الغزل
ملكت فاحكم فكل منك محتمل ... الأمر أمرك ليس الأمر من قبلي
وحق حبك ما قلبي بمنقلب ... إلى سواك ولا حبي بمرتحل
ولو سفكت دمي عمداً بلا سبب ... لكان أهنأ من الإغفاء للمقل
أنا الذي ما لقلبي عنك من عوض ... كلا ولا لولائي فيك من بدل
من خان عهدك أو ألوى على بدل ... واضيعة العمر بل يا خيبة الأمل
من لي سواك إذا أدرجت في كنفي ... ومن أنيسي إذا أفردت عن خولي
ما لي سوى حسن ظني عند منقلبي ... فلا تلمني على المنقوص من عملي
ولي شفيع إذا حان اللقاء غداً ... هو المشفع في جرمي وفي زللي
خير الورى نسباً أزكاهمو حسباً ... أصفاهمو عرباً في السهل والجبل
أقواهمو سبباً أوفاهمو أدباً ... أعلاهمو رتباً في العلم والعمل
بحقه يا إلهي جد بمغفرة ... على عبيد غدا بالذنب في خجل
واسمح له منك يوماً بالمسير إلى ... جنابه الرحب من قبل انقضاء الأجل
يا رب بالمصطفى المختار من مضر ... اغفر لنا سائر الزلات والخطل
يا رب بالمصطفى خير الأنام ومن ... له الشفاعة أنقذنا من الوجل
يا رب شفعه فينا يوم تبعثنا ... فنحن من خوفنا في غاية الخجل
يا رب اغفر لنا كل الذنوب به ... وامنن وسامح فهذا غاية الأمل
يا رب بلغه عنا أننا أبداً ... نحبه بدليل في الأنام جلي
يا رب صلّ عليه كلما طلعت ... شمس النهار وما لاحت على جبل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السادس والأربعون
في وفاة النبيّ ﷺ

الحمد لله الذي حيّر ألباب أرباب العقول بالذهول عن الوصول إلى تحقيق تدقيق معرفته وأغرق سفن الأفهام في تيار بحار الاستفهام عن دوام سرمديته ، وقص أجنحة أطيار الأفكار عن المطار إلى أوكار معرفة صمديته ، وهدم أساس مقياس الحواس بفأس الإياس فلا سبيل إلى قياس تحديد صفاته وقدرته ، وأوقع أطيار الأذهان في شباك معرفة ذاته فعجزت الأفلاك والأملاك عن إدراك أحديته ، وحجب العقول عن الوصول إلى حصول سرّ فرديته ، فهو الأول الذي لا أول لأوليته ، الآخر الذي لا آخر لآخريته ، الظاهر بالدليل لأهل ودّه ومحبته ، الباطن الذي لا يكفيه الخاطر بفكرته ، السميع الذي يسمع أنين الجنين تحت غشاء الحشا وأغطيته ، البصير الذي يبصر أثر دبيب النمل على الصخر إذا أخفاه الليل بسواده وظلمته ، العليم بما يخفيه العبد في سريرته ، الجبار الذي خضع كل متجبر لعظيم هيبته ، القهار الذي قهر كل متكبر بسلطان سطوته ، تقدسه الكائنات وتمجده جميع المخلوقات ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته :

تعالى المهيمن في عزته وجلّ عن النقص في قدرته
إلّه تعزز في ملكه
فكل الخلائق في قبضته تفرد في ملكه بالبقا
وحذرهم من سطا نقمته
له الخلق والأمر سبحانه فكل يخافون من سطوته

فيا أيها السالك إلى المطلب الأعلى كم في الطريق من مهالك صعبة المسالك ، فإن حصلت بتوفيقه هنالك فزت بوصالك ونلت غاية آمالك وشهدت جمالاً لا يتمثل في خيالك ، وسمعت جواباً لا يخطر ببالك وشربت شراباً يرويك ويغنيك عن أهلك ومالك ، وإن أردت الوصول إليه بقياسك ومثالك تقطعت أوصالك دون وصالك وحظيت بخيبتك ونكالك ، فاقصر عن كشفك وسؤالك واكفف عن بحثك وجدالك ، واعلم أنه سبحانه بخلاف ذلك :

طريق الحب كم فيها مهالك وما فيها لباغي الوصل سالك
فإن رمت النجاة سلمت حقاً
وإلا كنت يا مغرور هالك وإن وجدت حزت طريق وصل
فيا بشراك إذ تمشي هنالك
مطالب وصله جلت وعزت فكم فيها لطالبها مهالك

كم سارت قفول العقول ، إلى بيداء معرفة ذاته فتاهت ولم تحصل على الوصول ، كم قصدت الألباب الدخول ، في هذا الباب وهو لا يزال مقفول ، كم بعث العقل من رسول ، فرجع

وهو بالحيرة مفصول فالعقل واقف على الباب لا يحول ، والفكر ملازم لهذا الجناب لا يزول ، والفهم حائر في إدراك الصمدية لا يفارقه الذهول ، وحير العقول فلا يعرف بالمعقول ، وأذهل الأذهان فلا يدرك بالمنقول :

تحـيرت البصـائر والعقـول فمـا يـدري المحدث مـا يقـول
تحجـب عـزة وعـلا اقتـدارا وجـلّ فـلا يصـاب لـه مثيـل

فسبحانه من إلـه كيف الكيف وتنزه عن الكيفية ، وأين الأيـن عـن الأينيـة ، أول كـل شـيء وليس له أولية ، وآخر كل شيء وليس له آخرية ، لا يقاس بمثل ولا يوصف بجوهريـة ، ولا يعرف بجسمية خلق الشر وقضاه ، وخلق الخير وارتضاه ، ورحم من أطاعه وعذب مـن عصـاه ، ولا يسأل عن قضية . لا يحتجب عن أحبابه ، ولا يحجبهم بحجابه ، وقـد تقـدمت مواعيـده القديمة الأزلية ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ : [الفجر ٢٧_٢٨] .

ألـف الوصـل ألفت كـل قلـب لحبيـب صـفاته أزليـه وبـاء البقـاء أفـنى نفوسـا
لم يـدع حبـه لهـا مـن بقيـة ثم تمـت لـه بتـاء التعـالي كل مـا شـاء مـن أمـور عليه

قسـماً صـادقاً بيـاء يقـيني لـيس لي في سـواه مـا عشـت نيـه

فسبحان ذي الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، وهو الحي الذي لا يموت ، يعلم خفيـات السرائر ، وحركات الخواطر ، واختلاج الضمائر ، أغرق العقـول في معرفتـه ببحـر زاخـر ، ليس له أول ولا آخر ، سار بريد الأفكار ، فانقطع وحار في فريق معرفته فهو أبداً سائر ، جاء جاسوس الحس ليدرك بعض صفاته فناداه القدر إلى أين يا حائر ، الأبـواب مـردودة والطريـق مسدودة ، ليس إلى إدراكه سبيل ، وليس لـه شـبيه ولا مثيـل ، بحـر لا يـتمكن منـه غـواص لاستخراج الجوهر ، وليل لا يتبين للعين فيه كوكب زاهر :

تحـيرت في أمـور الوصـول إلـيكم وهددني التعجيز مـن كـل جانـب
عدت وما أدركت ما كنـت أبتغي ومـا نلـت ممـا أرتجيـه مـآربي

فسبحان من كوّن الأكوان ، ودبر الزمان ، وخلق الإنسان وعلمه البيان ، وأنـزل القـرآن ، وقـدّر الكفر والإيمان ، والطاعة والعصيان ، لا يمر عليه النسيان ، ولا يشغله شأن عن شـان ، لا تغـيره الدهور ، ولا تختلف عليه تصاريف الأمـور ، مقـدر المقـدور ، ومالـك يـوم النشـور ، لـه المثـل الأعلى وله الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ : [الفرقـان : ٥٩] ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ : [طـه : ٥] لا تبليـه الأعصـار ، ولا ينهيـه المقـدار ، ولا تحويـه الأقطـار ، ولا تدركـه الأبصـار ، ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ ﴾ : [الزمـر : ٥] ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ

عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ : [الرعد : ٨] ذاته لا كالذوات وصفاته لا كالصفات ، رفيع الدرجات مميت الأحياء ، ومحيي الأموات ، لا تشتبه عليه اللغات ، ولا تختلف عليه الأصوات ، لا يقاس بقياس الحواس ، ولا يأخذه نوم ولا نعاس ، الأولياء في حذر من مكره ، والملائكة من خيفته لا يفترون عن ذكره ، والإنس والجن في دائرة قهره ، والجنة والنار تحت نهيه وأمره ، لا يصفه الواصفون ، ولا تكفيه الظنون ، ولا يلحقه المنون ولا تراه العيون ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، فالخلائق في قبضة إرادته محصورون ، خلقهم وما يعملون وهو يعلم بما يفعلون ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ : [الأنبياء : ٢٣] .

عز فليس تراه العيون ... وجل فلا يعتريه المنون
تفرد في ملكه بالبقا ... وكل الورى بالفنا ذاهبون
ويفعل في خلقه ما يشا ... بغير اعتراض وهم يُسألون

فسبحان من وعر طرائق الحقائق ، إلى معرفة ذاته فوقع السالكون في التيه ، وحير إدراك الخلائق ، فحارت الخلائق فيه ، فأوقدوا مصابيح العرفان ، بأدهان الأذهان ، واستدلوا بنور برق الإيمان ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ : [البقرة : ٢٠] فانقلبوا إلى القلوب . فقالت : إنما نحن بيوت التنزيه ، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه ، فتعلقوا بالصفات ، فقالت : لا نطيق نبديه ، فأشاروا إلى العقل فناداهم من سكرة تغاشيه ، وحيرة تلاشيه ، أنا مثلكم متحير فيه ؛ لست بالمدرك له فأحكيه ، ولا بالواصف له فأصفيه وأسميه ، ولا أعرف من أي جهة آتية فقد سألتم عن أمر لا أدريه ، وكشفتم عن سر ما برحت أستمليه وأستقريه ، فما وقفت منه إلا على الحيرة والتوليه ، ولكن أيها الكئيب المتحير فيه السليب في حسن معانيه ، إن أردت معرفته فاسلك طريق التوفيق به بغير تمويه فهو القريب الذي متى شئت تلاقيه ، البعد الذي لا بالمسافة توافيه ، فإن صافيته سقاك من كأس صفوة صافية ، وإن شربت بكأس محبته فالكأس هو ساقيه ، وإن أردت أن تسمع ألحان ذكره ومثانيه ، فقل بلسان التوحيد والتنزيه ، وإياك إياك والتشبيه :

تبارك الله في علياء عزته ... وجل معنى فليس الوهم يحويه
وجوده سابق لا شيء يشبهه ... ولا شريك له لا شك لي فيه
لا كون يحصره لا عون ينصره ... لا كشف يظهره لا جهر يبديه
لا دهر يخلقه لا نقص يلحقه ... لا نقل يسبقه لا عقل يدريه
حارت جميع الورى في كنه قدرته ... وليس تدرك معنى من معانيه
سبحانه وتعالى في جلالته ... وجل لطفاً وعز في تعاليه

فسبحان من إلـه خلق آدم بيد قدرته ، وأسجد له جميع ملائكته ، وأسكنه فسيح جنته ، ثم

حكم عليه بالموت وعلى ذريته ، وقال لنبيه ﷺ يخبره بقضيته : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ : [الأنبياء : ٣٥] فأبلغ في تسليته ، ونجى نوحاً من الطوفان ، وأغرق أهل مخالفته صيانة لأهل الإيمان ، وقضى عليه بالموت المكتوب على الإنس والجان ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ : [الرحمن : ٢٦] واتخذ إبراهيم خليلاً ووفقه وسدده ، وأراه ملكوت السموات والأرض وأشهده ، وفوّق إليه سهام الموت المرصدة ، وقال لنبيه محمد ﷺ إذ أعلمه بحاله وأيده ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ : [النساء : ٧٨] واختار موسى نجياً وأسمعه كلامه وبلغه من لذيذ خطابه قصده ومرامه ، وأنفذ فيه من الموت سهامه ، وقال لنبيه محمد ﷺ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ : [آل عمران : ١٨٥] وخلق عيسى من غير أب بلا شك ولا عيّ فأبرأ الأكمه والأبرص بإذنه وأعاد الميت في قبره وهو حيّ ، وقال لنبيه ﷺ إخباراً عن عيسى ﷺ : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ : [آل عمران : ٥٥] واصطفى محمداً ﷺ النبي العربي الأمين المأمون ، صاحب الجاه العريض والعرض المصون ، ومع هذا القرب والمنزلة التي لا يصل إليها الواصلون ، نعى إليه نفسه الكريمة ، وأنذره بريب المنون ، وسلاه بمن مات قبله من الأنبياء والمرسلين ، فقال في كتابه المكنون : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ : [الزمر : ٣٠]

لما نعي المختار خير الورى من بعده كل مصاب يهون ... ما زلت أبكي بعده حسرة
حتى جرت من جفون عيني عيون وقلت لما أن قضى نحبه ... يا ليتني لاقيت ريب المنون
لا تطمعي من بعده بالبقا يا نفس هذا أبداً لا يكون ... أبعد موت المصطفى خالد
أم في البقا تطمع أم في السكون صلى عليه الله ما غردت ... حمائم الأيك وأبدت شجون

[روي عن ابن عباس رضي الله عنهما] قال : ولد نبيكم محمد ﷺ يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . وكانت مدة مرضه اثني عشر يوماً . وكان مرضه بالصداع . وقال ابن أبي يزيد ﷺ : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار لإحدى عشرة سنة مضت من الهجرة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل على النبي ﷺ سورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ : [النصر : ١] إلى آخرها قال رسول الله ﷺ : « نعيت إليّ نفسي » فأقبل إلى منزل عائشة رضي الله عنها والحمى عليه . قال بلال : فلما أصبحت أتيت إلى حجرة رسول الله ﷺ فناديت :

السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة الصلاة جامعة ، فقال النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها : مري بلالاً يقرىء أبا بكر السلام ويقول له يصلي بالناس ، قال بلال : فرجعت باكياً وأنا أطوف في أزقة المدينة وأنادي : واسيداه وانبياه واسوء منقلباه ليت بلالاً لم تلده أمه . قال : ثم أتيت المسجد فوجدته غاصاً بالناس فلقيت أبا بكر فبلغته السلام والرسالة ، ثم ناديت : الصلاة رحمكم الله فأقمت الصلاة فلما قلت : الله أكبر الله أكبر ، قال المسلمون : كبرناه تكبيراً وعظمناه تعظيماً . فلما قلت : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، قال المسلمون : شهدنا بها مع كل شاهد ، فلما قلت : أشهد أن محمداً رسول الله غلبني البكاء فبكيت فبكى وبكى الناس . فتقدم أبو بكر الصديق ﷺ فأم بالناس فلما قرأ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ : [الفاتحة : ٢ـ١] ونظر إلى موقع أقدام رسول الله ﷺ خنقته العبرة فبكى وبكى الناس فلما سمع النبيّ ﷺ ضجة الناس ، قال لفاطمة : ما هذه الضجة التي في المسجد ؟ قالت : إن المسلمين فقدوك وقت الصلاة فرفع النبيّ ﷺ رأسه وقال : اللهم مر ملك الحمى أن يخفف على نبيك حتى أخرج وأصلي بالناس وأودع أصحابي قبل فراق الدنيا . قال : فوجد النبي ﷺ خفة في بدنه فتوضأ وخرج متوكئاً على الفضل بن العباس وأسامة بن زيد وعليّ رضي الله عنهم . فلما رأى المسلمون أنوار النبي ﷺ تخترق في المسجد وأحسوا بمجيئه جعلوا ينفرجون صفاً صفاً والنبيّ ﷺ يخترق الصفوف حتى وصل إلى محرابه فوقف بإزاء أبي بكر الصديق فصلى بالناس ، فلما فرغ رقى المنبر يخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أقبل على الناس بوجهه الكريم كالمودّع لهم . فقال : أيها الناس ألم أبلغكم الرسالة وأؤدّ لكم الأمانة والنصيحة ؟ فقالوا : بلى يا رسول الله قد بلغت الرسالة وأدّيت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وعبدت الله حتى أتاك اليقين فجزاك الله عنا ما جزى به نبياً عن أمته ، ثم نزل فودع أصحابه وصافحهم وهم يبكون ، ثم أقبل إلى منزل عائشة ، ولم يزل متمرضاً حتى أتى إليه ملك الموت في زي رجل أعرابي فوقف بباب حجرة رسول الله ﷺ ثم نادى : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة أتأذنون لي في الدخول على الرسول ؟ فقالت فاطمة يا أعرابي إن نبي الله بنفسه عنك مشغول ، ثم نادى الثانية فرمق النبي ﷺ الباب فنظر إلى ملك الموت فقال لفاطمة : أتدرين من يخاطبك ؟ قالت : يا أبت رجل أعرابي ، فقال : هذا ملك الموت هذا هاذم اللذات ائذني له فدخل فسلم ، وقال : يا رسول الله إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فماذا أمرك ؟ فقال : اكفف حتى يأتيني جبريل فهذه ساعته . قالت عائشة رضي الله عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن عندنا له جواب وكأنا ضربنا بصاخة ولم يتكلم أحد من البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا . قالت : فجاء

جبريل فقال : إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول : كيف تجدك ، وهو أعلم بالذي تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً . فقال : يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليّ ، وأخبره الخبر . فقال : جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ، أما أعلمك ملك الموت بالذي يريد منك ؟ والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط إلا أن الله متم شرفك ، فقال النبي ﷺ : لا تبرح إذاً حتى يجيء ، وأذن للنساء ، ثم قال : ادني مني يا فاطمة فأكبت عليه فناجاها طويلاً رفعت رأسها وعيناها تدمعان وما تطيق الكلام ، ثم قال : ادني مني رأسك فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام فكان الذي رأينا منها عجباً فسألناها بعد ذلك ، فقالت : قال لي : إني ميت اليوم فبكيت ، ثم قال دعوت الله تعالى أن يلحقك بي أول أهلي وأن يجعلك معي فأضحكني . قالت : ثم جاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له ، فقال الملك : ما تأمرني به يا محمد . قال : ألحقني بربي الآن . قال : بلى من يومك هذا ، ولكن ساعتك أمامك ، ثم خرج وخرج جبريل . فقال : يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض قد طُوي الوحيُ ، وطويت الدنيا ، وما كانت لي في الدنيا حاجة غيرك ولا لي فيها حاجة إلا مودتك . قالت عائشة : فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يجيب في ذلك بكلمة ، ولا يعبث إلى أحد من رجاله لعظم ما سمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا . قالت : فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين يدي ، وأمسك بصدره فجعل يغمى عليه حتى يغلب ، وجبهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط فجعلت أرسل ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق : بأبي وأمي ونفسي وأهلي ومالي ما تلقيه جبهتك من الرشح ، فقال : يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ، ونفس الكافر تخرج من شدقه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إليّ أبي فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد ، وإنما صدّهم الله عنه لأنه ولي أمره جبريل وميكائيل وإسرافيل فكان النبي ﷺ إذا أغمي عليه قال : الرفيق الأعلى . قالت عائشة رضي الله عنها : وكان قد دخل عليّ أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل النبيّ ﷺ ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأومأ إليّ برأسه أن نعم فناوله إياه فأدخله في فيه فاشتدّ عليه فقلت : ألينه لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم فلينته له ، وكان بين يدي ركوة ماء فجعل يدخل يده فيها ، ويقول : لا إلّه إلا الله إن للموت لسكرات ، ثم نصبت يده وهو يقول : اللهم الرفيق الأعلى ، قالت : حتى قضى نحبه ﷺ . قالت عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله ﷺ في بيتي ، وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت ، فكان أول من أعلم الناس بموته أبو بكر الصديق ﷺ ، وهو أول من دخل عليه ،

وهو مسجى ببردة يمنية فكشف عن وجهه وقبله ، وقال وهو يبكي : بأبي وأمي أنت يا رسول الله طيب حياً ، وطيب ميتاً ، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقدمتها فجزاك الله عن نصيحتك للإسلام خيراً ، ثم خرج إلى الناس فأخبرهم بوفاته . قال ابن مسعود ﷺ : إن النبيّ ﷺ قال لجبريل ﷺ عند موته : من لأمتي من بعدي ؟ فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته وبشره أنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال : الآن قرّت عيني ، وطاب قلبي . ودخل عليه أبو بكر الصديق ﷺ ، فقال له النبي : ﷺ : سل يا أبا بكر ، فقال أبو بكر : يا رسول الله دنا الأجل ؟ قال : قد دنا وتدلى ، فقال : ليهنك يا نبي الله ما أعد الله لك فليت شعري أين منقلبنا ؟ فقال : إلى الله تعالى ، وإلى سدرة المنتهى ، وإلى جنة المأوى والعرش الأعلى والرفيق الأعلى والعيش الأهنى ، والحدّ الأوفى . فقال : يا نبي الله من يلي غسلك ؟ قال : رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى ، قال : ففيم نكفنك ؟ قال : في ثيابي هذه ، وفي حلة يمنية ، وفي بياض مصر . قال : كيف الصلاة عليك ؟ ثم بكى وبكينا ، ثم قال : مهلاً غفر الله لكم ، وجزاكم الله عن نبيكم خيراً ، إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ، ثم اخرجوا عني ساعة فأول من يصلي عليّ الله عزّ وجل ، وهو قوله ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ : [الأحزاب : ٤٣] ثم يأذن للملائكة في الصلاة عليّ . فأول من يدخل عليّ من خلق الله تعالى ويصلي عليّ جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم عزرائيل مع جنود كثيرة من الملائكة ، ثم أنتم فادخلوا عليّ أفواجاً أفواجاً وزمراً زمراً وسلموا تسليماً ، ولا تؤذونني بصيحة ولا ضجة ولا رنة ، وليبدأ منكم بالصلاة الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان . قال : فمن يدخل القبر ؟ قال : أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم ثم قوموا فأدّوا عني السلام إلى من بعدي من أمتي . ولما توفي رسول الله ﷺ اجتمع الناس في المسجد وضجوا بالبكاء والنحيب ، وأظلمت الدنيا ونادى بلال : وانبياه ، ونادت فاطمة : واأبتاه ، ونادى الحسن والحسين : واجداه ، ونادى كل المسلمين : واحزناه ، وأول من بكاه ورثاه أبو بكر الصديق ﷺ ، ولسان حاله يقول :

كيف تلتذ جفوني بالمنام	بعد شرب المصطفى كأس الحمام
أم لقلبي راحة من بعده	وجفوني بالبكا سحت دوام
إن يكن غاب عن الدنيا ففي	جنة الخلد له أعلى مقام

لكــن المقــدور حــتم لازم مالنــا مــن بأســه مــن اعتصــام
لـيس في لـدنيا بكـاء لامـرىء بعد مـوت المصطفى خير الأنام
أحمـد الهـادي الشـفيع المرتضـى في البرايـا سـيد الرسـل الكـرام
فعليــه الله صــلى كلمــا بكـت السـحب بأجفـان الغمـام

وبكاه عمر الخطاب ورثاه ، وقال بلسان حاله وجواه :

لـيس البكـاء إن أطيـل بمقنعـي الخطوب أعظم قيمـة مـن أدمعـي
يـا للرجـال بحـادث لم يحتسـب ولنـازل مـا كـان بـالمتوقع
تـالله مـا جـار الزمـان ولا اعتـدى بأشـدّ مـن هـذا المصـاب وأوجـع
خطـب يـبرح بـالخطوب وفـاح مـن لم يكـن جزعـا لـه لم يجـزع
فقد الرسـول فأظلمـت كـل الـدنا والحـزن عـمّ لكـل قلـب موجـع
مـازال بـالمعروف فينـا آمـراً يهـدي الأنـام بنـوره المتشعشـع
صـلى عليـه الله جـلّ جلالـه مـا لاح نـور في الـبروق اللمـع

ورثاه عثمان بن عفان ﷺ ، وزاد في البكاء وأطال وناداه بلسان حاله وقال :

ويحك يا نفس البدار البدار مـا هـذه الـدنيا لحـيّ بـدار كم كـدرت صفواً وكـم ألبسـت
من تـاه عـزّاً ثـوب ذلّ وعـار أيطمـئنّ المـرء في مـنزل يرى كؤوس الموت فيـه تـدار
قـد نفـد العمـر وقـلّ البقـا إلى متى يـا نفـس ذا الاغـترار ما بعد مـوت المصطفى خالـد
ولـيس في الـدنيا لحـي قـرار صـلى عليـه الله مـا أشـرقت كواكـب الصبح ونـاح الهـزار

ورثاه عليّ بن أبي طالب ﷺ وبكى بالدمع الهمول ، ونادى بلسان حاله يقول :

لو جرى الـدمع علـى قـدر المصاب شـابهت أجفاننـا سـح السـحاب
ولـو أن الـدمع يشـفي مـن بكـا لم نـزل بـين رحـاب الانتحـاب
يا صروف الـدهر قـد كـان الـذي كنت أخشى مـن عواديـك الصعاب
لم أزل أحســب مــا أخلــده فـأتى الـدهر بمـا لا في حسـاب
مـات خير الخلـق مـن قـد خصـه ربه بالصـحب مـن خـير صـحاب
كـل حـي ذائـق كـأس الفنـا هكــذا المسـطور في أمّ الكتــاب
أيهـا النـاس لكـم بالمصـطفى أسـوة فـالموت يـدني الـذهاب
فثقــوا بــالله وارضــوا وخــذوا مـا قضـى الله بصـبر واحتسـاب
واعلمــوا أن الـنبي المصـطفى ذخرنـا الشـافع في يـوم المـآب
فعليــه الله صــلى دائمــاً كلمـا أمطـر قطـر مـن السـحاب

[**إخواني**] كيف يطمع بالبقاء في هذه الدار ، وقد فقد النبي المختار ، فالأحشاء عليه محترقة والأجفان بالدمع غرقة ، والصبر زائل والدمع سائل ، مصابه هون جميع المصائب ، وفقده نغص عيش الحبائب ، وفض عقد الدموع وشب النار بين الضلوع ، وأذاب الدموع الجامدة وأثار الهموم الخامدة ، فيا أيها الحزين أتطمع في البقاء بعد سيد المرسلين ؟ أمالك عبرة فيمن قرضتهم الشهور والدهور ، في الماضي من السنين ، أما لك فكرة فيمن صرع قبلك من الأنام ، من شيخ وكهل وشاب وطفل وجنين ، أما اعتبرت بمن قبرت من صديق وشقيق ، وخليل وقرين ، إلى متى تلتفت إلى العلائق ، كأنك ما أنت من الموت على يقين أغرّتك المهلة أم جاد الزمان لك بيقين بالله عليك اقبل نصحي ، قبل أن يعرق منك الجبين ، ويشتدّ نزعك والأنين ، يبكي عليك بماء الدمع المعين ، وتحصل في قبر مظلم لا يظهر فيه النور ولا يبين ، ويبقى فيه كل امرىء بما كسب رهين أما سمعت آيات الله المبينة : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ : [الأحزاب : ٢١] ، أما أنذرك ما جاء في القرآن : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ : [الرحمن : ٢٦] ، أما وعظك الدهر ، وأسمعك الصوت : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ : [آل عمران : ١٨٥] فإذا كان قد مات صاحب المقام المحمود ، والحوض المردود واللواء المعقود ، ومن له الشفاعة في اليوم الموعود فكيف بك وكيف حالك أيها المطرود ، المتخلف المذود الذي كل صحائفه سود ، وعمله عليه مردود ، يا من يغتر بدهر لا يدوم ، يا مصراً على المظالم والظلم والله أنت شؤم ، يا من يروع الناس بظلمه وعند الله تجتمع الخصوم .

[**إخواني**] شوقتم فما رغبتم ، وخوفتم فما رهبتم ، وأيقظكم الموت بمن أخذ قلبكم ، فما انتبهتم ووعظكم القرآن فما انزجرتم ولا اتعظتم ، كأنكم بمنادي الرحيل يناديكم في ناديكم ، انتبهوا يا نيام فقد طلبتم ، أما كان لكم في موت المصطفى عبرة ، أما أجرى لكم عظيم مصابه عبرة ، أما أيقظطم فقده من هذه السكرة ، أما جالت لكم في قرب آجالكم فكرة ، أما اعتبرتم بمن مضى قلبكم من السادات ، أما تحسرتم على من دفنتم من الآباء والأمهات ، والبنين والبنات ؟ كيف تلتذون باللذات وقد قال صاحب المعجزات : « إن للموت لسكرات » أما تمرّر حلو عيشكم والحياة ، حين قال عند الموت واكرباه ، أما أبكاكم توجع فاطمة البتول ، حين قالت لأبيها الرسول ، واكربي لكربك يا أبتاه ؟ فأين أرباب العقول ، أين هو بما يعنيه مشغول ، أين من اغترّ بالبقاء في هذه الدار الفانية ، وقد فقد الرسول :

أسفي على فقد الرسول طويل ... أسف مدى الأيام ليس يزول
رزء تكاد الأرض منه والسما ... هذي تميد له وتلك تميل

غمر القلوب بحزنه وبوجده   فلكل قلب لوعة وغليل
وبكل ناد نادب متحسر   وبكل ناحية عليه عويل
بأبي وأمي من ثوى في تربة   والحزن في قلبي عليه يجول
والأرض بدّل صفوها بتكدر   وجرت بحار بالبكا وسيول
والجو أظلم بعد موت المصطفى   والسحب أدمعها عليه همول
أسفاً على من جاءنا بهداية   وعليه حقاً أنزل التنزيل
وله الإلّه أبي بتأييد له   وعليه منه شاهد ودليل
يا نفس لا بالموت تعتبري ولا   تصغي لقول الدهر حين يقول
يا نفس بعد المصطفى أفتطمعي   في الخلد كلا ما إليه سبيل
يا نفس كم تعصي إلّهك جهرة   والقلب مني بالذنوب عليل
يا نفس توبي من ذنوبك إنه   من يعص رب العرش فهو ذليل
يا نفس كم تعصي وربك ناظر   ويرى فعالك والدجى مسدول
يا نفس قد أوقعت في شرك الردى   حقاً ومالك للخلاص وصول
يا نفس لا ترجي البقاء فإنه   سيف المنايا في الورى مسلول
كيف الطريق إلى النجاة وإنني   بقيود ذنبي دائماً مغلول

ما حيلتي إلا البكاء وقد عدا   حزني على قبح الذنوب يطول   من بعد موت المصطفى هل لامرىء
في الدهر يوماً للبقاء سبيل   وهو النبيّ المصطفى والمجتبى   ونبي حق للورى ورسول

صلى عليه الله جلّ جلاله   ما حنّ مشتاق وسار دليل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السابع والأربعين

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين ،

وفيه قصة أبي يزيد البسطامي

الحمد لله الذي اختار لخدمته من اصطفاه من عباده ، وجذب إلى جنابه من أحبّ فأسرع إليه في انجذابه وانقياده ، حرك سواكن همم المريد فكان ذلك سبباً لحصول مراده ، وأخذ منه

وسلبه عنه وقربه بعد إبعاده ، ونادمه في الأسحار ، وأطلعه على الأسرار ، وما نال ذلك بحرصه ولا اجتهاده وأوصله إلى ما يوصل إليه وسلك به سبيل رشاده ، وملأ قلبه بحبه ووده لما رآه حافظاً لعهده ووداده ، وتجلى عليه بأفضاله وأنعامه ، والغافل مشغول بطيب منامه ورقاده ، وقال له : يا عبدي ها أنا متجلّ عليك وناظر إليك ، ومن حصلت له فقد ظفر بقصده وإسعاده :

ما لجفني ورقاده هو راض بسهاده أنا صب قد تجافى فجفا طيب رقاده

يا خليّ القلب دع من ذاب من طول بعاده أنت ما تدري بوجد وغرام في فؤاده

إن ترى هذا ضلالاً إنه عين رشاده

لو علم الغافل ما فاته لأكثر من نوحه وتعداده ، ولو سمع الحبيب وهو يخاطب أحبابه لم تخرج تلك الحسرة من فؤاده ، ولو شاهد جمال الحبيب لاعتزل عن العالم بانفراده ، سبقت السابقة وقضي الأمر ، والله يختص برحمته من يشاء من عباده :

قف بباب الحبيب ليلاً وناده وتشكى من هجره وبعاده وعلى الباب عفّر الخد ذلاً

ولتكن حافظاً قديم وداده ثم قل طالت القطيعة والهجـ ـر وجفني لم يكتحل برقاده

فالحبيب الذي ترجيه أضحى جوده فائضاً على قصاده

[روى أبو هريرة ﷺ] عن النبيّ ﷺ أنه قال : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » :

فهم خواص الله أين تيمموا والذاكرون الله في الآصال القانتون المخلصون لربهم

الناطقون بأصدق الأقوال لم تخل أرض منهمو قد حكموا ذات اليمين بها وذات الشمال

[وروى رافع بن عبد الله] قال : قال لي هشام بن يحيى الكناني : ألا أحدثك حديثاً رأيته بعيني وشهدته بنفسي ونفعني الله به فعسى أن ينفعك ؟ قلت : حدثني يا أبا الوليد ، قال : غزونا أرض الروم في سنة ثمان وثمانين ، وكان معنا رجل يقال له سعيد بن الحرث ذو حظ من العبادة يصوم النهار ويقوم الليل فإن سرنا درس القرآن . وإن أقمنا ذكر الله تعالى فجاءت ليلة خفنا فيها فخرجت أنا وإياس نحرس ، ونحن محاصرون عند حصن من الحصون استصعب علينا أمره فرأيت من سعيد من العبادة في تلك الليلة . وصبره على النصب ما تعجبت منه . فلما طلع الفجر قلت له : رحمك الله أن لنفسك عليك حقاً فلو أرحتها فبكى وقال : يا أخي إنما هي أنفاس تعد ، وعمر يفنى وأيام تنقضي وأنا رجل أرتقب الموت ، وأنتظر خروج نفسي ، قال : فأبكاني ذلك ، فقالت له : أقسمت عليم بالله إلا ما دخلت الخباء واسترحت ، فدخل فنام وأنا جالس ظاهر الخباء فسمعت كلاماً في الخباء ، فقلت ما فيه أحد سواه فتقدمت قليلاً

فإذا به يضحك في نومه ويتكلم فحفظت من كلامه وهو يقول : ما أحب أن أرجع ، ثم مدّ يده اليمنى كأنه يتلمس شيئاً ، ثم ردها ردّاً رفيقاً وهو يضحك ، ثم وثب من نومه وهو ينتفض فاحتضنته إلى صدري ملياً ، وهو يلتفت يميناً وشمالاً حتى سكن وعاد إليه فهمه وجعل يهلل ويكبر . فقلت : ما الخبر ؟ فقال : خير ، قلت : حدثني فقد سمعتك تقول ما أحب أن أرجع ورأيتك مددت يدك ، ثم رددتها ردّاً خفيفاً ، فقال : لا أخبرك فأقسمت عليه ، قال : أو تكتم عني ما حييت ؟ قلت : بلى ، قال : رأيت كأن القيامة قد قامت وخرج الخلق من قبورهم شاخصين منتظرين أمر ربهم فبينما أنا كذلك إذ أتاني رجلان لم أر أحسن منهما وجهاً فسلما عليّ فرددت عليهما السلام ، فقالا لي : يا سعيد أبشر فقد غفر ذنبك ، وشكر سعيك ، وقبل عملك واستجيب دعاؤك ، وعجلت لك البشرى فانطلق معنا حتى نريك ما أعد الله لك من النعيم . قال : فانطلقت معهما حتى أخرجاني عن جملة الموقف ، وإذا بخيل لا تشبه خيل الدنيا إنما هي كالبرق الخاطف أو كهبوب الريح فركبنا وسرنا فانتهينا إلى قصر شاهق ما يبلغ الطرف منتهاه كأنه صيغ من فضة وله نور يتلألأ فلما وصلنا إليه فتح بابه من قبل أن نستفتح فدخلنا فرأينا شيئاً لا يبلغه وصف واصف ولا يخطر على قلب بشر وفيه من الحور والوصائف والولدان بعدد النجوم ، فلما رأونا أخذوا في ألوان من القول الحسن بأنغام مختلفة يقولون هذا وليّ الله قد جاء فمرحباً وأهلاً ، فسرنا حتى انتهينا إلى مجالس ذات أسرّة من ذهب مكللة بالجواهر محفوفة بكراسي من ذهب وعلى كل سرير منها جارية لا يستطيع أحد من خلق الله تعالى أن يصفها ، وفي وسطهن واحدة عالية عليهن في طولها وكمالها وجمالها . فقال الرجلان : هذا منزلك وهؤلاء أهلك وهنا مقيلك ، ثم انصرفا عني فوثب الجواري إليّ بالترحيب والاستبشار كما يكون من أهل الغائب عند قدومه عليهنّ ، ثم حملوني حتى أجلسوني على السرير الأوسط إلى جانب الجارية وقلن : هذه زوجتك ولك أخرى مثلها ، وقد طال انتظارك لك فكلمتها وكلمتني فقلت : أين أنا ؟ فقالت : في جنة المأوى فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا زوجتك الخالدة ، قلت : فأين الأخرى : قالت : في قصرك الآخر فقلت : أقيم اليوم عندك وأتحول في غد إلى الأخرى ، ثم مددت يدي إليها فردتها ردّاً رفيقاً ، وقالت : أما اليوم فأنت راجع إلى الدنيا وستقيم ثلاثاً ، فقلت : ما أحب أن أرجع ، فقالت : لابدّ من ذلك وستفطر عندنا بعد الثلاث ، ثم نهضت من مجلسها فنهضت لوداعها فاستيقظت ، قال هشام : فبلغني البكاء ، وقلت : هنيئاً لك يا سعيد جدد الله شكراً فقد كشف لك عن ثواب عملك ، فقال : هل رأى أحد غيرك ما رأيت ؟ قلت : لا ، فقال : بالله عليك أكتم عني ما دمت في الحياة . ثم قام فتطهر ومس الطيب وأخذ سلاحه وسار إلى موضع القتال وهو صائم فقاتل إلى الليل ،

ثم انصرف فتحدّث الناس بقتاله وقالوا : ما رأيناه فعل مثل اليوم لقد كان يطرح نفسه تحت سهام العدو وحجارتهم وكل ذلك ينبو عنه ، فقلت في نفسي : لو يعلمون شأنه لتنافسوا في مثل عمله ، ثم مكث قائماً إلى آخر الليل ثم أصبح صائماً فقاتل أشدّ من اليوم الأول ، ثم مكث قائماً إلى آخر الليل ، ثم أصبح صائماً فقاتل أبلغ من كل يوم . قال أبو الوليد : فانطلقت معه لأنظر ماذا يكون منه ، فلم يزل يلقي نفسه في المهالك غالب النهار ولا يصل إليه شيء حتى إذا دنا غروب الشمس جاءه سهم في نحره فخر صريعاً وأنا أنظر إليه فضجت الناس وبادروا إليه وأخذوه وجاءوا به يحملونه فلما رأيته قلت له : هنيئاً لك يا سعيد فيما تفطر عليه الليلة يا ليتني كنت معك . قال : فعض على شفته السفلى وهو يضحك ، ثم قال : الحمد لله الذي صدقنا وعده ثم مات . قال هشام : فصحت : يا عباد الله ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ : [الصافات : ٦١] واسمعوا ما أخبركم عن أخيكم هذا فأقبل الناس فحدثتهم بالحديث على وجهه وما كان منه . فما رأيت باكياً كالساعة ، ثم كبروا تكبيرة اضطرب لها العسكر وشاع الحديث ، وبلغ الخبر إلى مسلمة فجاء وقد وضعناه لنصلي عليه ، فقلت : صل عليه أيها الأمير فقال : بل يصلي عليه الذي عرف من أمره ما عرف . قال : فصلينا عليه ودفناه في موضعه وبات الناس يتحدثون به . فلما طلع الصبح تذاكرنا حديثه فصاحوا صيحة واحدة وحملوا على العدو ففتح الله الحصن في ذلك النهار ببركته رحمه الله تعالى :

بالروح جد في هواهم كرماً ... وادخل حماهم تجد حمى حرما
واخلع عذار الوقار مطرحاً ... للهم واحذر بأن ترى سئما
وغب عن الكون إن أردت بأن ... تحظى فهذا به الهوى رسما
واشرب بكأس الغرام إن ترد السكر ... وتبقى من جملة الندما
ولا تبالي من العذول إذا ... قال بجهل هذا الغرام لما
وكن محباً يرى الوجود إذا ... شاهد محبوب قلبه عدما
يرضى بما يرتضي الحبيب له ... في حكمه حيث صح أو سقما
يستعذب الموت حين بان له ... ما قد رآه في حبه كرما

[وعن أبي يعقوب الطبري] قال : خرجت في سفر أريد الشام فوقعت في التيه أياماً حتى أشرفت على الهلاك ، فبينما أنا كذلك إذ رأيت راهبين سائرين كأنهما قد خرجا من مكان يريدان ديراً لهما قريباً فملت إليهم وقلت لهما : أين تريدان ؟ قالا : لا ندري ، قلت : فمن أين أقبلتما ؟ قالا : لا ندري قلت : أو تدريان أين أنتما ؟ قالا : نعم نحن في ملكه وبين يديه فقلت في نفسي : راهبان يتحققان التوكل دونك فقلت لهما : أتأذنان لي في الصحبة قالا : ذاك

إليك فسرنا . فلما أمسينا قاما إلى صلاتهما وقمت إلى صلاة المغرب فتيممت وصليت فنظرا إليّ وقد تيممت وصليت فتعجبا من ذلك . فلما فرغا من صلاتهما بحث أحدهما في الأرض فانفجرت عين ماء وإلى جانبها طعام موضوع فتعجبت من ذلك . فقالا لي : ادن وكل واشرب فأكلنا وشربنا وتوضأت للصلاة ، ثم غار الماء وقاما إلى صلاتهما وأنا أصلي وحدي حتى أصبحنا وصليت الفجر ثم قاما وسارا إلى الليل وأنا معهما . فلما أمسينا تقدم أحدهما فصلى برفيقه إلى ناحية ديرهما ، ثم دعا بدعوات وبحث في الأرض فظهر الماء وحضر الطعام فقالا : ادن وكل فدنوت فأكلنا وشربنا وتوضأت للصلاة ، ثم غار الماء . فلما كانت الليلة الثالثة قالا لي : يا مسلم الليلة نوبتك . قال محمد بن يعقوب : فاستحييت من قولهما وداخلني هم شديد وأمر غريب فقلت في نفسي : اللهم إن ذنوبي لم تدع لي عندك جاهاً ولكني أسألك بجاه محمد عندك ألا تفضحني عندهما ولا تشمتهما بي ولا بدين نبيك محمد ﷺ قال : فإذا بعين ماء قد انفجرت وطعام كثير فأكلنا وشربنا ولم نزل على تلك الحالة حتى بلغت النوبة الثالثة فلما ظهر الماء والطعام غلبني البكاء فلم أملك رده وأصابهما مثلما أصابني وارتفعت أصواتنا بالبكاء فلما أفقت قالا : ما يبكيك ؟ فقلت : أنا رجل مسرف على نفسي ، وليس لي عند الله من الجاه والمنزلة ما يبلغ هذه الكرامة ، قالا : فكيف ظهر لك هذا ؟ قلت : توسلت إليه بجاه محمد ﷺ وقلت : رب أنا مسرف على نفسي وهذان عدوان لنبيك محمد ﷺ فلا تشمتهما بدينه فظهر ما رأيتما فكانت الكرامة لمحمد ﷺ لا لي . فقالا : والله نحن كذلك لما رأيناك عجبنا من حالك . فلما جاء وقت الوضوء والأكل فكنا ندعو بدعواتك وقلنا : اللهم إن كان دين هذا حقاً ونبيه حقاً فبحرمة نبيه عندك أظهر لنا ماء وأحضر لنا طعاماً فحضر ما رأيته وكل ذلك ببركة نبيك ، وقد عرفنا أن دينه الحق ، وهو عند الله عظيم فامدد يدك فإنا نشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمد رسول الله . قال : فأسلمنا وخرجنا جميعاً إلى مكة فأقمنا بها مدة وخرجنا إلى الشام فتفرقنا ، فوالله ما ذكرتهما إلا وهانت عليّ الدنيا وصغرت في عيني :

لما رأيتك حاضرا	في القلب زاد بي الخمار
وبقيت فيك محيرا	والقلب ليس له قرار
فامزج كؤوساً بالرضا	جهراً فما عنها اصطبار
دارت على أحبابه	فإليهم أبداً يشار
لطفت فلما ذاقها الأحبا	نحو الحب طاروا
بذلوا إليه نفوسهم	وعلى نفوس القوم غاروا
إليه في بحر الهوى	ركبوا وبالأرواح ساروا
طلبوه حقاً بالقلوب	وعندما نظروه حاروا
هاموا به حتى لقد	أنست بقربهم الديار
ورأوا إشارات الهدى	لاحت لديهم فاستناروا

[إخواني] هذان كانا من جملة الرهبان ، فلاح لهما قدر خرم الإبرة من الإيمان ، فرأيا الطريق وسلكا منهج التصديق ، وأنت يا مسكين عمرك قد مضى في العصيان ، وزمانك قد ذهب في الخسران ، وأنت في بحر الغفلة غريق ، وقد ذهبت نسمات القبول أنت سكران بخمر المعاصي لا تفيق ، فبادر إلينا بالإخلاص والتصديق ، فقد فتحنا لك الطريق ، وهديناك إلى التوفيق .

[كان وكان]

يا من زمانه يذهب	في كل ما لا ينفعه	إلى متى ذا التواني	والهجر والتعويق
انهض فهيىء زادك	قبل أن تسير القافلة	وانهض فحصل لنفسك	على الطريق رفيق
وإن منعت فنادي	يا واصلين بحقكم	عطفاً على من أضحى	من الذنوب غريق
يا راحلين بقلبي	ونازلين بمهجتي	حملتموني بضعفي	في الحب ما لا أطيق
وحقكم لست أنسى	ما عشت عقد ودكم	وعندكم ميثاق	مدى الزمان وثيق

[وقال أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه] : كنت يوماً في بعض سياحتي متلذذاً بخلوتي وراحتي مستغرقاً بفكري مستأنساً بذكري إذ نوديت في سري : يا أبا يزيد امض إلى دير سمعان واحضر مع الرهبان في يوم عيدهم والقربان ، فلنا في ذلك نبأ وشان . قال : فاستعذت بالله من هذا الخاطر ، وقلت : لست أخاطر ، فلما كان الليل أتاني الهاتف في المنام ، وأعاد عليّ ذلك الكلام فانتبهت وأنا أرجف وأرعد وعندي من هذا الكلام ما يقيم المقعد فنوديت في سري : لا بأس عليك أنت عندنا من الأولياء الأخيار ، ومكتوب في ديوان الأبرار ، ولكن البس زيّ الرهبان واشدد من أجلنا الزنار وما عليك في ذلك من جناح ولا إنكار . قال أبو يزيد : فقمت من باكر وبادرت إلى امتثال الأوامر ، ولبست زيّ الرهبان وحضرت معهم في دير سمعان ، فلما حضر كبيرهم واجتمعوا وأنصتوا إليه ليسمعوا أرتج عليه المقام فلم ينطق الكلام كأن في فمه لجام . فقال له القسيسون والرهبان : ما الذي يمنعك من الكلام أيها الربان ؟ فنحن بقولك نهتدي وبعلمك نقتدي ، فقال : ما يمنعني أن أتكلم وأبتدي ، إلا أن بينكم رجل محمدي ، وقد جاء لدينكم ممتحناً وعليكم معتدي ، فقالوا : أرنا إياه نقتله الآن ؟ فقال : لا تقتلوه إلا بدليل وبرهان ، فإني أريد أن أمتحنه وأسأله عن مسائل في علم الأديان فإن أجاب عنها وأبان تركناه ، وإن عجز عن تفسيرها قتلناه ، وعند الامتحان يعز المرء أو يهان ، فقالوا له : افعل ما تريد فنحن ما حضرنا إلا لنستفيد فقام كبيرهم على قدميه ونادى : يا محمدي بحق محمد عليك إلا ما نهضت قائماً على قدميك لتنظر العيون إليك فقام أبو يزيد ولسانه لا يفتر عن التقديس والتمجيد . فقال له البطرك : يا محمدي أريد أن أسألك عن مسائل فإن أجبت عنها وفسرتها

اتبعناك وإن عجزت عن تفسيرها قتلناك . فقال أبو يزيد سل عما تريد من المنقول والمعقول والله شاهد على ما نقول . فقال له البطرك : أخبرني عن واحد لا ثاني له ، وعن اثنين لا ثالث لهما ، وعن ثلاثة لا رابع لهم ، وعن أربعة لا خامس لهم ، وعن خمسة لا سادس لهم ، وعن ستة لا سابع لهم ، وعن سبعة لا ثامن لهم ، وعن ثمانية لا تاسع لهم ، وعن تسعة لا عاشر لهم ، وعن عشرة كاملة وعن أحد عشر ، وعن اثني عشر ، وعن ثلاثة عشر ، وعن قوم كذبوا وأدخلوا الجنة ، وعن قوم صدقوا وأدخلوا النار وأين مستقر اسمك من جسمك ، وعن الذاريات ذرواً ، وعن الحاملات وقراً ، وعن الجاريات يسراً ، وعن المقسمات أمراً ، وعن شيء تنفس بغير روح ونسألك عن أربعة عشر تكلموا مع رب العالمين ، وعن قبر مشى بصاحبه ، وعن ماء لا نزل من السماء ولا نبع من الأرض ، وعن أربعة لا من ظهر أب ولا من بطن أم ، وعن أول دم أريق على وجه الأرض . ونسألك عن شيء خلقه الله ثم اشتراه . ونسألك عن شيء خلقه الله ثم أنكره ونسألك عن شيء خلقه الله ثم استعظمه . وعن شيء خلقه الله وسأل عنه . وعن أفضل النساء . وعن أفضل البحار . وعن أفضل الجبال . وعن أفضل الدواب . وعن أفضل الشهور . وعن أفضل الليالي وعن الطامة . وعن شجرة لها اثنا عشر غصناً في كل غصن ثلاثون ورقة وفي كل ورقة خمس زهرات اثنتان في الشمس وثلاثة في الظل . وعن شيء حج إلى بيت الله الحرام وطاف وليس له روح ولا وجبت عليه فريضة . وكم من نبي خلقه الله . وكم منهم مرسل وغير مرسل . وعن أربعة أشياء مختلف طعمها ولونها . والأصل واحد . وعن النقير والقطمير والفتيل . وعن السبد واللبد وعن الطم والرم . وأخبرنا ما يقول الكلب في نبيحه . وما يقول الحمار في نهيقه . وما يقول الثور في نعيره . وما يقول الفرس في صهيله . وما يقول البعير في رغائه . وما يقول الطاوس في صياحه . وما يقول الدرّاج في صفيره . وما يقول البلبل في تغريده . وما يقول الضفدع في تسبيحه . وما يقول الناقوس في نقيره وأخبرنا عن قوم أوحى الله إليهم لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة ، وأخبرنا أين يكون الليل إذا جاء النهار ، وأين يكون النهار إذا جاء الليل ؟ فقال أبو يزيد : هل بقي أسئلة غير هذه ؟ قالوا : لا ، فإن فسرتها لكم وأجبت عنها تؤمنوا بالله ورسوله ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم أنت الشاهد على ما يقولون ، ثم قال : أما سؤالكم عن واحد لا ثاني له فهو الله الواحد القهار ، وأما سؤالكم عن اثنين لا ثالث لهما فهما الليل والنهار ، لقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ : [الإسراء : ١٢] وأما سؤالكم عن ثلاثة لا رابع لهم فهم العرش والكرسي والقلم . وعن أربعة لا خامس لهم فهم الكتب المنزلة التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وأما سؤالكم عن خمسة لا سادس لهم فهم الصلوات الخمس المفروضة

على كل مسلم ومسلمة . وأما سؤالكم عن ستة لا سابع لهم فهم الستة أيام التي ذكرها الله في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ : [ق : ٣٨] وأما سؤالكم عن سبعة لا ثامن لهم فهم السبع سموات لقوله تعالى ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ : [الملك : ٣] . وأما سؤالكم عن ثمانية لا تاسع لهم فهم حملة العرش لقوله تعالى ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ : [الحاقة : ١٧] وأما سؤالكم عن تسعة لا عاشر لهم فهم التسعة رهط المفسدون لقوله تعالى ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ : [النمل : ٤٨] وأما سؤالكم عن عشرة كاملة فهي العشرة أيام يصومها المتمتع عند فقد الهدي لقوله تعالى ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ : [البقرة : ١٩٦] . وأما سؤالكم عن أحد عشر فهم أخوة يوسف لقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ : [يوسف : ٤] .

وأما سؤالكم عن اثني عشر فهي عدة الشهور لقوله تعالى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ : [التوبة : ٣٦] . وأما سؤالكم عن ثلاثة عشر فهي رؤيا يوسف لقوله تعالى : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ : [يوسف : ٤] وأما سؤالكم عن قوم كذبوا وأدخلوا الجنة فهم إخوة يوسف لقوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ : [يوسف : ١٧] فكذبوا وأدخلوا الجنة . وأما سؤالكم عن قوم صدقوا وأدخلوا النار فهم اليهود والنصارى لقوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ : [البقرة : ١١٣] فصدقوا وأدخلوا النار . وأما سؤالكم أين مستقر أسمك من جسمك فمستقره أذناك . وأما سؤالكم عن الذاريات ذرواً فهي الرياح الأربع . وأما سؤالكم عن الحاملات وقراً فهي السحب لقوله تعالى ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : [البقرة : ١٦٤] . وأما سؤالكم عن الجاريات يسراً فهي السفن الجاريات في البحر . وأما سؤالكم عن المقسمات أمراً فهم الملائكة الذين يقسمون على الناس أرزاقهم من نصف شعبان إلى نصف شعبان . وأما سؤالكم عن أربعة عشر تكلموا مع رب العالمين فهم السبع سموات والسبع أرضين لقوله تعالى ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ : [فصلت : ١١] . وأما سؤالكم عن قبر مشى بصاحبه فهو حوت يونس عليه السلام . وأما سؤالكم عن شيء تنفس بلا روح فهو الصبح لقوله تعالى ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ : [التكوير : ١٨] . وأما سؤالكم عن ماء لا نزل من السماء ولا نبع من الأرض فهو الماء الذي بعثته بلقيس في قارورة من عرق الخيل إلى سليمان بن داود عليهما السلام ، وأما سؤالكم عن أربعة لا من ظهر أب ولا من بطن أم فهم كبش إسماعيل وناقة

صالح وآدم وحواء . وأما سؤالكم عن أول دم أهريق على وجه الأرض فهو دم هابيل لما قتله قابيل ، وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله ثم اشتراه فهو نفس المؤمن لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ : [التوبة : ١١١] . وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله وأنكره فهو صوت الحمار لقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ : [لقمان : ١٩] . وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله واستعظمه فهو كيد النساء لقوله تعالى ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ : [يوسف : ٢٨] . وأما سؤالكم عن شيء خلقه الله وسأل عنه فهي عصا موسى لقوله تعالى ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ : [طه : ١٧ ـ ١٨] . وأما سؤالكم عن أفضل النساء فهي حواء أم البشر وخديجة وعائشة وآسية ومريم ابنة عمران رضي الله عنهم أجمعين ، وأما سؤالكم عن أفضل البحار فهو سيحون وجيحون والدجلة والفرات ونيل مصر ، وأما سؤالكم عن أفضل الجبال فهو جبل الطور ، وأما سؤالكم عن أفضل الدواب فهي الخيل ، وأما سؤالكم عن أفضل الشهور فهو شهر رمضان لقوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ : [البقرة : ١٨٥] ، وأما سؤالكم عن أفضل الليالي فهي ليلة القدر لقوله تعالى ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ : [القدر : ٣] . وأما سؤالكم عن الطامة فهي يوم القيامة ، وأما سؤالكم عن شجرة لها اثنا عشر غصناً في كل غصن ثلاثون ورقة في كل ورقة خمس زهرات اثنان في الشمس وثلاثة في الظل : أما الشجرة فهي السنة ، وأما الأغصان فهي الشهور ، وأما الأوراق فهي الأيام ، وأما الخمس زهرات فهي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ثلاثة في الظل المغرب والعشاء والصبح واثنتان في الشمس وهما الظهر والعصر ، وأما سؤالكم عن شيء حج بيت الله الحرام وطاف وليس له روح ولا وجبت عليه فريضة فهي سفينة نوح عليه السلام ، وأما سؤالكم كم خلق الله من نبيّ وكم منهم مرسل فأما الأنبياء فهم مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي ، وأما المرسلون منهم فثلثمائة وثلاثة عشر . وأما سؤالكم عن أربعة أشياء مختلف طعمها ولونها والأصل واحد فهي العينان والأنف والفم والأذنان ، فماء العينين مالح وماء الفم حلو وماء الأنف حامض ، وماء الأذنين مرّ . وأما سؤالكم عن النقير فهي النقرة التي في ظهر النواة والقطمير هي القشرة البيضاء ، والفتيل الذي يكون في بطن النواة . وأما سؤالكم عن السبد واللبد فهو شعر الضأن والمعز . وأما سؤالكم عن الطمّ والرمّ فهم الأمم الماضية قبل أبينا آدم عليه السلام . وأما سؤالكم عما يقول الحمار في نهيقه فإنه يرى الشيطان فيقول لعن الله العشار وهو المكاس . وأما سؤالكم عما يقول الكلب في نبيحه فإنه يقول : ويل لأهل النار من غضب الجبار . وأما سؤالكم عما يقول الثور في نعيره فإنه يقول : سبحان الله وبحمده . وأما سؤالكم عما يقول الفرس في صهيله فإنه يقول

سبحان حافظي إذا التقت الأبطال واشتغلت الرجال بالرجال . وأما سؤالكم عما يقول البعير في رغائه فإنه يقول حسبي الله وكفى بالله وكيلاً . وأما سؤالكم عما يقول الطاوس في صياحه فإن يقول : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] وأما سؤالكم عما يقول البلبل في تغريده فإنه يقول سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وأما سؤالكم عما يقول الضفدع في تسبيحه فإنه يقول سبحان المعبود في البراري والقفار سبحان الملك الجبار . وأما سؤالكم عما يقول الناقوس في نقيره فإنه يقول سبحان الله حقاً حقاً انظر يا ابن آدم في الدنيا غرباً وشرقاً ما ترى فيها أحداً يبقى . وأما سؤالكم عن قوم أوحى الله إليهم لا من الإنس ولا من الجن ولا من الملائكة فهم النحل لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨] . وأما سؤالكم عن الليل أين يكون إذا جاء النهار وأين يكون النهار إذا جاء الليل ؟ فإنهما يكونان في غامض علم الله تعالى ما أظهر عليه نبي مرسل ولا ملك مقرّب ، بك كان ذلك في غامض علم الله تعالى ، ثم قال أبو زيد : هل تعالى ما أظهر عليه بقي لكم سؤال ؟ قالوا : لا ، قال : فأخبرني أنت عن مفتاح السموات ومفتاح الجنة ما هو ؟ فسكت كبيرهم فقالوا له : أنت سألته عن مسائل كثيرة فأجاب عنها جميعها ، وقد سألك عن مسألة واحدة فعجزت عن جوابها ؟ فقال : ما عجزت ولكني أخاف أن أجيبه عن سؤاله فلا توافقوني ، فقالوا : بلى نوافقك إذا أنت كبيرنا ومهما قلت لنا سمعناه ووافقناك عليه . فقال : مفتاح السموات والجنة قول لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ، فلما سمعوا ذلك منه أسلموا عن آخرهم وأخربوا الدير وبنوه مسجداً وقطعوا زنانيرهم فهنالك نودي أبو يزيد في سره : يا أبا يزيد أنت شددت من أجلنا زناراً واحداً فقطعنا من أجلك خمسمائة زنار :

يا رب إني راض ... ما شئت فضلاوعدلا ... سيرتني تحت أمر ... رضيته لم أقل لا

هديت قوماً وكانوا ... نصبوا لي الشرك جهلا ... قوّمتهم فاستقاموا ... جمعت للقوم شملا

حول الجناب تراهم ... قد عفوا الخدّ ذلاً ... أصواتهم زينوها ... بقوله أشهد أن لا

وشاهدوا الحق جهراً ... لما بدا وتجلى

[إخواني] هؤلاء كانوا كفاراً في ظلمات العمى فأنقذهم الله بنور الهدى وحماهم من الردى ، كل ذلك ببركة قوله لا إلّه إلا الله ، فانظروا إلى كلمة الإخلاص ما أعظم بركاتها وأنجح حاجاتها فرطبوا ألسنتكم بها لتنالوا بركة إحسانها وتظفروا بحلاوة امتنانها وتدخلوا حرم أمانها ، فإنها حصن منيع ودرع رفيع ، وقد قال تعالى في بعض كتبه المنزلة : أكثروا من قول لا إلّه إلى الله ، فإنها حصني ، ومن دخل حصني أمن عذابي ، وقال بعض الصحابة : من قال لا إلّه

إلا الله مخلصاً من قلبه ومدها بالتعظيم غفر له أربعة آلاف ذنب . فإن لم يكن له أربعة آلاف ذنب يغفر من ذنوب أهله وجيرانه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الليل والنهار أربعة وعشرون ساعة وحروف لا إلـه إلا الله محمد رسول الله أربعة وعشرون حرفاً ، فمن قال لا إلـه إلا الله محمد رسول الله كفر كل حرف ذنوب ساعة فلا يبقى عليه ذنب إذا قالها في كل يوم مرة ، فكيف بمن يكثر من قول لا إلـه إلا الله ويجعلها شغله ؟

[إخواني] إن كنتم عاصين فقولوا لا إلـه إلا الله فإنها تكفر الذنوب والعصيان ، وإن كنتم طائعين فجددوا إيمانكم بقول لا إلـه إلا الله ، فإنها تجدد الإيمان وتحرز الأمن والأمان والعفو والغفران من الملك المنان :

ما ضلّ عبد وأنت ترشده ... وكيف يشقى من أنت تسعده
أم كيف يطفي اللهيب من كبدي ... والشوق مني إليك يوقده
عليك لا لوم في مهاجرتي ... الذنب فلا أعدده
من أين لي الصبر عنك يا أملي ... فصبري اليوم فيك أفقده
والله ما خاب في توجهه ... من أنت من ذا الوجود مقصده
كلا ولا ضل عن طريق هدى ... من كان بالمصطفى تقيده
المجتبى المرتضى الذي سعدت ... زوّاره منه حين تقصده
عليه منا الصلاة دائمة ... ومن إلـه ما خاب قاصده

المجلس الثامن والأربعون

في زواج علي بن أبي طالب بفاطمة رضي الله عنهما وشفعهما فينا

الحمد لله العظيم المحمود ، الكريم المقصود القديم الموجود ، الذي أطلع من آفاق التوفيق لأهل التحقيق نجوم السعود ، وجلى عرائس الموجود في مرآة الشهود ، فمن فهم المطلوب بلغ المقصود زين زمان الربيع بعروس غروس الأشجار تخطر في حلل البهاء بقدود كل غصن أملود وأقام في غرسها خطباء الأطيار على منابر الأشجار تثني في الأسحار بحمد الملك المعبود ، وجعل العقل حكماً على الجوارح والعينين من جملة الشهود ، وأمرهم بالتفكر في عجائب مصنوعاته فشهدوا عقد حبات السنبل والعنقود ، فاعجب لصانع القدرة بعد النظر والفكرة كيف كوّن هذه الأكوان المختلفة الأعيان القاطعة لأهل الطغيان والجحود ؛ فسبحان مفجر

الأنهار من صم صخر الجلمود ومطلع الأزهار من خلال الأشجار ومخرج ثمرها من عود ، زين السماء بالنيرين ، والبطحاء بالعمرين والزهراء بالسبطين ، وجعل جدهما أشرف الجدود ، فكم مشتاق إليه لهفان عليه كدحت نجائب الشوق إليه بالسوق الكدود ، فقطعت به مفاوز الهجر والصدود ، فإذا وصلت إلى ذلك النادي تراها تنود وإذا حدا لها الحادي أرخت الدموع على الخدود :

عج على الوادي ونجد وزرود أيها الحادي وأنجز بالوعود
ثم عرّج بالمطايا فلها بين وادي الشيح والرند ورود
خلها ترعى بكثبان الحمى فلها فيها هبوط وصعود
لا تسقها أيها الحادي فما ترك الشوق بها إلا الجلود
لو تشاهدها إذا ما استنشقت نسمات الحي بالنفس تجود
وإذا لاحت لها دار المنى مدت الأعناق بالسعي الكدود
للنبي الهاشمي المصطفى صفوة الرحمن من كل الوجود
فعليه الله صلى كلما صدحت قمرية من فوق عود

[روي عن أنس بن مالك ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « فاطمة بضعة مني فاطمة حوراء إنسية » .وروي عن بعض الرواة الكرام أن خديجة الكبرى رضي الله عنها تمنت يوماً من الأيام على سيد الأنام أن تنظر إلى فاكهة دار السلام ، فأتى جبريل إلى المفضل على الكونين من الجنة بتفاحتين وقال : يا محمد يقول لك من جعل لكل شيء قدراً كل واحدة وأطعم الأخرى لخديجة الكبرى ، واغشها فإني خالق منكما فاطمة الزهراء ، ففعل المختار ما أشار به الأمين وأمر ، فلما سأله الكفار أن يريهم انشقاق القمر ، وقد بان لخديجة حملها بفاطمة وظهر ، قالت خديجة : واخيبة من كذّب محمداً وهو خير رسول ونبي ، فنادت فاطمة من بطنها : يا أماه لا تحزني ولا ترهبي فإن الله مع أبي ، فلما تمّ أمد حملها وانقضى وضعت فاطمة فأشرق بنور وجهها الفضاء وكان المختار كلما اشتاق إلى الجنة ونعيمها قبل فاطمة شم طيب نسيمها . فيقول حين ينشق نسماتها القدسية : إن فاطمة لحوراء إنسية ، فلما استنارت في سماء الرسالة شمس جمالها وتمّ في أفق الجلالة بدر كمالها امتدت إليها مطالع الأفكار وتمنت النظر إلى حسنها أبصار الأخيار وخطبها سادات المهاجرين والأنصار ، ردهم المخصوص من الله بالرضا ، وقال : إني أنتظر بها القضا :

من مثل فاطمة الزهراء في نسب وفي فخار وفي فضل وفي حسب
والله فضلها حقاً وشرفها إذ كانت ابنه خير العجم والعرب

ولقد خطبها أبو بكر وعمر ، فقال لهما رسول الله ﷺ : إن أمرها إلى الله تعالى ؛ ثم إن أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ كانوا جلوساً في مسجد رسول الله ﷺ ، فتذاكروا أمر فاطمة رضي الله عنها ، فقال أبو بكر : قد خطبها الأشراف ، فردهم رسول الله ﷺ ، وقال : إن أمرها إلى الله عز وجل ، وإن علياً لم يخطبها ولم يذكرها ولا أرى ما يمنعه من ذلك إلا قلة ذات اليد وإنه ليقع في نفسي أن الله تعالى ورسوله إنما يحبسانها لأجله ، ثم أقبل أبو بكر على عمر وعلى سعد ، وقال لهما : هل لكما في القيام إلى عليّ كرّم الله وجهه فنذكر له أمرها فإن منعه من ذلك قلة اليد واسيناه . فقال سعد : وفقك الله يا أبا بكر فخرجوا من المسجد والتمسوا علياً في مسجده فلم يجدوه ، وكان ينضح الماء ببعير على نخل لرجل من الأنصار بأجرة فانطلقوا نحوه فلما رآهم قال : ما وراءكم ؟ فقال أبو بكر ﷺ : يا أبا الحسن إنه لم يبق خصلة من خصال الخير إلا ولك فيها سابقة وفضل وأنت من رسول الله ﷺ بمكان الذي عرفت من القرابة ، وقد خطب الأشراف من قريش إلى رسول الله ﷺ ابنته فاطمة ، فردّهم وقال : إن أمرها إلى الله تعالى فما يمنعك أن تذكرها وتخطبها فإني أرجو أن يكون الله عزّ وجل ورسوله يحبسانها لك ؟ قال : فتغرغرت عينا عليّ بالدموع . وقال : يا أبا بكر لقد هيجت عليّ ما كان ساكناً وأيقظتني لأمر كنت عنه غافلاً والله إن لي في السيدة لرغبة ، وما مثلي من يقعد عن مثلها ولكن يمنعني من ذلك قلة ذات اليد . فقال أبو بكر : لا تقل كذا يا أبا الحسن فإن الدنيا وما فيها عند الله ورسوله كهباء منثور . ثم إن علياً كرّم الله وجهه حلّ عن ناضحه وقاده إلى منزله فشده فيه وأخذ نعله وأقبل إلى رسول الله ﷺ عند أم سلمة فطرق الباب فقالت : من بالباب ؟ فقال رسول الله ﷺ : قومي وافتحي له الباب ، هذا رجل يحبه الله ورسوله ويحبهما ، فقالت : فداك أبي وأمي ومن هذا ؟ فقال : هذا أخي بأحبّ الخلق إليّ ، قالت أم سلمة : فقمت مبادرة أكاد أعثر في مرطي ففتحت الباب . فإذا أنا بعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، فوالله ما دخل حتى علم أني قد رجعت إلى خدري فدخل وسلم فرد عليه النبي ﷺ السلام ، ثم قال له : اجلس فجلس بين يدي النبي ﷺ وجعل يطرق إلى الأرض كأنه قاصد حاجة يستحي منه ، فقال له النبي ﷺ : يا علي كأنك قاصد حاجة فابدأ بما في نفسك فكل حاجتك عندي مقضية ، فقال علي ﷺ : فداك أبي وأمي يا رسول الله إنك لتعلم أنك أخذتني من عمك أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد وأنا صبي لا أعقل شيئاً ، فهديتني وأدبتني وهذبتني فكنت لي أفضل من أبي طالب وفاطمة بنت أسد في البرّ والشفقة وإن الله عز وجلّ هداني بك واستنقذني عما كان عليه

آبائي وأعمامي من الشرك ، وإنك يا رسول الله ذخري ووسيلتي في الدنيا والآخرة وقد أحببت مع ما شدّ الله عز وجل بك من عضدي أن يكون لي بيت وزوجة أسكن إليها وقد أتيتك خاطباً ابنتك فاطمة فهل تزوّجني يا رسول الله ؟ قالت أم سلمة : فرأيت وجه رسول الله ﷺ قد تهلل فرحاً وسروراً ثم تبسم في وجه عليّ ، وقال يا علي هل معك شيء تصدقها إياه ؟ قال : والله ما يخفى عليك حالي ولا شيء من أمري ما أملك غير درعي وسيفي وناضحي . فقال رسول الله ﷺ : أما سيفك فلا غنى لك عنه تجاهد به في سبيل الله ، وأما ناضحك فتنضح عليه لأهلك وتحمل عليه رحلك في سفرك ولكني زوّجتك على درعك ورضيت به منك وأبشر يا أبا الحسن فإن الله عز وجلّ قد زوّجك بها في السماء قبل أن أزوّجك بها في الأرض ، ولقد هبط عليّ ملك من السماء قبل أن تأتيني لم أر قبله من الملائكة مثله بوجوه شتى وأجنحة شتى ، فقال لي : السلام عليك يا رسول الله أبشر باجتماع الشمل وطهارة النسل فقلت : وما ذاك ، أيها الملك ؟ فقال : يا محمد أنا سبطائيل الموكل بإحدى قوائم العرش سألت الله تعالى أن يأذن لي ببشارتك وهذا جبريل عليه السلام آت على أثري يخبرك عن ربك بكرامة الله عز وجلّ ، قال النبي ﷺ : فما استتم الملك كلامه حتى هبط جبريل عليه السلام ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ثم وضع في يدي حريرة بيضاء فيها سطران مكتوبان بالنور فقلت : حبيبي جبريل ما هذه الخطوط ؟ قال : إن الله عزّ وجلّ اطلع على الأرض اطلاعة فاختارك من خلقه وبعثك برسالته ثم اطلع إليها ثانية فاختار لك منها أخاً ووزيراً وصاحباً وحبيباً فزوّجه ابنتك فاطمة ، قلت : حبيبي جبريل ومن هذا الرجل ؟ فقال : أخوك في الدين وابن عمك في النسب علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وأن الله تعالى أوحى إلى الجنان أن تزخرفي وإلى الحور أن تزيني وإلى شجرة طوبى أن احملي الحلى والحلل وأمر الملائكة أن تجتمع في السماء الرابعة عند البيت المعمور فهبطت ملائكة الصفيح الأعلى وأمر الله تعالى رضوان فنصب منبر الكرامة على باب البيت المعمور وهو المنبر الذي خطب عليه آدم عليه السلام حين علمه الله الأسماء وأمر الله عز وجل ملكاً من ملائكة الحجب يقال له راحيل فعلا ذلك المنبر وحمد الله بجميع محامده وأثنى عليه بما هو أهله فارتجت السموات فرحاً وسروراً . قال جبريل : وأوحى الله تعالى إليّ أن أعقد عقدة النكاح فإني زوّجت علياً وَلِيي بفاطمة أَمتي بنت رسولي وصفوتي من خلقي محمد ﷺ فعقدت عقدة النكاح وأشهدت على ذلك الملائكة ، وكتبت شهادتهم في هذه الحريرة ، وقد أمرني ربي أن أعرضها عليك وأختمها بخاتم من مسك أبيض وأدفعها إلى رضوان خازن الجنان . ثم إن الله

تعالى لما أشهد على تزويج فاطمة ملائكته أمر شجرة طوبى أن تنثر ما فيها من الحلى والحلل فنثرت ذلك والتقطته الحور العين والملائكة وإن الحور العين ليتهادونه إلى يوم القيامة ، وقد أمرني أن آمرك بتزويجها علياً في الأرض وأن أبشرها بغلامين ذكيين نجيبين فاضلين طاهرين خيرين في الدنيا والآخرة . قال رسول الله ﷺ : ما عرج الملك يا أبا الحسن حتى طرقت الباب ، وألا وإني منفذ فيك أمر ربي فامض يا أبا الحسن أمامي فإني ذاهب إلى المسجد ومزوجك على رؤوس الناس ، وذاكر من فضلك ما تقرّ به عينك . قال عليّ كرّم الله وجهه : فخرجت من عنده مسرعاً وأنا لا أعقل من شدة الفرح فاستقبلني أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقالا لي : ما رواءك يا أبا الحسن ، قلت : زوّجني رسول الله ﷺ فاطمة وأخبرني أن الله تعالى زوّجني بها في السماء وهذا رسول ﷺ آت على أثري إلى المسجد فيقول ذلك في محضر من الناس ، ففرحا بذلك ودخلا المسجد ، فوالله ما توسطاه حتى لحق بنا رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل سروراً . فقال رسول الله ﷺ : يا بلال اجمع المهاجرين والأنصار فانطلق بلال لأمر رسول الله ﷺ وجلس النبي ﷺ قريباً من منبره حتى اجتمع الناس ثم قام فرقى المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر المسلمين إن جبريل أتاني آنفا فأخبرني أن الله عز وجل استشهد الملائكة عند البيت المعمور أنه زوج أمته فاطمة ابنتي من عبده علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وأمرني أن أزوجه في الأرض وأشهدكم على أني زوّجته بها . ثم جلس وقال لعليّ : قم يا علي واخطب لنفسك فقام علي ﷺ عنه فحمد الله وأثنى عليه . فقال : الحمد لله وشكراً لأنعمه وأياديه : وأشهد أن إلـه إلا الله وحده لا شريك له ولا شبيه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الوجيه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وبنيه صلاة ترضيه . وبعد ، فإن النكاح سنة أمر الله به وأذن فيه وقد زوجني رسول الله ﷺ ابنته فاطمة وجعل صداقها درعي هذا وقد رضيت ورضي فاسألوه واشهدوا . فقال المسلمون : بارك الله فيكما وعليكما وجمع شملكما . ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أزواجه فأمرهن أن يدففن لفاطمة رضي الله عنها فضرب أزواج النبي ﷺ بالدفوف على رأس فاطمة ، قال علي ﷺ : فأخذت درعي ومضيت به إلى السوق فبعته بأربعمائة درهم من عثمان بن عفان ﷺ . فلما قبضت الدراهم وقبض الدرع قال لي : يا أبا الحسن ألست الآن أولى منك بالدرع وأنت أولى مني بالدراهم ؟ قلت : بلى قال : فإن الدرع هدية مني إليك ، قال علي : فأخذت الدرع والدارهم وأتيت بهما إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من عثمان فدعا له بخير وقبض رسول الله ﷺ قبضة من الدراهم ، ثم دعا بأبي بكر ﷺ

فقال : يا أبا بكر اشتر بهذه الدراهم ما يصلح لفاطمة وأرسل معه سلمان وبلالاً يعينانه على حمل ما يشتريه . قال أبو بكر ﷺ : كانت الدراهم التي دفعها إليّ رسول الله ثلاثة وستين درهماً فاشتريت فراشاً من خيش محشواً بالصوف ونطعاً من أديم ووسادة من أديم حشوها من ليف النخل وقربة للماء وكيزاناً وستر صوف رقيق فحملت أنا بعضه وسلمان بعضه وبلال بعضه وأقبلنا فوضعناه بين يدي رسول الله ﷺ فلما نظر إليه بكى . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم بارك لقوم شعارهم الخوف منك قال علي : ودفع رسول الله ﷺ باقي ثمن الدرع إلى أم سلمة وقال : ارفعي هذه الدراهم عندك فمكثت بعد ذلك شهراً لا أعاود رسول الله ﷺ حياء منه غير أني كنت إذا خلوت برسول الله ﷺ يقول لي : يا أبا الحسن زوّجتك سيدة نساء العالمين . قال علي : فلما كان بعد شهر دخل عليّ أخي عقيل بن أبي طالب ، فقال : يا أخي ما فرحت قط بشيء كفرحي بتزوّجك فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإن تدخل عليها قرّت أعيننا باجتماع شملكما ، فقلت : والله إني لأحب ذلك وما يمنعني إلا الحياء من رسول الله ﷺ ، فقال : أقسمت عليك إلا ما قمت معي فقمت منه نريد رسول الله ﷺ فلقيتنا في طريقنا أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ فذكرنا لها ذلك فقالت : أمهلا ودعانا نحن نكلمه في أمرها فإن كلام النساء أوقع في النفس من كلام الرجال . ثم انثنت راجعة إلى أم سلمة فأعلمتها بذلك وأعلمت نساء رسول الله ﷺ فاجتمعت أمهات المؤمنين إلى رسول الله وكان في بيت عائشة ، فأحدقن به وقلن : يا رسول الله ﷺ فديناك بآبائنا وأمهاتنا إنا قد اجتمعنا لأمر لو أن خديجة في الأحياء لقرّت عيناها بذلك قال أم سلمة : فلما ذكر خديجة بكى رسول الله ﷺ وقال : وأين مثل خديجة صدّقتني حين كذبني الناس وأعانتني على ديني ودنياي بمالها . فقالت أم سلمة : يا رسول الله إن خديجة كانت كذلك غير أنها مضت إلى ربها فالله تعالى يجمع بيننا وبينها في درجات الجنة ، وهذا أخوك في الدين وابن عمك في النسب علي بن أبي طالب يحب أن يدخل على زوجته فاطمة . فقال رسول الله ﷺ : يا أم سلمة أرسلي إلى أم أيمن وأمريها أن تنطلق إلى عليّ فتأتيني به فخرجت أم أيمن فإذا عليّ ينتظرها . فقالت له : أجب رسول الله ﷺ ، قال علي : فانطلقت معها إلى رسول الله ﷺ وهو في حجرة عائشة رضي الله عنها فقامت أزواجه . فدخلن البيت فجلست بين يدي رسول الله ﷺ مطرقاً فقال : أتحب أن تدخل على زوجتك ؟ فقلت : نعم فداك أبي وأمي ، فقال : حباً وكرامة تدخل عليها في ليلتنا هذه إن شاء الله تعالى ، قال علي : ثم قمت من عنده فرحاً مسروراً فأمر رسول الله ﷺ أن تزين فاطمة وتطيب ويفرش لها ودفع النبي ﷺ

لعلي عشرة دراهم من الدراهم التي كانت عند أم سلمة وقال له : اشتر بهذه تمراً وسمناً وأقطاً .
قال علي : فاشتريت ذلك وأتيت به إلى رسول الله ﷺ فحسر عن ذراعيه ودعا بسفرة من أدم فجعل يشدخ التمر بالسمن ويخلطه بالأقط حتى جعله حيساً . ثم قال : يا علي ادع من أحببت فخرجت إلى المسجد فوجدت أصحاب رسول الله ﷺ فقلت : أجيبوا رسول الله ﷺ فقام القوم بأجمعهم فأقبلوا نحوه فأخبرته أن القوم كثير فجلل السفرة بمنديل . ثم قال : ليدخلن عشرة عشرة ففعلت ذلك فجعلوا يأكلون ويخرجون والسفرة لا تنقص حتى أكل من ذلك الحيس سبعمائة رجل ببركة النبي ﷺ ثم دعا رسول الله ﷺ بفاطمة وعلي فأخذ علياً بيمينه وفاطمة بشماله وجمعها إلى صدره وقبلهما بين عينيها ثم دفعها إليه . وقال : يا أبا الحسن نعم الزوجة زوجتك ثم قام يمشي معهما إلى البيت الذي لهما ، ثم خرج وأخذ بعضادتي الباب ، وقال : جمع الله شملكما استودعتكما الله واستخلفته عليكما فأقبل علي ﷺ على فاطمة يلاطفها بالكلام حتى جن الظلام فأخذت في البكاء ، فقال : ما يبكيك يا سيدة النساء ألم ترضيني أن أكون لك بعلاً وتكوني لي أهلاً ؟ فقالت : يا ابن العم كيف لا أرضى وأنت الرضا وفوق الرضا ، وإنما فكرت في أمري وحالي عند ذهاب عمري ونزولي في قبري فشبهت دخولي إلى فراش عزي وفخري بدخولي لحدي وقبري ، وأنا أسألك يا ابن العم بحق أبي إلا ما بلغتني قصدي وأربي وقمت بنا إلى محرابنا نتعبد في هذه الليلة فهو أحق وأحرى بنا فنهضا إلى المحراب ، وقاما إلى التهجد في خدمة رب الأرباب .

[إخواني] ما كانت همم القوم في الدنيا ولذاتها ، ولا في راحة النفس وشهواتها ، ولا كانت تسمو هممهم العالية إلا إلى الدار الباقية لا جرم جعل ذكرهم في الكتاب مسطوراً ، وكتب لهم بالبشارة منشوراً : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] فتركا فراش لذاتهما واشتغلا بعبادتهما فكانا يقطعان الليل بالقيام والنهار وبالصيام حتى مضت ثلاثة أيام ، ثم رقدا على فراشهما ، فهبط الأمين جبريل ﷺ في اليوم الرابع على سيد الأنام وقال له : ربك يقرئك السلام ، ويقول لك إن علياً وفاطمة الكرام ، تركا فراشهما وهجرا المنام في هذه الثلاثة أيام ، وأقبلا على الصيام والقيام ، فامض إليهما وسل عنهما وقل لهما : إن الله تعالى قد باهى بكما الملائكة المقربين ، وإنكما تشفعان يوم القيامة في العصاة والمذنبين ، فقام النبي ﷺ وأتى إلى منزلها ودخل فصادف في البيت أسماء بنت عُميس ، فقال لها : ما يوقفك ههنا وفي البيت رجل ؟ فقالت : فداك أبي وأمي يا رسول الله إن البنت إذا زفت إلى زوجها

احتاجت إلى امرأة تتعهدها وتقوم بأمرها وبحوائجها فقمت ههنا لأقضي حوائج فاطمة فتغرغرت عينا رسول الله ﷺ بالدموع ، وقال : يا أسماء قضى الله لك كل حاجة من حوائج الدنيا والآخرة . قال عليّ ﷺ : وكانت غداة قرّ وبرد شديد ، وكنت أنا وفاطمة تحت العباءة ، فلما سمعنا كلام رسول الله ﷺ همنا أن نقوم فنظرنا رسول الله ﷺ فقال : سألتكما بحقي عليكما لا تفرقا حتى أدخل عليكما فرجع كل واحد إلى صاحبه ودخل النبي ﷺ فجلس عند رؤوسنا وأدخل رجليه فيما بيننا فأخذت رجله اليمنى وضممتها إلى صدري وأخذت فاطمة رجله اليسرى فضمتها إلى صدرها ، وجعلنا ندفىء رجلي رسول الله ﷺ من البرد حتى دفئتا ثم دعا لنا بخير ، ثم أمر علياً بالخروج فخرج فقال لفاطمة : كيف رأيت بعلك يا بنية ؟ فقالت : إنه خير بعل يا أبت ثم دعا بعليّ فقال له : ارفق بزوجتك والطف بها فإن فاطمة بضعة مني يؤلمني ما يؤلمها ويسرني ما يسرها استودعتكما الله واستخلفته عليكما ، وأذهب عنكما الرجس وطهركما تطهيراً . قال علي كرّم الله وجهه : فوالله ما أغضبتها ولا أكرهتها بعد ذلك على أمر حتى قبضها الله تعالى إليه ، ولا أغضبتني ولا عصت لي أمراً ، ولقد كانت تكشف عن الهموم والأحزان كلما نظرت إليها ، رحمة الله عليها :

من مثل فاطمة البتول وبعلها ... أعني علياً سيد الفرسان
نالا من المختار أعلى رتبة ... فلأجل ذا فاقا على الأقران
تركا فراشهما وقاما في الدجى ... يتلذذان بطاعة الرحمن
قد آثرا الأخرى على الدنيا وما ... فيها من العيش اليسير الفاني
والله قد باهى ملائكة السما ... بهما وخصهما بكل أمان
هم آل بيت المصطفى والعروة الـ ... ـوثقى لمن يبغي سنا الإيمان
وبهم يزول الهم عنا والأذى ... وبهم تزول غواية الشيطان
ماذا يقول المادحون لوصفهم ... ومديحهم قد جاء في القرقان
يا فوز من أضحى به متمسكاً ... وغدا له نور من المنان
فبهم غداً أرجوا النجاة وأتقي ... سوء العذاب وزفرة النيران
هم آل طه الطاهرون ومن هم ... شأن عظيم يا له من شان
قاموا وصاموا في الهواجر والدجى ... وترنموا في الليل بالقرآن
فإليهم تسعى الوفود وترتجي ... منهم قرى الإكرام للضيفان

آل النبي ورهطه وأصحابه والتابعون له على الإحسان
هم آل بيت المصطفى علم الهدى خير الورى المبعوث من عدنان
صلى عليه الله ما سرت الصبا وتناغت الأطيار في الأغصان

المجلس التاسع والأربعون

في ذكر الموت والتفكر فيه

الحمد لله المتوحد بأنواع المصنوعات ، المتفرد باختراع المخلوقات ، المنزه عن التجسيم والتقسيم والسمات ، المتعالي عن الأشكال والأمثال والأماكن والجهات ، المقدس عن الأعيان والألوان والكيفيات ، الموصوف بقدم الأسماء والصفات ، القريب ممن دعاه لا بقرب المسافات ، المجيب لمن ناجاه بإخلاص الدعوات ، الذي يغفر الذنوب ويستر العيوب ويقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السيئات ، العالم بمكنون الأسرار ومصون الأفكار والخفيات ، الخبير فلا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ، السميع فلا يعزب عن سمعه اختلاف الأصوات ، البصير فلا يعزب عنه دبيب النمل على الرمل في الظلمات ، الواحد الأحد فلا ثاني له في الكائنات ، الفرد الصمد المنزه عن البنين والبنات ، الباقي على الأبد ويفني كل أحد ويقضي عليه بالممات ، فسبحان مميت الأحياء محيي الأموات . بينما المرء يغترّ في دنياه بلذيذ الشهوات ، غرق في بحار الغفلات ، إذ أتاه الموت فجرّعه من مرّه كاسات ، وألقى عليه من غمه غمرات ، فغشيته من كربه سكرات ، وأورثه من شدته حسرات ، فرحل عما كان فيه من اللذات ، وأبكى الآباء والأمهات ، وأيتم البنين والبنات ، وجرت على مصائبه العبرات ، وحمل على الأعناق إلى الفلوات ، وصار في قبره من جملة الرفات ، وخلا بعمله من الحسنات والسيئات ، ولم ينفعه في لحده من بعده غير التقوى والطاعات ، وما قدم من برّ وصدقات ، وأسلف من صلوات ودعوات ، أفلا يعتبر العاقل بمصرع من قد مات ، وقد حوته القبور الدارسات ، أين العبيد والسادات ، فكيف يطمع في البقاء ، وقد قال صاحب الدلائل والمعجزات : « إن للموت سكرات » فانتبه مما أنت فيه يا أسير الغفلات ، وتزوّد للسفر الطويل فقد بقي وضربت للرحيل الكاسات :

ند مضى العمر وفات يا أسير الغفلات
حصل الزاد وبادر مسرعاً قبل الفوات

فإلى كم ذا التعامي عن أمور واضحات
وإلى كم أنت غارق في بحار الظلمات
لم يلن قلبك أصلا بالزواجر والعظات
بينما الإنسان يسأل عن أخيه قيل مات
وتراه حملوه سرعة للفلوات
أهله يبكون عليه حسرة بالعبرات
أين من قد كان يفخر بالجياد الصافنات
وله مال جزيل كالجبال الراسيات
سار عنها رغم أنف للقبور الموحشات
كم بها من طول مكث من عظام ناخرات
فاغنم العمر وبادر بالتقى قبل الممات
وأنب وأرجع وأقلع من عظيم السيئات
واطلب الغفران ممن ترتجي منه الهبات
ثم نادي في الدياجي يا مجيب الدعوات
اعف عنا يا رحيما وأقلنا العثرات
ما وجدنا من شفيع في مضيق الكربات
غير جاه المصطفى الها دي بهيّ المعجزات
فعليه صلوات زاكيات طيبات
وعلى الآل جميعاً وصحاب طاهرات

عن عائشة رضي الله عنها قالت : « سمعت رسول الله ﷺ يصف ثواب المجاهدين ، وما أعد الله لهم من الأجر والفضل في الجنة ، فقلت : يا رسول الله أيكون لغير المجاهدين من أمتك مثل أجرهم ؟ فقال : نعم من يذكر الموت في كل يوم عشرين مرة » . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من بيت إلا وملك الموت يقف على بابه كل يوم خمس مرات : فإذا وجد الإنسان قد نفد أكله وانقطع أجله ألقى عليه غم الموت ، فغشيته كرباته وغمرته سكراته . فمن أهل بيته الناشرة شعرها والضاربة وجهها والباكية لشجوها والصارخة بويلها . فيقول ملك الموت : ويلكم ممّ الفزع وفيم الجزع ؟ فما أذهبت لواحد منكم رزقاً ولا قرّبت له أجلاً ، ولا أتيته حتى أمرت ، ولا قبضت روحه حتى استأمرت ، وإن لي فيكم عودة ثم عودة حتى لا أبقي منك أحداً ، قال النبي ﷺ : فوالذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه أو يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش ، وهو ينادي : يا أهلي ويا ولدي لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت من حله ومن غير حله ، ثم خلفته لغيري فالمال لكم والتبعة عليّ فاحذروا مثل ما حلّ بي » :

لو كلم الميت من يشيعه لقال لا تغترر فأنت أنا
قد كنت أرجو وغرني أملي عاجلني الموت ما بلغت منى
ما لي لغيري جمعته وبقي عليّ من وزره شقا وعنا
وهو بما قد جمعت في رغد يأكله لذة له وهنا
فاعتبروا يا ذوي العقول فقد شرحت حالي لكم وفيه غنى

[وقيل] : إن الموت له ألم لا يعلمه إلا الذي يعالجه ويذوقه ، وهو أشدّ من الضرب بالسيوف وأعظم ألماً من النشر والمناشير والقرض بالمقاريض ، لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم مع بقاء قوّة في البدن فلذلك يستغيث المضروب ويصيح بخلاف الموت فإن الميت ينقطع وتضعف قوته عن الصياح لشدة الألم والكرب على القلب ، فإن الموت قد هدّ كل جزء من أجزاء البدن وأضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة للاستغاثة . أما العقل فقد غشيته وسوسة ، وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الأطراف فقد أضعفها ويودّ لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح ولكنه ما يقدر على ذلك فإن بقيت له قوة سمع له عند نزع الروح وجذبها خوار وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى ترتفع الحدقتان إلى أعلى جفونه ، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما وتصفرّ أنامله ويموت كل عضو منه على حدته . فأول ما يموت قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى تبلغ روحه الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها وتحيط به الحسرة والندامة . وروي « أن النبي ﷺ دخل على مريض فقال : إني لأعلم ما يلقى ليس في عرق إلا وهو يتألم بالموت على حدته » . وروي « أنه ﷺ لما احتضر كان عنده قدح من ماء يدخل يده فيه ويمسح وجهه ويقول : لا إلّه إلا الله إن للموت لسكرات » ، وفي رواية كان يقول : « اللهم هوّن عليّ سكرات الموت » ، وفي رواية : « أعني على سكرات الموت وفاطمة رضي الله عنها تقول : واكرباه لكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أبيك بعد اليوم » ذكره البخاري ومسلم ، وكان عليّ ﷺ يحرض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس محمد بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش . وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمنين وهو أشدّ ألماً من نشر المناشير وقرض المقاريض وغليان القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل بألم الموت لما انتفعوا بعيش ولا التذوا بنوم . وروي أن موسى ﷺ حين مات وصارت روحه إلى الله عز وجل قال الله عز وجل : يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى وهو حي فلا هو يموت فيستريح ولا ينجو فيطير . وفي رواية : وجدت نفسي كشاة تسلخ وهي حية وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] . أي بالحق من أمر الآخرة حين ينتبه ويراه عياناً ، وأما مشاهدة ملك الموت وما يدخل على القلب منه من الروع والفزع فهو أمر قصرت عن كنهه عبارة كل فصيح وضاق عن سعة هوله كل فسيح ولم يعلم حقيقة ذلك إلا الذي يتراءى له في تلك الحال ، كما روي أن

إبراهيم الخليل ﷺ قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر ؟ فقال : لا تطيق ذلك . قال : بلى قال له : فأعرض بوجهك عني فأعرض بوجهه عنه ثم التفت فإذا هو رجل أسود مهول ثيابه سود قائم الشعر منتن الريح يخرج لهيب النار من فيه ومن مناخره كالدخان ، فغشي على إبراهيم ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر إلا صورة وجهك لكفاه . ونظر إبراهيم ﷺ إلى إناس يبكون على ميت لهم . فقال : لو بكيتم على أنفسكم لكان خيراً فإن ميتكم قد نجا من ثلاثة أهوال : وجه ملك الموت وقد رآه ، ومرارة الموت وقد ذاقها ، وخوف الخاتمة وقد أمنها ، فينبغي للعاقل أن يبكي على نفسه فهو أولى به ويعلم أن الموت خلفه وفي طلابه :

ليبك على نفسه العاقل ... لينتبه النائم الغافل ... يؤمل ذو الجهل آماله
فيفجؤه موته العاجل ... علام الجدال وهذا المآل ... وفيم القتال ولا طائل

ودنياكمو هي معشوقة ... ولكن حقيقتها باطل

وبرق ولكنه خلب ... وودق ولكنه ماحل ... وطيف ولكنه هاجر
وشهد ولكنه قاتل ... منام وأضغاث أحلامها ... أماني يؤملها الجاهل
فأين الشريف وأين الضعيف ... وأين المفضل والفاضل ... وأين الشجاع وأين الجبان
وأين المهذب والعاقل ... فكل سيشرب كأس الفنا ... وكل بهذا الفنا نازل

[**إخواني**] لا واعظ كالموت وما تتعظون ، وهو طالب لكم وأنتم عنه غافلون ، أتظنون أنكم في الدنيا مخلدون ، ولا بد من ورود كأس المنون ، تزوّدوا للرحيل فقد سارت القافلة ولا تغتروا بزهرة الدنيا فإنها زائلة ، وإياكم والآمال الباطلة ، فإن سمومها قاتلة ، إلى متى أنت مقيم على غفلتك وجهلك ، إلى متى تغترّ بمالك وأهلك ، إلى متى تؤثر الدنيا الدنيئة وهي تسعى في قتلك ، إلى متى تنسى لحاقك بمن كان من قبلك ، إلى متى لا يؤثر فيك كثير عتابك وعذلك ، إلى متى لا تذكر رحيلك عن جميع ما تملك ؟ حتى متى لا تفهم المواعظ ؟ وقد قيلت من وأجلك تيقظ يا غافل فكم لعب الهوى بمثلك :

يا نفس مالك عن حمامك غافله ... وأراك في ثوب الأماني رافله
دنياك منزلة أقمت بظلها ... فتزوّدي منها فإنك راحله
إن لم يزل عنك الذي تحوينه ... منها وإلا كنت عنه زائله

قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ ـ ٢] يعني شغلكم

التكاثر بالأموال والأولاد عن الاستعداد للموت . قال رسول الله ﷺ : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » . ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٣] عند سكرات الموت وأهواله ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٤] بعد الموت معاينة منكر ونكير في القبر .

[وروي] عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : إن المؤمن إذا وضع في القبر وسع عليه قبره سبعين ذراعاً طولاً ومثله عرضاً وتنثر عليه الرياحين ويستتر بالحرير فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره في قبره ويكون مثله كمثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه فيقوم من نومته كأن لم يشبع منها ، وإن الفاجر والفاسق والكافر يضيق عليه قبره حتى تدخل أضلاعه في جوفه ويرسل عليه حيات كأعناق الإبل فتأكل لحمه حتى لا تذر على عظمه لحماً وترسل عليه شياطين صم بكم عمي معهم مطارق من حديد فيضربونه بها لا يسمعون صوته فيرحمونه ولا يبصرون ما هو فيه فيرقون له ويعرض على النار بكرة وعشياً . وقال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرّك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ؟ ما غرّك بي إذ كنت تمرّ بي ، وإن كان صالحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فيقول القبر إذاً أتحول عليه روضة من رياض الجنة ويعود جسمه نوراً وتصعد روحه إلى الله عز وجل » . وعن كعب ﷺ أنه قال : ما من يوم إلا والقبر ينادي خمس مرات بهذا الكلمات : يا ابن آدم تمشي على ظهري ومصيرك في بطني ، يا ابن آدم تضحك على ظهري ، ثم تبكي في بطني ، يا ابن آدم تأكل الحرام على ظهري وتأكلك الديدان في بطني ، يا ابن آدم تفرح على ظهري وتحزن في بطني .

[وسئل] بعض الزهاد : كيف حالك ؟ فقال : كيف يكون حال من يريد سفراً بلا زاد ويقدم على ملك الموت غداً بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس :

أيـا مـن غـدا في بـاطن نـازلاً ... أتـانس بالـدنيا وأنـت غريـب
ومـا الـدهر إلا مثـل يـوم وليلـة ... ومـا المـوت إلا نـازل وقريـب
كأنـك والأيـام مـا بـين أن تـرى ... تسـاء بمـال أو بـبين حبيـب

[وروي] أن عثمان بن عفان ﷺ عنه وقف على قبر فبكى فقيل له : إنك تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد » :

حق على من يكون الموت مورده ... وظلمة القبر بعد الموت ملحده

أن لا يسوى قط إلا خائفاً وجلاً ... طوى السرور وأقصاه وأبعده

يبكي لما قد جنى في الدهر من زلل ... بكاء من كان جسر النار مرصده

يا هذا احذر أن تصبح عن طريق الهدى حائراً ، أو أن تعاهد على التوبة فتضحى غادراً ، وقم إلى إخلاص نفسك مبادراً ، وكن لعواقب الأمور في كل حال ذاكراً ، ولازم خدمة مولاك حامداً له شاكراً ، واحذر أن تكون عند ربح المتقين خاسراً ، فكأني بك وقد أقبل إليك الموت متسلطاً قاهراً :

آه للموت زائرا ... قد أباد العشائرا ... كم سعى الدهر باطنا ... ورأيناه ظاهرا

ومحا من محاسن ... قد طواهن سائرا ... كم جمال بقهره ... قد أحل المقابرا

ثم أفنى أوائلا ... وأباد الآواخرا ... آه للناعم النضـ ... ـير طوى منه ناظرا

آه للغصن إذ سما ... حله الموت كاسرا ... كم أتى من أكابر ... وأباد الأصاغرا

فاز من كان خائفا ... منه في الأمن حاذرا ... واتقى الله حيثما ... منه قد كان حاضرا

وجاء في الأثر : إن الروح إذا خرجت من الجسد ومضى عليه سبعة أيام تقول : يا رب ائذن لي حتى أنظر إلى جسدي ما حاله ؟ فيقال لها : اذهبي فتأتي الروح إلى القبر فتنظر إليه من بعيد فتراه متغيراً يسيل من منخره ماء ، ومن فمه ماء ، ومن عينيه ماء ، ومن أذنيه ماء ، فكأنه في وسط لجة فتقول له صرت إلى هذا الحال بعد نضارة جسمك ثم تمضي حتى إذا كان بعد سبعة أيام أخر تقول : يا رب ائذن لي حتى أنظر إلى جسدي ما حاله ؟ فيقول الله تعالى : اذهبي فتأتي إلى القبر فتنظر إليه من بعيد فتراه قد تغير ، وقد صار الماء الذي في فيه صديداً والذي في عينيه قيحاً والذي في أنفه دماً ، فتقول له صرت إلى هذا الحال ثم تمضي حتى إذا كان بعد سبعة أيام قالت : يا رب ائذن لي حتى أنظر إليه هذه المرة ما حاله ؟ فيقول لها : اذهبي فتأتيه فتنظر إليه من بعيد فتراه وقد صار الصديد دوداً وقد سقطت حدقتاه على وجهه والدود يدخل في فيه ويخرج من منخره ، فتقول صرت إلى هذا الحال بعد النعيم والدلال .

[**إخواني**] انظروا إلى أحوالكم كيف تصيرون بعد الموت ، وكيف تطلبون العود وقد حصل الفوت ، فأنتم عما يراد بكم غافلون ، وفي بحار الأمل غارقون ، أصم في الآذان عن النصائح ، أعمي في القلوب عن جميع المصالح ؟ تالله ما ينفع المرء في قبره غير التقى والعمل الصالح :

الموت بحر موجه طافح ... يحار فيه العائم السابح ... يا نفس إني ناصح فاقبلي

منـي فـإني مشـفق ناصـح ... لا ينفـع الإنسـان في قـبره ... إلا التقى والعمـل الصـالح

[وقيل] لإبراهيم عليه السلام : عظنا بما ينفعنا . قال : إذا رأيتم الناس مشغولين بأمر الدنيا فاشتغلوا بأمر الآخرة ، وإذا اشتغلوا بتزيين ظواهرهم فاشتغلوا بتزيين بواطنكم ، وإذا اشتغلوا بعمارة البساتين والقصور فاشتغلوا أنتم بعمارة القبور ، وإذا اشتغلوا بعيوب الناس فاشتغلوا بعيوب أنفسكم ، وإذا اشتغلوا بخدمة المخلوقين فاشتغلوا بخدمة الخالق رب الخلائق أجمعين ، فتيقظ يا هذا لنفسك قبل أنا يناديك المنادي ، وتدرّع دروع الصبر وجاهد الأعادي ، وشمر في طلب خلاصك واقطع علق التمادي ، وعليك بما يفيدك وما تنجو به يوم التنادي :

فمالَك ليس يعمل فيك وعظ ... ولا زجر كأنـك مـن جمـاد ... ستندم إن رحلت بغـير زاد
وتشقى إذ يناديـك المنـادي ... فلا تأمن لدى الدنيا صـلاحا ... فإن صلاحها عـين الفسـاد
ولا تفـرح بمـال تقتنيـه ... فإنك فيـه معكـوس المـداد ... وتب مما جنيت وأنت حـي
وكـن متنبهـاً قبـل الرقـاد ... أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهـم زاد وأنـت بغـير زاد

وقال رسول الله ﷺ : « يهرم المرء ويشبّ معه اثنان الحرص وطول الأمل » فالحرص أحد المهلكات وقال ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي وقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أصحاب القبور » يا حريصاً على ارتكاب الآثام وعن هجوم الموت غافل ، وقد تحققت مفاجأة الأجل فما الحرص على المال والزلل فعل عاقل ، تعجل الذنب نقداً وتؤخر التوبة إلى قابل ، أما علمت أن مطل الغني ظلم وقد أغناك الله بالشباب والصحة والفراغ وأنت بالتوبة تماطل ؟ أين من ملك الدنيا ودوّخ الجبابرة وقاد الجحافل ، أين التائه المعجب على العباد كبراً ، أين القاتل أين الصائل ؟ رشقتهم والله المنون بسهامها فأصابت المقاتل ، وصرعتهم بعد الفراش والنمارق بين الصفائح والجنادل :

يـا عاشـق الـدنيا أمـا ... في حـادث الأيـام عـاذل ... أنـت القتيـل صـبابة
بحطامهـا والحـب قاتـل ... خيمـت في ظـل المـنى ... والعمـر يـا مغـرور راحـل
وركنـت للـدنيا وكـم ... غـدرت بـذي ودّ مواصـل ... أمـع التـنغص والأذى
يلتـذ في دنيـاه عاقـل ... قـف واعتـبر بمنـازل ... درست وقد كانت أواهل
أيـن الـذين تـدبروا الـد ... دنيـا ومـا فـازوا بطائـل ... قـادوا الجيـوش وذللـوا
أسد الشرى بظبي النواصل ... فجـرت علـيهم حادثـا ... ت الـدهر فـانقلبوا كلائـل

قــــد فصـــــلت أوصـــــالهم بـــــين الصـــــفائح والجنــــــادل

قوله عزّ وجل : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ : [ق : ١٩] أي معالجة سكرات الموت ورؤية ملك الموت وأن يكشف للعبد من مقعده في الجنة أو النار فهذه أمور مهولة ، وذلك عند مجيء سكرات الموت وهو الحق الذي ذكره النبي ﷺ من الإيمان بالغيب ، ثم بعده سؤال منكر ونكير ، وهو أوّل ما يلقى الميت إذا ألحد ، وأما سكرة الموت فهي ما تقدم ذكره لأن للموت سكرات ، وسكرات الموت بحسب كل شخص بما فعل في دار الدنيا ؛ وسميت سكرة لأنها تذهل العقول وتغيب الذهن كحال السكران في سكرته وذلك أن العبد تظهر له أعماله عند الموت من الحسن والقبيح وجزاء عمله ؛ فالمغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار ، والسامع للغيبة يسلك في أذنيه نار جهنم ، والظالم تتفرق روحه بكل مظلوم ، وآكل الحرام يقدّم له الزقوم كذلك إلى آخر أفعال العبد كل هذه الحالات تظهر عند سكرات الموت ، فالميت يجوزها سكرة بعد سكرة وعند آخرها تقبض روحه ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ يعني تحيد بطول الآمال والحرص على البقاء في الدنيا . وروي عن عيسى عليه السلام أنه مرّ على قبر سام بن نوح ، فقال له بنو إسرائيل : يا روح الله ادع الله أن يحيي لنا صاحب هذا القبر حتى نسمع منه حديث الموت ، فصلى عيسى عليه السلام عند قبره ركعتين ودعا الله تعالى أن يحيي سام بن نوح فأحياه الله تعالى فقام سام ينفض التراب عن رأسه وقد شاب رأسه ولحيته ، فقال له عيسى عليه السلام : ما هذا الشيب الذي لم يكن في زمانك ؟ قال : يا نبي الله سمعت النداء فظننت أن القيامة قد قامت فشاب رأسي ولحيتي من الهيبة . فقال له عيسى عليه السلام : منذ كم أنت ميت ؟ قال : منذ أربعة آلاف سنة وإلى الآن ما ذهبت عني سكرة الموت ولا مرارتها .

[**إخواني**] ما هذه الغفلة وإلى البلى المصير ؟ وما هذا التواني والعمر قصير ، وإلى متى هذا التمادي في البطالة والتقصير ، وما هذا الكسل وقد أنذرك النذير ، خلفك والله عن باب الحبيب سوء التدبير ، فإلى متى تتبهرج والناقد بصير :

هـــي المنيـــات والقبـــور ثم إلى ربنـــا المصـــــير
والنـــاس في غفلـــة نيـــام أضـغاث أحلامهــم غــرور
والعمر يمضي ولست تـدري مثـــل ســـفين بنـــا تســـير

يـــا نفـــس مـــا ســـرّ فهـــو حـــزن لا تحســـــبي أنــــــه ســــــرور
تـــــذكري المـــــوت واســــتعدي لـــــه فقـــــد جـــــاءك النـــــذير

[**إخواني**] تذكروا القيامة فالأمر شديد ، وبادروا بقية أعماركم فالندم بعد الموت لا يفيد ،

وأحضروا قلوبكم لفهم الوعد والوعيد ، وحاسبوا نفوسكم قبل أن تحاسبوا فعليكم رقيب عتيد ، وتأهبوا للموت فكأنهم به وقد أخذ الأحرار والعبيد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] أين أحبابكم الذي سلفوا ، أين أترابكم الذي رحلوا وانصرفوا ، أين أرباب الأموال وما خلفوا ؟ ندموا على التفريط فيا ليتهم عرفوا هول مقام يشيب في الوليد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ، واعجباً كيف دعيت إلى الله فتوانيت ، وكلما دعتك المواعظ إلى الله أبيت وتماديت ، وكم نهاك مولاك عن غيك فما انتهيت ، يا من جسده حيّ وقلبه ميت ، ستعاين عند الحسرات والسكرات ما لا تريد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا هذا كم أزعج الموت نفوساً من ديارهم ، وكم أباد البلى من أجساد منعمة لم يدارها ، وكم نقل إلى الحفائر أرواحاً بذنوبها وأوزارها ، وكم أذل في التراب خدوداً بعد نضارتها واحمرارها . فابك يا هذا على نفسك قبل أن تبكي فلا يفيد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فانتبه يا هذا فالدنيا أضغاث أحلام ، واعلم أنها دار فناء لا تصلح للمقام ، ستفهم قولي بعد قليل من الأيام وما غاب عنك ستراه على التمام ، إذا انكشف الغطاء وتحقق الوعيد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ويحك أما علمت أنك ترحل كل يوم مرحلة . أما علمت أنه يحصى عليك من أعمالك الخردلة ، وكم من مؤمل خانه في الحساب ما أمله ولم يبلغ من المقاصد ما يريد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا مضيعاً عمره في الخسران ، يا مطفئاً بهواه نور الإيمان . متى تفيق من خمار الهوى أيها السكران ، أما آن لك الرجوع إلى الله أما آن ، كأنك قد أخذت بالأمان منه التقليد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا معرضاً عن المولى إلى متى هذا الإعراض ، ذهب شبابك وولى في طلب الأغراض ، أما علمت ويحك أن عمرك في انقراض وقواك كل ساعة انتفاض ، فتزوّد لسفرك فالسفر والله بعيد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا من يحضر مجالس الوعظ بجسده وقلبه في الأسباب ، يا من مضى أكثر عمره وما تاب ، يا من كسته المعاصي ظلمة الحجاب ، يا من أغلق الهوى في وجهه من التقوى كل باب ، نح على نفسك وعدّد فربما ينفعك النوح والتعديد ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أما علمت أنا الموت لك بالمرصاد ، أما صاد غيرك ولك سيصطاد ، أما بلغك ما فعل بسائر القصاد ، أما حذرك غفلتك عنه في كل مواطن وواد ، أما سمعت قول الملك المجيد : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ

مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فيا مقبلاً على كل ما يضرّه ومعرضاً عما يفيد ، ويا مضيعاً عمره ، وهو يحصى عليه برقيب وعتيد ، أين المتحصنون بكل حصن منيع وقصر مشيد ، أين المتكبرون من كل جبار عنيد ؟ أما أخرجهم الموت من قصورهم ، وقطع حبل أملهم المديد ، أما أصبح منهم ذو الشدّة والبأس في ظلمة الأرماس وحيد ، أما سمعوا قول الملك المجيد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

[كان وكان]

اغـنم وجـودك	وازرع عسى تحصد	فـالموت يـأتي بغتة	ولـيس عنـه محيد
من لك إذا ما ملك	مـن كـان يهـوى	وحـزت لحـدك	مفلـس غريـب
إن كنـت يـا صـاح	يـوم القيامـة تتنبه	إذا رأيـت الخلائـق	في موقـف التهديـد
يقـال اقـرأ كتابـك	كفـى بنفسـك	ولقد أتيـت الموقـف	بسـائق وشـهيد
فدع دموعك تجري	قبـل أن يقـال لمـن	ألم تكن قبـل تـدري	أن الحساب شـديد
تـرى الخلائـق	مـن هـول مـا قـد	وليس يعلم من هـو	منهم شقي وسـعيد
فمـن أطـاع المـولى	فذاك منه قد قـرب	ومن عصاه وخـالف	فـذاك منـه بعيـد
كـل القلـوب قـد	لكن قلبك قد قسـا	كأن قلبك أضحى	بين القلوب حديـد
ويحـك فنبـه قلبـك	واسمـع كلامـي	عسى قسـاوة قلبـك	تلـين بالتشـديد
وإن تخف في القيامة	مـن شـؤم ذنبـك	فلـذ بجـاه الهـادي	وصـاحب التأييـد
فهـو الـنبيّ المشـفع	فـيمن عصـى مـن	في يوم يسجد وتظهر	بـدائع التحميـد
يقال ارفـع رأسـك	واشـفع تشـفع ثم	يسـمع وسـل تعـط	مـا تشـتهي وتريـد
صلى عليـه وسـلم	رب السـموات	مـا سـارت النـوق	قطـع الفـلا والبيـد

اللهم كن لنا إذا أودعنا الألحاد ، وجفانا الأهل والعوّاد ، وتخلت عنا أهل الصفا والوداد ، ولم يبق إلا عفوك يا كريم يا جواد ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الخمسون

في ذكر الصالحات التائبات الصابرات من النساء

الحمد لله الذي تعزز في ربوبيته أزلاً وأبداً ، وتقدّس في سرمديته فلم يزل فرداً صمداً ، الذي لا تدرك سرمديته أبداً ، ولا تحصى الأفكار لفرديته عدداً ، جلّ عن الأضداد والأنداد ،

والصاحبة والأولاد ﴿ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ : [الجن : ٣] فمن شبهه أو مثله فقد استحق عذاباً رصداً . ومن ألحد في وصفه فلن تجد له من دونه ملتحداً . ومن نظر إلى ساحل بحر التوحيد بعين التشبيه والتحديد مات حسرة وكمداً . ومن نظر بعين التنزيه والتحميد اطلع على غوامض الحقائق وحاز حكماً وزبداً ، فالعارفون طاشوا في بيداء معرفته فعاشوا عيش السعداء . والخائفون ذابوا بنار قهر سطوته فماتوا موت الشهداء . والمحبون قد أدير عليهم راح الارتياح في زجاجات المناجاة فعاشوا عيشاً رغداً . فلو رأيتهم وعليهم آثار القبول وقد كساهم التحول أثواباً جدداً . وسقاهم الذهول كأساً لا يستعذبون بعده مورداً . فعيونهم دامعة . وقلوبهم خاشعة . وأكبادهم تذوب كمداً . أولئك قوم أراد بهم ربهم رشداً . نظروا إلى الدنيا بعين اليقين فعلموا أن الإنسان لن يترك سدى . ففتحوا سمع اليقظة فسمعوا حادي الرحيل قد حدا . فخرجوا من ناديهم وعرجوا على حاديهم فإذا الدليل يناديهم : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ : [الليل : ١٢] . فأوّل قدم في سلوكهم أن خلع على صعلوكهم خلعة شرفوا بها على ملوكهم فخراً وسؤدداً حصلوا الزاد للسفر وحثوا رواحل السهر فلما هبت عليهم نسمات السحر أدركوا أرباً ومقصداً :

قد لاح نور الهدى من حبهم وبدا ... وقد تغنى حمام المنحنى وشدا
وقد تعطر عرف البان حين سرى ... من الحمى ورأى المشتاق ما قصدا
فيا رعى الله صبا هام من حرق ... ومغرماً بات يقضي ليله سهدا
يدعو إلى الله والأبصار هاجعة ... عساه يمنح من إرشاده رشدا
من قد أطاع النبي الهاشمي ومن ... رأى سنا هديه الوضاح حين بدا
هو البشير النذير المستضاء به ... من جود إحسانه عمّ الوجود ندى
صلى عليه إله العرش ما طلعت ... شمس وما سار سارٍ في الفلا وحدا

قوله عزّ وجلّ : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما : فالصالحات قانتات : أي مطيعات حافظات للغيب : أي للفروج في غيبة الأزواج . وقيل : حافظات لسرهم بما حفظ الله . والمرأة إذا حفظت فرجها وصانت نفسها لزوجها ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه فقد وجبت لها الجنة والكرامة على الله عزّ وجلّ لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ : [المعارج : ٢٩] إلى قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ : [المعارج : ٣٥] .

[وروي] عن بعض الصالحين أنه رأى جارية في البادية وهي تمشي وتعرج ، وليس عندها ولا معها أحد ، فقال لها : من أين أقبلت ؟ فقالت : من عند الحبيب ، فقال : وإلى أين ؟ قالت : إلى الحبيب ، قال : فما تستوحشين وحدك في هذه البادية والفلاة ؟ فرفعت صوتها ونادت بأعلاه : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ : [الحديد : ٤] ثم قالت : يا بطال من استأنس بالله استوحش ممن سواه ، ومن طلب رضاه صبر على قضاه :

يا مؤنس الأبرار في خلوتها يا خير من حطت به النزال
من ذاق حبك لم يزل متلهجا أنت الحبيب وما سواك محال
أنشأتني ورحمتني وسترتني أحسن فأنت المحسن المفضال

ما لي سواك وأنت غاية مقصدي والكل أنت وما عداك ضلال
آنست قلبي يا حبيبي والمنى يا من له الإنعام والإفضال

[وعن عثمان الجرجاني] قال : خرجت يوماً من الكوفة أريد البصرة فرأيت في الطريق امرأة عليها جبة صوف وخمار من شعر وهي تمشي وتقول : إلـهي وسيدي ما أبعد الطريق على من لم تكن له دليلاً ، وما أوحش الطريق على من لم تكن له أنيساً ، قال : فدنوت منها وسلمت عليها فردّت عليّ السلام وقالت : من أنت يرحمك الله ؟ فقلت : عثمان الجرجاني ، فقالت : حياك الله يا عثمان أين تريد ؟ قلت : البصرة ، قالت : وما تصنع فيها ؟ قلت : حاجة لي فقالت : يا عثمان هلا أعلمت صاحب الحاجة يوجه بها إليك ولا يتعبك ؟ قلت : ليس بيني وبينه تلك المعرفة ، قالت : يا عثمان وما الذي قطعك عن معرفته ؟ قلت : كثرة الذنوب ، قالت : بئس والله ما صنعت أما والله لو وصلت حبالك بحبله لتمسكت منه بأقوى سبب وقضى حوائجك من غير تعب ، فلما سمعت منها ذلك بكيت وقلت : أريد منك الدعاء ؟ فقالت : أعانك الله على طاعته وجنبك عن معصيته ، فلما عزمت على الانصراف أخرجت من جيبي دراهم كانت معي فقسمتها بيني وبينها . وقلت : استعيني بهذه على حالك ، فقالت : من أين لك هذه الدراهم ؟ قلت : أنا رجل أصعد إلى الجبل فأحتطب منه حطباً وأحمله على عنقي وأبيعه في أسواق المسلمين وأرتمق بثمنه ! قالت : نعم الكسب الحلال أحلّ ما أكل المرء من مكسب يده لكن يا عثمان لو صححت معاملة ذي الجلال ، واتكلت عليه حق الاتكال لكفاك مؤنة حمل الحطب من رؤوس الجبال ، قلت : فإذا لم يكن لي سبب فمن أين المطعم والمشرب ؟ قالت : يا عثمان أتريد أن أريك كيف صححت مع سيدي عقد التوكل عليه ؟ قلت :

بلى ، فمدت يديها وهمهمت بشفتيها . فإذا يدها مملوءة دنانير ، ثم قالت : خذ هذه يا عثمان ، فوالله ما طبع عليه اسم ملك ولا سطان ، واعلم أنك لو أحببت مولاك لأغناك عن سائر الخلق وكفاك :

توكل على الله الكريم فإنه ... سيأتيك بالرزق الكفاف وبالجزل
وسلم إلى مولاك أمرك إنه ... سيكفيك أسباب الكريهة والثقل
ومن يتوكل في الأمور جميعها ... على الله يحظى بالتباشير والفضل
ويلقي جميع الناس بالرحب والرضا ... ويحنو على الجيران والصحب والأهل
فذاك الذي قد أذهب الله همه ... وجازاه بالإحسان في القول والفعل
فللّه درّ القوم فازوا بقصدهم ... من الله رب العرش في العقد والحلّ
إذا كان حقاً راضياً بعذابهم ... فذلك أحلى عندهم من جني النحل
فسبحانه من عالم بصلاحهم ... ومن خالق فرد ومن حاكم عدل

فللّه درّهم من قوّام ، قاموا يناجون الحبيب والناس نيام ، بإدبار النهار وإقبال الظلام ، ويجتهدون في خدمة الملك العلام ، فلا جرم جاء مدحهم في الكتاب العزيز البديع الأحكام . فقال تعالى في محكم الآيات : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ : [الأحزاب : ٣٥] قيل كان في البصرة جارية يقال لها أسماء العابدة ، وكانت ذات حسن بديع وقدر رفيع حسنة العنين حلوة اللسان ، وكان مولاها ذا نعمة ويسار ، وسطوة واقتدار ، فمرت الجارية يوماً بمجلس صالح المرّي وهو يعظ وهو يعظ الناس فوقفت إلى جانب النساء تسمع وعظه وكان لموافقة الأقدار ، يتكلم في أهوال القيامة وصفة النار ، وما أعدّ الله فيها لأهلها من الأهوال والأنكال ، والسلاسل والأغلال ، فنظرت الجارية إلى الرجال والنساء وهم يتصارخون ويبكون فرقّ قلبها وطاش عقلها ولبها فأجرت الدموع وتزايد بها القلق والولوع ، فالتفت صالح المرّي إليها فرأى دموعها جارية فسأل عنها ، فقالوا : هذه أسماء الجارية فالتفت إليها بوجهه وقصدها برشق سهام وعظه ، وناداها : أيتها الصارخة برخيم صوتها أرى عليك خوفاً من الآزفة كأنك بعظيم جرمك عارفة ، وأنت من ذلك خائفة ، فقد أتعبت الحفاظ والكتبة سنين وسهرت في المعاصي حيناً بعد حين ، فكم من فتى برخيم صوتك فضحتيه ، وبحسنك وجمالك قد فتنتيه وبعملك القبيح أسهرتيه ، وعن طاعة ربه وصلاته شغلتيه ، فحفاظك بسوء فعلك يشهدون ، ومن قبيح آثامك يضجون ، فبادري بالتوبة قبل حلول الندم ،

والخوف قبل زلة القدم ، وابكي على نفسك ومصابك ، لقد كانت السبحة والمحراب أولى بك ، فقالت : يا صالح إني كنت فيما مضى جاهلة غافلة ، وعن صلاح حالي ذاهلة ، ولم أعلم أن الأمر يكون هكذا ، بل كان سيدي يحب مني الغناء واختلاف الألحان على طول المدى ، وإني تائبة إلى الله عز وجل لم أنطق منه بشيء أبداً ، فقال صالح : يا أسماء اعلمي أنه من رفع صوته بالغناء ، وأصر على معصية المولى كان مأواه ناراً سوداء ، تذيب الأجسام والقوى وتورثه الذل والعناء فنادت : يا صالح قد برح وذهب الباطل واختفى ، وجاء الحق وقرب الوفاء ثم ذهبت إلى منزلها فلقيت غلاماً كان لمولاها ، فقالت له : ياغلام أنت تعلم أني كنت عليك مشفقة فاكتم عليّ أمري وخذ ثيابي هذه وأعطني جبتك ولا تكشف لأحد سري فخلعت ما كان عليها ولبست جبة الغلام وقطعت شعرها ودخلت منزلاً خفياً من منازل مولاها فصارت تقوم الليل وتصوم النهار وتتضرع في الأسحار بالبكاء والاستغفار . هذا ومولاها يطوف عليها الأماكن وهو حزين على فراقها فلما خالطها الاصفرار والذبول واكتست أثواب النحول أقبلت إلى مولاها وقد أنحلها الصيام والقيام وأطفأ حسنها الوجد والغرام فسلمت عليه فرد عليها السلام وقال لها : من أنت ؟ فقالت : أنا سرور قلبك وراحة سرك ولبك ، أنا جاريتك أسماء ، فقال لها: وما الذي بلغ بك إلى هذه الحال ؟ قالت شؤم المعصية والخوف من جهنم وما فيها من الأهوال . فقال : والله لئن لم ترجعي عن هذا الأمر وتلبسي ثيابك وتتركي التشويه بنفسك لأوثقنك كتافاً ولأذيقنك أنواع العذاب . فقالت : يا سيدي إن ضربك يفنى وعذاب مولاي لا ينقطع ولا يفنى أبداً فاصنع ما شئت ، فلما سمع ذلك من مقالها ، أمر الغلمان فشدوا وثاقها وضربها بالسوط ضرباً شديداً فرفعت رأسها إلى السماء ونادت : يا عظيم العظماء ، يا من له الأسماء الحسنى ، ويا مولى كل مولى أغثني وأجرني يا مجير الهلكى ، ومغيث المكروبين في السر والنجوى ، فلما رفع السوط ليضربها خدرت يده وأحس بمن جذبه من وراءه فالتفت فلم ير أحداً ، وإذا بمناد يناديه : يا عدو الله خل عن ولية الله فخر مغشياً عليه ، والدم يسيل على يديه ، فقامت أسماء تمسح الدم عن يديه ، وتقول له : يا مسكين عليك بطاعة مولاك وتب من ذنوبك وخطاياك ، فلما أفاق قال لها : يا منية النفس ما ظننت أنك وصلت إلى هذه المنزلة فوالله لا خالفت لك طريقاً ولا برحت لك ما عشت رفيقاً ، ثم اتفقا على العبادة والطاعة ورضيا من دنياهما بالقناعة :

للّه درّ السادة العباد في كل كهف قد ثووا ووادي

ألـوانهم تنبيـك عـن أحـوالهم ودمـوعهم عـن حرقـة الأكبـاد
كتموا الضنى حفظاً لهم وتحملوا سـقم الهـوى ومشـقة الأجسـاد
هجـروا المراقـد في الظـلام لـربهم واسـتبدلوا سـهراً بطيـب رقـاد
ورأوا علامـات الرحيـل فبـادروا تحصـيل مـا التمسـوا مـن الأزواد
فإذا استمال قلوبهم داعـي الهـوى ذكـروا البلـى في ظلمـة الألحـاد
نظـروا إلى الـدنيا تغـر بأهلـها بوصـالها وتكـر بالإبعـاد
فتجنبوهـا عفـة وتزهـداً واسـتهونوا بالأهـل والأولاد
ومضوا على منهاج صحب نبيهم فنجوا غـداً مـن هـول يـوم معـاد

[إخواني] إذا كان النساء عملن لهن همة كالرجال ، وقصدن باب ذي الجلال ، وظهر منهن صالح الأعمال حتى حسنت منهنّ الأحوال ، وبلغن المقاصد والآمال ، فكيـف حالـك أيهـا البطال ، المصرّ على قبائح الأفعال ، المسوّف بالتوبة بكثرة الإهمال . قال السريّ السـقطي : أرقت ليلة فلم أستطع الغمض فيها فقلت في نفسي : أخـرج إلى المقـابر لعـلّ برؤيـة القبـور والتفكر في البعث والنشور ، يزول همي وغمي . فخرجت إليها فمـا وجـدت قلـبي منشـرحاً إليها . فقلت : أدخل الأسواق لعلّ باختلاط الناس يزول عـني البـاس ، ففعلـت ذلـك فمـا انشرح قلبي هنالك ! فقلت : أدخل إلى البيمارستان وأنظر إلى المجانين وإلى أفعالهم لعي أعتبر بأحوالهم فدخلت إليه فوجدت قلبي مقبلاً عليه فقلـت : إلـهي وسـيدي إلى ههنـا سـيرتني ولأجل منامي أيقظتني فنوديت في سري : ما أتينا بك إلى هذا المكان إلا ولنا فيـه نبـأ وشـان . قال السري : فتقدمت إلى مكان المجانين فرأيت فيه جارية مصفرة اللون ويدها إلى عنقها مغلولـة ، وهي بذكر الله مشغولة ، فسمعتها تنشد وتقول :

أعيذك أن تغل يدي بغير جناية سـبقت تغل يدي إلى عنقي وما خانت ولا سرقت
وبين جوانحي كبـد أحسّ بها قد احترقت وحقك يامنى قلبي يميناً بـرة صـدقت
لـئن قطعتـها قطعـاً غرامـاً فيـك مـا نطقـت

قال السريّ : فقلت للقيم على المجانين : ما هذه الجارية ؟ فقـال : جاريـة اختـلّ عقلـها فحبسها مولاها فلما سمعت الجارية كلامه تنهدت وأنشأت تقول :

معشر الناس ما جننت ولكن أنا سكرانة وقلـبي صـاحي قد غللتم يـدي ولم آت ذنبـا
غير هتكي في حبه وافتضاحي أنـا مفتونـة بحـب حبيـب لست أبغي عن بابه من براح

فصلاحي الذي رأيتم فسادي وفسادي الذي رأيتم صلاحي

قال السري : فلما سمعت كلامها أبكاني وأقلقني وأشجاني ، فلما رأت دموعي تنحدر على وجهي قالت : يا سريّ هذا بكاؤك على صفته فكيف لو عرفته حق معرفته ؟ فقلت : يا لله العجب من أين تعرفني هذه الجارية ؟ ولم يكن بيني وبينها معرفة سابقة ، فقالت : يا سريّ ما جهلت منذ عرفت ولا فترت منذ خدمت ، ولا قطعت منذ وصلت ، ولا حجبت منذ وقفت ، وأهل الدرجات يعرف بعضهم بعضاً ثم أنشأت تقول :

تحقق حق الحق في نور باطني فأصبح قلبي للحبيب مصافيا
قدمت على وصف وصفت لسيدي وهل ينعت العبد الضعيف المواليا

فقلت : يا جارية أراك للمحبة تذكرين ، وللوجد تظهرين ، فلمن تحبين ؟ فقالت : لمن تعرّف إلينا بآلائه ، وتحبب إلينا بنعمائه ، وجاد علينا بجزيل عطائه ، فهو قريب إلى القلوب ، مفرج لكروب حليم على من عصاه ، قال : فقلت لها : من حبسك في هذا المكان ، فقالت : حاسدون ومبغضون تعاونوا عليّ ورموني بالجنون ، وهم أحق بهذا الاسم مني ثم أنشدت تقول :

يا من رأى وحشتي فآنسني بالقرب من وصله فأنعشني
يا ساكني لا خلوت من سكني دهري ويا عدتي على الزمن
أوحشني ما فقدت منه فقد عاد بإحسانه يقربني
وعاد أيضاً وجاد منعطفاً كذاك منذ كنت حين عودني
حسبي من الكون من شغفت به أصحبه مؤنساً ويصحبني
وكنت في غفلة فنبهني وكنت في رقدة فأيقظني

فقلت لها : ما الاسم ؟ فقالت : دع الاسم عنك يكفيك فيما سمعت يغنيك ، فبينما نحن كذلك إذا أقبل سيدها ، فقال للموكل بها : أين تحفة ؟ فقال : قد دخل عندها الشيخ السريّ فكلمها بكلام أصغت إليه ، فدخل سيدها فرأى السري عندها فعظمه وقبل يده ، وقال : يا سيدي لقد رحمت ببركتك ، فقال له السري : أي شيء أنكرته منها ؟ فقال : يا سيدي هذه جارية تضرب بالعود فأعجبتني فاشتريتها بجميع مالي ، وهو عشرون ألف درهم لفرط حسنها وحسن ضربها بالعود وأملت أني أربح فيها مثل ثمنها فدخلت عليها في بعض الأيام والعود في حجرها وفي تغني وتنشد وتقول :

وحقك لا نقضت الدهر عهداً ولا كدرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحي والقلب وجداً فكيف أقر أو أسلو أو أهدا
فيا من ليس لي مولى سواه تراك رضيتني في الناس عبدا

فلما فرغت من غنائها بكت طويلاً وضربت العود في الأرض فكسرته وجعلت تهيم وتصيح وهي ذاهلة العقل فاتهمتها بمحبة المخلوق ثم كشفت عن حالها فلم أجد لذلك أثراً ، فقال لها السري : يا جارية أهكذا جرى ؟ فأنشأت تقول :

خاطبني الحق من جناني فكان وعظي على لساني قربني منه بعد بعد
وخصني منه واصطفاني أجبت لما دعيت طوعا ملبياً للذي دعاني

وخفت مما جنيت قدماً فوقع الحب بالأماني

قال السري لسيدها : أطلقها وعليّ ثمنها أنا أزنه لك فصاح سيدها وقال : وافقراه من أين لك ثمن هذه الجارية فقلت : لا تعجل تكون في هذا المكان حتى أزن لك ثمنها . قال السري : فمضيت إلى منزلي وعيناي تذرفان بالدموع وقلبي بسببها موجوع وبتّ ليلتي أتضرع إلى الله عز وجل وأتوجه إليه وأتوكل في قضاء حاجتي عليه ، فلما كان وقت السحر إذا بقارع يقرع الباب فقلت : من بالباب ؟ فقال : حبيب من الأحباب ، جاء في سبب من الأسباب ، ومن عند الملك الوهاب ، ففتحت له الباب فإذا هو شاب حسن الثياب نقيّ الأثواب ، ومعه خادم وشمعة وخمس بدر على رأس جمال . فقلت : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا أحمد بن المثنى قد أعطاني الجبار وما بخل عليّ بالعطاء ورزقني من الأموال ما يعجز عن حمله الرجال فبينما أنا نائم إذ هتف بي هاتف من قبل الحق تعالى فقال لي : يا أحمد هل لك في معاملتنا ؟ فقلت وقد زال النوم عني : ومن أولى بذلك مني ؟ فقال : احمل إلى الشيخ السري خمس بدر يعطيها لمولى تحفة يفك أسرها من الرق ، وتحظى منا بالعتق ، فلنا بها عناية ، ولطف ورعاية ، فحملت إليك المال وأطلعتك على الحال ، قال السري : فسجدت شكراً لله عزّ وجل ، فلما صلينا الصبح وأضاء النهار أخذت بيد أحمد ومضينا إلى البيمارستان ، وإذا الموكل بها يلتفت يميناً وشمالاً فلما رآني ، قال : مرحباً بك ادخل إليها فإنها عليك لهفانة ولها عند الله حرمة ومكانة ، فإنه البارحة أتاني هاتف وقال لي :

إنها مني ببال ليس تخلو من نوالي قربت ثم تسامت وعلت في كل حال

فانتبهت وحفظت ما قاله الهاتف ، وكررته حتى رأيتكم . قال : فدخلنا عليها فسمعناها تنشد وتقول :

قد تصبرت إلى أن عيل في حبك صبري قد كتمت الوجد لكن
ليس يخفى عنك أمري ضاق من قيدي وغلي وامتهان فيك صبري
إن تكن عني راض لا أبالي طول دهري أنت لي خير أنيس
يا منى سؤلي وذخري من ترى يعتق رقي ويفك اليوم أسري

غيرك اللهم ربي أنت لي كاشف ضري

قال السريّ : فبينما هي تنشد إذ أقبل مولاها ، وهو يبكي وينتحب فقلت له : لا بأس عليك قد أتيناك بمالك الذي وزنته في الجارية وتربح خمسة آلاف درهم . فقال : لا والله ، فقلت : تربح عشرة ، فقال : لا والله ، فقلت : تربح المثل ، فقال : لا والله ولو أعطيتني الدنيا بما فيها لما قبلت منها شيئاً هي حرة لوجه الله تعالى ، فقلت له : أخبرني ما الخبر ؟ فقال : يا أستاذ أتاني آت البارحة في المنام فوبخني في الملام ، وأغلظ عليّ في الكلام ، وقال : تهين ولية الله يا عدوّ الله فانتبهت مرعوباً مذعوراً قد هانت عليّ الدنيا وخرجت عن جميع ما أملكه وأنا هارب إلى ربي . ثم بكى وخرج على وجهه هائماً . قال السريّ : فالتفتّ إلى ابن المثنى فرأيته يبكي وينتحب ودموعه تجري على وجنتيه ، وقد ظهرت آثار القبول عليه ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : ما رضيني مولاي لما ندبني إليه ولا وجدت لمالي قبولاً بين يديه ، أشهدك أني قد خرجت عنه وهو صدقة لوجه الله البديع ولجلاله الرفيع ، فقلت : ما كان أعظم بركات تحفة على الجميع ، ثم قامت تحفة فنزعت ما عليها ولبست جبة صوف وخماراً من شعر وخرجت هائمة على وجهها فخرجنا معها وهي تنشد وتقول :

هربت منه إليه بكيت منه عليه وحقه وهو مولى لا زلت بين يديه

حتى أنال وأحظى ما أرتجيه لديه

فما زلنا نتبعها حتى خرجت إلى ظاهر المدينة وهي تنشد وتقول :

يا سرور السرور أنت سروري يا حياة النفوس أنت حبوري
أنت ناري وجنتي ونعيمي وأنيسي وأنت نور النور
كم ترى يصبر المحبّ على البعـ ـد وكم يلبث الهوى في الصدور

قال السريّ : ثم مضت حتى غابت عنا ، ثم أتى مولاها وصحبني ، وكذلك ابن المثنى برهة من الزمان إلى أن توفي سيدها وقضى نحبه وبقيت أنا وابن المثنى فعزمنا على الحج إلى بيت الله الحرام فبينما نحن نطوف بالكعبة ، وإذا بصوت مقروح من كبد مجروح ، وهو ينشد ويقول :

قد تهتكت بحبك كيف لي منك بقربك فترفق بفؤاد يشتكي شدة بعدك
خبت يا نفس إذا آ خذك الله بذنبك فسلي العفو جهرا والرضا من عند ربك

قال السريّ : فاتبعت الصوت فإذا امرأة كالخيال ذاهلة العقل والبال . فلما رأتني قالت : السلام عليك يا سريّ ، فقلت : وعليك السلام من أنت ؟ فقالت : لا إلّه إلا الله وقع التناكر بعد المعرفة أنت إلى الآن محجوب وقلبك غير مسلوب . ثم قالت : أنا تحفة . فقلت لها : ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق ؟ فقالت :

أفادني كل المنى وخصّ قلبي بالغنى وقد أزال سيدي عن باطني ثقل العنا
إن لم يداركني بما أرجو وإلا من أنا

فلما فرغت من إنشادها بكت وانتحبت وهاجت واضطربت . ثم رفعت رأسها وقالت : سيدي ومولاي فاز أهل التقى ونجا من أتقى ، وخاب من كان حظه الطرد والشقا ، فأسألك يا سيدي إلا ما قربت الوصل واللقا ، فقد تولهت عليك فخذني إليك فلا حاجة لي في البقا . ثم صرخت ووقعت على الأرض فحركناها فإذا هي ميتة فنظر إليها أحمد بن المثنى فطار قلبه وحار لبه . ثم بكى وانتحب واهتز واضطرب وصعد الزفرات ، وأظهر الحسرات ، ثم صرخ ووقع على الأرض فحركته فإذا به قد مات . قال السري : فجهزتهما وصليت عليهما ودفنتهما ورجعت ، وقد عجبت من حالهما وقرب آجالهما ، رحمة الله عليهما :

للّه رجال قد صبروا وبسعدهم سبق القدر قاموا للّه بأمر الله
ولولا الله لما قدروا كسروا بالذلّ نفوسهم جبروا والله وما كسروا
بحديثهم وبذكرهم المسك يفوح وينتشر وبقاع الأرض لفقدهمو
تبكي فيرقّ لها الحجر ناحوا أسفاً صاحوا لهفا باحوا وبحبهم اشتهروا
رفعوا قصصاً وشكوا غصصا ورسول القوم بها السحرا لو تسمع فرط أنينهم
في نيلهم لما اعتذروا صدقوا والله بما وعدوا ووفوا والله بما نذروا

جادوا بالروح فما أبقوا وكذا بالمال فلم يذروا
نظروا ذهلوا ويحق لهم من مثلهمو وبه ظفروا

فللّه درّهم من أقوام امتثلوا ما به أمروا ، ونظروا إلى الوجود بعين الاعتبار وتفكروا ، وتذكروا ما فعلوا من الزلل فتدبروا ، واعتبروا فأبصروا ، فهم الذين بمحبوبهم اتصلوا ، وعلى مطلوبهم حصلوا :

على أبوابكم عبد ذليل قليل الصبر ناصره قليل له أسف على ما كان منه
وحزن من صدودكمو طويل يمدّ إليكمو كف افتقار ودمع العين من أسف يسيل
يرى الأحباب قد وردوا جميعا وليس له إلى ورد سبيل وكيف يضام جاركمو وأنتم
كرام لا يضام لكم نزيل فإن يرضيكمو طردي وبعدي فصبري في محبتكم جميل
وحق ولائكم وشديد شوقي سلوّي عن هواكم مستحيل قطعت بحبكم أيام عمري
فلا أسلو وقد بقي القليل يحدثني الصبا عنكم حديثا يصح بنشره الجسم العليل
فأسكر من شذاها حين هبت وأنظر حيثما مالت أميل وتروى عن شفيع الخلق طرّا
حديثاً فيه للمضنى دليل هو المختار من كل البرايا هو الهادي البشير هو الرسول

عليه من المهيمن كل وقت صلاة دائماً فيها القبول

وصلاة الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة وسلم .

المجلس الحادي والخمسون

في ذكر مولد النبي ﷺ بأوسع مما تقدم

الحمد لله المعروف بالقدم قبل وجود الوجود ، الموصوف بالكرم والفضل والجود ، المنزه في وحدانيته عن الأبناء والآباء والجدود ، المقدس في ذاته عن الصاحبة والمصحوب والولد والمولود العليم بأعداد الرمل والقطر وحبات السنبل والعنقود ، البصير بحركات الذر في البحر والبر تحت ظلام حنادس الليالي السود . الحكيم الذي فجر الأنهار من صم الجلمود ، وأخرج رطب الثمار من يابس العود ، لا تمثله الأفكار ولا تحويه الأقطار ، ولا ينهيه المقدار ، ولا تفنيه الأعصار ، ولا تدركه الأبصار ، وهو الواحد المعبود ، المعطي الذي لا مانع لما أعطى ، ولا دافع لما قضى ، الكريم الذي جاد لعبده ، بجزيل رفده وثوابه ، وكم رآه عن بابه معرضاً ، الحليم الذي يستر العاصي برحمته ، وقد رآه لمعصيته متعرضاً ، الغفار الذي يغفر الذنوب ، ويستر العيون ويعفو عما مضى ، القهار الذي قهر الجبابرة ، وكسر الأكاسرة ، وضرب بسهم

بعاده من سل سيف عناده وانتضى ، حير الأفكار في مدارك سبحات جماله العظيم ، وأذهل العقول عن الوصول إلى أصول كنه جلاله القديم ، وأخرس الألسن عن عبارات إشارات سر أفعاله بعد الفصاحة والتكليم ، وأدهش الخواطر عن الإحاطة به فلا يرام بالتوهيم ، فهو القديم الماجد ، الكريم الواحد ، المنزه عن الولد والوالد ، المقدس عن المشارك والمساعد ، المتعالي عن المشابه والمماثل ، والمضادد والمعاند ، المشكور على جميع النعم المحمود بجميع المحامد ، الذي أسبل ستره الجميل على عبده الذليل ، العاصي وهو ناظر إليه ومشاهد ، فهو المعروف بالربوبية ، الموصوف بالإلّهية ، المنفرد بحقيقة الوحدانية ، تنزه عن الأوهام الخيالية ، وتعزز في بقائه عن الفناء والمثلية عالم بكل خفية وجلية ، حارت العقول في عظمته فما عرفت له أينية ، وكلت الأفكار عن إحصار صمديته فلا يعرف بالعلوم العقلية ، تعالى عن المماثل والمناسب وجل عن المشارك والمصاحب يقبل التائب ويحب الآيب ، وليس على بابه بواب ولا حاجب ، من أمل سواه ، فهو الشقي الخائب ، ومن أناخ بباب كرمه ظهر بنيل المآرب ، ومن ذاق حلاوة أنسه رأى العجائب والغرائب ، ومن أعرض عمن سواه رفعه ورقاه إلى أرفع المراتب يزيل الضرر ، ويتجلى في وقت السحر ، وينادي : هل من مستغفر ، هل من تائب ، ويستعرض حوائج السائلين ، ويجود على التائبين بخلع الجود والمواهب :

إلّه جلّ عن شبه ومثل ... وعن ندّ يعد وعن مصاحب ... تفرد في علاه شريك
ينازعه عليه ولا محارب ... تحجب حيث شاء فلا يدانى ... وجلّ عن المماثل والمناسب

تجلّى للقلوب فليس يخفى ... وهل يخفى الحبيب على الحبايب

فسبحانه من إلّه شهدت بوحدانيته السموات وما فيها من العجائب ، وأقرّت بربوبيته الأرضون في مشارقها والمغارب ، واصطفى محمداً ﷺ نبيه المبعوث بالدين الواصب الموصوف بأحسن الأوصاف وأجل المناقب ، الذي شرف الله به الوجود ، وكمل به السعود ، وبلغه أسنى المراتب ، أوجده في مثل هذا الشهر الشريف . وأخرجه مطهراً سالماً من جميع المعايب ، خمدت لولادته النيران ، وخرت لمبعثه الأوثان ، وارتج إيوان كسرى ورمي بالمحن والمصائب ، ومنعت الشياطين من الصعود إلى السماء ، وصمت آذانهم عن خطاب العلا : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ : [الصافات : ٨-٩] فهو النبيّ الكريم والرسول العظيم المنزل عليه في الآيات والذكر الحكيم ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ : [الصافات : ٦] نبيّ استخرجه الله من عنصر لؤي بن غالب ، وفضله على أهل

المشارق والمغارب ، سمعه يسمع صرير القلم ، بصره إلى السبع الطباق ثاقب ، لسانه ما نطق بالهوى ، ولا تحدث قط بحديث كاذب ، يداه بركاتها في المطاعم والمشارب ، قلبه لا يغفل ولا ينام ، ولكن للخدمة على الدوام مراقب ، قدمه قبلها البعير فزال عنه ما شكاه من المخاوف والمعاطب ، آمن به الضبّ وسلمت عليه الأشجار ، وخاطبته الأحجار وحنّ إليه الجذع حنين حزين نادب :

حداة العيس رفقاً بالنجائب فقلبي سار في إثر الركائب وجسمي ذاب من سقم ووجد
ومن شوق إلى لقيا الحبائب فهل لي من سبيل للتلاقي فدمعي قد غدا مثل السحائب
لئن سمح الزمان بطيب وصل وبلغت المقاصد والمآرب لألتثمن هذا الترب جهرا
وأرويه بأدمعي السواكب وأحظى بالعقيق وساكنيه ومن قد حلّ في تلك المضارب
قباب قد حوت بدراً منيراً إذا ما ماس في تلك الذوائب تخرّ له بدور الحسن طوعا
سجوداً في المشارق والمغارب فقل ما شئت عمن ليس تحصى فضائله بحصر أو بكاتب

فمن ذا يستطيع له انحصاراً أيحصى القطر أو رمل الكثائب
عليه من المهيمن كل وقت صلاة ما بدا نور الكواكب
وخص الآل والأصحاب جهراً جميعهم وعترته الأطايب

[روي] عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » وذكر أبو محمد المكي ، وأبو الليث السمرقندي رحمهما الله : أن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة قال : اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي ، وتقبل توبتي . فقال له الحق جل جلاله : من أين عرفت محمداً ؟ قال : إلـهي لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا عليه مكتوب : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً منه عندك ، فتوسلت إليه به . فلما دعا آدم تاب الله عليه وغفر له ببركة نبيه محمد ﷺ :

دمعي على وجنتي من أجلكم يسفح وناظري لسواكم قط ما يطمح
إن كنت أذنبت من لي غيركم يصفح فالصلح عند اللقا بعد الجفا أصلح

ثم إن الله تعالى أودع نور محمد ﷺ في ظهر آدم وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته ، ثم عرّفه قدر ما أودعه من السر . ثم قال له : يا آدم تطهر وسبح وقدّس واغش زوجتك على طهارة منك ومنها فإني مخرج منكما نوري ، ففعل آدم ما أمره به ربه فنقل الله نور محمد ﷺ إلى حوّاء وكان ذلك ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة من رجب فكان يرى في وجه حوّاء دارة كدارة

الشمس ، فلما وضعت شيئاً ﷺ انتقل النور إلى جبينه ، فلما كبر وأخذ حدّ الرجال أخذ عليه آدم العهد والميثاق أن لا يضع هذا السر إلا في المطهرات من النساء ، ليصل إلى المطهرين من الرجال ، فما زالت تلك الأنوار تنتقل من أصلاب الأخيار إلى المحصنات من النساء الأطهار وتدنو وتقترب إلى إن وصلت إلى عبد الله بن عبد المطلب :

مازال نور محمد متنقلاً ... في الطيبين الطاهرين ذوي العلا

حتى لعبد الله جاء مطهراً ... وبوجه آمنة بدا متهللا

ولما انتقل النور إلى آمنة ، أمنت به من المخاوف الكامنة ، ظهرت لانتقال نوره الآيات ، تباشرت بقدومه جميع المخلوقات ، نودي في جميع أقطار الأرض والسموات ، يا عرش تبرقع بالوقار ، يا كرسي تدرّع بالفخار ، يا سدرة المنتهى ابتهجي ، ويا أنوار المهابة تبلجي ، يا جنان تزخرفي ، يا حور في القصور أشرفي ، يا معشر الملائكة تمنطقي واصطفي وبالعرش حفي ، يا رضوان افتح أبواب الجنان ، يا مالك أغلق أبواب النيران ، فإن النور المخزون والسر المكنون الذي هو في خزائن قدرتي من الأزل ، في هذه الليلة إلى بطن آمنة قد انتقل ، ظهر عند ذلك صفاء يقينها ، انطوت الأحشاء على جنينها . فأول شهر من شهور حملها تزلزل قصر كسرى . الشهر الثاني امتلأت الأكوان بالبشرى . الشهر الثالث غاضت بحيرة ساوه . الشهر الرابع انقطع وادي سماوه . الشهر الخامس وقفت بحيرة طبرية . الشهر السادس مات أبوه عبد الله للأسرار الخفية . الشهر السابع خمدت النيران . الشهر الثامن انشق الإيوان ، وذل كسرى وهان . الشهر التاسع سقط عن رأس كسرى التاج ، وعظم كربه وهاج ، فسأل عن ذلك الكهان والرهبان . فقيل له قد آن مولد سيد ولد عدنان ، وهو نبيّ آخر الزمان ، المبعوث بالدليل والبرهان ، المنعوت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، الذي يظهر دينه على سائر الأديان :

شهر ربيع فاق كل الزمان ... إذ جاءنا فيه الهدى والأمان

لأن فيه مولد المصطفى ... المجتبى الهادي لطرق البيان

محمد المبعوث من هاشم ... إلى جميع الخلق إنس وجان

صلى عليه الله رب العلا ... ما سار ركب منه يطلب أمان

[وقال ابن أبي زيد] : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول عام الفيل ، فابتهجت الأكوان لقدوم هذا النبي الجليل . ففي أول ليلة منه حصل لآمنة السرور والهنا ، وفي الليلة الثانية بشرت بنيل المنى ، وفي الليلة الثالثة قيل لها : قد حملت بمن

يقوم بحمدنا وشكرنا ، وفي الليلة الرابعة سمعت تسبيح الملائكة معلناً ، وفي الليلة الخامسة رأت في منامها الخليل وقال لها : أبشري بهذا النبي الجليل صاحب النور والسنا ، وفي الليلة السادسة دام السرور والفرح وما فتر ولا ونى ، وفي الليلة السابعة سطع نور الرضا وعمّ ذلك الفنا ، وفي الليلة الثامنة طافت الملائكة ببيت آمنة لما قرب وضعها ودنا ، وفي الليلة التاسعة بدا سعدها والغنى ، وفي الليلة العاشرة زال عنها التعب والنصب والعنا ، وفي الليلة الحادية عشرة وضعت الحبيب المصطفى ، فأشرق البيت وصفاً ، وزال عنها الشك وانتفى ، وابتهجت المروة والصفا . وخرّ عند وضعها ساجداً للعليّ الأعلى ، رافعاً أصبعه إلى السماء كالمتضرع المبتهل لمولاه ، وفاح في الكون عطره وشذاه ، ضجت الملائكة بالتكبير والتهليل وأشرق الكون بنور وجهه الجليل . . قالت آمنة : ورأيت سحابة بيضاء قد نزلت من السماء فغيبته عني ، وسمعت قائلاً يقول : طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها ، ومرّوا به على أهل البحار كلها ، وعلى الوحوش في فلواتها ، والجن في خلواتها ، واعرضوه على كل روحاني ليعرفوه باسمه وصفته ، وطوفوا به على موالد الأنبياء لتعمهم آثار بركته . قالت آمنة : ثم تجلت عنه السحابة فإذا هو مدرج في ثوب صوف أبيض وتحته حرية خضراء ، تسارع إلى خدمته ثلاثة أنفس : مع أحدهم طشت من ذهب أحمر ، ومع الثاني إبريق من الجوهر ، ومع الثالث منديل من سندس أخضر ؛ فغسلوا وجه الحبيب بماء الإبريق ، وأخرجوا من المنديل خاتم التصديق ، ختموا به على ظهر النبي الشفيق ، فتمّ بذلك سعده والتوفيق ، وقائل يقول : خذوه عن أعين الناظرين ، وأعطوه صفوة آدم ، ومعرفة شيث ، ورقة نوح ، وخلة إبراهيم ، واستسلام إسماعيل ، وصبر أيوب ، وحلم يعقوب وجمال يوسف ، وصوت داود وأمر سليمان ، وحكمة ولقمان ، وقوة موسى ، وزهد يحيى ،و بشر عيسى ، وأغمروه في أخلاق النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين . فسبحان من جعل هذا النبي الكريم سلطان الأنبياء ، ونشر له ذكراً ، ورفع له قدراً ، خمدت لولادته النيران ، وأضاءت قصور بصرى وخرّت الأصنام له والأوثان وارتج إيوان كسرى ، فهو صاحب الشفاعة الكبرى ، وبه شرف الله الوجود وجعله رحمة لكل موجود دنيا وأخرى :

لشهر ربيع آية لم تزل كبرى … به أطلع الرحمن في ليله بدرا
تبدى ونور الحسن فوق جبينه … فنوّر من الأرض والسهل والوعرا
وأظهر جبريل البشارة معلناً … يقول لأهل الأرض جاءتكم البشرى

وقد وضعته أمه وهو ساجد ... وقد ملأ الأكوان من نشره عطرا
فكم ملك من حول منزل أمه ... يعظمه سراً ويشكره جهرا
وطاف به جبريل شرقاً ومغرباً ... فحير فيه العقل والذهن والفكرا
وزفوه والأملاك قد أحدقت به ... وقد ملئوا براً كما ملئوا بحرا
فيا ليت كل الدهر عندي مولد ... لخير الورى والخلق أجمعهم طرا

[وعن أنس بن مالك ﷺ] قال : « كان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأحسن الناس ، وأجود الناس ، وأحلم الناس ، وأكرم الناس ، وأزهد الناس ، وأفصح الناس ، وأكثر الناس تواضعاً ، وأصحهم إيماناً ، وأكثرهم إنصافاً ، وأوسعهم صدراً ، يشكر يسيراً ، ويرحم أسيراً ، ويوقر كبيراً ، ويبدي بشراً وسروراً ، ويصوم هجيراً ، ويقوم ديجوراً ، وناداه العليّ الأعلى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٥-٤٦] .

أهدى النسيم إلى الوجود عبيرا ... لما أتانا بالنذير بشيرا ... وافى بمولد أحمد الهادي الذي
أهدى إلينا فرحة وسرورا ... لما بدا وجه النبيّ تهللت ... كل البقاع وقد نطقن شكورا

وانشق إيوان وغاضت ساوة ... وانكف كسرى في الأنام كسيرا
وتساقط الأصنام عند ولاده ... وتصاعد الكهان منه زفيرا
خمدت له نار المجوس تذللاً ... وغدا به صوب الغمام مطيرا
كم آية في حمله ظهرت فما ... تخفى وزادت في الزمان ظهورا
ورأته آمنة يسبح ساجداً ... عند الولاد إلى السماء مشيرا

قالت رأيت عجائباً في وضعه ... ويظل فيها ذو الحساب حسيرا ... آيات أحمد لا تحدّ لواصف
ولو أنه أملى وعاش دهورا ... بشراكمو يا أمة المختار في ... يوم القيامة جنة وحريرا

فضلتمو حقاً بأشرف مرسل ... خير البرية بادياً وحضورا
صلى عليه الله ربي دائماً ... مادامت الدنيا وزاد كثيرا

[إخواني] لما ولد المصطفى راق العيش وصفا ، وزهق الباطل واختفى ، وظهر مصباح الإيمان وما انطفا ، وهب نسيم مولده في جميع الأقطار فاكتست من نوره عزاً وشرفاً ، فلما هب بأرض فارس أطفأ النيران . فأول من نشفه سلمان ، فجاء مسرعاً إلى الإيمان يقطع المراحل

والكثبان ، حتى فاز برؤية سيد الأكوان ، وأقر بالوحدانية للرحمن ، وأدرك من المختار ما تمنى ، وما خاب سعيه ولا تعنى ، وفاز من المصطفى بقوله ﷺ : « سلمان منا » :

سواك في الكون لا يسمى ولا يكنى لما تجلى لقلبي حسنك الأسنى
من هند من دعد من علوى ومن لبنى الكل عنك رووا يا كامل المعنى

ولما هب ذلك النسيم بأرض الروم ، نشقه المزكوم ، ورحم به المرحوم . فأول من نشقه بلا شك ولا ريب ، سيد أهل الروم صهيب ، فجاء منقاد الزمام إلى الإسلام ، وفاز برؤية خير الأنام ، ونال بصحبته كل القصد والمرام :

ما أومض بارق وما فاح خزام إلا وهاج لي إلى الحب غرام
يا نسمة حيهم خذي لي خبراً قالت لي قد أتيت منهم بسلام

ولما هب ذلك النسيم بأرض اليمن أول من نشقه أويس القرني في السر والعلن ، فبذل نفسه للمصطفى من غير ثمن ، وآمن به على بعد الوطن ، وأثنى عليه الرسول المؤتمن ، بقوله ﷺ : « إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » وما كفاه هذا الوصف الحسن حتى خرج له المنشور ببلوغ الوطر يقول المصطفى سيد البشر لعمر ﷺ : « يا عمر إذا رأيت أويساً فسلم عليه واطلب منه أن يستغفر لك فإنه يشفع في مثل ربيعة ومضر » .

هذه نسمة حب من سحيق المسك أعطر
ما لمزكوم هواها من شذاها قط مخبر
أنا مجنون هواه والـه فيه محير
أنا عبد لحبيب هو في العبد مخير
دائماً أرجو لقاه فعسى بالوصل أظفر
هكذا قد قال حقا سيد الكون وبشر
كل من يهوى حبيباً فمع المحبوب يحشر

ولما هبّ ذلك النسيم على بلاد الحبشة وجال ، فأول من نشقه بلال ، فجذبته عناية التوفيق بالتصديق إلى الإيمان فأعلن بالأذان وصار شاويشاً لدين الإسلام ، ونشر للمصطفى الرايات والأعلام ، فخصه النبيّ التهاني بالمدح السامي بأن قال : يا بلال أنت تنشر بالذكر أعلامي وترفع به قدري ومقامي فلأجل ذلك ما دخلت الجنة إلا وسمعت خشخشتك قدامي :

عبد دعاه لقربه مولاه جهراً فباح بسرّ ما أولاه لا غرو أن خلع العذار ممزقا
أطماره فرحاً بما آتاه إن المحب إذا دعي لوصال من يهوى ويأبى كذبت دعواه
قف وقفة العبد الذليل عساه أن يرضى ويرفع حجبه لتراه وإذا سئلت وقيل من هذا الذي
يشكو على أبوابنا بلواه فقل الفقير المستجير بعفوكم يرجو رضاكم كي ينال مناه

[**إخواني**] سبقت العناية للعبد الحبشي ، وغلبت الشقاوة على العم القرشي ، واستنشق صهيب بالروم ريح المعرفة ، فراح سائحاً في القفار هائماً بحب المختار ، وهبت نسمات القبول والإيمان على سلمان ، فهجر الأهل والأوطان ، وجاء من فارس لرؤية سيد الأكوان ، وسبق لأويس وصفه الحسن بقول الصادق المؤتمن إني « لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » وينشد مفرداً :

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى		والعيش بعد أولئك الأقوام

ولما مرّ باليمن ذاك النسيم الغامر نشقه عامر ، فاهتدى إلى الإسلام بعد عبادة الأصنام ، وفاز بتقبيل أقدام سيد الأنام ، ومات على محبته موت الكرام ، وقصته تحير العقول والأفهام . وذلك أن عامر كان يعبد صنماً من الأصنام ، وكانت له ابنة مبتلاة بالفالج والجذام ، وكان مقعدة لا تستطيع النهوض ولا القيام ، وكان عامر ينصب الصنم ويضع ابنته أمامه ويقول له : هذه ابنتي سقيمة فداوها ، وإن كان عندك لها شفاء فاشفها من بلائها وعافها ، وأقام على ذلك سنين وهو لا يطلب لها من الصنم حاجة فيقضيها ، فلما هبت عليه نسمات العناية بالتوفيق والهداية قال لزوجته : إلى متى نعبد هذا الحجر الأصم الأبكم الذي لا ينطق ولا يتكلم وما أظنه على دين أقوم ؟ فقالت له زوجته : اسلك بنا سبيلاً عسى نرى إلى الحق دليلاً ، فلا بد لهذه المغارب والمشارق من إلّه خالق ، فبينما هو على سطح داره معتكف على صنم اغتراره إذ شاهد نوراً قد طبق الآفاق وملأ الوجود بالضياء والإشراق ، ثم كشف الله عن عين بصيرته لينتبه من نوم غفلته ، فرأى الملائكة قد اصطفت وبالبيت قد حفت ، ورأى الجبال ساجدة والأرض هامدة والأشجار قد تمايلت والأفراح قد تكاملت ، وسمع منادياً ينادي : قد ولد النبي الهادي ، ثم أتى إلى الصنم فإذا هو منكوس وقد علته الذلة ووافت إليه العكوس . فقال لزوجته : ما الخبر ؟ ثم حدق إلى الصنم بالنظر فسمعه يقول : ألا إن النبأ العظيم قد ظهر ، وولد من تشرف به الكون وافتخر ، وهو النبي المنتظر الذي يخاطبه الحجر والشجر ، وينشق له القمر ، وهو سيد ربيعة ومضر . فقال لزوجته : أتسمعين ما يقول هذا الحجر ؟ فقالت له : سله ما اسم هذا المولود الذي شرف به الوجود ؟ فقال : أيها الهاتف المتكلم على لسان هذا الحجر الجلمود بالذي أنطقك كما أنطق الجلود في اليوم المشهود ما اسم هذا المولود ؟ فقال : محمد المصطفى ابن زمزم والصفا ، أرضه تهامة ، بين كتفيه علامة ، تظله من الهجير غمامة . فقال لزوجته : اخرجي في طلبه لنهتدي إلى الحق بسببه وكانت ابنته السقيمة في أسفل دار

مقيمة ، فلم يشعر إلا وهي معهما على سطح الدار قائمة فقال لها : يا بنية وأين ألمك الذي كنت تجدينه وسقمك الذي كنت تكابدينه ، وسهرك الذي كنت تواصلينه فقالت : يا أبت بينما أنا نائمة في طيب أحلامي إذا رأيت نوراً أمامي وشخصاً قد أتاني فقلت : ما هذا النور الذي أراه والشخص الذي أشرق عليّ نوره وسناه ؟ فقيل لي : هذا نور سيد ولد عدنان الذي تعطرت بمولده الأكوان . قلت : أخبرني عن اسمه ؟ فقال : اسمه محمد وأحمد ، يرحم العاني ويعفو عن الجاني ، فقلت : فما دينه ؟ قال حنيف رباني ، قلت : فما نسبه ؟ قال : قرشي عدناني ، قلت : فمن يعبد ؟ قال : المهيمن الوحداني ، قلت : فمن أنت أيها المخاطب الروحاني ؟ قال : أنا من الملائكة الذين بشروا بجماله الداني ، قلت : فما تشاهد ما أنا فيه من الألم وتراني ؟ قال : توسلي بجاهه فقد قال ربه القريب الداني : قد أودعته سري وبرهاني ، فلأجيبن من به دعاني ، ولأشفعنه يوم القيامة فيمن عصاني ، فمددت يدي وبناني ، ودعوت الله بجاهه كما بصرني وهداني ، ثم مررت بيدي على جسدي وجسماني ، فاستيقظت وأنا صحيحة كما تراني :

لما دعوت بجاهه رب العلا   سمع الدعا مني به وشفاني   وعلمت أني قد شفيت بنوره
لما تبدى سيد الأكوان   وبجاهه قد زال عني كل ما   أشكوه من ألم ومن أحزان

فقال عامر لزوجته : إن لهذا المولود لسراً ونبأ . ولقد سمعنا ورأينا من آياته عجباً ، فلأقطعن في محبته أودية وربا ، ولأجدن في رؤيته طلباً فساروا مجدين ولمكة قاصدين إلى أن وصلوا إليها وقدموا عليها ثم سألوا عن دار آمنة فطرقوا عليها الباب . فبادرت بالجواب . فقالوا لها : أرينا هذا المولود الذي نور الله به الوجود ، وشرف به الآباء والجدود ، فقالت : لن أخرجه لكم فإني أخاف عليه من اليهود ، فقالوا : نحن قد فارقنا في حبه أوطاننا وتركنا أدياننا وأتعبنا أبداننا لنرى جمال هذا الحبيب الذي من قصده لا يخيب . فقالت : إذا كان ولا بد من رؤياه فأمهلوا واصبروا قليلاً ولا تعجلوا ، ثم غابت ساعة وقالت لهم : ادخلوا فلما دخلوا وفي البيت حصلوا ، رأوا أنوار الحبيب فذهلوا وكبروا وهللوا . ثم كشف عن وجهه الغطاء فأشرق نور ضيائه وأضاء وطلع عمود نور من وجهه إلى السماء فصاحوا وشهقوا وكادوا أن يصعقوا ، ثم أقبلوا أقدامه وأكبوا عليه وأسلموا على يديه . ثم قالت لهم : أسرعوا فإن جده عبد المطلب قلدني الأمانة أن أخفيه عن الناس وأكتم شأنه . فخرجوا من عند الحبيب وفي قلوبهم من الشوق نار ولهيب . ثم وضع عامر يده على قلبه وقد غاب عن

عقله ولبه . ثم صاح وقال : ردوني إلى بيت آمنة واسألوها أن تريني جماله ثانية فرجعوا إلى المنزل ، فلما رآه بادر إليه وأكب على قدميه ثم شهق شهقة ومات في شهقته وعجل الله بروحه على جنته . هذه والله أحوال المحبين العاشقين وصفات الصادقين . فيا أيها اللبيب اسمع هذا صفات الحبيب الذي قد ملأ الكون عزاً وجمالاً . وأضحى نوره في الآفاق يتلألأ ، وكساه الإلّه من ملابس فضله هيبة وجلالاً ، وخفف عن آمنة ببركته من الكروب أثقالاً ، وعطر بمولده الأقطار فتعطرت يميناً وشمالاً :

مولد المصطفى قد حزت إقبالا   بذكره يبلغ المشتاق آمالا   يا مدعي الحب فيه وهو ذو وله
في هواه جفا أهلاً وأطلالا   مت في محبته إن كنت تعشقه   موله القلب مشتاقاً وإلا لا
فالنوق تعشقه وجداً وتقصده   شوقاً وتطلب من نعماه إفضالا   أما تراها إذا لاحت قباب قبا
تحط عنها حداة العيس أثقالا   بحقه يا إلّهي جد لنا كرما   بالعفو والصفح إكراماً وإجلالا
فقد لجأنا إلى باب الكريم ومن   يلجأ إليه يرى رحباً وإقبالا   هو النبي الذي ضاء الوجود به
وفيه خالفت لواماً وعذالا   صلى عليه إلّه العرش ثم على   أهليه والصحب آبادا وآزالا

ثم إن آمنة حصل لها على أثر النفاس ضعف وألم شغلها عن رضاع هذا النبي المحتشم ، فسأل رضاعه الوحش والطير والريح كل يقول رب دعني أرضع صفوتك من خلقك وأكرم خلقك عليك وقالت الملائكة : ربنا أنت تعلم أننا نحبه فمرنا بتربيته لنتشرف بنور طلعته ونحظى ببركته ، فقال الله تعالى : أنا قادر على أن أربيه من غير رضاع ولا سبب ، ولكن سبقت كلمتي وتمت حكمتي وكتبت على نفسي أني إذا أعطيت أحداً شيئاً فلا أعود فيه ، وقد كتبت في الأزل من الحكمة القديمة أنه لا يرضع هذه الدرة اليتيمة والنفس الكريمة غير حليمة الحكيمة ، وكانت حليمة في بلدها مقيمة ولسان القدر يناجيها في ناديها ، وقد حدا بسعدها حاديها :

سيري حليمة وارضعي هذا المفدى   هذا الذي في حسنه ما زال فردا
هذا الذي لولاه ما عشق الحمى   كلا ولا كان السرور إليه يهدى
هذا الذي في الحسن أضحى مفردا   وله قطعنا في السرى عنقاً ووخدا
هذا الذي لولاه ما كان النقا   يهوى ولا كان المحب يهيم وجدا
وإذا تبدى يا حليمة فابشري   بالقرب لا تلقين بعد اليوم صدّا
فلك الهنا برضاعه فهو الذي   عن وجهه قمر الملاحة ما تعدى
وإذا رأيت شمس طلعه وجهه   ورأيت خداً قد حكى خزاً ووردا

ورأيـت ثغـراً بـاللجين مرصـعاً ورأيت معنى من معاني الحسن فـردا
قولي لبعلـك لا تخف هـذا الـذي نلقـي في كـل مـا تبغيـه قصـدا

وكان من عادة أهل مكة أن يخرجوا بالأطفال إلى المراضع . قالت حليمة : فأصابتنا سنة لم يأت الغيث فيها ولم تنبت الأرض شيئاً فجئنا في أربعين امرأة نلتمس الرضاع ليواسونا بالرفد . فدخلنا مكة وأتى أهل مكة بأولادهم عند الكعبة ، فوقف كل والد إلى جانب ابنه . فتقدمت كل امرأة فأخذت مولوداً فنظرت أنا فلم أر بقي غير مولود ، وليس إلى جانبه أحد . فسألت عن أبيه فقيل لي : أنه يتيم مات أبوه وأمه حامل به وهي الآن ضعيفة . فقلت لبعلي : لم يبق إلا هذا المولود وهو يتيم لا أب له ، فقال : ويحك خذيه ولا نرجع خائبين ، فلعل الله تعالى أن يرزقنا بأجره وثوابه ، وكان الأمر كذلك . قالت حليمة : فأخذته وإني لضعيفة على أثر نفاسي ، وليس في ثديي قطرة لبن من الضعف والجوع ، قالت : فلما حملته قوي ضعفي واشتدت قوتي ، ثم وضعت ثديي في فمه ، فسال اللبن وتدفق فشرب حتى روي وسمعت قائلاً يقول : طوبى لك أيتها السعدية بهذه النسمة الهاشمية . قالت : ثم ركبت الدابة وكانت ضعيفة لا تستطيع المشي فجعلت تسبق الدواب في القافلة ، فعجب الناس من ذلك . قالت : وكنا إذا نزلنا به تحت شجرة يابسة اخضرت لوقتها وإذا جعلناه في البيت المظلم أضاء وجهه كالمصباح حتى يغلب نوره نور السراج ، فقلت لبعلي : أرأيت ما أرى . فقال : أو ما أخبرتك أنه نسمة مباركة . قالت : فلما وصلنا به إلى المنزل كان عندنا شياه عجاف فأخذنا يده ومررنا بها عليها فدرت لوقتها ، قالت : وكثر الرزق والخير علينا ببركته حتى حسدتنا عليه جميع المراضع ، قالت : وكنت إذا أعطيته ثديه أخذه ، وإذا أعطيته ثدي أخيه لم يأخذه ، فعلمت أنه منصف عادل قالت : وانقطع عنا الغيث ، فقالوا : يا حليمة إن هذا المولود الذي عندك على وجهه نور ، فلو أخذته معك حتى نستسقي به الغيث لكان خيراً لنا ، قالت : فأخرجته لهم ، فأخذوه وحملوه على أيديهم وخرجوا إلى ظاهر البلد فدعوا به ، وإذا السحب قد جاءت بالغيث حتى خفنا الغرق ، قالت : ولم يزل عندنا حتى قضيت رضاعه ، فعزمنا على الرحيل به إلى أمه ، فقال لي بعلي : كيف نرده ، وقد وجدنا الخير والبركة على وجهه ، قالت : فأتينا به إلى أمه فقلت لها : إنا وجدنا الخير والبركة على وجه ولدك ، ونحن نسألك أن تدعيه لنا سنة أخرى . فقالت : خذاه ، فأخذناه وفرحنا به ، وكان يخرج هو وأخوه لرعي الأغنام ، فكان أخوه يقول لحليمة : يا أماه إن أخي الحجازي إذا وقف بقدميه على الوادي اليابس يخضر

لوقته ، وإذا جاء إلى البئر لسقي الأغنام يعلو الماء إلى فم البئر ، وإذا نام في الشمس جاءت غمامة فظللته من حر الشمس ، وتأتي إليه الوحوش وهو نائم فتقبل أقدامه . فقالت له : توصّ بأخيك . فلما كان في بعض الأيام خرجا على عادتهما يلعبان . فجاء أخوه وهو مصفر اللون وقال : يا أماه أدركي أخي الحجازي فقد أصيب . فقلنا : وما شأنه ؟ قال : بينما أنا وأخي نلعب إذ جاء ثلاثة نفر كأن وجوههم القمر عليهم ثياب خضر معهم طست وإبريق من الذهب والفضة فاختطفوه ، ثم أضجعوه وشقوا فؤاده فأدركاه . قالت : فقمنا إليه مسرعين فوجدناه سالماً آمناً فرحاً مسروراً ليس به ألم ولا بفؤاده أثر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : وكان الله سبحانه وتعالى قد بعث إليه جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام . ومعهم طست وإبريق . وماء من الجنة . وماء من الرحيق المختوم ومنديل من السندس الأخضر فأضجعه جبريل فشق صدره بأمر الملك الجليل . وشق قلبه وأخرج منه علقة سوداء وقال : هذا حظ الشيطان منك يا سيد المرسلين ثم صب عليه الماء وأتمّ غسله . ثم أعاد فؤاده كما كان أول مرة فكان يرى أثر المخيط في صدره حتى مات ﷺ . وهو أحد الأقوال في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : [الشرح : ١] ثم قال جبريل لميكائيل : زنه بعشرة من أمته فوزنه فرجحهم . ثم قال له : زنه بعشرين فوزنه فرجحهم . فقال له : زنه بأهل الأرض كلهم فوزنه فرجحهم فهو بدر الكمال وتاج الجمال وواسطة العقد وهلال الشرف ودرة تاج الكون فجميع الفضائل والمفاخر منسوبة إليه وهو المشفع غداً فيمن يصلي ويسلم عليه ﷺ :

هذا ربيع أتى بالبشر مبتسم ... لأجل طه الذي بالله يعتصم
خير الأنام حبيب الله شافعنا ... غيث وعون له الإحسان والكرم
في يوم الاثنين أنوار الحبيب بدت ... من مكة وانجلت حقاً به الظلم
وأصبح الكون مسروراً ومبتهجاً ... والأرض تزهو به والبيت والحرم
تقول آمنة في يوم مولده : ... جاء السرور لنا والفضل والنعم
سميت أحمد والباري الكريم كذا ... سماه من قبل ما يجري به القلم
في لوح قدرته باسم الحبيب جرى ... محمد صفوة الباري له الذمم
وعند وضعي رأيت الطير عاكفة ... حولي وقد أقبلت للبيت تلتثم
وجاءني الطير أرخى بأجنحة ... على فؤادي فزال السقم والألم
وما لقيت بحملي فيه من ألم ... مثل النساء التي أودى بها السقم

وخـرّ فـوق الثـرى لله خالقـه ... مثل اللبيب الـذي للأجـر يغتنم
أصـنام مكـة خـرت عنـد مولـده ... وأخمد النار جهراً وهـي تضطرم
وقـد غـدا هارباً إبليس منـذعراً ... وجنـده بسـهام الله تنـهزم
ما نال فخر النبي المصطفى أحد ... مـن الأنـام لـه البرهـان والحكم
ماذا أقول بوصفي في الرسول وقد ... أثـنى عليـه إلـه واحـد حكم
صلى عليه إلـه العرش ما طلعت ... شمس وما لاح ثغر البرق يبتسم

اللهم إننا قد حضرنا مولد نبيك الكريم . فأفض علينا ببركته لباس العز وأسكنا بجواره في دار النعيم ومتعنا في الجنة بالنعيم المقيم . اللهم إنا نسألك بجاه هذا النبي المصطفى وبآلـه أهـل الصدق والرفا كن لنا معيناً ومسعفاً وبوّئنا من الجنة غرفاً وارزقنا ببركته قبـولاً وعـزاً وشـرفاً . اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك المختار وآله الأطهار وأصحابه الأخيار كفر عنـا الـذنوب والأوزار واحرسنا من جميع المخاوف والأخطار ومتعنا برؤيته في دار القرار وتقبل من ما قدمناه من يسير أعمالنا في السر والإجهار وارحمنا بقدرتك واغفر لنا إنك عفوّ غفار ، برحمتك يا أرحم الـرحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة وسلم تسليماً .

المجلس الثاني والخمسون

في زيارة النبيّ ﷺ

الحمد لله الذي دعا عباده الأبرار ، إلى أشرف بيت وأعظم مـزار ، يسـر لهـم الطريـق ، وجعل دليلهم التوفيق ، فبلغوا المقاصد والأوطار . أقامهم على بابه وقرّبهم من جنابه فحصل لهم العز والفخار وعدهم بالضيافة والقرى ، فقطعوا المفاوز إلى أم القرى ، ولذّ لهم قطـع القفـار ، كتب في قلوبهم الإيمان وعاملهم بالرضوان ، فطافوا بالبيت والأركـان والأسـتار . بشـرهـم في منى بنيل المنى وأراحهم في الخيف من الخوف والعنا وسائر الأخطار . رقاهم إلى عرفان عرفـات ، ليكفر عنهم السيئات والأوزار ، نفروا من ذنوبهم إليـه ، وثـابوا بالمزدلفـة بـين يديـه في فـرح

واستبشار ، كتب لهم رضوان الإنعام ، عند المشعر الحرام ، بالنجاة من النار . كشفوا رؤوسهم وحلقوا شعورهم ، وأكثروا تسبيحهم وتقديسهم للكريم الغفار . قربوا هداياهم ونحروا ضحاياهم فوعدهم بالأجور الغزار ومحا عنهم صحائف الذنوب وأراحهم من الكروب عند رمي الجمار فإذا طافوا للوداع وعزموا على الارتجاع حثوا نجائب الشوق بسرعة السوق إلى النبي المختار يا له من نبي أرسله الله تعالى بالمعجزات والدلائل واستخرجه من أشرف القبائل وشرف به مضر ونزار وجعل دينه الأقوم وشرعه المعلم فكل حرف من حروف المعجم يشهد له برفيع الرتبة والمقدار قوّم ألف قامته فأشرقت بباء بهجته الشموس والأقمار حرسه بتاء التأييد من كل شيطان مريد وثبته في سائر الحركات بثاء الثبات فعد وما جار توجّه بجيم الجود والوفاء وحباه بحاء الحلم والاصطفاء . وخصه بخاء الاختصاص والصفاء من سائر الأكدار داواه بدال دوام الإحسان ، فخرت لهيبته الأصنام والأوثان ، وأصبحت بذال الذل والهوان في انتكاس واحتقار أرسله براء الرحمة وزاي الزهادة والقناعة . وميزه بسين السيادة وشين الشفاعة في أهل الذنوب والأوزار . صانه بصاد الصيانة . وقلده بسيف الأمانة . وأتحفه بضاد الضياء والأنوار . فتح له طاء طريق الإقبال وأنقذ أمته به من ظاء الظلم والضلال . فأصبحت مسرورة بفاء الفرح والاستبشار وشرفه بقاف قاب قوسين . وأكرمه بكاف كلامه المنزه عن الريب والمين . ولاطفه بلام لطفه المقدس عن الشك والشين . ومنّ عليه بميم منه فأطلعه على الأسرار . أخمد لنوره نار فارس وأذل لهاء هيبته الفرسان العوابس . وتوجه بواو الوقار وميزه في العالمين بياء اليقين . وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين . وأنزل عليه في كتابه المبين بالفضل والفخار ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ : [الفتح : ٢٩] .

يا حادياً يحدو لخير الورى	هيجت في قلبي من الشوق نار	سر بي رعاك الله مع فتية	ما لي عنهم منذ ساروا اصطبار
يا جيرة حلوا بوادي قبا	رميتمو في القلب منكم جمار	أنتم كرام يا عريب النقا	وجاركم من كل جور يجار
نلت بكم كل المنى في منى	وليس لي ما عشت عنكم قرار	في عرفات قد عرفت الهوى	وقد غدا سر التداني جهار
متى أرى الأحباب قد واصلوا	ويجمع الشمل بقرب المزار	ويبعد البعد ويدنو اللقا	ويفرح القلب وتدنو الديار
وأعزم السير إلى من به	تمحى الخطايا وتقال العثار	المصطفى المختار خير الورى	وخير من تطوى إليه القفار
وخير من تأتي ملوك الورى	لبابه بالذل والانكسار	صلى عليه الله ما رنمت	حمامة الأيك وغنى الهزار

[روي] عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من زار قبري وجبت له شفاعتي » رواه الدارقطني رحمه الله . وقال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » رواه البخاري ومسلم رحمهما الله . وقال رسول الله ﷺ : « من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي ومن لم يزر قبري فقد جفاني » رواه الإمام عليّ كرّم الله وجهه . وقال رسول الله ﷺ : « من زارني في قبري فكأنما زارني في حياتي ومن مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة من الآمنين ، وإن بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » . وقال رسول الله ﷺ : « من زارني بعد وفاتي وسلم عليّ رددت عليه السلام عشراً وزاره عشرة من الملائكة كلهم يسلمون عليه ، ومن سلم عليّ في بيته رد الله تعالى عليّ روحي حتى أسلم عليه » ، وقال ﷺ : « من حج وزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في المعنى :

زر من تحب وإن شطت بك الدار ... وحال من دونه ترب وأحجار

لا يمنعنك بعد عن زيارته ... إن المحب لمن يهواه زوّار

[وعن علي بن أبي طالب ﷺ] قال : قدم علينا أعرابي بعدما دفنا النبي ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبره ، وحثا من ترابه على رأسه ، ثم قال : يا رسول الله السلام عليك صلى الله عليك قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله فوعينا عنك ، وكان فيما أنزل الله تعالى عليك : ﴿ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ : [لنساء : ٦٤] وقد ظلمت نفسي وجئتك لتستغفر لي ، فنودي من داخل القبر : يا هذا قد غفر لك :

إن كنت تغدو في الذنوب جليداً ... وتخاف في يوم المعاد وعيدا

فلقد آتاك من المهيمن عفوه ... وأباحك الإيمان والتوحيدا

[وعن أبي الحسن الوصوفي رحمه الله] قال : وقف حاتم الأصم على قبر النبي ﷺ فقال : يا رب إنا قد زرنا قبر نبيك فلا تردنا خائبين ، فنودي : يا هذا ما أذنا لك في زيارة قبر نبينا إلا وقد طهرناك ارجع ومن معك من الزوار مغفور لكم فإن الله عز وجل قد رضي عنك وعمن زار قبر نبيه محمد ﷺ .

[وعن أبي الفضل رحمه الله] أن أعرابياً أتى قبر النبي ﷺ فقال : اللهم إنك أمرت بعتق العبيد على رؤوس قبور الأحباب ، وهذا حبيبك وأنا عبدك فأعتقني على رأس قبر حبيبك من

النار ، قال : فهتف بي هاتف تسأل العتق لك وحدك هلا سألت لجميع الخلق لأعتقهم على رأس قبر هذا الحبيب ، اذهب فقد أعتقناك يا أعرابي :

أستغفر الله مما كان من زللي ... ومن ذنوبي وإفراطي وإصراري
يا رب هب لي ذنوبي يا كريم فقد ... أحكمت حبل الرجا يا خير غفار
إن الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم أعتقوهم عتق أحرار
وأنت يا سيدي أولى بذاكر ما ... قد شبت في الرق فاعتقني من النار

[وعن أبي عبد الله محمد بن العلاء رحمه الله] قال : دخلت المدينة وقد غلب عليّ الجوع فزرت قبر النبي ﷺ وسلمت عليه وعلى الشيخين رضي الله عنهما ، وقلت : يا رسول الله جئت وبي من الفاقة والجوع ما لا يعلمه إلا الله عز وجل وأنا ضيفك في هذه الليلة ، ثم غلبني النوم فرأيت النبي ﷺ في المنام فأعطاني رغيفاً فأكلت نصفه ثم انتبهت من المنام وفي يدي نصفه الآخر فتحقق عندي قول النبي ﷺ : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي » ثم نوديت : يا عبد الله لا يزور قبري أحد إلا قد غفر له ونال شفاعتي غداً :

من زار قبر محمد ... نال الشفاعة في غد ... بالله كرر ذكره ... وحديثه يا منشدي
واجعل صلاتك دائما ... جهراً عليه تهتدي ... فهو الرسول المصطفى ... ذو الجود والكف الندي
وهو المشفع في الورى ... من هول يوم الموعد ... والحوض مخصوص به ... في الحشر عذب المورد
صلى عليه ربنا ... ما لاح نجم الفرقد

[وعن أبي الفضل محمد بن نعيم رحمه الله] قال : كان محمد بن يعلى الكناني رحمه الله يزور قبر النبي ﷺ كثيراً ويراه في المنام كثيراً فخرج لزيارة قبر النبي ﷺ يوماً فاندقت رجله فتعوق عن زيارته فخرج الحاج ، فكتب الكناني رقعة وناولها لبعض الحجاج وقال له : إذا وصلت إلى قبر النبي ﷺ فارم بهذه الرقعة إلى القبر وقل : يا رسول الله إن الكناني يقرئك السلام ويقول لك قد عرفت العذر الذي عاقه عنك ، فلما فعل الرجل ذلك رأى الكناني في نومه رسول الله ﷺ وهو يقول : كناني قد وصلت رقعتك وعذرناك :

يا حبيب القلوب يا خير ذخري ... ضاق من أجل عاقني عنك صدري
عوقتني الأعذار عنك فيا من ... هو قصدي وعساك تقبل عذري

[وحكى العتبي رحمه الله] قال كنت عند قبر رسول الله ﷺ فرأيت أعرابياً قد أقبل على بعير له فنزل عنه ثم أتى قبر النبي ﷺ ، فقال : السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا صفوة الله

أنت الذي أنزل الله عليك : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] وقد ظلمت نفسي وهاأنا قد أتيتك أستغفر من ذنبي فاشفع لي عند ربي ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم
أنت النبي الذي ترجى شفاعته ... عند الصراط إذا ما زلت القدم
أنت البشير النذير المستضاء به ... وشافع الخلق إذ يغشاهم الندم
تخصهم بنعيم لا نفاد له ... والحور في جنة المأوى لهم خدم
تعطى الوسيلة يوم العرض مغتبطاً ... عند المهيمن إذ ما تحشر الأمم
والحوض قد خصك الله الكريم به ... يوماً عليه جميع الخلق تزدحم
تسقي لمن شئت يا خير الأنام وكم ... قوم لعظم الشقا والبعد قد حرموا
صلى عليك إلـه العرش ما طلعت ... شمس وحنّ إليك الضال والسلم

قال العتبي : ثم غلبني النوم فرأيت رسول الله ﷺ فقال : يا عتبي أدرك الأعرابي وبشره أن الله قد غفر له :

سلام على قبر النبي محمد ... نبي الهدى والمصطفى والمؤيد
وكان رسول الله أفضل من مشى ... على الأرض إلا أنه لم يخلد
شهدت على أن لا نبوّة بعده ... وأن ليس حي بعده بمخلد
وأول من ينشق عنه ضريحه ... وخير الورى الهادي المشفع في غد
وأكوابه مثل النجوم وحوضه ... لوارده فازوا بأعذب مورد
فيا خير مبعوث إلى خير أمة ... ومن خص بالدين القويم المؤيد
سألتك يا خير الأنام شفاعة ... بها أرتجي سؤلي وأبلغ مقصدي
عليك سلام الله يا خير مرسل ... وأشرف مخلوق وأكرم سيد

[وقال بعضهم] : رأيت أنس بن مالك ﷺ أتى قبر النبي ﷺ ورفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي ﷺ ، ثم انصرف ﷺ . وروى ابن وهب ﷺ عن مالك ﷺ أنه كان إذا سلم على النبي ﷺ يدنو من القبر ويوجه وجهه إلى القبر ويسلم ويدعو ولا يمس القبر بيده .

ولزائر قبر النبي ﷺ عشر كرامات : إحداهن يعطى أرفع المراتب ، الثانية يبلغ أسنى المطالب ، الثالثة قضاء المآرب ، الرابعة بذل المواهب ، الخامسة الأمن من المعاطب ، السادسة التطهير من المعايب ، السابعة تسهيل المصائب ، الثامنة كفاية النوائب ، التاسعة حسن العواقب ، العاشرة رحمة رب المشارق والمغارب . وقال بعضهم : رأيت النبي ﷺ في النوم ، فقلت له : يا رسول الله هؤلاء الذي يأتونك ويسلمون عليك يعني الحجاج وغيرهم أتفقه قولهم ؟ قال : نعم وأردّ عليهم . فيا أيها الكئيب انظر ما أجمل صفات هذا الحبيب ، وما أكرمه على القريب المجيب ، تسلم عليه من البعيد الأقصى فيردّ عليك السلام ، وتطلب شفاعته فيشفع لك عند الملك العلام ، وتنقطع عن زيارة قبره فيتشوق إليك على الدوام ، وتقعد عن المسير إليه لاشتغالك بالدنيا وجمع الحطام ، فيأتي إليك زائراً في المنام ، فإن عزمت على المسير إليه ركبت ظهور الأنعام ، ولو أنصفت لسعيت على الرأس لا على الأقدام ، وهو ساترك في الدنيا من الذنوب والآثام وشافعك غداً وقائدك إلى دار السلام ، فهل رأيت حبيباً يعامل أحبابه بهذه الأوصاف ، أو يلاطفهم بمثل هذه الألطاف ؟ تالله إنك ما رأيت مثله ، ولا ترى فكيف تطيق منه مصطبراً ، أم كيف لا تظهر عليه تلهفاً وتحسراً ؟ هذا وقد بصرك بالكتاب والسنة فأصبحت متبصراً ، ووعدك بالجنة وكان لك مبشراً ، فيا من يدّعي حبه قد كذب في دعواه وافترى ، أين موافقتك لأفعاله ، أين اتباعك لأعماله وأقواله ؟ إنك والله لن تقفو من أثره أثراً ، أما بلغك أنه كان يبيت من الجوع طاوياً ويصبح من التهجد ذاوياً ، ومن الصيام خاوياً ؟ وقد عرضت عليه الكنوز فلم يعرها نظراً . كان يقطع الليل سهراً ويبسط لمولاه كفاً مفتقراً ، وينكس رأساً معتذراً ، ويسأل في خلواته لأمته أن تدخل الجنة زمراً :

يا سائقاً يطوي السباسب والثرى	مهلاً فإن الخير في أم القرى
لا تنزلن بغير طيبة إنها	سطعت بأنوار الرسول كما ترى
عجباً لتربتها تداس ولو درى الـ	ـماشي بها ما داس مسكاً أذفرا
شوقي لتلك الأرض شوق موله	ولع البكاء بطرفه فاستعبرا
ذو صبوة ما هبّ ريح هواكمو	إلا وحنّ لطيبة وتذكرا
يهوى الضريح ويشتهي لو زاره	ويودّ ذلك أنه لو قدرا
يا عيشنا الماضي القديم بيثرب	خلفت عندي حسرة وتفكرا
أترى يساعدنا الزمان ونلتقي	ويعود غض العيش غصناً أخضرا

وأفـوز بـالحرم الشـريف فإنـه ... حـرم ضـياء صـباحه قـد أسـفرا
وأمـرغ الخـدّين في الأرض الـتي ... اختـار مدفنـه بهـا وتخـيرا
هي خير أرض شـرفت وتقدسـت ... بحلول من هو في الورى خير الورى
المصـطفى المختـار أكـرم مرسـل ... للعالمين وخير مـن وطـىء الثـرى
هذا الـذي ظهـرت معـاجزه فقـل ... مـا شـئت عنـه محـدثاً ومخـبرا
مـن كفـه نبـع الـزلال وعـاد مـن ... بـين الأصـابع سـائلاً متفجـرا
وكـذاك عـين قتـادة قـد ردهـا ... بعـد العمـى فـرأى بهـا وتبصـرا
وأتـى لأخمصـه الـبعير مقـبلاً ... وشـكا إليـه وقـد أطـال وأكثـرا
نسـجت عليـه العنكبـوت فبابـه ... مـن بعـد ذلـك للبريـة لا يـرى
وكـذاك أشـجار الفـلاة أتـت لـه ... سـعيا وإنكـاراً علـى مـن أنكـرا
وجريـدة رجعـت بكـف محمـد ... سـيفاً وعـاد كمـا علمـت مجـوهرا
ورفاعـة نقـل الحـديث منعنعـاً ... وبكـل مـا أخبرتـه لـك أخـبرا
وعليـه سـلمت الغزالـة مثـل مـا ... أبدى الـبعير لـه السـلام بـلا مـرا
والشـاة لمـا أعجفـت وهزالهـا ... للجسـم أصـبح مسـقماً ومغـيرا
عجزت عن المرعى فلم ترعى وقد ... طوت الفؤاد من الطـوى فتضـمرا
وأمـرّ راحتـه علـى ضـرع لهـا ... فجـرى وسـحّ كمزنـة وتحـدرا
ولـه حـنين الجـذع أعظـم شـاهد ... فاشهد ودع من قال زوراً وافـترى
وكـذا ذراع الشـاة خاطبـه فـإن ... أنكـرت ذاك فقـد فعلـت المنكـرا
والـذئب جـاء إلى الـنبي محمـد ... قصـداً ومـرغ خـده فـوق الثـرى
وبتفلـه في البئـر بعـد ملوحـة ... مـن ذاق منـها ذاق حلـواً سـكرا
وانشـق في أفـق السـماء لأحمـد ... قمـر وخـرّ مـن الثريـا الثـرى
والغـار فيـه عجائـب مشـهورة ... ظهـرت وحـق لمثلـها أن يظهـرا
وأتـاه جبريـل الأمـين بـإذن مـن ... خلق الخلائق كيـف شـاء وصـورا
ناداه قم وارق في البراق بـإذن مـن ... رفع الطباق فأنت أكرم مـن سـرى
وإذا الصـباح تبلجـت أنـواره ... فلتحمـدن هنـاك عاقبـة السـرى
فرقى على متن البراق وجال في الـ ... ـملكوت ليلاً والضحى ما أسـفرا

وبسائر الأملاك صلى قائماً شكراً وسبح ربه واستغفرا
ثم انتهى للمنتهى من سدرة والصدر حيث أقام زاد تصدّرا
ولأحمد جبريل قام مخاطباً سر آمناً سيراً سريعاً أكبرا
فتقدّم المختار وهو مقدم دون الأنام ومن عداه تأخرا
قطع المسافة والمقامات التي وقف التفكر دونها وتحيرا
ما زال إذا سمع الخطاب فلا تكن فيما سمعت مقدماً ومؤخرا
والله خص محمداً بسلامه لما رقى ولقد رقى أعلى الذرا
فهو البشير الشاهد العلم الذي للناس أنذر حين جاء وبشرا
قسماً لقد أعطي مواهب لم تكن لسواه فافهم سرها وتدبرا
الله أعطاه الفضائل كلها وأناله ما قد أنال وأكثرا
في حضرة الملكوت بان محله ولقد حوى قدراً هناك ومفخرا
وعليه قد دارت كؤوس محبة وبها تخصص وحده دون الورى
هبت على الأكوان منها نفحة فتمايلت طرباً وخرّ لها حرا
من كان ساقيه الحبيب فكيف لا يزداد سكراً في الوجود لما يرى
طوبى لمن قد ذاق منها قطرة ولو أنها بالكون أجمع تشترى
هي خمرة العهد القديم فمن سقي منها تكامل عقله وتجوهرا
قوموا ندامى الراح في غسق الدجى فحبيبكم كشف الحجاب لمن يرى
ولحانها جدّوا المسير وشمروا فلقد يفوز بشربها من شمرا
للسكر أقوام له صلحوا لقد نالوا نصيباً من رضاه موفرا
قطعوا العلائق من سواه تلذذاً بهواه حتى العسر صار ميسرا
باعوا الذي يفنى بما يبقى فقد ربحت تجارتهم فنعم المشترى
وجميع ما نالوا بجاه محمد وبجاهه محي الذي قد سطرا
صلى عليه الله ما اخترق العلا ركب تنجد في المسير وغورّا
وعليه صلى الله جل جلاله ما أم ركب في الدجى أمّ القرى
وعليه صلى الله ما لمع الضيا وأضاء قنديل الصباح ونورا

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم : اللهم ارزقنا في الدنيا زيارته وفي

الآخرة شفاعته ، وأحينا على محبته ، وأمتنا على سنته ، واحشرنا في زمرته ، وأرنا وجهه ، واسقنا من حوضه ، واجعلنا ممن فاز بصحبته ولا تخالف بنا عن طريقته وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، برحمتك يا أرحم الرحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسلمياً كثيراً .

المجلس الثالث والخمسون

في مناقب الخلفاء الأربعة :

أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الكريم الغفار ، الحليم الستار ، مكورّ الليل على النهار ، وكل شيء عنده بمقدار ، حارت في قضاياه العقول والأفكار ، وتاه في بيداء أبديته أولو البصائر والاعتبار ، قهر الجبابرة بقهر عزته فهو الواحد القهار ، وكسر الأكاسرة بقوة سطوته فهو العظيم الجبار . كوّن الأكوان ودبر الزمان فلا يحتاج إلى أعوان وأنصار ، لا يقادر قدره ولا يستحق العبادة غيره ، قد عم إحسانه سائر الأماكن وجميع الأقطار ، يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا في قرار البحار . يعلم سر العبد عند مآله ومنقلبه ، ويطلع على ضميره عند قصده وطلبه ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ : [الرعد : ١٠] فسبحانه من إلٰه اصطفى واجتبى وانتفى وارتضى واختار ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ : [القصص : ٦٨] واصطفى محمداً ﷺ نبيه المنتخب ورسوله المختار ، واجتبى أبا بكر الصديق وخصه بالتصديق والهيبة والوقار ؛ وانتقى للصواب عمر بن الخطاب فحلا ذكره وطاب للبادين والحضار ؛ وارتضى عثمان بن عفان لجمع القرآن فجمعه ما بين أخماس وأعشار ؛ واختار علي بن أبي طالب لتفريق الكتائب وإظهار العجائب وإشهار ذي الفقار ، فهم الذين نزل في حقهم على لسان رسوله المختار : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ : [الفتح : ٢٩] فأبو بكر مؤنسه في الغار ،

وعمر وزيره وأمينه على الأسرار ، وعثمان المقتول بيد العدوان ، شهيد الدار ، وعلي بن أبي طالب ابن عمه ووارث علمه الفارس الكرار فهؤلاء خلفاؤه ووزراؤه الأئمة الأبرار ، الذي وفوا للنبيّ ﷺ بعهودهم وقد جرت بسعودهم الأقدار ، وتابعوه وبايعوه على ما يحب ويختار ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأئمة الأخيار ، وفي المعنى :

الطرف في معناك حار ... يا من له أبداً يشار ... وحياة حبك لا سلو ... ت وإن سلوت على عار

كيف السلوّ وأنت في ... قلبي وإن نأت الديار ... يا أيها الهادي البشيـ ... ـر الهاشمي المستنار

قد خصك الله الكريـ ... ـم بصحبة الشيخ الوقار ... وكذاك في عمر الذي ... عمر الشريعة باشتهار

والبرّ عثمان الذي ... نال الشهادة والفخار ... وعليّ البطل الرضا ... مردي الطغاة بذي الفقار

فهم أصحاب المصطفى ... ماخاف من بهم استجار ... فعليه صلى ربنا ... ما ناح في الصبح الهزار

وعلى الصحابة بعده ... ما زمزم الحادي وسار

[وروى أبو ذر ﷺ] عن النبي ﷺ أنه قال : « من أدخل السرور على أصحابي فقد أدخل السرور عليّ ، ومن أدخل السرور عليّ فقد سرّ الله ، ومن سر الله كان حقاً على الله أن يسره ويدخله الجنة » . وقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمع حب هؤلاء الأربعة إلا في قلب مؤمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي » رضي الله عنهم أجمعين . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « أجيء يوم القيامة وأبو بكر عن يميني وعمر عن شمالي وعثمان من ورائي ، وعلي بين يدي ومعه لواء الحمد وعليه شقتان شقة من السندس وشقة من الإستبرق ، فقام إليه أعرابي فقال : فداك أبي وأمي يا رسول الله عليّ يستطيع أن يحمل لواء الحمد ؟ قال : كيف لا يستطيع حمله ، وقد أعطي خصالاً : صبراً كصبري وحسناً كحسن يوسف وقوة كقوة جبريل ، وإن لواء الحمد بيد علي بن أبي طالب وجميع الخلائق يومئذ تحت لوائي » . روى علي بن أبي طالب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :« رحم الله أبا بكر زوّجني ابنته وحملني على ناقته إلى دار الهجرة وأعتق بلالاً من ماله ، رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مراً ، رحم الله عثمان تستحي منه الملائكة رحم الله علياً اللهم أدر الحق معه حيث دار » وفي المعنى :

همو صحابة خير الخلق أيدهم ... رب السماء بتوفيق وإيثار

فحبهم واجب يشفى السقيم به ... فمن أحبهمو ينجو من النار

[وروي عن النبي ﷺ] أنه قال لأبي بكر ﷺ : « يا أبا بكر خلقني الله عز وجلّ من جوهرة من نور ، فنظر إليها الربّ جلّ جلاله وتقدست أسماؤه ، فأوقفني بين يديه فاستحييت منه

فعرقت فسقط مني أربع نقط فخلقك يا أبا بكر من أول نقطة وخلق عمر من الثانية وخلق عثمان من الثالثة وخلق علياً من الرابعة فنورك يا أبا بكر ونور عمر وعثمان وعليّ من نوري » .
وقال ﷺ : « إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين ، فاختار من أصحابي أربعة : أبا بكر وعمر وعثمان وعليّ بن أبي طالب » رضي الله عنهم أجمعين . وروي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عزّ وجل افترض عليكم حبّ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما افترض عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج فمن أبغض واحداً منهم لم يقبل الله له صلاة ولا زكاة ولا صوماً ولا حجاً ويحشر من قبره إلى النار » .
وروى أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لحوضي أربعة أركان فأول ركن منها في يد أبي بكر والثاني في يد عمر والثالث في يد عثمان والرابع في يد عليّ ، فمن أحبّ أبا بكر وأبغض عمر لم يسقه أبو بكر ومن أحبّ عمر وأبغض عثمان لم يسقه عمر ومن أحبّ عثمان وأبغض علياً لم يسقه عثمان ومن أبغض عثمان وأحبّ علياً لم يسقه عليّ ، فمن أحبّ أبا بكر فقد أقام الدين ، ومن أحبّ عمر فقد كتب من المؤمنين ، ومن أحبّ عثمان فقد استنار بالنور المبين ، ومن أحبّ علياً فقد أحسن والله يحبّ المحسنين ، ومن أحسن الظن فيهم فهو مؤمن ، ومن أساء الظن فهو منافق » . وفي المعنى :

من أحسن الظن في الله الكريم وفي ... رسوله كان مكتوباً من الشرفا
ومن أحبّ صحاب المصطفى فله ... جنان عدن يرى في ظلها غرفا
ومن يكن باغضاً فيهم فإن له ... نار الجحيم ويضحى باكياً أسفا
فهم نجوم الهدى في كل مظلمة ... والله حسبي فيما قلته وكفى

[وعن أبي هريرة ﷺ] قال : « كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذا أقبل أبو بكر الصديق ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : مرحباً بالمواسي بما له مرحبا بالمؤثر على نفسه . ثم أقبل عمر بن الخطاب ﷺ فقال : مرحبا بالمفرّق بين الحق والباطل مرحباً بمن أكمل الله به الدين وأعزّ به المسلمين . ثم أقبل عثمان بن عفان ﷺ فقال : مرحباً بصهري وزوج ابنتي الذي جمع به نوري ، السعيد في حياته الشهيد في مماته ، ويل لقاتله من النار . ثم أقبل علي بن أبي طالب ﷺ فقال : مرحباً بأخي وابن عمي والذي خلقت أنا وهو من نور واحد » معاشر المسلمين هؤلاء لا يتفق حبهم إلا في قلب مؤمن ولا يتفرق إلا في قلب منافق فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله .
وفي المعنى أيضاً :

حب النبي على الإنسان مفترض ... وحب أصحابه نور ببرهان

من كان يعلم أن الله خالقه ... لا يرمينّ أبا بكر ببهتان

ولا أبا حفص الفاروق صاحبه ... ولا الخليفة عثمان بن عفان

ولا علياً أبا السبطين نعم فتى ... وصى به الله في سر وإعلان

ركن الشريعة بحر العلم منتخب ... والبيت لا يستوي ألا بأركان

شاعت مناقبه في الناس كلهم ... ما بين علم وأحكام وتبيان

لا تستطيع العدا منه محاربة ... ولو أتوه بأبطال وشجعان

فهم صحابة خير الخلق خصهم ... رب العباد بجنات ورضوان

فمن أحبهم قد نال منزلة ... عند الإلّه وجازه بإحسان

عليهم من سلام الله أطيبه ... ما ناحت الورق في أوراق أغصان

[وروى أبو سعيد الخدري ﷺ] عن النبي ﷺ أنه قال : « دخلت الجنة فبينما أنا أطوف في رياضها وبين أنهارها وأشجارها إذ ضربت بيدي إلى ثمرة فأخذتها فانفلقت في يدي على أربع قطع فخرج من كل قطعة حورية لو أخرجت ظفرها لفتنت أهل السموات والأرض ولو أخرجت كفها لغلب ضوؤها ضوء الشمس والقمر ولو تبسمت لملأت ما بين السماء والأرض مسكاً من رائحتها . فقلت للأولى : لمن أنت ؟ قالت : لأبي بكر الصديق ، فقلت : امضي إلى قصر بعلك فمضت . وقلت للثانية : لمن أنت ؟ فقالت : لعمر بن الخطاب ، فقلت : امضي إلى قصر بعلك فمضت . وقالت للثالثة : لمن أنت ؟ قالت : للمختضب بدمه المقتول ظلماً عثمان بن عفان ، فقلت لها : امضي إلى قصر بعلك فمضت . وقلت للرابعة : لمن أنت ؟ فسكتت . ثم قالت : والله يا رسول الله إن الله تعالى خلقني على حسن فاطمة ، ولقد سماني على اسمها وإن الله تعالى زوجني من علي بن أبي طالب ﷺ قبل أن يتزوج فاطمة بألفي عام »

فهم خلفاء النبي ﷺ وأنصاره وأصحابه ، وهم حافون به يوم القيامة إلى دار الكرامة :

فهم صحاب المصطفى ... وهم الخواص من الأمم ... أهل المآثر والمفا ... خر والفتوة والكرم

وبعدهم سادوا الورى ... وبنورهم تجلى الظلم ... خلفاء أفضل شافع ... للخلق في يوم الندم

صلى عليه ربنا ... ما سحّ دمع وانسجم ... وعلى صحابته الكرا ... م الظاهرين أولي الشيم

وقيل : إن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما كان في بعض أشغال النبي ﷺ فأدركتهما صلاة العصر . فقال عمر بن الخطاب لعثمان رضي الله عنهما : تقدم فصلّ بنا .

فقال عثمان ﷺ : أنت أولى مني بالتقدم يا عمر فإن رسول الله ﷺ قدمك وأثنى عليك . فقال عمر ﷺ : أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نعم الرجل عثمان صهري وزوج ابنتي ومن جمع الله به نوري » . فقال عثمان ﷺ : أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عمر أكمل الله به الإسلام » . فقال عمر ﷺ : أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عثمان تستحي منه الملائكة » . فقال عثمان ﷺ : أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عمر كمل الله به الدين وأعزّ به المسلمين » ، فقال عمر ﷺ : أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عثمان جمع القرآن وهو حبيب الرحمن » ، فقال عثمان ﷺ أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نعم الرجل عمر يتفقد الأرامل والأيتام ويحمل لهم الطعام وهم نيام » ، فقال عمر ﷺ : أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في حقك : « غفر الله لعثمان مجهز جيش العسرة ، فقال عثمان ﷺ : أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في حقك : « اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب » وسماك رسول الله ﷺ الفاروق وفرق الله تعالى بك بين الحق والباطل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعا لهما وشكرهما على حسن أدبهما بعضهما مع بعض :

طوبى لمن قلبه بالله مشتغل	يبكي النهار وطول الليل يبتهل
خوف الوعيد وذكر النار أذهله	والدمع منه على الخدين ينهمل
يهوى صحابه خير الخلق كلهم	فحبهم واجب يرجى به الأمل
الله فضلهم حقاً وشرّفهم	بالمصطفى وبه قد ضاءت السبل
صلى عليه إلّه العرش ثم على	أهليه والصحب ما حنت له الإبل

[وروى أبو هريرة رضي الله عنه] أن أبا بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما قدما يوماً إلى حجرة رسول الله ﷺ . فقال علي لأبي بكر رضي الله عنهما : تقدم فكن أول قارع يقرع الباب وألحّ عليه ، فقال أبو بكر : تقدم أنت يا علي ، فقال علي ﷺ : ما كنت بالذي يتقدم على رجل سمعت رسول الله ﷺ يقول في حقه : « ما طلعت الشمس ولا غربت من بعدي على رجل أفضل من أبي بكر الصديق » . فقال أبو بكر ﷺ : ما كنت بالذي يتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « أعطيت خير النساء لخير الرجال » . فقال علي ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « من أراد أن ينظر إلى صدر إبراهيم الخليل

فلينظر إلى صدر أبي بكر الصديق » . فقال أبو بكر ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « من أراد أن ينظر إلى آدم ﷺ وإلى يوسف وحسنه وإلى موسى وصلاته وإلى عيسى وزهده وإلى محمد ﷺ وخلقه فلينظر إلى علي » . فقال علي ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « إذا اجتمع العالم في عرصات القيامة يوم الحسرة والندامة ينادي مناد من قبل الحق عز وجلّ يا أبا بكر ادخل أنت ومحبوك الجنة » ، فقال أبو بكر ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ يوم حنين وخيبر وقد أهدى إليه تمر ولبن : « هذه هدية من الطالب الغالب إلى علي بن أبي طالب » ، فقال علي ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « أنت يا أبا بكر عيني » ، فقال أبو بكر ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « يجيء عليّ كرّم الله وجهه على مركب من مراكب الجنة فينادي مناد : يا محمد كان لك في الدنيا والد حسن وأخ حسن . أما الوالد الحسن فأبوك إبراهيم الخليل ، وأما الأخ فعليّ بن أبي طالب ﷺ » . فقال عليّ ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة يجيء رضوان خازن الجنان بمفاتيح الجنة ومفاتيح النار ويقول : يا أبا بكر الربّ جل جلاله يقرئك السلام ويقول لك هذه مفاتيح الجنة ومفاتيح النار . ابعث من شئت إلى الجنة وابعث من شئت إلى النار » . فقال أبو بكر ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « إن جبريل ﷺ أتاني فقال لي : يا محمد إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك : أنا أحبك وأحب علياً فسجدت شكراً ، وأحب فاطمة فسجدت شكراً ، وأحبّ حسناً وحسيناً فسجدت شكراً » ، فقال علي ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح عليهم » . فقال أبو بكر ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « إن علياً يجيء يوم القيامة ومعه أولاده وزوجته على مراكب من البدن ، فيقول أهل القيامة : أي نبي هذا ؟ فينادي مناد ، هذا حبيب الله ، هذا عليّ بن أبي طالب » . فقال علي ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « غداً يسمع أهل المحشر من ثمانية أبواب الجنة ادخل من حيث شئت أيها الصديق الأكبر » . فقال أبو بكر ﷺ : أنا لا أتقدم علي رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « بين قصري وقصر إبراهيم الخليل قصر عليّ بن أبي طالب » . فقال عليّ ﷺ : أنا لا أتقدم علي رجل قال في حقه رسول الله ﷺ : « إن أهل السموات من الكروبيين والروحانيين والملأ الأعلى لينظرون في كل يوم إلى أبي بكر الصديق » . فقال أبو بكر ﷺ : أنا

لا أتقدم على رجل قال الله تعالى في حقه وحق أهل بيته : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ : [الإنسان : ٨] . فقال عليّ ﷺ : أنا لا أتقدم على رجل قال الله تعالى في حقه : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ : [الزمر : ٣٣] فنزل جبريل ﷺ إلى الصادق الأمين ، من عند رب العالمين ، وقال : يا محمد العليّ الأعلى يقرئك السلام ، ويقول لك إن ملائكة السبع السموات لينظرون في هذه الساعة إلى أبي بكر الصديق وإلى علي بن أبي طالب ويستمعون ما جرى بينهما من حسن الأدب وحسن الجواب من بعضهما لبعض فقم إليهما وكن ثالثهما فإن الله تعالى قد حفهما بالرحمة والرضوان ، وخصهما بحسن الأدب والإسلام والإيمان ، فخرج النبي ﷺ إليها فوجدهما كما ذكر له جبريل ، فقبل النبي ﷺ وجه كل واحد منهما . وقال : « وحق من نفس محمد بيده لو أن البحار أصبحت مداداً ، والأشجار أقلاماً ، وأهل السموات والأرض كتاباً لعجزوا عن فضلكما وعن وصف أجركما :

من ذا يطيق بأن يحصي الثناء على ... محمد وعلى الصدّيق صاحبه
وقد رقى عمر الفاروق منزلة ... وحاز عزاً وفخراً في مراتبه
وحاز عثمان فضلاً بالبني وقد ... أثنت جميع البرايا عن مناقبه
وذو الفقار عليّ المرتضى فله ... بحر من العلم يبدو من عجائبه
فهم ملاذ لمن خاف الحساب إذا ... ضاقت عليه أمور في مذاهبه
عليهم صلوات الله ما لمعت ... في الليل أنوار برق في غياهبه

[وروي عن محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه] قال : رأيت بمكة نصرانياً يدعى بالأسقف وهو يطوف بالكعبة . فقلت : ما الذي رغبك عن دين آبائك ؟ فقال : بدلت خيراً منه . قلت : فكيف كان ذلك ؟ فحكى لي أنه ركب في البحر . قال : فلما توسطنا فيه انكسرت المركب بنا فتعلقت على لوح فما زالت الأمواج تدافعني حتى رمتني في جزيرة من جزائر البحر فيها أشجار كثيرة ولها ثمار أحلى من الشهد وألين من الزبد وفيها نهر جار عذب . قال : فقلت الحمد لله على ذلك ، فها أنا آكل من هذا الثمر وأشرب من هذا النهر حتى يأتي الله بالفرج ، فلما ذهب النهار وجاء الليل خفت على نفسي من الدواب فعلوت شجرة ونمت على غصن منها ، فلما كان في وسط الليل إذا بدابة على وجه الماء تسبح الله تعالى ، وتقول بلسان فصيح : لا إلّه إلا الله العزيز الجبار ، محمد رسول الله النبي المختار ، أبو بكر الصديق

صاحبه في الغار ، عمر الفاروق فاتح الأمصار ، عثمان القتيل في الدار ، علي سيف الله على الكفار ، فعلى مبغضيهم لعنة العزيز الجبار ، ومأواهم النار وبئس القرار ، ولم تزل تكرر هذه الكلمات إلى الفجر ، فلما طلع الفجر قالت : لا إلّه إلا الله الصادق الوعد والوعيد ، محمد رسول الله الهادي الرشيد ، أبو بكر الموفق السديد ، عمر بن الخطاب سور من حديد ، عثمان الفضيل الشهيد ، علي بن أبي طالب ذو البأس الشديد ، فعلى مبغضيهم لعنة الرب المجيد ، فما وصلت الدابة إلى البر إذا رأسها رأس نعامة ووجهها وجه إنسان وقوائمها قوائم بعير وذنبها ذنب سمكة فخشيت على نفسي الهلكة فهربت منها ، فالتفتت إليّ وقالت : قف وإلا تهلك ، فوقفت . فقالت : ما دينك ؟ فقلت : النصرانية! فقالت : ويحك يا خاسر ارجع إلى الحنفية فإنك قد حللت بفناء قوم من مؤمني الجن لا ينجو منهم إلا من كان مسلماً ! فقالت : وكيف الإسلام ؟ قالت : تشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله فقلتها ! فقالت : كمل إسلامك لترضي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . قلت : ومن أتاكم بذلك ؟ قالت : قوم منا حضروا عند رسول الله ﷺ فسمعوه يقول : « إذا كان يوم القيامة تأتي الجنة فتنادي بلسان طلق : إلّهي قد وعدتني أن تشيد أركاني ؟ فيقول الجليل جل جلاله : قد شيدت أركانك بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزينتك بالحسن والحسين » ثم قالت لي الدابة : تريد المقام هنا أم الرجوع إلى أهلك ؟ قلت : الرجوع إلى أهلي ، فقالت : امكث مكانك حتى يجتاز بك مركب فمكثت مكاني ونزلت الدابة البحر فما غابت عن عيني حتى مرّ عليّ مركب وفيها ركاب ، فأشرت إليهم فحملوني فإذا في المركب اثنا عشر رجلاً كلهم نصارى فأخبرتهم خبري وقصصت علهم قصتي فأسلموا كلهم ، فعلمت أن هؤلاء الأقوام سراً عند الملك العلام ، إذا ببركتهم حصل لي الإسلام ونلت أعلى مقام :

قوم هم عند رب العرش منزلة ... وحرمة وبشارات وإكرام
فازوا بصحبة خير الخلق واتصفوا ... بوصفه فهمو للناس أعلام
ففي أبي بكر الصديق قد وردت ... آثار فضل لها في الذكر أحكام
وبعده عمر الفاروق صاحبه ... به تكمل في الآفاق إسلام
وهكذا البر عثمان الشهيد له ... في الليل ورد وبالقرآن قوام
وللإمام علي المرتضى منح ... له احترام وإعزاز وإكرام
هم الصحابة للهادي بهم وضحت ... طرق الهدى وعلى الخيرات قد داموا

عليهم من سلام الله أطيبه ما أفطر الناس يوم الشك أو صاموا

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الرابع والخمسون

في ذكر الصلاة والسلام على النبي ﷺ

الحمد الله الذي أنشق أهل صفوته من طيب محبته نسيماً ، ونادمهم في الأسحار بلذيذ الأذكار فأصبح لهم نديماً ، وسقاهم من الكؤوس المصفاة في خلوة المناجاة شراباً صرفاً قديماً ، وتجلى عليها فهاموا وجداً به وحق لواجدهم أن يكون لهيامه عليماً ، وبصرهم بهداهم وآتاهم تقواهم وهداهم صراطاً مستقيماً ، وأرسل إليهم رسولاً كريماً ، ونبياً مبجلاً عظيماً ، وأنزل عليه في كتابه العزيز تفضيلاً وتكريماً : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] . يا له من نبي شرف الله به زمزم وحطيماً ، وخصه باجتبائه واصطفائه سماه اسمين من أسمائه رؤوفاً رحيماً ، فمن تمسك بشريعته نال فضلاً جسيماً ، وحاز في الجنة نضرة ونعيماً ، كم أطلق أسيراً وآثر مسكيناً عديماً ، وكم جبر كسيراً وأغنى فقيراً ورحم يتمياً ، توسل به آدم فألهم الصلاة عليه فعاد عزيزاً كريماً ، ودعا به نوح فأضحى من الغرق سليماً ، واستغاث به الخليل فصارت النار عليه برداً وسلاماً ، لما أكثر عليه صلاة وتسليماً ، واستجار به إسماعيل فأغيث بالفداء وكان للنعم بعد الردى مستديماً ، وصلى عليه موسى فأضحى مخاطباً وكليماً ، وبشر به عيسى فنال رفعه وتقديماً ، وسلمت عليه الأشجار والأحجار وصلت عليه الملائكة الأبرار فحصل لهم الفخار عند من لم يزل عظيماً ، فيا معشر العصاة ما أغفلكم عن الصلاة عليه فإنها تكفر ذنباً عظيماً ، وتورث عزاً وتكريماً ، فأكثروا من الصلاة عليه وافعلوا ما ندبكم مولاكم إليه تلقوا جنة ونعيماً وتجنبوا عذاباً وجحيماً . فقد قال في حقه من جمع بين خلقه وخلقه : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ : [الأحزاب :٤٣] . وبشر من صلى عليه من أمته بالفضل في جنته . فقال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ : [الأحزاب :٤٤] فأكثروا من الصلاة عليه فإنها تجلو هموماً وتشفي سقيماً ، وقد أمركم الله تعالى بالصلاة عليه تنبيهاً لكم وتفهيماً ، وتذكيراً لكم وتعليماً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ : [الأحزاب :٥٦] .

جل الذي بعث الرسول رحيما لـيردّ عنا في المعـاد جحيمـا وبـه نرجـي جنـة ونعيمـا

أضحى على الباري الكـريم كريمـاً صــلوا عليـــه وســلموا تســليما

ما ضل عن وحي الإلّه وما غوى حاشا رسول الله ينطق عن هوى الصادق الثقة الأمين بما روى

قـد نـال مـن رب السـماء علومـاً صــلوا عليـــه وســلموا تســليما

وافى له الـروح الأمـين مبشـرا ناد به يا خير من وطىء الثرى أجب المهيمن يا محمد كي ترى

ملكـاً كـبيراً في السـماء عظيمـاً صــلوا عليـــه وســلموا تســليما

فأجابه المختـار حيـن دعـا بـه رب السموات العلى لخطابه ركب البراق وقد أتى لجنابه

أمسـى لـه الـروح الأمـين نـديماً صــلوا عليـــه وســلموا تســليما

فمتى أرى الحادي يبشر باللقـا ويضمنا بأن المحصب والنقـا وأرى ضريح المصطفى قد أشرقا

مـولى رحيمـاً لـن يـزال حليمـاً صــلوا عليـــه وســلموا تســليما

وأقـول للـزوار فـزتم بـالمنى يهناكمو طيب المسرة والهنـا فاستبشروا من بعد فقر بالغنى

فــالله زادكمـــو بـــه تكريمـــاً صــلوا عليـــه وســلموا تســليما

ثم الرضـا عـن آلـه الكرمـاء وكذاك عن أصحابه الخلفاء فهواهمو ديني وعقد ولائي

قـــوم تـــراهم في المعـــاد نجومـــاً صــلوا عليـــه وســلموا تســليما

[وروى أبو طلحة ﷺ] قال : « دخلت على رسول الله ﷺ ووجهه يبرق فقلت : يا رسول الله رأيتك كاليوم أطيب نفساً ولا أظهر منك بشـراً ؟ فقـال رسـول الله ﷺ : ومـا لي لا تطيب نفسي وقد جاءني جبريل عليه السلام الساعة فقال : يا رسول الله من صلى عليك صلاة مـن أمتـك كتبت لها بها عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات ورفعت له عشر درجات وقال له الملك مثل مـا قال » . وفي لفظ آخر : « وردّ الله تعالى عليه مثل قوله » .

[وروي عن عائشة رضي الله عنها] قالت : « كنت أخيط شيئاً في وقت السحر فسقطت الإبـرة مني وانطفأ المصباح فدخل رسول الله ﷺ فأضاء البيت من ضياء وجهه فوجدت الإبرة فقلت : ما أضوأ وجهك يا رسول الله صلى الله عليك ؟ فقال : يا عائشة الويل لمن لم يرني يوم القيامة ، قالت : فقلت : ومن الذي لم يرك يوم القيامة ؟ قال : البخيل ، فقلت : ومن هو البخيـل يـا رسول الله ؟ قال : الذي إذا ذكرت عنده لم يصلّ عليّ » .

[وروى أبو هريرة ﷺ] عن النبي ﷺ أنه قال : « صلوا عليّ فإن صلاتكم علـيّ زكـاة لكـم ،

وسلوا الله تعالى لي الوسيلة . قالوا : يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال : أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو » :

أحمد المصطفى سراج منير   خاتم الرسل صادق الأنباء
خص بالحوض والشفاعة في الحشر   لكل الورى ورفع اللواء
والمقام المحمود والسبق للنا   س دخولاً في الجنة الفيحاء
ثم يعطى وسيلة وهي أعلى   درجات الجنان دار البقاء
فعليه الصلاة في كل وقت   وزمان يبقى على الآناء

[وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه] قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ عشية الخميس نزلت الملائكة وبأيديهم قراطيس من فضة وأقلام من ذهب يكتبون عشية الخميس ليلة الجمعة ويوم الجمعة عشية الجمعة صلاة من يصلي عليّ فأكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة » . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ صلاة واحدة ليلة الجمعة أو يوم الجمعة قضى الله له مائة حاجة من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا ويبعث إليّ ملكاً يدخل عليّ في قبري ويخبرني باسمه ونسبه وعشيرته فأكتبه عندي في صحيفة بيضاء » . وقال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين يبلغون إليّ صلاة من يصلي عليّ في مشارق الأرض ومغاربها فمن صلى عليّ كل يوم جمعة ثمانين مرة غفرت له ذنوب ثمانين سنة » . وقال رسول الله ﷺ : « تباهوا بالصلاة عليّ فإنها تبلغني » . وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة ، وما جلس قوم مجلساً ولم يصلوا فيه عليّ إلا كانت عليهم حجة يوم القيامة إن شاء عفا عنهم وإن شاء آخذَهم بها » . وروي أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة تحت ظل عرش الرحمن عز وجل يوم لا ظل إلا ظله ، قيل : من هم يا رسول الله قال : من فرّج عن مكروب من أمتي ، ومن أحيا سنتي ، ومن أكثر الصلاة عليّ » .

[وعن أبي هريرة ﷺ] عن النبي ﷺ أنه قال : « من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب » :

صلوا على هذا النبي الكريم   تحظوا من الله بأجر عظيم
وتظفروا بالفوز من ربكم   وجنة فيها نعيم مقيم
طوبى لعبد مخلص في الورى   صلى على ذلك الجناب الكريم
وقد غدا من فرط أشواقه   بحبه في كل واد يهيم

[وروي] أنه ﷺ قال : « من صلى عليّ تعظيماً لحقي خلق الله تعالى من ذلك القول ملكاً

أحد جناحيه بالمشرق والآخر بالمغرب ورجلاه مغروزتان في الأرض السابعة وعنقه تحت العرش فيقول الله تعالى : صليّ على عبدي كما صلى على نبيي فهو يصلي عليه إلى يوم القيامة » . وروي أنه ﷺ قال : « إن الله عز وجل وهب لكم ذنوبكم عند الاستغفار فمن استغفر الله تعالى بنية صادقة غفر له ، ومن قال لا إلـه إلا الله رجح ميزانه ، ومن صلى عليّ كنت شفيعه يوم القيامة » . وروي أنه ﷺ قال : « إن الله تعالى وكل بقبري ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي عليّ إلا قال الملكان مجيبان له : غفر الله لك . فيقول حملة العرش والملائكة جواباً للملكين : آمين ، ولا أذكر عند أحد فلا يصلي عليّ إلا قال الملكان له : لا غفر الله لك ، ويقول حملة العرش وسائر الملائكة جواباً للملكين آمين » . وروي أنه ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلساً ثم تفرقوا على غير الصلاة عليّ إلا تفرقوا على أنتن من جيفة الحمار وما من مجلس يصلي عليّ فيه إلا فاحت له رائحة طيبة حتى تبلغ عنان السماء فتقول الملائكة : هذه رائحة مجلس صلي فيه على محمد ﷺ » وإن للصلاة عليه رائحة تفوق روائح جميع الطيب تعرفها الملائكة فتميزها من سائر الطيب :

إن الصلاة على المختار إن ذكرت ... في مجلس فاح منه الطيب إذا نفحا
فأسكر القوم رياه فتعرفه الـ ... أملاك لما تبدى النور واضحا
والقوم في حضرة بالذكر طيبة ... هذا ومحبوبهم في القلب ما برحا
محمد أحمد المختار من مضر ... أزكى الخلائق جمعاً أفصح الفصحا
صلى عليه إلـه العرش ثم على ... أهليه والصحب نعم السادة النصحا

[وروي أن ﷺ] قال : « لن يلج النار من صلى عليّ » . وروي أنه ﷺ قال : « من صلى عليّ مئة مرة تزحزحت النار عنه مئة عام » . وروي أنه ﷺ قال : « أكثركم عليّ صلاة أكثركم في الجنة أزواجاً » وروى عبد الرحمن بن عوف ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى يا محمد من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه » :

سلام على نور هدينا بنوره ... وعزّ سمواً قدره عن مناله
سلام على من لم أذق صد بعده ... ولم أرتقب في النوم طيف خياله
سلام على من عمنا لطف فضله ... ولم نخل من إكماله وجماله
عليه سلام الله ما ذر شارق ... وما لاح برق مخبراً عن وصاله

[وروي أنه ﷺ] قال : « إن العبد ليسأل الحاجة ولا يصلي عليّ عقيب سؤاله فترفع الحاجة على سحابة فإذا صلى عليّ قضيت حاجته واستجيبت دعوته وفتحت له أبواب

السماء » . وروي أنه ﷺ قال : « من صلى عليّ صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه عمل ثلاثة أيام » . وروي « أنه إذا كان يوم القيامة وضعت حسنات المؤمن وسيئاته فتنزل صحائف من عند الله عز وجل بيض على حسناته فترجح حسناته على سيئاته فيقول الله عز وجل هذه صلاتك على محمد ثقلت بها ميزانك وجعلتها لك ذخيرة » :

لأحمد فضل لا يحدّ ولا يحصى — وليس له في الدهر حد فيستقصى
فمن كان مثلي مذنباً ومقصراً — فجاه رسول اله قد جبر النقصا
فيا فوز من صلى عليه من الورى — فذاك بتثقيل لميزانه خصا
هو القرشي الهاشمي الذي سرى — من المسجد الأسنى إلى المسجد الأقصى
نبيّ دنا من قاب قوسين مذ دنا — فسبحان من وصى إليه بما وصى
عليه صلاة لا انتهاء لوصفها — من الله ربي لا تعد ولا تحصى

[وروى] جابر بن عبد الله ﷺ . قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح وأمسى وقال : اللهم يا رب محمد وآل محمد صلّ على محمد وآل محمد واجز محمداً ﷺ ما هو أهله أتعب كاتبيه ألف صباح ولم يبق لنبيه محمد ﷺ حق إلا أدّاه إياه وغفر له ولوالديه وحشر مع محمد وآل محمد » . وعن وهب بن منبه ﷺ أنه قال : لما خلق الله تعالى آدم ﷺ ونفخ فيه من روحه فتح عينيه فنظر إلى باب الجنة فرأى عليه مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقال : أي رب هل تخلق خلقاً هو أعز عليك مني ؟ فقال : نعم نبياً من ذريتك ، فلما خلق الله تعالى له حوّاء وركب فيه الشهوة قال : يا رب زوجني بها ؟ قال الله تعالى : أدّ مهرها ، قال رب : وما مهرها ؟ قال : أن تصلي على صاحب هذا الاسم مئة مرة ، قال : إن فعلت تزوجنيها ، قال : نعم فصلى آدم على النبي ﷺ مئة مرة فكان ذلك مهرها فزوجه الله تعالى بها :

أنت الذي صلى عليك الله يا — خير الورى في ذكره وكذا قرى
وأبوك آدم إذا رأى حوا وقد — زينت بأنواع الحلى والجوهر
صلى عليك فكان ذلك مهرها — والحور بين مهلل ومكبر
أنت الذي حقاً عليه سلمت — وحش الفلا في كل بر مقفر
صلى عليك الله يا خير الورى — ما ناح قمري بغصن أخضر

[وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما] قال : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فأناخ ناقته على باب المسجد ، ثم دخل فقعد بإزاء رسول الله ﷺ ، فلما قضى أربه وأراد أن يقوم قال

أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله الناقة التي مع الأعرابي مسروقة فالتفت النبي ﷺ إليه ، ثم قال له : ما تقول ؟ فأطرق رأسه وجعل يضرب الأرض بسبابته فأنطق الله تعالى الناقة من وراء الباب . فقالت : يا رسول الله والذي بعثك بالحق بشيراً ونذيراً ما سرقني هذا الرجل ، وإنما سرقني غيره وإن هذا ابتاعني بماله وإنه لبريء غير آثم . فقال النبي ﷺ للأعرابي : بالذي أنطقها ببراءتك ما قلت حين أطرقت برأسك وضربت الأرض بسبابتك ؟ فقال : يا رسول الله قلت : اللهم لست بربّ استحدثناك ولا معك شريك في ملكك أعانك على خلقنا ، أنت كما تقول وفوق ما نقول أسألك يا رب أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وتبرئني ببراءة مما أنا فيه . فقال النبي ﷺ : والذي بعثني بالحق لقد رأيت الملائكة ازدحموا على أفواه السكك يكتبون مقالتك ، فمن أصابه مثل ما أصابك فقال مثل مقالتك برأه الله تعالى مما نزل به » .

هذا النبي محمد خير الورى   ونبيهم وبه تشرف آدم
وله البها و له الحياء بوجهه   كل السنا من نوره يتقسم
هو في المدينة ثاوياً بضريحه   حقاً ويسمع من عليه يسلم
وإذا توسل مستضام باسمه   زال الذي من أجله يتوهم
يا فوز من صلى عليه فإنه   في جنة المأوى غداً يتنعم
صلى عليه الله جل جلاله   ما راح حاد باسمه يترنم

[وروي] أن أصحاب الحديث يأتون يوم القيامة بمحابرهم ، فيقول الله تبارك وتعالى لجبريل : يا جبريل اقض حوائجهم فإنهم كانوا يصلون كثيراً على النبي ﷺ في الدنيا فخذ بأيديهم وأدخلهم الجنة . وقال بعض الصوفية : كان لي جار مسرف على نفسه ، فلما مات رأيته في المنام وهو في دار السلام . فقلت له : بم نلت هذه المنزلة ؟ قال : حضرت مجلس الذكر فسمعت المحدث يروي عن رسول الله ﷺ أنه من صلى عليه ورفع صوته بها وجبت له الجنة فرفع المحدث صوته بالصلاة على النبي ﷺ ورفعت صوتي معه وجميع القوم فغفر لنا في ذلك اليوم . وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « أتاني جبريل عليه السلام يوماً ، فقال لي : يا محمد قد جئتك ببشارة لم آت بها أحداً قبلك ولا بعدك وهي أن الله تعالى يقول لك من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات غفر له إن كان قائماً قبل أن يقعد وإن كان قاعداً قبل أن يقوم فعندها خرّ النبي ﷺ ساجداً لله تعالى شكراً على ذلك » .

ألا يا رسول الله يا خير مرسل   عليك صلاة الله لا تتناهى

فيا فوز من صلى عليك من الورى صلاة يعم الكون منك سناها
عليك صلاة الله يا أشرف الورى محلاً ويا أعلى البرية جاها
عليك صلاة الله ما سار راكب إلى طيبة بالذكر طاب رباها
عليك صلاة الله ماهبت الصبا وفاح بعرف المسك طيب شذاها

[وروي] أن امرأة رأت ولدها بعد الموت يعذب فحزنت لذلك وبكت ، ثم رأته بعد ذلك وهو في النور والرحمة فسألته عن ذلك ؟ فقال : مرّ رجل بالمقبرة فصلى على النبي ﷺ وأهدى ثوابها للأموات فحصل نصيبي من ذلك المغفرة فغفر لي . وقال بعض العارفين : صليت ليلة ، فلما جلست للتشهد نسيت الصلاة على النبي ﷺ فغلبتني عيناي فنمت فرأيت النبي ﷺ فقال لي : نسيتنا من الصلاة علينا . فقلت : يا رسول الله اشتغلت بالثناء على الله عز وجل . فقال : أما علمت أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل الثناء عليه إلا بالصلاة عليّ ولا يجاب الدعاء إلا بالصلاة عليّ ولا تقضى الحاجات إلا بالصلاة عليّ ، ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ :

صلوا على من أتت حقاً بشائره الهاشمي الذي طابت عناصره
هو الرسول الذي عاشت رسالته في الخلق طراً وقد عمت مآثره
هو النبي الذي تأتي الملوك له على الرؤوس فتأتيهم مفاخره
هو الطبيب لداء الناس كلهم يشفي السقيم وللمكسور جابره
صلى عليه إلّه العرش ما طلعت شمس ومن ناح فوق الغصن طائره

[قال سفيان الثوري ﷺ] : بينما أنا في الطواف إذا رأيت رجلاً لا يرفع قدماً ولا يضع قدماً ، إلا وهو يصلي على النبي ﷺ فقلت : يا هذا إنك قد تركت التسبيح والتهليل وأقبلت بالصلاة على النبي ﷺ فهل عندك في هذا شيء ؟ فقال : من أنت عافاك الله ؟ فقلت : أنا سفيان الثوري ، فقال : لولا أنك غريب في أهل زمانك لما أخبرتك عن حالي ولا أطلعتك على سري ثم قال : خرجت أنا ووالدي حاجين إلى بيت الله الحرام ، حتى إذا كان في بعض المنازل مرض والدي فقمت لأعالجه . فبينما أنا عند رأسه إذ مات واسودّ وجهه فقلت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ : [لبقرة : ١٥٦] . مات والدي واسود وجهه فجذبت الإزار على وجهه فغلبتني عيناي فنمت ، فإذا أنا برجل لم أر أجمل منه وجهاً ، ولا أنظف ثوباً ولا أطيب ريحاً ، يرفع قدماً ويضع أخرى حتى دنا من والدي فكشف الإزار عن وجهه ومرّ بيده على وجهه فعاد وجهه أبيض : ثم ولى

راجعاً فتعلقت بثوبه وقلت : من أنت يرحمك الله ، فقد منّ الله بك على والدي في دار الغربة . قال : أو ما تعرفني ؟ أنا محمد بن عبد الله صاحب القرآن . أما إن والدك كان مسرفاً على نفسه ، ولكن كان يكثر الصلاة عليّ فلما نزل به ما نزل استغاث بي ، وأنا غياث من أكثر الصلاة عليّ ، فانتبهت فإذا وجهه أبيض .

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم ... يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
شفع نبيك في ذلي ومسكنتي ... واستر فإنك ذو فضل وذو كرم
واغفر ذنوبي وسامحني بها كرماً ... تفضلاً منك يا ذا الفضل والنعم
إن لم تغثني بعفو منك يا أملي ... واخجلتي واحيائي منك واندمي
وقد وعدت بأن ندعو تجيب لنا ... وقد دعونا فجد بالعفو والكرم

[إخواني] أكثروا من الصلاة على هذا النبي الكريم ، فإن الصلاة عليه تكفر الذنب العظيم وتهدي إلى الصراط المستقيم ، وتقي قائلها عذاب الجحيم ، ويحظى في الجنة بالنعيم المقيم ، وقد قيل في بعض الروايات : إن للمصلين على سيد المرسلين عشر كرامات : إحداهن صلاة الملك الغفار ، الثانية شفاعة النبي المختار ، الثالثة الاقتداء بالملائكة الأبرار ، الرابعة مخالفة المنافقين والكفار ، الخامسة محو الخطايا والأوزار ، السادسة قضاء الحوائج والأوطار ، السابعة تنوير الظواهر والأسرار ، الثامنة النجاة من النار ، التاسعة دخول دار القرار ، العاشرة سلام العزيز الجبار :

يا رب صل على الهادي البشير ومن ... له الشفاعة في العاصي أخي الندم
يا رب صل على المختار من مضر ... أزكى الخلائق من عرب ومن عجم
يا رب صل على خير الأنام ومن ... ساد القبائل في الأنساب والشيم
يا رب صل على مولى شفاعته ... لك هول من الأهوال مقتحم
صلى عليه الذي أعطاه منزلة ... علياء إذ كان حقاً أفضل الأمم
صلى عليه الذي أسرى به فرقى ... لقاب قوسين لم يدرك ولم يرم
صلى عليه الذي أعلاه مرتبة ... ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم
صلى عليه صلاة لا انقطاع لها ... مولاه ثم على صحب وذي رحم

اللهم صل على سيدنا محمد الذي شرفته على سائر الأنام ، ورفعته إلى أشرف محل ومقام ، وجعلته هادياً إلى دين الإسلام ، ودليلاً إلى دار السلام ، اللهم فكما أمرتنا بالصلاة عليه فبلغ

اللهم صلاتنا منا عليه هادياً إليه يا رب العالمين ، اللهم احشرنا في زمرته ، واجعلنا ممن فاز بمتابعته ، وائتمر بشريعته واهتدى بسنته ، واقتدى بصحابته . اللهم أوردنا حوضه ، وأرنا وجهه ولا تحرمنا شفاعته ، واجتمع بيننا وبينه ، في مستقرّ الرحمة والرضوان ، ودار السلام برحمتك يا ذا الجلال والإكرام .

المجلس الخامس والخمسون

في فضل قول : لا إله إلا الله ، جعلنا الله وإياكم من أهلها وتقبل منّا ومنكم قولها

الحمد لله الذي لا يعلم ما هو إلا هو ، ولا يغفر الذنوب ويستر العيوب إلا هو ، ولا يكشف الكروب ويجبر القلوب إلا هو ، جل عن النظائر والأشباه ، وتقدّس عن الالتباس والاشتباه ، وهو الله لا إلّه إلا هو ، فهو المحمود الذي لا يحمد على المكاره إلا هو ، المشكور الذي لا يشكر على السراء والضراء إلا هو ، الكريم المقصود الذي لا يعرف بالكرم والجود إلا هو ، الرحيم الودود الذي لا يقصد بالركوع والسجود إلا هو ، القديم الذات البديع الصفات الذي لا يدعى لكشف الكربات إلا هو ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ : [الأنعام : ١٧] . إليه أمركم وعليه رزقكم وهو حسبكم ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : [الأنعام : ١٠٢] لانت لعظمته الجلامد ، وقامت على وحدانيته الشواهد ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : [لبقرة : ١٦٣] . كيف ينكر وجوده أهل الطغيان والغي وهو الحي الذي لا إلّه إلا هو ، كيف تجحد وحدانيته ، أم كيف تنكر فردانيته ، وقد ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : [آل عمران :١٨] . قدر بحكمته الأشياء ، وخلق بقدرته الظلام والضياء ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : [آل عمران : ٦] . ساتر العيب وراحم الشيب ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ : [الأنعام : ٥٩] . كيف لا يجود بالمتاب لمن أناب وهو ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ :

[غافر :٣] . فاضرب أيها الموحد بسيف التنزيه رقاب أهل التشبيه ، واحذر بأن تفوه بمثل ما فاهوا ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : [التوبة : ١٢٩] . الأولياء في حذر من مكره لا يغفلون عن خدمته ولا يفترون عن ذكره ، والكافرون عسر عليهم ذلك وشق ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ﴾ : [لمؤمنون : ١١٦] . فلا يغرنك يا هذا شيطانك الغرور ولا تركن إلى الجاحد الكفور ، ولا تتكاثر بدنياك وتتفاخر ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : [القصص : ٨٨] .

الله ربي لا أريد سواه	هل في الوجود حقيقة إلا هو
يا من له وجب الكمال بذاته	فالكل غاية فوزهم لقياه
أنت الذي لما تعالى جدّه	قصرت خطا الألباب دون سناه
أنت الذي امتلأ الوجود بحمده	لما اغتدى ملآن من نعماه
سبحان من خرق الحجاب لعبده	وهداه منهج قصده فرآه
سبحان من ملأ الوجود أدلة	ليلوح ما أخفى بما أبداه
سبحان من ظهر الجميع بنوره	فبه يرى الأشياء من صافاه
سبحان من أحيا قلوب عباده	بلوائح من فيض نور هداه
فالعارفون مشاهدون لصنعه	مستغرقون بذكرهم إياه
مولاي أنسك لم يدع لي وحشة	إلا محا ظلماتها بسناه
مولاي أنت الواحد الفرد الذي	ملأ الوجود صفاته وهداه
عجز الأنام عن امتداحك إنه	تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذي	بهر العقول فحسبه وكفاه
وإذا أردت بأن تفوز وترتقي	درج العلا وتنال منه رضاه
أدم الصلاة على محمد الذي	لولاه ما فتح المكبر فاه
و له الوسيلة واللواء وكوثر	يروي الورى وكذا يكون الجاه
صلى عليه الله ما سرت الصبا	وتعطرت بمديحه الأفواه

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ : [آل عمران : ١٨-١٩] . قال سعيد بن

جبير : كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً فلما نزلت : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : [آل عمران : ١٨] . الآية خرّت ساجدة ، وعن ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب ، وصنعه المتقن الغريب ، وأموره المحكمة ـ لنفسه عند خلقه أنه لا إلـه إلا هو . وعن غالب القطان قال : أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه فلما كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة ، فقام يتهجد من الليل فمرّ بهذه الآية : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، ثم قال : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وهي لي عند الله وديعة ، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ : [ل عمران : ١٩] قالها مراراً . فقلت في نفسي : لقد سمع فيها شيئاً فصليت معه وودعته . ثم قلت له : سمعتك تردد هذه الآية ، فما بلغك فيها ؟ . قال : والله لا أحدثك إلى سنة ، فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة فلما مضت السنة قلت له : يا أبا محمد ، قد مضت السنة . فقال : حدثني أبو وائل عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : يجاء بصاحبها يوم القيامة ، فيقول الله تعالى : إن لعبدي هذا عندي عهداً ، وأنا أحق من وفى بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة ، وقيل : إن من قرأ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ الآية . عند منامه خلق الله تعالى منها ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة :

ما في الوجود سواك ربٌّ يعبد ... كلا ولا مولى سواك فيقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... ذلاً وكل الكائنات توحد
أنت الإلـه الواحد الفرد الذي ... كل القلوب له تقر وتشهد
يا من تفرّد بالبهاء وبالسنا ... في عزّه و له البقاء السرمد
يا من له وجب الكمال بذاته ... فلذاك تشقي من تشاء وتسعد

[وقال ابن عباس رضي الله عنهما] في قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ : [غافر : ٣] ؟ يعني لمن يقول لا إلـه إلا الله ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ : [غافر : ٣] لمن يقول لا إلـه إلا الله ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ : [غافر : ٣] لمن لم يقل لا إلـه إلا الله . وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ : [مريم : ٨٧] قال ابن عباس : العهد شهادة أن لا إلـه إلا الله . وقال تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ : [الفتح : ٢٦] . قال عليّ ﷺ : كلمة التقوى قول لا إلـه إلا الله . وقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ : [فاطر : ١٠] أي قول لا إلـه إلا الله . وقال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ : [الأنعام : ١٦٠] . أي من جاء بقول لا إلـه إلا الله .

وقال بعض أهل العلم : قول لا إلـه إلا الله حرز منيع وحصن حصين ، فمن قال لا إلـه إلا الله تحصن من كل سوء لقوله ﷺ : « مجدوا ربكم يقول لا إلـه إلا الله فإن الله تبارك وتعالى يقول هي حصني ، ومن دخل حصني أمن عذابي » . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لو يعلم المذنبونَ ما في قول : لا إلـه إلا الله لأكثروا من ذكرها فإن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ولا إلـه إلا الله أربعة وعشرون حرفاً كل حرف منها يكفر ذنوب ساعة . وقيل : إن العبد إذا قال لا إلـه إلا الله في ساعة من نهار أو ليل طاش ما في صحفيته من الذنوب والخطايا حتى تسكن إلى أمثالها من الحسنات . وقال رسول الله ﷺ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إلـه إلا الله » ، وقال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـه إلا الله » .

[وعن أبي هريرة ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل لا إلـه إلا الله وحشة في قبورهم ولا في بعثهم ولا في نشورهم ، وكأني بهم وقد خرجوا من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ، وهم يقولون : لا إلـه إلا الله حتى يدخلوا الجنة ، فيقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » ، وسئل رسول الله ﷺ : « أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى » ، وقال رسول الله ﷺ : « يقول الله تبارك وتعالى لملائكته قربوا مني أهل لا إلـه إلا الله فإني أحبهم » .

[إخواني] إن أهل التوحيد في مقعد صدق عند مليك مقتدر سبقت محبته لهم قبل خلقهم وطاعتهم له قبل إيجادهم فصاروا أولياء بالموهبة القديمة ، لا جرم جاء مدحهم في الآيات الكريمة المبينة المكنونة ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ : [المائدة : ٥٤] .

نالوا مرادهمو بحب حبيبهم وتمتعوا بدنوّه ووصاله
وعليهم ظهر الجمال لأنهم بقلوبهم نظروا لحسن جماله
وبه قد اشتغلوا ويا طوبى لمن قد أصبح المحبوب من أشغاله

[وقال رسول الله ﷺ] : « لقنوا موتاكم لا إلـه إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدماً » وقال ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إلـه إلا الله دخل الجنة » ، وعن الصنابحي رحمه الله قال : دخلت على عبادة بن الصامت رحمه الله وهو في النزع فبكيت ، فقال : مهلاً لم تبكي فوالله لئن استشهدت لأشهدنّ لك ولئن استشفعت لأشفعن لك ولئن استطعت لأنفعنك ، ثم قال : والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدّثتكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحدّثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شهد أن لا إلـه إلا

الله وأني رسول الله حرم الله عليه النار » . وعن أبي الأسود الدؤلي أن أبا ذر ﷺ حدثه أنه قال : « أتيت النبي ﷺ وهو نائم وعليه ثوب أبيض ثم أتيته ثانياً فإذا هو نائم ، ثم أتيته ثالثاً وقد استيقظ فجلست إليه ، فقال : ما من عبد قال لا إلّه إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : وإن زنى وإن سرق ثلاثاً ، ثم قال في الرابعة على رغم أنف أبي ذرّ ، فخرج أبو ذر وهو يقول على رغم أنف أبي ذر » . وعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « من دخل السوق وقال لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ دائم لا يموت بيده الخير وإليه المصير وهو على كل شيء قدير ورفع بها صوته كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة » رواه الترمذي رحمه الله فلما سمع قتيبة بن مسلم بهذا الحديث كان يركب كل يوم في موكبه وهو يومئذٍ أمير ويأتي السوق فيقول هذا الحديث ثم يرجع :

تهتك ولا تخش في الحب عاراً ... وإياك وإياك تبدي استتارا
ونزه حبيبك عن مشبه ... وعطر بذكراه ربعاً ودارا
وبح باسمه ثم صرح وقل ... حبيبي يا قوم يهدي الحيارى
وجهراً فوحده بين الملا ... ليعطيك منه أجوراً غزارا

[إخواني] انظروا إلى فعل هؤلاء الموحدين كيف لا يمنعهم الحياء عن إشهار ذكر رب العالمين ولا يستنكفون عن تنزيه الحق بين سائر المخلوقين ، وقد قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ : [البقرة : ١٥٢] .

[وعن أبي هريرة ﷺ] أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ؛ وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاّ رجل عمل أكثر منه » رواه البخاري ومسلم رحمهما الله . وعن أبي هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « من قال : لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل » رواه البخاري ومسلم رحمهما الله . وقال رسول الله ﷺ : « لقنوا موتاكم لا إلّه إلا الله وبشروهم بالجنة فإن الحكيم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع » فانظروا

رحمكم الله إلى كلمة الإخلاص ما أعظم شأنها وما أرفع عند الله مكانها فأكثروا من ذكرها لتنالوا جزيل أجرها ، فبها يحصل الثواب الكامل والأجر الوافر وبقولها يتميز المؤمن من الكافر وما من عبد يسمع المؤذن فيقول : مثل ما يقول فإذا قال : لا إلّه إلا الله قال لا إلّه إلا الله ومسح وجهه بيديه تبركاً بها ومر بهما على لحيته إلا كتب الله تعالى له بكل شعرة أصابتها يده حسنة وحط عنها بها السيئة » . وقال بعض الصحابة ﷺ : من قال لا إلّه إلا الله ومد بها صوته تعظيماً لها غفر الله له أربعة آلاف ذنب ، قيل : فإن لم يكن له أربعة آلاف ذنب ، قال : يغفر من ذنوب أهله وجيرانه . وقيل : يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مدّ البصر فيه خطاياه وذنوبه فتوضع في الميزان ثم يخرج قرطاس مثل الأنملة فيه شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فتوضع في الكفة الأخرى فترجح على خطاياه وذنوبه ويسامحه الله تعالى ويأمر به إلى الجنة كل ذلك بفضل قوله لا إلّه إلا الله ، وفضل لا إلّه إلا الله كثير لا يحصى ، وعظيم لا يستقصى ، وينشد لمؤلفه :

الكل في بحر حبه تاهوا ... وقد تفانوا في سر معناه
وصححوا العقد مخلصين له ... بقولهم لا إلّه إلا هو
يا معشر الذاكرين كلكم ... قولوا معي لا إلّه إلا هو
وراقبوا من يعمكم كرماً ... بفضله لا إلّه إلا هو
فالكون قد فاح نشره عبقاً ... سبحان من لا إلّه إلا هو
والعرش تسبيحه له أبداً ... بذكره لا إلّه إلا هو
وكل ما في السماء من ملك ... تسبيحه لا إلّه إلا هو
وكل ما الجبال من عظم ... تسبيحه لا إلّه إلا هو
وكل ما في الرياض من شجر ... تسبيحه لا إلّه إلا هو
وكل ما في البحار من سمك ... تسبيحه لا إلّه إلا هو
وكل ما في الوجود من بشر ... تسبيحه لا إلّه إلا هو
وكل ما في الزمان من عجب ... أعجبه لا إلّه إلا هو
وكل شيء تراه من حسن ... أحسنه لا إلّه إلا هو
وكل شيء يلوح من ملح ... زينته لا إلّه إلا هو
وكل أهل العلوم قد علموا ... بأنه لا إلّه إلا هو

وكل أهل العقول قد فهموا   بأنه لا إلـه إلا هو

والإنس والجن كلهم شهدوا   بأنه لا إلـه إلا هو

والرعد والبرق إذ يسبحه   فقوله لا إلـه إلا هو

وكل من ضل عن طريق هدى   دليله لا إلـه إلا هو

وكل من يشتكي أذى سقم   شفاؤه لا إلـه إلا هو

ومن أتاه بالذل مفتقراً   غناؤه لا إلـه إلا هو

ومن أتى بائساً ومنكسراً   فجبره لا إلـه إلا هو

يا غارقاً في بحر غفلته   انهض وقل لا إلـه إلا هو

تعصيه جهراً وحلمه كرماً   يستره لا إلـه إلا هو

يا قوم لا تغفلوا بجهلكم   عن ذكره لا إلـه إلا هو

كيف تنام العيون عن ملك   سبحانه لا إلـه إلا هو

تنسوه في الليل والنهار ولا   ينساكمو لا إلـه إلا هو

هو الإلـه العظيم قدرته   سبحانه لا إلـه إلا هو

يا فوز من مات وهو معتقد   يشهد أن لا إلـه إلا هو

سبحانه ما أعمّ رحمته   لمذنب تاب من خطاياه

وها أنا مذنب عصيت وقد   كان الذي كان حسبي الله

قد ضاع عمري وليس لي عمل   في يوم حشر يرضى به الله

قد أتاني المشيب ينذرني   بقرب موتي وما سألقاه

من كان مثلي في المذنبين أسا   يبكي على ذنبه وينعاه

من كان مثلي قد شاب وهو على   قبيح ما لا يحبه الله

من كان مثلي يأتي الذنوب ولا   يخاف مما جنى ويخشاه

يأتي إلى الله وهو معتذر   عساه يمحو له خطاياه

يا من عصى الله وهو ينظره   في الذنب إذ لا يخاف عقباه

إن كنت مثلي مقصراً وجلا   من قبح ذنب في الحشر تلقاه

فلذ بجاه الشفيع أفضل من   يشفع في الحشر عند مولاه

محمد المصطفى الرسول ومن   شرفه الله ثم نباه

صلى عليه الإله خالقه ما سار سار وطاب مسراه

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه وسلم .

المجلس السادس والخمسون

في سعة رحمة الله تعالى ، غمرنا الله وإياكم والمسلمين برحمته ، وعاملنا بلطفه ورأفته

الحمد لله الرحيم الذي يرحم من عباده الرحما ، الكريم الذي يسبل على المعاصي ذيل حلمه جوداً وكرماً ، الحليم الذي يرى المذنب ويستره إذا أبدى على ذلته حسرة وتندماً ، العليم الذي يعلم ما في الضمائر ويطلع على السرائر ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، العظيم الذي لا يتعاظمه ذنب إلا غفره ولا يرى عيباً إلا ستره فضلاً منه ونعماً ، سبقت رحمته غضبه ، وقد قال تعالى لينقذ المؤمنين من العصيان والغيّ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . فغفر زللاً ومأثماً ، من لجأ إلى حمى جنابه ، ومن تاب إليه نجاه ومن توكل عليه كفاه هماً وغماً وألماً ؛ فيا معشر التائبين أبشروا بالصيانة والعصمة واشكروه على هذه النعمة فقد كتب ربكم على نفسه الرحمة وأجرى لكم بالسعادة قلماً ، فالعارفون قد نشر لهم بنيل المقصود في الوجود علماً ، والمحبون قد أباحهم في الجنة النظر إليه وسقاهم بكؤوس أنسه فأضحوا لحضرة قدسه ندماً ، والخائفون قد لزموا له ذلاً وخضوعاً وأبدوا على ما أسلفوا بكاء وخشوعاً فأخرج لهم توقيع ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] . فألبسهم من الأمان بالغفران تاجاً معلماً فيا من أيامه في الغفلة ضائعة ، وصحائفه لزلاته جامعة ، أقبل على مولاك بنية خالصة ونفس طائعة فقد قال تعالى لنبيه صاحب الشفاعة الشائعة : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٧] . فكم غفر ذنباً ، وكم جبر قلباً ، وكم قبل متندماً ؟ :

قل للذي ألف الذنوب وأجرما وغدا على زلاته متندما

لا تيأسنّ من الجميل فعندنا فضل بنيل التائبين تكرّما
يا معشر العاصين جودي واسع توبوا ودونكم المنى والمغنما
لا تختشوا من قبح ذنب سالف إني أحب بأن أجود وأرحما
ها قد أبحتكمو جنابي فادخلوا بالأمن فهو لمن أتى بابي حمى
يا أيها العبد المسيء إلى متى تفنى زمانك في عسى ولربما
بادر إلى مولاك يا من عمره قد ضاع في عصيانه وتصرما
واسأله عفواً ثم لذ متوسلاً بمحمد جالي الضلالة والعمى
خير الأنام الهاشمي المجتبى والمرتضى وهو الكريم المنتمى
أزكى البرية عنصراً وأجلّ من قد خص بالتقريب من رب السما
صلى عليه الله ما سرت الصبا وشدا الهزاز على الربا وترنما
وعلى الصحابة والقرابة بعده ما سبح الداعي الإله وعظما

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ : [الزمر : ٥٣] . خاطب الله سبحانه وتعالى عباده المسرفين على أنفسهم بالمخالفة وبما اكتسبوا من الذنوب والعصيان ، وبما اقترفوا من الفسق والطغيان ، فظنوا أنهم لا يغفر لهم وقنطوا من رحمة الله عزّ وجلّ ، فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ : [الزمر : ٥٣] . يعني لا تيأسوا من عفو الله وكرمه ومغفرته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ لمن أناب وتاب نم ذنبه ورجع عن ظلمه ، واستغفر من قبح فعله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الغفور لمن تاب وندم على ما فعل من الذنوب ، الرحيم لمن رجع عن الأفعال المذمومة إلى الأفعال المحمودة . وروى عقيل بن أحمد بإسناده عن ابن سيرين قال : قال علي ﷺ : ما في القرآن آية أوسع من قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، وروى عبد الله بن حامد بإسناده عن أسماء بنت يزيد قالت : « سمعت رسول الله ﷺ يقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا يبالي » ، وفي مصحف عبد الله : { } وروى الأعمش عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنود قال : دخل عبد الله بن مسعود إلى المسجد فإذا واعظ يعظ الناس وهو يذكر النار والأغلال فجاء حتى قام على رأسه ، فقال : يا مذكر لم تقنط الناس ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، وروى ابن

فتحويه بإسناده عن يزيد بن أسلم أن رجلاً كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة فيشدد على نفسه ويقنط الناس من رحمة الله تعالى ، فلما مات رؤي في المنام وهو بين يدي الله تعالى ، وقد قال : يا رب مالي عندك قال : النار ، قال : يا رب فأين عبادتي واجتهادي ؟ فقال له : إن كنت تقنط الناس من رحمتي في الدنيا ، وأنا اليوم أقنطك من رحمتي :

لا تقنطن فإن الله منان وعنده للورى عفو وغفران
إن كان عندك إهمال ومعصية فعند ربك إفضال وإحسان

يا هذا لو أراد الله سبحانه وتعالى أن يقنطك من المسامحة بين يديه لما أحالك في مغفرة الذنوب عليه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ :[آل عمران : ١٣٥] . ثم قال سبحانه وتعالى لما رأى عفوه وسيعاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ . وروى عبد الله بن حامد محمد الأصفهاني بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « بعث رسول الله ﷺ إلى وحشيّ يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه يقول : يا محمد كيف تدعوني إلى الإسلام وأنت تزعم أنه من قتل نفساً أو أشرك أو زنى يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً وإني قد فعلت ذلك كله فهل تجد لي رخصة ؟ فأنزل الله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] الآية فبعث بها إلى وحشيّ وأصحابه ، فقال وحشيّ : هذا شرط شديد لعلي لا أقدر عليه فهل غير ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ : [النساء : ٤٨] فبعث بها إلى وحشيّ ، فقال : أراني بعد في شبهة فلا أدري يغفر لي أم لا فهل غير ذلك ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] . فبعث بها إلى وحشيّ وأصحابه ، فقال وحشيّ : نعم هذه فجاء فأسلم هو وأصحابه ، فقال المسلمون : يا رسول الله هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ فقال : بل للمسلمين عامة » :

إن كان ذنبك قد خيفت عواقبه فما سجدت لطاغوت ولا وثن
أو كنت ذا سيئات جلّ موقعها فإن ربك ذو فضل وذو منن
إن لم يكن عفوه للمذنبين غدا فعفوه ليت شعري بعد ذاك لمن

[إخواني] لو أراد الله تعالى عقوبة المؤمن في جهنم وتخليده لما ألهمه معرفته وتوحيده وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ : [الليل : ١٦ ـ ١٥] .

يا من أسرف فيما مضى ثم اعترف كن محسناً فيما بقي تعط الشرف

وابشـــر بقـــول الله في تنزيلـــه | إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

[وقال قتادة] : ذكر لنا أن الناس أصابوا ذنوباً عظاماً في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أشفقوا وخافوا أن لا يتاب عليهم فدعاهم الله سبحانه وتعالى بهذه الآية ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ : الآية . وعن أبي هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم » ، رواه ابن ماجه رحمه الله ، وروى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال : « يقول الله تبارك وتعالى : يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم » . وعن أبي موسى الأشعري ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ، رواه مسلم رحمه الله ، وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » رواه مسلم رحمه الله . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا بْن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي . يا بْن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » :

واخجلة العبد من إحسان سيده | واحسرة القلب من ألطاف معناه
وكم له من أياد غير واحدة | علي لطفاً لعلمي أنه الله
وكم عكفت على العصيان مستتراً | مما سواه وما في الكون إلا هو
يولي الجميل ويبدي الفضل مبتدئاً | لا كان في الناس عبد ليس يرعاه
يا نفس كم بخفيّ اللطف عاملني | وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس كم زلت بها قدمي | وما أقال عثاري ثم إلا هو

[وروى أبو موسى الأشعري ﷺ] عن النبي ﷺ لأنه قال : « أمتي أمة مرحومة عجل عقابها في الدنيا بالزلازل والفتن ، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب ، فقيل هذا فداؤك من النار » ، وقال ﷺ : « يتجلى الله تبارك وتعالى لنا يوم القيامة ضاحكاً يقول : أبشروا يا معشر المسلمين فإنه ليس أحد منكم إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً » ، وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام في ورقة آس ، ثم وضعها على

العرش ، ثم نادى : يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي ، أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم من قبل أن تستغفروني ، من لقيني منكم وهو يشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً عبدي ورسوله أدخلته الجنة » .

[روي عن النبي ﷺ] أنه قال : « إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من تحت العرش : يا أمة محمد ! أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم ، وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي » .

[وعن الحسن ﷺ] قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تعالى مئة رحمة أهبط منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا فوسعتهم إلى آجالهم ، وإن الله تعالى قابض تلك الرحمة إلى يوم القيامة فيضيفها إلى التسعة والتسعين فيكملها مائة رحمة لأوليائه وأهل طاعته » .

[وروي عن عمر ﷺ] : « أنه دخل على النبي ﷺ فوجده يبكي . فقال : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : جاءني جبريل ﷺ ، وقال لي : إن الله تعالى يستحي أن يعذب أحداً قد شاب في الإسلام ، فكيف لا يستحي من شاب في الإسلام أن يعصي الله تعالى » . وحدثنا هارون بن محمد عن أحمد بن سهل ﷺ قال : رأيت يحيى بن أكثم في المنام فقلت: يا يحيى ما فعل الله بك ؟ قال : دعاني . فقال لي : يا شيخ السوء فعلت وفعلت ، فقلت : ما هكذا حدثت عنك ، قال : فبم حدثت عني ؟ قلت : حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ عن جبريل ﷺ عنك يا رب أنك قلت : « إني لأستحي أن أعذب شيبة شابت في الإسلام ، وأنا شيخ كبير . فقال الله تبارك وتعالى : صدق عبد الرزاق وصدق معمر وصدق الزهري وصدق عروة وصدقت عائشة وصدق النبي وصدق جبريل وصدقت أنا ثم أمر بي ذات اليمين إلى الجنة » :

أستغفر الله مما كان من زللي ... ومن ذنوبي وتفريطي وإصراري
يا رب هب ذنوبي يا كريم فقد ... أمسكت حبل الرجا يا خير غفار
إن الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم أعتقوهم عتق أحرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرما ... قد شبت في الذنبا فأعتقني من النار
وقد روى عنك خير الخلق من مضر ... المصطفى المجتبى من خير أطهار
بأنك الله رب العرش قلت لنا ... وقولك الحق في نقل وأخبار
أنا الذي من أتاني ليس يشرك بي ... أغفر له ما جنى من قبح أوزاري
وإنني شبت في الإسلام يا أملي ... فاغفر ذنوبي واسبل حسن أستار

وخرّج مسلم من حديث سلمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ، فإذا كان يوم القيامة ردّ الله تعالى هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين فأكملها إلى مائة رحمة فيرحم بها عباده يوم القيامة » .

[إخواني] لا رحيم أرحم من الله ، ولا كريم أكرم من الله فاشكروه على هذه النعمة :

جلّ رب أمضى على الخلق حكمه ... وله في قضائه كل حكمه
قسم السعد والشقاء فطوبى ... للذي كانت السعادة قسمه
كم له رحمة على الخلق عمت ... كم له في المعاد أشمل رحمه
عفوه واسع لمن قد أتاه ... بمتاب وعنه كفر إثمه
كل من جاء تائبا قبل التو ... بة منه وكان أهلاً لنقمه
عظموا شأنه فقد فاز عبد ... عن صفات الأنام قدس اسمه
وارحموا ترحموا فطوبى لعبد ... أسكن الله قلبه منه رحمه

وقال ﷺ في آخر حديث يصف فيه القيامة والصراط : « إن الله تبارك وتعالى يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقول ربنا : لم نر فيها أحداً ممن أمرتنا ، فيقول الله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ : [الأعراف : ١٥٦] . فكان أبو سعيد ﷺ يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ : [النساء : ٤٠] . فيقول الله تبارك وتعالى : شفعت الملائكة وشفعت الأنبياء فلم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يفعلوا خيراً قط إلا التوحيد قد عادوا فحماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منه كما تخرج الحبة من حميل السيل فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم ، فيعرفهم أهل الجنة ، فيقولون : هؤلاء عتقاءِ الله أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه . فيقال لهم : ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم ، فيقولون : ربنا قد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين ، فيقول الله تباك وتعالى : ولكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : وأي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً » رواه البخاري ومسلم رحمهما الله .

رضاك خير من الدنيا وما فيها | يا منية القلب قاصيها ودانيها
وما ذكرتك إلا همت من طرب | كأنّ ذكرك ألحان أغانيها
وحق حبك ما قصدي الديار ولا الـ | أموال من عرض الدنيا فأفنيها
فنظرة منك يا سؤلي ويا أملي | أشهى إليّ من الدنيا وما فيها
وليس للنفس آمال تؤملها | سوى رضاك فذا أقصى أمانيها

وفي الخبر : « إن الله تبارك وتعالى يشفع آدم يوم القيامة من جميع ذريته في ألف ألف وعشرة آلاف ألف » .

[وروى] جابر بن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » . قال جابر : فمن لم يكن من أهل الكبائر فما له وللشفاعة ؟ يعني لا يحتاج إلى الشفاعة .

يا من شفاعته تنجي العصاة غداً | من العذاب الأليم الراتع الشرر
أنت النبي الشفيع المستضاء به | يوم القيامة يوم الروع والحذر
فاشفع لنا عند رب العرش خالقنا | يا سيد الخلق من أنثى ومن ذكر

[وفي الخبر] : « أن أعرابياً قال : يا رسول الله من يلي حساب الخلق ؟ فقال : الله تبارك وتعالى . قال هو بنفسه ؟ قال : نعم فتبسم الأعرابي . فقال رسول الله ﷺ : مم ضحكت يا أعرابي ؟ فقال : إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح ، فقال رسول الله ﷺ : صدق الأعرابي ألا لا كريم أكرم من الله هو أكرم الأكرمين » ثم قال الأعرابي :

إن الكريم إذا تعين حقه | عند امرىء أعفاه من تكرما
ويسامح الجاني ويغفر ذنبه | ويكون حقاً قد أساء وأجرما

وفي الخبر المشهور : « إن الله تبارك وتعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي » ، ويروى : « إنه إذا كان يوم القيامة أخرج الله تبارك وتعالى كتاباً من تحت العرش في مكتوب : إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثل أهل الجنة » :

ذنوبي كثير ما أطيق احتمالها | وعفوك عن ذنبي أجل وأكبر
وقد وسعتني رحمة منك ههنا | وإني لها يوم القيامة أفقر

[وروي] أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ : [آل عمران : ١٠٣] . فقال الأعرابي : والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها ،

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : خذوها من غير فقيه . وقيل : إن الله تعالى إذا أراد أن يستر عبده يوم القيامة ولا يفضحه على رؤوس الأشهاد فيعطيه كتابه بيمينه وهو مشحون بالسيئات وذلك العبد خائف مما في الكتاب لعلمه أن ذنوبه كثيرة فيقرأ في الوجه الذي فيه السيئات سراً ويقول في نفسه : سبحان الله ليس لي حسنة واحدة . وتقول الخلائق سبحان الله ليس في كتاب هذا العبد سيئة واحدة ، فإذا فرغ من قراءته سراً يقول الله تبارك وتعالى : عبدي هذه حسناتك في ظهر كتابك أظهرتها لخلقي وسترت عنهم سيئاتك في الدنيا والآخرة يا ملائكتي امضوا به إلى الجنة بعفوي ورحمتي :

يا من له ستر عليّ جميل ... هل لي إليك إذا اعتذرت قبول
أبديتني ورحمتني وسترتني ... كرماً فأنت لمن رجاك كفيل
وعصيت ثم رأيت عفوك واسعاً ... وعليّ سترك دائماً مسدول
فلك المحامد والمحاسن والثنا ... يا من هو المقصود والمسؤول

[وعن أنس بن مالك ﷺ] : « إن رسول الله ﷺ سأل ربه في ذنوب أمته فقال : يا رب اجعل حسابهم إليّ لئلا يطلع على مساويهم غيري ، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه هم أمتك وأنا أرحم بهم منك فلا أجعل حسابهم إلى غيري لئلا ينظر في مساويهم أحد غيري » :

يا من له علم الغيوب ووصفه ... ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى ... كرماً فليس عليه ثم جناح
فلك التفضل والتكرم والرضا ... أنت الكريم الواهب الفتاح

[وعن معاوية بن قرة] قال : قال ابن مسعود ﷺ : أربع آيات في سورة النساء خير لهذه الأمة من الدنيا وما فيها ، قوله عزّ وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ : [النساء : ٤٨] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] وقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ : [النساء : ٣١] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ : [النساء : ١١٠] .

[وقال أبو غالب] : كنت أختلف إلى أبي أمامة بالشام فدخلت على مريض من جيرانه ، وهو يعاتبه ويقول له : يا ظالماً نفسه ألم آمرك ألم أنهك . فقال الفتى : يا عماه لو أن الله تعالى دفعني إلى والدتي وجعل أمري إليها ما كانت صانعة بي ؟ قال : تدخلك الجنة . قال : فإن الله

تعالى أرحم بي من والدتي ثم قبض الفتى فدخل معه عمه القبر يلحده ، فلما سوّاه صاح وفزع ، فقلت له : ما لك ؟ قال : فسح له في قبره وملىء نوراً . وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قدم على رسول الله ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي تسعى ، وقد وجدت صبياً في السبي فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله ، فقال : الله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها » رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما :

لم لا نرجي العفو من ربنا — أم كيف لا نطمع في حلمه

وفي الصحيحين أتى أنه — بعبده أرحم من أمه

[إخواني] : إذا كان الحق سبحانه وتعالى أرحم بالعبد من أمه فكيف لا يقبل العبد على طاعته ويقلع عن معصيته ويقدم بين يديه ما يعود نفعه عليه . وقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ : [البقرة : ١١٠] .

قدم لنفسك خيرا ما دمت مالك مالك — واعدد جواباً سريعاً إذا سمعت سؤالك

فكل ما قد فعلته — تراه ثم ينالك

[وقال أبو بكر بن سليم الصواف رحمه الله] : دخلنا على مالك بن أنس ﷺ في العشية التي قبض فيها . فقلنا له : يا أبا عبد الله كيف تجدك ؟ قال : لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من لطف الله وعفوه ما لم يكن لكم في حساب ، فما برحنا من عنده حتى غمضناه .

[وقيل] : إن الله تعالى ألطف وأرحم ما يكون بعبده إذا نزل في لحده ووضع خشن التراب على لين خده ، وجفاه من كان يرغب في قربه ووده فإذا وضع الميت على المغتسل أولاً وجرد من ثيابه وأيس من أحبابه فينادي : واسوأتاه وافضيحتاه ولا يسمع نداءه غير مولاه فيجيبه الحق سبحانه تعالى ويقول : عبدي أنال سترتك في الدنيا وأنا أسترك في الآخرة .

يا من له الستر الجميل على الورى — ويجود بالإفضال منه وبالقرى

أبديتني ورحمتني وسترتني — وهديتني لطفاً فكنت مقصرا

فارحم بعفوك زلتي يا سيدي — ومصون وجه في التراب معفرا

فإذا أخرج الميت من الدار وحمل على النعش فإنه يصيح : واغربتاه فيقول الله سبحانه وتعالى : يا عبدي إن كنت اليوم غريباً فإني منك لا زلت قريباً ، يا عبدي لا تخف فإني مقيل عثرتك وراحم غربتك ومؤنس وحدتك :

يا راحم الغرباء يا من جوده — قد عمني يا مؤنسي في وحدتي

أمسيت من أهلي غريباً مفرداً ولأنت يا مولاي راحم غربتي

فإذا أنزلوه في لحده ووضعوا على خشن التراب لين خده ، ثم تركوه وانصرفوا ، ومضوا عنه وانحرفوا فيصيح : واوحدتاه ، فيناديه الرب الكريم الرؤوف الرحيم : عبدي عليّ تستوحش وأنا أنيسك هل تشتكي الوحدة وأنا جليسك ، يا عبدي ألست بربك ؟ فيقول : بلى يا رب فيقول : يا عبدي كيف تركت ما أمرتك به واتبعت ما نهيتك عنه ، أما علمت أن مرجعك إليّ ن وأعمالك معروضة بين يديّ ، أنسيت عهدي أم أنكرت وعيدي ووعدي ، فالآن تخلى عنك الصاحب والصديق ، وتجردت عن المال الوثيق ، فلا المال نفعك في مآلك ، ولا الصديق خلصك من قبيح أفعالك ، فما حجتك وما معذرتك ؟ فيقول : يا رب احتوى قلبي على حب الدنيا وحب المال فحملاني على الذنوب والأثقال ، وها أنا قد صرت في جوارك ، وأنا الليلة ضيفك فلا تعذبني بنارك وإن لم ترحمني فمن يرحمني ؟ فيقول الله تعالى : يا عبدي مضوا عنك وتركوك ، ولو أقاموا عندك ما نفعوك ، وإلى بابي وجهوك وعلى كرمي خلفوك ، يا عبدي طب نفساً وقرّ عيناً فأنت الليلة ضيفي والكريم لا يخيب ضيفه ، يا ملائكتي أحسنوا في ضيافته ، وكونوا عليه أشفق من أهله وقرابته :

إذا ما الموت في جسمي السقيم سرى وأتى على عظمي الرميم وبتّ مجاور الرب الرحيم

فقولوا لي وقد وافى نعيمي لك البشرى قدمت على كريم

تولى العمر واقترب الرحيل وزادي للتقى زاد قليل وفي لحدي إذا حان النزول

فهنوني أحبائي وقولوا لك البشرى قدمت على كريم

[وعن أبي هريرة ﷺ] أن رسول الله ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم » رواه ابن ماجه ﷺ . وقيل : إن موسى ﷺ قال في مناجاته : يا رب ، فقال الله تعالى : لبيك يا موسى ، فقال موسى ﷺ : يا رب أنت أنت فمن أنا حتى أجاب بالتلبية ؟ فقال : يا موسى إني آليت على نفسي أن لا يدعوني عبد من عبادي بالربوبية إلا أجبته بالتلبية . فقال موسى : يا رب هذا لكل عبد طائع ؟ قال : ولكل عبد مذنب ، قال : يا رب أما الطائع فبطاعته فما بال المذنب ؟ فقال الله تعالى : يا موسى إني إذا جازيت المحسن بإحسانه ومنعت المسيء لإساءته فأين جودي وكرمي ؟ :

تعصي وتجهر بالعصيان إعلاناً وأستر الذنب إنعاماً وإحسانا

ولا أجازي مسيئاً بالفعل ولا أجزي الذي تاه عصياناً وعدوانا

ومـن أتـى تائبـاً بالـذل منكسـراً نعطيـه مـن فضـلنا عفـواً وغفرانـا

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ : أن ولياً من أوليائي قد مات في أرض كذا فاذهب إليه وغسله وكفنه وصلّ عليه وواره تحت التراب فهو جارك في الجنة ، فأتى موسى ﷺ فوجده ميتاً في خربة وليس عنده أحد ولا يملك شيئاً في الدنيا والناس يثنون عليه شراً ويصفونه بكل فسق وعصيان فغسله موسى وكفنه وصلى عليه ودفنه ، وقال : يا رب إني امتثلت ما أمرتني به في حق هذا الميت والناس يثنون عليه شراً ويصفونه بكل قبيح ، فقال الله تعالى : يا موسى صدق عبادي ، وأنا أعلم منه بما لا يعلمون ، ولكن لما دنت وفاته ناجاني بخمس كلمات وقد غفرت له بها . فقال موسى : يا رب وما هن الكلمات ؟ قال : يا موسى الكلمة الأولى قال : يـا رب أنـت تعلـم أني أحب الصالحين وإن لم أكن صالحاً . والثانية قال : يـا رب أنـت تعلـم أني أبغـض الفاسـقين وإن كنت فاسقاً . والثالثة قال : يا رب لو أعلم أن دخولي الجنة ينقص مـن ملكـك شـيئاً لمـا سـألتك جنتك . الرابعة قال : يا رب لو أعلم أن دخولي النار يزيد في ملكك شيئاً ما سألتك الجيرة منـها . والخامسة قال : يا رب إن لم ترحمني أنت فمن يرحمني ؟ فرحمته يا موسى ، أفكان يليق بكرمـي أن أرده خائباً وقد تكلم بهذه الكلمات فعفوت عنه وغفرت له وأنا الغفور الرحيم :

فكـم لبيـت عبـدي إذا دعـاني وراعيـت الـوداد ومـا رعـاني
أنا المرخي السـتور علـى المعاصي علـى عبـدي الجسـور إذا عصـاني
أيجمـل بي إذا العاصـي أتـاني وعاتـب نفسـه فيمـا جفـاني
وجـدّد توبـة منـه وأبـدى تضـرعه بـدمع منـه قـاني
أقنطـه وأمنعـه جنـاني وقـد وافى كئيـب القلـب عـاني
فكـم أعـددت للتـوّاب عنـدي مـن الخـيرات في غـرف الجنـان
وإن نـاداني العاصـي بسـرّ وإخـلاص حـوى كـل المعـاني
ومـن يطـع الرسـول ينـال عـزاً ويحظـى بالمسـرة والأمـاني
شـفيع المـذنبين رسـول حـق مـن قـد خـص بالسـبع المثـاني
عليـه مـن المهـيمن كـل وقـت صـلاة مـا تـثنى غصـن بـان

اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل ولا تذلنا يا ملك يا حق يا مبين واجعلنا من عبادك المفلحين برحمتك يا أرحم الراحمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المحتويات


تم بحمد الله